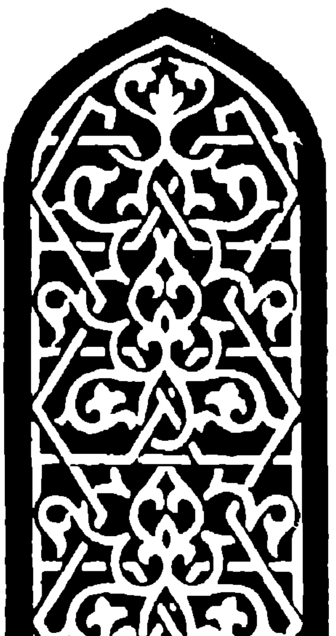
جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

مساجد مصر وأولياؤها الصالحون

الجزء الرابع

الدكتورة سعاد ماهر محمد



مساجد مصر

وأولياؤها الصالحون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين
والصّلاةُ والسّلام على سيدنا
محمّد صلى الله عليه وسلم
وعلى آله وصحبه أجمعين

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا وامنحنا العون حتى نقيم بالجزء الرابع من هذا الكتاب أثراً يوضح آثار الأبرار . وعملا صالحًا يباركه ذكر الصالحين الأخيار الذين يَسّر الله لهم فأقاموا هذه المساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ، عبادة ودراسة وتقربًا وتنويرًا ، فلهم من الله أحسن الجزاء ومنا أطيب الثناء .

المماليك الشراكسة

(٧٨٤ - ٩٢٣هـ)

(١٣٨٢ - ١٥١٧م)

تختلف دول المماليك الشراكسة عن البحرية فى أمرين : الأول الجنس ، فقد كان سلاطين دولة الشراكسة جميعا من الجنس الشركسى عدا اثنين منهم كانا من أصل أفريقى ، الأمر الثانى هو انعدام نظام الوراثة كما كان الحال فى أسرة قلاوون ، فقد كان السلطان بمثابة رئيس المماليك أو زعيم الأمراء أكثر منه ملك بالمعنى المفهوم فى الشرق ، إذ أن المماليك هم الذين ينتخبونه وتعتمد سلطته اعتمادا كليا على قوة جيشه ومهارته الحربية ، كما أن سياسته وحذقه ومدى اعتماده على نفسه وكبحه جماح المماليك المتنافرة تؤثر إلى حد كبير فى نجاحه أو فشله .

وعند وفاة السلطان يكوّن أتباعه حزبا لهم ، ويتسموا بلقب السلطان (مثل الأشرفية ، الناصرية ، المؤيدية ، الظاهرية) . وقد بلغ سلاطين هذه الدولة ٢٩ سلطانا ، ستة منهم حكموا مدة ١٠٣ من ١٣٤ سنة التى حكمت فيها دولة المماليك الشراكسة ، وتسعة وهم برقوق ، فرج ، المؤيد شيخ ، وبرسباى ، جقمق ، خشقدم ، قايتباى ، قنصوه الغورى حكموا مدة ٢٢ سنة ، أما باقى السلاطين ويبلغ عددهم ١٤ سلطانا فحكموا مدة ٩ سنوات .

وإلى هؤلاء التسعة يرجع الفضل فى إعلاء شأن دولة المماليك الشراكسة فى التاريخ ، فقد استطاع بعضهم أن يسيطر على زمام الحكم مدة ثمانى سنوات والبعض ١٦ سنة ، بل أن

منهم من استطاع أن يستمر فى الحكم ٢٦ عاما . ونستطيع أن نقدر ما كان عليه هؤلاء السلاطين من الكفاءة والقوة والبأس إذا علمنا أنهم لم يصلوا إلى كرسى السلطة إلا على أشلاء الأمراء المتنافسين والمماليك المتناحرين ، وعندئذ يتركون قيادة الجيش ، ولم يشذ عن هذه القاعدة غير السلطان فرج فقد كان قائدا مشهورا .

وقد عرف عن كثير من سلاطين هذه الدولة أمثال برقوق والمؤيد شيخ وجقمق وقايتباى حبهم للأدب ومجالسة رجال العلم ، وتمسكهم بأهداب دينهم ، بل لقد وصل التعصب الدينى ببعضهم إلى حد التزمت . وقد خلف سلاطين الشراكسة كثيراً من الآثار الباقية من مساجد ومستشفيات ومدارس وكليات مما يشهد لهم بالورع والتقوى وحبهم وتشجيعهم للعلم والعلماء .

وقد ذاقت مصر الأمرين من الثورات الدائمة بين المماليك من جراء التنافس على كرسى السلطنة ، ولم يهتم المماليك فى قليل أو كثير بأمر المصريين فقد كانوا أجانب عنهم . وقد بلغ جنود المماليك حدا من الفسق والفجور تعذر معه — حتى فى عهد برسباى أقوى السلاطين بأسا — على النساء أن يخرجن إلى الطرقات أو إلى حفلات الزواج كما حظر عليهن تشييع موتاهم وزيارة المقابر . وكان الفلاحون فى رعب من أن يتجروا فى محاصيلهم أو مواشيهم فى أسواق القاهرة خوفا من أن يستولى عليها المماليك أو تأخذها الحكومة بتسعيرة جبرية لتمون بها قصر السلطان ، فقد كان قصر برسباى يستهلك ١٢٠٠ رطل من اللحم يوميا .

وكانت الإدارة الحكومية فاسدة مختلة عديمة النفع وكان يتولى القضاء من يدفع ثمنا أكثر ، فقد كان شيخ الإسلام ورأس القضاء فى عهد المؤيد رجلا فارسيا من هرات لا يعرف العربية ، سرق أموال الأمانات ، ففصل بعد أن حوكم فى مسجد المؤيد . وحدث فى نفس الوقت فى مدينة الاسكندرية ، أن قبض جماعة الصيادين بها ، على نائب الحاكم الظالم وحلقوا له نصف وجهه ووضعوه على جمل يحيط به المغنون والموسيقيون وطافوا به المدينة ثم قتلوه ، أما الحاكم فقد أوقفوه عاريا أمام القاضى وقتلوه وكانت مثل هذه الحوادث نادرة الوقوع ، فقد كان على الشعب أن قاسى أصنافا من الظلم والعدوان دون

أن يتاح له الفرصة للانتقام . فكثيرا ما كانت تعم البلد الثورات وخاصة حيث يقطن البدو ، عند جمع الضرائب الفادحة وعند التجنيد للحرب ، وكثيرا ما يعقب الفوضى والاضطراب المجاعة وانتشار الأمراض . على أن هذه الثورات لم تكن تؤدى إلى أية نتيجة بل على العكس من ذلك فإن أثرها يكون وبالا على الشعب لما يلاقيه من التعذيب والتشرد، ويقال إن عدد السكان فى عهد السلطان فرج قد نقص حتى بلغ ثلث عددهم الأصلى .

وقد بلغت هذه الحالة ذروتها فى عهد السلطان مؤيد شيخ ، فعلى الرغم من أنه كان ورعا تقيا عالما محبا للشعر والموسيقى بسيطا فى مظهره ، وملبسه مجاملا للشعب ، فقد لبس البياض حداداً على ضحايا وباء الطاعون الذى اجتاح البلاد فى عهده ، كما كان خيِّرا قنوعا كريما ، فقد أنشأ مسجدا مكان السجن الذى كان محبوسا فيه بلغت تكاليف بنائه ٤٠٠٫٠٠٠ دينار ومستشفى وكثيرا من المعاهد ، وعلى الرغم من صفاته الحميدة هذه ، إلا أنه لم يكن محبوبا من الشعب وذلك لعدم حزمه وقدرته على تصريف الأمور . حقيقة أنه طرد الظالمين من الحكم ولكنه لم يستطع أن يحمى المظلومين . وقد وصل الجحود ونكران الجميل بأتباعه إلى حد أنه لما توفى لم يخرج أحد منهم لتشييعه ، بل إن أحداً منهم لم يهتم بإحضار كفنه إذ شغلهم عنه التطلع إلى من يلى العرش من بعده .

ومن سلاطين هذه الدولة السلطان خشقدم وهو من أصل إغريقى ، وقد رأى بثاقب فكره أن خير وسيلة لكسر شوكة المماليك ، هى أن يوغر صدور أحزابهم المختلفة لتتطاحن فيما بينها وليزيد فى منافساتهم حتى يضرب الواحد منهم بالآخر فكان يضرب الظاهرية بالأشرفية والناصرية بالمؤيدية ، ولكنه ترك الحبل على الغارب لمماليكه فقتلوا ونهبوا واقترفوا كثيراً من الآثام . وقد ازداد دخل الدولة فى عهده ببيع المناصب ، فقد دفع حاكم طرابلس ٤٥٫٠٠٠ دينار لكى يرقى ليتولى ولاية دمشق ، ودفع أمير آخر مبلغ ١٠٫٠٠٠دينار لكى يحل محله فى طرابلس ، أما صفد فقد بيعت بمبلغ ٤٠٠٠ دينار . ولم يقتصر الأمر على بيع المناصب بل تعداها ووصل إلى حد بيع منافس المماليك لهم ، فقد سلم وزير لأعدائه فى مقابل ٧٥٫٠٠٠ دينار فعذبوه حتى مات . وفى بعض الأحيان كان السلطان يدعو أحد الأمراء الأغنياء ، وقبل انتهاء الوليمة يجبر الضحية على دفع مبلغ كفدية .

وعلى الرغم من كراهية بعض أحزاب المماليك لبعضهم الآخر ، ورغم المنافسات والمؤامرات التي دبرت والحروب الأهلية التي شنت ، فإنهم كانوا متحدين اتحادا تاما أمام أعدائهم أو الأجانب عنهم . وقد كان النزاع والخلاف الذى يحدث بين الأحزاب المختلفة سببا فى تعكير صفو الآداة الحكومية ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يخلق فى المماليك روحا مستقلة ، روح الجندى الشجاع القوى ، فاستطاعوا أن يحتفظوا بملك مصر ومعظم سوريا مدة قرن وثلث من الزمان ، كما تمكنوا من صد الغزوات والا [illegible] التي تعرضت لها البلاد فى عهدهم . فقد تغلبوا على تيمور الذى هابته كل آسيا وانتصروا عليه . فقد تخلص برقوق (سنة ١٣٨٢) من الطفل (حاجى) آخر سلاطين دولة المماليك البحرية دون أى مقاومة ونودى به سلطانا فى مصر وسوريا وقد حدث فى العام التالى أن دبرت مؤامرة لاغتياله وإجلاس الخليفة المتوكل على العرش على الرغم من فشل المؤامرة إلا أنه بدأ حكم إرهاب امتد أثره إلى شمال سوريا ، فثارت البلاد بزعامة (منطاش) صاحب ملطية و (يلبغا) صاحب حلب يعاونهما المغول والتركمان على الحدود الشمالية ، فاستطاعوا أن يهزموا جيوش السلطان واستولوا على دمشق ثم تقدموا إلى القاهرة .

واجتاحت الثورة القاهرة وأصبحت مسرحا للسلب والنهب إلى أن أعيد إلى العرش الطفل (السلطان حاجى) . ولكن سرعان ما دب الخلاف بين (منطاش) و (يلبغا) اللذين تنافسا على السلطة ، فتحصن أحدهما فى مسجد السلطان حسن ، والآخر فى القلعة ، مما سهل الطريق للثورة التي كان برقوق يدبرها فى سوريا بعد أن استطاع الهرب من الكرك وكون جيشا هزم به أعداءه بالقرب من (سرخاد) ، وأسر حاجى والخليفة ودخل القاهرة منتصرا . وسر الشعب على اختلاف طبقاته المسلمون والمسيحيون واليهود ، وعمت الأفراح المدينة . وتنازل حاجى مرة ثانية عن العرش ، فعامله برقوق معاملة حسنة ، وأفرد له مسكنا فى القلعة فعاش هادئا حتى مات سنة ١٤١٢ . وقد أمضى برقوق السنتين التاليتين فى حرب لإخضاع الثورات التي قادها منطاش فى سوريا والتي انتهت بظهور تيمور الذى غزا بغداد سنة ١٣٩٣ واستولى على العراق سنة ١٣٩٤ ونشر الرعب والخوف فى البلاد ومنها ماردين التي تدين بالولاء لبرقوق ومن هنا جاء الاحتكاك المباشر بمصر .

وإزاء خطر تيمور كون برقوق جبهة لمواجهته مكونة من أمراء الشمال برهان الدين ، قرة يوسف زعيم قبيلة قرة قيون التركمانية ، وطوقتلمش خان القرن الذهبي ، وبايزيد سلطان العثمانيين . وبعد أن استولى تيمور على بغداد أرسل رسولا إلى القاهرة لعقد مفاوضات السلام ، ولكن برقوق خشى أن يكون الرسول جاسوسا فأمر بقتله واستقبل فى نفس الوقت السلطان أحمد ، سلطان بغداد المخلوع وعدو تيمور استقبالا ملكيا ، فما كان من تيمور إلا أن أرسل رسالة تهديد قابلها السلطان برقوق بمثلها ، وخرج الجيش المصرى إلى دمشق ثم إلى حلب ثم إلى البيرة على نهر الفرات ، ولكن تيمور كان مشغولا إذ ذاك بقتال طوقتمش فى جورجيا ، فعاد السلطان إلى القاهرة ثانية ثم قضى نحبه دون أن يشترك مع تيمور فى حرب ، وقد مات برقوق وهو فى سن الستين وقد كان حاكما قادرا عاقلا محسنا ، وإن كانت تغلب عليه فى بعض الأحيان شهوة الغضب والانتقام . كما اشتط فى جمع الضرائب فى بعض الأحيان ، وكان محبا للعلم فأسس كثيرا من المعاهد ، منها مدرسته التى تقع فى شارع بين القصرين ، أما مقبرته ذات القبتين فقد بناها له ابنه فرج ، الذى دفن فيها أيضا ، وتقع فى القرافة الشرقية .

وكان لبرقوق ثلاثة ذكور خلفه منهم ابنه الأكبر من زوجته الإغريقية الناصر فرج وكان اسمه فى الأصل (بلجاق) ومعناها مصيبة وذلك لأنه ولد أثناء الثورة التى قام بها منطاش ضد والده ، ولكنه سمى بعد ذلك (فرج) لما انتصر برقوق على الثوار ولم يكن فرج قد جاوز الثالثة عشرة من عمره عندما تولى الملك ، ولكنه سرعان ما قبض بحزم على زمام الحكم ، ففى نهاية سنة ١٤٠٠ م قاد الجيش بنفسه إلى سوريا لصد هجوم تيمور الذى استولى على حلب وأصبح يهدد دمشق ، وقد تمكن الجيش المصرى من طرد العدو فى بادئ الأمر ، ولكن يظهر أن هذا التراجع من جانب العدو كان خدعة ، لأنه عندما هجم الجيش عليه منى بالفشل ورد على أعقابه مما اضطر السلطان فرج للعودة مسرعا إلى القاهرة تاركا مصير الجيش فى يد الأقدار . فقد شعر بنشوب فتنة بين أمراء الجيش يقصدون من ورائها تغيير القائد بآخر أكثر دراية بفنون الحرب . فلم تلبث دمشق أن سلمت بشروط ولكن تيمور لم يتركها إلا بعد أن أحرقها وجعل منها ومن شمال

سوريا خرابا يبابا . وقد قبل فرج – بعد انتصار تيمور فى آسيا الصغرى ودحره للجيش العثمانى فى موقعة أنقرة – الشروط التى سبق أن أرسلها له تيمور مع الرسل كما أعاد إليه الأسرى بل إنه قبل أن يضرب عملة باسم الفاتح . على أننا لم نعثر على أية عملة من هذا القبيل كما لم تتح الفرصة لتيمور لدخول مصر أو الاستيلاء عليها . فقد توفى فى فبراير سنة ١٤٠٥ م بينما كان فرج يعد جيشا للدفاع عن استقلال بلاده ومقاومة طلبات تيمور المتزايدة .

وفى الفترة التالية كانت القاهرة مسرحا للفتن والاضطرابات لقيام أمراء المماليك بعضهم على بعض ومحاربة السلطان وهزيمته واختفائه من مسرح الحوادث . مما دعا إلى اعتلاء أخيه « عبد العزيز » العرش لمدة شهرين ، إلى أن استعاد فرج رباطة جأشه فرجع إلى عرشه بمساعدة الأمير يشبك . وقد كانت مدة حكم السلطان فرج من أتعس الأزمنة وأشقاها بالنسبة لمصر فكانت تارة تقاسى الضيق المالى من ضرائب السلطان الفادحة ، وأخرى من مهاجمة القراصنة الأوروبيين لسواحل الاسكندرية سنة ١٤٠٣ وسواحل طرابلس بسوريا سنة ١٤٠٤ وبيروت وصيدا ، كما رابط العثمانيون على الحدود الشمالية . على أن هذه الحالة لم تتغير كثيرا فى حكم السلاطين الخمسة الذين تولوا الملك بعده .

وقد اختير الخليفة المستعصم سلطانا كتدبير مؤقت قام به الشيخ نوروز ، ثم اعتزل الخليفة عرش السلطنة مختارا ، وتولاه شيخ باسم السلطان المؤيد . ومن الحوادث التى تعرضت لها السلطنة فى عهده الحروب التى قامت على الحدود الشمالية لإعادة حدود ولايات التركمان ، فقد استولى المؤيد سنة ١٤١٨ على طرسوس وخضع له جميع الامراء ، بل إن كرما سكت عملة باسم سلطان مصر ، ولكنه ما كاد يغادر هذه الولايات حتى احتلها التركمان فخرج لها ابنه إبراهيم سنة ١٤١٩ حتى وصل قيصرية وقونية ونجدا ، وسكت العملة باسم المؤيد وعين حكامها من بين أبناء التركمان . وقد استقبل إبراهيم فى القاهرة عند عودته بمظاهر الفرح والترحاب مما أثار حسد والده عليه وربما تخوفه منه فدس له السم (كما تقول الإشاعات) ومات فى العام التالى . على أن مصر لم تجن كثيرا من هذه الانتصارات إذ لم يستطع المؤيد أن يكبح جماح مماليكه وقاسى الشعب من ذلك الشئ الكثير .

وقد تولى السلطة بعده عدة أفراد لم تمتد مدة حكمهم طويلا فتولى بعده ابنه الطفل محمد وكان ططر نائبا عنه ، ثم أعقبه ططر ثم ابنه محمد الذى استمر حكمه بضعة أشهر وكان برسباى وصيا عليه ثم انتهى الأمر بتولى الوصى مقاليد الحكم كما هى العادة دائما .

لقد حكم الأشرف برسباى مصر مدة ستة عشر عاما كان فيها مثال الحزم وقوة الشكيمة مهاب الجانب ، فعلى الرغم من احتكاره للتجارة وقسوة حكومته وما اقترفه مماليكه من أعمال الوحشية والطغيان ، فإن أحدا لم يجرؤ على القيام بثورة بل على العكس من ذلك امتد نفوذه خارج أملاكه وذلك باستيلائه على جزيرة قبرص التى كثيرا ما اتخذها القراصنة الذين يشنون غاراتهم على السواحل المصرية والسورية قاعدة لهم . فقد حدث فى سنة ١٤٢٤ أن أبحر بعض المتطوعين بسفنهم من دمياط وبولاق وطرابلس إلى قبرص وهاجموا مدينة لامسول ورجعوا محملين بالغنائم والأسرى ، وقد شجع هذا النجاح السلطان على إعداد أسطول مكون من ٤٠ مركبا فى العام التالى لمهاجمة قبرص ، وقد استطاع أمير الأسطول الاستيلاء على الموانى وأسر ١٠٠٠ وأحضر كثيرا من الغنائم إلى القاهرة . ولكن برسباى لم يقنع بهذا النصر السريع وصمم على احتلال الجزيرة ، فجهز فى العام التالى أسطولا مكونا اسما من المماليك ولكنه فى الحقيقة من المتطوعين ومن البدو . واشتبك الفريقان فى موقعة فى مدينة كروكيتيم انتصر فيها المماليك وأسروا الملك جيمس ملك قبرص وكثيرا من قواده قبل أن يأتى الأسطول القبرصى لنجدتهم ثم سقطت بعد ذلك نيقوسيا وبذلك خضعت الجزيرة جميعها . ورجع الأسطول المصرى منتصرا مظفرا بعد هذه المعركة القصيرة ، فقابلته القاهرة بمظاهر الفرح والابتهاج وسارت مواكب النصر حاملة التاج والأعلام وبينها الأسرى فى الشوارع . وسيق الملك جيمس حاسر الرأس مكبلا بالأغلال الحديدية إلى القلعة فمثل بين يدى السلطان الذى كانت تحيط به حاشيته والسفراء الأجانب ، فلما قبّل الأرض بين يدى برسباى خر مغشيا عليه . وبعد دفع مبلغ ١٠٠٫٠٠٠ دينار كفدية عاد إلى قبرص ، ومنذ ذلك الوقت ظلت قبرص تدفع الجزية لمصر حتى آخر الدولة المملوكية .

وقد شجعت الانتصارات التى أحرزها برسباى فى قبرص السلطان جقمق ، فجهز حملة للاستيلاء على رودس ، خرجت من بولاق تزخر بالمتطوعين ولكنها منيت بالفشل . وقد أعيدت محاولة فتح مصر لرودس مرة أخرى فخرجت حملة ثانية من بولاق (سنة ١٤٤٤) فيها ١٠٠ من مماليك السلطان و (١٨) ألف من المتطوعين ونزلوا إلى البر ونهبوا القرى ، وبعد حصار دام أربعين يوما يئسوا من النصر وعادوا إلى القاهرة .

وتوفى برسباى غير مأسوف عليه ، فقد كان حاكما قاسيا جشعا غشوما . فعلى الرغم من الهدوء الذى ساد البلاد فى عهده لم يجن الشعب خيرا كثيرا ، لقد سر المماليك بفتح قبرص وأثرى التجار من إحتكار التجارة ، أما الشعب فقد لاقى من وراء هذا أو ذاك الأمرّين . ويقول المقريزى « إن مصر وسوريا أصبحتا صحراء مقفرة فى عهده » .

وقد خلفه ابنه العزيز يوسف وكان يبلغ من العمر إذ ذاك أربع عشرة سنة وتولى الوصاية عليه جقمق (نظام الملك) الذى كان من مماليك برقوق ثم ارتقى إلى رتبة ضابط فى عهد المؤيد وتدرج فى الرتب العسكرية فى عهد ططر إلى أن وصل مرتبة الوزارة فى عهد برسباى . وتعد وزارته من أحسن الوزارات إذا قورنت بما سبقها ، أما أخلاقه الشخصية فكانت مثلا يحتذى ، فاهتدى بهدى القرآن وسار على تعاليمه واجتنب نواهيه فلم يأكل ما حرم الله ، وامتنع عن شرب الخمر وجانب مجالس الطرب غير البرئ . وكان مثل برسباى يجيد العربية والتركية ودرس علوم الفقه والشريعة وكان يحب مجالس العلم والعلماء ، وتوفى فى سن الثمانين .

وتولى السلطنة بعده ابنه المنصور عثمان وما كاد يستقر على كرسيه مدة شهر ونصف حتى خلعه الأشرف إينال وكان جاهلا إلى حد أنه لم يستطع كتابة اسمه ، وبعد حكمه فاشلا محزنا وذلك لما اقترفه مماليكه من أعمال العنف والقسوة والفساد . وتولى بعده ابنه أحمد المؤيد وكان فاضلا مستقيما ، ولما رفض الطلبات التى اتسمت بالشطط والتى طلبها مماليك قصره ثاروا عليه فاستقال وعين الظاهر خشقدم الذى اشتهر حكمه بالرشوة والفساد وتولى بعده ابنه الظاهر يلباى المعروف بالمجنون وخلع كما هى العادة بعد شهرين وحل محله الظاهر تيمور بغا وكان رجلا مثقفا ، متفقها فى علوم الفلسفة والتاريخ والفقه ولم يقبل السلطنة إلا مكرها .

وقد بدأ حكمه بالإفراج عن جميع المسجونين من الأمراء والسلاطين المعزولين مثل السلطان أحمد والسلطان عثمان وعمل على فض المنازعات بين الأحزاب المختلفة ، ولو أن تيمور بغا ملك الوسائل التى يرضى بها الأحزاب السنية التى حوله لاحتفظ بمركزه ، لكن الخزانة كانت خاوية فانفضوا من حوله ونادوا بواحد منهم يدعى خير بك سلطانا ولقبوه بالعادل . وكان هم خير بك بعد توليته كرسى السلطنة اغتصاب حريم السلطان السابق . ولكن المماليك ثاروا عليه وخلعوه وولوا بدله أميرا قويا هو قايتباى الذى أكرم تيمور بغا ومنحه مسكنا فى دمياط .

ويعد حكم السلطان قايتباى من أطول عهود دولة المماليك بعد عهد الناصر بن قلاوون فقد حكم مدة تسعة وعشرين عاما ، فهو بحق أقدر وأشجع سلاطين دولة المماليك الشراكسة وقد سلك فى صغره نفس الطريق الذى سلكه كافة المماليك فقد اشتراه برسباى بخمسة وعشرين جنيها ثم بيع لجقمق وبدأ يرتقى فى سلك العسكرية فى عهد إينال وخشقدم حتى أصبح قائد الجيوش فى عهد تيموربغا وكان فارسا ممتازا . وقد أكسبته حياته السابقة التى قضاها متنقلا بين مختلف وظائف الدولة ، خبرة ساعدته على إدارة شئون الحكم بحنكة ودراية ، كما أن حزمه وشجاعته جعلاه مهاب الجانب من باقى أحزاب المماليك المتشاحنة. وكان قوى البنية فكثيرا ما ضرب بنفسه رئيس الخزينة ، أو كبار موظفى الدولة عندما يتبين اختلاسهم لأموال الدولة ، وكان يلجأ إلى فرض ضرائب جديدة غير ضريبة الأرض لاختلال أحوال البلد المالية ولحاجته الشديدة للأموال لإنفاقها على الحروب التى قام بها .

وبرغم قسوته وظلمه أحيانا ، إلا أنه ترك كثيرا من الآثار والأعمال العظيمة ليس فى مصر فحسب بل فى سوريا وبلاد العرب أيضا ، فجامعه بالقاهرة وكذلك الوكالات التى كانت محطا للقوافل والتجار التى تعد من أروع الآثار فى العمارة الإسلامية . كما أصلح كثيرا من آثار أسلافه المتداعية كما يثبت ذلك الكتابات التى بالمساجد والمدارس والقلاع. وكان قايتباى مولعا بالسفر فسافر إلى سورية وبلاد العراق وحج إلى مكة وبيت المقدس ، وفى الداخل ذهب إلى الدلتا والصعيد ، وفى كل جهة من هذه الجهات كان يترك له أثرا

من تمهيد الطرق أو إقامة قناطر ، أو إنشاء جامع أو مدرسة وغيرها من الاستحكامات التي تقتضيها حاجة البلد. وليس هناك ما يفوق عصر قايتباى فى دولة المماليك من الناحية المعمارية الفنية غير عصر الناصر محمد بن قلاوون . حقيقة إن الشعب قاسى الكثير فى سبيل إنشاء مثل هذه العمائر ولكنها خلدته .

ولم تكن إقامة هذه العمائر لتشغل قايتباى عن باقى أمور الدولة الخارجية فقد كانت الحدود الشمالية لسوريا دائما شوكة فى جنب سلاطين المماليك ، وذلك لأن قيام أهالى هذه الجهة بثورة أو اضطراب كان يخشى معه تدخل دولة العثمانيين المتاخمة التى توجت سلطانها وقوتها باستيلائها على القسطنطينية . فقد احتفلت القاهرة احتفالا عظيما بسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ فى أيدى العثمانيين عندما جاءهم رسول السلطان محمد الثانى ، ومع ذلك فقد أرسل السلطان جيشا لاسترجاع طرسوس وإذنه من إبراهيم أمير كرمان .

وقد وجهت هذه الحروب الصغيرة والمناوشات التى قامت على الحدود الشمالية ، نظر سلاطين مصر إلى خطر ازدياد قوة الباب العالى وتدخله فى الولايات الشمالية والتى ستكون حتما مثار النزاع والحرب بين الدولتين فيما بعد .

وكانت الأيام الأخيرة من حكم قايتباى ملبدة بغيوم ليس فقط بسبب الضرائب الفادحة التى استنزفتها الحروب ولكن لانتشار وباء الطاعون ، فقد مات فى يوم واحد إثنا عشر ألفا فى القاهرة ، وفقد السلطان زوجته الوحيدة وابنته فى نفس اليوم . وقد أعقب هذا انتشار الطاعون فى المواشى وقضى عليها فشحت الأقوات . ومن أهم الأحداث التى رزئت بها نهاية حكم قايتباى تلك المنازعات التى قامت بين المماليك . فكانت القلعة مشهدا دائما للقتال والهياج . ولما رأى قايتباى ذلك وكان قد بلغ أكثر من ثمانين عاما لزم الفراش ، رغبة فى أن يكون ابنه سلطانا من بعده ، ومات بعد ذلك بيوم واحد .

وتولى ابنه كرسى السلطنة لفترة قصيرة إذ كان قاسيا خليعا تولى بعده الناصر محمد (من ٧ أغسطس ١٤٩٦ إلى ٣١ أكتوبر ١٤٩٨) ثم الظاهر قنصوه (٢ نوفمبر سنة ١٤٩٨ إلى يونية سنة ١٥٠٠) ثم الأشرف جنبلاط (٣٠ يونية سنة ١٥٠٠ إلى ٢٥ يناير سنة

١٥٠١) الذين كانوا جميعا تحت رحمة ثورة وهياج مماليك الأشرف قنصوه الغورى ، ذلك الرجل القوى المحنك الذى يبلغ من العمر ستين عاما .

وجلس قنصوه الغورى على عرش السلطنة وقبض على زمام الحكم وأعاد النظام والأمن إلى العاصمة بعد أن وضع السلطة فى يد أناس يثق فيهم ويطمئن لإخلاصهم . وبدأ منذ اللحظة الأولى فى ملء خزانة الدولة الخاوية ، وذلك بفرض الضرائب والإتاوات على جميع طبقات الشعب ، وكانت نسبتها تبلغ ما يساوى دخل مدة تتراوح بين سبعة أشهر أو عشرة ، ولم يستثن من ذلك أملاك الوقف والخيرات كما أنقص قيمة العملة مما أضر بالتجار ولكنه ملأ خزائن الدولة .

وبرغم ما كان يقاسيه الشعب من الفقر والعوز ، فإنه كان يصرف بسخاء على مماليكه الذين زاد عددهم بالشراء ، كما أنفق كثيرا من المال على الإصلاحات والمنشآت العامة ، فقد بنى مدرسة وقبة ومجموعة من المبانى بالقاهرة بالحى المسمى باسمه « الغورية » وكذلك أصلح طريق الحجاج إلى مكة فأقام محطات للاستراحة وحفر الآبار وحصن مدينة الاسكندرية ورشيد وأصلح مبانى القلعة . كذلك كان بلاط السلطان مضرب الأمثال من حيث الفخامة فى الأثاث والرياش ، وما احتشد به من الخيول . ومع أن السلطان كان قاسيا غليظ القلب مع الفقراء واليتامى إلا أنه كان يغدق على الشعراء والمغنيين دون حساب .

ولم يعكر صفو الأيام الأولى من حكمه سوى بعض الاضطرابات التى قام بها المماليك والبدو . أما ما تعرضت له البلاد من أخطار فى ذلك الوقت فهو ظهور منافس لمصر هدد الطريق التجارى إلى الهند الذى يدر عليها أموالا طائلة فقد اكتشف « فاسكودى جاما » طريق رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٧ واتخذ البرتغاليون مدينة كلكتا قاعدة لهم سنة ١٥٠٠ وبذلك انتقلت التجارة التى كانت تذهب لمصر عن طريق عدن وجدة وسواكن تحولت إلى رأس الرجاءِ الصالح ومنها إلى أوروبا . كما هاجم البرتغاليون سفن مصر التجارية ، واستنجد ملك الهند وباقى أمراء جنوب شبه الجزيرة العربية بالغورى ، فلجأ إلى السياسة فبدأ بتهديد البابا بتدمير الأماكن المقدسة بفلسطين إذا لم يوقف اعتداء

المسيحيين على المسلمين سواء فى الغرب أو الشرق ، ولكن الأوربيون لم يهتموا بهذا التهديد مما اضطر الغورى لبناء أسطول بحرى هزم البرتغاليين وقتل قائد أسطولهم « لورنزو الأميدى» وقد انتقم البرتغاليون فى العام التالى لهزيمتهم من الأسطول المصرى إنتقاما مروعا عند مدينة ديو ، وفى عام ١٥١٣ أخذ « الفرنسو البوكرك» عدن وحاقت المصائب بالجيوش المصرية ففقدت مصر سيطرتها على التجارة الهندية وفى نفس الوقت أفل نجم الدولة المملوكية .

لقد تولى سلطنة الدولة العثمانية سليم الأول سنة ١٥١٢ بعد أبيه بايزيد الثانى وقد كان سليم على عكس والده ميالا للحرب فقد هزم الشاه إسماعيل أول ملوك الدولة الصفوية فى موقعة كالدران سنة ١٥١٤ ، ثم اتجه بعد ذلك إلى سوريا ومصر .

وفى مايو سنة ١٥١٦ خرج الغورى من القاهرة على رأس جيش كبير مجهز وتبعه خمسة عشر أميرا لألف وخمسة آلاف من مماليكه مع عامة الجيش وكان ينضم إليه أثناء المسير كثير من البدو والسوريين ، فدخل دمشق فى أبهة وعظمة ثم تقدم إلى حلب . فالتقى الجيشان فى مرج دابق شمال حلب ، وبرغم ما أبداه المماليك من الشجاعة فقد انهزم الجيش المصرى ويرجع السبب فى ذلك إلى خيانة خير بك الذى تمكن سليم من أن يضمه إليه ومعه الجناح الأيسر للجيش المصرى وإشاعة وفاة الغورى ، ففر باقى الجيش من الميدان بعد وفاة سلطانه .

وفى ٢٢ يناير سنة ١٥١٧ جاءت الجيوش التركية إلى مصر وهزمت الجيش المصرى خارج القاهرة وفى اليوم التالى أقيمت الصلاة باسم سليم فى جميع المساجد . وفى ٢٦ يناير جاء سليم بنفسه إلى القاهرة وبصحبته الخليفة الأسير ، وقضى نهائيا على مقاومة المماليك وقد غدر البدو الذين لجأ إليهم طومان باى - نائب السلطان بمصر - به وأسلموه إلى سليم الذى شنقه على باب زويلة .

وقد استصحب معه سليم عند عودته إلى القسطنطينية المتوكل آخر خلفاء العباسيين وسجنه وبقى على هذه الحال (سبتمبر سنة ١٥٢٠) عندما توفى سليم وخلفه سليمان العظيم فأطلق سراحه وأذن له بالعودة إلى القاهرة حيث مات سنة ١٥٣٨ بعد أن تنازل عن حقوقه ولقبه للسلطان التركى الذى أصبح خليفة المسلمين بعد وفاة المتوكل .

مميزات العمارة في عهد المماليك الشراكسة

لعل من أهم مميزات العمارة الدينية فى عهد المماليك الشراكسة هو صغر مساحتها خاصة تلك التى بنيت داخل أسوار مدينة القاهرة القديمة . وقد استتبع صغر مساحة المدرسة أو الخانقاة صغر حجم الإيوانات وخاصة الإيوانين الشمالى والجنوبى ، ومن ثم فقد أطلق عليهما فى ذلك الوقت - كما جاء فى الوقفيات والوثائق - اسم (السدلتين) أى الحنيتين أو الدخلتين . هذا بالإضافة إلى أن المدارس أصبحت فى عصر المماليك الشراكسة تقتصر على تدريس مذهبين فقط فلم يعد هناك حاجة إلى أربعة إيوانات فاقتصرت المدارس على إيوانين كبيرين إيوان القبلة والإيوان المقابل له ، واكتفى المعمار بعمل إيوانين صغيرين أشبه ما يكون بالحنية أو الدخلة عرفت باسم (السدلتين) .

كذلك أدى صغر مساحة المدرسة أو الخانقاة إلى صغر مساحة الصحن وقد استتبع ذلك تغطية الصحن بسقف خشبى عادة تتوسطه فتحة مثمنة الشكل عرفت باسم (الشخشيخة) وقد أعطى السقف الخشبى للصحن أهمية خاصة ، بحيث حرص المعمار إلى إحاطته بشريط من الكتابة بالخط الثلث المملوكى . وتبدأ هذه الكتابة عادة بنصوص قرآنية وتنتهى بالنص التذكارى الذى يسجل اسم منشئ الأثر وألقابه ووظائفه وتاريخ إنشاء الأثر .

كما حرص المعمار على فصل الصحن عن باقى الإيوانات فجعله منخفضا عنها بمقدار (٢٥, من المتر) عادة ومن ثم فقد جاء ذكره فى الوقفيات تحت اسم (الدر قاعة) وهو تعبير فارسى معناه الجزء المنخفض عن القاعة .

وقد أدى صغر مساحة الإيوانين الشمالى والجنوبى إلى كبر مساحة إيوان القبلة بحيث أصبح يشغل حائط القبلة كلها لا يشاركه فيها المدارس الجانبية التى يقيم فيها الطلاب أو خلاوى الصوفية فى الخانقاوات . وأصبحت الأبواب الأربعة التى توجد فى صحن المدرسة أو الخانقاة يكتنف الإيوانين الصغيرين أو (السدلتين) . وأصبحت الأبواب تؤدى إلى حجرة واحدة يعلوها أخرى أو فى كثير من الأحيان حنايا أو (كتبيات) وامتاز الإيوان الغربى المقابل لإيوان القبلة على احتوائه على حنية كبيرة وعميقة تتصدره تشغلها دكة مبلغ مصنوعة من الحجر أو الرخام ويندر أن تكون من الخشب . وترتكز دكة المبلغ على مساند (كوابيل أو كباش أو جرمدان) من الرخام على شكل مروحة عادة ، ويصعد لها من سلم خارجى خلف الإيوان .

كذلك امتازت عقود الإيوانات التى تحيط بالصحن بزخرفة خواصرها بنقوش نباتية دقيقة محفورة فى الحجر تشبه تلك التى نجدها على التحف المعدنية وخاصة الأبواب المصفحة التى اشتهر بها العصر المملوكى .

وقد استحدث فى آخر العصر المملوكى بناءُ أنواع من القباب استخدمت كاستراحات خلوية يتردد عليها للراحة والاستجمام أو للرياضة والنزهة ، وهى أشبه ما تكون بالمناظر والقباب الكثيرة التى أقامها الفواطم على أطراف مدينة القاهرة وفى المناطق الخلوية الجميلة التى وصفها المقريزى فقال : وهى مستشرف بهيج بديع يحيط بها عدة بساتين لكل بستان منهااسم ولها فرش معدة فى الشتاء والصيف ويركب إليها الخليفة يوم السبت والثلاثاء ».

ومن أحسن الأمثلة لهذه القباب التى استعملت للاستراحة والنزهة قباب يشبك بن مهدى بكوبرى القبة وميدان الفدوية بالعباسية .

ولعل من أهم المميزات المعمارية التى انفرد بها عصر المماليك الجراكسة هو المآذن المتعددة الرؤوس ، الذى يعتبر طراز مصرى لم تسبق إليه ، فقد حدثنا ابن كثير[1] عن

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٢٧

المآذن ذات الرؤوس المزدوجة عند ذكره مدرسة السلطان حسن فقال ، إن منارة السلطان حسن التى سقطت سنة ٧٦٢ هـ كانت ذات رأسين ومن ثم نستطيع القول بأن المآذن المتعددة الرؤوس قد ظهرت فى مصر منذ النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، إلا أنها شاعت فى مآذن القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للهجرة .

وإذا تتبعنا دراسة المآذن المتعددة الرؤوس نجد أن من أقدم أمثلة القرن التاسع الهجرى مئذنة جامع جنبلاط المجاور لباب النصر شمال مدينة القاهرة المعزية ، وكانت مزدوجة الرؤوس ، إلا أنها هدمت[1] (سنة ١١٢١ هـ ١٧٩٩ م) ويأتى بعد ذلك مدرستا قانى باى الرماح بالقلعة التى بنيت سنة ٩٠٨ هـ ، وقد سقطت مئذنتها ذات الرأسين وأعيد بناؤها على الأصل سنة (١٢٧٨ هـ ١٨٧٠ م) ومدرسته بحى الناصرية التى ما تزال تحتفظ بمئذنتها التى أنشئت سنة ٩١١ هـ[2] .

وتعتبر مئذنة مدرسة الغورى[3] أول مئذنة بنيت فى مصر وتحتوى على أربعة رؤوس، فقد جاء فى حجة وقفه ، أن فى طرفها الغربى مناراً يشتمل على ثلاثة أدوار يعلو الدور الثالث منها أربع خوذ وكل خوذة منها فى دور مستقل محمولة على أربعة دعائم وبكل خوذة ثلاثة صوارى برسم الثريات » .

كما يصف ابن اياس[4] مئذنة الغورى فيقول : « وصنع به مأذنته لها أربعة رؤوس وهو أول من اتخذ ذلك ، وحدث فى سنة ٩١١ هـ خلل وميل بهذه المئذنة وتشققت وآلت إلى السقوط بسبب ثقل علوها لكونها ذات أربعة رؤوس فهدمت وأعيد بناؤها وبنى عليها بالطوب وكسى بالقاشانى الأزرق وأبدلت الرؤوس الأربعة التى تسبب منها الخلل برأسين». وقد جددت لجنة حفظ الآثار العربية مئذنة الغورى وأعادت بناء القمة وجعلتها خمسة رؤوس بعد أن كانت رأسين .

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٣ ص ١٠٩

(٢) سامى عبد الحليم : آثار قانى باى الرماح ص ٣٧

(٣) محمد فهيم : مدرسة السلطان الغورى ص ٦٠

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٨٥

كما أقام الغورى مئذنة بالجامع الأزهر سنة ٩١٥ هـ تمتاز بسلمها المزدوج وهى تشبه فى ذلك مئذنة أزبك اليوسفى بحى طولون الذى أنشئ سنة ٩٠٠ هـ وكذا مئذنة جامع خاير بك[١] التى تحتوى على سلمين أحدهما بابه من السطح والثانى يفتح سقوطا على الطريق .

ولعل أهم المآذن ذات الرؤوس المزدوجة التى ظهرت خارج مدينة القاهرة ، مئذنة جامع الغمرى بميت غمر ، إلا أنها سقطت سنة ١٩٦٣ م وهى قائمة الآن بدون رؤوس ، وكذا مئذنة جامع مسجد العمرى بمدينة المنيا ذات الرأسين[٢] .

أما فى العصر العثمانى فلا نجد مآذن متعددة الرؤوس اللهم إلا مئذنة جامع محمد أبو الذهب بميدان الجامع الأزهر التى بنيت سنة (١١٨٨ هـ ١٧٧٤ م) فهى تشبه مئذنة الغورى فى تعدد رؤوسها إلا أنها تختلف عنها من حيث شكل الرؤوس ، إذ أن رؤوسها تشبه شكل (الزلع) .

---

(١) مصطفى نجيب : مدرسة خاير بك ص ٥٠٣
(٢) محمود أحمد : دليل الآثار العربية ص ١٧٩

مدرسة الأمير أسنبغا

سنة ٧٧٢هـ

أنشأ هذه المدرسة الأمير سيف الدين[١] اسنبغا بن بكتمر الأبوبكرى ، جلب إلى مصر فى عهد السلطان منصور قلاوون وتربى فى طباق القلعة ، وقد ظهرت مواهبه وهو فى سن مبكرة ، مما جعل السلطان يقربه منه ويضمه إلى بلاطه ، وقد احتجب اسنبغا فلم نسمع عنه شيئا فى المصادر أو كتب المؤرخين فى الفترة التى أعقبت قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وتنازع السلطة بين كبار المماليك السلطان منصور مثل زين الدين كتبغا ولاجين وبيبرس جاشنكير وما عاصر ذلك من حركة كروفر بالنسبة لكرسى السلطنة وللسلطان الناصر محمد بن قلاوون .

ويحدثنا عنه أبو المحاسن[٢] فيقول : كان الأمير سيف الدين اسنبغا بن بكتمر الأبوبكرى خصيصا عند الملك الناصر محمد بن قلاوون فأنعم عليه بإمرة طبلخاناة ، وهى من وظائف أرباب السيوف فى الدولة المملوكية وصاحبها يلى أمير مائة مقدم ألف التى سبق الإشارة إليها ، ومعنى أمير طبلخاناة ، أى الأمير الذى يحق له أن تدق الطبول على أبوابه كما يفعل للسلاطين وأمراء الميئين[٣].

وفى عهد السلطان حسن بن الناصر محمد بن قلاوون ، تولى الأمير أخوريه الكبرى مما يدل على قربه من السلطان وثقته فيه . ثم أخذ يترقى فى سلم الوظائف العسكرية حتى وصل إلى نيابة الاسكندرية ثم نيابة حلب .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩

(٢) أبو المحاسن : النجوم جـ ١١ ص ٣١٧

(٣) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢٣٩

ولكن أسعد أيام الأمير اسنبغا كانت فى عهد السلطان الملك الأشرف أبو المعالى زين الدين شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون الذى تولى عرش السلطنة سنة ٧٦٤ هـ . فقد كان الملك الأشرف ، كما يقول ابن اياس[1] ، من محاسن الزمان فى العدل والحلم وكان ملكا هينا لينا محبا للناس منقادا للشريعة ، يحب أهل العلم ويحسن إليهم ، وكان كثير البر والصدقات على الفقراء والمساكين ، وساس الناس فى أيام دولته أحسن سياسة ، واستمرت فترة حكمه أربعة عشر عاما ، وقد كان الأمير اسنبغا يلازم السلطان الأشرف ملازمة الظل ، وإليه يرجع الفضل فى حالة الاستقرار التى نعمت بها البلاد وما تمتعت به من أمن إذا ما قيست بالفترات الأخرى من حكم دولة المماليك . وكان الأمير اسنبغا يشغل وظيفة حجوبية الحجاب بديار مصر ، وهى من أرق وظائف الدولة المملوكية ، فقد كان صاحبها يقوم بالنظر فى مخاصمات الأجناد واختلافاتهم فى أمور الإقطاعات[2] ونحو ذلك .

ويضيف أبو المحاسن[3] فيقول : وقد طالت أيام الأمير اسنبغا فى السعادة وأظنه صاحب الأبوبكرية (أى المدرسة الأبوبكرية موضوع البحث) والله أعلم ، ولقد توفى فى يوم الأربعاء خامس محرم سنة ٧٧٧ هـ ، أى إنه توفى قبل وفاة السلطان بعام واحد .

ويحدثنا المقريزى عن مدرسة اسنبغا فيقول : تقع هذه المدرسة بجوار درب العباس قريبا من حارة الوزيرية بالقاهرة ، بناها الأمير سيف الدين اسنبغا بن الأمير سيف الدين بكتمر البوبكرى الناصرى ووقفها على الفقهاء الحنفية ، وبنى جوارها حوض ماء للسبيل وسقاية ومكتبا للأيتام وذلك سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة ، وبنى قبالتها جامعا فمات قبل إتمامه .

أما عن تاريخ حارة (حى) الوزيرية التى بنيت فيها المدرسة ، فيقول ابن عبد الظاهر أن الوزيرية منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس ، وكان يعقوب هذا يهوديا من أهل

---

(١) ابن إياس : جـ ١ ص ٢١٢

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٢١٩

(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ١١ ص ٢٣٨

بغداد ، خرج منها إلى الشام ثم فر إلى مصر فى عهد كافور الأخشيد . وقد أعجب كافور بيعقوب لما خبر فيه من الفطنة وحسن السياسة وقال لو كان هذا مسلما لصلح أن يكون وزيرا ، فلما بلغه هذا عن كافور ، تعلم شرائع الإسلام سرا ،.فلما كان فى شعبان سنة ست وخمسين وثلثمائة دخل إلى الجامع بمصر (أى جامع عمرو) وصلى صلاة الصبح وركب إلى كافور ومعه محمد بن عبد الله بن الخارن فخلع عليه كافور ، وقد أوغر هذا العمل صدر الوزير أبى الفضل جعفر بن الفرات فأخذ يدبر له المكايد ، فلما علم بذلك يعقوب ، فر هاربا من مصر إلى بلاد المغرب والتحق بخدمة المعز لدين الله الفاطمى فوقف منه موقفا حسنا ولم يزل فى خدمته حتى قدم من المغرب إلى القاهرة فولاه جمع الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة وكتب له بذلك سجلا قرئ يوم الجمعة على منبر جامع أحمد بن طولون وجلس يعقوب فى دار الإمارة بجامع ابن طولون ولما تولى الخليفة العزيز لدين الله بعد أبيه فوض ليعقوب النظر فى سائر أموره وجعله وزيرا سنة سبع وستين وثلثمائة ولقبه بالوزير الأجل ، فكان يعقوب بن كلس أول وزير فى العصر الفاطمى يوكل إليه تدبير أمور مصر والشام والحرمين وبلاد المغرب وكان عدد غلمان يعقوب بن كلس أربعة آلاف غلام عرفوا بالطائفة الوزيرية وإليهم تنسب الوزيرية فإنها كانت مساكنهم[1] .

ويعلل المقريزى السبب فى بناء اسنبغا مدرسته فى حارة الوزيرية ، إلى أنه كان يسكن دار بدر الدين طرنطاى المجاورة للمدرسة الحسابية تجاه سوق الجوارى ، وهى قريبة من حارة الوزيرية . ويضيف فيقول : ولما كانت سنة خمس عشرة وثمانمائة جدد بهذه المدرسة منبرا[2] وصار يقام بها الجمعة.

ويحدد على مبارك[3] موقع المدرسة حديثا فيقول: يقع هذا الجامع فى درب سعادة بجوار عطفة الفرن قرب دار أم حسين بك ، كان متخربا ثم جدد من طرف ذات العصمة والدة

---

(۱) المقريزى : الخطط ج ۲ ص ٥ – ٨

(۲) أنظر الجزء ۲ من مساجد مصر ص ١٣٥ للمؤلفة .

(۳) الخطط الجديدة ج ٥ ص ١٢٠

حسين بك ابن عبد العزيز محمد على سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف . وهو مقام الشعائر تام المنافع وله أوقاف تحت نظر بعض الأهالى ويعرف هذا الجامع أيضا بجامع الشرقاوى ، وكان أول أمره مدرسة تعرف بالبوبكرية .

ويضيف محمد رمزى[1] على ما تقدم بالنسبة لموقع المدرسة فيقول : لا تزال مدرسة اسنبغا الجميلة الصغيرة باقية إلى اليوم وتعرف باسم سنبو أغا تحريف اسنبغا ومشهور عند العامة بجامع الشرقاوى نسبة إلى خطيبه الشيخ محمد الشرقاوى الذى مكث يخطب فيه مدة طويلة ، فعرف به ، وهو عامر بإقامة الشعائر بشارع درب سعادة بالقاهرة ، ويواجه هذا الجامع مكان حوض للسبيل هو الآن دكان وبجواره السقاية ولا تزال محتفظة بشكلها الجميل وكان فيها حوض معد لسق الدواب . ويعلو هذا السبيل مكتب مركب على وجهه مشربية من أجمل المشربيات رسما وتركيبا .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١١ ص ٣١٧ .

الوصف المعمارى

الواجهة الرئيسية :

تقع الواجهة الرئيسية للمدرسة فى الضلع الشمالى الغربى ويبلغ طولها (٢٥) مترا يقسمها المدخل الرئيسى إلى قسمين متساويين تقريبا ، إذ يبلغ طول الجزء الشمالى من الواجهة (١١) مترا ، والجزء الجنوبى (١١ر٢٥) من المتر. ويبغل الجزء الشمالى من الواجهة وعلى بعد ثلاثة أمتار من المدخل ثلاث حنيات مسطحة يبلغ عمقها ٣٠ سم أوسطها أوسعها ، وبكل حنية يوجد نافذتان السفلى منهما مستطيلة الشكل ومملوءة بمصبعات حديدية والعليا تبدو من الخارج قنديلية الشكل ، أى أنها تتكون من فتحتين معقودتين يفصل بينهما عمود ويعلوهما دائرة ، أما من الداخل فهى نوافذ معقودة وقد ملئت من الداخل والخارج بزخارف جصية معشقة بالزجاج المتعدد الألوان ، وهذه النوافذ تكون نوافذ الإيوان الشمالى الغربى كما سنرى عند وصف المدرسة من الداخل .

ونلاحظ أن النوافذ القنديلية عقودها على شكل حدوة الفرس وأن النافذتين الجانبيتين ترتكزان عقودهما على عمود رخامى – تاجه على شكل رمانة وقاعدته على شكل ناقوس ، أما النافذة الوسطى فيرتكز عقداها على ثلاثة أعمدة رخامية مماثلة لأعمدة النافذتين الجانبيتين والسبب فى ذلك أن الحنية الوسطى أوسع من الحنيتين الجانبيتين وأن النافذتين السفلى والعليا اللتين تشغلهما أكبر من النوافذ الجانبية . ويحيط بالنوافذ القنديلية عقد حجرى ذو ثلاث فصوص .

ويعلو النوافذ القنديلية شريط عريض من الكتابة يمتد بطول الواجهة الرئيسية كلها . والكتابة محفورة فى الحجر ومكتوبة بالخط الثلث المملوكى وتتكون من البسملة ، ومن آية الكرسى وقد تلف أجزاء كثيرة منها . ويتوج طاقية الحنيات الثلاثة خمسة صفوف

من الدلايات فى وضع هندسى جميل يتخللها زخارف نباتية محورة بأسلوب (الأرابيسك) وكلها منحوتة فى الحجر ويعلو واجهة المدرسة كلها شرافات جميلة على شكل ورقة نباتية ذات ثلاثة فصوص .

ويشغل الجزء الجنوبى من الواجهة وعلى بعد ٨٠ سم من المدخل الرئيسى فتحة سعتها (٢ر٥) من المتر ـ كان يشغلها السبيل الذى حل محله الآن حانوت ما زال يحتفظ بسقفه الخشبى الجميل المزخرف برسوم زيتية ويحيط به صفان من المقرنصات الخشبية على شكل إطار . ويعلو هذا السبيل كتاب (كما هو العادة دائما) الذى يطل على الواجهة بفتحة ذات عقدين على شكل حدوة فرس ممتد يرتكزان على ثلاثة أعمدة رخامية وهى بذلك تشبه فى شكلها العام النوافذ القنديلية فى الجزء الشمالى من الواجهة ويملأ الجزء الأسفل من الفتحة خشب خريط بديع التكوين . ويعلو فتحة الكتاب شريط عريض به كتابة قرآنية السابق الإشارة إليها والذى يمتد بطول الواجهة كلها .

ويلى السبيل فى الجزء الجنوبى من الواجهة الرئيسية حوض لشرب الدواب تبلغ سعته (٣ر١٥) من المتر يتقدمه ساتر خشبى مزخرف بطريقة الخرط ويعلوه اوحة كتب عليها بالخط الثلث النص التالى (جدد هذا الحوض المبارك فى عصر الخديوى الأفخم عباس حلمى الثانى) ويعلو الحوض طابق ثان امتداداً للكتاب ويشغله غرفة تبرز عن سمت حائط الكتاب بمقدار ٨٥ سم تقريبا ، يتقدمها مشربية جميلة ، أشار إليها محمد[1] رمزى بقوله : إنها من أجمل المشربيات رسما وتركيبا .

المدخل الرئيسى :

يتوسط المدخل الرئيسى الواجهة وتبلغ سعة حنيته (٢ر٨٥) من المتر وعمقه متر وارتفاعها بارتفاع الواجهة تقريبا يأتى بعدها الشرافات ، ويوجد على جانبى حنية المدخل مكسلتان طول كل منهما مترا وعرضها ٨٥ر٠ من المتر ويتوسط المدخل باب سعته (١ر٢٥) من المتر) ويعلوه عتب من الرخام فوقه عقد عانق ثم يأتى بعد ذلك نافذة صغيرة مقاسها

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣١٧ .

٨٠×٦٠ سم يغشيها مصبعات حديدية . ويعلو هذه النافلة اللوحة التأسيسية للمدرسة يكتنفها مربعان صغيران بهما زخارف رخامية قوامها الطبق النجمي وتحتوى اللوحة التأسيسية على سطرين : الكتابة الثلث نصهما (١) بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العبد الفقير إلى الله (٢) الأمير سيف الدين اسنبغا بن بكتمر الأبوبكرى وذلك سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة .

ويعلو اللوحة التأسيسية مربع طول ضلعه مترا وعلى جانبيه مستطيلان كلها زخارف برسوم هندسية بالرخام الملون . ويتوج طاقية حنية المدخل عقد ذو ثلاثة فصوص يزخرف الفص المتوسط إشعاعات ملونة بالأبلق أما الفصان الآخران فقد شغلا بأربعة صفوف من الدلايات فى تكوين هندسى يتخللها زخارف نباتية محورة بأسلوب (الأرابسك) وهذه الطاقية تشبه فى تشكيلها العامة طاقية الحنيات الثلاث فى الجزء الشمالى من الواجهة . ومما يجدر الإشارة إليه ، أن المعمارى راعى التكامل والتوافق الهندسى والزخرفى فى بناء هذه المدرسة فالحنيات كبيرها وصغيرها متماثل وكذا النوافذ والفتحات كلها متماثلة .

داخل المدرسة :

ويؤدى باب المدرسة إلى درقاعة مساحتها ٢×٤ مترا يغطيها سقف خشبى يحتوى على رسوم زيتية جميلة ، وتنتهى الدرقاعة إلى فناء يشغل جزؤه الجنوبى دورة مياه وفى جهته الشمالية يوجد بابان يؤديان إلى صحن المدرسة . والصحن عبارة عن مستطيل تبلغ مساحته (٧٫٦٠ × ٨٫٣٠م) يغطى الثلث الجنوبى الشرقى منه سقف تتوسطه (شخشيخة) مربعة مغطاة بالزجاج . ونلاحظ أن مدرسة أسنبغا تحتوى على إيوانين فقط ، حيث أنهما خصصت للفقهاء الحنفية فقط .

وتبلغ مساحة إيوان القبلة ٨٫٣٠×٤٫٦٠ م يتقدمه عقد مدبب ، ويتصدره محراب مجوف تبلغ سعته (١٫٤٠) من المتر وعمقه (١٫٣٠) يكتنفه عمودان من الرخام المثمن الشكل تيجانهما على شكل رمانة ، وإلى يمين المحراب يوجد منبر ، وضع كما جاء فى المقريزى ، سنة خمس عشرة وثمانمائة ومن ثم صارت تقام بالمدرسة صلاة الجمعة ، ويعلو

المحراب نافذة مستديرة ملئت بالجص المعشق بالزجاج الملون . وفى الضلع الجنوبى الشرقى لإيوان القبلة وإلى جوار المنبر توجد غرفة غير متساوية الأضلاع فهى ١٫٨٥ × ١٫٩٠ × ١٫٤٥ × ١٫٩٠) من المتر . ويواجه إيوان القبلة الإيوان الشمالى الغربى ، وهو مستطيل الشكل إذ تبلغ مساحته ٤٫٣٠ × ٨٫٣٠ م يتقدمه عقد مدببة مماثل لعقد إيوان القبلة . ويصدر الإيوان ثلاث نوافذ سفلى وثلاث علوية يطلان على الواجهة الرئيسية سبق وصفهم بالتفصيل . ويتوسط الضلع الشمالى الشرقى لهذا الإيوان فتحة تؤدى إلى غرفة كبيرة غير منتظمة الأضلاع فهى (٢٫٣٥ × ٥٫٧٠ × ٥٫٧٠ × ٤٫٤٠) من المتر ، مستعملة كمخزن ويعلوها نافذة صغيرة مملوءة بمصبعات حديدية تطل على الإيوان الشمالى الغربى . ويغطى الإيوانين سقف خشبى مكون من حقاق (وبراطيم) كل مزخرف بنقوش زيتية جميلة .

المئذنة :

تتكون المئذنة التى تعلو الواجهة من ثلاث طوابق تقوم على قاعدة مرتفعة يفتح بها باب معقود يؤدى إلى درج المئذنة ، ويتكون الطابق الأول من شكل سداسى ، بكل ضلع حنية مسطحة يعلوها عقد ذو زاوية يرتكز على عمودين مندمجين . وقد فتح فى ثلاث من هذه الأضلاع نوافذ للاضاءة يتقدم كل منها شرفة صغيرة يغطى جوانبها حجر مخرم ، ويقوم على ثلاثة صفوف من المقرنصات .

ويتكون الطابق الثانى من شكل اسطوانى نقشت فيه زخارف هندسية بارزة غاية فى الدقة والإبداع . ويفصل بين الطابق الأول والثانى شرفة ذات اثنى عشر ضلعا ملئت بسواتر حجرية مخرمة وترتكز على أربعة صفوف من الدلايات .

أما الطابق الثالث فيتكون من ثمان أعمدة كل منها تحتوى على عمودين مندمجين وتيجانها مكونة من ثلاثة صفوف من الدلايات ، ويفصل بين الطابق الثانى والثالث شرفة مستديرة ملئت بسواتر حجرية مخرمة وتقوم على أربعة صفوف من الدلايات . وتعلو تيجان الأعمدة شرافات مماثلة لشرافات واجهة المدرسة ، وتنتهى المئذنة بالقبة الخوصية ثم يأتى الهلال النحاسى .

جامع إسماعيل بن مازن الهوارى
المعروف بالمتولى
بمدينة جرجا

ينتسب إسماعيل بن مازن إلى عرب الهوارة الذين يقول عنهم المقريزى[1] ، أنهم من ولد هوار بن أوريغ بن برنس بن حرى بن وجبك بن مادغس بن بر بن بديان بن كنعان بن جام بن نوح عليه السلام . وهوارة تنتسب بطونها وأصل ديارها إلى سرت من طرابلس الغرب ، قدمت طوائف منهم إلى أرض مصر ونزلوا بلاد البحيرة واستقروا بها منذ العصر الفاطمى ، وكانوا كثيرا مايقومون بأعمال الشغب فى كورة البحيرة مما حدا بالولاة والحكام بتجريد الحملات العسكرية لتأديبهم .

وقد زادت شوكتهم فى العصر المملوكى بحيث أصبحوا مصدر قلق للسلطان . الأمر الذى اضطر السلطان الظاهر برقوق إلى نقل طوائف من عرب هوارة إلى صعيد مصر وأقطع إسماعيل بن مازن من هوارة ناحية جرجا . وفى ذلك يقول ابن تغرى[2] بردى : أنزلهم الظاهر برقوق بعد واقعة بدر بن سلام سنة ٧٨٥ هـ ، فأقطع لإسماعيل بن مازن منهم ناحية جرجا ، وكانت خرابا فعمرها ، وهو جد الموازن ، وأقام بها حتى قتله على بن عريب منهم ، وهو جد العرابى ، فولى بعده الأمير عمر بن عبد العزيز الهوارى . وعمر هذا هو والد بنى عمر أمراء العربان ببلاد الصعيد فى زماننا هذا (أى النصف الثانى من القرن التاسع) ، ولعله يكون أول من وُلىّ منهم الإمرة. وقد تولى الأمير عمر بن عبد العزيز عرب

---

(١) المقريزى : البيان و الإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٦٣

(٢) النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٥٦

هوارة ببلاد الصعيد سنة تسع وتسعين وسبعمائة . وتولى المشيخة بعده ابنه محمد المعروف بأبي المسنون وعظم أمره وكثرت أمواله ، فإنه أكثر من زراعة النواحى وأقام دواليب السكر واعتصاره حتى مات فولى بعده أخوه عمر بن يوسف[1].

وظلت مدينة جرجا وما حولها يحكمها مشايخ عرب الهوارة حتى استولى العثمانيون على مصر وبدأ المماليك الفارون من وجه سليم الأول وجنوده يفدون إلى الصعيد متخذين منه مأوى . ولما كثر عددهم خشى حاكم جرجا – وكان من عرب الهوارة – أن يتعرض لأذى السلطان العثمانى فمنع إيواءهم وكان على رأس المماليك الفارين من السلطان طومان باى آخر سلاطين دولة المماليك بعد السلطان قنصوه الغورى .

ويحدثنا ابن إياس[2] عن هذه الوقائع فيقول : وكانت جرجا تحت حكم مشايخ العرب كغيرها من بلاد الصعيد ، فلما انكسر السلطان طومان باى فى وقعة المطرية التى كانت بينه وبين ابن عثمان (سليم الأول) وقتل أكثر عساكره وفر هو بنفسه وصعد فى الجهات القبلية حتى وصل إلى جرجا والحاكم فيها يومئذ شيخ العرب على بن عمر شيخ هوارة ، فخرج إلى السلطان طومان باى ومنعه من دخولها ولم يضيفه وقال له : لا نؤوى من عصى السلطان لئلا نبتلى ببلائه وكان ذلك سنة نيف وعشرين بعد التسعمائة.

ويكمل على مبارك[3] تاريخ عرب الهوارة فى جرجا فى العصر العثمانى فيقول : وقد رأيت فى كتاب لم أقف على اسمه ولا اسم مؤلفه أن أولاد عمر الهوارى طالت مدة حكمهم بعد ذلك فى البلاد ، فإن فيه أنه كتب للحكام بالصعيد الأعلى فى أواخر ذى الحجة سنة ٩٨٣ هـ لولاية سليمان باشا الإقليم ما صورته :

صدر هذا المرسوم إلى مفاخر القضاة والحكام معادن الفضل والكلام ، حكام الشرع الشريف بجرجا والسيوطية وقنا . زيدت فضائلهم وأكابر المشايخ المعتبرين والعمال

---

(١) البيان والإعراب ص ٦٤

(٢) ابن إياس جـ ٢ ص ٦٥٧

(٣) الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ٥٤

والكتاب والمباشرين يتضمن أعلامهم أنه ليس بخاف عنهم أن مشيخة الصعيد الأعلى كانت فى تعرف أولاد العرب وضبطهم والتزامهم بالمال والغلال أبا عن جد مدة مديدة ، ولما حصل منهم الأفعال المخالفة المترتب عليها تخلخل نظام الإقليم وقلة الاهتمام بالأموال السلطانية والغلال الديوانية ، فكان منعهم رفعهم من الأقاليم فرضا لازما . وعين للولاية المذكورة لأجل عمارتها وحفظ الأموال السلطانية والغلال الديوانية وردع المفسدين وقطاع الطريق والسراق بمقتضى الشرع الشريف والقانون المنيف ، قدوة الأمراء الكرام وعمدة الكبار الفخام ذو القدرة والاحترام أمير اللواء الشريف السلطانى الأمير سليمان أمين ولى حكم الصعيد الأعلى على أن يكون متصرفا فى جميع ما كان يتصرف فيه أولاد عمر مشايخ الهوارة فلازم نفوذ كلمته » .

مما تقدم يتبين لنا أن عرب هوارة قد تولوا حكم الصعيد الأعلى قرابة قرنين من الزمان فقد تولى الحكم جدهم الأكبر إسماعيل بن مازن سنة ٧٨٥ بمرسوم أصدره السلطان الظاهر برقوق وعزلوا من ولاية الإقليم ، وحكمه بناء عن المرسوم الذى أصدره الأمير سليمان باشا سنة ٩٨٣ هـ .

وعزل عرب هوار من حكم الإقليم لم يكن يعنى تخليهم عن الدفاع عنه إذا جد الجد أو تعرض لمكروه ، فقد أبلوا بلاء حسنا فى الأحداث التى تعرض لها الصعيد الأعلى أيام الحملة الفرنسية ، وفى ذلك يقول الجبرتى : فى شهر رجب من سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف وردت أخبار الفرنسيس إلى الديار الحجازية بأنهم ملكوا مصر ، انزعج أهل الحجاز لذلك وصار الشيخ الكيلانى المغربى الأصل يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين ، فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع معه نحو ستمائة من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير وانضم إليهم جملة من أهل ينبع وجاءوا إلى تلك الجهة وانضم إليهم جملة من هوارة الصعيد والمغاربة والأتراك والغز وحاربوا الفرنسيس بالناحية المذكورة ووقع بينهم وبين الفرنسيس بعض حروب فى عدة مواضع وانفصل الفريقان بدون طائل .

أما عن تاريخ مدينة جرجا التى أعاد بناءها جد الموازن ، إسماعيل بن مازن الهوارى

فى القرن الثامن الهجرى ، فهى مدينة مصرية قديمة تقع على الضفة الغربية للنيل . كانت تتبع كورة القوصية فى العصر الفاطمى ، فلما ألغيت أعمال القوصية فى العصر العثمانى

أنشئ بدلها ولاية جديدة باسم جرجا وفى سنة ١٨٩٠م أصبح اسمها مديرية جرجا وقاعدتها جرجا ، وفى القرن العشرين أصبحت سوهاج قاعدة مديرية جرجا وفى سنة ١٩٦٠ أصبحت جرجا مركزا فى محافظة سوهاج .

كانت مدينة جرجا فى العصرين الفاطمى والمملوكى من أكبر مدن الصعيد الأعلى وأشهرها[١] . وكانت رقعتها الزراعية والعمرانية متسعة وأسواقها غاصة بالبضائع المحلية وخاصة صناعة الجلود وصناعة الأثاث من أخشاب السنط المستوردة من الإقليم الأسيوطى ، كما كانت تزخر بالبضائع المستوردة من السودان . وكانت منازلها تتكون من طابقين وأحيانا من ثلاثة ، وهى مبنية من الآجر (المكحول) كما استعمل الزجاج للنوافذ والفتحات وكانت المدينة مليئة بالمساجد الجامعة التى بلغ عددها فى نهاية العصر المملوكى عشرين تكاد تكون كلها من منشآت عرب الهوارة . ومن أقدم[٢] هذه المساجد وأشهرها جامع المتولى الذى أنشأه إسماعيل بن مازن ، المعروف بالمتولى كما أنشئ بها مساجد فى العصر العثمانى لعل أهمها الجامع المعروف باسم الجامع الصينى وذلك لتغشية جدرانه الداخلية ببلاطات القيشانى الملون . وتمتاز معظم مساجدها بأنها معلقة ، أى أنها مرتفعة عن سطح الأرض ويصعد إليها بمجموعة من الدرجات .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٣

(٢) الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ٥٣

وصف الجـــامع

أنشأ جامع المتولى جد الموازن إسماعيل بن مازن الهوارى فى نهاية القرن الثامن للهجرة ، وقد حرص على أن يكون تصميمه على طراز المدارس المذهبية الموجودة بمدينة القاهرة فقد كان تخطيطه يتكون من صحن مكشوف تحيط به إيوانات من جهاته الأربع ، خصص كل إيوان منها لتدريس مذهب من المذاهب السنية الأربعة، وكان إيوان القبلة مخصصا للمذهب المالكى ، خلافا لمدارس القاهرة التى خصص إيوان القبلة فى معظمها للمذهب الشافعى ، مذهب الكثرة الغالبة من المصريين فى ذلك الوقت ، أما الهوارة المغربيو الأصل فمذهبهم مالكى .

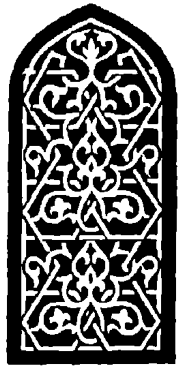
وقد توالت يد التجديد والترميم على هذا الجامع فقد أعاد بناء مئذنته أحد شيوخ الهوارة محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف باسم أبى السنون وذلك فى القرن العاشر الهجرى وكانت مئذنة المتولى من أعلى وأشهر مآذن جوامع الصعيد حتى أنها أصبحت أشبه بالمنارة بالنسبة لمدينة تهدى الوافد عليها من الصحراء والنيل على حد سواء . وتتكون المئذنة التى ما تزال قائمة من ثلاث دورات ، الدورة الأولى تبدأ من سطح الجامع . ويتكون بدنها من مثمن به أربع نوافذ تواجه الجهات الأصلية الأربعة ، ويزخرف كل وجه من المثمن زخارف باردة محفورة فى الحجر على شكل حنيات معقودة ؛ أربعة منها بها النوافذ السالفة الذكر والأربعة الأخرى مسدودة .

وتتكون الدورة الثانية للمئذنة من شكل اسطوانى يفصل بينه وبين الدورة الأولى شرفة مثمنة ترتكز على مجموعة من صفوف الدلايات غاية فى الدقة والإبداع . أما الدورة الثالثة فتتكون من ثمانية أعمدة يفصل بينها وبين الدورة الأسطوانية شرفة ثانية تقوم كذلك على عدة صفوف من الدلايات الجميلة . ويعلو الدورة الثالثة طاقية المئذنة على شكل

(القلة)

ولم يبق من الجامع القديم الآن غير المئذنة والواجهة الغربية المقابلة لإيوان القبلة والتي يوجد بها المدخل الرئيسى . وقد زخرفت هذه الواجهة بطريقة الطوب (المنجور أو المكحول) .

أما باقى الجامع المتهدم فقد أقامت وزارة الأوقاف مشكورة معهدا دينيا كبيرا يتبع مشيخة الأزهر الشريف ، وهو معهد جرجا الدينى الثانوى وألحقت به مسجدا تقام به الشعائر .



مدرسة وخانقاة الظاهر برقوق

بشارع المعز لدين الله

تولى الملك الظاهر برقوق كرسي السلطنة سنة ٧٨٤ هـ ، وكان كما وصفه كثير من المؤرخين شجاعا محبا للفروسية ميالا للعب بالرمح[١]، كما قيل عنه أنه كان عصره خيرا حيث أبطل كثيرا من المكوس فنشطت الحركة التجارية وهبطت أسعار الحاجيات المستوردة مما شجع كثيرا من التجار الأجانب وخاصة الشرقيين منهم على الاتجار مع مصر ، مما كان له أكبر الأثر إلى جانب الازدهار الاقتصادى التقدمي الفني فقد وفدت على البلاد كثير من الأساليب والطرز الفنية فأثرت الأساليب الفنية فى البلاد .

وقد اتسع ملكه حتى خطب باسمه فى ماردين والموصل وغيرهما ، ولما توفى الظاهر برقوق دفن بصحراء العباسية مع مجموعة من العلماء والصالحين أوصى أن تبنى لهم تربة يلحق بها مسجد وخانقاة ، وقد نفذ ابنه الناصر فرج وصيته ، فأنشأ المدرسة الجامع الخانقاة البرقوقية .

وتعتبر مدرسة وخانقاة برقوق أولى المنشآت المعمارية فى دولة المماليك الجراكسة وقد بناها مكان خان الزكاة[٢] الذى أنشأه الناصر محمد بن قلاوون لمدرسة الناصرية على رقعة من أرض القصر الغربي الفاطمى .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٢١

(٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ١١ ، نزهة النفوس والأبدان جـ ١ ص ٤٣

الوصف المعمارى

تقع المدرسة بشارع المعز لدين الله على جزء من أرض القصر الغربى الصغير الفاطمى بجوار مدرسة الناصر محمد بن قلاوون ، وتشغل مساحة من الأرض غير منتظمة الأضلاع وتبلغ مساحتها (٨٠) مترا طولا و (٥٠) مترا عرضا .

الوصف الخارجى :

تقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الشرقى للمدرسة ويبلغ طولها (٥٠) مترا ويمكن تقسيمها إلى قسمين . القسم الأول ويشمل جدار رواق القبلة والضريح ، أما القسم الثانى فيشمل المدخل الرئيسى ، ويحتوى جدار القبلة على أربعة حنايا مستطيلة يتوسطهما بروز جدار المحراب ، يرتفعان إلى أعلى جدار الواجهة ويتوج كل منهم أربعة صفوف من الدلايات وتحتوى كل حنية على نافذتين ، السفلى مستطيلة ويعلوها عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة من الرخام ، ومملوءة بمصبعات حديدية ، أما العليا فعبارة عن نافذة قنديلية مملوءة بالجص المعشق بالزجاج الملون .

أما جدار الضريح فيضم حنيتين مستطيلتين يكتنفان بروز المحراب ويرتفعان إلى أعلى جدار الواجهة ويتوجهما أربعة صفوف من الدلايات ، وتضم كل حنية نافذتين سفلية وعلوية على غرار نوافذ جدار إيوان القبلة .

ويكون الجزء الثانى من الواجهة المدخل الرئيسى وهو يقع فى الركن الجنوبى الشرقى للمدرسة ويبلغ طوله (١٠) أمتار . وقد كسيت واجهته بالرخام الأبيض الملون المتبادل مع الأسود ، ويعلوها شريط كتابى بالخط الثلث المملوكى نصه : بسم الله الرحمن الرحيم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[1] . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة

(١) سورة الجمعة آية (٤)

والخانقاة مولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق سلطان الإسلام والمسلمين نصرة الغزاة والمجاهدين حامى حوزة الدين ذخر الأيتام والمساكين كنز الطالبين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية عز نصره وذلك فى مباشرة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر السيفى الجركسى الخليلى أميراخور الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أدام الله أيامه بمحمد وآله يارب العالمين وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة » ويتقدم المدخل ردهة ذات سلم مزدوج يصعد إليها بخمس درجات .

ويتوسط واجهة المدخل حنية كبيرة تبلغ سعتها (٣٫٨٠) مترا وعمقها (٢٫٢٥) مترا يكتنفها مكسلتان يعلوهما شريط كتابى نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ، أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين »(١) .

ويتوسط حنية المدخل باب مستطيل يبلغ ارتفاعه (٤٫١٥) مترا وسعته (٢٫٢٥) مترا يعلو عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة من الرخام ، ويعلو العقد نافذة مستديرة مملوءة بزخارف نباتية من النحاس المفرغ ويحيط النافذة طاقية مكونة من عقد منكسر مفصص .

ويؤدى باب المدخل إلى ردهة (دركاة) مربعة طول ضلعها (٣٫٥) مترا يتصدرها حنية كبيرة تبلغ سعتها (٢٫٥) مترا وعمقها (١٫٥) مترا بداخلها جلسة ، ويغطى الدركاة قبة صغيرة تقوم على مثمن ، وأرضيتها مفروشة بالرخام الملون ، فى تكوينات هندسية بديعة . كما يشغل الضلع الجنوبى للدركاة حنية ثانية ذات عقد مدبب يبلغ سعتها (٢٫٢٥) مترا وعمقها (٠٫٦) يشغلها جلسة حجرية ثانية ، وبالضلع الشمالى للدركاة يوجد باب معقود سعته (٢٫١٠) مترا يعلوه شريط من الكتابة تشمل اسم المنشئ وألقابه .

---

(١) سورة التوبة آية ١٨ — ١٩

ويفضى هذا الباب إلى دهليز طويل منكسر يبلغ طوله (١٩٫٥) امتار وعرضه (٢٫٥) م يغطى بعضه أقباء متقاطعة والبعض الآخر مكشوف وأرضيته مفروشة بالرخام الملون . ويشغل الضلع الجنوبي للدهليز أربع فتحات متجاورة ، الفتحة الأولى باب الدركاة المؤدى إلى الدهليز ثم فتحة حنية كبيرة معقودة يبلغ سعتها (٣٫٨٠) من المتر يغطيها قبو مدبب من الحجر كانت تستعمل مزيرة ، أما الفتحة الثالثة فيعلوها عقد دائرى تؤدى إلى خلوة مساحتها (٢٫٩٠ × ٢٫٧٠) من المتر وارتفاعها (٣) أمتار ذات سقف مقبي ، وتفضى الفتحة الرابعة وهى معقودة كذلك إلى سلم يؤدى إلى سكون علوى خاص بشيخ المدرسة والخانقاة .

وينتهى الدهليز فى جهته الغربية بردهة مربعة تقريبا تبلغ مساحتها (٤٫٩٠ × ٤٫٢٥) من المتر مغطاة بأقباء متقاطعة ، يشغل ضلعها الجنوبي باب يؤدى إلى خلوة فى دور أرضى ، ويشغل ضلعها الشمالى باب يؤدى إلى صحن المدرسة .

الوصف من الداخل :

يتوسط الصحن المدرسة ويتكون من مستطيل مكشوف يبلغ مساحته (٢١٫٧٠ × ١٧٫٧٥)م تحيط به الإيوانات من جهاته الأربع ، كما تفتح فيه ستة أبواب مستطيلة يعلوها أعتاب مكونة من صنجات من الحجر والرخام ، ويتقدم أربعة من هذه الأبواب التى توجد فى الضلعين الشمالى والجنوبي للصحن جلسات حجرية ، كما يكتنفها شريط من الكتابة النسخية البارزة نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين »[1] .

ويؤدى الباب الجنوبي الغربي فى الضلع الجنوبي للصحن إلى قاعتين متجاورتين لأستاذين من أساتذة الفقه ، كما جاء فى حجة الوقف ، أما الباب الثانى بهذا الضلع فيؤدى إلى دهليز المدخل السابق الإشارة إليه ، أما أبواب الضلع الشمالى للصحن فيفضى الشرقى منهما إلى ضريح أعده المنشئ لنفسه وقاعة الحراس ومكتبة المدرسة . أما الباب الثانى بهذا الضلع فيفضى إلى قاعة لأحد أساتذة الفقه بالمدرسة ، يتقدمها سلم يوصل إلى

---

(١) سورة الحجر آية (٤٦ – ٤٧)

سكن علوى . أما البابان الموجودان بالضلع الغربى للصحن فيؤديان إلى مساكن الصوفية عن طريق ممر طويل مقبى من الحجر ويعلو أعتاب الأبواب الستة التى تحيط بصحن المدرسة نافذة صغيرة مملوءة بنجاس مفرغ وعلى محور هذه النافذة توجد ثلاثة نوافذ مستطيلة ويعلو جدران الصحن شريط من الكتابة نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم » (آية الكرسى) ثم : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم »،« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » (حتى نهاية سورة البقرة) صدق الله العظيم وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ويتوج أعلى جدران الصحن شرافات نباتية جميلة .

وقد فرشت أرضية الصحن برخام متعدد الألوان ، ويتوسطه فسقية قاعدتها من الرخام مثمنة الشكل يحيط بها ثمانية أعمدة تقوم عليها قبة خشبية جددت (سنة ١٣١٤ هـ) بدائرها شريط من الكتابة الزيتية نصها : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لمستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون »[1] كما يوجد شريط كتابى برقبة القبة يحتوى على آية الكرسى وتاريخ إنشاء المدرسة سنة ٧٨٨ هـ .

ويشغل الضلع الشرقى للصحن إيوان القبلة ويتكون من مستطيل تبلغ مساحته (١٧٫٦٠ × ١٤٫٧٠) مترا يقسمه صفان من البوائك إلى ثلاثة أروقة عمودية على جدار القبلة الأوسط أوسعها وتتكون كل بائكة من عمودين من حجر الصوان يحملان ثلاثة عقود مدببة سعة كل منها (٤٫٢٥) مترا. والإيوان مغطى بسقف خشبى (تسقيف عجمى)

---

(١) سورة المائدة آية ٦ – ٧

المزخرف بالنقوش الزيتية المذهبة ، وأرضيته مفروشة بالرخام المتعدد الألوان . ويتصدر الإيوان محراب مجوف سعته (١٫٣) امتار وعمقه مترا يعلوه طاقية ذات عقد مدبب . وقد زخرفت حنية المحراب برسوم هندسية متعددة الأشكال والألوان وكتابات قرآنية .

وقد كسيت جدران الإيوان بوزرات من الرخام إلى ارتفاع عقد المحراب أما الضلع الغربي من الصحن فيشغله الإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة ويتكون من مستطيل تبلغ مساحته (٩٫١٠ × ٧٫٧٥) من المتر يتقدمه عقد كبير مدبب ، ويتوسط صدر الإيوان فتحة مستطيلة تبلغ سعتها (٢) متران يعلوها عتب فوقه نافذة قنديلية مكونة من فتحتين بينهما دائرة ، ملئت جميعها بالجص المعشق بالزجاج الملون .وكانت هذه الفتحة توصل إلى خلاوى الصوفية ، ولكنها سدت الآن بالبناء ، والإيوان مغطى بقبو مدبب من الحجر يزخرفه أشرطة عرضية باللونين الأحمر والأبيض على أسلوب الأبلق .

الإيوانان الشمالي والجنوبي (السلتان) :

ويشغل جزء من الضلع الشمالي والجنوبي للصحن إيوانان صغيران متماثلان إذ تبلغ مساحة كل منهما (٧٫٧٥ × ٥) امتار يتقدمه عقد كبير مدبب وسقفه مغطى بقبو حجري مدبب .

وتقع خلف الإيوان الغربي أربع مجموعات من خلاوى الصوفية بنيت متوازية لبعضها وتتكون كل مجموعة من أربع طوابق وقد ذكرت فى حجة الوقف باسم (الرباع) . ويبلغ عدد خلاوى المجموعة الأولى والثانية (٦٤) خلوة والثالثة (٣٦) خلوة والرابعة (٢٤) خلوة . ويتبع هذه المجموعات السكنية مجموعات أخرى من المباني تقوم بخدمة سكان الخلاوى من المتصوفة ثم المطبخ ودورة المياه وحظيرة الدواب وما إليها .

الضريح :

يقع الضريح إلى جوار إيوان القبلة ويطل على الواجهة الرئيسية للمدرسة ، تتقدمه غرفة الحراس التى تصل بين قبة الضريح وصحن المدرسة ، ويتكون الضريح من مربع طول ضلعه (١٠٫٥) امتار، فرشت أرضيته برخام ملون ، ويتوسط الضلع الشرقي منه محراب

مجوف اتساعه (١٫٦) من المتر وعمقه (١٫١) من المتر تعلوه طاقية ذات عقد مدبب تحيط بها شريط من الكتابة القرآنية من سورة (يس) . ويكتنف المحراب نافذتان سبق الإشارة إليهما عند وصف الواجهة الرئيسية ، ويتقدم الضلع الغربى للضريح عقد مدبب تبلغ سعته (٣٫٦) من المتر يغطى الجزء العلوى منه سياج من الخشب الخرط تعلوه لوحة تأسيسية نصها :

أمر بإنشاء هذه القبة المباركة من فضل الله تعالى مولانا السلطان الملك الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق عز نصره وذلك بتاريخ مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة » ويعلو اللوحة نافذة قنديلية ملئت بزخارف جصية معشقة بالزجاج المتعدد الألوان ، وبالضلع الشمالى للضريح باب يؤدى إلى مكتبة المدرسة يعلوها حاصل بمساحة المكتبة مخصص لإيداع المدخرات والأشياء النفيسة ، وبالضلع الجنوبى للضريح توجد نافذة مستطيلة تطل على إيوان القبلة . ويحيط بجدران الضريح على ارتفاع عقد المحراب وزرة من الرخام نقش عليهما بالخط النسخى الكبير ما نصه : بسم الله الرحمن الرحيم ويجعل لك قصورا[1] أمر بإنشاء هذه القبة المباركة والمدفن المبارك والمدرسة المباركة ، والخانقاة مولانا السلطان المالك . الملك المرابط الظاهر سيف الدنيا والدين أبو سعيد برقوق العالم العادل المرابط المؤيدى الغازى الحاكم بأمر الله والتالى لكتاب الله سلطان الإسلام والمسلمين نصرة الغزاة والمجاهدين حامى حوزة الدين ذخر الأيتام والمساكين صاحب الصدقات والمعروف المغيث لكل مظلوم أدام الله أيامه وأعز أحكامه وختم بالصالحات أعماله يارب العالمين وكان الفراغ فى مستهل ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .

ويتوسط الضريح تركيبة مربعة من الرخام تنتهى بأربعة رؤوس رومانية الشكل .

ويشغل منطقة انتقال قبة الضريح سبعة صفوف من الدلايات الخشبية المذهبة تقوم فوقها قبة ذات قطاع مدبب مجددة (سنة ١٣٣١ هـ ١٨٩٢ م) على طرازها القديم .

---

(١) سورة الفرقان آية ١٠

المئذنة :

تقع المئذنة فى الركن الشمالى الشرقى للواجهة الرئيسية ويبلغ ارتفاعها عن مستوى أرضية الشارع (٣٠) مترا وتتكون من ثلاث طوابق ، يتكون الطابق الأول من مثمن يقوم على قاعدة مربعة ، ويشغل كل ضلع من أضلاع المثمن حنية أربعة منها صماء وأربعة تحتوى على نافذة مستطيلة محمولة على مسند (كابولى) حجر مقرنص . ويعلو الحنيات جميعها عقد منكسر مفصص يكتنفه عمودان صغيران . ويتكون الطابق الثانى كذلك من مثمن يحيط به شرفة مثمنة تقوم على أربعة صفوف من الدلايات منظومة فى تكوينات هندسية بديعة . أما الطابق الثالث فيتكون من جوسق من ثمان أعمدة يفصل بينها وبين الطابق الثانى شرفة مماثلة لشرفة الطابق الأول ، ويتوج المئذنة خوذ كمثرية الشكل تنتهى بهلال من النحاس .

مسجد الشيخ علي الروبي

بمحافظة الفيوم

الفيوم مدينة مصرية قديمة ، اسمها المصرى القديم (شدات) أو (شليت) ومعناها الجزيرة ، لأنها كانت وقت تكوينها واقعة فى بحر موريس . ثم سماها القبط (بيوم) ومعناه مركز اليم ، ومنها أخذ العرب كلمة فيوم وأضافوا إليها أداة التعريف فصارت الفيوم ، ويزعم المسعودى أن معنى الفيوم ألف يوم ويبدو أنه بنى هذ الزعم على القصة التى ذكرها المقريزى . وتتلخص فى أن فرعون مصر طلب من سيدنا يوسف الصديق أن يستصلح أرض الفيوم لابنته فحفر يوسف خليجا يصل الفيوم بنهر النيل كى تصرف فيه المياه الزائدة وقت الفيضان ، مما أصلح أرض الفيوم . وقد استغرقت تلك العملية من يوسف سبعين يوما ، فلما رأى فرعون مصر تلك الأعمال التى أتمها يوسف قال لوزرائه « هذا عمل ألف يوم » فسميت الفيوم وقد غاب عنهم أن فرعون مصر لم يكن يعرف العربية .

ومدينة الفيوم ظلت منذ نشأتها فى العصر الفرعونى حتى الآن قاعدة لإقليمها ووردت فى معاجم البلدان أنها ضمن كور مصر .

ويقول القضاعى : « الفيوم مدينة دبرها يوسف النبى عليه الصلاة والسلام بالوحى وكانت ثلثمائة وستين ضيعة تمد كل ضيعة منها مصر يوما واحدا فكانت تمد مصر السنة كلها . وكانت تروى من اثنى عشر ذراعا (وهو أقل منسوب لمياه الفيضان) ولا يستبحر مازاد عن ذلك لأن يوسف عليه السلام اتخذ لهم مجرى ورتبه ليدوم لهم دخول الماء فيه

وقومه بالحجارة المنضدة وبنى به اللاهون » ..ويضيف الكندى « وليس فى الدنيا ما بنى بالوحى غير هذه الكورة ولا بالدنيا بلد أنفس منه ولا أخصب ولا أكثر خيرا ولا أغزر أنهارا ، ولو قايسنا بأنهار الفيوم أنهار بصرة ودمشق لكان لنا بذلك الفضل . ولقد عد جماعة من أهل العقل والمعرفة مرافق الفيوم وخيرها ، فإذا هى لا تعد ولا تحصى ، فتركوا ذلك وعدوا ما بها من المباح مما ليس عليه ملك لأحد من مسلم ولا معاهد ، فإذا هو فوق السبعين صنفا » .

ولعل المراد بالوحى فى عبارتى القضاعى والكندى الإلهام لأنه من معانى الكلمة لغة ، وقال ابن عبد الحكم ، إن الفيوم أقامت سنة بعد الفتح لا يعلم المسلمون بمكانها حتى أتاهم رجل فذكرها لهم فأرسل عمرو بن العاص جيشا لفتحها وقد اختلفت الروايات فى اسم قائد الجيش فقيل ربيعة بن حبيش بن عرفطة الصدفى ، وقيل مالك بن ناعمة الصدفى ، وذكر قيس بن الحارث الذى سار حتى أتى قرية قيس فنزل بها ، والتى تزعم المراجع العربية أنها سميت باسمه .

أما عن خراج مدينة الفيوم فتجمع المراجع العربية على أنها كانت أغنى كور مصر ، قال ابن زولاق : حدثنى أحمد بن محمد بن طرخان الكاتب قال : عملت على الفيوم من قبل كافور الأخشيد فى هذه السنة (يعنى سنة ٣٥٦ هـ) فعقدت بها ستمائة ألف دينار ، وعشرين ألف دينار ، ومنها المباح الذى يعيش الناس منه مما لا يضبط ولا يحاط بعلمه ، وذلك غير المرافق والخيرات التى تحت أيدى الملاك . وقال القاضى الفاضل فى كتاب متجددات الحوادث ، إن متحصلات الفيوم بلغت سنة ٥٨٥ هـ مائة ألف واثنين وخمسين ألف دينار وسبعمائة وثلاثة دنانير . وقال البكرى ، والفيوم معروف هناك يغل كل يوم ألفى مثقال ذهبا . وقد أطنب كل من تكلم عن تاريخ مصر عن خيرات مدينة الفيوم حتى أصبح اسمها يقرن باسم مصر فيقول اليعقوبى مثلا : كان يقال فى متقدم الأيام مصر والفيوم لجلالة الفيوم وكثرة عمارتها .

وكانت للفيوم شهرة كبيرة بالأسماك ترجع إلى ما قبل العصر الإسلامى ، فقد تكلم هيرودوت عن سمك الفيوم فقال إن السمك كان يملح ويبقى طوال السنة وأن الأهالى

تستهلكه بكثرة فضلا عما يطعم به الحيوانات المقدسة . وقد بلغت مدينة الفيوم من الأهمية فى القرنين السادس والسابع للهجرة أن عمل برج للحمام بالقاهرة خاص بها وسمى باسمها لتلقى البريد عن طريق الحمام الزاجل . فقد ورد بالمقريزى أنه كان بالقاهرة فى موضع يعرف بالبرقية « الدراسة الآن » برج حمام يسمى برج الفيوم ، وكان بناؤه بأمر الأمير فخر الدين عثمان الاستادار فى سلطنة الملك الكامل بن صلاح الدين وكانت الفيوم من إقطاعاته ، فكان حمام البريد يأتى بأخبار المديرية إلى الأمير فينزل بهذا البرج .

وقد كان بمدينة الفيوم كثير من العلماء والفقهاء من مختلف النحل والأديان ، فقد جاء فى كتاب الفهرست ، أن من علماء اليهود وأفاضلهم ابن سعيد الفيومى كان متمكنا فى اللغة العربية ، وله كثير من المصنفات . ومن العلماء المسلمين الشيخ شعبان الفيومى الأزهرى الإمام الفقيه والشيخ سليمان الفيومى . ومن شعرائها المطبوعين عبد البر بن عبدالقادر وهو من أدباء الفيوم المعدودين.

* * *

وبمدينة الفيوم كثير من المساجد الجامعة ، أشهرها جامع الروبى سمى باسم الشيخ الروبى المدفون بجواره . وضريحه مزار مشهور ، ويزعم العامة أنه من نسل روبيل أخى يوسف عليه السلام . وذكر المقريزى ، أن صلاح الدين الأيوبى ، أنعم على أخيه المظفر تقى الدين، بالفيوم وأعمالها ، وأن هذا الأخير أقام بها مدرستين أحداهما للشافعية والثانية للمذهب المالكى .

ولد الشيخ الروبى فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وتوفى فى عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق ، وقد اشتهر الشيخ الروبى منذ صباه بالورع والتقوى فأقبل عليه الناس للتبرك به والتتلمذ على يديه ، كما خطب وده الملوك والأمراء .

فقد ذكر ابن اياس فى أحداث سنة ٧٨٣ : وفيها حضر إلى القاهرة الشيخ الصالح الزاهد الناسك العارف بالله تعالى الشيخ على الروبى أعاد الله علينا من بركاته . فلما حضر

عند الأتابكي برقوق ، وأقام عنده يومين ، بشره عن نفسه بأنه سيلي السلطنة فى يوم الأربعاء تاسع شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . ومما بشر به الناس أنه بعد مضى شهر يرتفع الوباء من القاهرة ويتناقص الغلاء ، ثم يموت عقب ذلك الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان » .

ويتكون المسجد من مستطيل يحتوى على أربعة صفوف من الأعمدة تقسم المسجد إلى خمسة أروقة تعلوها عقود مدببة فوقها سقف خشبي.

أما الضريح فعبارة عن قاعدة مربعة الشكل مبنية بالآجر ولها بابان ، ويتوسط كل ضلع من أضلاع المربع عمود من الرخام يحمل كل منها عقدين . وقد حول المربع إلى دائرة لإقامة القبة عليها بواسطة طاقية مخوصة فى أركان المربع ، وتشبه هذه الطواقى إلى حد كبير مثيلاتها فى القبة القديمة وقبة مسجد سنان باشا . ويعلو هذه الطواقى مقرنصات من أربع حطات (أى صفوف) من المقرنصات ،، واستعمال الطواقى والمقرنصات معا فى منطقة الانتقال لتحويل المربع إلى دائرة يعتبر من المميزات التى امتازت بها قبة الروبى دون غيرها من قباب مصر . كذلك تمتاز قبة الروبى باحتوائها على إيوانين متقابلين وإن كنا نجد هذه الظاهرة فى قباب الاسكندرية وقباب فارسكور .

وقد توفى الشيخ الروبى سنة ٧٩٣ ﻫ كما هو منقوش على اللوح الخشبى الموجود بداخل القبة ، على أننا نجد فى ترجمة الشيخ على الروبى فى كتاب بدائع الزهور ، أنه توفى سنة ٧٨٥ ﻫ ، لهذا فإنى أرجح أن يكون التاريخ المنقوش على الخشب بالقبة ليس هو تاريخ الوفاة ولكنه تاريخ الانتهاء من بناء المسجد والقبة ، وذكر خطأ أنه تاريخ الوفاة ، وفيما يلى نص الكتابة :

بسم الله الرحمن الرحيم « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . هذا ضريح الشيخ العابد الزاهد الشيخ على الروبى انتقل إلى رحمة الله فى سادس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة

جامع سيدى ابراهيم المتبولى

ببركة الحاج

بمحافظة القليوبية

هو الشيخ إبراهيم المتبولى رضى الله عنه ، ترجم له الشعرانى[١] فى طبقاته فقال ، كان من أصحاب الدوائر الكبرى فى الولاية ، ولم يكن له شيخ إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . نشأ رضوان الله عليه يتيما فقيرا ، وكان يبيع الحمص المسلوق (الشامى) بالقرب من جامع الأمير شرف الدين بالحسينية من القاهرة المحروسة ، ليقتات منه هو وأمه . وكان الشيخ إبراهيم منذ نعومة أظفاره ورعا تقيا يؤدى الصلوات الخمسة بجامع الأمير شرف الدين ، وكان كثيرا ما يغفو بالجامع بعد صلاة العشاء حتى تأتى أمه لتوقظه وتذهب به إلى بيتها . فكان يرى النبى صلى الله عليه وسلم كثيرا وهو نائم بالجامع فيخبر بذلك أمه فتقول له ، يا ولدى إن الرجل من اجتمع به فصار يجتمع به فى اليقظة ويشاوره فى أموره ، ثم قالت له أمه ، الآن قد شرعت فى مقام الرجولية » .

وقد أورد الشعرانى الكثير من كرامات الشيخ إبراهيم المتبولى الخارقة ، رأينا أن نذكر شيئا منها ، وخاصة تلك التى لها سند تاريخى أو سند مادى . ومن هذه الكرامات كما يرويها الشعرانى : وكان مما شاور الرسول صلى الله عليه وسلم عليه عمارة الزاوية التى ببركة الحاج ، إذ قال له النبى صلوات الله عليه ، «يا إبراهيم عمرها هنا وإن شاء الله تعالى تكون مأوى للمنقطعين من الحاج وغيرهم وهى دافعة البلاء الآتى من الشرق عن مصر فما دامت عامرة فمصر عامرة » .

---

(١) طبقات الشعرانى جـ ٢ ص ٨٣

ولما شرع فى غرس النخل بالقرب من البركة لم يصح له بئر ، فاستأذن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك فقال غدا إن شاء الله تعالى أرسل لك على بن أبى طالب رضى الله عنه يعلم لك على بئر نبى الله شعيب التى كان يسقى منها غنمه فأصبح فوجد العلامة مخطوطة فحفر فوجدها وهى البئر العظيمة الموجودة بغيطه إلى الآن .

ويحدثنا ابن اياس(١) عن طرف من تاريخ شيخنا فيقول : أخبرنى الشيخ جمال الدين يوسف الكردى رضى الله عنه أن الغلاء وقع أيام السلطان قايتباى فى القرن التاسع الهجرى وكان يجتمع عند الشيخ إبراهيم المتبولى فى الزاوية نحو من خمسمائة نفس فكان كل يوم يعجن لهم ثلاثة أرادب ويطعمها لهم من غير إدام ، فطلب الناس منه أدما فقال للخادم اذهب إلى الخص الذى فى النخل فارفع الحصير الخوص وخذ حاجتك . فذهب ورفع الحصير فوجد قناة بها ذهب وفضة فأخذ منها قبضة فاشترى بها ذلك اليوم أدما . فقال النقيب يا سيدى إذا كان الأمر كذلك دستورك نوسع على الناس فرد عليه قائلا ماثم إذن . ولكن الخادم ذهب من وراء الشيخ فلم يجد الذهب والفضة فحفر فلم يجد شيئاً .

ويحدثنا ابن اياس كذلك عما وقع بين قبيلتى بنى حرام وبنى وائل من نزاع وخصومة فذهبت الأولى إلى الشيخ إبراهيم المتبولى تطلب رعايته وحمايته لها من جور وظلم الثانية . فيقول : ولما اجتمع عنده بنو حرام فى زاويته خوفا من بنى وائل أرسل الشيخ لبنى وائل قاصدا يأمرهم بالصلح فقالوا : « أيسن للمتبولى فى هذا يروح ويقعد هو وصغاره فى الجبل ، والله لانرجع حتى نسقى خيلنا من حيضان المدينة . فقال الشيخ وعزة ربى ما عادت تقوم لبنى وائل رأس إلى يوم القيامة » . فهم إلى وقتنا (أى القرن الحادى عشر الهجرى) هذا تحت حكم بنى حرام .

ورأى يوما شخصا كثير العبادة والأعمال الصالحة والناس منكبون على اعتقاده فقال له ، يا ولدى مالى أراك كثير العبادة ناقص الدرجة ، لعل والدك غير راض عنك ، فقال نعم فقال هل تعرف قبره فقال نعم ، فقال الشيخ اذهب بنا إلى قبره لعله يرضى . فذهبا

---

(١) بدائع الزهور جـ ٢ ص ٦٣٤

إلى قبره وكان بجوار جامع شرف الدين بالحسينية حيث نشأ المتبولى ، فلما وصلا إليه قال المتبولى: الفقراء جاءوا شافعين تطيب خاطرك على ولدك هذا ، وجدت فى تلك الأثناء أن مؤذن الجامع بدأ لآذان الظهر فأنطقه الله سبحانه وتعالى بدلا من الآذان أشهدكم أنى قد رضيت عنه .

وكان رضى الله عنه يقول لأصحابه إذا غير أحدكم منكرا فليتوجه بقلبه إلى الله تعالى فى إزالته وبقلب أصحاب المنكر فيزيلوا ذلك المنكر ، وفى ذلك يقول الشيخ الشعرانى نقلا عن الشيخ يوسف ؛ : لقد كنا يوما فى حصن مسلة فرعون بالمطرية فجاء جماعة من الجند بجرار خمر فجلسوا يشربون ، فقال سيدى إبراهيم رضى الله عنه : من يزيل هذا المنكر ؟ فقال فقير أنا فوضع رأسه فى طوقه ، فما كان أسرع من أن وقع الجند بعضهم فى بعض بالدبابيس والنعال وكسروا الجرار ، ثم جاءوا واستغفروا وتابوا على يد الشيخ .

وكان الشيخ المتبولى يحب سيدى أحمد البدوى حبا عظيما ، وكان يقول وعزة ربى ما رأيت فى الأولياء أكبر فتوة من سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ولذلك آخى بينى وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو كان هناك من هو أكبر فتوة منه لآخى بينى وبينه . وكان رضى الله عنه يقول : لا تكبروا خبزى عن خبز أخى أحمد البدوى ، وكان يلبس الصوف ويتعمم به وكان له طليحية حمراء ، ويقول أنا أحمدى ، لم يقعد الشيخ المتبولى عن العمل الدنيوى حتى بعد أن وصل إلى تلك الدرجة الروحية ، فكان يعمل فى الغيط ويدير الماء وينظف القناة من الحشيش . وكان الشيخ إذا جاءه جبة أو جوخة مثمنة ، يتحزم عليها بحبل ويعزق الغيط وهو لابسها ويقول ليس للملابس الدنيا عندنا قيمة . وكان إذا فارقه أحد من مريديه إلى أصحاب الخلوات والرياضات الأخرى ، يهجره ويقول له يا ولدى أنا أريد أن أجعلك رجلا وأنت تريد أن تصير كالبومة العمياء لا تنفع أحدا .

وكان رحمه الله شديد الوطأة على الحكام والولاة لا يخشى فى الله لومة لائم ، فقد كان يقول : كل فقير لا يقتل بعدد شعر رأسه من الظلمة فليس بفقير ، وكان يعارض السلطان قايتباى فى الأمور حتى قال له السلطان يوما : إما أنا أو أنت فى مصر ، فخرج سيدى

إبراهيم رضى الله عنه متوجها نحو القدس ، فقالوا له إلى أين ، فقال إلى موضع تقف فيه حمارتى » . ويضيف هذا الشعرانى فيقول ، فوقفت بأسدود تجاه قبر سيدى سليمان فمات هناك سنة نيف وثمانمائة .

أما عن بركة الحاج التى يوجد بها جامع وضريح الشيخ إبراهيم المتبولى فيحدثنا عنها محمد رمزى[1] فى قاموسه فيقول : هى من النواحى القديمة اسمها القديم « جب عميرة » ، ويقال لها بركة الجب أو بركة الحج أو بركة الحجاج . وتكلم عنها المقريزى فقال : بركة الجب هى بظاهر القاهرة من بحريها وتسميها العامة ، بركة الحاج لنزول الحجاج بها عند سيرهم من القاهرة فى كل سنة ونزولهم بها عند العودة . وقال وهى أرض جب عميرة ، وعميرة هذا هو ابن تميم بن جزء التجيبى من بنى القرناء ونسبت هذه الأرض إليه فقيل لها أرض جب عميرة .

ويقول محمد رمزى : إن هذه الناحية عرفت بالبركة بسبب انخفاض أرضها عن منسوب الأراضى الزراعية المجاورة لها ، وهى تتبع مركز شبين القناطر وما يزال اسمها فى جداول الداخلية والمالية وارد باسم البركة فقط .

ويتحدث المسبحى عن بركة الجب فيقول : ولاثنتى عشرة خلت من ذى القعدة سنة أربع وثمانين وثلثمائة عرض العزيز بالله الفاطمى عساكره بظاهر القاهرة عند سطح الجب ، فنصبت مضرب (خيمة) ديباج رومى فيه ألف ثوب بصفريه فضة ، ونصبت له فازة (خيمة كبيرة) مثقل وقبة مثقل بالجوهر وضرب لابنه الأمير أبى على منصور (الذى أصبح الخليفة الحاكم بعد أبيه) مضرب آخر وعرضت العساكر وكانت عدتها مائة ألف عسكرى ، وأقبلت أسارى الروم وعدتهم مائتان وخمسون فطيف بهم وكان يوما عظيما حسنا لم تزل العساكر تسير بين يديه من صحوة النهار إلى صلاة المغرب .

ومازالت بركة الحاج متنزها للخلفاء والملوك من بنى أيوب ، فقد كان السلطان صلاح

---

(١) القاموس الجغرافى القسم الثانى جـ ١ ص ٣١

الدين يبرز إليها للصيد ويقيم فيها الأيام وفى ذلك يقول القاضى الفاضل فى حوادث شهر المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وفيه يخرج السلطان إلى بركة الحاج للصيد ولعب الكرة ومعه ابنه الملك العزيز عثمان الذى كان يصطاد الكراكى فيها . ثم عاد السلطان إلى القاهرة فى سادس يوم من خروجه . وظلت بركة الحاج موضع رعاية وعناية سلاطين المماليك فقد اعتنى بها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وبنى أحواشا وميدانا وبركة ، ويضيف المقريزى[1] فى وصف البركة فيقول: وأدركنا هذه البركة مراحا عظيما للأغنام التى تعلفها التركمان حب القطن وغيره من العلف فتبلغ الغاية فى السمن حتى إنه يدخل بها إلى القاهرة محمولة على العجل لعظم جثتها وعجزها لثقلها عن المشى وكان يقال كبش بركاوى .

ويصف على مبارك بركة الحاج فى القرن التاسع عشر فيقول : وبركة الحاج الآن قرية صغيرة أكثر مبانيها من اللبن على طبقة واحدة وبها جامع بمنارة مبنى بالآجر هو مسجد سيدى إبراهيم المتبولى وفى أرضها نخيل كثير وسواق معينة .

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٤٨٩

وصف الجامع

تتكون الزاوية من جامع متسع تحيط به مجموعة كبيرة من الخلاوى والغرف الصغيرة داخل فناء متسع . وقد أعدت هذه الغرف والخلاوى للوافدين والذاهبين إلى الحجيج . وبجانب المسجد توجد حجرة مربعة يعلوها قبة هى ضريح الشيخ المتبولى وإن كان هناك خلاف فى مدفنه ، فقد ذكر الشعرانى فى طبقاته[1] أنه دفن فى أسدود ولكن الراجح أنه دفن فى زاويته ببركة الحاج .

وقد بنى الأمير داوود باشا خانا ووكائل بجوار الزاوية ، فقد جاء فى كتاب درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج ومكة المعظمة ، أن المحمل كان يخرج من القاهرة إلى الريدانية (مصر الجديدة) ثم إلى بركة الحاج وطريقها فضاء وحصباء ورمل . وبالبركة نخل كثير وبعض سكان وبيوت بجوار زاوية الشيخ الصالح المعتقد إبراهيم المتبولى . وبها فسقية قديمة للماء عمرها عظيم الدولة فى عهد السلطان الأشرف برسباى وهو عبد الباسط ابن خليل الدمشقى . وأنشأ بجانبها بئرا وبستانا .

كذلك أنشأ الأمير داوود بجوار الزاوية سنة ٩٥١ هـ ساحة كبيرة تشتمل على محراب للصلاة ومعرفة القبلة وإيواءين يجلس عليها المسافرون للاستراحة من التعب .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ١٠ ص ١٧

جامــــع الخطبــاء

بمحلــة أبــو عـــلى
بمحافظة كفر الشيخ

كفر الشيخ من القرى القديمة اسمها الأصلى دمينقون وردت فى تاريخ سنة ١٨١٣ م دميلاقون وهى كفر الشيخ طلحة نسبة إلى الشيخ طلحة الشاذلى صاحب المقام الموجود بها . وقد لاحظ محمد رمزى (صاحب القاموس الجغرافى) أن الكثير من القرى المصرية القديمة قد تغيرت أسماؤها فى العصر العثمانى وسميت بأسماء المشايخ أصحاب المقامات الموجودة بها مثال دمينقون هذه التى سميت كفر الشيخ ، « والطا » التى سميت أبو العز بمركز كفر الزيات نسبة إلى الشيخ أبو العز المدفون بها ، وديروط بلهاسة التى سميت الشيخ زياد بمركز مغاغة نسبة إلى الشيخ زياد بن المغيرة المدفون بها . وآهريت التى سميت الشيخ فضل بمركز بنى مزار نسبة إلى الشيخ فضل المدفون بها . ويعلل محمد رمزى السبب فى هذا التغيير . هو رغبة أهالى هذه البلاد فى إحياء ذكرى أصحاب هذه المقامات . ولفت نظر الناس إليهم لزيارتهم والتبرك بهم فى الموالد التى تقام سنويا . ولا يخفى ما يعود على خدمة هذه المقامات من فائدة وما يكسبه أهل البلد من رواج لمحاصيلهم وتجارتهم . هذا بالإضافة إلى رغبة الأهالى فى التخلص من الأسماء المستهجنة التى لا يعرفون لها معنى . وفى سنة ١٨٣٣ م ضمت كفر الشيخ لمديرية الغربية ، وفى سنة ١٩٣١ انفصلت عن الغربية وأصبحت مديرية مستقلة ، وفى سنة ١٩٦٠ تغير اسمها إلى محافظة .

أما محلة أبو على فهى من قرى مركز دسوق بمحافظة كفر الشيخ ، وتقع على الشاطىء الشرقى لفرع رشيد . وجاء فى الخطط التوفيقية أنها كانت مدينة متسعة ومبانيها من

الآجر المكحول ، وبها كثير من المساجد والقياسر (أى طرق تجارية) على البحر . ويضيف على مبارك فيقول : ومن أهم آثار محلة أبو على الباقية جامع كبير تقام به الشعائر يعرف بجامع الخطباء وبدراسة هذا الجامع من الناحية التاريخية نستطيع أن نؤكد فى ثقة واطمئنان أنه يرجع إلى العصر المملوكى فى القرن الثامن على أكثر تقدير . وذلك اعتمادا على اللوحة الرخامية المثبتة على المدخل الرئيسى للمسجد التى كتب عليها مرسوم صدر فى عهد السلطان الناصر أبى السعادة فرج . والسلطان فرج هو ابن السلطان الملك الظاهر برقوق الجركسى الأصل المصرى المولد والنشأة . وهو ثانى سلاطين دولة المماليك الجراكسة وأمه رومية تسمى شيرين ولد سنة ٧٩١ هـ وتولى السلطنة سنة ٨٠١ هـ . وكان عمره وقتئذ عشر سنوات والمرسوم المكتوب على اللوح الرخامى مؤرخ سنة ٨٠٢ هـ . وليس من المعقول أن يكون السلطان فرج الذى يبلغ من العمر عشر سنوات هو الذى أمر ببناء جامع كبير فى منطقة تبعد كثيرا عن مقر حكمه ، مثل محلة أبو على ، ولكن الراجح أن يكون المسجد قد بنى فى عصر سابق وليس من المستبعد أن يكون والده السلطان الظاهر برقوق هو الذى أمر ببنائه خاصة وأن عصره اشتهر بكثرة المبانى والعمائر ليس فى القاهرة فحسب بل فى جميع أنحاء القطر .

ويتكون المرسوم من عشرة سطور وفيما يلى نصه :

(١) بسم الله الرحمن الرحيم

(٢) برسم المقر العالى السيفى سودون النظامى

(٣) نائب القلعة الشريفة أعزه الله تعالى آمين

(٤) يبطل ضمان الهلالى والساحل بناحية محلة أبو على غربية

(٥) وناحية جلجون فى البلاد المجاورة إليها وذلك ابتغاء وجه

(٦) الله تعالى وطلبنا لرضوانه وملعون ابن ملعون من يغيره أو يبدله

(٧) أو يجرده أو يتعرض إليه أو يغشه وما تفعلوه من خير يعلمه الله تعالى

(٨) ورسم أن يكتب بباب الجامع بناحية البلد حسب المرسوم العالى .

(٩) بتاريخ مستهل شهر جمادى الأُولى

(١٠) سنة اثنين وثمانمائة والحمد لله اللطيف بعباده

ويفهم من نص المرسوم أن القصد منه هو تخفيف عبء الضرائب المفروضة على أهالى محلة أبو علي وما جاورها من المناطق ، الأمر الذى يرجح معه أنهم قد تقدموا للسلطان بطلب تخفيف بعض الضرائب المفروضة عليهم . وإذا تتبعنا الأحداث التاريخية نجد أن مثل هذا الإجراء قد حدث فى عهد السلطان برقوق والد السلطان فرج ، عندما تقدم إليه أهالى القاهرة يطلبون تخفيف بعض الضرائب ، فقد جاء فى المقريزى : « أن الظاهر برقوق أبطل فى أيامه من المكوس ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بظاهر باب النصر ، وأبطل ما كان مقررا لمن يسرح من أمراء المماليك من أخذهم من التجار وأعيان الناس من كل واحد فرسا أو جملا أو ثمن ذلك ، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط بالديار المصرية والشامية ، عندما رأى ظلم مماليكه وتعسفهم فى جمع هذه الفروض ، واشتكى الناس إليه .

كذلك حدث فى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق أن انخفض ماء النيل واشتد المماليك فى جمع الضرائب من الأهالى وخاصة سكان الأقاليم الزراعية . ولما كان السلطان يخشى أن يثور أهل الريف فيتركوا الأرض دون فلاحة ، خاصة وأن ملكية الأرض كانت للدولة فقد أمر السلطان الأمير سودون النظامى نائب قلعة الجبل (كما جاء فى النجوم الزاهرة) أن يرسل مرسوما إلى (محلة أبو على) وغيرها من المناطق المجاورة بإعفاء أهلها من الضريبة الهلالية والساحلية .

وهذا المرسوم الذى أصدره السلطان الناصر فرج بن برقوق وثبت على جامع الخطباء على جانب عظيم من الأهمية ، لأنه أولا يعطينا فكرة عن طريقة الإعلان عن المراسيم التى تصدرها الدولة واختيار المسجد مكانا للاعلان على اعتبار أنه مكان اجتماع الناس للصلاة ، ولأنه مكان له حرمته يجب معه تنفيذ الأوامر التى يكتبها ولى الأمر على بابه . وثانيا لأنه أعطانا فكرة عن الضرائب التى كانت تجبيها الدولة طوال العصر الإسلامى ، ويقول المقريزى فى ذلك ، إن الدولة كانت تجبى نوعين من الضرائب أو الجزية أو الخراج ،

الأول يسمى المال الخراجي وهو ما يفرض على الأرض الزراعية ، وكان يعرف فى عهد المقريزى (أى القرن الخامس عشر) كذلك باسم الجوالى ، وكان يؤخذ سلفا وتعجيلا فى غرة السنة .

والنوع الثانى ويعرف بالمال الهلالى ويعرفه المقريزى بما يأتى : هو عبارة عما يتأدى مشاهرة كأجر الأملاك المسقفة من الدور والحوانيت والحمامات والأفران والطواحين وعدد الغنم والجهة الهوائية المضمونة والمحلولة واحكار البيوت وريع البساتين التى تستخرج أرضها مشاهرة ومصايد السمك ومعاصر الزيت . ويضيف المقريزى ، وكان من أبواب الهلالى جهات تسمى المعاملات وهى الزكاة والمكوس .

وإلى جانب المرسوم الذى أصدره السلطان فرج بن برقوق وتثبت أن المسجد يرجع إلى العصر المملوكى ، نجد كتابات أخرى مؤرخة تبين الإضافات والتجديدات التى تمت فى المسجد فى العصور المختلفة . فقد أنشأ الأمير خليل أغا فى العصر العثمانى مئذنة للمسجد غاية فى الدقة والإبداع، وهى تشرف على النيل لقرب المسجد منه، فتبدو ليلا وهى مضيئة وكأنها منارة لهداية السفن المارة بالنهر . وقد كتب على هذه المنارة ما نصه : جدد هذا المنار الشريف المصون مدوة الأكابر والأعيان الأمير خليل أغا ، وكان المباشر بالنيابة ، الأمير سليمان غفر الله لهم وأسكنهم فسيح الجنان فى ربيع الأول سنة ١١٣٦ هـ (١٧٢٣ م) . أما تاريخ التجديد الثانى فقد دون على لوحة رخامية مثبتة كذلك على الباب الجنوبى للمسجد ونصه : جدد هذا المسجد المبارك إبراهيم بك الدفتردار مصر حالا نجل حضرة أفندينا محمد على والى مصر غفر الله لهم آمين سنة ١٢٢٢ هـ (١٨٠٧ م) .

* * *

ويتكون المسجد من مستطيل تبلغ مساحته ٢٥×٣٠ متراً مربعا به ست صفوف من البوائك تقسم الجامع إلى سبعة أروقة موازية لحائط القبلة ، وتحتوى كل بائكة على أربع دعائم تحمل عقودا مدببة . وبالركن الشمالى الشرقى توجد المئذنة وهى تطل على النيل وقاعدتها خارجة عن بناء المسجد . وفى الجدار الشمالى للمسجد يوجد باب يوصل للمئذنة ، كما توجد غرفة خاصة بإمام المسجد ، وفى الجدار الجنوبى يوجد مدخلان للمسجد الشرقى منهما هو الرئيسى وعليه المرسوم السلطانى والثانى فى النهاية الغربية للجدار .

المدرسة والخانقاة البرقوقية
بقرافة المماليك بالعباسية
مدرسة الناصر فرج بن برقوق سنة ٨٠٣ هـ
بقرافة المماليك

أنشأ هذه المدرسة السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق ، الجاركسى الأصل ، المصرى المولد والمنشأ سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية ، وهو السلطان السادس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثانى من الجراكسة . مولده فى سنة إحدى وتسعين وسبعمائة .

جلس على تخت الملك بقلعة الجبل صبيحة موت أبيه يوم الجمعة النصف من شهر شوال سنة إحدى وثمانمائة بعهد من أبيه إليه ، وفى ذلك يقول : تقى الدين المقريزى : « ولما كان صبيحة يوم الجمعة اجتمع بالقلعة سائر أمراء الدولة واستدعى الخليفة وقضاة القضاه وشيخ الإسلام البلقينى ، فلما تكاملوا بالأسطبل السلطانى أحضر فرج بن السلطان الظاهر برقوق وخطب الخليفة وبايعه بالسلطنة وقلده أمور المسلمين وأحضرت خلعة سوداء فأفيضت على فرج المذكور ونعت بالملك الناصر وركب بشعار السلطنة وطلع حتى جلس على تخت الملك بالقصر السلطانى ، وقبل الأمراء كلهم الأرض بين يديه على العادة ولبس الخليفة تشريفا جليلا ، وصار الأتابك إيتمش مدبر ملكه وفى عام ٨٠٢ هـ قال السلطان لمدبر ملكه أنه بلغ الحلم ويريد أن يرشد وشهد بذلك سعد الدين ابن غراب ناظر الجيش والخاص كما شهد عدة من الأمراء الخاصكية ولم يكن لذلك صحة فحكم القضاة بعد البينة برشد[1] السلطان .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٢ ص ١٨٣

حكم السلطان مدة سبع سنوات ، ولما تحقق من أن بعض الأمراء يريد قتله لم يجد الملك الناصر بدا من أن يفوز بنفسه ويترك لهم ملك مصر ، فنزل من القلعة ليختفى بالقاهرة وترك بالقاهرة فى بيت ابن غراب وهو فيما بين الخليج وبركة الفيل ولما علم الأمراء باختفاء الملك الناصر طلعوا إلى القلعة ومعهم الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة واتفقوا على سلطنة الأمير عبد العزيز بن الملك الظاهر برقوق لأنه ولى عهد أخيه فى السلطنة حسب وصية والدهم الملك الظاهر برقوق فأحضروه وتسلطن وخلع الملك الناصر فرج من السلطنة وسنه نحو سبع عشرة سنة وكانت مدة حكمه الأولى من يوم أن مات أبوه الملك الظاهر برقوق إلى يوم خلع ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر[1] يوما .

بويع السلطان الملك المنصور عبد العزيز فى ١٦ ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة وقد ناهز الإحتلام[2] ، وبجلوسه على أريكة السلطنة أصبح الناس فى هدوء وأمان وتحيرت الناس فى أمر السلطان الملك الناصر فرج وكثرت عنه الإشاعات فمن قائل أنه سافر إلى البلاد الشامية ومن قائل أنه قتل وأعرض أكابر الأمراء عن الخوض فى أخبار الملك الناصر والتفتيش عليه .

قام بتدبير مملكة الملك المنصور ، القاضى سعد الدين بن غراب ، وهو يوم ذاك كاتب سر مصر وصار الملك المنصور تحت كنف أمه ليس له من السلطنة سوى الاسم ولبث بالسلطنة مدة شهرين وعشرة أيام إذ عاد الملك الناصر فرج وطلع إلى قلعة الجبل وملكها فى الخامس من جمادى الآخرة سنة ٨٠٩ هـ ثم طلب الخليفة والقضاة فحضروا وجددت له بيعة السلطنة ثانيا وثبت خلع الملك المنصور عبد العزيز .

خرج السلطان الملك الناصر فرج إلى البلاد الشامية فى أواخر سنة أربع عشرة وثمانمائة ووقع الالتحام بين الملك الناصر وبين الأمراء المنشقين عليه وانكسر الناصر فرج وانحاز إلى دمشق واستولى الأمراء على الخليفة المستعين بالله وبايعوه بالسلطنة لتستقيم الأحوال وتنفذ الكلمة وثبت خلع الملك الناصر .والإجماع على إقامة الخليفة سلطانا .

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ ١٢ ص ٣٣١
(٢) المرجع السابق جـ ١٣ ص ٤١

أما الملك الناصر ، فإنه لما تسلطن الخليفة وخلع هو من الملك ، نفر الناس عنه وصار أمره إلى إدبار إلى أن قتل فى ليلة السبت سادس عشر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة بالبرج من قلعة دمشق وكانت مدة سلطنته الأولى والثانية - سوى أيام خلعه - ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما[1] .

وكان الملك الناصر من أشجع الملوك وأفرسها وأكرمها وأكثرها احتمالا وأصبرها على العصاة من أمرائه .

وقال المقريزى[2] فى حقه : « كان الناصر من أشأم ملوك الإسلام ؛ فإنه خرب بسوء تدبيره جميع أراضى مصر وبلاد الشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات وطرق الطاغية تيمور بلاد الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة ، وخرب حلب وحماة وبعلبك ودمشق حتى صارت دمشق كوما ليس بها دار .... » . « وتكرار سفره إلى البلاد الشامية ، فما من سفرة سافر فيها إلا وينفق فيها أموالا عظيمة ، زيادة عن ألف ألف دينار ، يجبيها من دماءِ أهل مصر ومهجهم ، ثم يتقدم إلى الشام فيخرب الديار ويستأصل الأموال ويدمر القرى » .

---

(١) المرجع السابق ج ١٣ ص ١٥٠

(٢) النجوم الزاهرة ج ١٣ ص ١٥١

الوصف المعمارى

تشغل هذه المدرسة قطعة من الأرض تكاد تكون مربعة الشكل إذ تبلغ مساحتها (٨٠ × ٨٥) مترا مربعا ، وتكون هذه المدرسة وملحقاتها طرازا فريدا فى نوعه فى العمارة الإسلامية ، فهى قد جمعت بين طراز المدارس المكون من أربعة إيوانات متعامدة يتوسطها صحن وبين أسلوب المساجد المكونة من صفوف من البوائك تحصر بينها عددا من الأروقة. وإذا كانت مدرسة المنصور قلاوون بشارع المعز لدين الله قد سبقتها فى احتوائها على إيوانات وبوائك وأروقة إلا أن مدرسة المنصور قلاوون قد اقتصر البوائك والأروقة على إيوان القبلة فقط ، أما المدرسة البرقوقية فقد احتوت جميع إيواناتها على عدد كبير من البوائك والأروقة .

وإذا أضفنا إلى ما تقدم أن المدرسة البرقوقية قد احتوت كذلك على خلاو للمتصوفة من داخلها ، إذ احتوى كل من الإيوانين الشمالى والجنوبى للمدرسة على مجموعة من الخلاوى يبلغ عددها فى كل ثمانية ، وإذا كانت مدرسة بيبرس جاشنكير قد سبقتها فى احتوائها من الداخل على خلاوى للصوفية ، إلا أن تلك الخلاوى كانت تحيط بالصحن وليست داخل الإيوانات كما هو الحال فى المدرسة البرقوقية ، ومن ثم فإن المدرسة البرقوقية تعتبر من الأمثلة الفريدة فى العمارة الإسلامية التى جمعت بين تخطيط المدرسة والجامع والخانقاة ومن الأشياء التى تذكر فى عمارة المدرسة البرقوقية هو أسلوب تغطية السقوف بها ، فمن المعروف أن تغطى الايوانات المستطيلة الشكل بالإقباء أو الاقباء المتقاطعة ،

أما المدرسة البرقوقية فقد غطيت إيواناتها بقباب ضحلة مبنية من الآجر على غرار قباب أروقة الجامع الأقمر .

وتقع هذه المدرسة الجامع الخانقاه بقرافة المماليك بالعباسية ، وكان حى العباسية[1] فى الأصل يمتد جنوبا من أرض الطبالة (الفجالة حاليا وبركة الرطل) التى ظلت عامرة حتى اندثرت تماما سنة ٨٠٦ هـ وصارت خرابا يبابا وتنتهى شمالا عند بداية الريدانية (مصر الجديدة الحالية) وفى سنة ١٨٤٩ م أنشأ الوالى عباس باشا الأول ثكنات للجيش شمال هذه المنطقة ، تجاه قصر الزعفران ، ثم تبعه الأهالى والتجار فى تعمير المنطقة التى أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم العباسية نسبة إلى عباس الأول . وبعد ذلك أنشأ ضباط الجيش دورهم فى هذه الجهة وكانت الأرض تمنح مجانا لمن يريد البناء ، فاتسع العمران حتى شمل أرض الطبالة تقريبا .

الوصف الخارجى :

تشغل الواجهة الرئيسية للمدرسة الضلع الغربى للمدرسة ويبلغ طولها (٨٥ر٨) أمتار وينقسم إلى قسمين الأول يبلغ طوله (٧٠ر٥) أمتار والثانى يبلغ (١٥ر٢) أمتار ويبرز الأول عن الثانى بمقدار (٧) أمتار .

ويتكون القسم الأول من جدار الإيوان الغربى وواجهة مجموعة السبيل والكتاب ، وتتكون واجهة الإيوان الغربى من خمس حنيات مستطيلة يعلوها ثلاثة صفوف من الدلايات ويشغل كل حنية نافذتان إحداهما سفلية مستطيلة الشكل ومملوءة بمصبعات حديدية ويعلوها عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة ، أما العلوية فمكونة من نافذة قنديلية مملوءة بزخارف جصية معشقة بزجاج ملون ، ويتوج الواجهة كلها شرافات على شكل ورقة نباتية .

أما القسم الثانى من الواجهة الرئيسية الذى يبلغ طوله (٣٥ر٢) أمتار فيشغله المدخل الرئيسى ومجموعة سبيل ثانى ويقع فى الركن الجنوبى الغربى للمدرسة ، وهو مرتفع قليلا

---

(١) سعاد ماهر : القاهرة القديمة وأحياؤها ص ٧٠

عن مستوى الشارع إذ يصعد إليه بمجموعة من الدرجات دائرية يبلغ عددها خمس . ويتوسط المدخل حنية يبلغ اتساعها (٤) أمتار وعمقها (٥ر) أمتار يعلوها طاقية مدببة الشكل ملئت بمجموعة من الدلايات فى أوضاع زخرفية جميلة . ويكتنف الحنية مكسلتان يعلوهما شريط كتابى نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذه الخانقاه الشريفة الملك ناصر الدنيا والدين أبو السعادات فرج بن برقوق أدام الله أيامه » .

ويتوسط حنية المدخل باب سعته (٥ر٢) أمتار وارتفاعه (٧٥ر٣) من المتر يعلوه عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة وفوق العقد نافذة مستطيلة مملوءة بمصبعات حديدية .

ويؤدى باب المدخل إلى ردهة (دركاه) مربعة الشكل تقريبا إذ تبلغ مساحتها (٦٠ر٤ × ٤٠ر٤) من المتر، يغطيها أقباء متقاطعة يتوسطها أقبية صغيرة جدا، ويصدر الدركاة باب سعته متر يؤدى إلى ساقية المدرسة ودورة مياه مستحدثة ، وبالضلع الشمالى للدركاة باب يعلوه عقد مدبب تبلغ سعته (٦٠ر١) من المتر يؤدى إلى دهليز المدرسة ، ويتكون الدهليز من ممر طويل يبلغ (٢٤) مترا وعرضه (٢٥ر٣) من المتر غطى بعضه بسقف مقبى وترك البعض مكشوفا ، ويوجد بالضلع الشرقى للدهليز بابان سعة كل منهما (٩ر) مترا يؤديان إلى سلم للطابق العلوى . ويحصر البابان بينهما ايوان صغير مقبى كانت تشغله مزيرة ، كما يوجد فى هذا الضلع فتحة سعتها (٥ر١) أمتار تؤدى إلى مطبخ ودورة مياه المدرسة الأصلية ، أما الضلع الغربى للدهليز فيشغله ثلاث فتحات إحداهما مدخل السبيل الملحق بالمدرسة والثانية تؤدى إلى مجموعة الحجر الملحقة بالسبيل والفتحة الثالثة تفضى إلى حاصل صغير وينتهى الدهليز فى جهته الشمالية بباب مستطيل تبلغ سعته (٥ر١) أمتار يؤدى إلى صحن المدرسة .

الوصف من الداخل :

ويتوسط المدرسة صحن تبلغ مساحته (٢٥ر٣٩ × ٥ر٣٦) أمتار يحيط به الإيوانات ذات الأروقة من جهاته الأربع ، ويوجد بالصحن ست فتحات أربعة منها فى الضلع الغربى

واثنان يؤدى الجنوبى منهما إلى دهليز المدخل ويؤدى الشمالى إلى ممر طويل ضيق ينتهى إلى خلاوى الصوفية خلف الإيوان الشمالى ، أما الفتحتان الأخريان بهذا الضلع فتحتوى على باب يكتنف الإيوان الغربى ويبلغ سعته (١٫٣٠) من المتر يفضى كل منهما إلى قاعة أرضية والفتحة الخامسة بجوار الإيوان الشمالى بها باب يؤدى إلى قاعة حراس القبة الشمالية ، والسادسة تجاور الإيوان الجنوبى يتوسطها باب يفضى إلى قاعة حراس القبة الجنوبية ، وهذه الفتحات الست داخل حنيات يعلوها عقود منكسرة ويتوسطها أبواب يعلو أعتاب مكونة من صنجات معشقة فوقها نافذة مستطيلة مملوءة بمصبعات حديدية .

ويشغل الضلع الشرقى من الصحن إيوان القبلة ، ويتكون من مستطيل تبلغ مساحته (٣٤٫٢٥ × ١٧) مترا يشغله ثلاث بوائك موازية لحائط القبلة ، وتحتوى كل بائكة على ستة أعمدة مثمنة الشكل تحمل سبعة عقود مدببة . المتوسط منها الذى يقابل المحراب أوسعها إذ تبلغ سعته (٤٫٦٠) من المتر أما الجانبية فسعتها (٤٫١) امتار ويغطى الإيوان إحدى وعشرين قبة ضحلة مبنية من الآجر تقوم على مثلثات كروية ، ويتصدر الإيوان ثلاثة محاريب مجوفة أوسطها أوسعها ، إذ تبلغ سعته (١٫٢٥) من المتر بينما تبلغ سعته (٩٫) أمتار ، ويجاور المحراب الأوسط منبرا حجريا أضيف إلى المدرسة فى عهد السلطان قايتباى .

ويكتنف إيوان القبلة من الجهة الشمالية والجنوبية ضريحان ، يتوصل إليهما من بابين داخل إيوان القبلة ، تبلغ سعة باب الضريح الشمالى (٤٫٢٥) من المتر وسعة باب الضريح الجنوبى (٤٫٦٠) مترا سد جزء منها بإطار من خشب الخرط ، ويتكون الضريح الشمالى من مربع تقريبا تبلغ مساحته (١٤٫٥ × ١٤٫١٠) من المتر يتصدر جداره الشرقى محراب مجوف سعته (٨٠٫)م وعمقه (٩٫) امتار طاقيته ذات عقد مدبب زخرف تجويفه بفسيفساء رخامية ، ويكتنف المحراب نافذتان اتساع كل منهما (١٫٥) أمتار مملوءتان بمصبعات حديدية وبالضلع الشمالى للضريح توجد نافذتان مماثلتان للنوافذ الشرقية ، أما الضلع الغربى للضريح فيحتوى على فتحتا بابين اتساع كل منهما (١٫٥) أمتار يفضيان إلى قاعة الحراس المكونة من إيوان صغير مقبى مساحته (٣ × ٢٫٨٠) من المتر تتقدمه در قاعة مكشوفة مساحتها (٣ × ١٫٦) من المتر .

ويحيط بمربع الضريح شريط كتابي منقوش فى الحجر نصه : « أمر بإنشاء هذه التربة المباركة مولانا السلطان الظاهر أبي سعيد برقوق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته بمنه وكرمه فى أيام ولده مولانا السلطان الملك الناصر أبي السعادات فرج أعز أنصاره وضاعف اقتداره بمحمد وآله وذلك فى شهور سنة ثلاث وثمانمائة من الهجرة النبوية على صاحبها صلاته وسلامه .

ويعلو الضريح قبة تقوم على منطقة انتقال تحتوى على تسعة صفوف من الدلايات وقد زخرف باطن القبة بنقوش زيتية مذهبة بديعة التكوين ويوجد بالضريح تركيبة من الرخام أمامها عمود رخام نقش عليه النص التالى : « هذا ضريح العبد الفقير إلى الله تعالى السعيد الشهيد الملك الطاهر أبي سعيد برقوق قدس الله روحه ونور ضريحه أمر بوصية منه ، توفى إلى رحمة الله تعالى قبل آذان الفجر صبيحة يوم الجمعة الخامس عشر من شوال سنة أحد وثمانمائة . أحسن الله ختامها فى خير بمحمد وآله ودفن بعد صلاة الجمعة من يومه بحضور الجم الغفير من المسلمين وأئمتهم وكان يوما مشهوداً جعل الله قبره روضة من رياض الجنة بمحمد وآله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وذريته وتابعيه إلى يوم الدين وسلم آمين » .

ويشبه الضريح الجنوبى الضريح الشمالى تماما ، اللهم إلا أنه خصص لدفن نساء السلطان برقوق ، ومن ثم فقد اختلفت الكتابات الموجودة به – إذ نجد نص الكتابة التى تحيط بمربع الضريح كما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم إن المتقين[1] فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس واستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ، فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون فارتقب إنهم مرتقبون » صدق الله العظيم ورسوله الكريم ، أمر بإنشاء هذه التربة المباركة مولانا السلطان الملك الناصر فرج بن السلطان الشهيد برقوق تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته يارب العالمين وكان الفراغ فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة » .

---

(١) سورة الدخان آية ٥١ – ٥٩

ويحيط بدائرة القبة شريط كتابي منقوش بالزيت نصه: « بسم الله الرحمن الرحيم الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون[1].

ويوجد بالضريح تركيبة من الرخام نقش عليها ما نصه : « وفاة السيدة المصونة الجليلة الكبرى ذات الستر الرفيع والحجاب المنيع ذى الآدر الكريمة خوند شقرا ابنة السلطان الشهيد الملك الناصر فرج بن السلطان الشهيد برقوق تغمده الله برحمته بتاريخ يوم الجمعة مستهل شهر رجب الفرد سنة سبع وثمانين وثمانمائة من الهجرة النبوية .

ويتكون الإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة من مستطيل تبلغ مساحته (٢٥٫٥ × ١٣) مترا مربعا ويحتوى على ثلاث بوائك موازية للجدار الغربي وتتكون كل منها من أربعة أعمدة مثمنة الشكل تقوم عليها خمسة عقود مدببة ؛ الأوسط منها أوسعها، إذ تبلغ سعته (٤٫٥) أمتار والجانبي (٤٫٢٥) من المتر. ويغطى الإيوان خمس عشرة قبة ضحلة مبنية من الآجر تقوم على مثلثات كروية ، ويوجد بالجدار الغربي للإيوان خمس نوافذ يعلوها خمس أخرى قنديلية سبق الإشارة إليها عند وصف الوجهة الرئيسية . ويوجد بالضلع الشمالي للإيوان بابان سعة كل منهما متر يفضيان إلى حاصلين صغيرين سقفهما مقبي من الحجر ، وبالضلع الجنوبي بابان آخران يفضيان كذلك إلى حاصلين مقببين .

الإيوانان الشمالي والجنوبي :

تتشابه الإيوانات إلى حد كبير إذ تبلغ مساحة كل منهما (٢٩ × ٥٫٧٥) من المتر مربعا يحتوى كل منهما على بائكة واحدة موازية للجدار الشمالي والجنوبي وتتكون من أربعة أعمدة مثمنة تقوم عليها خمسة عقود مدببة ، ويغطى كل رواق خمس قباب ضحلة ،

---

(١) سورة الزخرف آية ٦٦ – ٧٣

يفتح كل رواق على ثمان خلاوى مقببة يبلغ مساحة خلاوى الإيوان الشمالى (٢٫٢٥×٣٫٢٥×١٫٢) أمتار ومساحة خلاوى الإيوان الجنوبى (٢٫٢٥ × ٢) مترا مربعا .

المئذنة :

تحتوى المدرسة على مئذنتين متماثلتين تقعان على الواجهة الرئيسية يبلغ ارتفاع كل منهما (٣٠) مترا وتحتوى على ثلاثة طوابق ، يتكون الطابق الأول من مربع يشغل كل ضلع منه على حنية يعلوها ثلاثة صفوف من الدلايات ويتوسطها نافذة تعلو عقدا ذا ثلاثة فصوص ، ويتقدم النافذة شرفة صغيرة تقوم على ثلاثة صفوف من الدلايات ، والطابق الثانى أسطوانى الشكل ويفصل بينه وبين الطابق الأول شرفة تقوم على أربعة صفوف من الدلايات فى تكوين هندسى جميل ، أما الطابق الثالث على شكل جوسق مكون من ثمانية أعمدة رخامية صغيرة ، ويتقدم الأعمدة شرفة تفصل بين الطابق الثانى والثالث ، ويعلو الطابق الثالث خوذة كمثرية الشكل فوقها هلال نحاسى .

جامع السادات الوفائية
بسفح جبل المقطم

كان الشيخ محمد النجم جد الأسرة الوفائية مغربى الأصل ولد بمدينة صفاقص بلد بتونس تقع إلى الشرق من المهدية بها بساتين كثيرة وماؤها من الآبار ، ونزح إلى ثغر الاسكندرية فى شبابه وكان كما يقول عنه السخاوى(١) من أصحاب الأحوال الباهرة والكرامات الظاهرة اجتمع بالقطب سيدى إبراهيم الدسوقى وأخذ كل منهما عن صاحبه . وقد طابت للشيخ محمد نجم الإقامة بالاسكندرية ورزق فيها بابنة سيدى محمد الأوسط والد السيد محمد وفا . وكان محمد الأوسط ، كما جاء فى جمهرة الأولياء(٢) ، مشهورا بالولاية عرف بعلمه ، وفضله ، توفى شابا عن ولده محمد وفا ودفن بزاويته المعروفة بالزاوية النجمية نسبة لولده المدفون بها أيضا بالاسكندرية .

ولد محمد وفا بمدينة الاسكندرية سنة سبعمائة واثنتين هجرية ، ونشأ منذ نعومة أظفاره ورعا تقيا محبا للعلم ، سلك طريق الأستاذ أبى الحسن الشاذلى وذلك على يد الإمام داود ابن ماخلا . ويقول الشعرانى ، إن الشيخ محمد وفا كانت له مؤلفات كثيرة ألفها فى صباه وهو ابن سبع سنين أو عشر ، فضلا عن كونه كهلا وله رموز فى منظوماته ومنثوراته مطلسمة إلى وقتنا هذا (أى وقت الشعرانى فى القرن العاشر الهجرى) لم يفك أحد فيما نعلم معناها . » ومن القصص التى يرويها الشعرانى لإظهاره كرامات الشيخ محمد وفا » أنه لما

---

(١) الضوء اللامع للسخاوى ج ٨ ص ١٢٥

(٢) جمهرة الأولياء واعلام أهل التصوف للسيد محمد أبو الفيض المنوفى ج ٢ ص ٢٥٥

دنت وفاته خلع منطقته (شارة مشايخ أصحاب الطرق الصوفية) على (الأبزارى) صاحب الموشحات ، وقال له : هى وديعة عندك حتى تخلعها على ولدى (على) ويضيف الشعرانى فيقول : وقد ألف (الأبزارى) وقت أن كانت عنده منطقة الشيخ محمد وفا أحسن الموشحات وأظرفها ، إلى أن كبر سيدى (على) ولد محمد وفا فخلع عليه منطقه والده ، ولكن (الأبزارى) أصبح لا يعرف أن يعمل موشحا واحداً »[1] .

أما عن السبب الذى من أجله عرف باسم وفا ، فتجمع المراجع التاريخية وكتب التراجم على سرد القصة التالية : « إنه سمى وفا لأن بحر النيل توقف فلم يزد إلى أوان الوفا فعزم أهل مصر على الرحيل (أى الرحيل من الاحتفال بوفاء النيل) ، فجاء سيدى محمد إلى البحر (النيل) وقال : اطلع بإذن الله تعالى فطلع ذلك اليوم سبعة عشر ذراعا وأوفى فسموه وفا . أما عن نعت أولاده وأحفاده بالسادات ، فيقول على مبارك : « إن لهؤلاء السادات فضلا تليدا وعزا قديما وجديرا فهم غنيون عن التعريف فائقون على كل شريف ، ينتهى نسبهم إلى الأدارسة الأشرف سكان المغرب الأقصى أولاد سيدنا الحسن ابن الإمام على رضى الله عنهم ، وأن أكبرهم شهرة وجلالا وأوفرهم حرمة وأحوالا سيدى محمد وفا . ويقول الشعرانى ، كان سيدنا محمد وفا من أكابر العارفين ، وأخبر ولده سيدى على أنه هو خاتم الأولياء وصاحب الرتبة العلية . ويضيف الشعرانى « أنه لما سئل ولده على أن يشرح تائبة والده لا أعرف مراده لأنه لسان أعجمى . ومن كلام الشيخ محمد وفا كما جاء فى كتابه « فصول الحقائق) : أعوذ بالله من شياطين الخلق والكون وأبالسة العلم والجهل ، وأغبار المعرفة والنكرة ، اللهم إنى أعوذ بك وبسبق قومك من سر حدودك وبظلمة ذاتك من نور صفاتك وبقوة سلوبك من ضعف إيجادك وبظلمة عدمك من نور تأثيراتك »[2] . ومن أهم مؤلفاته العديدة التى حصرها كتاب مناهل الصفاء كتاب العروس وكتاب الشعائر ، وديوان شعر عظيم .

وقد توجه محمد وفا إلى أخميم فتزوج بها ، وأنشأ زاوية كبيرة ووفدت عليه الناس

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ج ٢ ص ٢١

(٢) جمهرة الأولياء لمحمود أبو الفيض المنوفى ص ٢٥٨

أفواجا . ثم سار إلى مصر وأقام بالروضة عاكفا على العبادة مشتغلا بذكر الله تعالى وطار صيته فى الآفاق ، وتوفى رضى الله عنه بالقاهرة سنة ٧٦٥ هـ ودفن بالقرافة بين ضريح الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر والشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى رضى الله عنهم بإشارة منه . إذ قال قبل وفاته : ادفنونى بين سعد وعطا . ولما توفى الشيخ محمد وفا رضى الله عنه ترك ولديه السادة على وفا وشهاب الدين أحمد وفا وكان على إذ ذاك صغيرا فنشأ مع أخيه فى كفالة وصيهما الشيخ محمد الزيلعى ، ولما بلغ السيد على من العمر سبعة عشر عاما ، جلس مكان أبيه فى زاويته ولبس منطقته فشاع ذكره فى البلاد وكثر أتباعه ومريدوه .

ولد الشيخ على بن محمد وفا بالقاهرة سنة ٧٥٩ هـ ، كما جاء فى جمهرة الأولياء أما الشعرانى[1] فيقول : « إن سيدى على كان يقول : مولدى سحر ليلة الأحد سنة إحدى وستين وسبعمائة كما رأيته بخطه » ويضيف الشعرانى ، أنه كان فى غاية الظرف والجمال لم ير فى مصر أجمل منه وجها ولا ثيابا وله نظم شائع وموشحات رقيقة فيها أسرار أهل الطريق ، وأعطى لسان الفرق والتفصيل زيادة على الجميع ، وقليل من الأولياء من أعطى ذلك . وكان الشيخ على كثير الإقامة بمنزله بالروضة ، وله أحزاب وأوراد وتوجيهات وتصانيف كثيرة وديوان شعر . وكان رضى الله عنه كثير التحجب هو وأخوه شهاب الدين أحمد لا يخرجان إلا عند عمل الميعاد (أى الاجتماع بالمريدين) . وكان شهاب الدين أحمد ابن وفا عارفا جليلا وسيدا نبيلا ، وكان الشيخ على وفا يقول عنه ، هذا خزانة العلم وأنا أنفق منها ، وتوفى سنة ٨١٤ هـ .

وتوفى الشيخ على وفا (سنة ٨٠٧هـ أو سنة ٨٠١ هـ) وله من الذكور أبو العباس أحمد وأبو الطيب وأبو الطاهر وأبو القاسم . وقد كانت جنازته تضم خلقا كثيرا لم تر القاهرة مثلها فقد كانت جماعته وأصحابه يمشون أمامها ويذكرون الله بطريقة تهز المشاعر وتلين لها القلوب .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ٢٢

وصف المسجد

يوجد مسجد السادات الوفائية بسفح جبل المقطم بالقرب من ضريح ابن عطاء الله السكندرى وضريح أبى السعود أبى العشائر . وقد أقيم المسجد مكان زاوية تعرف باسم زاوية السادات أهل الوفا تنفيذا للفرمان الذى أصدره السلطان عبد الحميد سنة ١١٩١ هـ.

فقد جاء فى كتاب وقفية هذا الجامع الذى نشره على مبارك(١) « إنه لما ورد فرمان السلطان إلى الوزير عزت محمد باشا محافظ مصر المحمية بأن يخرج المال اللازم من الخزينة العامرة برسم عمارة الزاوية الشريفة كعبة الأسرار القدسية بسفح الجبل المقطم المعروف بغراس أهل الجنة المعروفة بزاوية السادات أهل الوفاء المشمولة بنظر سيد السادات الشيخ محمد أبى الأنوار بن وفا » . وقابل الوزير الأمر بالسمع والطاعة وفوض أمر العمارة والصرف عليها للناظر ، الذى قام بإزالة الزاوية وما تبعها من الغرف والخلاوى والمساكن والمنافع وغير ذلك من المبانى القديمة ويضيف على مبارك فى وصف المبنى الجديد فيقول : وأنشأ محل الزاوية بناء جديدا يشتمل على واجهة بحرية مبنية بالحجر الفص النحيت الأحمر بها باب مقنطر (يعلوه عقد) على جانبيه جلستان ويعلوه لوح من الرخام الأبيض نقش عليه أربعة أبيات من الشعر . وتجاه هذا الباب من الخارج يوجد سلم ذو ثلاث درجات ومصطبة برسم الركوب .

ويدخل من الباب الخارجى إلى فسحة كبيرة مستطيلة مفروشة بالحجر النحيت مبنى جهاتها الأربع بالحجر النحيت . وعلى محور الباب الخارجى يوجد مدخل المسجد فى الجهة الغربية منه ، يعلو عقد من الرخام الأبيض وفوقه لوحة من الرخام نقش فيه بالحفر البارز كتابة عربية مذهبة نصها :

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ١٣٨

« بسم الله الرحمن الرحيم وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » وقد سجل تاريخ البناء بحروف الكلم فى البيتين التاليين :

باب شريف قد رقى ببنى الوفا   الحب فيه أفضل الأقطاب
سنة ١١٩١   سنة ١١٩١
قالت لنـــا أنوار سر جنابـــه   لاشك هذا أكمل الأبواب

وبجانبى الباب دائرتان من الرخام الأبيض يمنة ويسرة ، مكتوب على اليمنى بيتان بحروف بارزة مذهبة هما :

لسلطاننا عبد الحميد مكارم   أقام بها للدين ركنا مشيدا
له النصر من آل الوفاء مؤرخ   تلوم وتبقى بالصلاح مؤيدا

وعلى الدائرة اليسرى كتب :

عبد الحميد تجاه النصر معتصم   عن الملوك بأوصاف الثنا فاقا
حزن الفلاح أبا الأنوار دم فرحا   أعطاك ربك أنورا وإشراقا

وبجوار باب المسجد توجد نافذة تطل على الإيوان البحرى للمسجد ، يعلو عقدها دائرة من الرخام مكتوب عليها بالخط البارز المذهب :

حيا الله سلطان البرية نصره   وأيده المولى الحميد بمجده
وجازاه عن آل الوفا أحسن الجزا   وأولى أبا الأنوار سائر قصده

وعلى امتداد الحائط الغربى للمسجد حيث يوجد المدخل الرئيسى وكذا النافذه يوجد باب يؤدى إلى طاحونة ومسكن فوقها ، يعلو عقده لوح من الرخام كتب عليه : قد كمل بناء هذا الحرم الوفائى السعيد بعناية الله الملك الحميد فى غاية عام إحدى وتسعين ومائة ألف من هجرة من له العز والشرف صلى الله عليه وسلم .

ويتكون باب المسجد الرئيسى من مصراعين من الخشب الجوز مصفحين بصفائح من النحاس الأصفر بكل منهما حلقة من النحاس ويعلو الباب من الداخل لوح مكتوب عليه هذا البيت :

الأولياء وإن جلت مراتبهم   فى رتبة العبد والسادات سادات

وتبلغ مساحة المسجد من الداخل ٢٩ متراً طولا فى ٢٧ متراً عرضاً ويتوسطه صحن منخفض عن الأروقة الجانبية تبلغ مساحته ٩٫٥ أمتار عرضا فى ١٤ متراً طولا ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع الأروقة ، ويتكون إيوان القبلة من رواقين وصفين من البوائك تحتوى كل بائكة على خمسة عقود مدببة ترتكز على عمد رخامية مختلفة التيجان . أما الجهات الثلاث الأخرى فتحتوى على رواق واحد يحتوى على صف من الأعمدة يبلغ عددها فى الجهتين الشمالية والجنوبية خمسة يعلوها أربعة عقود مدببة ، أما الإيوان الغربى المقابل لإيوان القبلة فيحتوى على أربعة عمد يعلوها خمسة عقود ، كما يوجد بهذا الإيوان وأمام مدخل المسجد مباشرة فتحة مثمنة فى السقف (شخشيخة) وأخرى فى الرواق الذى يليه . وأمام باب المسجد توجد طرقة منخفضة يبلغ عرضها أربعة أمتار وطولها عشرة أمتار .

ويشتمل المسجد على محراب من الفسيفساء الرخامية الجميلة الصنع والزخرفة ويتقدمه عمودان صغيران من المرمر الأبيض يعلوهما تاجان من الخشب الجوز المنقوش بالذهب وبجوار المحراب منبر من خشب الجوز زخرف جانبيه (ريشته) وكذا بابه بطريقة (الزرتشان) ويعلوه قبة من الخشب عليها هلال من النحاس المذهب وأرضية المسجد مفروشة بالبلاط ، أما أرضية صحنه فمكسوة بالرخام الملون ، أما سقف المسجد فمن الخشب وبه إزار من الخشب المدهون باللون الترجوازى وعليه كتابة باللون الذهبى قصيدة فى مدح بنى الوفا .

وبحائط القبلة وزرات كبيرة من الرخام يفصل بينها ستة عشر عمودا من المرمر يعلوها عقود مدببة ويوجد بالحائط الغربى اثنا عشر شباكا مملوءا بالجص المخرم والزجاج

الملون (قمريات) وبالسقف أربع فتحات (نمارق) وقبة من الخشب يعلوها هلال من النحاس المموه بالذهب .

وبالمسجد ثلاث خلاوٍ ، إحداهما خاصة بالخطيب وتوجد بجوار المنبر ، كتب على عتب بابها « افتح يا فتاح » و وهو تاريخ البناء بحروف الكلم . والثانية لوقاد المصابيح بالمسجد وما يتعلق بالوقادة من الأحمال والقناديل وغير ذلك ، وقد كتب على عتبها بالحروف المذهبة « الله نور السموات والأرض » والثالثة لشيخ السجادة مكتوب على عتبها بالحروف المذهبة « اللهم هب لنا الخلوة معك والعزلة عما سواك » . ويجاور الخلوة باب يوصل للمساكن ، ودواليب من الخشب الجوز المدهون بنقوش زيتية بالأسلوب التركى الجميل .

وفى منتصف صحن المسجد تقريبا توجد مقصورة العارف بالله محمد وفا وولده القطب الغوث الشيخ أبى الحسن على وفا ، وهى مصنوعة من الخشب ويحيط بها من جهاتها الأربع من أعلى إزار بارز من الخشب المدهون والمموه بالذهب . وترتكز المقصورة على قاعدة مبنية من الرخام المرمر الأبيض . وتحتوى المقصورة على باب من خشب الجوز المصفح بالنحاس المذهب . ويعلو المقصورة قبة مدهونة بنقوش زيتية وذهبية بالأسلوب التركى الجميل ، وهى ترتكز على ستة أعمدة من الرخام وست أكتاف متصلة بسقف المسجد . وقد كتب على دائرة المقصورة أبيات من الشعر مدهوفة بالذهب ، أولها :

هذه روضة وهذا مقـــــام   مزهر نوره قطب إمـــــام
هذه جنة بروض رضاهــــــا   خير آل نزيلهم لا يضـــام
بالرضـــا فى ضريح جدك أرخ   حى قطب الأقطاب هذا المقام سنة ١١٩١ هـ

وكتب على باب المقصورة بيتان هما :

إن باب الله طه جـــــدكم   ولكم قدر علىّ عن على
كل من يرجو الوفا من بابكم   وإنى من غيركم لم يدخل

وكتب على (رفرف) القبة من جهاتها الأربع آيات من القرآن الكريم بالخط المذهب وبجوار المقصورة حوض كبير من الرخام المرمر موضوع به رمل أحمر يفرش منه أرضية المقصورة على العادة المتبعة .

وبجوار باب المقصورة يوجد لوح من الرخام ذو أربعة وجوه مكتوب بالذهب على الوجه الأول النص التالى :

الأول : لا إله إلا الله الواحد الحى الدائم العلى الحكيم .

الثانى : محمد رسول الله الفاتح الخاتم أصل الوفا المشفع العظيم .

الثالث : نسب حضرة رواح أروح اللطائف المحمدية وسر من أسرار كنز المواهب الرحمانية الأستاذ أبى الحسن على وفا بن محمد بن محمد بن محمد النجم بن عبد الله ابن أحمد بن مسعود بن عيسى بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد الله بن عبد الكريم ابن محمد بن عبد السلام بن حسين بن أبى بكر بن على بن محمد بن أحمد بن على ابن أحمد بن إدريس التاج بن إدريس الأكبر بن الحسن المثنى بن الحسن سبط على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى عنه .

وبالمسجد مجموعة كبيرة من أضرحة عائلة السادة الوفائية من الأقطاب والعلماء والمتصوفين . وللمسجد مئذنة قصيرة لا تتناسب مع كبر مساحة المسجد ، وهى تتكون من دورتين . وبجوار المسجد وداخل السور الخارجى توجد مجموعة من المبانى يحتوى على قصور ومساكن تحتوى على شربيات من خشب الخرط (رو اشن) ومخازن لأمتعة الوقف وقاعة تقام فيها أسمطة الموالد ومطابخ وبيت عجين وفرن وطاحونة ووكالة لإيواء الزوار ، وصهريج كبير للمياه .

مدرسة وخانقاة ابن غراب

بشارع بورسعيد
بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ

أنشأها القاضى الأمير سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب ، كان جده قبطيا من وجهاء أهل الاسكندرية أسلم[١] فى عهد السلطان الملك المنصور علاء الدين على ابن شعبان بن حسين . وقد ذاع صيته لثرائه وحنكته وسداد[٢] رأيه ، فأسند إليه مباشرة الاسكندرية ثم رقى فأصبح ناظر الثغر ، فلما توفى عهد السلطان الملك الصالح زين الدين حاجى آخر سلاطين دولة المماليك البحرية ، حل محله ابنه عبد الرزاق الذى ولد ونشأ فى الاسكندرية ، فى نظارة الثغر ، وقد أنجب عبد الرزاق غلامين هما ماجد وإبراهيم منشئ الخانقاة .

وقد أظهر إبراهيم من الذكاء والبراعة فى علم الحساب وسرعة البديهة مما جعل الأمير جمال الدين محمود يحمله وهو ما يزال صبيا من الاسكندرية إلى القاهرة وذلك فى عهد السلطان الملك الظاهر برقوق أول سلاطين دولة المماليك الشراكسة ، وكان محمود يشغل فى ذلك الوقت شد باب رشيد بالاسكندرية ، فلما كانت أيام الظاهر برقوق خدم استادار عند الأمير سودون باق ثم أخذ يترقى فى سلم الوظائف العسكرية حتى أصبح شاد الدواوين فلما توفى الأمير بهادر المنجكى استادار السلطان . حل محله فى وظيفة الاستادارية وكان

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤١٩

(٢) السخاوى : الضوء اللامع

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٩٥

ذلك سنة تسعين وسبعمائة . ثم خلع عليه السلطان وأقره مشيراً للدولة فصار يتحكم فى دواوين الدولة الثلاثة وهى الديوان المفرد الذى يقوم بإدارته الاستادار وديوان الوزارة ويعرف بالدولة وديوان الخاص المتعلق بنظر أمور الخاصة ، وفى تلك الفترة التى عظم فيها أمر الأمير محمود ونفذت كلمته فى تصريف سائر أمور المملكة ، أحضر الصبى إبراهيم ابن غراب من الاسكندرية إلى القاهرة .

وقد اعتنى الأمير محمود بأمر الصبى إبراهيم وقرّبه منه ونال الحظوة على باقى حاشيته حتى استكتبه فى خاص أمواله حتى عرف كل كبيرة وصغيرة عن الأمير محمود وعن أمواله وأملاكه ، وقد أثار قرب إبراهيم وحظوته عند الأمير محمود أحقاد زملائه عليه ، فدسوا له عند سيده ، فتنكر له الأمير محمود وهم بطرده والإيقاع به ، ولكن ذكاء إبراهيم وسرعة بديهته جعلته يعمل بسرعة فاتصل بالأمير علاء الدين على بن الطبلاوى وكان من أكبر منافسى وحساد الأمير محمود وأوغر صدره عليه ، وطلب منه أن يوصله للسلطان فكان له ما أراد ، فملأ أذنه بذكر أموال محمود ، فأصدر السلطان أمراً بتصفية أمواله ومعاقبته حتى يموت .

وقد كافأ السلطان إبراهيم بن غراب فولاه ديوان المفرد وذلك سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وعمره عشرون سنة أو نحوها وهى أول وظيفة عسكرية يتولاها ، وقد رأى بثاقب فكره أن يعمل على استمالة ابن الطبلاوى فلازمه وملأ عينه بكثرة المال ، إذ دله على خربة خلف مدرسة محمود بها زيرين كبيرين وخمسة صغار فيها ألف ألف درهم فضة وغيرها كثير ، مما جعل ابن الطبلاوى يسعى له لدى السلطان حتى ولاه نظر ديوان الخاص بالإضافة إلى ديوان المفرد ، وذلك بدلا من الأمير سعد الدين أبى الفرج بن تاج الدين موسى .

وفى سنة ثمانمائة أضيف إليه نظر الجيوش ، فعف عن تناول الرسوم المخصصة لهذه الوظيفة واكتفى بإقطاعه وأظهر من الفخر والحشمة ومكارم الأخلاق مما جعل السلطان يصطفيه ويجعله من جملة أوصيائه ، وبعد وفاة السلطان برقوق تولى ولده السلطان فرج ابن برقوق ، عاون وباطن الأمير يشبك الخازندار على إزالة الأمير الكبير اينمش القائم

بأمور الدولة ، وطرده إلى الشام وتحكم الأمير يشبك مكانه ، عند ذلك أحس إبراهيم ابن غراب بأن الأمور قد استقرت بالنسبة له ، فأرسل فى استدعاء أخاه فخر الدين ماجدا الذى كان يلى نظارة الاسكندرية إلى قلعة الجبل حيث فوضت له وزارة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وهكذا قام هو وأخوه بسائر أمور الدولة حتى أمور الاستادارية التى تقلدها عوضا عن الأمير يلبغا السالمى بعد أن سعى به عند الأمير يشبك حتى قبض عليه ، ومن ثم فقد أصبح له ديوان كدواوين الأمراء ودقت الطبول على بابه وخاطبه الناس وكاتبوه بالأمير ، وقد سار فى ذلك سيرة الملوك فى كثرة العطاء ومد الأسمطة والولائم والازدياد من شراء المماليك والخيول .

وفى عهد السلطان الملك الناصر فرج عز على بن غراب ما صارت إليه أمر فتح الدين فتح الله كاتب السر من الرفعة والمكانة السامية ، فسعى به حتى قبض عليه وولى مكانه كتابة السر . فلما استقر فى كتابة السر أخذ فى تأليب الدولة ضد السلطان بينما تظاهر ابن الغراب أنه فى جانب السلطان فأخذ يحسن له الفرار فانقاد له ، فأعد له رجلين أحدهما من مماليك ابن غراب ومعهما فرسان ، وسارا إلى ناحية طرا ثم عادا مع رجلين من أتباع ابن غراب فى مركب نيلية ليلا إلى دار ابن غراب ونزلا عنده وقد خفى ذلك على جميع أهل الدولة ، وفى هذه الأثناء قام ابن غراب بتولية عبد العزيز بن برقوق وأجلسه على عرش السلطنة ولقبه بالملك المنصور ودبر الدولة كما أحب واشتهى مدة سبعين يوما إلى أن أحس بتغير أمراء المماليك ضده ، فأخرج الناصر فرج ليلا من داره وجمع عليه عدة من الأمراء وركب معه إلى القلعة فلم يلبث أصحاب المنصور أن انهزموا وتفرقوا ، فاستولى الناصر فرج ثانية على السلطنة ، فألقى مقاليد الدولة إلى ابن غراب وفوض إليه ما وراء سريرة ونظمه فى خاصته وجعله من أكابر الأمراء وناط به جميع الأمور فأصبح مولى نعمة كل من السلطان والأمراء ، فسار فيهم سيرة حسنة فأعاد إليهم كل ما كان قد سلبوه وأمدهم بماله ، حتى كان ابن غراب يفتخر فيقول أنه أقام دولة وأزال دولة ثم أزال ما أقام ولو شاء لأخذ الملك لنفسه .

وترك ابن غراب كتابة السر لغلامه وأحد كتابه فخر الدين بن المزوق ، ترفعا عنها

واحتقارا لها ولبس هيئة الأمراء وهى الكلوتة (طاقية) والقباء وشد السيف فى وسطه وتحول من داره التى على بركة الفيل إلى دار بعض الأمراء بحدرة البقرة ، فناضبه القضاه .

ولكن المرض انتابه وهو فى مقتبل العمر ، وقد لاقى من الرعاية والعناية أثناء مرضه حتى قال عنه المقريزى : « فنال فى مرضه من السعادة ما لم يسمع بمثله أحد من أبناء جنسه وصار الأمير يشبك ومن دونه من الأمراء يترددون عليه فإذا دخلوا ظلوا قائمين على أقدامهم حتى ينصرف ، ولكن المرض لم يمهله فمات فى شهر رمضان سنة ثمان وثمانمائة ولم تبلغ سنه ثلاثين سنة ، وكانت جنازته من الأمور المشهودة فى ذلك الوقت ونزل السلطان للصلاة عليه وصعد إلى القلعة فدفن خارج باب المحروق .

وكان ابن غراب من أحسن الناس شكلا وأجملهم منظرا وأكثرهم سخاء مع تدين وتعفف عن الصغائر وبسط يده بالصدقات ، إلا أنه كان غدارا لا يتوانى عن طلب عدوه ولا يرضى من نكبته دون إتلاف النفس .

الوصف المعماري للمدرسة والخانقاة

تقع المدرسة خارج القاهرة على الخليج الكبير (شارع بورسعيد حاليا) على ضفته الشرقية فى مواجهة جامع بشتاك (فاضل باشا حاليا) بالقرب من قنطرة سنقر . وتشغل المدرسة مساحة غير منتظمة وهى مستطيلة الشكل ، يتوسطها صحن مكشوف صغير يحيط به أربعة إيوانات أكبرها إيوان القبلة ويليه الإيوان الغربى المقابل له ، أما الإيوانان الشمالى والجنوبى فصغيران (سدلتانَ) . وكانت خلاوى الصوفية تكتنف السدلتان ، كما تشغل الطابقين الثانى والثالث .

وقد اقتطعت أجزاء كثيرة من هذه المدرسة الخانقاة بعد ردم الخليج الكبير وشق الشارع الذى يقع إلى شرقيها ، والجزء الباقى منها يشغله الآن إدارة الآثار الإسلامية بهيئة الآثار المصرية .

جامع الشيخ مطهر

بشارع المعز لدين الله « شارع الصاغة »

يقع هذا الجامع بشارع المعز لدين الله (الصاغة) عند تقاطعه بشارع السكة الجديدة وكان الجامع فى الأصل مدرسة دينية كانت تعرف بمدرسة السيوفية ، التى يقول عنها المقريزى هذه المدرسة بالقاهرة وهى من جملة دار الوزير المأمون البطائحى ، وقفها السلطان صلاح الدين الأيوبى على المذهب الحنفى ، وقرر فى تدريسها مجد الدين محمد بن محمد الحينى » . ويضيف المقريزى[1] فيقول : وعرفت بالمدرسة السيوفية من أجل أن سوق السيوفيين كان حينئذ على بابها ، وهى الآن (أى فى القرن ١٥ م زمن المقريزى) تجاه سوق الصنادقين .

وقد قرر صلاح الدين مخصصات ومرتبات سخية للقائمين على التدريس والعاملين بها وكذا الطلبة والملاحظين ، فقد رتب للمدرس فى كل شهر أحد عشر دينارا كما وقف صلاح الدين سنة ٥٧٢ هـ اثنين وثلاثين حانوتا بخط سويقة أمير الجيوش وباب الفتوح وحارة برجوان . وكانت المدرسة السيوفية أول مدرسة وقفت على المذهب الحنفى بالديار المصرية وظلت بأيديهم حتى القرن (١٨) م .

وكان بجوار المدرسة السيوفية مسجد يعرف بمسجد الحلبيين ، ذكره المقريزى[2] فقال : هذا المسجد فيما بين باب الزهومة (أحد أبواب القصر الفاطمى الكبير وسمى بالزهومة

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٤ ص ١٩٦

(٢) الخطط جـ ٤ ص ٢٦٥

لأنه باب مطبخ القصر وكانت له رائحة زهمة) ودرب شمس الدولة بنى على المكان الذى قتل فيه الخليفة الظافر الفاطمى . فقد استدعاه وزيره نصر بن عباس إلى داره التى كانت تعرف دار المأمون محمد بن فاتك البطائحى ، فقتله ودفنه بها وأخفى أمره . فلما قدم الصالح طلائع بن رزيك من المنيا إلى القاهرة باستدعاء أهل القصر له ليأخذ بثأر الخليفة هرب عباس وولده نصر إلى الشام سنة ٥٤٩ هـ » . ويكمل ابن تغرى بردى القصة[1] فيقول : وملك الصالح طلائع ديار مصر من غير قتال ، وأتى إلى دار عباس المعروفة بدار المأمون بن البطائحى التى هى اليوم المدرسة السيوفية الحنفية ، فاستحضر الخادم الصغير الذى كان مع الظافر لما نزل سرا ، وسأله عن الموضع الذى دفن فيه فعرّفه به ،

فقلع البلاطة التى كانت على الظافر ومن معه من المقتولين ، وحملوا وقطعت عليهم الشعور وناحوا عليهم بمصر، ومشى الأمراء قدام الجنازة إلى تربة آبائه المعروفة بتربة الزعفران (مكانها الآن خان الخليلى) .

ويقول المقريزى « وبنى موضع القصر مسجد سمى باسم المشهد (المشهد اصطلاح معمارى يقصد به أضرحة الشيعة من آل البيت) وعمل له بابين أحدهما باب المسجد الرئيسى ، والباب الثانى كان يتوصل منه إلى دار المأمون البطائحى ، وقد سد الباب الثانى وما برح هذا المسجد يعرف بالمشهد إلى أن أقطع فيه محمد بن أبى الفضل بن سلطان ابن عمار بن تمام الجعبرى المعروف بالخطيب . وكان صالحاً كثير العبادة زاهداً منقطعاً عن الناس ورعا سمع الحديث وحدّث . ويضيف المقريزى فى وصف المسجد فيقول : وهذا المسجد من أحسن مساجد القاهرة وأبهجها .

وقد ذكر السخاوى[2] صاحب كتاب تحفة الأحباب ، أنه قد أقام بهذا المسجد عدد من أولياء الله الصالحين وخص بالذكر منهم الشيخ عز الدين بن أبى العز المدفون بداخل مسجد الحلبيين ، إذ يقول : وأقام بهذا المسجد الشيخ الصالح العارف بالله تعالى عز الدين

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣١٠
(٢) تحفة الأحباب وبغية الطلاب ص ٨٢

ابن أبى العز محمد المدعو عبد العزيز الذى ينتهى إلى ابن قيس الحرانى أحد أصحاب القطب العارف بالله محى الدين عبد القادر الكيلانى . أما نسبه من قبل أمه فهو عبد العزيز ابن محمد بن المرأة الصالحة زينب بنت ظهير الدين ابن عماد الدين الذى ينتهى إلى شيخ الإسلام أبى بكر عبد الرزاق بن القطب العارف عبد القادر الكيلانى . وكان الشيخ عز الدين له اليد الطولى فى علم التصوف ومعرفة الطريق . ويسهب السخاوى فى وصف أحواله وانفعالاته النفسية التى تصاحب أولياء الله من المتصوفين المنقطعين للعبادة فيقول « والغالب عليه فى آخر عمره الجذب (لعلها الغيبوبة) مع الصحو ، وكانت أحواله عجيبة ، قد ولى التكلم عن السادة الأشراف أولادسيدى عبد القادر الكيلانى على الفقراء القادرية توفى سنة ٨٠٩ هـ ودفن داخل مقصورة هذا المسجد .

ولما كان مسجد الحلبيين بجوار المدرسة السيوفية فإن على مبارك يرى وانى أؤيده ، فيما ذهب إليه فى أن جزءا كبيرا من مسجد الحلبيين وخاصة مقصورة ولى الله عز الدين ابن أبى العز قد دخلت فى المدرسة السيوفية التى أعيد بناؤها وأصبحت تعرف باسم جامع المطهر فى القرن (١٨) م ، فقد جاء فى الخطط التوفيقية[١] : وليس لمسجد الحلبيين اليوم أثر ولعله أدخل منه جانب فى المدرسة السيوفية لما بنيت جامعا . وفى هذا الجامع ضريح يزار يقال له الشيخ مطهر عرف الجامع به ، لم نقف له على ترجمة حتى الآن » ويضيف على مبارك فيقول : « ولو ثبت دخول شئ فى هذا الجامع (أى جامع المطهر) فمن المحتمل أن يكون هذا الضريح الذى يعرف بضريح المطهر ، هو ضريح الشيخ الولى العارف بالله عز الدين بن أبى العز » . وقد عرف جامع المطهر لفترة طويلة باسم جامع عطية[٢] المطهر وهذه التسمية ترجع إلى عهد الأمير عبد الرحمن كتخدا ، فقد جاء « أن الشيخ عطية المذكور هو الإمام الفقيه العلامة الشيخ عطية بن عطية الأجهورى الشافعى البرهانى الضرير . ولد بأجهور الورد إحدى قرى مصر ، قدمها وتفقه على العلماء الأعلام وأتقن الأصول وسمع الحديث وذاع صيته واشتهر وحضر دروسه معظم علماء مصر المعاصرين له

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ١١٦

(٢) السخاوى تحفة الأحباب ص ٨٢

واعترفوا بفضله ولما بنى الأمير عبد الرحمن كتخدا هذا الجامع بنى للشيخ عطية بيتا فوق السبيل سكن فيه هو وعياله وبقى به إلى أن توفى فى أواخر رمضان سنة ١١٩٠» .

ومن الأسباب التى تؤيد على مبارك فيما ذهب إليه من أن جامع المطهر يحتوى على ضريح ولى الله عز الدين بن أبى العز حفيد عبد القادر الكيلانى ، اعتناء الأمير عبدالرحمن كتخدا عناية فائقة ، بل أكثر من ذلك فقد بنى بالجامع وبجوار الضريح الموجود به ضريحا دفن فيه أمه . كما رتب له ما تقام به شعائره الدينية وجعل فيه مدرسين وطلبة وقراء وعين له جانبا عظيما من ريع أوقافه الجمة وعين لكل وظيفة راتبا معلوما . فقد جاء فى كتاب وقفيته : أنه يصرف فى معالم الخدمة من فراشين ووقادين ومؤذنين وبوابين ونحو ذلك كل سنة ثمانية آلاف ومائتان وثمانون نصف فضة (يساوى عشرة قروش) وفى لوازم المزملة (السبيل) والصهريج اللذين بجواره سبعة آلاف وثلثمائة وخمسة عشر نصفا وفى لوازم المكتب (أى الكتاب الذى يعلو السبيل) الذى فوق الصهريج عشرة آلاف وخمسمائة نصف فضة . ومن المبايعات والإخراجات (أى للأشياء التى تشترى بدلا من الأشياء التالفة) اثنا عشر ألفا وثلثمائة وخمسة وستون نصفا فضة سنويا ، وثمن أربعة من فحول الجاموس تذبح فى عيد الأضحى وتفرق على أهل المسجد والفقراء ، وماء عذب سبعة آلاف وتسعمائة نصف فضة .

وقد جاء فى الخطط التوفيقية[1] : أن جامع المطهر كان متسعا فأخذ منه عند فتح شارع السكة الجديد فى عهد محمد على جانب ، ثم عمر ما بقى منه ولم يزل مقام شعائر الجمعة والجماعة إلى اليوم ، وفيه درس فى فقه الإمام مالك كل أسبوع مرة وعين لذلك شيخ رواق ـ الصعايدة بالأزهر بمرتب من وقف هذا الأمير .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ٢٣

وصف الجامع

يوجد المدخل الرئيسى للجامع فى شارع المعز لدين الله (شارع الصاغة بجوار محل السرجانى) وبجانب المدخل من الجهة الشمالية يوجد السبيل تعلوه قاعة مخصصة لشيخ الجامع ويعلو هذه القاعة الكتاب الوارد ذكره هو والسبيل فى وقفية الأمير عبد الرحمن كتخدا وتحتوى الواجهة وكذا السبيل على نقوش نباتية وهندسية وكتابية بارزة فى الحجر ، وبعضها فى الرخام تمثل الطراز التركى أحسن تمثيل . ويؤدى المدخل إلى دهليز متسع فى الجهة اليمنى منه يوجد درج مكون من قالبتين يؤدى إلى القاعة التى تعلو السبيل والمخصصة لشيخ الجامع وبجانب هذا الدرج وإلى الغرب منه يوجد درج آخر يوصل إلى الكتاب وإلى مئذنة الجامع التى تعلو الواجهة الشرقية . وبالجانب الشمالى من الدهليز وبعد مبنى السبيل والكتاب توجد مصلى فى صدرها محراب فى الجهة الشرقية والجانب الجنوبى منها مفتوح كلية على الدهليز يتقدمه عمودان يحملان ثلاثة عقود مستديرة . أما الجانب الشمالى منها فيوصل إلى طرقة فى الجهة الغربية منها يوجد باب يؤدى إلى إيوان الصلاة وفى الجهة الشمالية منها توجد دورة المياة .

وينتهى الدهليز الممتد من المدخل الرئيسى من الجهة الغربية بإيوان الصلاة ،

وفى اعتقادى أن إيوان الصلاة الذى يوجد فى النهاية الغربية للجامع والذى يحتوى على الأضرحة ، هو الجزء الذى أخذه الأمير عبد الرحمن كتخدا من مسجد الحلبيين حيث يوجد ضريح ولى الله عز الدين بن أبى العز وأضافه إلى المدرسة السيوفية ذلك أن موقعه يتفق تماما مع موقع مسجد الحلبيين كما جاء فى كتب الخطط والمراجع التاريخية .

ويتكون إيوان الصلاة من مستطيل يقسمه صفان من البوائك إلى ثلاثة أروقة ، ويتكون كل رواق من ثلاثة أعمدة رخامية تحمل أربعة عقود شبه مستديرة ممتدة . وفى

الرواق المتوسط توجد فتحة كبيرة مربعة (شخشيخة) للإضاءة والتهوية . وفى وسط جدار القبلة يوجد المحراب الرئيسى وإلى يساره توجد نافذة كبيرة وباب كبير هو المدخل الرئيسى لهذا الإيوان . ويؤدى هذا الباب إلى طرقة مكشوفة تتقدم إيوان الصلاة ، يبدو فيها واضحا أن هذا الإيوان كان أوسع مما هو عليه الآن من الجهة الجنوبية ثم اقتطع منه جزء آخر فى شارع (السكة الجديدة) .

وفى وسط الجدار الغربى لإيوان الصلاة يوجد ضريح ، عبارة عن حجرة مربعة بأركانها الأربعة مقرنصات كبيرة جميلة الصنع . ويعلو المقرنصات رقبة مثمنة يوجد بها أربع نوافذ مملوءة بالجص المخرم والزجاج المتعدد الألوان . وإلى الجنوبى من هذا الضريح توجد مقبرة تعلوها تركيبة من الرخام عليها نقوش كتابية مذهبة بها آيات قرآنية ، كما نقش عليها اسم صاحبة المقبرة وهى السيدة آمنة والدة الأمير عبد الرحمن كتخدا . والسقف الذى يعلو هذا القبر خشبى به نقوش زيتية جميلة تماثل النقوش الموجودة على السقف الخشبى الذى يغطى إيوان الصلاة .

جامع الشيخ الزاهد

بشارع سوق الزلط المتفرع من ميدان باب الشعرية

هو الشيخ أحمد بن سليمان الزاهد ، أخذ الطريق عن الشيخ حسين الآدمى ، الذى أتى من مراكش فى القرن التاسع الهجرى واستقر بمنطقة الحسينية . ويذكر الشيخ الزاهد من كراماته القصة التالية : كنت جالسا عنده يوما فجاءه يهودى وقدم رجله وهى فى النعل، وقال يا مسلم اقطع لى هذه الجلد التى تؤذينى ، فقال بسم الله وأخذ الشفرة وقال الله أكبر ، فصاح اليهودى ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ثم يضيف الشيخ الزاهد فيقول : « ثم قال لى : يا أحمد إن عشت افعل كذا وأوصاه بعدة وصايا .

ويقول الشيخ أحمد عن نفسه : « بينما أنا ذاهب إلى المكتب (أى المدرسة أو الكتاب) وأنا صبى ، عارضنى شخص من أولياء الله أشعث أغبر فطلب منى غذائى فأعطيته له وعزمت على الجوع فأخذه منى وقال لى : يا أحمد تبنى لك جامعا فى خط المقسم وتلقب بالزاهد ويعارضك فى عمارته جماعة ويخذلهم الله عز وجل وتصير المشار إليه فى مصر ويتربى على يديك رجال . فكان الأمر كما قال ، ولم أجتمع بذلك الرجل بعد ذلك اليوم .

ويقول عنه الشعرانى ، هو الشيخ الإمام العالم العامل الربانى شيخ الطريق وفقيه أهلها ربى الرجال وأحيا طريق القوم بعد اندراسها ، وكان يقال له « جنيد القوم » . ويقول

---

(١) الطبقات الكبرى .

(٢) تحفة الأحباب .

السخاوى ، كان يتستر بالفقه لا تكاد تسمع منه كلمة واحدة من دقائق القوم ،فكان يشغل مجلسه وتلاميذه ومريديه فى أمور الدين والعلم ، فلا يترك لهم مجالا للخوض فى أمور الدنيا وأحوال الناس ، وله عدة رسائل فى أمور الدين والحث على عدم الخوض فى أمور الناس .

ومما يذكر للشيخ الزاهد بالفضل والفخر أنه خصص وقتا معينا لتفقيه النساء فى أمور دينهن فكان يعظ النساء فى المساجد ويخصهن دون الرجال ويعلمهن أحكام دينهن وما عليهن من حقوق الزوجية والجيران ، ويقول الشعرانى : « وعندى بخطه نحو ستين كراسا فى المواعظ التى كان يعظها لهن وكان رضى الله عنه يقول : « هؤلاء النساء لا يحضرن دروس العلماء ولا أحد من أزواجهن يعلمهن » .

أما عن تسميته بالزاهد ، فيقص علينا الشيخ محمد الحريفيش الدنوشرى ، وكان معاصرا له وكثير التردد عليه ، قال : وإن كان كل ولى لابد له من الزهد ومع ذلك فلم يشتهر به فى مصر إلا هو فقط ، وذلك لأنه صنع مرة بالكيمياء نحو خمسة قناطير ذهبا ، ثم نظر إليها وقال أف للدنيا ثم أمر بطرحها فى سرداب جامعه ، فأشهره الله تعالى من ذلك اليوم بالزاهد .

وكان سيدى أحمد لا يدخل إلى بيته من الجامع إلا بعد صلاة الجمعة ، فكان يصلى ويدخل فيمكث إلى العصر ، وكان يقول ما دخل أحد إلى مسجدى هذا ثم صلى ركعتين إلا أخذت بيده فى عرصات القيامة ، فإن الله شفعنى فى جميع أهل عصرى . وكان رضى الله عنه ، كما يقول الشعرانى ، يستر نفسه ولا يذكر قط شيئا من الكشف إلا على لسان بعضهم ، ومما يروى عنه ، أنه أخلى مرة مريدا ، فكشف للمريد أن الشيخ (أى الشيخ الزاهد) من أهل النار فتوجه إلى الله أن يمحو اسم شقاوته ، فدق الشيخ على المريد فى خلوته وقال يا ولدى أنا لى ثلاثين سنة أرى ذلك ، ولا اعترضت ولا سألت التغيير ، وأنت فى ساعة واحدة تقلقلت ، ثم توجه الفقير فوجد الشيخ وقد حول اسمه فى السعداء ، فقال له دعوت الله ثلاثين عاما فما استجاب لى ودعوته أنت ساعة فأجابك .

وكان الشيخ الزاهد دقيقا فى اختيار المريد ، فقد كانت مدة الاختبار تمتد سنة أو أكثر بل إنها وصلت مع الشيخ الغمرى إلى عشر سنوات ، ويحدثنا السخاوى فى هذا الموضوع فيقول لما جاء سيدى محمد الغمرى ليأخذ عنه الطريق ، وافق دخوله القاهرة بعد العشاء وكان الشيخ الزاهد قد أغلق باب الجامع ، فقال الغمرى ، افتحوا لنا ، فقال الشيخ نحن لا نفتح الجامع بعد العشاء ، فرد الغمرى ، إذ المساجد لله ، فقال الزاهد ، هذا نفس فقيه ، افتحوا له الباب . فلما دخل طلب مقابلة الشيخ الزاهد فلما سئل عن السبب قال : اطلب الطريق إلى الله ، فقال له الشيخ ما أنت من أهلها ، فقال ببركة الشيخ أكون إن شاء الله أهلا لها ، فتعرف له الشيخ فعرفه ولقنه الذكر ، فجعله أولا خادما فى الميضأة ثم نقله إلى البوابة ثم نقله إلى الوقادة فمكث عشر سنين . وذات ليلة نام عن الوقود فى الفجر ، فخرج إليه الشيخ الزاهد فقال : يا محمد ، فقال : نعم ، قال : أوقد للجامع وهنا يقول الشعرانى : فجال الغمرى بيده وحلق على الجامع فأوقدت مصابيحه كلها ، وهنا اطمأن الشيخ الزاهد أن مريده قد وصل الطريق فأذن له بالسفر إلى بلبيس لكى ينتفع الناس به قائلا له : ما بقى لك إقامة هنا . أما مريده الثانى الشيخ مدين ، فقد جاء إلى الشيخ الزاهد بعد أن كان قد اشتغل بالعلم زمانا ، فأخذ عليه العهد واخلاه ففتح الله عليه ثالث يوم ، فكان الشيخ أحمد يقول : كل الناس جاءونا وسراجهم مطفأ إلا مدين فإنه جاء وسراجه موقد فقويناه له .

ومن المريدين الذين كان لهم شأن يذكر فى تاريخ حياة الشيخ أحمد الزاهد ، الشيخ عبد الرحمن بكتمر ، فقد جاء فى ترجمته ، أن الشيخ الزاهد « دخل يوما بيته بعد صلاة العصر ، فرأى أهله يضحكون وهم مبسوطون فقال ما لكم ؟ قالوا شخص يسمى عبد الرحمن بن بكتمر أرسل إلينا لحما وملوخية وعسلا وقال اطبخوا وكلوا فقال الشيخ وجب حقه علينا ، فأرسل وراءه وأخذ عليه العهد » ، ويضيف الشعرانى فى ترجمة بكتمر فيقول : وكانت مجاهدته فوق الحد وقد رأيت له حبلا مربوطا فى السقف فى خلوته فوق ميضأة جامع سيدى أحمد الزاهد فكان لا يضع جنبه الأرض سنين حتى وقع له الفتح وكان من أمره ما كان » .

وقد أنشأ الشيخ الزاهد جامعا وبنى عدة خلاوى وغرف لتلاميذه ومريديه ويحدثنا المقريزى[1] عن هذا الجامع فيقول : هذا الجامع بخط المقس خارج القاهرة (الحى المحصور الآن بين ميدان باب الشعرية والفجالة ويعرف الآن باب البحر) كان موضعه كوم تراب فنقله الشيخ أحمد المعروف بالزاهد وأنشأ موضعه هذا الجامع فكمل فى شهر رمضان سنة ثمان عشرة وثمانمائة وهدم بسببه عدة مساجد قد خرب ما حولها وبنى بأنقاضها هذا الجامع » .

ويذكر المقريزى[2] عند حديثه عن جامع الجاكى« وعندما تعطل جامع الجاكى من ذكر الله وإقامة الصلاة لخراب ما حوله حكم بعض قضاة الحنفية ببيع هذا الجامع فاشتراه شخص من الوعاظ يعرف بالشيخ أحمد الواعظ الزاهد صاحب جامع الزاهد بخط المقس وهدمه وأخذ أنقاضه فعملها فى جامعه الذى بالمقس فى أول سنة سبع عشرة وثمانمائة وقد أنكر عليه جماعة من العلماء أخذه أنقاض المساجد الخربة لبناء مسجده ، منهم الشيخ سراج الدين البلقينى الذى بالغ فى إنكاره ، فقال الشيخ الزاهد ، ماذا ينكر علينا ، فقالوا يقول إنك تأخذ طوب المساجد الخراب تبنى بها جامعا ، فقال كلها بيوت الله » ويضيف الشعرانى[3] على هذه الرواية فيقول : « وقد عارضه من العلماء جماعة منهم شيخ الإسلام بن حجر العسقلانى وجمال الدين صاحب الجمالية الذى منع (تراب) عامل الشيخ الزاهد من أن ينقل تراب عمارة جامع الشيخ » . وقد استاء الشيخ الزاهد من هذا التصرف أشد الاستياء وقال : كل فقير لا يظهر له برهان (أى كرامة) لا يحترم له جناب ثم وضع رأسه فى طوقه وتوجه فى تغير خاطر السلطان الناصر فرج بن برقوق على جمال الدين ، فأرسل السلطان فى الحال أمرا بحبس جمال الدين ولم يذكر له ذنبا ولم يزل جمال الدين محبوسا حتى فرغ الشيخ من تعمير الجامع وقال الشيخ لتراب انقل الأنقاض وقلبك قوى ، سوف لا نطلقه من الحبس حتى تفرغ .

---

(١) الخطط جـ ٤ ص ١٣٥
(٢) الخطط جـ ٤ ص ١١٥
(٣) الطبقات الكبرى ص ٨١

ويصف على مبارك[1] جامع الزاهد فيقول : وجامع الزاهد فى شارع سوق الزلط بجوار منزل الشيخ العروسى على يمين الذاهب إلى باب البحر وفيه اثنا عشر عمودا من الرخام وتسعة من الزلط غير عمودى المحراب وأربعة أعمدة عليها الدكة . وبه منبر وخطبة وله مطهرة (أى الميضأة) وساقية ومنارة وشعائره مقامة وله وأوقاف ذات ريع » .

وقد أقام الشيخ الزاهد عدة مساجد فى القاهرة وغيرها غير جامعه المعروف باسمه فقد جاء فى تحفة الأحباب[2] أنشأ الشيخ الزاهد مساجد وخطبا بالقاهرة وغيرها وكان يعمل الميعاد فى مواضع من القاهرة وقد أقامه الله فى صنع المعروف وأنشأ خطبة هذا الجامع (يعنى جامعه) » .

ولما حضرت الشيخ أحمد الزاهد الوفاة تطاول بعض الفقراء (أى المتصوفين) كما يقول الشعرانى[3] ، للإذن له بالجلوس فى الجامع بعد الشيخ ، فجمعهم الشيخ وقال أنا أقسم بينكم الميراث فى حياتى لئلا تتنازعوا بعدى ، فقال للشيخ محمد الغمرى ، يا محمد إن خيرك فى الطريق لذريتك ما لأصحابك منه شى سوى الرشاش ، وقال للشيخ مدين ، يا مدين أنت خيرك لأصحابك ما لذريتك منه شئ وقال للشيخ عبد الرحمن بكتمر ، يا عبد الرحمن أنت خيرك لنفسك ما لذريتك ولا لأصحابك منه شئ ، وكان يقول الطريق بالمواهب ولو كانت بالاختيار كان ولدى أحق بها وكان يقول يا من يربى لنا ولدنا ونربى له ولده .

وكان الشيخ الزاهد يعرف لنفسه قدرها فلا يدعى ما ليس فيه وما لاقدرة له عليه ومن ذلك ، كما جاء فى الطبقات الكبرى ، « وكان إذا جاءه شخص يريد المجاورة للاشتغال بالعلم يقول له ، يا ولدى ما نحن معدين لذلك اذهب إلى الجامع الأزهر . وما كان يأذن للفقراء القاطنين عنده إلا فى تعليم فرائض الشرع وواجباته المتعلقة

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٥ ص ٢

(٢) تحفة الأحباب للسخاوى ص ٨٩

(٣) الطبقات الكبرى ص ٨٣

بالعبادات ، وكان يمنعهم من تعلم الأمور المتعلقة بفصل الأحكام فى البيوع والرهون والتركات ونحو ذلك ، قائلا لهم ، إن الفقهاء قد قاموا عنكم بفروع الشريعة ، فإن قتلوا والعياذ بالله وتعطلت الأحكام وجب عليكم تعلم هذه الفروع لئلا تندرس الشريعة » .

وقد توفى رضوان الله عليه سنة نيف وعشرين وثمانمائة ، كما يقول الشعرانى ، أما المقريزى فيقول إنه توفى سنة تسع عشرة وثمانمائة ودفن بجامعه وقبره ظاهر يزار ويتبرك الناس به .

وصف المسجد الحالى

يتكون المسجد من مستطيل مقسم إلى أربع أروقة تقسمها ست صفوف من البوائك. يعلوها كرادى خشبية ترتكز على دعائم مربعة حجرية . ويعلو الرواق الرابع من المسجد (أى فى وسطه) يوجد فتحة (شخشيخة) بطول الرواق تقريبا بها نوافذ للتهوية والإضاءة.

وفى الضلع الشمالى من المسجد ومقابل الأروقة الثلاثة الأخيرة منه يوجد ضريح الشيخ أحمد الزاهد . ويتكون الضريح من حجرة مربعة فى كل ركن من أركانها مقرنص كبير ويعلو المقرنصات رقبة مثمنة الشكل بكل ضلع من أضلاعها نافذة قنديلية الشكل وتقوم القبة فوق الرقبة المثمنة وبها أربع نوافذ صغيرة مربعة .

كما يوجد فى الجهة الشمالية وإلى الشرق من الضريح الميضأة وأرض فضاء وكان يشغلها من قبل غرف وخلاوى المريدين . ونلاحظ أن داخل المسجد قد جدد حديثا ، أما الواجهة الغربية التى يوجد بها المدخل الرئيسى والمئذنة التى تعلوه وكذا الضريح فقديم . وتتكون المئذنة من ثلاث دورات الأولى والثانية قديمتان أما الدورة العليا فيدل طرازها المعمارى على أنها جددت فى العصر العثمانى .

جامع السلطان الملك المؤيد
شيخ المحمودى سنة ٨٢٢هـ
بجوار باب زويلة (بوابة المتولى)

السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبد الله المحمودى الظاهرى ، هو السلطان الثامن والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والرابع من الجراكسة وأولادهم، أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ، اشتراه من أستاذه الخواجا محمود شاه البرزى فى سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة ، وكان عمر شيخ يوم اشتراه برقوق نحو اثنتى عشرة سنة وجعله برقوق من جملة مماليكه ثم أعتقه بعد أن أصبح برقوق سلطانا ورقاه إلى أن جعله خاصكيا[1] ثم ساقيا إلى أن أنعم عليه بأمرة[2] عشرة ثم نقلة إلى طبلخاناة[3] ثم خلع عليه باستقراره أمير حاج المحمل فى سنة إحدى وثمانمائة . فسار بالحج وعاد وقد مات أستاذه الملك الظاهر برقوق ، فأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمه ألف بالديار المصرية ، وفى سنة اثنين وثمانمائة صار نائبا على طرابلس ودام فى نيابة طرابلس إلى أن أسر عند اقتحام تيمور لنك للبلاد الشامية مع من أسر من النواب ثم أطلق سراحه وعاد إلى الديار المصرية وأقام بها مدة ثم أعيد إلى نيابة طرابس ثانية ثم نقل منها إلى نيابة دمشق ،

---

(١) الخاصكى : وجمعها خاصكية، وهى فرقة من المماليك يختارهم السلطان من الأجلاب الذين دخلوا خدمته صغاراً ويجعل منهم حرسه الخاص ويكلفهم بالمهام الشريفة ويدخلون عليه خلوته ويتميزون عن غيرهم بحملهم السيوف : النجوم الزاهرة حـ ١٤ ص ١ هامش ٤

(٢) إمرة عشرة : هى الطبقة الثالثة من الأمراء وعدة كل منهم عشرة فوارس ، وربما كان فيهم من له عشرون ومنها يكون صغار الولاة » (القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ١٥) .

(٣) أمراء الطبلخاناة هم الطبقة الثانية من الأمراء وتكون منهم الرتب الثانية من أرباب الوظائف والكشاف وأكابر الولاة . (القلقشندى : صبح الأعشى ٤ : ١٥) .

ثم وقعت الحروب والفتن بين الأمراء الظاهرية ثم بينهم وبين ابن أستاذهم الملك الناصر فرج وما زال شيخ يدبر والأقدار تساعده إلى أن استولى على الملك بعد القبض على الملك الناصر فرج وقتله .

قدم شيخ إلى الديار المصرية وسكن بباب السلسلة وصار الخليفة المستعين بالله فى قبضته وتحت أوامره حتى أجمع الناس قاطبة على سلطنته وتوليته فى يوم الاثنين مستهل شعبان سنة ٨١٥هـ حضر القضاة وأعيان الأمراء وجميع العساكر وطلعوا إلى باب السلسلة وتقدم قاضى القضاة جلال الدين البلقينى وبايعه بالسلطنة ثم قام الأمير شيخ من مجلسه ودخل مبيت الحراقة بباب السلسلة وخرج وعليه خلعه السلطنة وركب فرس النوبة بشعار السلطنة والأمراء وأرباب الدولة مشاة بين يديه حتى طلع إلى القلعة ودخل إلى القصر السلطانى وجلس على تحت الملك وقبلت الأمراء الأرض بين يديه ودقت البشائر ثم نودى بالقاهرة ومصر باسمه وسلطنته .

وفى سنة ٨٢٣هـ توفى المقام الصارمى إبراهيم بن السلطان المؤيد وقال البدر العينى فى تاريخه (عقد الجمان ٦٨ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩) « وفى هذه الأيام بلغ كاتب السر ابن البارزى أن سيدى إبراهيم بن السلطان يتوعده بالقتل ، وإنه إذا ظفر به لا يشرب عليه الماء ، فشرع كاتب السر عند السلطان بالحط عليه بالطريقة ، ويذكر عنده أشياء موهمة توهم منها السلطان ، فمن ذلك قال له : إنه يتمنى موتك وبعض الأمراء بمواعيد وإنه يعشق بعض خطاياك ورتب له من ذلك أمارات وعلامات إلى أن بغض السلطان ولده وأحب الراحة منه ورتبوا له أمورا وحسنواله أن يقتله بالسم أو بغيره إن لم يمت من مرضه فإنه كان ضعيفا وأذن لبعض خواصه أن يعطيه ما يكون سببا لقتله من غير إسراع فدسوا عليه من سقاه الزرنيخ فلما شربه أحس بالمغص فعالجه الأطباء مدة وندم السلطان على ما فرط منه ... »[1] ودفن المقام الصارمى إبراهيم بن السلطان المؤيد بالجامع المؤيدى وشهد السلطان الصلاة عليه ودفنه .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١٤ هامش صفحة ٩٦

وفى سنة ٨٢٤ هـ اشتد المرض بالسلطان المؤيد شيخ وتزايدت عليه الآلام والأرجاف تتواتر بموته إلى أن توفى قبيل الظهر من يوم الاثنين تابع المحرم سنة ٨٢٤ هـ .

وكانت مدة ملكه ثمان سنين[1] وخمسة أشهر وثمانية أيام ، وكان شجاعا مقداما يحب أهل العلم ويجالسهم ويجل الشرع النبوى ويذعن له ولا ينكر على طالب من إذا تحاكم إليه أن يمضى من بين يديه إلى قضاة الشرع بل يعجبه ذلك وينكر على أمرائه معارضة القضاة فى أحكامهم وكان غير مائل إلى شىء من البدع وله قيام فى الليل إلى التهجد أحيانا ، إلا أنه كان بخيلا ممسكا يشح حتى بالأكل .

كان السلطان الملك المؤيد شيخ يميل إلى جنس الترك ويقدمهم ، حتى إن غالب أمرائه كانوا أتراكا ، أما فعله فى وجوه البر فكثير ، وله مآثر مشهورة به وعمائره كثيرة أعظمها الجامع المؤيدى الذى لم يبن[2] فى الإسلام أكثر زخرفة منه بعد الجامع الأموى بدمشق ، ثم تجديده لجامع المقياس ، ثم لمدرسة الخروبية بالجيزة وأشياء غير ذلك كثيرة .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ١٠٩

(٢) المرجع السابق ج ١٤ ص ١١٣

الوصف المعماري

كان السلطان الملك المؤيد شيخ مغرما بالعمارة ، فقد أنشأ مئذنة بالجامع الأزهر وجدد مسجد المقياس بالروضة وأنشأ كثيرا من المساجد والمكاتب والأسبلة والمناظر بمصر والشام كما بنى خانقاة الخروبية ، إلا أنه لم يبق من هذه المنشآت سوى بقايا سبيل ومصلى بالقلعة[1] ، ومسجد المؤيد والبيمارستان المؤيدى الذى يقع بالقرب من القلعة بسكة الكوى بالمحجر بقسم الخليفة .

وكان البيمارستان تعالج فيه جميع الأمراض البدنية والعظمية كما كان يدرس فيه الطب .

أما المسجد فهو أهم آثاره على الإطلاق وقد بنى مكان سجن عرف باسم (خزانة شمائل) كان المؤيد قد سجن فيه وقت أن كان أميرا وقاسى فيه من الشدائد ما جعله ينذر إن نجاه الله تعالى من هذا السجن ليبنين مكانه مسجدا . فلما ولى ملك مصر وفى بنذره ، فاشترى قيسارية الأمير سنقر الأشقر وأضاف إليها خزانة شمائل (السجن) وعدة دور وحارات ليقيم مكانها المسجد ، وقد استمرت عمارة هذا المسجد مدة ست سنوات إذ بدئ العمل فيه سنة ٨١٨ هـ وانتهى سنة ٨٢٤ هـ وبلغت تكاليف البناء نحو سبعين ألف دينار ، ومع ذلك فإن كثيرا من ملحقات الجامع لم يكن قد شرع فى بنائها مثل بيوت الصوفية بالخانقاة وكذا القبة القبلية .

وللمسجد أربع وجهات ، الشرقية منها وهى الرئيسية وهى محتفظة بكل تفاصيلها ، وهى واجهة مرتفعة حليت أعتاب نوافذها وصنجاتها بالرخام كما غطى كل شباكين بمقرنص واحد ، وفى الطرف الشمالى لهذه الواجهة يوجد المدخل الرئيسى وله سلم

---

(١) الضوء اللامع ج ٣ ص ٣١٠ ، نزهة النفوس والأبدان ج ٢ ص ٥٧

مزدوج وهو باب شاهق الارتفـاع كسى بالرخام الملون وزخرف بالمقرنصات وقد ركب على الباب مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس ، وهما من أجمل وأدق المصاريع النحاسية ، نقلهما المؤيد شيخ من مدرسة السلطان حسن ، ويبلغ ارتفاع كل منهما ستة أمتار وقد ملئت هذه المساحة الكبيرة من النحاس بزخارف نباتية وهندسية على شكل أطباق نجمية محفورة وبارزة ، وقد كفتت عناصر كثيرة من هذه الزخارف وكذا اسم السلطان حسن بالذهب ، ويعلل بعض المؤرخين السبب فى نقل باب السلطان حسن ، بأن السلطان برقوق كان قد سد باب مدرسة السلطان حسن ، فكان الباب غير منتفع به وأن المؤيد شيخ فى مقابل أخذه للباب وقف على مدرسة السلطان حسن قرية قها بالقليوبية .

وقد كان للجامع أربعة إيوانات تحيط بالصحن ويتكون كل من الإيوان الغربى والبحرى والقبلى من رواقين وقد تخربت هذه الإيوانات ولم يبق سوى الإيوان الشرقى الذى تغمره الزخارف من الأرض حتى السقف ، وقد كسى الجدار بالرخام الملون حتى ارتفاع المحراب ، ثم يعلو ذلك شبابيك جصية مخرمة جميلة الزخرفة والنقوش ، ويكتنف هذه الشبابيك مستطيلات منقوشة ومذهبة ويحيط بها شريطان من الكتابة التى تحتوى على آيات قرآنية ، أحدهما بالخط الثلث المملوكى بحروف مذهبة والشريط الثانى بالخط الكوفى بحروف سوداء على أرضية مذهبة ، ويتوسط الإيوان الشرقى محراب مكسو بالرخام المتعدد الألوان وبجوار المحراب منبر خشبى دقيق الصنع طعمت بعض حشواته بالعاج كما زخرف البعض الآخر بطريقة اللاكيه المعروفة (بالزرنشان) .

ومما يذكر عن ورع الملك المؤيد شيخ وتواضعه أنه أمر الخطباء عندما يدعون للسلطان على المنبر يوم الجمعة أن ينزلوا درجة ثم يدعوا له حتى لا يكون ذكره فى الموضع الذى يذكر فيه اسم الله واسم نبيه الكريم .

وقد بنى جامع المؤيد ملاصقاً لباب زويلة ، ولذلك فقد اتخذ من برجى الباب قاعدتان لمئذنتيه ، وهما منارتان رشيقتان تتكون كل منهما من ثلاث طبقات حليت بالنقوش والكتابات وتقوم الطبقة الثالثة على عمد رشيقة .

ويعد مسجد المؤيد من الروائع المعمارية فى دولة المماليك الجراكسة ، فقد وصفه السخاوى بأنه لم يعمر فى الإسلام أكثر منه زخرفة ولا أحسن ترخيما بعد الجامع الأموى . ويقول عنه المقريزى « إنه الجامع لمحاسن البنيان الشاهد بفخامة أركانه وضخامة بنيانه إن منشئه سيد ملوك الزمان ، يحتقر الناظر له عند مشاهدته عرش بلقيس وإيوان كسرى أنو شروان ويستصغر من تأمل بديع اسطوانه الخورنق وقصر غمدان »[1]

المئـذنة :

وقد انتهز معمار مسجد المؤيد وجود باب زويلة ملاصقاً له فاتخذ من برجيه قاعدتين لإقامة منارتين ، وتتكون كل مئذنة من ثلاثة طوابق ، الطابق الأول يتكون من شكل مثمن يقوم على قاعدة مربعة ، وقد زخرفت أضلاع المثمن بحنيات مستطيلة يعلوها عقد منكسر مفصص ، فتح فى أربع منها نوافذ ضيقة يتقدمها شرفة صغيرة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات ، والطابق الثانى مكون من مثمن زخرفت أضلاعه بخطوط متعرجة ويفصل بينه وبين الطابق الأول شرفة مثمنة الأضلاع تقوم على أربعة صفوف من الدلايات . أما الطابق الثالث فيتكون من جوسق ذى ثمان أعمدة تحمل شرفة مثمنة ترتكز على دلايات ويعلو الطابق الثالث خوذة على شكل كمثرى يعلوها هلال نحاسى .

وقد كتب على المئذنة الشرقية منهما النص التالى : « عمل هذه المئذنة المباركة العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن القزاز وكان الفراغ أول رجب سنة اثنتين وعشرين وثمان مائة » . وكتب على الغربية النص التالى : أمر بإنشاء هاتين المنارتين المباركتين سيدنا ومولانا السلطان المالك الملك المؤيد أبو النصر شيخ عز نصره وذلك فى نظر العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن القزاز والفراغ فى شهر شعبان المعظم قدره سنة ثلاث وعشرين وثمان مائة » .

ويذكر على مبارك السبب فى التلف الذى أصاب هذا الجامع فيقول إنه ضرب بالمدافع (سنة ١٠٧٦ هـ/ ١٦٦٥ م) على أثر تحصن بعض الطغاة به المعروفين بالزرب ،

---

(١) المقريزى : جـ ٤ ص ٣٦

فقد كثر فسادهم وقتئذ بمصر فاستفتى عمر مكرم حاكم مصر ، العلماء فأفتوه بأن يقابلهم بما يقابلونه به وإن تهدم شيء من الجامع يعاد بناؤه ، فأمر العسكر بالزحف عليهم ومعهم اثنا عشر مدفعا ، وصوبوها عليهم إلى وقت العصر فاستسلموا وفتحوا أبواب الجامع فقبضوا عليهم وقتلوهم واستصفوا أموالهم . وفى (سنة ١١٠٢ هـ ١٦٩٠ م) قام بعمارته أحمد باشا والى مصر ، وفى عهد الخديوى إسماعيل جددت وزارة الأوقاف واجهاته الثلاث سنة ١٨٧٤ م .

مدرسة السلطان الأشرف برسباى

بشارع المعز لدين الله

أجمع المؤرخون على أن برسباى جركسى الأصل ، ولد حوالى سنة ٧٨٠ هـ ١٣١٨ م يقول المقريزى فى ترجمة حياة برسباى : « كان أبوه أوضع أهل بلاده قدرا وأشدهم فقرا ، فأسلم ابنه هذا لحداد كان ينفخ عنده بالكير حتى مات ذلك الحداد وتزوجت امرأته برجل فباع برسباى وهو صغير لرجل يهودى اسمه صادق ، فخدمه مدة وتلقن أخلاقه وتطبع بطباعه ، حتى جلبه إلى ديار مصر دقماق »[١].

أقام برسباى مدة مملوكا لدقماق المحمدى الظاهرى نائب ملطية[٢] ، ثم أهداه للظاهر برقوق مع مجموعة من المماليك وكانت سنه تناهز العشرين وأنزله فى جماعة مماليك الطباق ولم يلبث برسباى فى العبودية كثيرا إذ أعتقه السلطان برقوق بعد فترة قصيرة .

استمر برسباى فى جملة المماليك السلطانية إلى أن صار خاصكيا[٣] ، ثم ساقيا[٤] فى سلطنة الملك المنصور عبد العزيز بن الملك الظاهر برقوق.

ولما اختلف الناصر فرج بن برقوق مع مماليك أبيه وانفضوا من حوله ، خرج برسباى

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٤٥٢

(٢) ملطية : إحدى بلاد الروم المشهورة تتاخم الشام وهى للمسلمين (ياقوت الحموى معجم البلدان جـ ٧ ص ١٥٠) .

(٣) الخاصكية : هم المماليك الذين يتولى السلطان تربيتهم وعتقهم ويلازمونه فى خلواته وفراغه (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٤) .

(٤) الساقى : وظيفة لرجل مكلف بمد السماط السلطانى وتشريح اللحم وسقى الأشربة بعد انتهاء الأكل ورفع الخوان . (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٤) .

عن طاعة السلطان فرج وانضم إلى الأمير إينال باى بن قجماس وذهب معه إلى بلاد الشام ، ثم انضم إلى الأميرين شيخ وتوروز وابث معهما خلال تلك الفتن إلى أن قتل السلطان فرج . فعاد إلى القاهرة صحبة الأمير شيخ بإمرة عشرة[1] ثم نقله أمير طبلخاناه بعد سلطنته فدام على ذلك سنين ثم صار أمير مائة وتقدمه ألف ثم ولاه كشف التراب[2] بالغربية .

تولى برسباى بعد ذلك وظيفة نائب طرابلس بعد أن عزل السلطان المؤيد – الأمير بردبك الخليلى الذى كان نائبا عليها وذلك فى يوم الاثنين ٢٣ ربيع سنة ٨٢١ هـ[3] ؛ استمر برسباى إلى أن هزمه التركمان وقتل من مماليكه عدد كبير ، فاعتقله السلطان المؤيد وسجنه بقلعة المرقب[4]، وظل برسباى بسجن المرقب مدة حتى أفرج عنه المؤيد شيخ فى المحرم سنة ٨٢٢ هـ ، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمه ألف بدمشق وذلك بعد شفاعة الأمير ططر فى شأنه لدى المؤيد واستمر برسباى بدمشق إلى أن مات المؤيد .

عند وفاة السلطان المؤيد لم يستطع ابنه أحمد الاستمرار فى السلطنة بعد أبيه فاستولى السلطان ططر على مقاليد الأمور غير أن جقمق نائب دمشق خرج عن طاعته وقبض على أتباع السلطان ططر ومنهم برسباى وسجنه بقلعة دمشق وذلك لعلاقته الوثيقة بططر ، ولما وصلت الحملة التى كان السلطان المؤيد شيخ قد أرسلها قبل موته إلى الشام بقيادة الطنبغا القرمشى ، فر جقمق ناحية الشمال فأفرج الطنبغا عن برسباى . ولما ذهب ططر إلى دمشق كان برسباى فى استقباله ، كما كان فى ركبه عند ذهابه لحلب لمطاردة جقمق الذى فر إلى صرخد[5] وقد تحايل عليه برسباى ومعه القاضى ابن مزهر وأقنعاه بتسليم

---

(١) أمير عشرة : إحدى رتب الأمراء فى عصر المماليك وكان يتبع صاحبها عشرة من الفرسان . (القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤) .

(٢) كاشف التراب : متولى هذه الوظيفة يناط به المرور على الترع للنظر فى رفع ما قد يعوق جريان المياه فيها من أتربة والعمل على صيانتها وإصلاح الجسور ونحو ذلك (د . حسن الباشا : الفنون والوظائف ج ٢ ص ٩٣١) .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٦ .

(٤) المرقب : بلدة وقلعة حصينة تقع على ساحل البحر المتوسط (ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٦) .

(٥) صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق وهى قلعة حصينة وولاية حسنة (ياقوت الحموى : ج ٥ ص ٣٤٩) .

نفسه وأصحابه ، فأخذه إلى دمشق حيث قبض عليه نائب دمشق هو ومن معه وانتهى أمرهم إلى القتل .

مما سبق سرده نرى كيف تودد برسباى إلى السلطان ططر فما كان من الأخير إلا أن خلع عليه استمراره دوادارا كبيرا[1] .

لم تطل أيام برسباى فى وظيفة الدوادارية إذ جعله ططر قبل موته (لالا) لولده الملك الصالح محمد وجعل جانى بك الصوفى مدبرا لمملكته .

اشتد النزاع بين جانى بك الصوفى وبين برسباى على السلطنة ، وكان جانى بك الصوفى هو المرشح الطبيعى لها ، أما برسباى فلم تكن آخر وظيفة تولاها قبل موت ططر توصله للسلطنة . غير أن برسباى استعان بطراباى الذى كان يحسن أساليب الإيقاع بأعدائه وبمساعدته مع بقية الأمراء الذين انضموا إليه استطاع برسباى التغلب على جانى بك ومساعديه من الأمراء ثم قبض برسباى على جانى بك وأودعه سجن الاسكندرية .

وبعد أن تخلص برسباى من جانى بك الصوفى بشهرين ، وقعت الفرقة بينه وبين طراباى واستطاع برسباى التخلص منه أيضا وسجنه بسجن الاسكندرية[2] .

تولى برسباى الحكم فى ٨ ربيع الآخر سنة ٨٢٥ هـ ١٤٢٢ م ، وظل يحكم حتى وفاته فى ١٣ ذى الحجة سنة ٨٤١ هـ ١٤٤٩ م أى أنه حكم ستة عشر عاما . ونصف تقريبا .

اتبع السلطان برسباى سياسة داخلية وخارجية ، ساعدت على استقرار الحكم واستمراره، فلم يتول السلطنة إلا بعد القضاء على أكبر خصومه من أمراء المماليك جانى بك الصوفى ، كما أنه قضى قضاء مبرماً على الثورات التى قامت فى بداية عهده ، وذلك باتباعه سياسة النقل والعزل بين أمراء المماليك كما أنه كان يلجأ إلى دس السم لمن يخش منهم على

---

(١) الدوادار الكبير : وظيفة من الوظائف الموصلة للسلطنة تأتى فى المرتبة الرابعة بعد الأتابك أمير سلاح وأمير مجلس (السخاوى : التبر المسبوك ص ٦) .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٤١١ وما بعدها ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٥٣٧ — ٥٤٢ .

سلطنته كما أنه كان يكثر من شراء المماليك ليكونوا عوناً له وسنداً ، وبهذه السياسة ساد عصر برسباى نوعا من الهدوء والاستقرار لم يتوافرا لمن سبقه من سلاطين الجراكسة .

كانت الحياة الاقتصادية تعتمد اعتمادا أساسيا فى العصر المملوكى على التجارة بجانب الزراعة والصناعة ، وقد لعبت التجارة الدور الرئيسى فى الاقتصاد المملوكى ، ذلك أن المماليك كانوا سادة البحرين الأبيض والأحمر وكانت للظروف السياسية التى تعرضت لها المنطقة أثناء عهد المماليك ، أثرها الكبير فى خدمة التجارة المملوكية ، إذ أثرت حروب تيمور لنك وأغلقت الطرق التجارية الشمالية فى آسيا ، كما كان لانتصارات الأتراك فى أوروبا أثرها ، إذ جعل المرور بالمتاجر من هناك أمراً محفوفاً بالمخاطر ، لذلك كان لاحتلال جنوة لميناء فماجوستا فى قبرص أثره فى التجاء التجار الأوروبيين إلى موانئ سوريا هذا إلى أن زوال مملكة أرمينية سنة ١٣٧٥ م أثره ، إذ أدى ذلك إلى غلق الطرق التجارية والأسواق بآسيا الصغرى .

اجتمعت كل العوامل السابق الاشارة إليها فألجأت التجار الشرقيين إلى المرور بالطرق التجارية عبر حدود الدولة المملوكية كما أجبرت التجار الأوروبيين إلى أن يقصدوا موانئ هذه الدولة لشراء وبيع منتجاتهم فعاد ذلك على الدولة بالخير العميم والحظ الوفير .

عمل السلطان برسباى على اجتذاب التجار الشرقيين وذلك بإصداره الأوامر إلى حكام الموانى والثغور بترغيب التجار بشتى الطرق والأساليب ، فأصدر أوامره إلى قرقماش الشعبانى نائب السلطنة فى بلاد الحجاز بترغيب التجار الهنود والصينيين للنزول بميناء جدة فاتصل الأخير بالتاجر الهندى إبراهيم أحد التجار الشرقيين الذى وجد معاملة سيئة فى ميناء عدن من جانب الرسوليين وفى ميناء سواكن من ابن عجلان سنة ٨٢٥ هـ ، فالتجأ إلى ميناء ينبع سنة ٨٢٧ هـ وكانت مكة فى هذه الأثناء تحت إشراف قرقماش الشعبانى الذى أسرع إلى الاتصال به ورغبه فى النزول بميناء جدة ، فجاء فى سنة ٨٢٨ هـ بأسطول قوامه أربع عشرة سفينة ثم تضاعف العدد سنة ٨٢٩ هـ حتى وصل إلى أربعين سفينة[1] .

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦٨٠ – ٦٨٢ .

زاد بعد ذلك اهتمام برسباى بميناء جدة ، فعين له من قبل الدولة موظفين رسميين يتولون شئونه[1] .

اتخذ برسباى من الإجراءات ما ساعد على اجتذاب أكبر عدد من التجار ، فأرسل حملة حربية لإرهاب الرسوليين الذين تعرضوا للتجار الهنود القاصدين مكة ، كما ضاعف الرسوم على البضائع الواردة من ميناء عدن الأمر الذى أضعف قوة هذا الميناء التجارية فى الوقت الذى قرر فيه ألا تزيد الضرائب بميناء جدة عن ١٠٪ ، وكما خطط برسباى للتجارة مع الشرق ، خطط للتجارة مع الغرب فعمل على تأمين تجارته وموانيه فى البحر المتوسط ودعم علاقاته التجارية مع دول أوروبا وملنها فعقد الاتفاقات التجارية التى تؤدى إلى انتعاش التجارة بين الدولة المملوكية وتلك البلاد .

أما فى مجال التجارة الداخلية فاحتكر فى سنة ٨٢٦ هـ تجارة السكر[2] ثم احتكر زراعة القصب وتجارة الفلفل لنفسه وألزم الفرنج بشرائه بزيادة خمسين دينارا عن الثمن المعتاد ، كما أصدر أوامره إلى بلاد الشام والحجاز والاسكندرية بتحكير هذه الأصناف ثم امتدت احتكاراته إلى الأقمشة الواردة من الموصل وبعلبك[3] .

ومن أهم إصلاحات برسباى ، إصلاحه للنقد الذى هو قوام الحياة الاقتصادية ، فاختط لذلك سياسة سليمة ، فكان يضرب سكته ويعمل على رواجها ووفرتها بتوفير المواد الخام اللازمة لضرب هذه المسكوكات من ذهب أو فضة أو نحاس ، وإلزام التجار والعامة بالتعامل بها وحتى يدفع الناس إلى رواجها منع العملة المنافسة من التعامل بها ، وقلل من سعرها وبرفع سعر عملاته الجديدة ليكون لها قوة شرائية تدفع إلى التعامل بها ، واتبع برسباى هذه الخطة فى تعريبه للدينار والدرهم وإصلاحه للفلوس وهى أنواع المعاملات الثلاثة التى كانت سائدة فى عصره .

---

(١) المرجع السابق : ج ٤ ق ٢ ص ٧٨٧ ، ٩٢٨ – ابن تغرى بردى : النجوم ج ١٤ ص ٣٦٧ – ٣٦٨ السخاوى : الضوء اللامع : ج ١٠ ص ٧١٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦٤٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٩١ .

(٣) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦١١ ، ٧٩٢ ، ٨٠١ ، ابن حجر : أنباء الغمر ج ٣ ص ٤٢٣

لم تقتصر همة السلطان برسباى على إصلاح الحياة الاقتصادية بل وجه همته إلى تدعيم الزراعة والاهتمام بها ، فأمر بحفر الخليج الناصرى بعد أن كاد يطامر[1] ، كما أنه اهتم بالجسور وإقامة القناطر وإصلاح ما تهدم منها كإصلاحه لقناطر اللاهون بالفيوم[2] ونظرا لرعاية السلطان للزراعة لم تتعرض المحاصيل مدة حكمه للهلاك بسبب نقص الماء أو نحوه .

وصف المؤرخون برسباى بأنه كان رجلا متدينا متمسكا بأمور دينه يؤدى فرائضه وسننه فكان يقيم الصلاة فى أوقاتها بل أنه أمر القضاة بأن يلزموا العامة بالصلاة ، كذلك كان برسباى يهتم بالقيام بفريضة الصوم فى شهر رمضان ويزيد على ذلك صيام أول يوم من كل شهر ثم يختم الشهر بصوم آخر يوم فيه ، هذا بالإضافة إلى صوم الاثنين والخميس من كل أسبوع .

وكان يحب تلاوة القرآن الكريم حتى إنه رتب كثيرا من المقرئين بالقصر السلطانى كما أنه سار على سنة أسلافه من قراءة البخارى بالقلعة .

اهتم برسباى بشئون الحجاج والعمل على راحتهم ، فأمر بحفر الابار على طول الطريق من مصر إلى الحجاز ، وكان يحبب أقاربه وعامة الناس فى أداء فريضة الحج[3] .

وتعتبر منشآت برسباى المعمارية الدينية من الأدلة المادية الباقية التى تشير إلى تدينه ورعايته لأهل العلم والدين ولمن تقتصر هذه الرعاية على منشآته فحسب بل امتدت إلى الحرمين الشريفين وزاوية ذى النون المصرى التى أوقف عليها أوقافا كثيرة[4] ، كما نظر فى أمر جامع عمرو بن العاص وعمل على إصلاح حال الخوانق والمدارس التى بنيت قبل عصره ، بعد أن أهملها مباشروها ونظار أوقافها فشكل مجلسا من القضاة يتولى

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٧

(٢) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ج ٣ ص ٣٨١ .

(٣) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٣ حوادث سنة سنة ٨٣٧ هـ

(٤) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦٣١ ، ٦٨٠ ، ٧٣٨ ، ٩٠٥ ، ٩٣٤ – ابن تغرى بردى النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٢٧١ ، ٣٠٦

النظر فى كتب أوقاف هذه المدارس ومراجعة شروطها للتحقق من التزام النظار والمباشرين بهذه الشروط وأسندت رئاسة هذا المجلس لابن حجر ولكن المجلس لم يستطع أن يؤدى مهمته إزاء نفوذ الأمراء والمباشرين والنظار[1]. كما أنه عاقب بشدة من أهمل من موظفى هذه المنشآت فى أداء وظيفته .

وإذا كان برسباى مدينا ، فإن فرصته فى العلم كانت محدودة لأنه لم يلبث طويلا فى طباق القلعة منصرفا للعلم فقد أعتقه الظاهر برقوق بعد فترة وجيزة من انضمامه فى زمرة مماليك السلطان المذكور ولعل الأشرف برسباى شعر بهذا النقص ، فاتخذ من القاضى بدر الدين العينى معينا له فى ذلك فكان يسامره ليقرأ له التاريخ الذى جمعه باللغة العربية ثم يفسره له باللغة التركية لتضلعه فى اللغتين ، كذلك كان يعلمه أمور الدين ، حتى إن السلطان برسباى كان يقول : « لولا العينى لكان فى إسلامنا شىء»[2] .

وإلى جانب صفات برسباى الحميدة التى أسلفنا ذكرها ، كانت له صفات ذميمة ، لتعصبه لبنى جنسه[3] ، كما أنه كان كثير الشك ، فقد تخلص من ساقيه — فيروز الرومى — ومن طبيبه ابن العفيف لشكه فى أنهما أرادا سمه[4] . كما أنه اتصف بالمكر والخديعة ولعل طريقة قبضه على بيبغا المظفرى دليلا واضحا على ذلك ، فقد دعاه إلى الغذاء وقبض عليه[5] وتخلصه سابقا من طراباى منافسه على السلطنة بواسطة يشبك الأعرج دليل آخر[6] . ورغم هذه الصفات السيئة لبرسباى ، إلا أن صفاته الحسنة والحميدة كانت كما يبدو هى الصفات الغالبة عليه فأكسبته مكانة وقوة هابها من بالخارج قبل الداخل .

---

(١) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٣ ص ٥٣٨ ، ٥٣٩ — ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٥ ، ٥٦

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٣١ — ١٣٢

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٣٢٠ — ٣٢١ ، السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ١٩٧

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ج ٦ ص ١٧٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم جـ ١٥ ص ٨٠ .

(٥) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦٦٩

(٦) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧

مدرسة الأشرف برسباى

بشارع المعز لدين الله
سنة ٨٣١ هـ

تقع هذه المدرسة بشارع المعز لدين الله عند تقاطعه بشارع السكة الجديدة ، ويطل ضلعها الجنوبى على شارع الحمزاوى الصغير . ويذكر المقريزى[١] أن هذه المدرسة قد حلت محل قطعة من الأرض كانت موقوفة على المدرسة القطبية[٢] فيما بين المدرسة السيوفية وسوق العنبريين . وقد حل محل المدرسة السيوفية الآن جامع الشيخ المطهر أما سوق العنبريين فيذكر المقريزى فقد كان فى الأصل سجن لأرباب الجرائم عرف بحبس المعونة ، ثم حوله السلطان بيبرس إلى سوق وأسكنه بائعى العنبر ومن هنا عرف بسوق العنبريين وهو الذى يعرف اليوم بسوق العطارين أو الحمزاوى الصغير .

وقد استغرقت المدرسة مدة طويلة فى بنائها ، مما أدى إلى تضارب آراء المؤرخين وكتاب السير فى تاريخ إنشائها . فمن الثابت ابتداء الإنشاء كان كما سجل ذلك فى النص الذى جاء فى الواجهة الرئيسية للمدرسة فقد جاء فيه : « أولها شهر شعبان سنة ست وعشرين وثمان مائة وآخرها سلخ جمادى الأول سنة سبع وعشرين وثمان مائة » . على أن التاريخ الذى يشير إلى نهاية البناء لم يكن يعنى الانتهاء من البناء كله بل من أهم جزء

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٥

(٢) المدرسة القطبية تنسب إلى إحدى أميرات الدولة الأيوبية التى أقامت قاعة ومدرسة لها على قطعة من القصر الفاطمى الغربى الصغير وقد أخذ المنصور قلاوون القاعة وأقام مكانها مجموعته فى شارع المعز ، أما المدرسة فقد درست وكانت بين مدرسة الناصر محمد بن قلاوون وبين مدرسة برقوق .

(٣) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٦ .

بالمدرسة ونعنى به إيوان القبلة ، فقد ذكر المقريزى أن برسباى خلع فى جمادى الأول سنة ٨٢٧ هـ على زين الدين عبد الرحيم الحموى الواعظ واستقر خطيبا بها ، وفى السابع من هذا الشهر أقيمت خطبة الجمعة بها ولم يكن كمل منها سوى الإيوان القبلى(١) ، وقد ذكر ابن حجر العسقلانى(٢) أن المدرسة قد كملت فى جمادى الأول سنة ٨٢٨ هـ ، أما ابن اياس فيقول إن بناءها قد تم سنة ٨٢٩ هـ على أن الثابت هو ما جاء فى حجة وقف السلطان الأشرف برسباى ، فقد ذكرت صراحة أن استكمال وحدات المدرسة استمر حتى سنة ٨٣١ هـ .

وتتكون المدرسة من شكل مستطيل تبلغ مساحته (١٧٦٠) مترا وهى ذات تخطيط متعامد ، هذا بخلاف مساحة ملحقاتها الأخرى مثل السبيل والكتاب والمكتبة والضريح وسكن الطلبة .

الواجهة الرئيسية :

تقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الجنوبى الشرقى للمدرسة المطل على شارع المعز لدين الله حاليا ، ويبلغ طولها (٣٧٫٥) مترا وارتفاعها (١٤) مترا . وينقسم تقسيم الواجهة إلى قسمين ، الأول الذى يمتد بحذاء جدار إيوان القبلة متجها شمالا حتى ينتهى بالضريح الذى يشغل الركن الشمالى الشرقى للمدرسة .

ويشغل هذا الجزء من الواجهة ثلاث حنيات اثنان فى جدار القبلة وواحدة فى جدار الضريح . ويبلغ اتساع حنيتى جدار القبلة (٦) أمتار تحتوى كل منهما على صفين من النوافذ . يتكون الصف الأول من نافذتين مستطيلتين يعلوها عقد مسطح يحتوى على صنجات معشقة ملون بالأحمر والأبيض . وعلى ارتفاع خمسة مد اميك حجرة يبدأ الصف الثانى من النوافذ المكون من نافذتين معقودتين بعقد مدبب وتحصر بينهما دائرة

---

(١) المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٢ ص ٦٦١ .
(٢) ابن حجر : أنباء الغمر ج ٣ ص ٣٤٣ .
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٢٢ .
(٤) حجة وقف برسباى أوقاف رقم (٨٨٠) ص ٢٦٦) عن آثار السلطان برسباى – تأليف عبد الستار عثمان) .

مستديرة صغيرة . وعلى ارتفاع ستة مداميك من النوافذ العليا يوجد شريط من الكتابة ، ويتوج الحنيتين ثلاثة صفوف من الدلايات .

أما الحنية الثالثة فهى أصغر من الحنيتين السابقتين إذ يبلغ سعتها (١٫٨) امتار وتحتوى على نافذة مستطيلة يعلوها عقد مسطح مكون من خمس صنجات معشقة . ويعلو هذه النافذة أخرى معقودة بعقد مدبب ، ويعلو ذلك شريط من الكتابة السابق الإشارة إليه والذى يمتد بطول الواجهة ونصه كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا صدق الله العظيم . أنشأ هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الأشرف أبو النصر برسباى خلد الله ملكه بمحمد وبآله يارب العالمين وذلك بنظر العبد الفقير إلى الله تعالى عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة غفر الله له وللمسلمين فى مدة أولها شهر شعبان من سنة ست وعشرين وثمانمائة وآخرها سلخ جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

أما القسم الثانى من الواجهة الرئيسية فيشغله المدخل الرئيسى والضلع الشرقى من مبنى السبيل الملحق بالمدرسة ، ويرتفع المدخل عن مستوى الأرض بمقدار (١٫٥٠) من المتر ويصعد إليه بسلم مزدوج تبلغ عدد درجاته ثمانية تؤدى إلى ردهة تتقدم حنية المدخل ومن ثم فهى مدرسة معلقة إذ تقوم على طابق أرضى به ميضأة ودورة مياه . وتبلغ سعة حنية المدخل (٣) أمتار وعمقها (٢) متران ويكتنفها من كلا الجانبين مكسلتان من الرخام طول كل منهما (٢) متران ، وارتفاعها عن أرض المدخل (٫٨) أمتار وعرضها (٠٫٩) أمتار ويعلو المكسلة على ارتفاع (١٫٥) أمتار شريط من الكتابة محفور فى الرخام نصه : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا صدق الله العظيم ، أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محى العدل فى العالمين قسيم أمير المؤمنين خادم الحرمين الشريفين المالك الملك الأشرف خلد الله ملكه » .

وتتوسط حنية المدخل باب يبلغ ارتفاعه (٢٫٩٠) من المتر وعرضه (١٫٩٠) من المتر يعلوه

عتب فوقه عقد عاتق مكون من سبع صنجات معشقة من الرخام الملون ، أما طبلة العقد فقد ملئت بزخارف نباتية محفورة من الرخام . وعلى جانبي العقد إطاران بهما كتابة نصها « عز لمولانا السلطان المالك الملك الأشرف » ، ويعلوه حنية صغيرة معقودة يتوسطها نافذة مستطيلة مملوءة بمصبعات حديدية يعلوه أربعة صفوف من الدلايات . ويعلو العقد شريط من الكتابة السابق الإشارة إليه ، ثم يتوج الواجهة شرفات على شكل ورقة نباتية ذات ثلاثة فصوص وتمتد الواجهة الرئيسية بعد المدخل الرئيسى حتى تشمل واجهة السبيل فى الركن الجنوبى الشرقى لها ، ويشغل هذا الجزء من الواجهة نافدة السبيل التى يبلغ ارتفاعها (٢ر٢٥) من المتر وعرضها (١ر٩) م مملوءة بمصبعات حديدية ، يعلوه شريط من الكتابة « أمر بإنشاء هذا المكان المبارك ابتغاء لوجه الله تعالى وطلبا لرضوانه سيدنا ومولانا المالك الملك الأشرف أبو النصر برسباى خلد الله ملكه » . ويعلو نافذة السبيل شرفة الكتاب التى ترتكز على كوابيل خشبية بارزة ويحيطها سياج من الخشب ويغطيها سقف منحدر تحمله أربعة أعمدة خشبية . ونلاحظ أن واجهة السبيل والكتاب تنخفض عن باقى الواجهة الرئيسية بمقدار ارتفاع الشرفات التى تتوجه .

وتؤدى فتحة المدخل الرئيسى إلى دركاة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٣ر٤) أمتار فرشت بالرخام الملون ، ويتصدرها جلسة تبلغ سعتها (٢ر٨٢) من المتر وعمقها (١ر٥) أمتار . ويكتنف الجلسة كتبيتان ، ويعلوها نافذة صغيرة مستطيلة الشكل . ويوجد فى الضلعين الشمالى والجنوبى للدركاة باب معقود يعلوه نافذة صغيرة ، يؤدى الجنوبى منهما إلى السبيل وباقى ملحقات المدرسة أما الشمالى فيؤدى إلى الدهليز المؤدى إلى صحن المدرسة .

ويبلغ طول هذا الدهليز (٢٧ر٩) أمتار واتساعه (٣ر٢٥) من المتر يعلوه سقف خشبى مجدد وفرشت أرضيته بالرخام ، ويوجد بالضلع الجنوبى للدهليز أربع فتحات بخلاف فتحة الدركاة . الفتحة الأولى من جهة الشرق يبلغ اتساعها مترا وارتفاعها (٢ر١٥) من المتر يعلوها نافذة صغيرة مستطيلة يملؤها خشب خرط وتؤدى إلى سلم يصعد منه إلى الكتاب وبعض الخلاوى . ويلى هذه الفتحة إيوان معقود يبلغ سعته (٢ر٥) أمتار وعمقه (٢ر١) أمتار ،

كان مخصصا للمزملة كما جاء فى حجة الوقفية[1] ، ثم تأتى بعد ذلك فتحة مماثلة للفتحة الأولى تؤدى إلى سلم يصعد منه إلى المكتبة الملحقة بالمدرسة ، أما الفتحة الرابعة التى تقع فى نهاية الدهليز من الناحية الغربية فيبلغ اتساعها مترا وارتفاعها مترين وكانت تؤدى ، كما جاء فى حجة الوقف إلى خلوة برسم البواب ، أما الآن فهى تؤدى عن طريق سلم إلى الدور الأرضى حيث توجد دورة المياه والميضأة .

أما الضلع الشمالى لهذا الدهليز فتوجد به نافذة مستطيلة تطل على إيوان القبلة ملئت بمصبعات حديدية ، ويلى ذلك باب يبلغ اتساعه (١٫٧٥) من المتر وارتفاعه (٢٫٩٠) مترا يؤدى إلى صحن المدرسة ، وينتهى الدهليز فى ضلعه الغربى بنافذة مستطيلة مملوءة بمصبعات حديدية تطل الآن على الدور الأرضى حيث توجد دورة المياه .

داخل المدرسة :

يتوسط المدرسة صحن مكشوف مستطيل تبلغ مساحته (١٩ × ١٤٫٧٥) مترا ويحيط به الإيوانات من جهاته الأربع التى ينخفض عن أرضيتهم بمقدار (٠٫٢٥) من المتر ويوجد به أربعة أبواب اثنان بالضلع الشمالى يؤدى الشرقى منهما إلى الضريح ويؤدى الثانى إلى خلوة ومثلهما بالضلع الجنوبى الشرقى منهما يفتح على الدهليز والثانى إلى دورة المياه وجميعها متشابه تقريبا ، إذ يبلغ سعة كل منها (١٫٧٥) من المتر وارتفاعها (٢٫٩) مترا ، يعلوه عتب يحتوى على سبع صنجات فوقه عقد عاتق يحتوى كذلك على سبع صنجات . ويعلو الأبواب جميعا حنيات معقودة تضم بينها نافذة صغيرة مستطيلة ، ويحيط بأعلى جدران الصحن الأربعة وفوق عقود الإيوانات شريط من الكتابة بالخط الثلث المملوكى نصها :

« فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم

---

(١) حجة وقف برسباى أوقاف رقم (٨٨٠) (عن محمد عبد الستار عثمان : آثار برسباى المعمارية ص ١١٨) .

يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير[1] » صدق الله العظيم . أنشأ هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين منصف المظلومين خادم الحرمين الشريفين الملك الأشرف خلد الله ملكه » .

ويوجد فى الضلع الشرقى للصحن إيوان القبلة ، وهو مستطيل الشكل إذ تبلغ مساحته (١٦٫٥ × ١٢٫٨٠) مترا فرشت أرضيته بالرخام الملون ، فى تصميمات هندسية بديعة ويعلوه سقف خشبي مزخرف بنقوش زيتية مجددة فى العصر التركى . ويطل على الصحن بواسطة عقد على شكل حدوة فرس مدببة ممتد تنتهى أقدامه بثلاثة صفوف من الدلايات ، ويوجد خلف العقد كردى خشب .

ويتصدر إيوان القبلة محراب مجوف تبلغ اتساع حنيته مترا وعمقه (٥ر) متر ويكتنفه عمودان من الرخام مثمن الشكل . وقد كسى المحراب بالفسيفساء الرخامية ، كما يوجد به شريط من الكتابة القرآنية[2] نصها :

« قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولكل

---

(١) سورة النور (الآية ٣٦ - ٤٢) .
(٢) سورة البقرة (آية ١٤٤ - ١٤٩) .

وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون » .

ويكتنف المحراب أربع حنيات متساوية فى الاتساع ومختلفة فى العمق ، إذ أن عمقها هو سمك جدار القبلة الذى روعى فيه أن يسير مع خط تخطيط الشارع المطلة عليه المدرسة . وقد فتحت فى وسط تلك الحنيات النوافذ التى تطل على الواجهة الرئيسية التى سبقت الإشارة إليها . وقد غشيت الحنيات وكذا جدران إيوان القبلة إلى ارتفاع المحراب بالرخام الملون وفوقها يوجد شريط من الكتابة عبارة عن آية الكرسى يحيط بجدران الإيوان وتستمر الكتابة حتى تنتهى فى الإيوان الغربى المقابل لإيوان القبلة . ويعلو شريط الكتابة صف من نوافذ علوية معقودة سبق الإشارة إليها عند وصف الواجهة الرئيسية . وإلى يمين المحراب منبر من الخشب المزخرف بطريقة الحشوات المجمعة المطعمة بالعاج والصدف ، كما احتوت ريشتاه على إطار من خشب الخرط . كما يوجد بهذا الإيوان كرسى مصحف من الخشب المطعم كذلك بالعاج والصدف .

ويقابل إيوان القبلة الإيوان الغربى وهو عبارة عن مستطيل مساحته (١١٫٢٥×٨) من المتر ويعلوه سقف خشبى قديم يرجع تاريخ الإنشاء وهو مزخرف برسوم زيتية مذهبة ، كما جاء فى حجة الوقف . ويصدر الإيوان حنية كبيرة يبلغ اتساعها (٤٫٧٥) من المتر وعمقها (١٫٨٥) من المتر يعلوها عقد مدبب ممتد ينتهى بصفين من الدلايات ، ومغطاة بسقف خشبى . ويعلو الحنية إزار خشبى نقش عليه بالزيت كتابة قرآنية نصها : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا . ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »[١].

وكان يتقدم الحنية عند إنشائها ملقف (باذاهنج) ، كما جاء فى حجة الوقف[٢] .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٨٦) .

(٢) عبد الستار عثمان : ص ١٣٠ .

ويكتنف الحنية الكبيرة حنيتان صغيرتان ، كما يوجد بكل من الضلعين الشمالى والجنوبى أبواب مقاسها مماثل لمقاس أبواب الحنيتين الصغيرتين ، تفتح على خلوتين ويعلو كل باب من الأبواب الأربعة الموجودة بالإيوان الغربى لوحة خشبية بها كتابة قرآنية تبدأ من الضلع الشمالى نصها :

(١) الضلع الشمالى باب رقم (١) بسم الله الرحمن الرحيم ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر»

(٢) عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على »

الضلع الجنوبى (٣) « رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعادصدق»

(٤) الله العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما .

ويشغل الضلعين الشمالى والجنوبى إيوانان متماثلان تبلغ مساحة كل منهما (٦٫٧٥×٥) مترا يصدر كل منهما نافذة يبلغ سعتها (١٫٧٠) من المتر وارتفاعها (٢٫٧٥) مترا يعلوها عقد مدبب ، تعلوها نافذة أخرى معقودة مملوءة بالجص المخرم ومعشق بالزجاج الملون.

الضريح :

يقع الضريح فى الركن الشمالى الشرقى إلى جوار إيوان القبلة وهو يتكون من مربع طول ضلعه (٦٫٥) مترا ويوجد بكل ضلع من أضلاع المربع فتحة ثلاثة منها عبارة عن نوافذ معقودة بعقود مدببة مستطيلة تطل الشمالية منها على شارع السكة الجديدة ، والشرقى على الواجهة على شارع المعز وقد سبقت الاشارة إليه والثالثة تطل على إيوان القبلة . أما الضلع الرابع فيوجد به باب يؤدى إلى الدرقاعة التى تتقدم الضريح . ويعلو النوافذ السفلية نوافذ أخرى معقودة قنديلية مملوءة بجص مخرم ومعشق بزجاج ملون . وقد ملئت أركان المربع بمنطقة الانتقال بسبعة صفوف من الدلايات تقوم فوقها رقبة القبة التى تعلوها قبة مفصصة ذات قطاع مدبب فوقها هلال نحاسى .

ويوجد بالضريح تركيبتان من الرخام الكبيرة ، إحداهما كتب عليها « هذا ضريح المرحومة فاطمة جهة المقام الأشرف الشريف - كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم

القيامة » ، وهى زوجة السلطان برسباى توفيت سنة ٨٢٧هـ. أما التركيبة الثانية فصغيرة تعلو قبر ابن السلطان برسباى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ.

وتقع المئذنة أعلى الواجهة الرئيسية على يمين المدخل الرئيسى ، وهى تقوم على قاعدة تبدأ من سطح المدرسة وتتكون من ثلاثة طوابق ، يتكون الطابق الأول من شكل مربع فتحت فى كل ضلع منه نافذة مستطيلة داخل حنية يعلوها عقد ذو زاوية ويكتنفها عمودان مندمجان ويتقدمهما شرفة صغيرة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات . ويعلو الحنية شريط كتابى زال معظمه . ويتكون الطابق الثانى من شكل اسطوانى يعلوه شريط كتابى ويفصل بين الطابق الأول شرفة ترتكز على خمسة صفوف من الدلايات . أما الطابق الثالث فعبارة عن جوسق مكون من ثمانية أعمدة تعلوها عقود ذات ثلاثة فصوص فوقها ثلاثة صفوف من الدلايات تحمل خوذة المئذنة يتوجها هلال نحاسى .

مدرسة جوهــــر اللالا

سنة ٨٣٣ هـ

بحارة درب اللبانة
بالقرب من ميدان القلعة

جوهر اللالا حبشى الجنس اشتراه الأمير عمر بن بهادر المشرف[1] من مكة المكرمة وقدم به وهو صغير السن إلى القاهرة ثم أهداه عمر إلى أخته زوجة الأمير أحمد بن جلبان الحاجب فقام بتربيته ثم أعتقه وتولى جوهر خدمة الأمير جلبان إلى أن توفى وتوفيت زوجته وسمى جوهر بالجلبانى لخدمته للأمير جلبان .

اتصل جوهر بعد وفاة الأمير جلبان بالأمير برسباى قبل توليه السلطنة وقام بخدمته مدة طويلة . وعندما تولى برسباى نيابة طرابلس سافر معه كما قام على خدمته إبان سجنه بقلعة المرقب .

ولما عاد برسباى إلى القاهرة وتولى السلطنة عاد معه جوهر اللالا وكان مقربا لديه فعهد إليه ليكون مربيا (لالا) لابنه العزيز يوسف .

ولفظ (لالا) يطلق على من يقوم بتربية أولاد السلاطين والأمراء ، وكان يعهد إلى الطواشية بالقيام بتربية أولاد السلاطين ، وقد جاء فى كتاب زبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهرى أن الطواشية ينقسمون إلى طوائف أعلاهم درجة هو من يكاف بتربية المماليك ومن عداهم يناط به وظائف مختلفة فى الدور السلطانية .

وكان جوهر اللالا من أرق طوائف الطواشية الخصيان إذ كان يقوم بتربية أولاد السلطان

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى — الجزء الثانى ورقة ١١ مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١١٣ تاريخ .

كما أسلفنا ومنهم العزيز يوسف ابن السلطان برسباى وقد عظم شأن جوهر اللالا وعلا صيته وصارت له الكلمة المسموعة فى الدولة الأشرفية واستمر على ذلك حتى سنة ٨٣٩ هـ ، إذ عينه السلطان برسباى زماما للدور السلطانية خلفا للأمير خشقدم الظاهرى الذى توفى فى تلك السنة فتزايدت عظمة جوهر اللالا وكثر ماله وجاهه واستمر على ذلك طوال حكم الأشرف برسباى .

ولما ولى السلطنة العزيز يوسف لم يجحد فضل مربيه جوهر اللالا فقربه إليه وأدناه ، من مجلسه وكان يستشيره فى مهام الدولة فزادت بالتالى هيبة جوهر اللالا غير أن الأمور لم تصف ولم تستقر ، إذ سرعان ما تولى السلطنة الظاهر جقمق الذى بويع بالسلطنة فى ربيع الأول عام ٨٤٢ هـ وهرب الملك عبد العزيز من الدور السلطانية .

ومما يذكر لجوهر اللالا أنه كان نظيفا يبالغ فى التأنق والجمال فى ملبسه ومركبه(١) كما كان ذا مروءة وشهامة مما جعل كثيرا من الناس يقصدونه لقضاء حوائجهم ومطالبهم لدى السلطان وكبار رجال الدولة ، إذ كانت له الحظوة لدى السلطان الأشرف برسباى مما يجعل رجاءه محل القبول غير أن جوهر اللالا لم يستغل صلته وقربه من السلطان فى جلب نفع مادى له أو الدخول فى أعمال تجارية غير مشروعة كما كان يفعل الكثير من ذوى الجاه فى ذلك الزمان بل ظل نظيف اليد طاهر الذيل يذكره الجميع بالسيرة الحسنة الحميدة ، كما كان بارا خيرا يحسن إلى أهل الصلاح والتقوى يدل على ذلك تخصيصه لمبالغ من ريع وقفه يصرف للخدام الطواشية المجاورين بالحرم النبوى وبمكة المكرمة تكون الأولوية فيه للفقير المحتاج وكذلك أوقف على الفقراء بالمسجد الأقصى وللفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا .

كان جوهر اللالا محبا للنظام وضبط الأمور وآية ذلك ما أورده فى وقفيته(٢) من الشروط التى تلزم من يتولى وظائف وقفه أن يكون مقيما بالقاهرة فاذا تغيب عن مقر عمله

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ج ٢ ورقة ١١ مخطوط بدار الكتب تحت رقم ١١١٣ تاريخ .

(٢) وقفية جوهر اللالا : المحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف تحت رقم ١٠٢١ .

شهرا كاملا بغير عذر عد مفصولا منها واستبدل به غيره فان غاب الموظف أقل من شهر قطع من مرتبه أجر مدة الغياب وأضيف الو فر لجهة الوقف واشترط من جملة ما جاءبالشروط أن موظفى وقفه لا يجمعون بين وظيفة وقفه وأى وظيفة أخرى فى مكان آخر حتى يتوفر الموظف لديه بالعمل الذى أناطه له كما اشترط أن لا يتنازل أحد من أرباب الوظائف عن وظيفته لآخر وأن من يفعل ذلك يكون جزاؤه الفصل وذلك منعا للرشوة الى كانت متفشية فى العصر المملوكى الى أدت إلى أن يلى الوظائف من هم ليسوا أهلا لها .

ومما يدل أيضا على تشجيع جوهر اللالا للعلم أنه أنشأ مكتبا لتعليم أيتام المسلمين القراءة والكتابة طلبا فى مغفرة الله ورجاء فى ثوابه ، واشترط فى هؤلاء الأيتام أن لا يكونوا قد بلغوا الحلم ومن يبلغ منهم يستبدل بيتيم غيره أما إذا ختم اليتيم القرآن صغيرا قبل البلوغ وأراد الاشتغال بالعلم إلى حين بلوغه أجيب إلى طلبه وصرف له معلومه المقرر له حتى إذا ما بلغ قطع من وظيفته وأنعم عليه بمبلغ خمسماية درهم عند انصرافه .

بالإضافة إلى ما وصف به جوهر اللالا من الشفقة والرحمة وحبه للناس ، كان يكره المماطلة وسوء المعاملة ويشترط فى حجج وقفه أن لا تؤجر أعيان وقفه لمن اشتهر بالمماطلة وسوء المعاملة من الناس .

وقد ساءت حالة جوهر اللالا فى عهد السلطان جقمق ، فقد أمر بالقبض عليه بعد أن تمت له مراسم السلطنة وقبل الأمراء الأرض بين يديه وسجنه بالقلعة ، وقد اشتد غضب السلطان جقمق على جوهر اللالا بعد هروب العزيز يوسف من الدور السلطانية فأمر بمصادرة جميع أمواله وألزمه بدفع مبلغ ثلاثين[1] ألف دينار وأنزل من السجن وبدأ فى بيع ما يملك حتى يستطيع دفع ما ألزم به .

وقد مرض جوهر فى السجن مرضا شديدا بالقولنج ، وأصيب فى آخر أيامه بالصرع حتى توفى فى الثلاث والعشرين[2] من جمادى الأولى سنة ٨٤٢ هـ .

---

(١) أبو المحاسن : المنهل الصافى ورقة ١١ ، النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٤٦٥ ، المقريزى : السلوك ج ٤ ق ٣ ص ٢٤٨ .

(٢) العسقلانى : الأنباء حوادث سنة ٨٤٢ (مخطوط رقم ٨٨٤٤ دار الكتب المصرية) .

الوصف المعمارى

تقع مدرسة جوهر اللالا على ربوة من الكتلة الصخرية المنفصلة عن جبل المقطم التى تقوم عليها قلعة صلاح الدين فى جنوب شرق مدينة القاهرة . والمدرسة قريبة من جامع الرفاعى يفصل بينهما حارة درب اللبانة ، وتبعد عن مدرسة السلطان حسن بمقدار (١٥٠) مترا تقريبا . وعلى الرغم من صغر مساحة المدرسة التى تبلغ (١٨٧) مترا مربعا ، وعدم انتظامها إلا أن المعمار قد نجح فى تصميمها على نظام المدارس المتعامدة فى تناسق وتناسب بديع ، وبرغم كثرة النقوش التى تزخر بها المدرسة إلا أننا لم نعثر على النص التأسيسى لها ولذلك فقد اعتمد على التاريخ الوارد فى حجة الوقف وهو عام ٨٣٣ هـ[1] .. وقد ألحق بمبنى المدرسة سبيل يعلوه كتاب ، كما تضم ضريحا تعلوه قبة دفن بها جوهر اللالا ، هذا بالإضافة إلى الخلاوى والمخازن وما إليها .

الوصف من الخارج :

تقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الشرقى للمدرسة ويبلغ طولها (١٧) مترا وارتفاعها (٩٫٨٠) من المتر وقد اندثرت الشرافات التى كانت تعلوها وحل محلها مداميك من الآجر. ويشغل الطرف الشمالى لهذه الواجهة السبيل ثم المدخل الرئيسى ثم جدار إيوان القبلة . ويحتوى جدار إيوان القبلة من الخارج على حنية كبيرة يبلغ اتساعها (٤٫٥) مترا وعمقها (٫٢٠) مترا وترتفع عن مستوى أرض الشارع بمقدار (١٫١٥) من المتر . ويشغل هذه الحنية صفان من النوافذ عليا وسفلى يتكون كل منهما من نافذتين يبلغ اتساع كل منها (٫٨٥) من المتر وارتفاعها (١٫٨) أمتار يعلو السفلى منها عتب مكون من ثلاث صنجات معشقة فوقه عقد عاتق بمصبعات حديدية ، أما نوافذ الصف العلوى فيعلوها عقد مدبب وملئت بجص

---

(١) ليلى الشافعى : مدرسة جوهر اللالا ص ٨٠ .

معشق بزجاج مكون . ويتوسط نوافذ هذا الصف نافذة مستديرة (قمرية) تعلو المحراب من الداخل . ويتوج أعلى الحنية ثلاثة صفوف من الدلايات وتنكسر الواجهة بعد جدار إيوان القبلة ، ويكون هذا الانكسار الضلع الجنوبى للضريح . ويشغل جدار الضريح حنية عمقها (٢٠ر) مترا وترتفع على مستوى أرض الشارع بمقدار (١ر٥٥) مترا ويحتوى على نافذتين أحدهما سفلية وأخرى علوية متماثلتين مع نوافذ جدار إيوان القبلة تماما ، أما بقية الواجهة من الجهة الجنوبية فهى حديثة .

وقد اهتم المعمار بمدخل المدرسة الرئيسى فارتفع به عن باقى جدران الواجهة الرئيسية وتبلغ سعة حنية المدخل (٢ر٥٠) مترا وعمقها (٧٥ر) مترا ويتوجها أربعة صفوف من الدلايات . ويرتفع المدخل عن مستوى أرض الشارع بمقدار (٩ر) مترا ولذلك يصعد إليه بخمس درجات ينتهى بردهة (بسطة) تتقدم المدخل تبلغ مساحتها (٢ر٢٥ × ١ر١) مترا ويكتنف حنية المدخل مكسلتان حجريتان يبلغ طول كل منهما (٧٥ر) مترا وعرضها (٥ر) مترا وعلى ارتفاع ثلاثة مداميك يوجد شريط كتابى محفور فى الحجر ويسير حول عضادتى الباب .

ويتوسط حنية المدخل الباب الذى يبلغ سعته (١ر٢٥) مترا وارتفاعه (٢ر٦٥) مترا يقفله ضلفتان من الخشب المصفح المزخرف بجامة كبيرة فى الوسط وقطاعات من الجامة فى الأركان وقد ملئت الجامة وقطاعاتها بزخارف نباتية وحيوانية جميلة .

ويؤدى الباب إلى دركاة (ردهة) مستطيلة الشكل تبلغ مساحتها (١٠ر٣×٤ر٢) مترا وارتفاعها (٤ر٦٥) مترا يتصدرها جلسة ، ويغطيها سقف خشبى ملون ومذهب ويحيط به إفريز خشبى نقشت عليه كتابات اندثرت معظمها ، وهناك بابان أحدهما على يمين الداخل يؤدى إلى حجرة تتقدم السبيل ، وبها فوهة الصهريج والآخر إلى اليسار يؤدى إلى الدهليز المؤدى إلى صحن المدرسة .

الوصف من الداخل :

يؤدى باب الدركاة إلى دهليز طويل منكسر يبلغ طول الجزء الأول منه (٨ر٢) مترا والثانى (٣ر٧) مترا وعرضه (١ر٣٠) مترا ويوجد بالضلع الشرقى للدهليز كتبية يبلغ اتساعها

(٨ر) مترا وارتفاعها (٧ر١) مترا وعمقها (٩ر) مترا . وفى الضلع الغربى منه مزملة (مزيرة) وإلى جانبها يوجد باب يعلوه عقد مدبب اتساعه (٧ر) مترا وارتفاعه (٩ر١) مترا ذكر فى الوقفية[1] باسم (باب رسر) يصل بين سكن جوهر المجاور للمدرسة والمدرسة دون الحاجة إلى الخروج إلى الطريق ، كما يوجد بهذا الدهليز نافذة تطل على إيوان القبلة وينتهى ببابين أحدهما يوصل إلى سلم يؤدى إلى دور علوى والثانى إلى صحن المدرسة يبلغ اتساعه (٨ر١) مترا وارتفاعه (٢ر١) مترا . والدهليز مغطى بسقف خشبى أصابه التلف وكانت أرضيته مفروشة بالرخام الملون تلف كذلك وحل محله بلاطات من الحجر الجيرى .

ويتوسط المدرسة صحن مربع الشكل تقريبا يبلغ مساحته (٤٠ر٥ × ٣٠ر٥) مترا وتحيط به الايوانات من جهاته الأربع ، تنخفض أرضيته عن الإيوانات بمقدار (٢٧ر) مترا وفرشت بالرخام المتعدد الألوان . ويوجد على جانبى الصحن أربعة أبواب يبلغ اتساع كل منها (٨ر١) مترا وارتفاعه (٢ر١) مترا ويعلوه عتب مكون من ثلاث صنجات معشقة فوقه عقد عاتق ، ويعلو العقد نافذة مستطيلة يبلغ ارتفاعها (٩ر١) مترا واتساعها (٧٥ر) مترا بعضها يطل على غرف فى الطابق العلوى وأخرى إلى سلم يوصل للطابق العلوى وثالث على دهليز المدخل ورابع يوصل إلى الضريح .

ويغطى الصحن سقف خشبى تتوسطه فتحة مثمنة (شخشيخة) يبلغ طول ضلعها (٥ر١) مترا وارتفاعها (٢٥ر٢) مترا يعلوها شكل مخروطى لتفادى مياه الأمطار وأرضية الصحن مفروشة برخام متعدد الألوان .

ويشغل الضلع الشرقى من الصحن إيوان القبلة وهو عبارة عن مستطيل تبلغ مساحته (٤٫٧٥ × ٣٥ر٥) مترا يتقدمه عقد مدبب . وقد كسيت جدرانه بوزرات من الرخام إلى ارتفاع (٥ر١) مترا بينما يرتفع إلى مقدار (٤) أمتار فى جدار القبلة ، ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف يبلغ عمقه (٦٠ر) وسعته (٧٥ر) مترا وارتفاعه (٣ر١) مترا ويعلوه عقد مدبب يرتكز على عمودين من الرخام الوردى اللون ، وقد زخرفت خواصر العقد بنقوش

(١) وقفية جوهر اللالا وزارة الأوقاف رقم (١٠٢١) .

نباتية ملونة بالزيت فى تكوينات بديعة ، وسقف الإيوان من الخشب على مستويين زخرفت بالنقوش المدهونة باللازورد والذهب . ويوجد على جانبي إيوان القبلة حنيتان يبلغ اتساع الجنوبية منهما (٢٫٨)متراوعمقها (١٫١) مترا يتقدمها كرسى خشبي ويعلوها عقد مدبب ويتوسطها كتبية سعتها (١٫٢) مترا وارتفاعها (٢٫٢) مترا وعمقها (٫٩٥) مترا ويوجد بسقف هذه الحنية ملقف للهواء (باذاهنج) سد الآن ، أما الحنية الشمالية فيبلغ اتساعها (٢٫٧٥) مترا وعمقها (٫٧) مترا وهى مماثلة تماما للحنية الجنوبية .

وإلى جانب المحراب يوجد منبر خشبي قد زخرفت جانبيه (ريشتيه) بطريقة الحشوات المجمعة المطعم بالعاج والصدف .

ويقابل إيوان القبلة الإيوان الغربي ويتكون من مستطيل تبلغ مساحته (٤٫٧٥) مترا × (٢٫٥٥) مترا يتقدمه عقد مدبب يفتح على الصحن ، وتتصدره حنية يبلغ اتساعها (١٫٥) مترا وعمقها (١٫١٠) مترا يعلوها دكة المبلغ . ويكتنف الحنية كتبيتان اتساع كل منهما وارتفاعها (٢٫٢٥) مترا ركب عليها مصاريع خشبية ، ويتوصل إلى دكة المبلغ عن طريق سلم متحرك .

الايوان الشمالى والجنوبى :

لقد جاء ذكر هذين الإيوانين فى وقفية جوهر اللالا تحت اسم (المرتبة) بينما نجده فى وقفيات أخرى تحت اسم (سدلة) ، كناية عن صغر حجمها ، ويبلغ مساحة كل منهما (١٫٧٥ × ١٫٩٥) مترا ويتقدمه عقد مدبب من الحجر الأبلق ، يتصدر الإيوان الجنوبي كتبية ويغطى الإيوانين سقف خشبي منقوش بزخارف زيتية من اللازورد ، والتذهيب ، وفوش الأرضية رخام متعدد الألوان .

المئذنة :

تعلو المئذنة الواجهة الرئيسية للمدرسة التى يبلغ ارتفاعهاالكلى (١٠٫٥) مترا وتتكون من ثلاثة طوابق الأول مربع الشكل يبلغ طول ضلعه (٢٫١) مترا وارتفاعه (١٫٧) مترا والطابق الثانى مثمن الشكل طول كل ضلع (٫٨٥) مترا وارتفاعه (٤٫٦٠) مترا، فتح فيه

أربع نوافذ سدت الان ، ويعلو الأضلاع الثمانية حنيات يعلوها عقد ذو زاوية مفصص ، ويفصل بين الطابق الأول والثانى شرفة خشبية ترتكز على أربعة صفوف من الدلايات ، ويتكون الطابق الثالث من شكل اسطوانى يرتفع حوالى (٢٫٢٥) مترا ويفصل بينه وبين الطابق الثانى ثلاثة صفوف من الدلايات ، ثم تستدق الاسطوانة كلما ارتفعنا إلى أعلى وتتوجه كرة دائرة يعلوها هلال من النحاس ، وهذه المئذنة مجددة بشكل ردئ لا يتناسب مع جمال ودقة معمار المدرسة .

مسجد الأشرف برسباى

بالخانكاة مركز شبين القناطر
بمحافظة القليوبية ٨٤١ هـ

تعتبر مدينة شبين القناطر من مراكز القليوبية الهامة ، فهى مدينة قديمة اسمها الأصلى شبين ، ذكرها ياقوت فى معجمه ، شبين من قرى الحوف بمصر بين بلبيس والقاهرة ولأجل تمييزها عن شبين التى بالمنوفية سميت بشبين القصر وظلت محتفظة بهذه التسمية حتى العصر المملوكى ثم تغير اسمها إلى شبين القناطر ، ويذكر ابن اياس عن تسميتها بهذا الاسم الجديد فيقول : انها سميت شبين القناطر لأنها اشتهرت بالقناطر التى أنشأها عندها على بحر أبى المنجا الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة ٧٣٥ هـ .

والخانكاة بلدة تابعة لمركز شبين القناطر ، والخانكاة أو الخانقاة كلمة فارسية معناها البيت وقيل أصلها خونقاة أى الموضع الذى يأكل فيه الملك . وقد ظهرت الخوانق فى الدولة العباسية فى القرن الرابع الهجرى فى العراق وإيران ، وهى أماكن خصصت ليختلى فيها الصوفية لعبادة الله . أما فى مصر فإن أول من أنشأ الخانقاة هو صلاح الدين الأيوبى ، فقد أقام الخانقاة الصلاحية مكان دار سعيد السعداء خادم الخليفة المستنصر الفاطمى . وقصده من بنائها هو إيواء فقراء الصوفية الوافدين من البلاد النائية ووقفا عليهم . أما الخانقاة التى نحن بصدد الكلام عليها فتعرف باسم خانقاة سرياقوس ، ويقص علينا المقريزى القصة الآتية عنها فيقول : كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون من عادته أن يخرج للصيد فى الأحراش والميدان الذى أنشأه حول بركة الجب بمنطقة سرياقوس شمال القاهرة . واتفق أن ركب على عادته للصيد هناك ، فلما وصل إلى منطقة سرياقوس

أحس بألم عظيم فى جوفه يكاد أن يأتى عليه وهو يتجلد ، ويكتم ما به حتى عجز عن احتمال الألم فنزل عن الفرس والألم يتزايد به ، فنذر لله ان عافاه ليبنين فى هذا الموضع مكانا يعبد فيه الله . ثم عاد إلى قلعة الجبل فلزم الفراش عدة أيام. فلما عوفى ركب بنفسه ومعه عدد من المهندسين وخط على بعد ميل من ناحية سرياقوس هذه الخانقاة وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفى وبنى بجانبها مسجدا تقام به الجمعة وبنى بها حماما ومطبخا . ولما تم بناء الخانقاة سنة ٧٢٥ هـ خرج بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانق ومدت الأسمطة داخل الخانقاة ، وخلع السلطان الخلع على الأمراء وأرباب الوظائف وفرق بها ستين ألف درهم فضة . ومنذ ذلك الحين رغب الناس فى السكنى حول هذه الخانقاة وبنوا الدور والحوانيت والخانات حتى صارت بلدة كبيرة تعرف بخانقاة سرياقوس .

* * *

وقد أنشأ الملك الأشرف برسباى مسجده الجامع فى بلدة الخانقاة . وقد تولى الملك الأشرف برسباى سلطنة مصر بعد ثلاثة ملوك ضعاف خلفوا السلطان المؤيد شيخ . وكانت القاهرة فى عصرهم دائمة الإصابة بوباء الطاعون وبانخفاض مياه النيل وانتشار الغلاء

والسلطان الأشرف برسباى جركسى الجنس ، جلبه بعض التجار إلى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقماق المحمدى نائب ملطية مع جملة مماليك صغار ، ثم قدمه إلى الملك الظاهر برقوق فأخذه ، وجعله من جملة المماليك السلطانية ونزل بطبقة الزمامية . ثم أعتقه الملك الظاهر برقوق وأخرج له خيلا وقماشا ، ثم أصبح يشغل وظيفة خاصكيا (أى سكرتير خاص) ورقى إلى رتبة ساقى فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق . ولما تولى السلطان مؤيد شيخ جعله أمير عشرة ، ثم تولى إمارة الطبلخاناة ، ثم أصبح مقدم ألف وتولى بعد ذلك نيابة طرابلس ، وكان الأشرف برسباى يوم تولى عرش مصر يشغل وظيفة دوادارا كبيرا (أى سكرتير عام الدولة) ولم يكن أتابك العساكر وهى أكبر وظيفة فى الدولة بعد السلطان فى ذلك الحين .

ويحدثنا ابن اياس فى ذلك فيقول : لما خلع السلطان محمد بن ططر ، حضر أمير المؤمنين المعتضد والقضاة الأربعة والأتابكى بيبغا المظفرى وسائر الأمراء فتشاوروا

فيمن يولونه عرش السلطنة ، فقال الأتابكى بيبغا « الأمير برسباى يكون سلطانا وهو أحق بها منى » فآثره بالسلطنة على نفسه . ويصف ابن اياس الاحتفال بتوليته عرش البلاد فيقول : فلما نودى به سلطانا على البلاد سنة ٨٢٥ هـ لبس خلعة السلطنة من باب السلسلة (أحد أبواب قلعة صلاح الدين) وركب من المقعد (مكان مخصص للرجال) وحملت على رأسه القبة (مظلة كبيرة) والطير حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك وباس له الأمراء الأرض من الأكابر والأصاغر وتلقب بالملك الأشرف ودقت البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء من الخاص والعام .

ويمتاز عصر الأشرف برسباى بالاستقرار والرخاء الاقتصادى كما أنه اشتهر بالعدل ومما يذكر له بالفضل أنه أبطل استعمال النقود الذهبية الأجنبية وصك عملة فى مصر عرفت بالعملة الأشرفية نسبة إليه وكانت من خالص الذهب بالنسبة للدينار وأجود الفضة للدرهم .

ومن أشهر آثار الأشرف برسباى التى ما تزال باقية بمدينة القاهرة مسجده المعروف بالمدرسة الأشرفية الذى يقع عند تقاطع شارع السكة الجديدة بشارع المعز لدين الله (الأشرفية سابقا) بحى الصاغة . ومن الطريف أن السوق المجاورة للجامع من جهته الجنوبية كانت متخصصة فى بيع العنبر والطيور واللبان ، وما زالت حتى الآن تحتفظ بهذا التخصص .

ويقال ان السبب فى بناء السلطان الأشرف برسباى للمسجد بجهة الخانقاة أنه تصادف عند خروجه لفتح جزيرة قبرص التى لجأت إليها باقى فاول القوات الصليبية التى طردت من بلاد الشام بعد أن قضى عليها السلطان الأشرف خليل بن قلاوون فى موقعة عكا ، أن نزل بالخانقاة السرياقوسية ونذر ان أحياه الله تعالى وظفر بعدوه الملك جان دى لوزينيان ورجع سالما ، ليعمرن فى هذا المكان مسجدا وسبيلا وفى هذا يقول ابن اياس : « فأعطاه الله تعالى النصر ، وفتح مدينة قبرص فى تلك السنة (سنة ٨٢٩ هـ) وأسر ملكها وجئ به إلى القاهرة أسيرا ، فكان يوم دخوله إلى القاهرة يوما مشهودا وزينت المدينة سبعة أيام . ودخل عسكر الفرنج وهم فى زناجير (سلاسل) وملكهم راكب وعليه آلة

الحرب » . وقد صادفت وقت وصوله مصر الفراغ من بناءِ مدرسته بالأشرفية (شارع المعز حاليا) فأمر بتعليق خوذة ملك الفرنج على بابها لتكون تذكارا لانتصار مصر على الفرنجة . وقد بقيت الخوذة هناك حتى القرن الثامن عشر . وقد وفّى برسباى بنذره وأنشأ المسجد وألحق به سبيلا كما أنشأ بجواره مقعدا ؟ (مبنى مخصص لاستراحة الرجال) وخانا وحوضا لشرب الدواب .

ويتكون المسجد من مربع تبلغ مساحته ما يقرب من نصف فدان ، أما تخطيطه فيتكون من صحن مكشوف يتوسط المسجد وتحيط به الأروقة من جميع الجهات ، وإيوان القبلة أكبر الإيوانات إذ يحتوى على ثلاثة صفوف من الأعمدة ويتكون كل صف من ستة أعمدة تحمل عقودا مدببة . ولتخفيف الضغط الطارد على الأعمدة فتحت نوافذ فى كوشة العقود . وصفوف الأعمدة موازية لحائط القبلة وقد زخرفت حافات عقودها باللونين الأسود والأبيض وتعرف هذه الزخرفة فى العمارة الإسلامية بالأبلق . وقد زين صدر هذا الإيوان وجانباه بفسيفساء رخامية متعددة الألوان ، ويتوسط الإيوان محراب ، زخرف تجويفه وطاقيته بالرخام الدقيق . ويقال إنه كان يوجد فى إيوان القبلة تسع شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم ، ويتكون كل من الإيوانين الشمالى والجنوبى من رواقين أما الإيوان الغربى المقابل لإيوان القبلة ففيه رواق واحد .

الوصف المعمارى

الوصف الخارجى :

يكون المدخل الرئيسى للجامع الذى يقع فى الضلع الشرقى كتلة منفصلة هو وملحقاته فهو يلى واجهة السبيل . ويرتفع المدخل عن مستوى الأرض إذ يصعد إليه بثلاث درجات تؤدى إلى حنية المدخل التى يبلغ اتساعها (٣٫٥) مترا وعمقها مترا ويكتنفها مكسلتان من الحجر يبلغ طول كل منهما (٫٩٥) مترا وعرضها (٫٧) مترا وارتفاعها (٫٧) مترا . وعلى ارتفاع خمسة مداميك من هاتين المكسلتين يوجد شريط كتابى الخط الثلث المملوكى نصه « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » صدق الله العظيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباى عز نصره».

ويتوسط حنية المدخل باب تبلغ سعته (١٫٨) مترا وارتفاعه (٢٫٩) مترا ويعلوه عتب مكون من صنج معشقة من الرخام الملون يبلغ عددها خمس عشرة صنجة . ويحيط بالعتب إطار من زخرفة قالبية بارزة من ثلاث جهات . ويعلو العتب عقد عاتق مكون من صنج معشقة ويكتنفه رنك كتابى مستدير مقسم إلى ثلاثة أقسام (شطبات) تحتوى على كتابة نصها : عز لمولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر برسباى عز نصره . ويعلو العقد نافذة مستطيلة على نفس محور الباب مملوءة بخشب الخرط ويعلو ذلك شريط من الكتابة نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » صدق الله العظيم[1] وكان

---

(١) سورة النور آية (٢٥) .

الفراغ من ذلك فى مستهل جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وثمانمائة من الهجرة النبوية . ويحيط بحنية المدخل عقد ذو ثلاثة فصوص ملئت بدلايات منسقة فى أسلوب هندسى بديع . ويتوج الواجهة شرفات على شكل ورقة نباتية ذات ثلاثة فصوص .

ويؤدى باب المدخل إلى دركاة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٣٫٥) مترا يعلوها سقف خشبي ، ويتصدرها جلسة حجرية . ويوجد بالضلع الشمالى للدركاة باب معقود يؤدى إلى السبيل كما يوجد باب آخر معقود فى الضلع الجنوبى يؤدى إلى دهليز مستطيل يبلغ طوله (٦٫٨٠) مترا وعرضا (٢٫٢٥) مترا فرشت أرضيته بالرخام الملون ، ويعلوه سقف خشبي . ويوجد بالضلع الشمالى للدهليز إيوان صغير معقود وسقفه مقبى ، وعلى فتحته حجاب من خشب الخرط كان يستخدم (مزملة) . كما يوجد باب آخر صغير فى هذا الضلع من الدهليز يؤدى إلى مجموعة من الحجرات تتبع الجامع وتتبع فى كتلة المدخل الرئيسى . وفى الضلع الغربى للدهليز يوجد باب صغير يؤدى إلى سلم يصعد منه إلى مجموعة من الغرف فى الطابق العلوى ثم إلى سطح الجامع وإلى المئذنة ، أما الضلع الجنوبى للدهليز فيحتوى على نافذة معقودة مستطيلة الشكل تفتح على رواق القبلة وبابه صغير يفتح على الرواق الشمالى .

ويتكون الجامع من شكل مربع يبلغ طول ضلعه (٣٨) مترا تقريبا ، قد فتحت فى كل ضلع من أضلاعه الأربعة سبع نوافذ معقودة مستطيلة يبلغ ارتفاعها (٢٫٥) مترا واتساعها (١٫٥) مترايعلوها عتب مكون من ثلاث صنجات معشقة فوق عقد عاتق يحتوى على ثلاث صنجات معشقة . ويعلو هذا الصف من النوافذ السفلية صف آخر من سبع نوافذ قنديلية ملئت بالجص المخرم المعشق بالزجاج الملون . وقد انحصرت هذه النوافذ من الخارج داخل حنيات سبع تضم كل منها نافذتين سفلية وعلوية وتنتهى بثلاثة صفوف من الدلايات يأتى فوقها شرافات الجامع .

وقد احتوت الواجهات الأربع للجامع على صفين من النوافذ يبلغ عدد كل صف سبعة فيما عدا الضلع الشرقى حيث حلت حنية المحراب المجوف محل النافذة المتوسطة

فأصبح عدد النوافذ فى هذا الضلع ست . أما الضلع الغربى فقط حل مدخل ثانى للجامع محل النافذة المتوسطة فى هذا الضلع فأصبح عددها ست كذلك .

ويبرز المدخل الثانى الذى يتوسط الضلع الغربى عن سمت الجدار بمقدار(٧٥ر) م ويبلغ اتساعه (٧٥ر٥) مترا ويتوسطه حنية المدخل التى يبلغ اتساعها (٣ر١) مترا وعمقها (٩ر) ويكتنف الحنية من الجانبين مكسلتان من الحجر طولها متر وعرضها (٥ر) مترا وارتفاعها مترا . ويتوسط الحنية باب سعته (٥ر١) مترا اوارتفاعه (٩ر٢) مترا يعلوه عقد مسطح مكون من صنجات معشقة يعلوه نافذة صغيرة مستطيلة مملوءة بالجص والزجاج المعشق المتعدد الألوان . ويحيط بالحنية إطار مستطيل مكون من زخرفة قالبية بارزة تنتهى من أعلى بعقد مدبب ، يأتى فوقه شرفات الجامع .

الوصف من الداخل :

يتوسط الجامع صحن مربع الشكل يبلغ طول ضلعه (٨ر١٣) مترا فرشت أرضيته بالرخام الملون المزخرف بتشكيلات هندسية جميلة . ويحيط بالصحن من جهته الأربع أروقة . وتبلغ عدد العقود التى تطل على الصحن فى الأضلاع الأربعة ثلاثة وهى على شكل حدوة فرس مدببة ، إلا أن أوسطها أوسعها إذ يبلغ سعته (٤) أمتار وارتفاعه (٣) أمتار أما الجانبية فيبلغ سعتها (٣) أمتار ، وارتفاعها (٥ر٢) مترا . ويحتوى أركان الصحن الأربعة على دعامات ذات زاوية ترتكز عليها البوائك التى تطل على الصحن .

ويحتوى إيوان القبلة الذى تبلغ مساحته (٥ر٣٦ × ٥ر١٥) مترا على ثلاثة صفوف من الأروقة موازية لحائط القبلة يبلغ اتساع كل منها (١٥ر٣) مترا يفصل بينها صفان من البوائك يحتوى كل منهما سبعة عقود مدببة منبعجة ترتكز على ستة أعمدة بعضها من الرخام والآخر من الجرانيت الأحمر ، متعددة الأطوال والتيجان والقواعد ، ونلاحظ أن العقود المتوسطة فى كل من البائكتين أوسع من باقى العقود ، وهو الذى يسير موازيا للعقد المتوسط الذى يطل على الصحن . ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف يبلغ اتساعه (١ر١) مترا وعمقه (٩ر١) مترا ويكتنفه عمودان من الرخام مثمنا الشكل ويعلو المحراب

طاقية ذات قطاع مدبب. وقد كسى المحراب بالفسيفساء الرخامية ، ويعلو المحراب نافذة صغيرة معقودة ومملوءة بالجص والزجاج المعشق .

وإلى يمين المحراب يوجد منبر خشبي ، جدد فى عهد عباس حلمى الثانى سنة ١٣٣١ هـ كما نقش ذلك على بابه . كما يوجد فى رواق القبلة المتوسطة دكة المبلغ وهى من الخشب المجلد وتقوم على ستة أعمدة من الرخام وتبلغ مساحتها (١ر٢ × ٨٠ر٢) مترا . ويبلغ مساحة الرواق الغربى المقابل لرواق القبلة (٥ر٢٦ × ٧٥ر٥) مترا ويحتوى على رواق واحد تتقدمه بائكة مكونة من سبعة عقود ترتكز على أربعة أعمدة رخامية ودعامتين من دعائم الصحن السالف الإشارة إليها . وتبلغ مساحة كل من الرواقين الشمالى والجنوبى (١٢ × ٩) مترا ويحتوى كل منهما على رواقين يفصل بينهما صفان من البوائك يتكون كل منهما من ثلاثة عقود ترتكز على ثلاثة أعمدة رخامية . والعقد المتوسط فى كل منهما أوسع من العقود الجانبية سبق الإشارة إليها عند وصف عقود الصحن .

المئـذنة :

تقع المئذنة على يمين المدخل الرئيسى للجامع بالضلع الشرقى وهى تقوم على قاعدة تفصل بين كتلة المدخل والجامع ، وتتكون المئذنة الحالية التى أعيد بناؤها سنة ١٩٤٤م من ثلاثة طوابق ، يتكون الطابق الأول من شكل مربع طول ضلعه (٣) أمتار وارتفاعه (٨) أمتار فتح فى كل ضلع نافذة ضيقة داخل حنية تنتهى بعقد ذى زاوية مفصصة ويتقدم النافذة شرفة صغيرة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات ويعلو الحنية شريط كتابى يحتوى على آية الكرسى[1] ، ويفصل بين الطابق الأول والثانى شرفة ترتكز على أربعة صفوف من الدلايات .

ويتكون الطابق الثانى من شكل اسطوانى مفصص يبلغ ارتفاعه (٥ر٥) مترا ، ويفصل بينه وبين الطابق الثالث شرفة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات . أما الطابق الثالث فعبارة عن جوسق يبلغ ارتفاعه (٨) أمتار ويحتوى على ثمانية أعمدة تحمل عقودا ذات ثلاثة فصوص ويعلو ذلك خوذة المئذنة ثم الهلال النحاسى .

---

(١) سورة البقرة الآية رقم (٢٥٤) .

مدرسة قراخجا الحسنى

بشارع درب الجماميز بالقاهرة

كان الأمير قراخجا الحسنى من مماليك السلطان الظاهر[1] برقوق ، وكان صغير السن فأنزله كغيره من المماليك الطباق السلطانية بقلعة الجبل ، أى ثكنات مكونة من طابقين من الغرف[2] تعلو الاصطبلات عادة ويجاورها ميضاةً وبئر ماء . ولصغر سنه طالت أيامه فى الجندية فقد عاصر السلطان برقوق وابنه السلطان فرج ابن برقوق المتوفى سنة ٨١٥ هـ ولم يصبح أمير عشرة إلا بعد موت السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢٤ هـ وفى عهد السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباى ، الذى كان أيضا من مماليك السلطان الظاهر برقوق ، أخذ يتدرج فى سلك الوظائف العسكرية من رأس نوبة حتى أصبح من أمراء طبلخاناة[3] ، وهى من الوظائف أرباب السيوف فى مصر المملوكية تلى وظيفة أمير مائة ومقدم ألف ومعناها المشرف على دق الطبول والموسيقى[4] .

واسم قراخجا مكون من لفظين[5] ، قرة بمعنى أسود باللغة الفارسية وخوجه بمعنى سيد أو أستاذ ، ولعله عرف بهذا الاسم نسبة إلى سواد لونه ، إذ يصف السخاوى شكله فيقول ، إنه كان من أحسن أبناء جنسه وكان به تجمل ، أسمر معتدل القد رشيق

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢١٦

(٢) المقريزى : السلوك ج ٢ ص ١٥٦ حاشية ٥

(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٥ ص ٧٦

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٢٣ .

(٥) الجواليقى : معجم الألفاظ الفارسية .

الحركة أبيض اللحية مستديرها ، علية وقار وحشمة .. ثم يعدد مناقبه عندما أصبح أميرا فيقول ، كان أميرا دينا خيرا عاقلا كثير العبادة والصدقات ينفر من المنكرات متواضعا يكرم الفقهاء وأرباب الصلاح[1] .

وأخذ قراخجا الحسنى يترقى فى سلم الوظائف العسكرية الكبرى حتى وصل إلى أمير آخور الكبرى ، وفى ذلك يقول أبو المحاسن[2] ، كان شجاعا عارفا بفنون الفروسية وتعلم الرمح ، حسن السيرة مخلصا فى عمله ولذلك سكن السلسلة (باب السلسلة ، أوباب الاصطبل) .

ولم يلمع نجم الأمير قراخجا الحسنى إلا فى عهد السلطان أبو سعيد جقمق العلائى الظاهرى ، الذى خلع عليه فى إحدى الربيعين من سنة ٨٤٢ هـ برأس نوبة النوب عوضا عن الأمير تمراز القرشى حيث أنه كان يشغل فى ذلك الوقت أمير آخور الكبرى بعد القبض على الأمير جانم الأشرفى[3] . وهذه الوظائف التى تولاها الأمير قراخجا الحسنى كانت من أكبر الوظائف العسكرية فى العصر المملوكى . فأمير آخور أى الأمير القائم بأمر الدواب من خيل وبغال وإبل وغيرها فى الاصطبلات السلطانية . وأمير آخور كبير ، يعتبر من أكبر وظائف الدولة العسكرية فى البلاط المملوكى يتولاها أحد الأمراء الكبار من فئة أمراء المئين مقدمى الألوف .

وآخر ما تولاه من الوظائف العسكرية هو رأس نوبة ، التى كان يختار لها فى العادة أمراء من الخاصكية نظرا لأهميتها . وقد كان عددهم فى أول الأمر أربعة ثم زادوا إلى عشرة . وكانت مهمته الفصل فى خلافات أمراء المماليك ، وكان السلطان يناديه (بأخى)[4] .

---

(١) السخاوى : جـ ٦ ص ٢١٦ .

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٥ ص ٣٢٩

(٣) المرجع السابق : النجوم جـ ١٥ ص ٣٩٠

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٢٧

وقد شارك قراخجا الحسنى مشاركة فعالة فى الأحداث التى وقعت فى عهده فى عصر السلطان برسباى والسلطان جقمق ، وذلك لما اتصف به من الشجاعة والفروسية مما جعله موضع ثقة السلاطين به. فقد حدث سنة ٨٣٣ هـ أن استأمنه السلطان برسباى بمهمة مرافقة الأمير أزبك المحمدى الظاهرى برقوق الدوادار الذى أراد الوثوب إلى كرسى السلطنة فعمل على إبعاده عن مصر ، نيابة عن القدس اتقاء لشره. كما أرسله مرة ثانية سنة ٨٣٩ هـ[1] إلى الشام مع الأمراء المجردين من القاهرة إلى الريدانية[2] ، وذلك للقبض على الخارجين على الأشرف برسباى.

ولما تولى السلطان جقمق كرسى السلطنة ، كان الأمير قراخجا الحسنى من بين الأمراء الذين عملوا على تثبيت ملكه ضد الأتابكى قرقماش الشعبانى حاول القبض على السلطان والاستيلاء على الحكم[3]. فقد نجح قرقماش فى جمع بعض الأمراء واستولى على مدرسة السلطان حسن وأخذ يضرب القلعة بالمكاحل (المدافع) والمجانيق ، وحدثت موقعة شديدة بين الفريقين انتهت بانتصار السلطان جقمق[4] وكان ذلك سنة ٨٤٢ هـ.

كذلك خرج الأمير قراخجا الحسنى عدة مرات إلى بلاد الشام لتأديب الخارجين على السلطان ، فقد جاء فى حوادث سنة ٨٤٢ أن تمرد الأمير إينال الجمكى على السلطان فى الشام ، فكان قراخجا من بين أمراء الألوف الذين عينهم السلطان جقمق فى هذه الحملة وخلع عليه لقب أمير آخور كبير ، فخرجت الحملة من الريدانية إلى الشام ، واستطاعت المماليك السلطانية أن تنتصر على إينال الجمكى ومن معه وقبض عليه وسجن فى قلعة دمشق.

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٥ ص ١٥٨

(٢) الريدانية : مصر الجديدة الآن.

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٩٠

(٤) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٥ ص ٣١٩

وقد حدث فى سنة ٨٤٩ هـ ، أن قامت قبائل العربان[1] القاطنة فى أعمال البحيرة بالتمرد فسرقوا ونهبوا القرى والمدن وعاثوا فى الأرض فسادا ، فأرسل السلطان حملة بقيادة الأمير قراخجا الحسنى رأس النوبة ومعه ستة من الأمراء لتأديب هؤلاء العربان .

وقد كان الأمير قراخجا الحسنى[2] موضع تقدير ومحبة ومعزة السلطان وكذا جميع الأمراء حتى إنه كان من المرشحين للسلطنة بعد جقمق ، إلا أن المنية لم تمهله فقد توفى بالطاعون هو وولده فى نفس اليوم سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة ، وحضر السلطان الصلاة عليهما فى اليوم التالى ودفنا معا فى قبر واحد بالصحراء[3] .

---

(١) إبن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٢٠١

(٢) السخاوى : الضوء جـ ٦ ص ٢١٦

(٣) أبو المحاسن :

الوصف المعمارى

تقع هذه المدرسة بالقرب من قنطرة عمر شاه من الجهة الجنوبية وقنطرة – طقزدمر – من الناحية البحرية[1] . ويحدثنا المقريزى[2] عن قنطرة طقزدمر ، فيقول إنها تقع على الخليج الكبير (شارع بورسعيد الآن ، أنشأها الأمير طقزدمر الحموى سنة ٧٣٠ هـ . ويبين أبو المحاسن[3] السبب فى إقامة هذه القنطرة بأن الأمير طقزدمر حكر بستانا بجوار الخليج ، مساحته ثلاثون[4] فدانا وبنى له قنطرة عرفت به ، وقلع أخشابه وغروسه وأذن للناس فى البناء عليه فحكروه وأنشأوا به الدور الجليلة وصار الحكر مسكن الأمراء والأجناد ، وبه السوق والحمامات والمساجد .

وكان الحى الذى تقع به المدرسة يعرف باسم خط الكرمانى[5] ، وذلك نسبة إلى الأمير طقزدمر الكرمانى الحموى نائب السلطنة بديار مصر وهو الذى أنشأ الحكر والقنطرة السابق الإشارة إليها .

ويقع المدخل الرئيسى للمدرسة فى شارع بشتاك ، وهو الشارع الذى كان يفصل بين المبانى والعمائر التى تطل على الخليج الكبير وبين البستان الذى حكره طقزدمر بعد أن قطع أشجاره . وقد عرف هذا الشارع باسم بشتاك نسبة إلى الجامع الذى بناه الأمير بشتاك سنة ٧٣٦ هـ به ، والمعروف الآن باسم جامع فاضل باشا[6] . ويبدأ شارع بشتاك من سبيل بشتاك الذى يقع أمام جامع بشتاك وخانقاة ابن غراب ، وهى التى أنشأها سعد الدين

---

(١) على مبارك : الخطط الجديدة جـ ٣ ص ١٢
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٤٧
(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٩٥
(٤) ثلاثون فدانا فى عصر الناصر محمد سنة ٧٣٠ هـ تساوى أربعين فدانا فى وقتنا الحاضر .
(٥) على مبارك : جـ ٣ ص ١٠
(٦) سعاد ماهر : مساجد

ابن عبد الرزاق[1] بن غراب الاسكندرانى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (يشغلها الآن إدارة التفاتيش الإسلامية لهيئة الآثار المصرية) .

ويمكن تحديد المنطقة التى تقع فيها المدرسة حسب التخطيط الحديث لحى السيدة زينب رضوان الله عليها ، إذ يحدها غربا شارع بشتاك الذى يعرف الآن باسم شارع درب الجماميز[2] والذى يبدأ من قنطرة طقزدمر التى كانت موجودة على الخليج المصرى وكانت تعرف باسم قنطرة درب الجماميز التى ظلت باقية حتى سنة ١٨٩٨[3]م الذى تم فيها ردم الجزء الأوسط من الخليج (والذى ردم كله الآن وأصبح يعرف باسم شارع بورسعيد) وبردمه اختفت القنطرة التى يحدد موقعها الآن خانقاة ابن غراب السابق الإشارة إليها (المواجهة لمدرسة الخديوية الآن) ويقع أمامه شارع مجلس الشعب (حاليا) الذى يتفرع منه حارة السلطان الحنفى والهياتم .

والمدرسة غير منتظمة الأضلاع ، إذ يبلغ طول الضلع الغربى الذى يقع به المدخل ١٧٫٧٥م وضلع القبلة الشرقى ٢٢٫٥ مترا والضلع الشمالى الذى يطل على حارة السادات ٢٤٫٥ مترا والضلع الجنوبى الذى توجد به دورة المياة ١٩ مترا ، أما مساحة المدرسة فتبلغ ٤٠٠ متر مربع تقريبا .

وتقع الواجهة الرئيسية للمدرسة (لوحة رقم ١) فى الضلع الغربى ويبلغ الجزء الباقى منها ٨٫٥ مترا وارتفاعها بالشرفات (١٠) مترا ويشغل الواجهة المدخل الرئيسى وحنية مسطحة تقع إلى يسار المدخل يبلغ عرضها (١٫٧٥) مترا وارتفاعها (٧٫٥) مترا ، يشغلها نافذتان ، السفلى مستطيلة الشكل (١٫٩٠ × ١٫٢٥) مترا مملوءة بمصبعات نحاسية يعلوها عتب فوق عقد عاتق مكون من صنجات معشقة . أما النافذة العليا فقنديلية الشكل إذ أنها تتكون من فتحتين معقودتين يفصل بينهما عمود ويعلوهما دائرة انظر لوحة رقم

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٤١٩

(٢) لم أجد تفسيرا لاسم الجماميز فى أى مرجع من المراجع ، ومن المرجح أن تكون الجماميز جمع جمازة وليس من المستبعد وجود أشجار جميز تطل على هذا الشارع وهى من بقايا البستان القديم ، فعرف الشارع بها بدلا من شارع بشتاك

(٣) محمد رمزى : حاشية النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٩٥

(د) . وتنتهى الحنية من أعلى بأربع صفوف من الدلايات بديعة التكوين ، وينتهى الركن الشمالى الغربى للواجهة بشطفة صغيرة تنتهى بانتهاء النافذة السفلى تقريبا .

ويشغل المدخل الجزء الجنوبى من الواجهة الرئيسية ، وقد انخفض الآن مستوى الشارع ولذلك فإنه تنزل إليه بدرجتين . ويبلغ طول المدخل (٥ر٦) مترا وسعته (٢) متران وعمقه (٨٥ر)م وعلى ارتفاع (٢٥ر١) مترا تقريبا وفوق المدماك السادس يوجد شريط عريض من الكتابة محفورة فى الحجر ضاع جزء كبير ونص الباقى منها : « العالى السيفى قراقجا الحسنى أمير آهور الظاهرى عزه لوحة رقم (و) وقد سجل على هذا المدخل على لوح من الرخام تاريخ الترميم والتجديد الذى تم فى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى نصه : « أنشأ هذا المسجد المبارك الأمير قراقجا الحسنى سنة ٨٤٥ من الهجرة – الأقطار العربية فى عصر خديو – مصر الأعظم – الأفخم أدام الله أيامه وذلك سنة ١٣٣١ هجرية انظر لوحة (ب) ، ويتوسط المدخل باب المدرسة يعلوه عتب مكون من صنجات معشقة بديعة التكوين انظر لوحة رقم (ج) يعلوه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة كذلك . ويعلو العقد العاتق نافذة صغيرة مستطيلة الشكل على جانبها شريطان من الكتابة الكوفية جاء فيها « أنشأ هذا الجامع المبارك – قراقجا الحسنى وتنتهى طاقية المدخل بأربعة صفوف من الدلايات انظرلوحة رقم (هـ) ويعلو حائط الواجهات كلها شرفات على ورقة ذات ثلاث فصول يبلغ طولها (٧٥ر) مترا ويؤدى الباب إلى دهليز رحب غير منتظم الأضلاع مسقف بألواح خشبية يتوسطها فتحة للإضاءة . وينتهى الدهليز بباب فى الضلع الجنوبى يؤدى إلى دورة المياة وباب فى الضلع الشمالى يؤدى إلى صحن المدرسة أو (الدرقاعة) كما عرف فى عمارة عصر المماليك الشراكسة وذلك لصغر مساحته ولأنه ينخفض عن أرضية الإيوانات .

ويتكون الصحن من مستطيل مكشوف تبلغ مساحته (٧) أمتار طولا فى (٦) أمتار عرضا ويبلغ ارتفاعه تسعة أمتار وكانت أرضيته مغطاة برخام متعدد الألوان ومزخرف بأشكال هندسية جميلة . وفى الركن الشرقى للصحن باب يؤدى إلى سلم يوصل إلى سطح المدرسة ومن السطح نجد معبرا خشبيا يوصل إلى المئذنة . وفى الركن الجنوبى (باب سر) يؤدى

إلى بيت أمام المدرسة ، ويعلو الباب حنية يكتنفها عمودان مندمجان ويعلوها عقد ذو ـ زاوية مفصص . ويعلو جدار الصحن من جميع الجهات عدا الجهة الغربية شريط من الكتابة محفورة فى الحجر بخط ثلث جميل تحتوى على آية الكرسى ، كما اشتمل على اسم المنشئ وألقابه وتاريخ الانتهاء من البناء .

أما إيوان القبلة فهو أكبر أجزاء المدرسة فهو عبارة عن مستطيل تبلغ مساحته ١٢٫٥ × ٦٫٥ متر وترتفع أرضيته عن الصحن بمقدار ٢٥ر مترا ويعلو فتحة الإيوان عقد مدبب على شكل حدوة الفرس مكون من صنجات ملونة بطريقة الأبلق ، وفى صدر هذا الإيوان يوجد محراب مجوف يبلغ عمقه (١ر١) مترا ويكتنفه عمودان من الرخام تيجانهما على شكل رمانة وبدنهما مثمنة ويعلو المحراب نافذة مستديرة داخل إطار مربع مكون من إشعاعات من الحجر الأبلق مركزة فتحة النافذة . وعلى جانبى هذه النافذة المستديرة أربعة نوافذ مستطيلة اثنان فى الجهة الشمالية واثنان فى الجهة الجنوبية وقد ملئت هذه النوافذ بالجص المعشق بالزجاج الملون ، سقط معظمها الآن . ويعلو هذه النوافذ عقود ذات زاوية مفصصة . وفى الضلع الشمالى للإيوان توجد نافذة تطل على حارة السادات . وفى الضلع الجنوبى توجد غرفة متعددة الأضلاع بها فتحة فى حائط القبلة عبارة عن شق لرمى السهام ، ويشغل هذه الغرفة الآن المؤذن .

وإيوان القبلة مغطى بسقف خشبى على شكل مربعات رسمت كلها بنقوش زيتية ومذهبة ويحيط بالسقف وزرة خشبية عريضة عليها كتابة قرآنية مرسومة باللون الذهبى تحوى جزء من سورة النور من الآية (٣٤ ـ ٣٩) وفى أركان الإيوان تتدلى مثلثات خشبية حفرت على شكل الدلايات ونقشت عليها رسوم متعددة الألوان ومذهبة كذلك .

أما الإيوان الغربى فتبلغ مساحته (٦٫٩٠) × (٤٫٥٠) مترا وارتفاعه (٨٫٥) مترا ويصدر ثلاث حنيات المتوسطة منهم أكبرهم وأكثرهم عمقا تشغلها نافذة تفتح فى واجهة المدرسة وتطل على شارع درب الجماميز ويعلو هذه الحنية عقد يعلو نافذة مملوءة بالجص المعشق بالزجاج الملون . أما الحنيتان الأخريان فهما أقل عمقا واتساعا ويغطى كل منهما ضلفة فيهما دولابان حائطيان (   ) . وبالضلع الشمالى للإيوان يوجد نافذة تطل على

حارة السادات يعلوها عقد مدبب ، كما يوجد على جانبي النافذة دولابان حائطيان وتعرف الحائطية باسم (كتبية) مما يدل على أنها كانت مخصصة لوضع الكتب وخاصة المصاحف . ونلاحظ أن فتحة هذا الإيوان غير معقودة وإنما يحيط بها (كردى خشبي) نقش هو وسقف الإيوان الخشبي بزخارف زيتية متعددة الألوان ومذهبة .

أما الإيوان الشمالى فهو صغير وقليل العمق ومن ثم فقد عرف فى عمارة المماليك الشراكسة باسم (السدلة) وهو عبارة عن مستطيل تبلغ مساحته (٢٫٨٥ × ١٫٧٠) مترا . وبوسط الإيوان نافذتان إحداهما سفلية والأخرى علوية تطلان على حارة السادات . ويعلو فتحة الإيوان عقد مدبب ممتد يرتكز على كابولى مكون من أربعة صفوف من الدلايات . ويعلو العقد نافذة معقودة مملوءة بجص معشق بزجاج متعدد الألوان .

ويتكون الإيوان الجنوبى أو (السدلة) من مستطيل يبلغ مساحته (٢٫٨٥×٢٫٢٥) مترا ويصدره دولاب حائطى (كتبية) ويعلو فتحته عقد مدبب ممتد مماثل كعقد (السدلة) الشمالية تماما . ويتكون سقف (السدلتين) من الخشب المدهون برسوم زيتية ومذهبة تختلف عن سقف الإيوانين الشرقى والغربى .

أما مئذنة المدرسة فإنه يتوصل إليها من السطح عن طريق كوبرى خشبي يؤدى إلى باب صغير فى قاعدة المئذنة . وتتكون المئذنة من قاعدة مربعة يبلغ طول ضلعها (٣٫٥) مترا وارتفاعها (٦٫٨٠مترا) . ويعلو القاعدة طابقان الطابق الأول مثمن الشكل بكل ضلع منه حنية معقودة بعقد مدبب ذى فصوص ترتكز على عمودين مندمجين ، وبأى ربعة من هذه الأضلاع توجد فتحات للإضاءة ترتكز على كوابيل مكونة من أربعة صفوف من الدلايات .

أما الطابق الثانى فيتكون من شكل اسطوانى ويفصل بينه وبين الطابق الأول شرفة يعتمد على خمسة صفوف من الدلايات . وقد زخرف بدن الطابق الثانى بزخارف هندسية جميلة . ويعلو الطابق الثانى شرفة تقوم على أربعة صفوف من الدلايات ويعلو ذلك قبة بصلية يعلوها الهلال .

جامع نصر الدين

بمدينة فوة
بمحافظة كفر الشيخ

ذكر (أميلينو) فى قاموسه مدينة فوة فقال : أن أصلها كان (بوه) ثم قلبت الباء المثلثة فاء كما قلبت فى الفيوم وفاو وغيرهما من المدن المصرية القديمة . ويقول استرابون أن المليزيين آتوا إلى ساحل مصر الشمالى على البحر الأبيض المتوسط فى عهد الملك ابسماتيك وأرسوا سفنهم عند مصب الفرع البلوتينى (أى فرع رشيد) وتحصنوا فى ذلك المكان وأقاموا لهم مدينة أطلقوا عليها اسم (ميتليس)، وبمضى الزمن ابتعدت (ميتليس) عن البحر بسبب رسوب طمى النيل حتى صارت سنة ١٧٧٧ م تبعد عن الشاطئ بمقدار تسعة فراسخ ولما كانت مدينة فوة هى التى تبعد عن الشاطئ بهذا المقدار تقريبا . فقد قرر الجغرافيون أن مدينة (ميتليس) القديمة هى مدينة فوة الحالية . ووردت فى معجم البلدان (لياقوت الحموى) : فوة بلدة قديمة على شاطئ النيل من نواحى مصر قرب رشيد بينها وبين البحر نحو ستة فراسخ (فى القرن الثانى عشر الميلادى) وهى ذات أسواق ونخيل كثير . أما فى تفسير كلمة فوة فيقول (محمد رمزى) والفوة العروق التى تصبغ بها الثياب الحمر .

ويقول الرحالة (بلون) الفرنسى أن مدينة فوة كانت فى القرن الخامس عشر فى غاية العمارة والرواج التجارى حتى أنها كانت تعد أعظم المدن المصرية بعد القاهرة . فلما أهمل خليج الاسكندرية وكثر الطمى به تعطل سير السفن به وتحولت التجارة عنه

وصارت تتبع فرع رشيد وتصل الاسكندرية عن طريق البحر الأبيض المتوسط ، فكان ذلك سببا فى رواج مدينة رشيد وعمارتها وتقهقر فوة وكسادها .

وفى القرن الثامن عشر عادت (لفوة) بعض حيويتها وانتعشت اقتصاديا . فكثرت مبانيها وكانت منازلها تتكون من دورين أو ثلاثة ومساجدها كثيرة تبلغ الثمانية عشرة ما بين جامع ومسجد وكلها مقامة الشعائر ومعظمها يرجع إلى العصر المملوكى . ومن أقدم مساجدها (المدرسة الجامعة) التى أنشأها الأمير حسن بن نصر الله كما جاء فى السخاوى وقرر بها مدرسين للمذهبين الشافعى والمالكى كما عين لها مؤذنا ومقرئا للقرآن وجاب لمكتبة المدرسة كثيرا من الكتب الدينية والمعاجم اللغوية كذلك زودها بمجموعة من المخطوطات العربية والفارسية .

والأمير حسن بن نصر الله من أهل مدينة فوة ولد سنة ٧٦٦ هـ من أبوين فقيرين فألحقه والده بكتاب المدينة لكى يحفظ القرآن ويصبح مقرئا . ويستطيع أن يكسب قوت يومه إذ لم يكن لوالده حرفة أو صنعة يعلمها لولده . وقد أظهر (حسن) من الذكاء والفطنة وسرعة البديهة ما لفت نظر معلمه فى الكتاب الذى كان يقول عنه : يكفى أن أقرأ سورة البقرة أمامه مرة واحدة حتى يحفظها عن ظهر قلب دون أن يخطئ فى آية أو يلحن فى كلمة أما فى الحساب فكنت أقرأ المسألة التى يتكون منطوقها من سبعة أو عشرة أرقام فلا أكاد أنتهى من القراءة حتى يسمعنى (حسن) الإجابة . وسمع أهل فوة جميعا بهذا الطفل النابغة كما سمع به ناظرها وكان مملوكا يعرف (بابن الصغير) ، فاستأذن ناظر مدينة فوة والد (حسن) فى أن يرسل ابنه إلى القاهرة لكى يلتحق بمدارسها الأولية توطئة لإلحاقه بالجامعة الأزهرية . ووافق والد (حسن) بطبيعة الحال وأرسل حسن إلى القاهرة والتحق بمدرسة السلطان حسن التى كانت من اعظم مدارس العصر المملوكى . وبالقاهرة ذاع صيت هذا الطالب العجيب وأخذ كل أمير من أمراء المماليك يرسل له الهدايا والهبات طمعا فى أن يصبح فى خدمة أحد منهم عند تخرجه . وهكذا نرى أن النبوغ الذى كان سببا فى مجيئه من فوة إلى القاهرة لإتمام علومه ودراسته كان كذلك

السبب فى عدم إتمام دراسته فى الأزهر وذلك لكثرة المتهافتين عليه من أمراء المماليك ، فقد كان كل منهم يرغب أن يكون هذا الطالب من موظفيه .

ولما كان (ابن الصغير) ناظر مدينة فوة هو القيم عليه فى القاهره ، فقد رأى عندما بلغ (حسن) الثامنة عشرة من عمره أن يزوجه ابنته حتى يضمن بقاءه إلى جانبه قبل أن يأخذه أمير غيره . وبذلك ترك (حسن) مدرسة السلطان حسن (بالقلعة) والتحق بوظيفة متواضعة إذ تولى كتابة التوقيعات بباب قاضى القضاة بالقاهرة ثم ارتقى وأصبح شاهدا (أى حاجبا) فى ديوان أرغون شاه ، الذى كان يشغل وظيفة (أمير مجلس السلطان فى عهد الظاهر برقوق . وفى عمله فى هاتين الوظيفتين لفت نظر أكبر شخصية دينية فى مصر فى ذلك الوقت وهو قاضى القضاة ، وأكبر موظف فى وظيفة مدنية وهو أمير مجلس السلطان ولذلك نراه يتدرج فى سلم الوظائف بسرعة لم يسبق لها مثيل ، وخاصة أن (حسن) من أصل مصرى وليس من المماليك .

وفى عهد السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة استطاع أن يصل إلى وظيفة المحتسب وذلك بفضل ما عرف عنه من الخلق الرضى إلى جانب ما اتصف به من الذكاء والفطنة . والحسبة وظيفة دينية ، حدها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مما ليس من خصائص الولاة والقضاة والسلاطين ، يتولاها رجل من وجوه الدولة ممن شهد له بالتقى والورع والعدل مع الفطنة وسعة الحيلة . وكانت مهمته التجول فى الأسواق للكشف عن أحوال الناس ومعاملاتهم ويعاونه فى ذلك عدد كبير من معاونى المحتسب . ويصف المقريزى وظيفة المحتسب فيقول : وكان عليه (أى المحتسب) أن يمنع الأعمال والتصرفات التى ليس فيها سماع بينة ولا إنفاذ حكم ينزه القاضى عنها لسهولة أغراضها ، فتدفع إلى صاحب تلك الوظيفة ليقوم بها فهى خادمة لمنصب القضاة وكانت فى عهد الفاطميين داخلة فى عموم ولاية القاضى ، وقد ظلت الحسبة معمولا بها فى مصر حتى عهد الخديو إسماعيل فأبطلها ضمن ما أبطل من النظم القديمة ، ووزع اختصاصها على عدة جهات كالبوليس والصحة والشئون الاجتماعية والتموين .

وتولى بعد الحسبة نظارة الجيش ثم الوزارة فى عهدالسلطان الناصر فرج بن برقوق وفى عهد السلطان مؤيد شيخ تولى وظيفة الاستادار وذلك سنة ٨٢٢ هـ واستمر فى هذه الوظيفة فى عهد ابن المؤيد شيخ السلطان المظفر أبى السعادات أحمد . ولكن سرعان ما قلب له الدهر ظهر المحن . فقد وشى به حساده لدى السلطان الأشرف برسباى فعزل من وظيفة الخاصكية وصودرت أملاكه ، وفى هذه المحنة نذر الأمير حسن بن نصر الدين أن يبنى لله جامعا فى بلده ومسقط رأسه فوة إذا نجا من هذه المحنة وعادت إليه أملاكه وقد استجاب الله لرجائه وأعيد إلى منصب الاستادارية فى عهد السلطان الظاهر جقمق سنة ٨٤٢ هـ فوفى بنذره وأقام (مدرسته الجامعة) بمدينة فوة .

وكان الأمير حسن بن نصر الدين موضع ثقة السلطان جقمق فولاه (كتابة السر) . إلا أن بعض مماليك الخاصكية وشى به لدى السلطان بأنه يكاتب السلطان المخلوع أبا المحاسن المقماق بن السلطان الأشرف برسباى . سرا بغرض أن يدبر له أمر الفرار من سجن الاسكندرية ويظهر أن الأمير حسن كان يكثر الطلب من السلطان جقمق للعفو عن السلطان المخلوع وتسريحه خارج البلاد ، لذلك فقد اعتقد السلطان فى صدق الوشاية ، فعزل الأمير حسن وصودرت أملاكه للمرة الثانية وبقى كذلك حتى توفى سنة ٨٤٦ هـ . ويصفه السخاوى فيقول : « كان شيخا طويلا حسن الشكل مدور اللحية ، دفن بتربته فى الصحراء خارج الباب الجديد عند ولده صلاح الدين » .

* * *

وتتكون (المدرسة الجامعة) على خلاف مدارس القاهرة ، من مستطيل به أربعة صفوف من البوائك يحتوى كل منها على ثلاثة أعمدة رخامية تحمل عقودا مدببة وتقسم موازية لحائط القبلة وتقسم المسجد إلى خمسة أروقة . ولارتفاع سقف المسجد فقد فتحت فى خواصر العقود نوافذ بعضها على شكل نجمى والآخر على شكل معين . وبحائط القبلة توجد ثلاثة محاريب ، وبجانب المحراب المتوسط منبر من الحشوات المجمعة والخشب الخرط كتب على بابه اسم منشئ الجامع وتاريخ الإنشاء .

وللمسجد ثلاثة أبواب ، اثنان فى الجهة الغربية فى مواجهة حائط القبلة ويتكون كل منهما من مدخل عميق يعلوه عقد ذو ثلاثة فصوص بداخله عقدان مدببان ، وقد زخرفت واجهات المدخل جميعها بالطوب المنحور (المكحل) بأشكال دقيقة جميلة . والباب الثالث فى الجهة الجنوبية ويؤدى إلى دورة المياه .

وفى الشمالية للمدرسة الجامعة توجد مجموعة من الغرف لعلها كانت تستعمل للتدريس وما يزال يشغل جزء منها مكتبة لا بأس بها وإن كان معظم ما بها من المخطوطات القيمة قد فقد

مدرسة وخانقاة زين الدين يحيى

سنة ٨٤٨ هـ

بشارع الأزهر

أنشأ هذه المدرسة الخانقاة الأمير زين الدين يحيى بن عبد الرازق الزينى القبطى الظاهرى الاستادار المعروف بالأشقر[١] . ولد زين الدين بمصر فى أوائل القرن التاسع الهجرى وتعلم فى مدارسها وقد أظهر من الذكاء والنبوغ فى طفولته فى دراسته وخاصة فى الأعمال الحسابية مما جعل أمراء المماليك يتولونه بالرعاية والعناية ، حتى إذا ما بلغ الحلم عين فى وظائف الدولة[٢] . وأخذ يتدرج ويتدرب فى الوظائف إلى أن عين ناظرا لديوان المفرد غير مفرة ، ثم عين ناظرا للاسطبل السلطانى ثم محتسبا للقاهرة[٣] .

وقد نال حظوة كبيرة عند السلطان جقمق ، ولكن سرعان ما قلب له الزمان ظهر المحن بعد وفاة جقمق ، فعزل من مناصبه وعذب غير مرة ، وصودرت معظم أمواله وقاسى من الأهوال مما لا يتسع المجال لذكرها . وكان السبب فى ذلك استغلاله سلطة مركزه كمحتسب وحظوته لدى السلطان فجمع لنفسه ثروة طائلة وذلك عن طريق تعسفه واستيلائه على أموال الناس بطرق مذمومة وغير شرعية .

وانتهى به المطاف إلى إرساله إلى المدينة المنورة . فبقى بها عدة شهور ثم عاد إلى مصر

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١١٤

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٣٣

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٢١٣

ولزم بيته ، فلما تولى السلطان قايتباى استخلصت منه أموال كثيرة أتت على ما بقى عنده وحبسه بالقلعة إلى أن توفى سنة ٨٧٤ هـ وكان عمره قد زاد على الثمانين ودفن بمدرسته هذه .

وقد أقام الأمير زين الدين يحيى كثيرا من المنشآت المعمارية ، منها مسجدان أحدهما بالحبانية والآخر ببولاق ، كما جدد رباط أبي طالب بشارع بين السورين[1] ، وفى منطقة بين السورين أنشأ زين الدين المدرسة الخانقاة التى نحن بصدد الحديث عنها كما أنشأ له قصرا مجاورا لهذه المدرسة مع ملحقات كثيرة وردت فى حجة وقفه . وقد حددت الوقفية موقع المدرسة والدار فقالت إن باب الخوخة أحد أبواب السور الفاطمى كان مجاورا له من الجهة القبلية .

ويصف لنا المقريزى باب الخوخة[2] فيقول : هو أحد أبواب القاهرة مما يلى خليج (شارع بورسعيد الآن) فى حد القاهرة البحرى ، وكان الباب يعرف أولا بخوخة ميمون دبه الذى يكنى بأبى سعيد أحد خدام العزيز بالله الفاطمى وكان خصيا .

ويمكن تحديد موقع باب الخوخة فنقول إنه كان يوجد عند تقاطع شارع الأزهر مع شارع بورسعيد حيث مدرسة زين الدين يحيى الآن .

---

(١) المقصود هنا بالسورين هو سور مدينة القاهرة الفاطمية الغربى الذى كان يبدأ من ميدان باب الخلق وينتهى عند ميدان باب الشعرية الآن ، أما السور الثانى فهو سور القصر الغربى الصغير الفاطمى الذى كان يبدأ من شارع الصاغة (المعز حاليا) وينتهى عند بداية شارع السكة الجديدة ويمتد شمالا حتى حى الخرنفش (الآن) وعلى ذلك فشارع بين السورين يمتد من شارع السكة الجديدة حتى حى الخرنفش الآن .

(٢) الخوخة معناها الكوة أو الفتحة الصغيرة فى باب كبير أو سور عظيم وقد تطلق على المسالك الضيقة .

الوصف المعماري للمدرسة الزينية

تقع المدرسة الآن عند تقاطع شارع الأزهر بشارع بورسعيد وهي تتوسط الميدان الموجود حاليا ، وهي تشغل رقعة كبيرة تبلغ مساحتها (٢٥٫٥×٢٤٫٨) أمتار مربعة ، وتضم مدرسة ومساكن الصوفية التي كانت في الأصل رباط أبي طالب ضمه الأمير زين الدين يحيي إلى مدرسته بعد أن جدده ، وسبيل وكتاب وملحقاتهما .

الوصف الخارجي :

تقع الواجهة الرئيسية في الضلع الشمالي للمدرسة ويبلغ طولها (٩٫٢٥) من المتر وتضم المدخل الرئيسي ومدخل آخر ثانوي منخفض يؤدي إلى دورة المياه الأصلية وإلى خلاوي الصوفية التي كانت في الأصل (رباط أبي طالب) .

ويتوسط المدخل الرئيسي حنية سعتها (٢٫٧٥) من المتر وعمقها (١٫٢٥) من المتر يحيطها إطار مستطيل يعلوه عقد ذو ثلاثة فصوص ملئت بالدلايات في تكوينات هندسية جميلة . ويتوسط الحنية باب تبلغ سعته (١٫٣٥) من المتر وارتفاعه (٢٫٧٥) من المتر يعلوه عتب فوق عقد عاتق مكون من صنجات معشقة . وفوق العقد حنية ضحلة تنتهي بصفين من الدلايات ويكتنفها عمودان مندمجان ويتوسطها نافذة صغيرة مملوءة بمصبعات حديدية .

والباب مكسى بالرخام الأبيض والأسود يكتنفه مستطيلان من رخام دقيق ملون يعلوه شريط من الكتابة نصها : أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى ، المقر الأشرف الكريم الملكي الظاهري » . ويكتنف الباب مكسلتان من الحجر يعلوهما شريط كتابي نصه : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » » بتاريخ جمادى الأولى سنة ثمان

وأربعين وثمان مائة » ، ومركب على الباب مصراعان من الخشب المصفح بنحاس مخرم بـأشكال ورسوم هندسية ونباتية جميلة .

ويؤدى الباب إلى ردهة (دركاة) مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٥ر٢٥) من المتر يتصدرها جلسة مفروشة بالرخام الملون ويعلوها سقف منقوش برسوم زيتية مذهبة يحيط بها إزار خشبي كتب عليه بالزيت « وقل ربى أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا » . وبالدركاة بابان متقابلان سعة كل منهما (١ر٣٠) من المتر ، يؤدى الشرقى منهما إلى ضريح عرف بالشيخ فرج وإلى سلم يوصل إلى سطح المدرسة ، أما الغربى فيؤدى إلى دهليز صغير منكسر يبلغ طوله (٣ر٢٥) من المتر وعرضه (١ر٥) أمتار يصدره إيوان صغير سعته (١ر٥) أمتار وعمقه (٧٥ر) من المتر يعلوه عقد مدبب كانت تشغله مزيرة ، وأرضية الدهليز مفروشة بالرخام الملون ، وينتهى الدهليز بباب يؤدى إلى صحن المدرسة .

ويتكون الصحن من مربع طول ضلعه (٧ر٥) أمتار غطى بسقف خشبي مزخرف تتوسطه فتحة مثمنة (شخشيخة) . ويوجد بالصحن أربعة أبواب اثنان بالضلع الشمالى يكتنفان الإيوان الشمالى سعة كل منهما (١ر٣٥) من المترا الغربى عبارة عن حنية كتبية لخزن الكتب والشرقى يؤدى إلى دهليز المدخل ،ويحتوى الضلع الجنوبى على بابين يكتنفان الإيوان الجنوبى يفضى الشرقى منهما إلى مدفن المنشئ وإلى قاعة الخطابة الكبرى أما الغربى فيفضى إلى دورة المياه . ويعلو الأبواب الأربعة عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة فوقه نافذة صغيرة مملوءة بمصبعات حديدية يحيط بها حنية ذات عقد منكسر مفصص .

ويحيط بالصحن الإيوانات الأربعة وتفتح عليه عقودها المدببة ، التى كتب تحت مقرنص أرجل عقود الإيوانات اسم المنشئ وألقابه وتاريخ الإنشاء بما نصه : — أمر بإنشاء هـذا الجامع المبارك مولانا المقر الأشرف الكريم العالى المملوى الأميرى الكبيرى الأجلس المحامى المخلومى السيدى السندى المالكى الذخرى العضدى النظامى الهمامى المشيرى

السفير الزيني أبو زكريا يحي أمير استادار العالية وكان الابتداء في .... سنة .... وثمان مائة والفراغ ثاني شعبان المكرم سنة تاريخه عمرها ... بذكره » .

ويشغل الضلع الشرقي للصحن إيوان القبلة وهو عبارة عن مستطيل تبلغ مساحته (٧٫٨×٣٥ر٥) من المتر يتقدمه عقد مدبب ممتد ويتصدره محراب مجوف سعته (١ر١) م وعمقه (٨ر) م طاقيته ذات عقد مدبب يكتنفه عمودان مثمنان من الرخام ، كما يجاوره منبر خشبي . ويكتنف المحراب نافذتان مستطيلتان سعة كل منهما (١ر٥) أمتار يعلوه عقد مدبب ومملوء بمصبعات حديدية ويعلوهما نافذتان قنديليتان ملئت بزخارف جصية معشقة بزجاج ملون ، وبالجهة الشمالية للإيوان توجد نافذة سعتها (١ر٤٠) من المتر تطل على المدخل الرئيسي للمدرسة ، وبالجهة الجنوبية حنية سعتها (١ر٤٠) من المتر وعمقها (٥ر) م كتبية لخزن الكتب ، ويغطى الإيوان سقف خشبي مزخرف برسوم زيتية ويحيط به إزار به كتابات قرآنية وبأركانه زوايا ركنية مقرنصة .

ويشغل الضلع الغربي الإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة ويتكون من مستطيل يبلغ مساحته (٦ر٦×٢٥ر٤) من المتر المربع مغطى بسقف خشبي مزخرف برسوم زيتية ويحتوى صدر الإيوان على نافذة قنديلية ذات ثلاث فتحات معقودة ملئت بزخارف جصية معشقة بالزجاج الملون ، ويتقدم الإيوان عقد مدبب ممتد ، ويوجد بالضلع الشمالي للإيوان الغربي كتبية لخزن الكتب وبالضلع الجنوبي يوجد باب يفضي إلى مكتبة تبلغ مساحتها (٢٥ر٣×٥ر٢) من المتر المربع .

والإيوانان الشمالي والجنوبي (السدلتان) متقابلان ومتماثلان إذ يبلغ مساحة كل منهما (٩ر٢×١٠ر٢) من المتر المربع يتقدم كل منهما عقد مدبب ممتد ويغطى كل منهما سقف خشبي مزخرف بنقوش زيتية (مجددة) ويتصدر كل منهما حنيتان سعة كل منها متر وعمقها (٥ر) م استخدمت لحفظ الكتب .

المئذنة :

تقع المئذنة فى الركن الشمالى الشرقى للواجهة الرئيسية ، ويبلغ ارتفاعها عن سطح الأرض (٢٥) مترا وتتكون من ثلاثة طوابق ، الأول مثمن الشكل يشغل كل ضلع من أضلاعه حنية ضحلة تنتهى بعقد منكسر ويكتنفها عمودان مندمجان . فتح فى أربعة منها نوافذ ضيقة يتقدمها شرفة صغيرة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات . ويفصل بين الطابق الأول والثانى شرفة مثمنة ترتكز على أربعة صفوف من الدلايات ، والطابق الثانى مثمن زخرف بدنه بزخارف هندسية على شكل معينات ملبسة بالرخام . أما الطابق الثالث فعبارة عن جوسق مكون من ثمانية أعمدة يعلوها كرنيش من الدلايات ، ويفصل بين الطابق الثانى والثالث شرفة ترتكز على أربعة صفوف من الدلايات فى أوضاع هندسية جميلة .

ويتوج المئذنة خوذة كمثرية الشكل يعلوها هلال من النحاس .

مسجد الشيخ مدين

بشارع باب البحر المتفرع
من ميدان باب الشعرية ٨٥١هـ

ينتسب الشيخ مدين إلى جده الأكبر الشيخ أبى مدين المغربى من أعيان مشايخ المغرب فى القرن السادس الهجرى وكان يعرف فى بلاد المغرب باسم الشيخ شعيب ، وكان جميل الخلقة متواضعا زاهدا ورعا محققا ظريفا متحليا بكل مكارم الأخلاق ، فأجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بأدبه ، وكثر تلاميذه ومريدوه وذاعت شهرته فى كل شمال أفريقيا . وقد نشأ الشيخ شعيب فى بلدة (بجاية) بالمغرب الأقصى وأنجب ولده مدين هناك فعرف بأبى مدين ، وظل يمارس الوعظ والإرشاد فى جامع البلدة ومدرستها حتى بلغ الثمانين من عمره وعرف فى كل بلاد المغرب ، وسمع به أمير المؤمنين أحد أحفاد الأدارسة ، وخليفة المغرب الأقصى فى ذلك الوقت وكان موجودا بمدينة تلمسان فأرسل فى طلبه . ويقص علينا الشعرانى وغيره من مؤرخى الطبقات[1] قصة ذهابه إلى تلمسان فيقول : وكان سبب دخوله تلمسان أن أمير المؤمنين لما بلغه خبره أمر بإحضاره من (بجاية) ليتبرك به ، فلما وصل الشيخ شعيب إلى تلمسان ، قال : مالنا وللسلطان ، الليلة نزور الإخوان ، ثم نزل وذهب إلى المسجد الجامع هناك ، واستقبل القبلة وتشهد وقال : ها قد جئت ها قد جئت ، وعجلت إليك رب لترضى ، ثم قال : الله الحى ، ثم فاضت روحه إلى بارئها قبل أن يرى السلطان » .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ١ ص ١٥٤ ، الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية .

ومن الأساطير المشهورة فى بلاد المغرب عن الشيخ أبي مدين تلك التى دونها معاصره الشيخ محيي الدين[1] قال : « ذهبت أنا وبعض الأبدال (رفيق طريق) إلى جبل قاف (فى جبال الأطلس فى شمال أفريقية) فمررنا بالحية المحدقة به ، قال لى البدل ، سلم عليها فإنها سترد عليك السلام ، فسلمنا عليها فردت علينا السلام ثم قالت من أى البلاد ، فقلنا من بجاية ، فقالت ما حال أبي مدين مع أهلها فقلنا يرمونه بالزندقة : فقالت عجبا والله لبنى آدم والله ما كنت أظن أن الله عز وجل يوالى عبدا من عبيده فيكرهه أحد ، فقلنا لها : ومن أعلمك به ؟ فقالت : يا سبحان الله !! وهل فى الأرض دابة تجهله؟ إنه والله ممن اتخذه الله تعالى وليا وأنزل محبته فى قلوب العباد فلا يكرهه إلا كافر أو منافق » . ومن القصص المصرية التى تروى فى مصر عن أبي مدين تلك القصة التى ذكرها الشيخ أبو الحجاج الأقصرى نقلا عن الشيخ عبد الرازق قال : لقيت الخضر عليه السلام سنة ثمانين وخمسمائة فسألته عن شيخنا أبي مدين ، فقال : هو إمام الصديقين فى هذا الوقت وسره من الإرادة، ذلك أتاه الله تعالى مفتاحا من السر المصون بحجاب القدس ، ثم أضاف : ما فى هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه . واختتم الشيخ عبد الرازق حديثه عن أبي مدين بأن قال : ومات أبو مدين رضى الله عنه بعد ذلك بيسير » .

وفى الحقيقة أن هذه القصص وتلك الأساطير ، إنما تعبر عن رأى أهل بلاد المغرب فى الشيخ أبي مدين وعن رأى معاصريه من المصريين ، على أن ذلك الأسلوب الأسطورى والقصص التى كتبت به تلك الآراء لم يكن حدثا بالنسبة للشيخ أبي مدين وعصره بل يكاد يكون هو الأسلوب التقليدى الذى كتبت به تراجم وسير المتصوفين من العصور الوسطى حتى أوائل القرن العشرين ، فهو أشبه ما يكون بأسلوب كليلة ودمنة يشتمل على مزج يبسم عن جد وباطل ينطق عن حق ، وخير القول ما أغنى جده وألهى هزله .

ومن أقوال الشيخ أبى مدين المأثورة : ليس للقلب إلا وجهة واحدة متى توجه إليها حجب عن غيرها وكان يقول : الغيرة أن لا تعرف ولا تعرف . وأغنى الأغنياء من أبدى له الحق حقيقة من حقه وأفقر الفقراء من ستر الحق حقه عنه .

---

(١) الفتوحات : محيي الدين .

وبعد وفاة الشيخ شعيب حوالى سنة ٥٨٠ هـ جاء ولده على مدين إلى مصر واستقر فى مدينة طبلية من أعمال المنوفية . وكان عند مجيئه من تلمسان بالمغرب فقيرا معدما لا يملك شيئا . ولكن صلاحه وورعه وتقواه جعل أهل طبلية يلتفون حوله ، وأكرموا وفادته وتفانوا فى حبه حتى أنه عندما أراد الرحيل إلى بلد آخر لم يمكنوه من الخروج من بلده طبلية حتى مات . أما ولده أحمد الذى ذهب إلى أشمون بعد وفاة والده وكان وليا صالحا كوالده وجَده فأحبه الناس وكانوا يترددون عليه للتبرك به وعرف بالأشمونى أما ولده مدين فقد اشتغل هناك بالعلم حتى صار يفتى الناس وقد أسلم على يديه كثير من بيوت النصارى بأشمون منهم أولاد إسحاق الصديرية والمقامة والمساعنة وهم مشهورون فى أشمون . ولم يقنع شيخنا مدين بن أحمد الأشمونى بما حصل عليه من علم فى أشمون فسأل كبار الفقهاء والشيوخ النصح والمشورة فلما عرفوا منه أنه يريد الطريق إلى الله تعالى واقتفاء آثار القوم أشاروا عليه ، أن لابد له من شيخ ، فخرج إلى مصر (أى القاهرة) وقد وافق خروجه مجئ الشيخ محمد الغمرى يبحث هو الآخر عن شيخ له ، وهنا يحدثنا الشعرانى عما حدث لهما إذ يقول : فسألوا عن شيخ يأخذون عنه من مشايخ مصر فدلوهما على سيدى محمد الحنفى (الموجود ضريحه ومسجده الآن بحى الحنفى بالسيدة زينب) فبينما هما فى شارع بين القصرين (الصاغة الآن) وإذ بشخص من أرباب الأحوال قال لهما ارجعا ليس لكما نصيب الآن عند الأبواب الكبار ، ارجعا إلى الشيخ الزاهد ، فرجعا إليه فلما دخلا عليه ، تنكر لهما ولكنه سرعان ما رضى عنهما ولقنهما العلم وأخلاهما (أى أعطاهما خلاوى للإقامة بها) . ويضيف الشعرانى[1] فيقول : ففتح الله على سيدى مدين رضى الله عنه فى ثلاثة أيام وأما سيدى محمد الغمرى فأبطأ فتحه نحو خمس عشرة سنة .

ولما توفى الشيخ الزاهد ذهب الشيخ مدين إلى سيدى محمد الحنفى وصحبه وأقام عنده مدة فى زاويته مختليا فى خلوة حتى إذا ما وضع قدمه على أول الطريق ، طلب من الشيخ محمد الحنفى إذنا بالسفر إلى زيارة الصالحين بالشام وغيره ، فأعطاه الشيخ محمد

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١٠١

إذنا ، فأقام مدة طويلة سائحا فى الأرض لزيارة الصالحين ، ثم رجع إلى مصر فأقام بها واشتهر وشاع أمره وانتشر وقصده الناس واعتقدوه وأخذوا عليه العهود ، وكثر أصحابه ومريدوه فى إقليم مصر وغيرها . ولما بلغ أمره الشيخ أبا العباس المرسى خليفة الشيخ محمد الحنفى قال : لا إله إلا الله ظهر مدين بعد هذه المدة الطويلة ، والله لقد أقام عند سيدى فى هذه الزاوية نحو الأربعين يوما حتى كمل » . ومن هنا نرى أن الشيخ محمد أخذ أول الطريق عن الشيخ الزاهد وانتهى عند الشيخ محمد الحنفى ، ولذلك قيل كان رضاعه على يد الشيخ الزاهد وفطامه على يد سيدى محمد الحنفى .

ومن كرامات الشيخ مدين التى يرويها الشعرانى ، أن منارة زاويته (مسجده الآن) لما فرغ منها البناء مالت إليه ، وخاف أهل الحارة منها ، فأجمع المهندسون على هدمها فخرج إليهم الشيخ على قبقابه ، فأسند ظهره إليها وهزها والناس ينظرون فجلست على الاستقامة إلى عصر الشعرانى . ومن القصص التى تروى عنه ما حدث فى عهد السلطان[1] الظاهر جقمق . فقد ظلم الأمير يوسف نائب السلطان فى بلاد الحجاز شخصا من تجار الحجاز كان تابع الشيخ عبد الكريم الحضرمى ، فسأل الشيخ فى التوجه إلى الله تعالى فيه ، فتوجه فيه تلك الليلة فرأى يوسف فى مقصورة من حديد مكتوب عليها من الخارج «مدين مدين» فلما أصبح الصباح أخبر التاجر وسأله من يكون مدين فقال شيخ فى مصر يعتقده الأمير يوسف ، فقال ارجع إلى مكان شيخه لا طاقة لى به » .

ويحكى أن فقيرا خرج يوما من زاويته فرأى جرة خمر مع رجل فكسرها فبلغ الشيخ مدين ذلك فأخرجه من الزاوية وقال ما أخرجته لأجل إزالة ، وإنما لإطلاق بصره حتى رأى المنكر ، لأن الفقير لا يجاوز بصره موضع قدميه .

ويذكر ابن اياس أنه حدث فى عهد السلطان الظاهر جقمق أن توقف النيل عن الوفاء ثلاثة أصابع ، فاضطربت أحوال البلاد ، وعزت الأقوات ، ومما زاد الطين بلة انتشار

---

(١) ابن إياس ص ٢٩٠

الطاعون تلك السنة كذلك ، فضاقت النفقة على السلطان ، فأرسل يأخذ خاطر الشيخ مدين بالمساعدة على نفقة العسكر ، فأرسل للسلطان قاعدة عمود حجر ، فحملها العتالون إلى القلعة فوجدها السلطان معدنا فباعها وجعلها فى بيت المال واتسع الحال على السلطان ، وقال السلطان : هؤلاء هم السلاطين .

وجاء شخص طاعن فى السن وقال يا سيدى مقصودى أحفظ القرآن فى مدة يسيرة فقال له الشيخ مدين ، ادخل هذه الخلوة ، فأصبح يحفظ القرآن كله . وكان الشيخ مدين إذا سأله أحد عن مسألة فى الفقه لا يجيبه ويقول اذهب إلى عيسى الضرير يجبك عنها ، وكان عيسى هذا أميا مقيما عنده فى الزاوية ، فجاءه جماعة تريد اختباره فقال لهم اذهبوا إلى عيسى ، فقالوا لا نطلب الجواب إلا منك ، فقال الجواب فى الكتاب الفلانى الذى عندكم على الرف فى سابع سطر من عاشر ورقة ، فوجدوا الأمر كما قال فاستغفروا وتابوا . ولما مات الشيخ مدين سنة ٨٥١ هـ دفن فى زاويته التى أقيم عليها مسجده الموجود حاليا .

وصف المسجد

يقول على مبارك[1] إن هذا الجامع فى خط باب الشعرية بداخل حارة مدين ، قائم على أربعة عمد وبأرضه فرش من الرخام الملون، وبه ضريح سيدى مدين ويعمل له مولد كل سنه ومنافعه كاملة وشعائره مقامه وله مطهرة (أى ميضأة) ويتبعه ويجواره ضريح له شباك حديد ويضيف على مبارك فيقول : أما أوقاف الجامع فهى تحت نظر السيد عبد الخالق السادات .

ويتكون الجامع اليوم من صحن مستطيل تحيط به أربعة إيوانات ، إيوان القبلة وتتقدمه بائكة من ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس المدببة ، تعتمد على عمودين من الرخام تيجانها إسلامية الطراز على شكل ثمرة الرمان . ويحتوى إيوان القبلة على محراب كبير فى وسط جدار الإيوان على كل من جانبيه محرابان صغيران سدت جميعها الان ، ويعلو حائط القبلة أربعة نوافذ مملوءة بالجص والزجاج المعشق ، ويعلو المحراب الرئيسى فى الوسط نافذة مستديرة مملوءة بالزجاج المتعدد الألوان .

ويشبه الإيوان الغربى إيوان القبلة المقابل له إلى حد كبير ، أما الإيوان البحرى والقبلى فصغيران ولكنهما عميقان يتقدمهما عقد ممتد مدبب وفى صدر كل منهما حنيتان تعلوهما نافذة مملوءة بالزجاج المعشق . وعلى جانب هذين الإيوانين توجد نافذتان يعلوهما عقود ذات زوايا بكل منها ثلاثة صفوف من المقرنصات . ويوجد على جانبى إيوان القبلة حنيتان ، من المرجح أن تكون لهذه الحنيات مصاريع خشبية بليت أو فقدت ، ويحتوى الإيوان الغربى على نافذة تطل على واجهة المسجد ، وعلى جانبيها حنيتان ، وفى الضلع البحرى لهذا الإيوان توجد حنية. أما الضلع الجنوبى فيوجد به باب يوصل إلى ضريح الشيخ مدين .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ١١٠

والايوانات والصحن مغطى بسقف خشبي به بقايا رسوم زيتية . والصحن منخفض عن أرضية الايوانات وفى وسط سقف الصحن توجد فتحة (شخشيخة) مثمنة الشكل . وبالسقف بقايا نقوش زيتية جميلة .

وتوجد واجهة الجامع الرئيسية فى الجهة الغربية ويقع مدخله الرئيسى فى الطرف الجنوبى الغربى . ويدخل من الباب الرئيسى إلى در قاعة فى صدرها جلسة للبواب وفى الجهة الجنوبية لهذه الدرقاعة يوجد باب يوصل إلى دورة المياه وباب المئذنة ، وفى الجهة الشمالية باب يؤدى إلى دهليز منكسر على شكل (L) يوصل إلى صحن الجامع .

ويتكون ضريح الشيخ مدين من حجرة مربعة الشكل بأركانها العليا مقرنصان كانت تعلوها فى الأصل قبة سقطت وأقيم بدلا منها سقف خشبي مسطح . وفى وسط الحجرة توجد المقبرة وفوقها تركيبة خشبية عليها كسوة من القماش . ويعلو المدخل الرئيسى للمسجد الذى يقع فى الجهة الغربية المئذنة . وهى تتكون من أربع دورات الدورة الأولى والثانية ترجعان إلى القرن التاسع الهجرى أى إلى عصر الشيخ مدين . أما الدورتان الثالثة والرابعة فتجديدات ترجع إلى العصر العثمانى . .

جامع الشيخ الفرغل

بأبي تيج

محافظة أسيوط

أبو تيج قاعدة مركز أبي تيج ، هي من المدن المصرية القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه فقال أن اسمها المعرب (باشنا) ومعناها المخزن ، وهي مدينة بمصر الوسطى أهلها كانوا يقدسون الآلهة (هاتور) . وقد ترجم الإغريق إسمها إلى أبو تيكى ومنه إسمها القبطى (تابوتيكى) والعربى[1] (أبو تيج) .

وذكرها أميلينو فى جغرافيته أن اسمها القبطى (أبو تيكى) معناه الشون أو المخزن لأنها كانت فى العصر الرومانى شونة لجميع الغلال التى تنقل إلى الاسكندرية ثم تصدر إلى روما .

ووردت فى معجم[2] البلدان ، بوتيج بليدة بالصعيد من غربى النيل بمصر ، وهى عامرة نزهة ذات نخيل كثير وشجر وثير . وجاء فى كتاب الانتصار[3] لابن دقماق ، بوتيج مدينة على ضفة النيل الغربية ، بها جامع كبير قديم ، وبها مدارس وحمام ، مليحة وبها قيسارية (أى سوق) وفنادق ، وبها قاض ، ولها سوق أسبوعى كبير ، وبها دولاب بأربعة حجارة أى (طاحونة غلال) فى مغلق واحد ملك لأولاد السلطان الناصر حسن بن قلاوون ، وهى مدينة مليحة .

---

(١) القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١٥٧

(٢) ياقوت الحموى

(٣) ابن دقماق .

ويضيف المقريزى[1] على ما تقدم فى وصف أبى تيج فيقول : وقد اختط الشيخ أبو بكر الشاذلى بجوار أبى تيج خطة له أسماها منشأة الشيخ . وينسب إلى هذه المدينة (أى أبى تيج) عبد الرحمن البوتيجى الذى يقول عنه[2] السخاوى ، أنه حضر دروسه بالمدرسة الفاضلية توفى سنة ٨٦٤ هـ .

ويذكر على مبارك[3] (أبا تيج) فى خططه فيقول : وقد عثر فى (أبى تيج) أثناء الحفر على بئر وجد فيها ذهب دفين . وقد قال لى بعض من شاهده : إن شكل النقود مربع على أحد وجهى كل قطعة صورة صليب ، وكل واحدة تزن مثقالا ونصف» . وتحدث (كاتومير) عن هذه النقود التى عثر عليها فى (أبى تيج) فقال : إن هذه النقود ضربت فى مصر فى العصر الرومانى فى القرن السابع الميلادى قبل الفتح الإسلامى بوقت قريب واستشهد على ذلك بخطاب مكتوب على ورق البردى محفوظ الآن بالمكتبة الأهلية بباريس ، عثرت عليه الحملة الفرنسية فى ناحية قفط ، هذا الخطاب كتبه بطريرك قفط عندما فتح عمرو بن العاص مصر جاء فيه ، بعد أن ذكر عدة حوادث وقعت بمصر من جانب المسلمين ، أنهم استولوا على الذهب المصرى المرسوم عليه صورة الصليب وصورة السيد المسيح ، ويضيف البطريرك فيقول : ولابد أنهم يزيلون تلك الصورة ويرسمون مكانها اسم نبيهم ويضيفون إلى ذلك اسم الخليفة » .

ويصف على مبارك المدينة فيقول : إن هذه المدينة الآن (أى القرن ١٣ هـ ١٨ م) عامرة بالقياسر والخانات والدكاكين والقهاوى ويكثر بها تجارة القماش والعقاقير . وهى رأس قسم وعليها مرمى ترد عليه كثير من السفن ولها سوق سلطانى كل يوم أحد تباع فيه المواشى وغيرها . وبها عدة مساجد جامعة أشهرها وأعظمها جامع الفرغل .

برغم شهرة الشيخ فرغل الواسعة وصيته الذائع بين الخاصة والعامة إلا أننى لم أجد له ترجمة إلا فى طبقات الشعرانى ، وعلى الرغم مما تحويه هذه الترجمة من عدد كبير

---

(١) الخطط جـ ٣ ص ٤٠٩

(٢) الضوء اللامع جـ ٧ ص ٦٣

(٣) الخطط التوفيقة جـ ص

من المعجزات والحوادث الخارقة التى تصل إلى حد الأسطورة إلا أننى رأيت أن أنقلها للقراء على علاتها وله أن يأخذ منها ما يريد ويستبعد منها ما لا يتفق مع رأيه الخاص : الشيخ محمد بن أحمد الفرغل رضى الله تعالى عنه المدفون فى أبى تيج بالصعيد كان من الرجال المتمكنين أصحاب التصريف. وقد رأى الشيخ الشعرانى ما رأيت بالنسبة لكرامات الشيخ فرغل ، فحرص على أن يقدم لها بالمقدمة التالية : ومن كراماته رضى الله عنه التى لا تقع تحت حصر والتى يستحيل على أولئك البعيدين عن دروب الصوفية والمعتقدين فى الدنيا فحسب تصديقها نورد بعضها فيما يلى : أن امرأة اشتهت الجوز الهندى فلم يجدوه فى مصر فقال للنقيب مخيمر : يا مخيمر ادخل هذه الخلوة واقطع لها خمس جوزات من الشجرة التى تجدها فى داخل الخلوة ، فدخل فوجد شجرة جوز فقطع منها خمس جوزات ثم دخل بعد ذلك فلم يجد شجرة » .

ومن الكرامات التى ذكرها الشعرانى وأيده فيها ابن اياس تلك الواقعة التى حدثت للشيخ فرغل وقاضى القضاة وشيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى وملخصها أن الشيخ فرغل حضر بمصر (أى القاهرة) يوما ليشفع لأولاد الشيخ عمر أحد شيوخ أبى تيج المشهود لهم بالورع والتقوى لدى السلطان الملك الظاهر جقمق ، فحدث أن مر به ابن حجر العسقلانى فقال فى سره : ما اتخذ الله من ولى جاهل ولو اتخذ لعلمه ، ومعنى هذا أن ابن حجر ينكر على الشيخ فرغل ولايته . فقال له الشيخ فرغل : قف يا قاضى فوقف فمسكه وصار يضربه ويصفعه على وجهه ويقول بل اتخذنى وعلمنى . فلما احتشد الناس يريدون حماية ابن حجر من الضرب والإهانة ، منعهم ابن حجر قائلا : دعوه يفعل ما يريد لقد كنت جاهلا فأنكرت عليه ولايته ، أما الان فقد آمنت وأشهدكم على ذلك .

ويقول الشعرانى إنه سمع من الشيخ محمد بن عنان رضى الله عنه (المدفون فى جامع أولادعنان بميدان المحطة) يقول : زرت الفرغل بن أحمد رضى الله عنه وأنا شاب فأخبر جماعته بخروجى من بلاد الشرقية وقال ها هو محمد بن حسن الأعرج خرج يقصد زيارتنا .

ومن الوقائع الثابتة التى أوردها ابن إياس فى حوادث سنة سبع وأربعين وثمانمائة :

أن الشيخ فرغل أرسل قاصده إلى القاضي زين الدين أبي الخير بن النحاس فى مصر يشفع عنده فى فلاح فقال القاضى : قل لشيخك أنت دوكارى (أى عربجى) . فرجع القاصد إلى الشيخ الفرغل فأخبره بما حدث » . ويعرفنا ابن اياس[1] بشخصية هذا القاضى فيقول : وقد تزايدت عظمة القاضى زين الدين أبي الخير حتى صار وكيل بيت المال وناظر الكسوة وناظر الجوالى ، فانفرد بالسلطان ، حتى قيل إن السلطان كان ينوى أن يزوجه بإحدى بناته ، وقد صار عزيز مصر فى أيامه وأبطل كلمة جميع المباشرين ، واجتمعت له الكلمة وصار صاحب الحل والعقد بمصر .

ويكمل لنا الشعرانى[2] القصة فيقول : لما أخبره قاصده بما حدث نقر الشيخ فرغل بإصبعه فى الأرض كهيئة الذى يحفر فجاء الخبر أن السلطان غضب على ذلك الأمير وأمر بهدم داره فهى خراب إلى الآن (أى القرن ١٠ هـ ١٦ م) ناحية جامع ابن طولون ثم ضرب عنقه بعد ذلك . ولما سئل الشيخ فرغل عن السبب فى ذلك قال : لا أعرف له سببا إلا أن الله سبحانه وتعالى حركنى إلى ذلك .

ومما يروى كذلك عن الشيخ فرغل : « أنه حدث أن جلس عنده فقيه (يقرأ القرآن فقط) فقال له نَطَيْتَ ، فقال له من أعلمك يا سيدى وأنت لا تحفظ القرآن قال كنت أرى نورا متصلا صاعدا إلى السماء ، فانقطع النور ، ولم يتصل بما بعده فعلمت أنك نَطَيْت » .

ويختم الشيخ الشعرانى ترجمة الشيخ الفرغل بقوله : ووقائعه رضى الله عنه لا تحصيها الدفاتر ، توفى سنة نيف وخمسين وثمانمائة .

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٣٣٦

(٢) الطبقات الكبرى ص ١٠٥

مسجد شيخ الإسلام شهاب الدين

أحمد بن حجر العسقلانى

شهدت مصر فى نهاية القرن الثامن الهجرى مولد علم من أعلام الإسلام ، ذلك الوليد هو أحمد بن على محمد بن حجر الشافعى العسقلانى الأصل المصرى المولد ، القاهرى الدار والنشأة ، ولد على أرجح الأقوال ، كما يقول الدكتور حسن[1] حبشى ، فى الثالث والعشرين من شعبان سنة ٧٧٣ هـ . وكان ابن حجر كما وصفه الأستاذ محمد[2] سيد جاد الحق مرجع العلماء وحجة الفقهاء ولسان الحكماء ، يغترف من بحر علمه وتهفو النفوس إلى مجالس وعظه .

استقر أجداد ابن حجر فى مصر التى انتقلوا إليها من عسقلان بأرض فلسطين فى عام ٥٨٧ هـ فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، خوفا من الغزو الصليبى لعسقلان وعدم قدرة حاميتها على الدفاع عنها ضدهم ، مما حمل الكثيرين من أهلها على الانتقال إلى مصر والاستيطان بها[3] .

ووجدت أسرة ابن حجر ترحيبا كبيرا من صلاح الدين الأيوبى ساعدها على الاستقرار فى مصر والقاهرة والاسكندرية ، كما اختلطت وتصاهرت مع الأسر المصرية وبذلك تمصرت

---

(١) مقدمة كتاب (إنباء الغمر بأبناء العمر) للدكتور حسن حبشى ص ٧

(٢) مقدمة كتاب الدرر الكامنة للأستاذ محمد سيد جاد الحق .

(٣) كما يقول حسن حبشى اعتمادا على ما جاء فى النوادر السلطانية لابن شداد والخطط للمقريزى وكذا السلوك .

على مر السنين حتى غدت تعتز بمصريتها ، فمن قول ابن حجر الذى يدل على تعلقه بمصر وحبه إياها الأبيات الآتية :

متى يتجلى أفق مصر بأقمـــارى | وأروى عن اللقيا أحاديث بشار
إلى مصر ، وأشواقا لمصر وأهلها | تشوق صب للنوى غير مختار
مـــرابع لذاتى وملهى شبيـــتى | ومبدأ أوطانى وغاية أوطـــارى
ومنزل أحبابى ومنزه مقلـــتى | ومطلع أقمارى ومغرب أفكارى

وقد وصل الكثير من أسرة ابن حجر إلى أكبر المراكز الأدبية والمالية والنفوذ السياسى وذلك بمصاهرة كبار رجال الدولة من أمراء وسلاطين دولة المماليك . فقد كان حال والد ابن حجر من أعيان القاهرة ، كما كان عم أبيه من أكبر فقهاء الشافعية بالاسكندرية .

ويحدثنا ابن حجر عن عم أبيه هذا ، وهو عثمان بن محمد بن على العسقلانى فيقول : إن ابن البزاز (كنايته) سكن الاسكندرية ومهر فى الإفتاء على مذهب الشافعى حتى صارت إليه رياسة المذهب فى الثغر ، ونعت « بمفتى الثغر وفقيه الشافعية فى زمانه » . وكان جده لوالده قطب الدين محمد يصطنع الحرير بالاسكندرية إلى جانب قيامه بتدريس الحديث الشريف بمسجد العطارين . وقد أنجب قطب الدين خمسة أبناء أصغرهم نور الدين على والد شيخنا ابن حجر ، وكان مولده سنة ٧٢٠ هـ ونشأ فى كنف الثراء مما أتاح له فرصة العناية بالدرس والتحصيل ، وكان له ولع بالفقه والأدب والشعر حتى خلف عدة دواوين ذكرها ابنه فى ترجمته(١) ، لعل أهمها « ديوان الحرم » مدائح نبوية ومكية . ويستطرد ابن حجر فى ترجمة والده فيقول « وكان موصوفا بالعقل والمعرفة والديانة والإمامة ومكارم الأخلاق وصحبة الصالحين والمبالغة فى تعظيمهم . كان يحفظ الحاوى الصغير وكان مجازا بالفتوى والقراءات السبع حافظا لكتاب الله .

وقد هيأت له قدرته الأدبية ومكانته على أن تتوثق أواصر المودة بينه وبين كبار رجال عصره فى ميدان العلم والمال كابن نباتة الشاعر وزكى الدين الخروبى رئيس التجار

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ١٤٢ ، ١٤٣

بالديار المصرية ، الذى يقول عنه ابن حجر « داخل الدولة وتعانى الرياسة إلى أن فاق الأقران وخضع له أكابر التجار وصار عين أعيانهم » وكان كبير تجار الكارم فى مصر ، والذى يقال إن دولته انتهت بوفاته . وقد تزوج نور الدين على والد ابن حجر أخت زكى الدين الخروبى وهى زوجته الأولى ويقول أبو المحاسن تغرى بردى إن نور الدين على كان تاجرا بمدينة مصر القديمة وأورد له شعرا نتبين منه أنه كان يبيع ويشترى المنسوجات وخاصة المصنوع بمدينة الاسكندرية ولعله الحرير وفيه يقول :

اسكندرية ماذا يسمو قماشك عزا

فطمت نفسى عنها فلست أطلب بزا

وقد در عليه الاشتغال بهذه التجارة ربحاً وفيراً جعله يعيش فى بحبوحة من العيش ولم يجعله عبداً للوظائف ، وإن كان قد شغل وظيفة نائب الحاكم بالقاهرة . وقد تزوج نور الدين على مرة ثانية من السيدة (تجار) ابنة محمد الزفتاوى رب أسرة ثرية موفورة المال والجاه معاً ، فأخوها من كبار تجار الكارم استطاع أن ينشئ له من ماله الخاص قاعة فى مصر تجاه مقياس الروضة . وكانت السيدة (تجار) متزوجة من قبل من أحمد ابن عبد المهيمن البكرى وكان كذلك من كبار التجار ولكنها طلقت منه لسبب لا ندريه وزفت إلى نور الدين على فأنجبت له طفلين هما (ست الركب) التى ولدت أثناء رحلة أبويها إلى الأراضى الحجازية . أما الطفل الثانى فكان ذكرا وهو شيخنا أحمد بن حجر ، ولد فى شعبان سنة ٧٧٣ هـ بناحية مصر (أى مصر القديمة) بجوار منطقة دير النحاس والجامع الجديد[١] (المنطقة التى تقع الآن أمام كوبرى الملك الصالح) .

وكان نور الدين على يرجو أن يكون له ولد ذكر خاصة بعد أن فقد ولده (فضل) من زوجته الأولى ، أخت الخروبى ، لذلك كان سروره عظيما عندما بشره أحد المعتقدين بمصر وهو الشيخ يحيى الصنافيرى الذى «كثرت مكاشفاته حتى صارت فى حد التواتر»[٢]

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى : جـ ٣ ص ٣٤٦

(٢) الدرر الكامنة جـ ٤

بأن الله سيخلف عليه ولدا ويعمره[1]. فلما ولدت له زوجته (تجار) ولدهما أحمد سر سروراً عظيما وزاد اعتقاده فى شيخه الصنافيرى حتى إنه أوصى أن يكفن فى ثياب الشيخ يحيي الصنافيرى ، وهنا يقول ابن حجر[2] « ففعلنا به ذلك » . لكن ما لبث الأب أن مات وولده ما يزال فى الرابعة من عمره ، فيقول ابن حجر « وتركنى ولم أكمل أربع سنين ، وأنا الآن أعقله كالذى يتخيل الشئ ولا يتحققه ، وأحفظ عنه أنه قال : كنية ولدى أحمد (أبو الفضل) رحمه الله تعالى . ومن المرجح أن أمه (تجار) ماتت وابن حجر لا يزال طفلا ، فأصبح يتيما لطيما لم يخفف عنه ألم اليتم بفقدان الأم غير حنان وعطف أخته (ست الركب) التى كانت له كما قال : « كانت أمى بعد أمى » .

أما الشخص الذى عنى بتربيته أشد العناية فهو زكى الدين الخروبى ، وذلك تحقيقاً لوصية والده فقد كان قد عهد برعايته ، حين حضرته الوفاة ، إلى اثنين من أبرز رجالات عصره ، زكى الدين الخروبى ، أخى زوجته الأولى ، والثانى شمس الدين محمد بن القطان . فلما مات نور الدين على كفل الخروبى ولده أحمد وعنى بتربيته ورعاه فأدخله الكتاب وهو فى الخامسة من عمره فحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين فقد حباه الله حافظة واعية وذكاء نادراً وسرعة بديهة ، حتى قيل إنه حفظ سورة مريم فى يوم واحد ، وقد عاونته هذه الحافظة القوية على استيعاب الأحاديث . ولم يأل الخروبى جهداً فى رعاية وتثقيف ابن حجر . فقد جعل له مربية خاصة ومدرسين خصوصيين منهم شمس الدين بن العلاف الذى صار محتسب مصر سنة ٧٩١ وإليه يرجع فضل تحفيظه القرآن كله . ولما خرج الخروبى إلى الحجاز سنة ٧٨٤ هـ وجاور بمكة تلك السنة ، استصحب معه ابن حجر إذ لم يكن له من يكفله غيره ، وقد تهيأت لابن حجر أن يصلى بالناس إماماً فى صلاة التراويح ، جريا على سنة القوم آنذاك يوم يتم الفرد حفظ القرآن الكريم ، وكانت سنه إذ ذاك اثنى عشر عاماً . بيد أن موت الخروبى سنة ٧٨٦ هـ كان نكبة كبيرة عليه ، لعلها أكبر من نكبته فى فقد والديه ، إذ فقد بموته العناية والرعاية والحنان وكانت سنه

---

(١) الجوهر والدرر للسخاوى .

(٢) إنباء الغمر فى أبناء العمر ص ١١٧

وقتذاك سبعة عشر عاماً ، فتولى الإشراف على دراسته وصيه الثانى شمس الدين بن القطان الذى درس له الفقه واللغة والحساب . وقد عنى ابن حجر عناية خاصة بدراسة الحديث وانصرف إليه كلية مدة عشر سنوات حضر خلالها مجالس شيخيه اللذين يدين لهما بالفضل الكبير ، البلقينى وابن الملقن . وقد شغل ابن حجر كثيرا من وظائف الدولة الهامة فى دولة المماليك الجراكسة ، مما هيأت له السبل للوقوف على كثير من الأمور السياسية والاجتماعية التى ازدحم بها كتاباه (انباء الغمر بأبناء العمر) و (الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنه.وقد تولى ابن حجرالتدريس فى المدرسة الشيخونية (بالصليبة بحى طولون) سنة ٨٠٨ هـ بأمر السلطان فرج بن برقوق ، وهى وظيفة لا يتولاها إلا كبار علماء الدولة كما درس بالمدرسة المحمودية أحسن مدارس مصر والشام لما تزخر به مكتبتها من الكتب والمخطوطات وظل ابن حجر بهذه المدرسة الأخيرة ثلاث سنوات نقل بعدها إلى مدرسة جمال الدين الاستادار سنة ٨١١ هـ ، ويذكر المقريزى ، إنه كان يوجد بهذه المدرسة خمسة من شيوخ العلم يتناول كل منهم ثلاثمائة درهم شهريا . كذلك تولى ابن حجر منصب الإفتاء ودار العدل وقاضى قضاة الشافعية .

وقد زادت مؤلفات ابن حجر على مائة وخمسين مصنفاً وفيها يقول التقى بن فهد ، أن أولاها بالتعظيم وأولها فى التقديم (فتح البارى فى شرح البخارى) . وقد زخرت مؤلفاته بالعديد من ألوان الثقافة العربية ينتقل القارئ فيها من تاريخ إلى فلسفة إلى حكمة إلى أدب ، أما ؤلفاته فى التراجم فلم تترك أحدا تحلى بفضل أو اتصف بمكرمة إلا وضعه بين أعلامه . وظل ابن حجر يداوم الكتابة والتأليف حتى لفظ أنفاسه الأخيرة سنة ٨٥٢ هـ . بمنزله داخل باب القنطرة (باب الشعرية) بالقرب من المدرسة المنكوتمرية . وقد صلى عليه بسبيل المؤمنين فى مشهد عظيم حضره السلطان الملك الظاهر جقمق وأتباعه وحمل نعشه من الأمراء والعلماء ، ودفن بتربة زكى الدين الخروبى شرقى محرابها وهى تقع تجاه السروتين عند جامع الشيخ محمد الديلمى بالقرافة الصغرى (قرافة الإمام الشافعى) .

مسجد العسقلانى

تقع هذه الزاوية تجاه حارة الأقماعية على يسرة الخارج من باب القنطرة (باب الشعرية) إلى باب البحر (باب الحديد) كما يقول على مبارك[1] وهى صغيرة وبها منبر وشعائرها مقامة من أوقاف لها قليلة تحت نظر الست خدوجة الشربتلية . وكانت فى أول أمرها مدرسة تعرف باسم مدرسة ابن حجر .

---

(١) الخطط : ج ٦ ص ٣٧

مسجد لاجين السيفى

(أثر ٢١٧)
سنة ٨٥٧ هـ

أنشأ هذا المسجد الأمير لاجين حسام الدين الجركسى الجنس ، جلبه الخواجا كزل . طفلا صغيرا . فاشتراه الملك الظاهر برقوق[١] ، ومن ثم فقد أضيف إلى اسمه لاجين الظاهرى وصار من جملة مماليكه ، وآل أمره بعد تنقلات وتقلبات إلى أن اشتراه أستاذه الملك الظاهر جقمق الجركسى الجنس مثله قبل أن يلى السلطنة وكان ذلك قبل سنة ست[٢] وثلاثين وثمانمائة وأعتقه ، فعرف بلاجين الظاهرى جقمق .

وقد عمل لاجين فى عدة أعمال مدنية قبل أن يلى الوظائف العسكرية الكبرى فى عهد السلطان جقمق ، فقد ذكر السخاوى[٣] ، أنه كان زردكاشيا ، أى أنه كان يقوم بصناعة الزرد المصنوع من الصلب الذى يتخذ منه ملابس المحاربين وقاية لهم من أن تصيبهم الحراب أو البارود .

فلما تولى السلطان جقمق كرسى السلطنة ضم لاجين إلى خدمته ، فكان يلازمه فى خلواته وفراغه ونال عنده حظوة لم ينلها أكابر المقدمين فكتبه خاصكيا . وقد عهد إليه السلطان بتربية أطفاله الصغار ولذلك فقد عرف كذلك باللالا وهى كلمة فارسية معناها مربى الأطفال .

---

(١) ابن إياس : ص ٢٤

(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ١٥ ص ٢٥٦

(٣) السخاوى : الضوء ج ٦ ص ٢٣٢

وأخذ الأمير لاجين يترقى فى سلم الوظائف العسكرية فى عهد السلطان جقمق فقد جعله السلطان خاصكيا ثم أمير عشرة ، وهى الدرجة التالية بعد أمير مائة وأمير طبلخانة أو أمير أربعين ، وقد ظل لاجين طوال مدة السلطان جقمق أمير عشرة ، ولا ندرى سببا لذلك ، ومن المرجح أن يكون قد أتى عملا أغضب السلطان أو أن أحدا دس له عنده مما جعله يرسله إلى مكة ليحل محل الأمير تغرى برمش اليشبكى بعد موته وكان ذلك سنة أربع وخمسين وثمانمائة فاستقر هناك زردكاشيا وهو على إقطاعه الأول أمير عشرة[1] ..

ويصف السخاوى الأمير لاجين فيقول : إنه كان عاقلا ساكنا فيه فضل كان يقرب إليه رجال الدين والأخيار يحسن إليهم ويتولى فقراءهم برعايته وعنايته . وفى المدة القصيرة التى تسلطن فيها الملك المنصور عثمان بن السلطان جقمق ، وهى واحد وأربعين يوما ، أمر بإحضاره من مكة ورقاه إلى رتبة شاد الشراب خاناه ، أى المشرف على شراب السلطان وكل ما يقدم فى قصره من مشروبات ، وهى أكبر وظائف أمراء المئين الخاصكية المؤتمنين وربما كان أمير طبلخاناة .

على أننا لم نسمع شيئا يذكر عن الأمير لاجين بعد خلع السلطان المنصور عثمان بن السلطان جقمق ، فى عهد السلطان الملك أشرف اينال وولده السلطان الملك المؤيد أحمد الذى خلع سنة خمس وستين وثمانمائة بعد أن تولى مدة أربعة أشهر فقط ، إلا أنه أقام بالاسكندرية فترة ثم حول منها إلى طرابلس الشام وأنعم عليه فيها بشئ يسير .

وفى مدة سلطنة الملك الظاهر خشقدم التى أمدت سنة خمس وستين وثمانمائة حتى سنة اثنتين وسبعين ، أى نحو ست سنين ونصف ، أقبل الدهر على الأمير لاجين ، إذ أمر السلطان بإحضاره إلى القاهرة وخلع عليه وأصبح مقدم ألف . على أنه نال نهاية الرتبة فى عهد السلطان الأشرف قايتباى الذى خلع عليه وجعله أمير مجلس ، أى الذى يقوم بترتيب مجلس السلطان ويدبر أمر حراسته ، وهى من أكبر وظائف الدولة إذ ليس فى بلاط السلطان غير أمير مجلس واحد . وقد أظهر السلطان قايتباى رضاه عن الأمير

---

(١) السخاوى : الضوء ج ٦ ص ٢٣٣

لاجين السيفى فمنحه شرف إمارة الحج وأمره على المحمل وكان ذلك سنة ثمانين وثمانمائة[1] .

وقد يكون من المفيد أن نذكر شيئا هنا عن إمرة المحمل ، متى بدأت وما مظاهر الاحتفال بها وما هى مهمة أميرها . .

وقد أطال الله فى عمر الأمير لاجين السيفى حتى جاوز التسعين عاما ، فلما رأى السلطان قايتباى كبر سنه أراد أن يخفف عليه فأعفاه من الخدمة ، فكان لا يخرج إلا أول كل شهر ليقبض راتبه أو يقوم بالأعمال الضرورية التى تستلزم حضوره بشخصه ، أما باقى التكاليف فكان يتولاها عنه ابنه الأكبر الشهابى أحمد . وكانت التقاليد الوظيفية فى العصر المملوكى أن كل وظيفة لها إقطاع معين يأخذ إيراده الأمير مادام يشغل الوظيفة الخاصة بالإقطاع ، فلما أعفى لاجين من وظيفة مقدم ألف وأمير محمل ، خرج عنه الإقطاع الخاص بهاتين الوظيفتين ، للأمير أزدمر الخازندار الظاهرى قريب السلطان الذى كان يشغل نيابة حلب ، والذى حل محل الأمير لاجين السيفى بعد موته . على أن السلطان قايتباى لم يترك لاجين دون راتب . فقد قرر له على الذخيرة فى كل يوم ألف درهم إلى أن مات يوم الأربعاء ثانى عشر جمادى الأولى سنة ست وثمانين ودفن بتربته فى القرافة وأخرج عن أولاده من أوقاف جملة رحمة الله عليه[2] .

ويحدثنا السخاوى عن مسجد لاجين السيفى فيقول : إن لاجين الظاهرى جقمق عمر جامعا بالجسر الأعظم (أى ميدان السيدة زينب الحالى) بالقرب من الكبش على بركة الفيل فى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وأوائل التى بعدها وجعل عليها أوقافا جمة . ويحدد مكانه على مبارك[3] فيقول : إن جامع لاجين السيفى يقع بشارع الحوض المرصود قرب ورشة الأسلحة على يمين السالك من الصليبة (أى حى طولون) إلى قناطر السباع

---

(١) السخاوى : الضوء ج ٦ ص ٢٣٣

(٢) السخاوى : ج ٦ ص ٢٣٨

(٣) الخطط الجديدة ج ٥ ص ٩٨

والبغالة » ويعرف الشارع الذى يقع فيه الجامع الآن باسم شارع عبد المجيد اللبان (مراسينا سابقا) بين ميدان السيدة زينب وحى طولون .

ويعتبر مسجد لاجين من المساجد القليلة النادرة التى بنيت فى عصر المماليك الجراكسة على غرار المساجد ذات الأروقة بدلا من الإيوانات الذى انتشر فى بناء المدارس منذ العصر الأيوبى .

الوصف المعمارى

الواجهة الرئيسية :

تقع فى الضلع الجنوبى الغربى للجامع ، وقد اندثر جزء كبير منها ولم يبق إلا الجانب الأيمن من المدخل الرئيسى الذى يبلغ طوله ما يقرب من اثنى عشر مترا وارتفاعه ٨٫٥ من المتر ويشغل هذه الواجهة حنيتان كبيرتان مسطحتان شغله كل منهما (٤٫٤) من المتر يفصل بينهما بروز يبلغ عرضه ٤٠ سم . ويشغل كل حنية صفان من النوافذ ، الصف السفلى ويتكون من نافذتين مستطيلتين عرض كل منهما ١٫٤٠ م يعلو كل منهما عتب مكون من صنجات معشقة غاية فى الإبداع ، ويعلوه عقد عاتق والنافذتان مملوءتان بمصبعات حديدية . ويتكون الصف العلوى كذلك من نافذتين) معقودتين ملئتا من الداخل بجص معشق بزجاج اندثر معظمه الآن . ويتوج الحنية التى ترتفع بارتفاع الواجهة أربعة صفوف من الدلايات فى وضع زخرفى بديع ، وينتهى هذا الجزء من الواجهة بجدار خلو من الزخرف يكون الركن الجنوبى الشرقى من المسجد ويبلغ عرضه (٢٫٤٠) من المتر .

أما الجزء الأيسر من الواجهة الذى تهدم الآن ، فيمكن إرجاعه إلى أصله إذا مددنا خطا مستقيما من جدار الرواق الشمالى الغربى حتى الواجهة الرئيسية . وبذلك يكون طوله (٧٫٢٠) من المتر . وقياسا على ما هو موجود بالجانب الأيمن من الواجهة فمن المرجح أن يكون الجانب الأيسر مكون من حنية مسطحة كبيرة عرضها ٤٫٤٠ م وارتفاعها ٨٫٥ من المتر ويشغلها كذلك صفان من النوافذ اثنان فى الجزء الأسفل واثنان فى الجزء العلوى ثم يأتى بعد ذلك بروز عرضه (٤٠) سم ثم جدار خالى من الزخرفة يكون الركن الجنوبى الغربى للمسجد عرضه ٢٫٤٠ من المترا .

المدخل الرئيسى :

يبلغ عرض المدخل (٣٫٤٠) من المتر وعمقه (١٫٤٢) من للمتر وكان يشغل هذا العمق مكسلتان أصبحتا الآن مساويتان لمستوى الشارع الذى ارتفع الان بمقدار متر تقريبا مما أدى إلى النزول درجتين عن مستوى الشارع للدخول إلى المسجد وعلى بعد (مدماكين) من المكسلتين يوجد بحرين كانت بهما الكتابات التأسيسية التى اندثرت معظمها الآن والتى أوردها كاملة على مبارك[1] فى خططه ونصها على الجانب الأيمن : إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر . . . إلى آخر الآية ــ وعلى الجانب الأيسر ؛ أمر بإنشاء هذا المسجد السلطان الظاهر جقمق فى تاسع شهر شعبان سنة أربع وخمسين وثمانمائة ــ وفوق (البحر الأيسر) يوجد شريط كتابى آخر نصه « محمد جقمق أبو سعيد عز نصره » .

ويتوسط حنية المدخل باب يبلغ عرضه متران يعلوه عتب مكون من صنجات معشقة يحتضنه إطار من زخارف قالبية بارزة . وفوق العتب يوجد عقد عاتق مكون كذلك من صنجات معشقة وعلى جانبيه مستطيلان بهما زخارف نباتية بأسلوب (الأرابسك) محفورة فى الحجر . ويعلو العقد وفى منتصف حنية المدخل توجد دخلة صغيرة يتوسطها نافذة مربعة مملوءة بمصبعات حديدية ، والحنية يكتنفها عمودان مندمجان ويتوجها أربعة صفوف من الدلايات فى وضع هندسى بديع .

وتنتهى حنية المدخل من أعلى بعقد ذى ثلاث فصوص يزخرف الفص الأوسط منه زخارف على شكل مثلثات هندسية بالأبلق أما الفصان الاخران فقد ملئا بست صفوف من الدلايات . ويحيط بالمدخل كله إطار مستطيل بزخارف قالبية بارزة منحوتة بالحجر ينتهى بانتهاء أعلى الواجهة تقريبا .

الوصف من الداخل :

ويعتبر مسجد الأمير لاجين السيفى من المساجد الصغيرة الحجم ، إذ يبلغ طوله (٢٥) مترا وعرضه (٢١) مترا تقريبا ، ويتكون المسجد من صحن مكشوف يتوسطه يبلغ

---

(١) الخطط الجديدة ج ٥ ص ٩٨

مساحته ٦×٩ من المتر تنخفض أرضيته فى باقى الأروقة ، ويحيط به الأروقة من جميع الجهات .

رواق القبلة :

وهو أكبر الأروقة إذ تبلغ مساحته (١٦×١٠) من المتر يقسمه صفان من البوائك إلى رواقين موازين لحائط القبلة وتتكون كل بائكة من أربعة أعمدة مختلفة الأشكال والتيجان مما يدل على أنها اخذت من مبان قديمة ولم تصنع خصيصا للمسجد . وتحمل هذه الأعمدة خمسة عقود مدببة ممتدة سعة العقد المتوسط الذى ينتهى عند محراب القبلة (٤) أمتار أما باقى العقود الجانبية فتبلغ سعتها (٢٫٨٠) من المتر . والبائكة المطلة على الصحن يعلوها جدار يرتفع بارتفاع واجهة المسجد ويزخرفه شرفات على شكل ورقة ثلاثية .

ويتوسط جدار القبلة محراب مجوف تبلغ سعته (١٫٨٠) من المتر وعمقه (٨٠) سم وارتفاعه (٣٫٣٠) من المتر . وعلى يمين المحراب يوجد منبر كما يوجد كرسى مصحف ويعلو المحراب نافذتان معقودتان ـ كانت تعلوهما فتحة مستديرة سدت ـ وكانتا مملوءتان بزخارف جصية معشقة اندثر معظمها . وفى الركن الجنوبى الشرقى لحائط القبلة توجد حجرية صغيرة غير منتظمة بها نافذة تفتح فى الضلع الجنوبى الشرقى .

الرواق الشمالى الغربى :

وهو المواجه لرواق القبلة وهو يشبه رواق القبلة من حيث عدد أعمدة البوائك وعدد العقود وشكلها وسعتها ، إلا أنه يحتوى على رواق واحد . وتبلغ مساحة هذا الرواق (١٥٫٤×٦) من المتر ويوجد بالجدار الخلفى له سلم خشبى يؤدى إلى دكة المبلغ التى تشغل العقد المتوسط المواجه للقبلة تماما . وقد زخرفت دكة المبلغ بخشب الخرط الجميل وفى الضلعين الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى للمسجد يوجد كل منهما رواق واحد تتقدمه بائكة مكونة من عمود يحمل عقدين . وبالرواق الشمالى الشرقى فتحتان تؤديان إلى دورة المياة . والرواق الجنوبى الغربى يؤدى إلى المدخل الرئيسى .

المئـــذنة :

تقوم قاعدة المئذنة على الجانب الأيمن للمدخل الرئيسى للمسجد . وتتكون المئذنة من قاعدة كبيرة مربعة الشكل بها باب معقود يؤدى إلى درج المئذنة . ويأتى فوق القاعدة الطابق الأول وهو مثمن الشكل زخرف كل ضلع منه بحنية تعلوها عقد ذو زاوية ، فتحت فى أربعة منها نوافذ ضيقة للإضاءة يتقدمها شرفة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات . ويعلو الطابق الأول شريط سقطت كل الكتابة التى كانت به . ويعلو الطابق شرفة مثمنة يحيط بالمئذنة تفصل بين الطابق الأول والثانى ترتكز على أربعة صفوف من الدلايات ويحيط بها الآن ساتر خشبى مخرم .

أما الطابق الثانى الموجود الآن بالمئذنة والذى ينتهى بشكل مخروطى على شكل القلم الرصاص فهو تجديد فى العصر المملوكى ، ومن المرجح أن المئذنة كانت تحتوى على ثلاثة طوابق ، الثانى مستدير الشكل والثالث مكون من ثمان أعمدة وينتهى بخوذة يعلوها الهلال كما هى القاعدة فى مآذن عصر المماليك الجراكسة .

المدرسة الفخرية أو جقمق

بسكة درب سعادة

بحى الازهر

أنشأ هذه المدرسة ، كما يقول المقريزى(١) ، الأمير الكبير فخر الدين أبو الفتح عثمان بن قزل البارومى ، استادار الملك الكامل محمد بن العادل الأيوبى ، ولد الأمير فخر الدين سنة إحدى وخمسين وخمسمائة بحلب . ودخل فى خدمة سلاطين بنى أيوب وأمرائهم ، وأخذ يترقى فى سلك الوظائف حتى صار أحد الأمراء بالديار المصرية وقد أثبت من الكفاءة والذكاء حتى أنه وصل إلى وظيفة الاستادار فى عهد السلطان الملك الكامل .

وقد عهد إليه الملك الكامل أمر تدبير شئون المملكة ، فسار فيها أحسن سيرة . وكان خيرا كثير الصدقة يتفقد أرباب البيوت ، ترك كثيرا من الآثار ، منها المدرسة الفخرية ومسجد يقع تجاهه المدرسة وله أيضا رباط بالقرافة وإلى جانبه كتاب وسبيل وبنى بمكة رباطا .

وقد يكون من المفيد أن يتبين هنا اختصاصات وظيفة الاستادار فى عصر المماليك البحرية وفى عصر صاحب الترجمة الأمير فخر الدين ، وحتى نرى ما كان عليه هذا الأمير من الجاه والسلطان . إن لقب استادار يتكون من كلمتين (استاد ودار) أى السيد المشرف على الدار . وكان صاحب هذه الوظيفة فى عهد المماليك البحرية يتولى أمر البيوت السلطانية كلها من المطابخ والشراب خانة والحاشية والغلمان ، وهو الذى كان يمشى بطلب السلطان

---

(١) الخطط جـ ٢ ص ٣٦٧

فى الأسفار ، كما كان له الحكم فى غلمان السلطان وباب داره وإليه أمور الجاشنكيرية (أى ذواق الطعام) . كما كان له الحديث المطلق والتصرف التام فى استدعاء ما يحتاجه كل بيت من بيوت السلطان من النفقات والكساوى وما يجرى مجرى ذلك[1] .

أما فى عصر السلطان الظاهر برقوق ، مؤسس دولة المماليك البرجية ، فقد ارتفعت اختصاصات وظيفة الاستادارية . فقد أصبح متوليها يناط به تدبير أموال المملكة ، فيتصرف فى جميع ما يرجع فيه إلى الوزير وناظر الخاص ، وصار الأخيران يترددان إلى بابه ويمضيان الأمور برأيه ، فجلت منذ ذلك العهد رتبة الاستادار بحيث أنه صار فى معنى ما كان عليه الوزير فى آخر أيام الدولة الفاطمية .

ويحدد المقريزى موقع المدرسة الفخرية فى عهده فيقول : هذه المدرسة بالقاهرة فيما بين سويقة الصاحب ودرب العداس ، أنشأها الأمير فخر الدين سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وقد بنيت المدرسة مكان دار الأمير حسام الدين ساروح بن أرتق شاد الدواوين .

وقد بقيت هذه المدرسة عامرة مقامة الشعائر حتى القرن التاسع الهجرى ، فلما كانت سنة ٧٤٥ هـ بدأ الوهن يتطرق إليها وكادت تصبح أثرا بعد عين ، لولا أن قيض الله لها السلطان الملك الظاهر جقمق الذى أعاد بناءها فتغيرت معالمها الأولى ومن ثم فقد أطلق عليها اسم مجددها السلطان جقمق وقد تمت عمارتها سنة ٨٥٥ هـ .

أما عن تاريخ منشئ المدرسة الموجودة حاليا . فهو السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائى الظاهرى ، عاشر سلاطين دولة المماليك الجراكسة ، بويع للسلطنة بعد خلع الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباى وذلك فى سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة .

وكان أصل الملك الظاهر جقمق جركسى الجنس جلبه الخواجا كزل فاشتراه منه العلائى على بن الأتابكى إينال اليوسفى وقدمه للملك الظاهر برقوق ، فصار من جملة

---

(١) المقريزى جـ ٢ ص ٢٢٢

المماليك السلطانية ثم بقى خاصكيا ، ثم رقى ساقيا ، ولما تولى السلطنة الملك الناصر فرج ابن برقوق ، قبض عليه وحبسه ، فلما جاء الملك المؤيد شيخ أطلق سراحه وعينه أمير طبلخانة ، ثم خازندار ، وأخذ يترقى فى سلم الوظائف المملوكية ، فقد أصبح مقدم ألف فى دولة الملك الظاهر ططر ، ثم حاجب الحجاب فى عهد الأشرف برسباى ، ثم أمير آخور كبير ، وأمير سلاح إلى أن وصل فى عهد برسباى إلى أتابك العساكر . فلما توفى برسباى وتولى ابنه أصبح جقمق نظام المملكة ومشيرها ، فلما خلع ابن برسباى من السلطنة تولى جقمق كرسى السلطنة .

ويصف لنا ابن اياس[1] شكل السلطان جقمق فيقول ، وكانت صفته معتدل القامة غليظ الجسد درى اللون ، مستدير الوجه ، مستدير اللحية ، حسن الشكل عليه وقار وسكينة ، مهيبا فى العيون وكان فصيح اللسان بالعربية متفقها وله مسائل فى الفقه عويصة ترجع له فيها العلماء . ويضيف ابن اياس فيذكر مساوءه فيقول : لكنه كان ودينا (أى يسمع الوشاية) ماشيا على قاعدة الأتراك عنده الدعوى لمن سبق ، وكان عنده حدة زائدة وبادرة فى الأمر .

وقد تزوج جقمق عدة زوجات من كبار عقائل الدولة حتى يضمن ولاء أسرهم ، فقد تزوج أولا خوند بنت البارزى ثم خوند بنت الأمير جرباش الكريمى قاشق أمير سلاح ثم خوند بنت ابن عثمان وخوند الجركسية وأخيرا تزوج ببنت عبد الباسط ناظر الجيش .

وكان جقمق ملكا عظيما جليلا دينا خيرا متواضعا كريما يحب فعل الخير ، وكان لين الجانب يحب العلماء وينقاد إلى الشريعة ، ويقوم إلى العلماء إذا دخلوا عليه . وكان رقيق القلب يحب الأيتام ويكتب لهم الجوامك (كل ما يلزمهم من مأكل وملبس) ، ولا يخرج إقطاع من له ولد إلا إلى ولده .

وكانت الدولة فى عهده ثابتة الأركان والقواعد ، فلم تحدث فتن ولا تجاريد ، وكان

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ص ٣٣٢

يحسن للأمراء التراكمة ويعطيهم العطايا الجزيلة فكانوا تحت طاعته مدة ولايته . ويضيف ابن اياس فيقول : وكان الملك جقمق طاهر الذيل عفيفا عن الصغائر والدنايا .

وقد بقى السلطان جقمق فى الحكم أربعة عشر عاما ، ثم مرض ولزم الفراش ، فلما اشتدت به وطأة المرض أرسل فى طلب الخليفة القائم بأمر الله حمزة والقضاة الأربعة ، فلما حضروا عهد بالملك إلى ولده المقر الفخرى عثمان ، وخلع نفسه من السلطنة واستمر عليلا ملازم الفراش إلى أن توفى سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، فغسلوه وكفنوه وصلى عليه الخليفة حمزة بالقلعة ، ونزلوا به من باب المدرج وتوجهوا به إلى تربة قانى باى الرماح التى عند دار الضيافة فدفن هناك وكثر عليه الحزن والأسى من الناس .

وصف المدرسة

تقع المدرسة فى درب سعادة بالقرب من بداية شارع الأزهر ، وهى مسجلة بلجنة حفظ الآثار العربية تحت رقم (١٨٠) باسم مسجد وسبيل محمد سعيد حقمق ، والواقع أنها ليست مسجد ولكنها مدرسة كما هو واضح من تخطيطها ، وكما هو ثابت من الكتابة المحفورة على المدخل الرئيسى لها . ولكن جمهور الكتاب فى العصر الحديث لا يفرقون بين المدرسة والمسجد على اعتبار أن كليهما يستعمل الآن مسجدا وتلاشت فكرة التدريس نهائيا التى من أجلها أنشئت المدارس طوال العصور الوسطى .

يقع المدخل الرئيسى للمدرسة فى الركن الشمالى الشرقى للمدرسة ويتكون عقد شاهق الارتفاع مدبب الشكل تملأ تجويفه مجموعة كبيرة من الدلايات البديعة الصنع ، والشارع مرتفع عن المدخل ببضعة درجات . وفى وسط المدخل يوجد باب يؤدى إلى ممر طويل يبلغ طوله (١٨) مترا أى بطول الضلع الشمالى للمدرسة . ويعلو هذا الباب عتب فوقه عقد عاتق ، وقد نقش على هذا العتب بالخط الثلث المملوكى النص التالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » . أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة مولانا السلطان الملك الظاهر محمد أبو سعيد جقمق خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته بمحمد وآله يارب العالمين . وكان الفراغ من ذلك فى مستهل شهر المحرم سنة خمس وخمسين وثمانمائة من الهجرة » . وعلى جانبى هذا الباب توجد مكسلتان .

وينتهى الممر السابق الإشارة إليه ببابين أحدهما يؤدى إلى دورة مياه المدرسة والثانى يؤدى إلى صحن المدرسة . والصحن مربع الشكل إذ يبلغ طول ضلعه عشرة أمتار تقريبا . وهو مكشوف وتحيط به أربعة إيوانات .

ويقع إيوان القبلة فى الضلع الشرقى ويتقدمه عقد مدبب على شكل حدوة الفرس يبلغ فتحته (٨) أمتار وعمقه (٦) أمتار . وفى صدر الإيوان يوجد ثلاثة محاريب الأوسط منهم مجوف وله حافتان والجانبيان مسطحان . وتعلو المحاريب جميعها عقود مدببة قليلا . وعلى جانبى الإيوان يوجد حنيتان الشمالية منهما فتحت فيها نافذة تطل على الممر والثانية بها جلسة لمقرئ القرآن .

وبجوار المحراب المتوسط يوجد منبر المدرسة ، وهو حديث الصنع ولا يرجع إلى عهد السلطان جقمق . وبجواره نافذتان معقودتان ومملوءتان بالجص والزجاج المعشق المتعدد الألوان . كما يشغل الجزء الشمالى لإيوان القبلة مجموعة من النوافذ المطلة على الممر الذى يقع خلف الإيوان . ويزخر سقف الإيوان الخشبى برسوم زيتية مكونه من زخارف هندسية ونباتية غاية فى الدقة والإبداع ، أُعيد طلاؤها مع بعض ترميمات للسقف أُجريت فى أوائل القرن العشرين .

ويقابل إيوان القبلة إيوان مماثل فى الجهة الغربية من المدرسة يعلوه عقد مدبب على شكل حدوة الفرس تبلغ فتحته (٨) أمتار إلا أنه أقل عمقا من إيوان القبلة ، إذ يبلغ عمقه (٤) أمتار . ويتصدر الإيوان ثلاثة حنيات مسطحة وعلى جانبيه حنيتان عميقتان بهما جلستان . وهذا الإيوان خالٍ من النوافذ والفتحات .

ويوجد فى الضلعين الشمالى والجنوبى للمدرسة إيوانان يتقدم كل منهما عقد مدبب على شكل حدوة الفرس ممتد يبلغ اتساع فتحته (٤) أمتار وعمقه (٤) أمتار . وفى صدر كل منهما حنيتان مسطحتان وعلى جانبيه حنيتان .

وبصحن المدرسة توجد أربعة أبواب يؤدى كل واحد منها إلى مدرسة مكونة من ثلاثة طوابق حيث كان الطلبة يتلقون دروسهم المدنية ، كما يبيت القسم الداخلى منهم . وقد اندثرت هذه المدارس تماما الآن ولم يبق إلا بعض غرف فى الطابق الأول يستعمل كمخازن الآن .

جامـــــع العيـــــنى

بحـــارة الدويـــدارى

٨٥٥هـ ـــيحى الأزهـــر

العينى قاضى القضاة بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد ، ولد فى رمضان سنة اثنتين وسبعمائة ، قبيل مولد المقريزى بأربع سنوات ، وذلك فى عينتاب[1] وهى بلدة صغيرة بين حلب وإنطاكية . وهناك تلقى دراسته الأولى فى العربية وفقه اللغة كما درس اللغة التركية وتمكن منها . وترجم له السيوطى فقال[2] : وتفقه العينى واشتغل بالفنون وبرع ومهر .

وجاء العينى إلى القاهرة فى أواخر القرن الثامن الهجرى وولى الحسبة بالقاهرة والوجه البحرى . وكان يلى هذه الوظيفة من قبله تقى الدين المقريزى ، فلما أخذها منه العينى ثارت حفيظته عليه طول حياته . فقد ذكر ابن اياس فى حوادث سنة ٨٠٢ هـ[3] ـ ١٣٩٩ م فى عهد السلطان فرج بن برقوق : وفيها خلع السلطان على الشيخ بدر الدين محمود العينى الحنفى واستقر به محتسب القاهرة عوضا عن تقى الدين المقريزى ، وهذه أول وظائف للعينى بمصر .

وقد أفاد العينى كثيرا من معرفته اللغة التركية ، فقد كانت له خير عون على ما تهيأ له من الحظوة لدى سلاطين المماليك وبصفة خاصة عند السلطان برسباى الذى كان قليل

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٢٢ (حاشية)

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٧٣ ، ٤٧٤

(٣) بدائع الزهور ص ٢٧٦

المعرفة بالعربية ، فكان السلطان كثيرا ما يرسل فى طلب الشيخ العينى الذى كان يجلس فى حضرته ساعات الليل الطوال ، ليفسر له غوامض الفقه والشريعة الإسلامية ، كما يقرأ ويشرح له حولياته التى كتبها بالعربية ، وهو كتابه المعروف (بعقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان) ، ثم يترجمها إلى التركية رأسا .

وكان للعلاقات الوطيدة التى عقدها بدر الدين العينى مع الصفوة الممتازة من كبار الأمراء وسلاطين المماليك مثل الفرج بن برقوق ، والأشرف برسباى أكبر الأثر فى الوظائف التى وليها وتقلدها والتى لم يسبق لغيره أن يجمع بين أكثر من واحدة منها فى وقت واحد .

فنى عهد السلطان برسباى عين قاضى قضاة الحنفية ، فقد ذكر لنا ابن اياس فى حوادث سنة ١٤٢٥ ، أثناء وصفه لموكب السلطان عند خروجه إلى بلاد الشام ، أسماء القضاة الأربعة الذين صاحبوا الخليفة ، وكانوا فى ركب السلطان ، فقال : وكان له يوم مشهود بموكب عظيم . وكان صحبته أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وهم : ابن حجر العسقلانى وبدر الدين العينى وشمس الدين البغدادى الحنبلى » .

وفى عهد السلطان برسباى جمع بين وظيفة محتسب القاهرة ، التى حل فيها محل تقى الدين المقريزى ووظيفة قاضى القضاة الحنفية وبقى شاغلا للوظيفتين مدة اثنتى عشرة سنة متوالية وأضيف إليه أثنائهما نظر الأحباس بالقاهرة ، وهنا يقول السخاوى[1] وغيره من المعاصرين ولم يكن لذلك التعدد فى الوظائف شبيه أو سابقة فى تاريخ الإدارة فى مصر الإسلامية .

وبرغم علاقته الوطيدة مع السلاطين والأمراء فإن الأمر كان على العكس من ذلك بالنسبة لمعاصريه من أهل العلم إذ أن العينى لم يشأ أن تكون علاقاته بهم على شئ من الوفاق والتقدير المتبادل . ويعلق مصطفى زيادة[2] على ذلك فيقول : ربما كانت حظوته عند

---

(١) الضوء اللامع جـ ٨ ص ٩٣

(٢) المؤرخون فى مصر فى القرن التاسع الهجرى (١٥ م) ص ٢١

السلاطين والأمراء من أسباب الجفوة الطويلة بينه وبين المقريزى وابن حجر العسقلانى ، وهذا فضلا عن أنه خلف الأول فى منصب الحسبة ، ولأنه خلق بينه وبين الثانى جدلا عنيفا بشأن كتاب فتح البارى فقد انتقى فيه من شرح ابن حجر ، بحيث نقل منه صفحات كاملة متتابعة ولم يتحرج عن معارضته كلما استطاع إلى ذلك وسيلة أو مناسبة .

ولكن كما يقول المثل المأثور : ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع . إذ لم يرض عنه السلطان جقمق ، فعزله عن الحسبة[1] سنة ٨٥٤ هـ ، وولى بدله الشيخ على العجمى الخراسانى وهى نفس السنة التى توفى فيها معاصره تقى الدين المقريزى .

وقد ترك العينى الكثير من التصانيف بالإضافة إلى ماسبق ذكره منها شرح الشواهد وشرح المعانى والآثار وشرح الهداية وشرح الكنز وشرح المجمع وشرح درر البحار وطبقات الحنفية وغير ذلك[2] .

وتوفى العلامة قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى صاحب التاريخ البدرى سنة ٨٥٥ هـ ودفن بمدرسته بحى الأزهر .

---

(١) ابن إياس ص ٣٣٥
(٢) السيوطى جـ ١ ص ٤٧٤

وصف الجـــامع (١)

ويحدد على مبارك(٢) مكان الجامع فيقول : يتفرع من حارة الدويدارى التى تقع على يمين المار بشارع الأزهر بعد رأس شارع السنبار تجاه باب الصعايدة (أحد أبواب الأزهر ويقع من الجهة الجنوبية منه) ، عطفة العينى وهى غير نافلة ، عرفت باسم قاضى القضاة بدر الدين الشيخ محمود العينى الحنفى المدفون داخل مدرسته التى هناك والمعروفة بالعينية».

أنشأ الشيخ بدر الدين العينى هذه المدرسة سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وكان يقوم بتدريس المذهب الحنفى فيها بنفسه ، وبعد وفاته تولى التدريس بها علماء الأزهر وظلت شعائرها مقامة من أوقافها ، كما يقيم بها حتى الآن عدد كبير من طلبة العلم الذين كانوا يدرسون بها فى أول أمرها فلما أهمل أمرها فى القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجرى ، أصبح يقيم بها الدارسون بالأزهر(٣) .

ويوجد بالمدرسة ضريح العينى وضريح الشيخ أحمد القسطلانى شارح صحيح البخارى المتوفى ليلة الجمعة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية .

تقع المدرسة فى حى الأزهر الذى كان يسمى فى أول عهده ، كما يقول المقريزى حارة كتامة نسبة إلى قبيلة كتامة التى سكنتها وأقامت بها منازل لها وهى مجاورة لحارة الباطلية وقد جاءت كتامة من المغرب مع جوهر القائد وهى أصل دولة خلفاء الفاطميين . ويضيف المقريزى فيقول : ومازالت كتامة هى أكابر رجال الدولة حتى عهد الخليفة العزيز بالله ، فلما ولى الحاكم بأمر الله الخلافة قدم ابن عمار الكتامى وولاه الوساطة وهى

---

(١) أثر مسجل (١٠٢) .
(٢) الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٩٢
(٣) الخطط جـ ٢ ص ١٤

فى معنى رتبة الوزارة فاستبد بأمور الدولة وقدم كتامة وأعطاهم ، مما أغضب الخليفة وأمر بقتله وقتل كثير من رجال دولة أبيه وجده فضعفت كتامة .

ويقع الجامع الآن خلف الجامع الأزهر من الجهة الجنوبية وهو يطل على طريقين الطريق الأول هو شارع الشيخ محمد عبده الذى يقع فيه الضلع الجنوبى للجامع الأزهر ، أما الطريق الثانى فهو عطفة العينى وبها يوجد المدخل الرئيسى للجامع . ومن تخطيط الجامع يتضح لنا أن منشئه أراده مدرسة وليس جامعا ، فهو يتكون من مستطيل يبلغ مساحته تقريبا ٨×٦ أمتار يشغل ضلعيه الجنوبى الشرقى والشمالى الغربى إيوانان يتقدمهما عقدان مدببان . أما الضلع الشمالى الشرقى فتؤدى به الصلاة الآن . وإن كنت أرجح أن يكون فيما مضى إما حجرة شيخ وخطيب المدرسة أو مكتبتها . وفى الركن الشمالى لهذا الضلع يوجد الضريح ، وهو عبارة عن حجرة مربعة يعلوها قبة وبها مقبرتان إحداهما للعينى والأخرى للقسطلانى ، وهما بحالة سيئة للغاية . وبالضلع الجنوبى الغربى للصحن توجد دورة مياه يعلوها مساكن طلبة الأزهر الآن . ومئذنة الجامع مملوكية الطراز وتتكون من ثلاث دورات وتعلو الواجهة الرئيسية فى الضلع الجنوبى الشرقى للجامع .

والجامع غير مقام الشعائر وإيواناه خاليان تماما بالرغم من أن حالتهما جيدة ،وتقتصر الصلاة فيه على الجزء المجاور للضريح فقط مما جعل الكثير من الناس والكتاب يعتبرونه زاوية وليس مدرسة كانت لها قيمتها ومكانتها وقت إنشائها . هذا بالإضافة إلى كثرة الأوقاف المحبوسة عليها .

مدرسة السلطان إينال

بقرافة المماليك

بالعباسية سنة ٨٦٠ هـ

أصله جركسى أخذ من بلاد القوقاز ، اشتراه الخواجا علاء الدين وقدم به إلى القاهرة هو وأخيه طوخ وكان أكبر من إينال فاشتراهما الملك الظاهر برقوق سنة ٧٩٩ هـ وقد أعتق الملك الظاهر برقوق طوخ وظل إينال حتى ملكه الملك الناصر فرج بن برقوق الذى أعتقه واستمر فى جملة المماليك السلطانية إلى أن صار فى آخر الأمر خاصكيا من حاشية السلطان ثم أنعم عليه الأمير ططر فى الدولة المظفرية بإمرة عشرة فى أوائل سنة ٨٢٤ هـ ثم نقل إلى امرة طبلخاناة فى أوائل دولة الأشرف برسباى سنة ٨٢٥ هـ[١] ثم صار إلى تقدمه ألف ثم نقل إلى نيابة غزة سنة ٨٣١ هـ وظل كذلك حتى سافر بصحبة الملك الأشرف برسباى إلى آمد (ديار بكر)[٢] ونزل بمدينة الرها واستولى عليها واستقر فى نيابة الرها ثم أحضره الأشرف برسباى إلى القاهرة وأنعم عليه بتقدمه ألف وخلع عليه فى ١٠ رجب سنة ٨٤٠ نيابة صفد فاستمر بها إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق فى سنة ٨٤٣ هـ وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمه ألف وبقى بالقاهرة من جملة أمراء الألوف إلى أن نقله الظاهر جقمق إلى الدوادارية الكبرى سنة ٨٤٦ هـ ثم نقل إلى إتابكية العساكر بالديار المصرية سنة ٨٤٩ هـ وظل أتابكا (قائد الجيش) إلى أن مات جقمق وجاء بعده المنصور عثمان الذى خلعه إينال وصار سلطانا على مصر سنة ٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٩

(٢) دائرة المعارف الإسلامية – المجلد الثالث ص ٢١٢ – ٢١٤

أطلق أبو المحاسن على السلطان إينال لقب ـ الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال بن عبد الله العلائى الظاهرى الناصرى . وأطلق عليه ابن اياس لقب الملك الأشرف أبي النصر سيف الدين إينال العلائى الظاهرى(١) .

كان لين الجانب رحيا يعمل العدل بين الرعية ، بعيد النظر رءوفا بصيرا وكان لونه يميل إلى السمرة طويل القامة ، نحيف البدن ، لحيته لا تعدو بضع شعيرات بيض ولذا عرف بإينال الأجرود(٢) وكان فى كلامه نعومة مع تخنث فى لهجته .

ومع ذلك كان ملكا عاقلا سياسيا ، كثير الاحتمال لا يبدأ بالشر ، بعيدا عن فحش القول فى حالى الرضا والغضب ، وكان شجاعا ، خبيرا بالأمور والحروب ، شجاعا حنكته التجارب وخاض غمار الحروب فكان على علم تام بأمورها وكانت له صلة تامة بملوك البلاد الداخلة فى حكمه والخارجة عنه وكانت صلات الود تسود بينه وبين أمراء آسيا الصغرى ومع السلطان العثمانى محمد الفاتح الذى أرسل إليه السلطان إينال بعثة خاصة لتهنئته على فتح القسطنطينية .

وكان السلطان إينال بخيلا شحيحا حتى على نفسه وهو أول من شح فى نفقة البيعة وميز الجند بعضهم على بعض(٣) وكان بعيدا من العلوم والفنون ، إذ كان أميًا لا يعرف القراءة والكتابة فكان يرسم له خفيا على المراسم والمنشورات فيعيد عليها بالقلم وهذا يدل على جمود فكره إذ كان فى مكنته تعلم القراءة والكتابة مدة بقائه الطويل فى الرياسة والسلطنة ولعله كان لا يحسن قراءة الفاتحة ولا غيرها من القرآن الكريم(٤) . وكانت صلاته عبارة عن نقرات ينقر بها ومع هذا كان ينهى عن التملق وإطالة الدعاء بعد الصلاة .

كان إينال يعف عن تعاطى المسكرات والمنكرات غير أنه اتهم بعدم عفته عن الفروج

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ٣٩
(٢) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٥٥٧ ، ٥٥٨
(٣) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ج ٢ ص ٤١
(٤) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٥٥٩

كما اتهم بحب الوجوه الصباح من الغلمان . وكان فى أحكامه مناقضا للشريعة لاسيا عندما قويت طبقة مماليكه الجلبان (وهم مماليك كبار اشتراهم سلاطين القرن ١٥ م فى سن البلوغ مما جعلهم لا يتشربون روح الولاءوالنظام والانصياع لأوامر أستاذهم - بعكس - سلاطين المماليك الأوائل اللين اعتادوا منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادى أن يشتروا مماليكهم أطفالا صغارا ويتعهدونهم بالتربية والنشأة الحسنة فيشب المملوك وقد اختص أستاذه بولائه) .

تعددت ثورات المماليك الجلبان حتى صار السلاطين أنفسهم دمية يتقاذفونها بين أيديهم ، فلا يكاد السلطان يبقى فى منصبه أياما بل ساعات حتى يعزل ويولى غيره مكانه وكانوا هم وراء الحركات الثورية والفتن والقلاقل . ومما يؤيد ذلك أنهم ثاروا سبع مرات فى عهد السلطان إينال من ذلك مهاجمتهم دار الاستادار ناصر الدين بن أبى الفرج ونهبها ولما تزايد خطرهم توجهوا إلى بولاق ونهبوا شون الأمراء وكانوا ينزلون الفقهاء والمباشرين عن خيولهم وبغالهم ويأخذونها من تحتهم ، وكانوا أيضا يخطفون القماش من الدكاكين وسائر البضائع واستمروا على ذلك حتى وقع فيهم الطاعون[١] .

وفى سنة ٨٥٩ هـ اصطدم المماليك الظاهرية الجقمقية مع الملك الأشرف إينال بسبب ثورة المماليك الجلبان وأفعالهم المستهجنة مع الناس ، وعين السلطان تجريدة إلى البحيرة عددها ٥٠٠ مملوك ولم يفرق عليهم الجمال فامتنعوا وظلوا واقفين بسوق الخيل تحت القلعة وحاول السلطان تهدئتهم فلم يجدى ذلك معهم وانضم المماليك الظاهرية الجقمقية للماليك الأجلاب وأنعم عليهم الخليفة القائم بأمر الله حمزة ، فحاربهم السلطان وبدد شملهم وأمر بحبس الخليفة وسجنه بالاسكندرية حتى مات[٢] . ومن ذلك الحين طرد كل المماليك من القلعة عدا مماليك ركاب السلطان وكانت يد إينال غير قادرة على ردع المماليك الذين كانوا يتهافتون على خدمة الأمراء . وكان عسفهم وجورهم طوال هذا الحكم يقصر عن الوصف ، إذ لم يقتصروا على تخريب البلاد ونهبها بل هاجموا كبار

---

(١) ابن إياس : تاريخ مصر جـ ٢ ص ٤٩

(٢) السير وليم موير : تاريخ دولة المماليك فى مصر ص ١٤٧

الأمراء وصلبوا قصورهم وكان السلطان نفسه يخشى مماليكه الخاصة حتى اضطر إلى عدم توزيع الطعام فى عيد الأضحى علانية خشية اعتدائهم عليه واضطر أن ينزوى بين جدران قصره .

وفى سنة ٨٦١ هـ ثار المماليك الجلبان على السلطان إينال وطالبوه بزيادة رواتبهم وأن يكون توزيعها فى ثلاثة أيام وأن يكون عليق الخيل مغربلا واللحم سمينا . ولما خرج السلطان إليهم رجموه بالحجارة فأسرع السلطان مسرعا وقد سقطت منه فردة نعله فلم يلتفت إليها ويقال ان طوبة قد أصابته من الرجم فى ظهره كما أصيب بعض الخاصكية وكانت حادثة شنيعة(١) .

تدارك بعض الأمراء الأمر فاتفقوا مع السلطان على زيادة كسوة المماليك الجلبان وزيادة نصيبهم من الأضحية وتوزيع الرواتب على ثلاث نفقات فخمدت الفتنة(٢) . غير أن المماليك الأجلاب ما لبثوا أن عادوا سيرتهم الأولى ومنعوا الأمراء من النزول من قلعة الجبل لأنهم طالبوا بأن يكون نصيب كل منهم ثلاثة من الغنم فى الأضحية فأذعن السلطان لطلبهم وفى عام ٨٦٢ هـ ١٤٥٨ م لم يجسر السلطان أن يدفع الأذى عن النساء اللائى كن يحضرن صلاة الجمعة بجامع عمرو إذ تعرض لهن الأجلاب وسلبوهن .

وإبان حكم السلطان إينال ظهر الطاعون بمصر سنة ٨٦٤ هـ وخاصة فى مدينة بلبيس وسرياقوس وكان قد ظهر قبل ذلك فى سنة ٨٦٣ هـ فى مدينة حلب وما حولها حتى مات ٢٠٠,٠٠٠ شخص وفى محرم سنة ٨٦٤ هـ ظهر الطاعون بمدينة غزة وأباد أهلها ، وقد انتقل الطاعون إلى مدينة القاهرة وتفشى فيها وتزايد فى ضواحيها وفى إقليم الشرقية والغربية وقد تزايد الوباء حتى قال بعض الناس ان عدد من يموت فى اليوم الواحد أكثر من ٣٠٠٠ شخص ثم تزايد إلى ٤٠٠٠ ومات من الأجلاب الإينالية حوالى ١٤٠٠ مملوك(٣) .

---

(١) ابن إياس : تاريخ مصر ج ٢ ص ٥٧

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٤٧٧

(٣) المرجع السابق : ج ٧ ص ٥٤٣

ويعد الطاعون الذى حدث سنة ٨٦٤ هـ أخطر وباء بالديار المصرية إذ مات فيه ثلث المماليك والأطفال والجوارى والعبيد واستمر حوالى خمسة أشهر .

وإذا أضفنا وباء الطاعون إلى ظلم المماليك الأجلاب وارتفاع الأسعار وانعدام كثير من الحاجيات ، أدركنا ما كان يقاسيه أفراد الشعب من معاناة هذا فوق تعرضهم للسلب والنهب .

وقد حاول السلطان إينال إصلاح العملة الذهبية التى انهارت منذ الدراهم الحموية الرديئة سنة ٨٠٠ هـ حتى لجأ المماليك إلى نظام المقايضة ، غير أن ما أحدثه لم يكن مألوفا وظلت العملة تسير من سئ إلى أسوا[١] .

ولم يحدث أن قام السلطان إينال مدة حكمه الذى امتد إلى عام ١٤٦١ م بحملة ضد أية دولة إسلامية سوى حملة تأديب ضد (إبراهيم) أمير قرمان الذى استولى على أطنة وطرسوس بعد أن تجاهل السلطان إينال صرخاته عندما اشتد عليه ضغط السلطان محمد الثانى العثمانى[٢]، وقاد هذه الحملة الأمير (خشقدم) فصد هجمات إبراهيم ومازال به حتى طلب الصلح وظل مخلصا للمماليك حتى اكتسح السلطان محمد الثانى العثمانى هذه الإمارة نهائيا عام ١٤٦٣ م .

وفى النصف الثانى من القرن ١٥ م تعرضت جزيرة قبرص لتهديد السلطان محمد الثانى العثمانى بعد فتح القسطنطينية فطالب ملكها (حنا الثانى لوزجنان) معونة السلطان إينال لإبعاد الخطر العثمانى عن الجزيرة ، فكتب إينال للسلطان العثمانى يذكره بأن ملك قبرص تابع له فكف السلطان العثمانى عن تهديد الجزيرة[٣] وعقب وفاة حنا الثانى ملك جزيرة قبرص عام ١٤٥٨ م ثار النزاع بين شارلوت الملكة الشرعية وأخيها جيمس الثانى وأيد السلطان إينال الأمير (جيمس) الابن غير الشرعى ضد أخته وذلك لأن

---

(١) المقريزى : شذور العقود فى أخبار النقود ص ١٥

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٢ ص ٤٧ ، ٤٨

(٣) المرجع السابق ج ٧ ص ٥٥٧

جيمس أسرع إلى القاهرة ونجح فى إقناع السلطان إينال ، كما نجح فى الحصول على معونة بحرية حربية فرافقه أسطول مملوكى مكنه من احتلال العاصمة نيقوسيا ولكن نجاحه لم يكن نهائيا إذ لم تشمل سيادته كل أرجاء الجزيرة فلم تزل شارلوت تتحكم فى منطقة ليريتيا بشمال الجزيرة.

توفى السلطان إينال فى ١٥ جمادى الأول سنة ٨٦٥ هـ وقد ناهز الثمانين من عمره بعد أن حكم ثمان سنوات وشهرين وستة أيام . وكان حكم إينال فى داخل البلاد يعد فشلا ذريعا واضطرابا لكثرة عنف المماليك الذين لا زاجر لهم وقد نشأ عن ذلك لأول مرة أن بدأ الأغنياء والفقراء يحفرون الخنادق أو يبنون الأسوار حولهم لحفظ أمتعتهم بعيداً عن أعين اللصوص من المماليك الجلبان أو من اللصوص الحقيقيين الذين يتزينون بزيهم .

الوصف المعمارى

لعل من أهم المنشآت المعمارية التى أقامها السلطان إينال بمدينة القاهرة تلك المجموعة التى أقامها بصحراء العباسية والمكونة من المدرسة والقبة والسبيل والخانقاق المجاورة لم ، وسنتناول كل منها على حدة ..

تعتبر مدرسة إينال من المدارس ذات التخطيط المتعامد ، يتوسطها صحن مكشوف يذكر فى حجة الوقف باسم (الدرقاعة) وتحيط به أربعة إيوانات اثنان كبيران وهما إيوان القبلة وما يقابله وإيوانان صغيران عرفا فى العصر المملوكى الجركسى باسم (السدلة) أى الحنية وذلك كناية عن صغرهما .

الواجهة الرئيسية :

تقع الواجهة الرئيسية للمدرسة فى الضلع الجنوبى الشرقى وهى تضم القبة التى تقع فى الطرف الشمالى الشرقى من مجموعة منشآت إينال والمدرسة فى الوسط وتنتهى فى الطرف الجنوبى الشرقى بقاعدة مئذنة المدرسة . ويشغل هذه الواجهة حنيتان فى ضلع المدرسة الجنوبى الشرقى تضمان صفان من النوافذ يبلغ عدد الصف السفلى أربعة . وهى مستطيلة الشكل يعلوها عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة . وقد سد جزء منها الآن . أما الصف العلوى فيبلغ عدد نوافذه خمسة وهى قنديلية الشكل . ويتوج الحنيتين من أعلى ثلاثة صفوف من الدلايات فى تكوين هندسى بديع ، كما تنتهى الواجهة من أعلى بشرفات على شكل ورقة نباتية ذات ثلاثة فصوص .

ويحتوى الجزء الشمالى من هذه الواجهة على حنيتين تحتوى كل منهما على صفين من النوافذ تطل عليها على ضريح السلطان إينال . تتكون السفلى منها من مستطيل يبلغ

طوله (٢٫٧٥) من المترا وعرضه (١٫٢٥) من المترا يعلوه عتب فوقه عقد عاتق مدبب الشكل ويتكون من صنجات معشقة تشبه نوافذ ضلع المدرسة . أما الصف العلوى فيحتوى على نافذة قنديلية تقع فى منطقة انتقال القبة .

ويعلو هذا الجزء من الواجهة الرئيسية شريط من الكتابة الثلث المملوكى محفورة فى الحجر نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم « وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب » أمر بإنشاء هذه القبة المباركة من فضل الله تعالى المقر الأشرف..... إينال .

ويعلو شريط الكتابة ثلاثة صفوف من الدلايات فى وضع هندسى بديع .

ويتوسط الواجهة الرئيسية المدخل الرئيسى للمدرسة الذى يصعد إليه بسلم حجرى مزدوج لم يبق منه إلا الجانب الأيسر ، ومن ثم فالمدرسة معلقة ، إذ ترتفع عن مستوى أرض الشارع بمقدار (٢) مترا . ويبلغ اتساع حنية المدخل (٣٫٥) م وعمقها (١٫٥) م ويعلوها طاقية ترتكز على مقرنصات ركنية . ويتوسط حنية المدخل باب مستطيل يبلغ طوله (٢٫٧٥) م وعرضه (١٫٧٥) من المتر يعلوه عتب فوق عقد عاتق مكون هو والعتب من الصنجات ويعلو العقد نافذة صغيرة مربعة مملوءة بمصبعات حديدية يعلوها أربعة صفوف من الدلايات ويكتنف حنية المدخل مكسلتان يعلوهما شريط عريض حفرت به كتابة بالخط الثلث المملوكى نصها على الجانب الأيمن :

بسم الله الرحمن الرحيم « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآت الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » .

الجانب الأيسر :

« مالك الملك الأشرف أبو النصر إينال خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته بمحمد وآله.. بتاريخ عام ستون وثمانمائة » .

كما يعلو حنية المدخل لوحتان بداخلهما دائرة كبيرة كتب فى كل منهما :

مولانا السلطان الملك الأشرف عز نصره

ويعلو ذلك شريط عريض به كتابة قرآنية نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم « وقل ربى أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا مبينا » صدق الله العظيم .

المدرسة من الداخل :

يؤدى باب المدخل الرئيسى إلى ردهة (دركاة) مربعة الشكل حول ضلعها (٢ر٩) أمتار بصدرها حنية سعتها (٢ر٥) م وعمقها (١ر٢٥) من المتر بداخلها جلسة المقرئ وإلى يمين الدركاة يوجد باب معقود يبلغ سعته (١ر٥٠) من المتر يؤدى إلى دهليز ممتد يبلغ طوله (٩ر٧٥) من المتر وعرضه (١ر٨٠) من المتر يوجد فى جهته الجنوبية الشرقية فتحة يعلوها عقد مدبب يؤدى إلى حجرة صغيرة مربعة تقريبا تبلغ مساحتها (١ر٦٠ × ١ر٧٠) مترا وتفتح على إيوان القبلة ، وقد كانت هذه الحجرة مخصصة لخطيب المدرسة ، ويوجد بالضلع الشمالى للدهليز فتحتان ، الأولى نافذة طولها (٢ر٧٥) من المتر وعرضها (١ر٥٠) من المتر تفتح على إيوان القبلة . أما الفتحة الثانية فهى باب يؤدى إلى صحن المدرسة يبلغ طوله (٢ر٨٠) من المتر وعرضه (١ر٣٠) من المتر . وبالضلع الجنوبى للدهليز يوجد باب يؤدى إلى سلم المئذنة ومسكن علوى مكون من خلوتين كما هو وارد فى حجة الوقف[1] . وينتهى الدهليز فى الضلع الجنوبى بحنية عميقة سعتها (٢ر٥) م وعمقها (١ر٥٠) من المتر كانت تستخدم مزيرة .

الصحن :

يتكون الصحن الذى تذكره حجة الوقف باسم (درقاعة) من شكل مربع إذ يبلغ طول ضلعه (١٠ر١٠) من المتر وينخفض عن أرضية الإيوانات الأربعة التى تحيط به بمقدار (٢٥ر) من المتر وكانت أرضيته وكذا جدرانه إلى ارتفاع مترين مغشى بالرخام الملون . قد

---

(١) حجة إينال : المرحوم محمود حفنى ص ١ (السطر ١٢ — ١٦) .

زال معظمها الان . ويوجد بالصحن أربعة أبواب يعلو كل منها نافذة داخل حنية يتوجها عقد ذو زاوية ويتوسطها نافذة صغيرة . وهذه الأبواب يوجد منها اثنان فى الضلع الجنوبى ، أحدهما الباب الذى ينتهى إليه دهليز المدخل السابق الإشارة إليه ، والثانى يفتح على خلوة . أما البابان الآخران فيوجدان فى الضلع الشمالى أحدهما يفتح على خلوة تقابل باب الدهليز والثانى باب يؤدى إلى سلم يوصل إلى حوش والميضأة والخانقاة .

ويحيط بالصحن من أعلى شريط عريض به كتابة نصها .

« أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا الإمام الأعظم الملك الأشرف أبو النصر سلطان الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين محيى العدل فى العالمين كهف الفقراء والمساكين ذخر الأرامل والمنقطعين حامى حوزة الدين صاحب السيف والقلم والبند والعلم أفضل من حكم فى عصر بالحكم ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية والثغور السكندرية سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف أبو النصر إينال خلد الله ملكه وثبت قواعد دولته بمحمد وآله وذلك بمباشرة المقر الأشرف الصاحبى ناظر الجيوش المنصورة والخوانق الشريفة الملكى الأشرفى عز نصره وكان ابتداء عمارة المدرسة فى شهر ذى القعدة الحرام وآخرها فى شهر ربيع الأول المبارك عام ستين وثمانمائة أحسن الله عاقبتها بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا يارب العالمين » .

وكان الصحن مغطى بسقف خشبى تتوسطه فتحة مثمنة الشكل (شخشيخة) زال معظمه الان .

ويقع إيوان القبلة فى الضلع الجنوبى الشرقى للصحن ويتكون من مستطيل تبلغ مساحته (١٢×٨) امتار ، يتقدمه عقد يطل على الصحن على شكل حدوة الفرس مدبب ممتد تنتهى أقدامه بثلاثة صفوف من الدلايات . وغطى سقف الإيوان بسقف خشبى مدهون (سكندرى الطراز) . ويتصدر الإيوان محراب مجوف عمقه (٩٠ر) من المتر وسعته (٥ر١) أمتار ويكتنفه عمودان من الرخام مثمن الأضلاع . وقد زخرفت حنية المحراب بالنقوش الزيتية

الملمعة بالذهب واللازورد . كما ورد فى حجة الوقف . ويعلو عقد المحراب وخواصره زخارف نباتية فوقها منطقة مكسية بالفسيفساء الرخامية يعلوها شريط من الكتابة القرآنية من سورة البقرة : « بسم الله الرحمن الرحيم قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » .

ويوجد بجدار القبلة صفان من النوافذ أربعة سفلية وخمسة علوية سبق الإشارة إليهم فى الواجهة الرئيسية للمدرسة .

ويقابل إيوان القبلة الإيوان الغربى وهو مستطيل كذلك إذ تبلغ مساحته (١٢ × ٥ر٧٥) مترا. ويتكون الإيوان الغربى من صدر وجناحين يتقدمه عقد يفتح على الصحن مطابق تماما لعقد إيوان القبلة . ويوجد بصدر الإيوان ثلاث نوافذ معقودة بعقد مدبب سعته (٥ر١) م يعلوها ثلاث نوافذ أخرى قنديلية .

ويتكون الجناح الأيمن للإيوان من شكل مربع تقريبا إذ تبلغ مساحته (٩ر٣×٢ر٣) مترا وترتفع أرضيته عن أرضية الإيوان بمقدار (١٥ر) مترا ويحتوى ضلعه الشمالى على نافذة ارتفاعها (٣٠ر٢) من المتروعرضها (٤٠ر١) من المتر يطل على الميضأة وباقى مبانى المدرسة . وفى الضلعين الشرقى والغربى للجناح توجد حنيتان تبلغ سعة كل منهما مترا وعمقها (٧ر) أمتار تستخدمان مخازن للكتب (كتبية) .

أما الجناح الأيسر فمربع الشكل يبلغ طول ضلعه (٤) أمتار وهو مماثل للجناح الأيمن فهو يحتوى على نافذة تطل على الضلع الجنوبى للمدرسة ، كما يحتوى فى ضلعيه الشرقى والغربى على كتبيتين كما هو الحال فى الجناح الأيمن .

وفى الضلعين الشمالى والجنوبى يوجد الإيوانين الصغيرين (السدلتان) وهما مستطيلتان الشكل إذ يبلغ مساحة الشمالية منهما (٨٠ر٤×٦٠ر٢) من المتر وفى صدرها نافذة معقودة يبلغ سعتها (٤٠ر١) من المتر وارتفاعها (٢٥ر٢) من المتر ويتقدمها عقد مدبب ممتد يطل على الصحن وتنتهى أقدامه بثلاثة صفوف من الدلايات . كما يحتوى فى ضلعيه الشرقى والغربى على

حنية معقودة (كتبية) سعتها (٩ر) م وعمقها (٥ر) وارتفاعها (٢٫٢٥) من المتر وتشبه السدلة الجنوبية الشمالية تماما اللهم إلا فى المساحة إذ تبلغ مساحة الجنوبية (٤٫٦٠ ×٣٫١٠) من المتر .

المئذنة :

تقع المئذنة فى الواجهة الرئيسية للمدرسة أى فى الضلع الجنوبى الشرقى على يسار المدخل الرئيسى . وهى مئذنة رشيقة متناسقة يبلغ ارتفاعها عن سطح الأرض ٢٥ مترا . وتتكون المئذنة من ثلاثة طوابق وتقوم على قاعدة كبيرة مربعة الشكل مزينة بزخارف نباتية محفورة فى الحجر ويتكون الطابق الأول من شكل مثمن مزخرف أضلاعه بحنيات مستطيلة يعلوها عقد ذو زاوية .وقد فتح فى أربعة منها نوافذ تتقدمها شرفة صغيرة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات . أما الطابق الثانى فمستدير الشكل ومضلع ومنقوش برسوم هندسية بديعة . ويفصل بين الطابق الأول والثانى والثالث شرفة ترتكز على أربعة صفوف من الدلايات . أما الطابق الثالث فيتكون من ثمانية أعمدة ، ويعلو هذا الطابق خوذة يأتى بعدها هلال من النحاس .

القبـــة :

تقع القبة فى الركن الشمالى الشرقى بالنسبة للواجهة الرئيسية للمدرسة ، وهى مربعة الشكل إذ يبلغ طول ضلعها (١٠)أمتار من الخارج و (٧٫٢٠) من المتر من الداخل . ويقع المحراب فى الضلع الجنوبى الشرقى ويبلغ اتساع حنيته (١٫٣٠) من المتر وعمقه (١٫٨٠) من المتر تعلوه طاقية معقودة مدببة حليت بزخارف نباتية وهندسية بديعة . وبداخل حنية المحراب يوجد شريط من آيات قرآنية من سورة المزمل نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجراً » .

ويكتنف المحراب نافذتان مستطيلتان فوقهما ثلاث نوافذ قنديلية سبق الإشارة إليهما عند الحديث عن الواجهة الرئيسية للمدرسة . ومما يجدر ملاحظته أن المعمار قد راعى فى

بناء القبة التماثل التام فى أضلاعها الأربعة فقد جعل فى وسط كل ضلع حنية يكتنفها نافذتان يعلوهما قنديلتان . وقد استعملت حنية الضلع الشرقى كمحراب سبق الإشارة إليه وحنية الضلع الجنوبى استعملت كباب يؤدى إلى مجاز يوصل إلى إيوان القبلة . أما حنية الضلع الشمالى والغربى فيبلغ سعتها (١٫١٠) من المتر وعمقها (٧ر) مترا فيستعملان خزانة للكتب (كتبية) .

ويعلو الضريح قبة حجرية مدببة القطاع تقوم على رقبة مستديرة فتحت بها ست عشرة نافذة . أما منطقة الانتقال فقد ملئت أركانها بسبعة صفوف من الدلايات ويتوسط الأركان أربع نوافذ قنديلية ملئت كلها بالجص والزجاج المعشق المتعدد الألوان ويحيط بدائرة القبة شريط من الكتابة فى بحور بينها فواصل .

وفى وسط القبة توجد مقبرتان أحدهما دفن فيها السلطان إينال والثانية دفن فيها ولده أحمد ، كما جاء فى حجة الوقف .

مسجد تنم الرصاص

المعروف باسم

مسجد تميم الرصافى

بحى السيدة زينب

ولد الأمير سيف الدين تنم رصاص بخشايش[1] الظاهرى سنة ٨٢٧ فى عهد السلطان الملك الأشرف برسباى الذى اعتلى كرسى السلطنة[2] سنة ٨٢٥ هـ . وتذكر المراجع التاريخية أن الأمير تنم رصاص كان من المقربين من الأمير جانى بك الأشرفى ، الذى كان من مماليك الأشرف برسباى الخاصكية ، فقد رباه وتولى تنشئته منذ أيام امرته .

ولم تذكر المصادر التاريخية شيئا عن أصل الأمير تنم رصاص أو جنسه ، بل ولم تحدثنا عن نشأته الأولى ، وبدأ اسم تنم رصاص يظهر فى عهد السلطان الظاهر جقمق الذى تولى الحكم من (سنة ٨٤٢ إلى سنة ٨٥٧ هـ) ، فقد جاء فى أحداث سنة ٨٥٣ هـ[3] أن الأمير تمراز[4] القرشى حاكم جدة تمرد على السلطان ، وهرب بأموال النيابة إلى اليمن ، فأرسل السلطان الأمير جانى بك لتولى نيابة جدة عوضا عن تمراز وطلب منه إرسال جيشا إلى اليمن للقبض على تمراز وإحضاره إلى مصر مكبلا فى الحديد . وقد دارت عدة معارك فى

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ٣ ص ٤٣

(٢) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ٢٤٢

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٢ ص ٧١

(٤) كان الأمير تمراز من ضمن الهدايا التى أرسلها دقماق إلى السلطان الظاهر برقوق إذ ذكر أبو المحاسن أن دقماق أرسل إلى أستاذه برقوق وجهز تقدمه هائلة ونحو ثمانية عشر مملوكا صحبه طيبرس المذكور من جملتهم برسباى ، وتمراز القرشى الذى وقع فى نصيب أنيا ليلبغا الناصرى ، وتولى امرة السلاح فى دولة الملك الظاهر جقمق (أبو المحاسن : النجوم ـ ١٣ ص ٢٤٣) .

بندر (الحديدة) انتهت بقتل تمراز . فلما بلغ جانى بك موت تمراز أرسل صديقه وتابعه تنم رصاص من الخاصكية الظاهرية ممن كان معه بجدة إلى الحديدة ، يطلب ما كان مع تمراز جميعه . وقد تلقاه أهل الحديدة بالترحاب والقبول وسلموه جميع ما كان مع تمراز ، وما كان بالمراكب من القطن السحولى[1] المورس[2] وغير ذلك « وفى ذلك يقول أبو المحاسن » فعاد تنم بالجميع إلى جدة بعد استبعد كل أحد رجوع المال»[3] .

ويذكر السخاوى ضمن ألقاب تنم بن بخشايش الجركسى الظاهرى المعروف بتنم رصاص أحد خاصكية أستاذه»[4] والخاصكية فئة من المماليك ينضمون فى خدمة السلطان وهم صغار فكان هو الذى يتولى تربيتهم وعتقهم . وكان الخاصكية يلازمون السلطان فى خلواته وفراغه وينالون من ذلك ما لايناله أكابر المقدمين ، ويحضرون طرفى كل نهار فى خدمة القصر والاسطبل ويركبون لركوب السلطان ليلا ونهارا ، ويدخلون عليه فى خلوته بغير إذن . وكانوا يقفون عن يمين السلطان ويساره إذا جلس بدار العدل لخلاص الحقوق وإزالة المظالم »[5] .

وكانت فئة الخاصكية تعرف أيضا باسم الجوانية[6] وذلك عكس اسم البرانية أو الخرجية الذى كان يطلق على المماليك والامراء غير الخاصكية . ومن الخاصكية من هو صاحب وظيفة ومن ليس له وظيفة ، فأصحاب الوظائف هم « عشرة دوادارية وعشرة سقاة خاص ، وأربعة خاندارية وسبعة رءوس نوب جامة دارية وأربعة سلاحدارية خاص ، وأربعة باشمقدارية»[7] .

---

(١) سحول : مدينة باليمن اشتهرت بزراعة القطن ، التى كانت تصدره إلى البلاد الإسلامية وخاصة مصر (سعاد ماهر : مشهد الإمام الحسين) .

(٢) المورس : نوع من الصباغة الصفراء اللون المأخوذة من العصفر .

(٣) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٥ ص ٤٢٩

(٤) السخاوى : جـ ٣ ص ٢٥٤

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٤

(٦) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٦٨٦

(٧) خليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٥

وكان الخاصكية من غير أصحاب الوظائف يندبون للتوجه للقيام بأعمال مختلفة تهم الدولة بعامة أو السلطان بخاصة ، ومن ثم نستطيع القول بأن الأمير تنم رصاص الخاصكى كان فى أول أمره من غير أصحاب الوظائف يؤيد ذلك انتداب الأمير جانى بك له للذهاب إلى ميناء الحديدة باليمن لإحضار الأموال التى اغتصبها الأمير تمراز .

ويبدو أن الأمير تنم رصاص قد تولى أولى وظائفه فى عهد السلطان المنصور عثمان بن جقمق ، فقد أقره السلطان فى نيابة بندر جدة ، فقد جاء فى حوادث سنة ٨٥٧ هـ .. « أن السلطان خلع على تنم الخاصكى المعروف بتنم رصاص باستقراره فى التكلم على بندر جده ، عوضا عن الأمير جانبك الظاهرى الاستادار »[١].

وفى عهد السلطان الأشرف إينال تولى تنم رصاص حسبة القاهرة عوضا عن على بن سكندر[٢] ، وفى ذلك يقول ابن اياس وكذا أبو المحاسن ، وتنم هذا هو أول تركى ولى الحسبة والبذل ولم نسمع ذلك قبل تاريخه لاقديما ولا حديثا » .

وكانت وظيفة المحتسب فى العصر المملوكى تأتى فى المرتبة الخامسة بالنسبة للوظائف الدينية الرفيعة الشأن وكان لصاحبها مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف[٣] . وربما أسندت حسبة القاهرة إلى والى القاهرة وحسبة مصر (أى الفسطاط) إلى والى مصر . وظلت وظيفة الحسبة يشغلها العلماء من غير العسكريين ، إلى أن أسندها السلطان المؤيد شيخ إلى الأمير سيف الدين منكلى بغا أمير حاجب مضافة إلى الحجوبية وكان من الفقهاء[٤] وهكذا نرى أن أول من أسند وظيفة المحتسب إلى العسكريين هو السلطان المؤيد شيخ سنة ٨١٥ هـ ، إلا أنه أسندها إلى «عسكريا فقيها » . أما السلطان إينال فقد أسندها لعسكرى غير فقيه وهو تنم رصاص ، ومن ثم فإن ابن[٥] اياس وغيره من المؤرخين كانوا على حق عندما قالوا أنهم لم يسمعوا بذلك قديما ولا حديثا .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم جـ ١٦ ص ٣٠

(٢) السخاوى : ج ٣ ص ٤٣

(٣) ابن إياس : جـ ٢ ص ٧١ ، أبو المحاسن جـ ١٦ ص ١٥٣

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٤١٤

(٥) ابن إياس : جـ ١ ص ٣٥٩

وقد نشأت وظيفة المحتسب ، كما يقول رجال الدين[1] ،تحقيقا لقوله عز وجل : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ومن ثم فهى من الوظائف الدينية ويشترط فيمن تسند إليه أن يكون فقيها عالما بأحكام الشريعة الإسلامية[2] . أما من الناحية اللغوية ، فقد قال البعض بأن المحتسب مشتقة من قولهم حسبك بمعنى أكفف لأنه يكف عن الظلم ، وقيل أنه مشتق من قولهم احسبه إذا كفاه لأنه يكفى الناس مؤنة من يبخسهم حقهم ، وقيل إنه مشتق من قولهم احتسب عليه بمعنى أنكر[3]

ومهما يكن من أمر معنى المحتسب واشتقاقاتها ، فإنه من الثابت أن الخليفة عمر ابن الخطاب هو أول من وضع نظام الحسبة فى الإسلام ، إلا أن هذه الوظيفة لم تثبت فى النظام الإدارى للدولة العباسية إلا فى نهاية القرن الثانى للهجرى ثم تحددت معالمها وانتشرت فى جميع أجزاء الدولة الإسلامية فى القرن الرابع للهجرة[4] وكانت اختصاصات المحتسب كثيرة ومتشعبة منها ما يتعلق بالعبادات ومنها ما يختص بمراعاة آداب السلوك والتمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة على الأخلاق العامة ، كما كان على المحتسب أن يشرف على التجار والصناع بأداء الواجب عليهم والنظر فى الأسواق والإشراف على الموازين والمكاييل ومراقبة الأسعار ومنع الاحتكار والإشراف على دور الضرب والعيار. هذا بالإضافة إلى أن المحتسب كان يشرف كذلك على استثمار أموال الأحباس وإمضاء مصارفها على شروط واقفيها[5] .

وفى عهد السلطان خشقدم ، تولى تنم رصاص عدة وظائف . فقد خلع عليه السلطان وأبقاه محتسبا القاهرة ، وجعله أمير عشرة فى أول حكمه ثم رقاه لإمرة طبلخاناة[6].

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ، القاضى أبو يعلى : الأحكام السلطانية .

(٢) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (نشر الباز العرينى) .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١١ ص ٧٠

(٤) الباز العرينى الحسبة والمحتسب (المجلة التاريخية سنة ١٩٥٠) .

(٥) الشيزرى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٢ ، حسن إبراهيم : نظم الحكم ص ٣٥٥

(٦) كانت فئة الأمراء من أرفع الفئات العسكرية فى العصر المملوكى وكانت تنقسم من حيث الرتب العسكرية إلى —

ويبدو أن الأمير جانبك نائب الشام كان قد خرج على السلطان خشقدم ، فأوفد السلطان الأمير تنم رصاص على رأس حملة حربية للقبض على جانى بك إلا أن حملة تنم رصاص باءت بالفشل فلم تستطع قتال جانبك ولا القبض عليه ورجع تنم سنة ٨٦٦هـ ليستقر فى وظيفة المحتسب[١] .

وكانت النتيجة الطبيعية لازدياد نفوذ جانى بك عظيم الدولة ومدبر المملكة ، أن خشى السلطان خشقدم على ملكه ، فأوعز إلى مماليكه الأجلاب بقتل جانى بك ، كما وافوا الأمير تنم رصاص الظاهرى المحتسب وأحد أمراء الطبلخانات وتكاثروا عليه بالضرب حتى ظنوا أنه مات فحمله أبناؤه إلى طبقته وبه رمق وأخلوا فى مداواة جراحه فمات بعد قليل وذلك سنة ٨٦٧ هـ[٢] .

ولكى يتبرأ السلطان من دم القتيلين ، أمر خازنداره بإخراج ثوبين بعكبكين لتكفينهما ، وقد دفن الأمير تنم رصاص عند الإمام الليث بن سعد بالقرافة الصغرى (قرافة الإمام الشافعى) .

ويحدثنا السخاوى[٣] عن صفات الأمير تنم فيقول : إنه كان شابا مليح الشكل شجاعا عارفا كريما ، لسنا متحركا ، ويعزو السخاوى سبب صداقة جانى بك للأمير تنم بقوله « ولقد زاد جانى بك فى تقريبه وذلك لظلمه وجبروته وشدة قسوته وانتشار أذاه حتى كان من أخلص أعوانه ، وقد توفى تنم وهم لم يستكمل الأربعين من عمره .

وبرغم ذكر أبو المحاسن وابن اياس لبعض الوظائف التى تولاها تنم رصاص والأحداث التى وقعت فى عصره وجانبا من ترجمة حياته ، إلا أن أحدا منهم لم يذكر شيئا عن

= أربع طبقات ، الطبقة الأولى ، أمراء المئين مقدمو الألوف وعدة كل منهم مائة فارس ويقود فى القتال ألف جندى ، والطبقة الثانية أمراء الطبلخاناة وعدة كل منهم فى الغالب أربعون فارسا والطبقة الثالثة أمراء العشرات وعدة كل منهم عشرة فرسان .
(القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٢ (وما بعده ، الظاهرى : زبدة كشف الممالك ص ١١٦ ، المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٢) .

(١) أبو المحاسن : ج ١٦ ص ٣٢٠

(٢) ابن إياس : ج ٢ ص ٧٧

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٤٣

مسجده اللهم إلا السخاوى الذى قال إنه بنى مسجدا ولم يضف شيئا على ذلك ، رغم أنه من المساجد التى تبرز الكثير من مميزات العمائر الدينية فى عصر المماليك الشراكسة ، ولعل أول من أشار إلى جامع تنم رصاص وإلى مكانه ، هو على مبارك ، فقد جاء ذكره عند الحديث عن القسم العاشر من أقسام القاهرة وهو شارع السيدة زينب رضوان الله عليها ، إذ يقول : « وحارة السيدة كبيرة جدا وبداخلها جملة فروع وبها جامع قديم يعرف بجامع تميم الرصاق (تحريف لتنم رصاص) ليس به أضرحة وشعائره مقامة إلى الآن من ريع أوقافه بنظر رجل يدعى الشيخ محمد الجنيد . وتجاه الجامع سبيل معروف بسبيل الست فطومة عامر بنظرها إلى الآن »[1] .

وقد تولت لجنة لحفظ الآثار العربية تجديد هذا الجامع منذ سنة ١٩٠٨ م كما هو ثابت فى محاضرها .

وكان حى السيدة زينب[2] الذى يقع فيه مسجد تنم رصاص ، يعرف من قبل باسم الجسر الأعظم وقناطر السباع ، وأنشأ الظاهر بيبرس جسرا على الخليج عرف باسم قناطر السباع . ويقول المقريزى أن الجسر الأعظم كان يفصل بين بركة قارون وبركة الفيل ثم أصبح بعد ذلك شارعا مسلوكا يمتد من قلعة الكبش حتى قناطر السباع ، ويعرف مكان هذا الجسر اليوم باسم شارع مراسينا ، ويوصل بين ميدان السيدة زينب حيث كانت قناطر السباع وبين جامع سنجر الجاولى الذى يقع تحت قلعة الكبش . وهناك يعرف امتداده باسم شارع الخضيرى ، وقد عرفت قناطر السباع بهذا الاسم نسبة إلى نقش السباع الموجود عليها وهى (رنك) الظاهر بيبرس ، ثم عرفت بعد ذلك باسم قنطرة السيدة زينب ، وكانت تتكون من قنطرتين إحداهما توصل بين شارع الكومى وشارع السد ، والثانية كانت توصل بين شارع الكومى وشارع مراسينا وفى سنة ١٨٩٨ ، م تم ردم الجزء الأوسط من الخليج وبردمه اختفت هذه القناطر تحت ميدان السيدة زينب الذى دخل فيه جزء من شارع الكومى وجزء آخر من شارع مراسينا .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٦

(٢) المقريزى : جـ ٢ ص ٢٣٨ ، الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ١٣٥

وفى عهد الناصر محمد بن قلاوون استجد أكثر من ستين حكرا على ضفة الخليج الغربية ابتداء من قناطر السباع (ميدان السيدة زينب) إلى قنطرة باب الخرق (ميدان باب الخلق) الآن . وعلى ذلك فإن أغلب الأحياء الموجودة حتى الآن فى هذه المنطقة عمرت منذ ذلك الحين . وقد وسع هذا الميدان فى سنة ١٣١٥ هـ (١٨٩٨ م) . وعند عملية التوسع اكتشفت واجهة جامع السيدة زينب الذى كان الوالى العثمانى على باشا قد جدده سنة ٩٥٥ هـ (١٥٤٧ م) ثم أعاد تجديده الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٠ هـ ، (١٧٦٨ م) ومنذ اكتشاف واجهة الجامع فى القرن التاسع عشر ، أصبح يطلق على ميدان قناطر السباع اسم ميدان السيدة زينب[1] .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ١٦ .

الوصف المعمارى للمسجد

يقع المسجد فى حارة تميم الرصافى المتفرعة من حارة السيدة زينب ، وهو عبارة عن شبه مربع تقريبا إذ يبلغ طوله ١٧٫٥ وعرضه ١٦٫٥ م وتبلغ مساحته ٢٨٨ مترا مربعا تقريبا . وتقع الواجهة الرئيسية للمسجد فى الضلع الشمالى ويبلغ طولها ١٦٫٥ من المتر . ويبلغ ارتفاعها (٢٧) مترا. ويوجد بهذه الواجهة االمدخل الرئيسى للمسجد وعلى جانبيه توجد حنيات مسطحة على جانبه الشرقى توجد حنيتان وعلى جانبه الغربى توجد حنية واحدة يبلغ اتساع كل منهما (١٫٩٥) من المتر وتمتد حتى نهاية الواجهة وتنتهى كل منها بثلاث حطات من الدلايات البديعة التكوين انظر لوحة رقم (أ ، ب) . ويشغل هذه الحنايا صفان من النوافذ السفلى منها مستطيلة الشكل يبلغ طولها ٢٫٣٠ م وعرضها ١٫٥٠ من المتر وكلها مملوءة بمصبعات معدنية . ويعلو هذه النوافذ أعتاب مكونة من صنجات معشقة ذات زخارف (أرابيسك) غاية فى الإبداع . ويعلو الأعتاب عقود عاتقة تحصر بينها وبين العتب (طبلة) مصمتة خالية من الزخارف . أما نوافذ الطابق العلوى فكلها معقودة ويعلو كل عقد (مفتاح العقد) المكون من ثلاث مداميك حجرية جميلة التشكيل ، كما تتكون خواصر العقود من كتلة حجرية واحدة . وفى نهاية الحنايا من أعلى يتوجها ثلاث صفوف (حطات) من الدلايات التى سبق الإشارة إليها . ومن الراجح أن النوافذ العلوية كانت مملوءة بزجاج معشق بالجص سقط معظمه وغطيت الآن بالسلك .

وفى الجزء الغربى من الواجهة الشمالية الرئيسية يوجد مدخل المسجد الذى يدخل عن سمت جدار الواجهة بمقدار (١٫٤٤) من المتر يكتنفها من الجانبين مكسلتان عرض كل منهما (٫٥٧) من المتر. ويرتفع المدخل عن مستوى الشارع بمقدار (٫٤٥) من المتر، كما ترتفع من أعلى جدار المسجد بمقدار (٫٦٠) من المتر . ويتوسط المدخل باب يبلغ ارتفاعه (٢٫١) من المتر وعرضه (١٫٦٠)من المتر يعلوه عتب ينتهى طرفاه بمربعين بهما زخارف نباتية محورة جميلة التكوين .

ويحيط بالعتب وكذا المربعين زخارف قالبية بارزة مكونة من وزرتين تتخللهما دوائر على مسافات متساوية وفوق العتب يوجد عقد عاتق على جانبيه مستطيلان بهما زخارف هندسية قوامها نصف طبق نجمي ، ويعلو العقد العاتق حنية مستطيلة تنتهى من أعلاها بأربعة صفوف من الدلايات ، ويكتنفها من الجانبين مربعان بهما زخارف هندسية قوامها نصف طبق نجمي . وينتهى المدخل من أعلى بعقد ذى ثلاث فصوص تملؤه خمس صفوف من الدلايات تعلوها طاقية . ويحيط بفصوص العقد الثلاث زخارف قالبية مكونة من وزرتين . كمايحيط بالمدخل كله من أعلى مستطيل يضم فصوص العقد الثلاث انظر لوحة (جـ ، د) .

وعلى جانبي باب المدخل وعند منتصفه تقريبا وعلى ارتفاع (٩٥ر) من المترمن المكسلتين يوجد شريطان عريضان من الواضح أنهما كانا يضمان كتابة تبين اسم منشىء الجامع وتاريخ التأسيس اندثرت كلها الآن .

ويؤدى باب المسجد إلى مكان الصلاة المكون من ثلاثة أروقة وصفان من البوائك . وتتكون البوائك من عقود مدببة ممتدة تعتمد على أعمدة من الرخام تيجانها رمانية الشكل ، فيما عدا دعامتين من الحجر وتيجانها مكونة من صفين من الدلايات وترتبط تيجان الأعمدة ببعضها من أعمدة ربط خشبية .

وفى صدر مكان الصلاة يوجد محراب مجوف زخرف برسوم زيتية هندسية مكونة من أطباق نجمية يبدو أنها حديثة ، ويكتنف المحراب فى دخلتين خاصتين يوجد عمودان تيجانهما رمانية الشكل.

وإلى يمين الداخل إلى مكان الصلاة ، توجد فتحة تؤدى إلى ممر مكشوف به مجموعة من الغرف كانت مخصصة لشيخ المسجد والقائمين على خدمته ، ويؤدى هذا الممر الآن إلى دورة المياه .

ويعلو الواجهة مئذنة الجامع التى يصعد إليها من داخل المسجد عن طريق سلم خشبي انظر لوحة (و) وتتكون المئذنة من ثلاث طبقات فوق القاعدة وتتكون الطبقة الأولى من

شكل مثمن يزخرف كل ضلع منها حنية ترتكز على أعمدة ملتصقة مزخرفة ويتوجها عقد مفصص ذو زاوية . كما فتح فى هذا الطابق أربع نوافذ يتقدم كل منها شرفة محمولة على أربعة صفوف من الدلايات ويفصل بين الطابق الأول والثانى شرفة ذات ستة عشر ضلعا تحيط بها ألواح رخامية مخرمة ، وتقوم على خمسة صفوف من الدلايات لوحة (س) ويتكون الطابق الثانى من شكل اسطوانى مزخرف برسوم هندسية متعرجة ويفصل بين الطابق الثانى والثالث شرفة مطابقة إلى حد كبير للشرفة السابقة ، أما الطابق الثالث فمكون من ثمان أعمدة تعلوها شرفة ثالثة تعلوها قبة صغيرة يأتى فوقها الهلال النحاسى لوحة رقم (ح) .

مدرسة ابن تغرى بردى

بدرب المقاصيص
بحى الصاغة

هو يوسف بن تغرى بردى بن عبد الله الأمير جمال الدين أبو المحاسن بن الأمير الكبير سيف الدين الظاهرى أتابك العساكر بالديار المصرية . ثم كافل المملكة الشامية. ولد بمدينة القاهرة بدار الأمير منجك اليوسفى ، التى كانت تقع بجوار مدرسة السلطان حسن بميدان صلاح الدين بالقلعة ، وكان ذلك سنة اثنتى عشرة وثمانمائة تقريبا . وتوفى والده وهو طفل ابن ثلاثة أعوام ، وكان يشغل وقتئذ وظيفة نيابة دمشق ، فكفله زوج أخته قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن العديم إلى أن توفى ، فتولى رعايته وتربيته شيخ الإسلام قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينى الذى تزوج أخته فحفظ على يده القرآن وحفظ مختصر القدورى فى الفقه . وقد يسرت له نشأته فى بيت البلقينى الإلتقاء بكبار العلماء والفقهاء ورجال الدين ، فالتقى بقاضى مكة وبالقاضى بدر الدين محمود العينى ، فدرس النحو والتصريف وقرأ مقامات الحريرى وغيرها من علوم العربية من شعر ونثر . فبرع فى عدة علوم وشارك فى عدة فنون وكتب عن شعراء عصره واجتهد فنظم الشعر وكتب النثر .

وقد حبب إليه علم التاريخ فلازم مؤرخى عصره مثل قاضى القضاة محمود العينى والشيخ تقى الدين المقريزى ، واجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد وساعده على الوصول إلى طبقة كبار مؤرخى العصور الوسطى وخاصة مصر الإسلامية – كما يقول تلميذه وصديقه أحمد ابن حسين التركمانى المعروف بالمرجى – جودة ذهنه وحسن تصوره وصحيح فهمه ، حتى

برع ومهر وكتب وحصل وصنف وألف وانتهت إليه رياسة هذا الشأن فى عصره . ويشير السخاوى إلى براعة أبى المحاسن فى كتابة التاريخ فيقول « واعتنى بكتابة الحوادث من سنة أربعين وزعم أنه أوقف شيخه المقريزى على شئ من تعليقه فيها فقال : دنا الأجل ، إشارة إلى وجود قائم بأعباء ذلك بعده ، وأنه كان يرجع إلى قوله فيما يذكره له من الصواب بحيث يصلح ما كان كتبه (أى المقريزى) أولا فى تصانيفه » ويضيف السخاوى بأن أبا المحاسن كان أحسن وأدق من أرخ للعصر المملوكى وذلك لأنه منهم ، فهو أدرى من غيره بعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم . فقد جاء فى كتابه الضوء اللامع « سمعته يرجح نفسه على من تقدمه من المؤرخين من ثلاثمائة سنة بالنسبة لاختصاصه دونهم بمعرفة الترك (أى المماليك) وأحوالهم ولغتهم .

ولم تقتصر براعة أبى المحاسن على العلوم والمعارف فحسب ، بل امتاز كذلك فى رياضة بدنه ، فقد برع فى فنون الفروسية كلعب الرمح ورى النشاب وسوق البرجاس ولعب الكرة والمحمل . وقد أخذ هذه الفنون عن عظمائها ومعلميها ، فقد كان أميراً ابن أمير مملوكى تربى فى قصر السلطان بالقلعة . وقد فاق فى مضمار الرياضة أنداده ، وساد على أقرانه هذا مع مراعاته الحشمة والوقار والعفة عن المنكرات والاعتكاف عن الناس .

ولم يقنع ابن تغرى بردى بما حصله من علوم اللغة والدين والرياضة بل أضاف إلى ذلك كله دراسته وإجادته لفن الموسيقى ، فقد كانت له اليد الطولى فى علم النغم والضروب والإيقاع حتى لعله لم يكن فيه مثله فى زمانه ، انتهت إليه الرياسة فى ذلك وكتب كثيرا وحصل وصنف وألف .

ويصف صديقه التركمانى أخلاق أبى المحاسن وطباعه وعاداته فيقول : « ترك الترداد إلى أعيان الدولة حتى السلطان مع حسن المحاضرة ولطيف المنادمة ، والحشمة الزائدة والحياء الكثير . واتساع الباع فى علوم الآداب والتاريخ وأيام الناس ، قل أن يخلو مجلسه من مذاكرات العلوم . جالسته كثيرا وتأدبت بتربيته وحسن رأيه وسياسته وتدبيره . يضرب به المثل فى الحياء والسكون ، ما سمعته شتم أحدا من غلمانه ، ولا من حاشيته

ولا تكبر على أحد من جلسائه قط ، كبيرا كان أو صغيرا ، جليلا كان أو حقيرا ، كما كان ورعا تقيا حج غير مرة كان أولها سنة ٨٢٦ هـ .

ويقول ابن اياس فى حوادث سنة ٨٧٤ هـ وفيه كانت وفاة الجمالى يوسف بن الأتابكى تغرى بردى اليشبغاوى الرومى ، نائب الشام . له مصنفات عدة ، وكان نادرة فى أولاد الناس .

وقد ترك لنا أبو المحاسن بن تغرى بردى رحمه الله العديد من المصنفات العلمية فى التراجم والأخبار ، منها (مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة) اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين بغير مزيد . وكتاب (منشأ اللطافة فى ذكر من ولى الخلافة) وهو تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى سنة ٧١٩ هـ . وكتاب (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى) وهو معجم لمشاهير الرجال العظام من سنة ٦٥٠ إلى آخر أيام المؤلف . ومما جاء فى مقدمة هذا الكتاب قوله : غير مستدعى إلى ذلك من أحد من أعيان الزمان ، ولا مطالب من الأصدقاء والخلان ، ولا مكلف لتأليفه وتوصيفه من أمير أو سلطان ، بل اصطفيته لنفسى ، وجعلت حديقته مختصة بباسقات غرسى ليكون فى الوحدة لى جليسا ، وبين الجلساء مسامرا وأنيسا » وغيرهما كثير مما لا يتسع المقام لذكرها .

وبمناسبة الاحتفال بمرور ألف عام على تأسيس مدينة القاهرة ، فإنى أجد لزاما علىّ أن أذكر بالفضل والعرفان بالجميل مؤلف ابن تغرى بردى عن مدينة القاهرة المعروف باسم (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة) وهو كتاب كبير جم الفائدة فى تاريخ مصر مرتب على السنين ، ابتدأ فيه مؤلفه بفتح عمرو بن العاص من سنة ٢٠ هـ (سنة ٦٤٠ م) حتى قبيل وفاته سنة ٨٧٢ هـ (سنة ١٣٦٧ م) . وقد ذكر فيه من ولى مصر من الملوك والسلاطين والنواب ذكرا وافيا مع ذكر ملوك الأطراف بطريق إجمالى ، آتيا فى كل سنة على ماوقع من الحوادث المهمة ومن توفى من رجالات الأمة الإسلامية . وقد انفرد ابن تغرى بردى بإشارته فى آخر كل سنة إلى زيادة النيل ونقصانه ، حتى كاد

كتابه أن يكون المرجع الوحيد الذى اعتمد عليه الأستاذ أمين سامى باشا فى كتابه (تقويم النيل) .

وقد جاء فى ترجمة ابن تغرى بردى فى كتاب الضوء اللامع « وابتنى له تربة هائلة بالقرب من تربة الأشرف إينال (بالصليبة الآن بحى طولون ووقف كتبه وتصانيفه بها ومرض قبل موته بعام بمرض القولنج واشتد به الأمر إلى أن قضى فى سنة أربع وسبعين وثمانمائة ودفن من الغد بتربته » .كما أنشأ مدرسة بدرب المقاصيص لتدريس المذهب الشافعى والحنفى .

الوصف المعماري

تقع مدرسة ابن تغرى بردى بحارة درب المقاصيص بحى الصاغة ، وهى تشغل جزءا من أرض القصر الغربى الذى بناه الخليفة العزيز بالله الفاطمى لابنته ست الملك .

والمدرسة عبارة عن مستطيل إذ تبلغ مساحتها (٢٠ × ٨) مترا مربعا . وتقع واجهة المدرسة الرئيسية فى الضلع الجنوبى حيث يوجد المدخل الرئيسى للمدرسة . ويتقدم المدخل مجموعة من الدرجات يبلغ عددها (٨) تؤدى إلى ردهة (بسطة) صغيرة تتقدم المدخل ، فهى إذن المدارس معلقة إذ يشغل الطابق الأرضى مجموعة من الحوانيت التى يصرف ريعها على المدرسة .

ويؤدى المدخل إلى صحن (درقاعة) مغطى يتوسط إيوان القبلة والإيوان الغربى المقابل لإيوان القبلة . ويرتفع الإيوانان عن الصحن بمقدار (٢ر) من المتر . ويتصدر إيوان القبلة محراب صغير مجوف بجانبه منبر خشبى مجدد . أما الإيوان الغربى فيتضمن حنية يوجد بأعلاه دكة المبلغ . ويتكون الإيوانان الشمالى والغربى من حنيتين صغيرتين جدا (سدلتان) يستعملان الآن كنبة .

ويوجد بالضلع الشمالى للمدرسة باب يؤدى إلى دورة المياة وإلى سلم المئذنة .

المئـــذنة :

تقع المئذنة على الضلع الجنوبى للمدرسة على الواجهة الرئيسية . وهى مئذنة صغيرة جددت فى العصر العثمانى ولذا فهى تشبه مآذن العصر العثمانى ذات الرأس المخروطية .

مدرســة قايــتبــاى

بقرافــة المماليك
بالعباســية

كانت حدود العباسية من الشمال شارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلى وما فى امتداده حتى يتقابل مع شارع مهمشة . ومن الغرب إلى محطة كوبرى الليمون فميدان محطة مصر حيث كان يمر النيل فى العصر الفاطمى ، ومن الجنوب شارع الفجالة وسكة الفجالة ومن الشرق شارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقا) وكانت تقدر مساحة تلك المنطقة بحوالى مائتى فدان فى عهد الخليفة المستنصر . وقد عرفت تلك المنطقة باسم أرض الطبّالة . أما السبب فى هذه التسمية فيرجع إلى ما حدث فى العراق من خلاف شديد بين الأمير أبى الحارث أرسلان البساسيرى وبين الخليفة القائم بأمر الله العباسى مما دعا البساسيرى إلى الخروج من بغداد والانتماء إلى الدولة الفاطمية الشيعية المذهب ، فأمده الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بالجيش والزاد والعتاد حتى تمكن من الاستيلاء على بغداد وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة بنى العباس وأقام الدولة الفاطمية وأرسل كل تحف قصر الخلافة فى بغداد والغنائم النفيسة إلى القاهرة . فسر المستنصر سروراً عظيما وزينت مدينة القاهرة بهذا النصر العظيم وفرح أهل مصر وابتهجوا بهذا الانتصار فوقفت السيدة (نسب) وكانت طبالة المستنصر وأنشدت وهى واقفة تحت قصر الخلافة ومعها بطانتها :

يا بنى العباس ردوا ملك الأمر معــــد
ملككم ملك معــــــار والعــوارى تسترد

فأعجب المستنصر بها أيما إعجاب وطلب منها أن (تتمنى عليه) ، فسألته أن تقطع

هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها إياها وسميت منذ ذلك باسم أرض الطبالة . وقد عمرت تلك الأراضى وبنيت بها الدور والعمائر وكانت من أجمل وأغنى خطط القاهرة ثم هجرت هذه المنطقة سنة٦٩٦ هـ عندما انتاب البلاد الوباء والغلاء وكان ذلك فى عهد السلطان الملك العادل كتبغا المملوكى وبقيت كذلك حتى سنة ٧١١ هـ فى عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون حينما شرع الناس فى سكناها . وزاد الإقبال عليها عندما حفر السلطان الخليج الناصرى سنة ٧٢٥ هـ ثم وصل الخليج ببركة الطوابين التى عرفت فيما بعد ببركة الرطلى . ثم أقيم على الخليج قنطرة ، عرفت بقنطرة الحاجب وبذلك أعيدت الحياة إلى أرض الطبالة كما كانت فى العصر الفاطمى بل وأكثر . وأصبحت بها عدة حارات منها حارة العرب وحارة الأكراد وغيرهما ، واستمرت أرض الطبالة غاصة بساكنيها عامرة بأسواقها وأراضيها الزراعية حتى اندثرت تماما سنة ٨٠٦ هـ وصارت خرابا يبابا .

وفى سنة ١٨٤٩ أنشأ الوالى عباس باشا الأول ثكنات للجيش فى المنطقة الواقعة الآن تجاه قصر الزعفران ، ثم تبعه الأهالى والتجار فى تعمير المنطقة التى أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم العباسية نسبة إلى عباس الأول . وبعد ذلك أنشأ ضباط الجيش دورهم فى هذه الجهة وكانت الأرض تمنح مجانا لمن أراد البناء فاتسع العمران حتى شمل أرض الطبالة تقريبا .

وإلى الشرق من حى العباسية توجد القرافة الشرقية الغاصة بالأضرحة والمساجد والمدارس والخانقاوات التى يرجع معظمها إلى العصر المملوكى . وقد يكون من المفيد أن نوضح هنا الأصل فى نشأة كلمة القرافة ، يقول ياقوت : القرافة بفتح القاف وراء مخففة وألف خفيفة وفاء ، «مقبرة بمصر مشهورة مسماة بقبيلة من المغافر يقال لهم بنو قرافة » ويضيف والقرافة محلة بالاسكندرية منسوبة إلى تلك القبيلة . ويقول المقريزى وجامع القرافة الذى يقال له اليوم (أى القرن التاسع الهجرى) جامع الأولياء ينسب إلى قبيلة المغافر أيضا .

من هذا نرى أن كلمة « قرافة » اسم علم أطلق على الجبانات فى مصر نسبة إلى قبيلة المغافر ولكننا لا نجده فى غيرها من البلاد العربية .

ومن الآثار الهامة بالقرافة الشرقية مسجد قايتباى ، أحد سلاطين دولة المماليك الجراكسة . والسلطان قايتباى جركسى الجنس جلبه الخواجة محمود تاجر المماليك واشتراه منه الملك الأشرف برسباى بخمسين دينارا ، ثم اشتراه الملك الظاهر جقمق وأعتقه فتقلب فى عدة وظائف إلى أن صار ملكا سنة ٨٧٢ هـ ومكث على عرش مصر ثمانية وعشرين عاما إلى أن توفى سنة ٩٠١ هـ . ويعد السلطان قايتباى من أشهر ملوك دولة المماليك الجراكسة الذين عنو بالعمارة الإسلامية واهتموا بتخطيط شوارع القاهرة وتوسيعها . وإليه ينسب عدد كبير من الآثار التى ما تزال باقية حتى اليوم ، إذ قل أن يخلو حى من أحياء القاهرة أو إقليم من أقاليم القطر المصرى أو قطر من الأقطار الإسلامية إلا وله فيه أثر مشهور . وما من شك فى أن جميع المنشآت التى أقامها أو جددها أو أقامها أمراء دولته تمتاز مبانيها بالرشاقة والجمال والغنى بالزخارف المعمارية والفنون التطبيقية .

ومن منشآته فى القاهرة عدد كبير من المساجد والمدارس والوكالات والمنازل والأسبلة ، هذا بالإضافة إلى ما قام بتجليده من مساجد ومشاهد جاوز عددها الثلاثين . وأهم آثاره الباقية مسجده بالقرافة ، الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وجامع قايتباى بشارع قلعة الكبش ووكالتا قايتباى بشارع الأزهر بجوار باب النصر وجامع الروضة وغيرها كثير .

ولم تقتصر أعمال قايتباى المعمارية على المنشآت الدينية والمدنية فحسب ، بل عنى كذلك عناية كبيرة بالعمائر الحربية ، فقد أنشأ قلعة قايتباى بالاسكندرية التى بناها على أساسات منارة الاسكندرية القديمة كما أقام طابية أخرى بمدينة رشيد .

الوصف المعمارى

وتقع مدرسة قايتباى إلى الجنوب من ضريح الأشرف برسباى . ، ويتكون من مجموعة من المبانى تشمل مدرسة وضريحا وسبيلا وكتابا وملحقات أخرى خاصة بسكن المشرفين والقائمين على خدمة ورعاية تلك المنشآت . وواجهة المسجد الشمالية هى الواجهة الرئيسية للمسجد وقد حلى بابها بالرخام الملون والكتابات الجميلة المحصورة فى بحور (إطار مستطيل) ويعلو ذلك مقرنصات منقوشة وطاقية مزخرفة باللونين الأبيض والأحمر . وفى الجهة الشرقية من الواجهة توجد منارة المسجد الرشيقة وتتكون من ثلاث طبقات زخرف بدن الطبقة الأولى بنقوش وكتابة أما الطبقة الثانية ففقد حليت بحنيات داخلة فى بدنها ويحيط بها زخارف نباتية جميلة ، وتقوم الطبقة الثالثة على عمد رشيقة . ومن طريف ما يحكى أن مؤذن هذا المسجد كان بجيد الخط والنقش على الحجر ، وقد أثبت ذلك على قاعدة المنارة فنقش آيات من القرآن الكريم ووقعها باسمه بما نصه : نقشه محمد الشبيبى — كتبه بيده الفانية محمد الشبيبى المؤذن .

ويتكون المسجد من صحن مربع الشكل تقريبا تحيط به أربعة إيوانات معقودة تحيط بعقودها كتابات قرآنية هى آية الكرسى واسم المنشىء وتاريخ الإنشاء « الملك الأشرف أبو النصر قايتباى عز نصره بتاريخ رمضان المعظم قدره سنة سبع وسبعين وثمانمائة » . وأكبر الإيوانات إيوان القبلة وقد أحيط بشريط مذهب يحتوى على كتابات قرآنية مذهبة ، أما الإيوان الغربى المقابل لإيون القبلة فقد قسم إلى ثلاثة أقسام خصص قسم منها للمكتبة وما تزال رفوفها موجودة أما الكتب والمخطوطات فقد نقلت إلى دار الكتب المصرية .

وبجوار الإيوان الشرقى يوجد ضريح قايتباى ويتكون من مربع تعلوه قبة مرتفعة جدا نقشت من الخارج بزخارف نباتية وهندسية محفورة فى الحجر حفرا بارزا وزخرفت

من الداخل بزخارف زيتية ملونة ومذهبة ، وقد فتح فى رقبة القبة مجموعة من النوافذ المملوءة بالزخارف الجصية المعشقة بالزجاج الملون . وبجوار قبر قايتباى توجد قبة صغيرة من النحاس المذهب تحتها حجر أسود به أثر قدمين يقال إنهما لقدمى الرسول عليه الصلاة والسلام ، كما توجد قبة أخرى على شكل مسلة بها حجر عليه أثر قدم يقال إنه قدم الخليل إبراهيم عليه السلام . وقد سئل الإمام السيوطى عن هذه الأحجار فأجاب بأنه لم يقف فى ذلك على أصل ولاسند ولا رأى من خرجه فى شئ من كتب الحديث ، كما أنكره كثير من العلماء وأثبته بعضهم . ويقال عن هذه الأحجار التى بالضريح إن قايتباى اشتراها وأوصى بجعلها عند قبره . وقد جاء فى كتاب الآثار النبوية لأحمد تيمور ، إنه إذا صح شراء السلطان قايتباى لهذين الحجرين أو أحدهما فلا يبعد أن يكونا من الأحجار التى قيل إنها أحضرت من أرض خيبر بالمدينة المنورة لشمس الدين بن الزمن التاجر ليجعلها فى بناء مدرسته التى شرع فى بنائها بشاطئ بولاق فيحتمل أن السلطان اختار منها هذين الحجرين فنقلهما إلى قبته .

مسجد الشيخ
عواض بن محمد بن اسحق الطهلموس
بقليوب

ولد الشيخ عواض بن محمد بن اسحق بمدينة طهلموس بالمغرب الأقصى فنسب إليها وكان ذلك فى أواخر القرن الثامن الهجرى أو أوائل القرن التاسع الهجرى فى عهد دولة المرينيين الذين حكموا المغرب من نهاية القرن السابع حتى منتصف القرن التاسع الهجرى . وبقى فى كنف والده محمد بن اسحق فى طهلموس حتى حفظ القرآن وشب عن الطوق وأظهر من الفطنة والذكاء وانقطاعه للدرس والتحصيل ماشجع معلمه على أن يطلب من والده أن يرسله إلى مدينة فاس التى اتخذها المرينيون عاصمة لهم لما استقر أمرهم فى البلاد . لم يوافق والده فى أول الأمر لصغر سن ولده وخوفاً عليه من أن يؤدى به بريق الحياة المدنية إلى الانحراف وهم أصحاب الحسب والنسب العريق إذ ينتهى نسبهم إلى الإمام حسن بن على بن أبى طالب . وما زال معلم ابنه يلح عليه حتى قبل على شريطة أن يلتحق بالمدارس الدينية التى تؤهله لدخول جامعة القرويين بفاس .

رحل الفتى اليافع عواض عن طهلموس بعد أن بلغ الثانية عشرة من عمره وذهب إلى فاس حيث التحق بالمدرسة العظمى التى أنشأها السلطان أبو سعيد المرينى الذى كان له فضل كبير على النهضة العلمية فى البلاد . فقد أمر أبو سعيد ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهى المعروفة اليوم بمدرسة العطارين ، فبنيت على يد الشيخ أبى محمد عبد الله بن قاسم المزاور . ولما تم بناؤها حضر السلطان ومعه جماعة من الفقهاء والعلماء ورتب لها إماماً ومؤذنين وقومة يقومون بأمرها ، وحدد عدد الطلبة وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية واشترى عدة أملاك وقفها عليها احتساباً لوجه الله .

وأمضى الطالب عواض ستة أعوام فى المدرسة العظمى فى القسم الداخلى . وبرغم حداثة سنه وهو فى تلك المدرسة إلا أنه كان يدخر مما يعرف له من الجرايات يتصدق بها على الفقراء والمساكين أما مايتبقى معه من الدنانير فكان يرسلها إلى بعض العائلات الفقيرة فى بلدته طهلموس دون أن يذكر اسمه حتى لايحرج كرامتهم أو يشعرهم بحرج .

وبعد أن أنهى عواض دراسته فى المدرسة العظمى ، التحق بجامعة القرويين بفاس تحقيقاً لرغبة والده . والحقيقة أن جامعة القرويين تشبه فى قيمتها العلمية والدينية الجامعة الأزهرية فى القاهرة ، وكان الطلاب يفدون عليها من كل شمال أفريقيا ومن الأندلس . وتعتبر جامعة القرويين من أقدم جامعات العالم الإسلامى التى ماتزال باقية حتى الآن ، وكان إنشاؤها وليد رغبة دينية تغلغلت فى شرايين أختين هما فاطمة ومريم فشرعا فى تأسيسها سنة ٢٤٥ هـ . وتعتبر جامعة القرويين سجلا للعمارة المغربية عبر العصور فقد توالت عليها يد التجديد والإصلاح حتى أصبحت مساحتها عشرين مثلا لما كانت عليه فى القرن الثالث الهجرى . ومنذ أنشئت جامعة القرويين وهى موضع رعاية ملوك المغرب . وكان السلطان يعقوب بن يوسف المرينى هو الذى أمر بأحداث أول مكتبة وأحضر لها الكتب والمخطوطات من كافة أنحاء العالم الغربى والشرقى على السواء كما يوجد فى خزانة القرويين كذلك كثير من المؤلفات الأجنبية المترجمة إلى اللغة العربية مما يدل على مدى النشاط الثقافى فى ذلك العصر ، ومن بينها مؤلفات أرسطاطاليس وعدد من الأطروحات الخاصة بعلوم الطب والصيدلة .

وتخرج الشيخ عواض من جامعة القرويين فى سن العشرين وبدأ يفكر فى الرحلة المقدسة إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج . وفى طريقه إلى البلاد الحجازية مر بمصر ، واستقر به المقام فى مدينة الاسكندرية مدة عامين تتلمذ فيهما على يد أصحاب الطريقة الشاذلية وكان دائم التردد على معهد الاسكندرية الدينى كما كان يمضى ليلة الجمعة فى ضريح سيدى مرسى أبو العباس حتى إذا أصبح الصباح استعد لإمامة المسلمين فى صلاة الجمعة فى الزاوية الملحقة بالضريح . ثم رحل إلى البلاد الحجازية وبعد تأدية الفريضة أخذ يتنقل فى مدنها فزار المدينة المنورة وميناء جدة واستقر فترة قصيرة بينبع حيث استضافه فيها (بنو ابراهيم)

الذى ينتهى نسبهم إلى الامام الحسين بن على (وهم الذين باعوا مخلفات الرسول صلى الله عليه السلام للوزير ابن حنا المصرى فى القرن السابع الهجرى وهى محفوظة الآن بمسجد الحسين بالقاهرة) .

وبعد أن أمضى فى الحجاز ما يقرب من عشر سنوات عاد إلى القاهرة ، لكنه عزم وقتها على اتخاذ مصر دار قرار ، لاستقرار الأمور فيها من جهة وكثرة خيراتها من جهة أخرى أما ولقد استهوته فى الدرجة الأولى كثرة معاهد العلم بها .

وصل إلى القاهرة فى عهد السلطان الأشرف برسباى ، الذى اتصف عهده بالجهاد ضد الصليبيين فى قبرص التى كانت مركزاً للوثوب على الموانى الإسلامية فى شرق البحر الأبيض، وكان الشيخ عواض سعيدا بأن يدلى بدلوه فى ميدان الجهاد فى سبيل الله ضد أعدائه الصليبيين فقد أخذ على عاتقه الدعوة فى المساجد والزوايا والخانقاوات إلى الجهاد فألهب المشاعر بخطبه الحماسية فقد كان رحمه الله خطيباً مفوهاً جزل الحديث عميق الفكرة يستشهد دائماً بغزوات الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد لفت بخطبه وبلاغته نظر المسئولين حتى سمع به السلطان برسباى فقربه من مجلسه ، حتى قيل إنه جلس من الخليفة وقاضى القضاة ، عندما دخل ملك قبرص (جانوس) أميراً عليه فى القلعة . فقد أتى به الغزاة المصريون إلى القاهرة وأركبوه (بغلا أعرجاً) وشقوا به شوارع القاهرة وخلفه الأسرى ، حتى إذا ماوصل قصر السلطان قبل الأرض بين يديه وأخذ يستعطف السلطان حتى وافق برسباى على اطلاق سراحه نظير فدية كبيرة وذلك بتأثير اليشخ عواض .

ولما اضطربت أحوال البلاد عامة والقاهرة خاصة فى عهد السلطان الأشرف إينال ، وذلك نتيجة لكثرة الثورات التى كان يقوم بها المماليك الجلبان الذين كان يجابهم كل سلطان جديد . والمعروف أن سلاطين المماليك الأوائل اعتادوا شراء مماليكهم أطفالا صغاراً يتعهدونهم بالتربية فيشب المملوك وقد اختص بولائه لسيده الذى اشتراه ورباه ، أما فى القرن الخامس عشر فقد دأب السلاطين على شراء المماليك كباراً فى سن البلوغ مما جعل أولئك الجابان لايشعرون بولاء لأستاذهم . ويكفى أن نذكر أن فى الفترة التى بقى فيها السلطان إينال فى الحكم وهى ثمان سنوات ثار الجلبان سبع مرات . لم يطق شيخنا البقاء فى القاهرة التى أضاع هيبة

شيوخها ورجال الدين فيها هؤلا الجلبان ، فأشار عليه شيخ قبيلة الشواربية أن يذهب معه إلى قليوب حيث تقيم القبيلة فى مدينة قليوب ، فرحب الشيخ عواض بتلك الدعوة وانتقل من القاهرة إلى قليوب حيث أقام وكان ذلك فى النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى – الخامس عشر الميلادى .

وقليوب كما جاءت فى معاجم البلدان « انها من أعمال الشرقية ، وكانت مدينة عظيمة حسنة يقال إنه كان بها (١٧) ألف بستان ، وبها متولى الحرب السعيد . ويقول ابن إياس إن أكثر أهل قليوب مسلمون ومنهم عائلة مشهورة من عدة أجيال تعرف بعائلة الشواربية ، يقولون إنهم من قبيلة تسمى بهذا الإسم من عرب الحجاز القاطنين الصفراء والجديدة ، تنقل جدهم الأعلى إلى الشام ثم إلى مصر ، وكان دخوله بلاد مصر بذريته وأتباعه فى القرن السابع للهجرة . فنزل أولا على بحر أبى المنجى وأقام هناك ثم انتقل إلى قليوب . وينسب إلى قليوب كذلك جماعة من أهل العلم والفضل نذكر منهم الشيخ محمد بن الشمس القليوبى ثم القاهرى الشافعى ، وجاء فى الضوء اللامع للسخاوى ، أنه كان يعرف بالحجازى ، وكان إماماً عالماً فاضلا توفى سنة ٨٤٩ هـ . ومنهم الشيخ احمد القليوبى العالم الفقيه المحدث كان جامعاً للعلوم الشرعية وكان خبيراً بشئون الطب ، وله مصنفات كثيرة منها حاشية على شرح المنهاج ومناسك الحج توفى سنة ٨٦٩ هـ . فلما توفى الشيخ احمد تولى إمامة المسجد الجامع بقليوب (الذى يرجع تاريخه إلى العهد الفاطمى) الشيخ عواض كما تولى القضاء بها وذلك من قبل السلطان قايتباى ، وظل باقياً فى منصبه هذا حتى توفى سنة ٨٧٨ هـ.

وكان الشيخ عواض إلى جانب الوظائف التى تولاها رجلا متصوفاً له كثير من الأتباع والمريدين يحفظون أحزابه وأوراده التى نذكر منها ، حزب (جالب الأرزاق ودفع المشاق) الذى لايزال أهل قليوب يحفظونه ويتبركون به ، فهو (كما يقولون) ورد جليل النفع عظيم الفوائد ، فلو تلوناه لكروب عظمت ، دفعها الله بتلاوته .

* * *

ولما توفى الشيخ عواض أقام عليه الشواربية ضريحاً فى الغرفة التى كان يسكنها فى حياته ومنذ القرن الخامس عشر الميلادى والشواربية يتولون رعاية هذا الضريح، والمبنى الموجود حالياً يرجع إلى القرن الثالث عشر الهجرى (١٩ م) وهوعبارة عن غرفة مربعة يعلوها قبة على رقبة مرتفعة وفى أركانها مقرنصات كبيرة . ويتقدم الضريح رحبة مسقوفة وفى الحائط الغربى للضريح أضيف مسجد كبير على بابه الداخلى لوحة تذكارية ، عليها اسم منشئ الجامع والضريح وهو (شيخ العرب المرحوم محمد بن محمد بن سالم منصور الشواربى سنة ١٢٩٠هـ) وقد تفضلت وزارة الأوقاف مشكورة بزيادة مساحة المسجد من الجهة الغربية كما حددت بعض أروقته وفرشته بالكليم .

مسجد الشيخ محمد السمنودى

المعروف بابن القطان

بشارع الملك الظاهر برقوق
بقرافة الغفير بالقاهرة ٨٧٩ هـ

ينتسب الشيخ محمد السمنودى المعروف بابن القطان إلى مدينة سمنود . وسمنود هذه من المدن المصرية القديمة ذكرها جوتييه فى قاموسه فقال : « إن اسمها المصرى تبنوتير (Tebnoutir) واليونانى سبنيتوس (Sebennytos) والإسم الآشورى سبنوتى (Zabnuti) والقبطى سمنوت (Xemnout). وكانت سمنود قاعدة القسم الثانى عشر بالوجه البحرى وعاصمة مصر فى عهد الأسرة الثلاثين .

والاسم المصرى لسمنود سبنترت وهو مكون من مقطعين (سب) ومعناه الأرض (ونترت) ومعناه المقدس ، ثم حرف سمنوت بالقبطية ثم إلى سمنود العربية . وقد جاء وصفها فى معاجم البلدان[1] العربية كما يلى : سمنود مدينة حسنة كثيرة الداخل والخارج عامرة آهلة وبها مرافق وأسعارها رخيصة ، أما ياقوت الحموى فيقول : سمنود مدينة أزلية على ضفة النيل بينها وبين المحلة الكبرى ميلان وهى من أعمال الغربية. وفى نهاية القرن التاسع[2] عشر أصبحت مركزاً بمديرية الغربية .

ويحدثنا المقريزى عن تاريخ سمنود فى العصر الإسلامى فيقول : وكانت سمنود فى صدر

---

(١) ابن خرداذبة فى المسالك : واليعقوبى فى البلدان ، الإدريسى فى نزهة المشتاق .

(٢) محمد رمزى : القاموس الجغرافى الجزء الثانى من القسم الثانى ص ٧١

الإسلام من المنازل التى ينزلها العرب لربيع خيولهم، فقد كان عمرو بن العاص إذا جاء وقت الربيع كتب لكل قوم من القبائل العربية بربيعهم ولهم إلى حيث أحبوا ، وكانت القرى التى يأخذفيها معظمهم منوف وسمنود وإهناس وطحا . وفى هذا يقول يزيدبن أبى حبيب : إن عمروكان يقول للناس إذا قفلوا من غزوهم أنه قد حضر الربيع ، فمن أحب منكم أن يخرج بفرسه يربعه ، فليفعل ولا أعلمن ما جاء أحد قد أسمن نفسه وأهزل فرسه ، فإذا حمض اللبن وكثر اللباب ولوى العود فارجعوا إلى مراكزكم .

ويطيب لى ونحن نتحدث عن مدينة سمنود كمربع خصيب تذهب إليه القبائل العربية بخيولها وكراعها لتربع وتتغذى فى فصل الربيع ، أن نقتطف بعض العبارات من الخطبة التى وعظ بها عمرو بن العاص المسلمين قبل ذهابهم إلى منازل الربيع كسمنود وغيرها ، عبارات تتفق وما ننادى به الآن من تنظيم النسل ، فقد جاء فيها بعد أن حضهم على الزكاة وصلة الأرحام وأمر بالاقتصاد ونهى عن الفضول وكثرة العيال وإخفاض الحال قال : يامعشر الناس إياكم وخلالا أربعاً فإنها تدعو إلى النصب بعد الراحة وإلى الضيق بعد السعة وإلى الذلة بعد العزة ، إياكم وكثرة العيال وإخفاض الحال وتضييع المال . . » .

وفى حوادث سنة ١٣٢ هـ وفى عهد موسى بن نصير والى مصر يقول ابن تغرى بردى: خرج بسمنود رجل اسمه بحنس فبعث إليه الخليفة الأموى جيشاً أخمد الفتنة وقتله وقتل كثيراً من أعوانه ، أما عن تاريخها فى العصر الحديث فإن الحملة الفرنسية اختارتها مركزاً للمديرية بدلا من المحلة الكبرى لوقوعها على النيل وحسن موقعها وسهولة الحركة العسكرية بها فنقلوا إليها الديوان والعساكر ، وأقامت كذلك مدة بقائها فى مصر .

وكانت سمنود فى القرن التاسع عشر كمايقول على مبارك[1] : بها جملة من المساجد الجامعة والزوايا كلها عامرة مقامة الشعائر ، فمنها مسجد الشيخ سلامة بحارة الشيخ سلامة قريب من البحر يقال إنه صحابى أتى إلى مصر مع عمرو بن العاص واستقر ببطن الريف (أى وسط الدلتـــا) .

---

(١) على مبارك جـ ١٢ ص ٤٧

ومساحة جامع الشيخ سلامة تزيد عن فدان ، ولذلك فإنه عندما تهدم لم يكن من الميسور ترميمه وتجديده كله فاكتفى بترميم نصفه فقط سنة ١١٥٠ هـ وبقى النصف الآخر خرباً وهو الذى فيه المئذنة وبجواره قبر الشيخ سلامة . وفى سنة ١١٨٠ هـ اهتم الشيخ مصطفى النجار أحد أغنياء سمنود العامر قلبهم بالإيمان بتجديد المسجد كله وقرر فيه دروساً لحفظ القرآن والتفسير واللغة العربية .

ومن المساجد الأثرية الهامة بمدينة سمنود مسجد المتولى بسوق البياعين الذى يرجع تاريخ إنشائه إلى العصر المملوكى فى القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى . وجدد فى القرن الثالث عشر للهجرة . ومسجد الشيخ اسماعيل العدوى بحارة العدوى أنشأه الشيخ المنير السمنودى فى القرن الثامن للهجرة ودفن به ، وجدد كذلك فى القرن الثالث عشر للهجرة على يد الرجل المحسن على بيك البدراوى ، الذى يرجع إليه فضل ترميم وتجديد معظم مساجد وزوايا مدينة سمنود . ومسجد الشيخ ابراهيم الخواص الذى يرجع تاريخه إلى أوائل القرن التاسع الهجرى بناه الحاج محمد عشرى السمنودى ، ومسجد القاضى حسين ومسجد سيدى رمضان ومسجد يوسف العجمى ومسجد القاضى بكار ومسجد سيدى احمد الشراعى ومسجد سيدى بلال وكلها ترجع إلى العصر العثمانى وغيرها كثير جداً مما لايتسع المقام لذكرها .

ولعل من أهم شخصيات سمنود المشهود لهم بالورع والتقوى شيخنا محمد بن محمد ابن محمد السمنودى القاهرى الشافعى المعروف كأبيه وجده بابن القطان . ولد ابن القطان بمصر سنة أربع عشرة وثمانمائة وكان جميل الخلقة والخلق ، أمضى طفولته فى كنف والده العالم الورع التقى ، فلما شب عن الطوق اشتغل بالعلم الذى أخذه عن أئمة عصره وعلى رأسهم والده والشيخ القاياتى والمنهاجى وغيرهم . ويقول السخاوى : إنه سمع اتفاقاً على بعض المسندين (الرواه) ولم يكن ممن يميلون لذلك بل كان يصرح بأنه لافائدة فيه لكون الحديث قد دون وضبط وذلك طريقة والده . وكان ابن القطان رحمة الله عليه لايكثر من الاشتغال بتحصيل العلم إنما كان اشتغاله به الهوينا معتمدا فى ذلك على قوة حافظته وفرط ذكائه .

ولما بلغ ابن القطان العشرين من عمره تصدر للدرس والافتاء بجامع عمرو بن العاص

بمدينة الفسطاط ثم بجامع القراء نيابة عن والده ، كما ناب عن والده فى القضاء ، ثم تنقل فى عدة وظائف واستقر أخيراً فى افتاء دار العدل مع الشيخ المحيوى الطوخى . وبرغم كثرة تنقلاته إلا أنه كان لايفارق والده فى أسفاره فقد حج معه عدة مرات وكذا خرج معه للزيارة كما انتقل معه إلى الاسكندرية وغيرها من البلدان المصرية مما أكسبه خبرة ودراية يعز على الكثيرين تحصيلها من الكتب .

وكان من أعز أصدقاء شيخنا ابن القطان العلائى بن الأهناسى الذى اختص بصحبته ولازمه فى لعب الشطرنج وفى كثير من خطواته وبواسطته أدرج اسمه فى كشوف الرواتب السلطانية فى جهات متعددة ، فقد قرر له فى الجوالى وفى المفرد وفى الذخيرة وفى الخمس .

وقد يكون من المفيد أن نذكر شيئاً عن المقررات المالية التى كان الشيخ ابن القطان يتقاضاها فى العصر المملوكى فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى . لقد كانت أموال الدولة تؤخذ فى العصر الإسلامى من ضربتين أساسيتين ، الأولى وتعرف باسم المال الخراجى وهو كما يقول المقريزى[1] ، « المال الذى يؤخذ مسانهة (أى سنوياً) من الأراضى التى تزرع حبوباً ونخلا وعنباً وفاكهة ومما يؤخذ من الفلاحين هدية مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف » . والثانية المال الهلالى ، « وهو عبارة عما يستأدى مشاهرة كاجر الأملاك المسقفة من الآدر[2] (وهى دور سك العملة) والحوانيت والحمامات والأفران والطواحين . وعداد الغنم والجهة الهوائية المضمونة والمحلولة . ويضيف المقريزى على ذلك قوله « وعد بعض الكتاب أحكار البيوت وريع البساتين التى يستخرج أجرها مشاهرة ومصايد السمك ومعاصر الشيرج والزيت فى المال الهلالى » .

أما مال الجوالى الذى تقرر لابن القطان حصة منها فهو عبارة عن الجزية المفروضة على أهل الذمة والتى تؤدى سنوياً فهى بذلك تتبع المال الخراجى ، وذكرها المقريزى فى أموال مصر فقال · أما الجزية وتعرف فى زماننا (أى القرن التاسع الهجرى) بالجوالى فإنها تستخرج

---

(١) الخطط جـ ١ ص ١٠٣ ، ١٠٧

(٢) القلقشندى جـ ٣ ص ٢٧١

سلفاً وتعجيلا فى غرة السنة وكان يتحصل منها مال كثير فيما مضى ، أما فى وقتنا هذا فإن الجوالى قلت جداً لكثرة إظهار النصارى للاسلام .

ويضيف على ما تقدم القلقشندى[1] بالنسبة لضريبة الجوالى فيقول: « ومن اصطلاح كتاب مصر القدماء أن تورد الجوالى قلما واحدا (أى ديوان أو إدارة) قائماً بذاته ، بعد الهلالى وقبل الخراجى ، وذلك أنها تستأدى مسانهة وكانوا يرون وجوبها مشاهرة وفائدته فيمن أسلم أو مات أثناء الجول فإنهم كانوا يلزمونه بقدر مامضى من السنةقبل اسلامه أو وفاته فلذلك أوردت فيما بين الهلالى والخراجى » .

أما الخمس الذى يأخذ منه ابن القطان فهى ضريبة تفرض على التجارة الواردة من تجار أوروبا خاصة ويفصلها المقريزى[2] عند كلامه عن ضريبة الثغور فيقول : وفيها عدة جهات منها الخمس والمتجر ، فالخمس يستأدى من تجار الروم (أى الآتين من بحر الروم أى البحر الأبيض الواردين فى البحر عما معهم من البضائع المتجر بمقتضى ما صولحوا عليه وربما بلغ ما يستخرج منهم ما قيمته مائة دينار ومائتان وخمسة وثلاثون دينارا وربما انحط عن عشرين دينارا ويسمى كلاهما خمسا » .

وتقرر كذلك لابن القطان فى المفرد[3] ، وهو ديوان يتولى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات ، (أى الرواتب الشهرية) وعليق (للحيوانات) وكسوة وإيراده من البلاد المفردة له » .

كذلك رتب له العلائى بن الأهناسى فى الكسوة والضحايا (فى عيد الأضحى) واللحم والقمح والعليق وخلع البخارى السمور (أى الملابس ذات الفراء الواردة من بخارى) وغير ذلك . ويعقب على ذلك السخاوى فى الضوء اللامع ، فيقول : ولذا كان منخفض الجناح مع الأمراء وإن على الضد من ذلك مع الفضلاء وربما يحمد صنيعه مع بعضهم

---

(١) القلقشندى : جـ ٣ ص ٤٣٤

(٢) الخطط جـ ١ ص ١٠٩

(٣) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٧

كتنافسه مع القلقشندى على الارتفاع فى الجلوس ومع الشيخ البقاعى فلم يمكنه من الجلوس فوقه ، وأراد الجلوس فوق ابن الشحنة فما أمكنه فجلس متزحزحا عن الحلقة (أى حلقة الدرس) .

وكان ابن القطان رحمة الله عليه كريما سخيا يكثر من إطعام الفقير وابن السبيل ويتصدق على الفقراء والمعوزين ويبذل جاهه مع من يقصده ، ويصف السخاوى حياته الخاصة فيقول : كان ابن القطان كثير التهجد قوى الاعتقادفيمن ينسب إليهم الصلاح ، وكان من أكبر المناضلين عن ابن العربى وبالجملة فلم أتوهم فى عقيدته إلا الخير وتردد الكمال ابن البارزى واجتهد أن يكون هو القارئ فى نسخته فأُجيب إلى ما طلب » .

أما عن الوظائف التى شغلها ابن القطان فقد ولى الخطابة[1] والإمامة بالجامع الجديد بمصر واستقر فى تدريس الفقه بالقطبية برأس حارة زويلة وبأُم السلطان بالتبانة وغير ذلك ، كما امتدت عنقه لقضاء مصر ، على حد قول السخاوى ، بمبلغ فما قدر . واستقر به المقام فى مشيخة مسجد خان السبيل وقف قراقوس واختص فى معلومه وفى مرتبه بطاحون وفرن من الجارى فيه وفى خزانة الكتب البيبرسية ، وكتب على بعض الدروس فى التفسير وغير ذلك .

ويختم السخاوى ترجمته فيقول : ولم يزل على وجاهته إلى أن مات من استعمال الحقن والأدوية الحادة ، سنة تسع وسبعين وثمانمائة ودفن تجاه تربة السلطان الأشرف إينال .

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢١٧

وصف الضريح

يقع الضريح بقرافة الغفير أمام مدرسة وتربة وخانقاة السلطان الأشرف إينال وبالقرب خانقاة برقوق بصحراء العباسية .

ويتكون الضريح من مبنى مستطيل الجزء الجنوبى منه يشغله إيوان للصلاة فى ضلعه الجنوبى الشرقى محراب بجانبه منبر بسيط والجزء الشمالى تشغله حجرة مربعة يعلوها قبة تقوم على رقبة مرتفعة بها ثمان نوافذ معقودة ومملوءة بالزجاج الملون . وبمنطقة تحويل المربع إلى دائرة تقوم فوقه القبة عدة صفوف من الدلايات البديعة الشكل . ويرجع تاريخ البناء إلى تاريخ الوفاة سنة ٨٧٩ هـ ثم جدد فى العصر العثمانى فى القرن الثانى عشر للهجرة .

مسجد وقبة يشبك من مهدى

سنة ٨٨٢هـ

أنشأ هذه القبة يشبك من مهدى أحد المماليك الذين جلبهم السلطان الظاهر جقمق ليؤلف منهم بعد تربيتهم وتدريبهم حاميته العسكرية وكان ذلك عام ٨٤٢ هـ ١٤٣٨ م وكانت سن يشبك وقت جلبه لا تعدو ثلاثة عشر عاما ولذلك فقد لقب بالصغير[1] بالمقارنة إلى المماليك الذين كانوا يشترون فى ذلك الوقت من عصر المماليك الجراكسة - كبار السن ويسمون بالمماليك الأجلاب أو الجلبان .

كان يشبك من مهدى مجهول الأب والنسب لذلك نسب إلى (مهدى) التاجر الذى باعه وهو سيده الأول ، كما نسب إلى السلطان جقمق بعد ذلك حيث كان يدعى يشبك من مهدى الظاهرى جقمق .

تعلم يشبك القرآن الكريم ، كما تعلم الخط واحكام الدين وآداب الشريعة الإسلامية على يد مربى طبقته ولما قوى عوده وبلغ سن الجندية تعلم فنون الحرب والفروسية والرمى بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل وغيرها من دروب الفروسية وفنون النزال والطعان.

كان يشبك موضع رعاية وعناية السلطان جقمق إذ قدم إليه الكثير من المال والسلاح والخيل وأصبح ملازما للسلطان فى كثير من الأوقات وعينه خاصكيا وهم فئة من المماليك السلطانية ينضمون إلى خدمة السلطان وهم صغار ويكونون مقربين إليه .

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ج ١٠ ص ٢٧٢

توفى السلطان جقمق عام ٨٥٧ هـ وخلف في السلطة ابنه عثمان الذى لم تزد مدة اعتلائه عرش السلطنة على ثلاثة وأربعين يوما وقد ناصره يشبك ولم يشترك مع رجال الجيش الثائرين ضده وذلك عرفاناً من يشبك ووفاءً لسيده السلطان جقمق .

ولما ولى السلطنة الأشرف إينال عام ٨٥٧ هـ زج بيشبك فى السجن جزاء له على اشتراكه فى مناصرة السلطان عثمان بن جقمق . ولقد كثرت الفتن وعمت الفوضى فى مدة حكم السلطان إينال نظرا لما كان يقوم به المماليك الجلبان من إشاعة الذعر والاستبداد بالناس والتحكم فى مجريات الأمور فكثرت المؤامرات ومنها تلك المؤامرة التى دبرها الخليفة العباسى القائم بأمر الله حمزة مع طائفة من المماليك الجلبان الذين انضم إليهم طائفة من المماليك الظاهرية التى تزعمها يشبك الذى كان وقتها جنديا فى خدمة السلطان إينال(١). كان مآل هذه المؤامرة الفشل ، إذ قبض السلطان إينال على مدبرى تلك المؤامرة ومنهم الخليفة العباسى القائم بأمر الله حمزة ونفاه إلى الاسكندرية وسجن يشبك ثم نفاه إلى قوص(٢) غير إنه بعد فترة عفى عنه وأعاده إلى القاهرة حيث عينه دوادارا صغيرا(٣) .

وفى عام ٨٧١ هـ وإبان حكم السلطان خشقدم صار يشبك كاشفا بالوجه القبلى(٤) على إقليم البهنسا وإقليم أسيوط ، كما أمره على عشرة مماليك ومنحه لقب الإمارة ثم رقاه السلطان خشقدم إلى وظيفة كشف الكشاف بالوجه القبلى جميعه أى (رئيس الكشاف عامة أو كبيرهم) ، وقد قام يشبك بمهام وظيفته هذه بيقظة بالغة وإخلاص تام فساد الأمن إقليم الصعيد واستقرت فيه الأمور بعد أن كان مصدر قلق وخطر داهم على السلاطين وبؤرة لقيام الفتن والغارات والثورات التى كان يشنها البدو فى تلك الجهات وكانت المدن ومنها القاهرة عرضة للنهب والسلب والتخريب .

---

(١) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٢٩

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢٧٢

(٣) ابن إياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ١٦٧ . وكانت وظيفة الدوادار الصغير تقع فى أسفل سلم التدرج بالنسبة لوظيفة الدوادار وكان يتولاها الجندى العادى أو المملوك من الخاصكية .

(٤) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ج ٣ ص ٥٢٧ ، ابن إياس : صفحات لم تنشر ص ١٦٧ والكاشف وظيفة تعنى الحاكم أو المفتش أو الفاحص ويرجع استعمالها إلى عصر صلاح الدين الأيوبى ، ثم ظهرت بشكل أوضح فى عصر المماليك بمعنى الوالى .

تألق نجم يشبك وزاد نفوذه واشتد بأسه وصار يعد من رجالات الدولة العظام وتبع ذلك تمكنه من جمع ثروة طائلة عملت على تدعيم مركزه وزيادة سطوته فتزعم فى عام ٨٧٢ هـ - عند حضوره من الصعيد - ثورة من طائفة المماليك الظاهرية نادت بخلع السلطان الظاهر تمربغا وتولية السلطان قايتباى فتم للثورة ما قامت من أجله بفضل تدبير يشبك وتزعمه .

استطاع يشبك بتزعمه للثورة ضد تمربغا وتحمسه لتولى قايتباى أن يحقق كثيرا من مآربه إذ عين فى منصب الداوادرية(١) الكبرى ، وإنه بذلك يكون قد تخطى عددا كبيرا من الوظائف والرتب التى كان ينبغى أن يمر بها قبل الوصول إلى تلك الوظيفة .

وفى عام ٨٧٣ هـ أسند قايتباى إلى يشبك منصب (الوزارة) إلى جانب منصبه كداودار كبير(٢) ، فتولاها بحكمة وحسن تدبير وكان حريصا على أموال الدولة فاقتطع جزءا من مرتبات الجند والفقهاء لكى تتخلص الدولة من الضائقة المالية(٣) التى كانت تمر بها كما استخدم القوة فى جباية الضرائب الأمر الذى جعل السلطان قايتباى ينعم عليه بمنصب (الاستادارية)(٤) إلى جانب ما كان يشغله من وظائف كما عهد إليه بمنصب « كاشف كشاف الوجهين القبلى والبحرى » .

من المهام التى قام بها يشبك بتكليف من السلطان قايتباى ، قيامه بعدد من الحملات الحربية لردع المعتدين على أملاك الدولة ولإخماد الفتن والقلاقل التى كانت تثور فى أطراف الدولة منها حملته ضد « شاه سوار)(٥) فى عام ٨٧٥ هـ ومنها أيضا حملته التى

---

(١) وظيفة كبرى من أعظم وظائف الدولة وكان يشغلها شخص يسمى الدوادار (أى ممسك الدواة) أو الموكل بأمر الدواة (الخاصة بالسلطان أو الأمير . وكانت مرتبة الدوادار بمصر فى نهاية القرن ٩ هـ (١٥ م) تأتى فى المرتبة الثانية بعد السلطان نفسه .

(٢) عبد الباسط بن خليل : الروض الباسم ج ٤ ورقة ٦٦

(٣) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور ج ٣ ص ٦٨٥

(٤) عبد الباسط بن خليل : الروض الباسم ج ٤ ورقة ٩٠ - والاستادارية وظيفة من وظائف الدولة يقال ان أصلها كلمة فارسية معناها (متولى قبض المـال) وقد عرفت هذه الوظيفة منذ عصر العباسيين ثم عرفها الفاطميون والأيوبيون من بعدهم ثم انتقلت إلى دولة المماليك فكان للاستادار أمر البيوت السلطانية والخزانات كلها من مطابخ وغيرها .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٤ وشاه سوار بن سلمان هو ثامن حكام بنو (ذو لقادر) .

قادها للقضاء على (حسن بك الطويل) ملك العراقيين بسبب إغارته على أملاك الدولة وتهديده لحاكم منطقة (الأبلستين) بشمال حلب .

أما فى مجال إخماد الثورات الداخلية ، فقد كان ليشبك قصب السبق ، وكان دوره من أهم العوامل التى أعلت شأنه ورفعت مكانته عند السلطان قايتباى إذ أمكنه إخماد الثورة التى قام بها «تمربغا» السلطان المخلوع سنة ٨٧٢ هـ فى محل نفيه بدمياط ثم قام يشبك بنقله إلى الاسكندرية . قضى يشبك كذلك على ثورة (عربان بنى هلبا) فى الصعيد وذلك فى عام ٨٧٣ هـ وكذلك على ثورة (عربان لبيد) بالبحيرة الذين خرجوا عن طاعة السلطان ، وفى عام ٨٧٤ هـ عاد عربان (بنى هلبا) وخرجوا عن طاعة السلطان فأرجعهم يشبك إلى صوابهم بعد أن أخمد فتنتهم وكسر شوكتهم وأذلهم ومن أعمال يشبك التى تظهر إخلاصه الذى لاحد له للسلطان قايتباى ، قضاؤه على الفتنة التى أشعلها فى حلب « جانبك الفقيه » والتى أشاع فيها موت قايتباى وأحقيته فى السلطنة .

تركت جهود يشبك فى قمع الفتن وتثبيت حكم قايتباى أحسن الأثر فى نفس السلطان مما جعله يجل يشبك ويفوضه فى كثير من مهام الأمور وبلغت مكانته لديه مبلغا لم يصل إليه أحد من أمراء المماليك لدى سلاطينهم .

أثار ما وصل إليه يشبك من منزلة سامية ومركز مرموق لدى السلطان حقد كثير من زملائه عليه ، كما أن شدته من بعض الطوائف أثار حقدها وحنقها عليه مما دعاها إلى الوشاية به لدى السلطان فاضطر يشبك إلى الاستقالة من بعض مناصبه وبقيت له وظيفة الدوادارية الكبرى فقط عند ذلك استهان به المماليك الجلبان فحاولوا قتله لولا فراره منهم ، غير أن السلطان قايتباى لم يغمط الطرف عن فضل يشبك عليه فقام بعقاب الكثير من المماليك الجلبان لقاء ما قاموا به من نهب بيت يشبك ومخازن غلاله ومحاولة قتله .

كثر منافسو يشبك والحاقدون عليه ومن بينهم (خشقدم الأحمدى الطواشى) كما كرر المماليك الجلبان ثورتهم عليه ومحاولتهم قتله . الأمر الذى دعا يشبك إلى الاستقالة من وظيفة الدوادارية ثم عزل نفسه عن الناس .

عاد نجم يشبك إلى التألق ثانية إذ وجد السلطان نفسه فى حاجة إليه لما كان له من سبق فى إخماد الفتنة التى قام بها قبائل بنى حرام وبنى وائل فى الشرقية لم يجد السلطان بطلا يقوم بإخمادها غير يشبك فكلفه بذلك فقام بالمهمة على خير وجه وبعدها سطع نجمه ثانية وبدأت مرحلة جديدة فى حياته وكان السطان لا يقوم بأى رحلة إلا صحبه معه ، من ذلك أنه كان رفيق السلطان فى رحلته إلى دمياط سنة ٨٨٠ هـ[١] وكذلك فى زيارته لبيت المقدس والخليل ثم الفيوم .

اهتم يشبك خلال فترة تألق نجمه الثانية ، بعمل العديد من الإصلاحات فى القاهرة لتعبيد الطرق وإصلاحها والعناية بالأسواق وإصلاح بعض العمائر ، كما شيد العديد من العمائر ومنها على سبيل المثال قبته بمنطقة كوبرى القبة بالقاهرة .

فى عام ٨٨٣ هـ أنعم قايتباى على يشبك بعدد من المناصب الهامة ألتى أعادت له مكانته الأولى فأعاد إليه منصب « الاستادارية » بعد أن عزل منها « تاج الدين ابن المقسى »[٢] كما عينه أميرا للسلاح[٣] وكاشفا للتراب[٤] ومدبر المملكة « ومتحدثا على ثغر دمياط[٥]، وكان قايتباى قبل ذلك بعام قد عين يشبك أميرًا على عربان هوارة الذين كانوا يقطنون الصعيد وخلع عليه إمارة هوارة[٦].

وقد ظلت علاقة يشبك بالسلطان وطيدة لم يفسدها ما أشيع من أنه هو الذى دس السم فى عام ٨٨٤ هـ للأمير « جانم الشريفى » صهر السلطان والذى توفى متأثراً به .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١

(٢) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٨٤

(٣) المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٤٩ – هذا وإمرة السلاح : إحدى الوظائف الكبرى التى يتولاها كبار الأمراء بالدولة وأميرها هو الذى يحمل السلاح للسلطان فى المجامع الجامعة ولا يكون الآن مقدمى الألوف .

(٤) المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٨٤ – وكاشف التراب وظيفة فى العصر المملوكى تعنى مفتش وصاحب هذه الوظيفة يعين من الأمراء مقدمى الألوف ومن مهامه أن يذهب زمن الربيع إلى كل إقليم لمعاينة حفر القنوات وجرف الطين .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور – والمتحدث على ثغر دمياط : اسم لوظيفة تعنى نائب أو حاكم لثغر دمياط وهو المتحدث عن كل شىء فيه من أوقاف وأموال أيتام وأموال ديوانية . . . إلخ .

(٦) ابن إياس : المرجع السابق : جـ ٣ ص ١٢٦

بل على العكس ظل السلطان على ثقة بيشبك إذ صحبه فى رحلته إلى الاسكندرية ورشيد مع فريق من الأمراء لزيارة الأبراج والحصون بهما كما أقام السلطان قايتباى يشبك نائبا عنه فى الحكم أثناء غيابه عن مصر لتأدية فريضة الحج عام ٨٨٤ هـ[١] (١٤٨٠م) .

امتاز يشبك بالكثير من الخصال الحميدة كالشجاعة والنجدة والمروءة وكان يكثر من الصدقات على المسلمين وكان يجزل العطاء للعلماء وخاصة الفقراء منهم وكان ينتهز المناسبات الدينية ليلة النصف من شهر شعبان فيجمعهم عنده ثم يوزع عليهم الأموال والهبات ، كما أوقف الكثير من أمواله وممتلكاته على الفقراء ، وأعتق الأعداد الكبيرة من مماليكه وأعطاهم المنح والمساعدات ليتمكنوا من ممارسة حياة[٢] حرة كريمة .

هذا إلى جانب حفظه للقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وتعميره لبيوت الله وكان يشبك شغوفا باقتناء الكتب وخاصة النفيس منها ، فجمع المصاحف الكريمة والربعات الشريفة وغيرها من روائع المخطوطات والكتب النادرة وكان يعمل على نسخ الكتب التى لا تتوافر له كما كان يهدى إليه الكثير منها[٣] .

شيد يشبك العديد من العمائر كما أصلح الكثير من العمائر التى كانت فى حاجة إلى إصلاح وقد وضع على كل ما كان يقوم بإنشائه رنكة أى إشارته التى ترمز إلى نسبة هذا العمل إليه ، وكانت تلك الشارة أو الرنكة تمثل دائرة تختلف الرسوم التى تحويها باختلاف المناسبة وأكثر رنوك يشبك شهرة ـ هو ذلك الرنك الذى وجد منقوشا على واجهة قصره بالقاهرة (قصر قوصون) وعلى أدواته المنزلية من الأوانى المعدنية والأطباق ونحوها وهذا الرسم عبارة عن دائرة مقسمة إلى ثلاثة أقسام ، العلوى منها يحتوى على رسم البقجة والأوسط يحتوى على رسم كاس بداخله دواة والسفلى يحتوى على كأس . وكل رسم من هذه الرسوم له دلالته ، فالدواة دلالة على وظيفة الداودارية التى كان يشغلها ، والبقجة كانت شارة لوظيفة الجمدار وهو الذى كان يتولى مهمة إلباس السلطان ثيابه ، أما الكأس فقد

---

(١) ابن إياس : المرجع السابق : جـ ٢ ص ١٩٢ (بولاق) .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٧٤
(٣) السخاوى : المرجع السابق جـ ١٠ ص ٢٧٤

كان شعارا للساقى وتلك الوظيفة ربما كان يشبك يقوم بها عندما كان أحد المماليك الخاصكية فى عهد السلطان جقمق . هذا بالإضافة إلى أن يشبك اتخذ له رنكا آخر بسيطا يحتوى على رمز واحد وهو (صورة السبع)[1] وهو الرنك الذى استخدمه عند قيامه بحملته ضد (شاه سوار) الخارج عن طاعة السلطان قايتباى عام ٨٧٥ هـ . وهذا الرنك يشير إلى الشجاعة والجرأة والإقدام التى كانت ضمن صفات يشبك .

فى ربيع الأول عام ٨٨٥ هـ (مايو ١٤٨٠ م) قام الأمير يشبك على رأس حملة كبيرة إلى الشام لردع (سيف أمير آل فضل) الذى اعتدى على الأمير أزدمر نائب السلطان فى حماة وقتله ، وكان هدف يشبك من اشتراكه وترؤسه لهذه الحملة ، البعد عن المتاعب التى كانت تلاحقه فى القاهرة ، من جراء حقد المماليك الجلبان عليه وإيغار صدر السلطان عليه باتهامه بقتل (جانم الشريفى) صهر السلطان ، هذا بالإضافة إلى أن من بين أهدافه التوسع فى رقعة الدولة بإضافة العراق بأكمله إلى حوزتها ، غير أن حلمه لم يتحقق إذ أسر فى هذه المعركة عدد من الأمراء المرافقين له بمدينة الرها (عند نهر الفرات شمال شرق سوريا) وقتل فى شهر رمضان عام ٨٨٥ هـ (نوفمبر ١٤٨٠ م) عن ست وخمسين عاما ودفن بتربته التى أنشأها بالقاهرة (عند زاوية كهبنوش) فى آخر صحراء قايتباى وأوائل الريدانية على القبة التى أنشأها بمنطقة (العباسية الحالية)[2] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٢٧

(٢) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٧٤

تاريخ مسجد القبة

لقد بدأ الأمير يشبك فى بناء القبة والمدرسة والبستان الملحق بهما فى سنة ٨٨١ هـ واكتمل البناء عام ٨٨٢ هـ[١] حيث استغرق البناء قرابة خمسة شهور . وكان القصد من بناء هذه القبة بتلك المنطقة الخلوية الجميلة بناحية المطرية ، أن يتخذها الأمير يشبك والسلطان والأمراء مكانا للنزهة والاسترواح عن النفس ، فقد ذكر ابن اياس[٢] « أن السلطان قايتباى كان ينزل بهذه الناحية ويقيم فى قبة يشبك أياما على سبيل التنزه ومعه خواصه حيث ينصبون الخيام بها ويعدون الأسمطة الحافلة » . كما يحدثنا ابن الجيعان[٣] عن رحلة قايتباى الشهيرة لأقاليم بلاد الشام فيقول : إنه قد نزل فيها (القبة) عند رجوعه من رحلته الشهيرة لأقليم الشام فى شوال سنة ٨٨٢ هـ ليأخذ راحته من عناء السفر الطويل ، وبات بها ثم صلى الجميع وركب فى موكب عظيم وواصل السير إلى القلعة » . وكذلك كان يتردد عليها كثيرا للاستجمام والمبيت السلطان محمد بن قايتباى .

ومن السلاطين الذين أعجبوا بهذه القبة واتخذوا مقاما ينزل فيه كلما أرادوا التنزه والمتعة والرياضة ، السلطان الغورى ، فقد ذكر ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٥ هـ : « وقد أعجب الغورى بهذه القبة والمنطقة التى أقيمت فيها أيما إعجاب حتى إنه نزل إليها مع بعض الأمراء فى ذى الحجة من عام ٩١٥ هـ فى اليوم الثانى من العيد الأضحى المبارك من ذلك العام وقضى بها وقتاً سعيداً مرحاً ، وحضر لديه بالقبة جماعة من المغانى

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١٠ ص ٢٧٤

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٢٣ (طبعة بولاق) .

(٣) ابن الجيعان : القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الأشرف ورقم (٧٤) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١٠ تاريخ .

وأرباب الآلات ورسم لبعض الأمراء العشرات بأن يرقص فقام ورقص بين يدى السلطان ثم رجع إلى القلعة مبتهجاً منشرحاً . وقد دفع إعجاب الغورى بهذه القبة إلى إنشاء قصر عظيم بجوارها وحفر بئراً ليستقى منه المسافرون و (بحرة) هائلة طولها نحو مائة ذراع إلى غير ذلك من الأبنية ، ومن ثم فقد نسب بعض المؤرخين القبة إلى الغورى[1] خطأ ، وذلك لوقوعها إلى جانب أملاكه ومبانيه ، التى اندثرت جميعها الان .

وقد اتخذ باشوات العثمانيين قبة يشبك كذلك متنزهًا لهم يقضون فيه أوقات فراغهم ويقيمون بها الولائم والحفلات ، وقد عرفت بقبة يشبك باسم (قبة العزب) وذلك لأنه كان يسكنها بعض عساكر طائفة عزبان العثمانية ، الذين كانوا يحرسون الحصون والقلاع[2] .

ونستطيع القول بعد هذا السرد التاريخى الموجز لقبة يشبك أنها لم تتخذ مدفنا[3] بدليل أن الأمير يشبك بنى لنفسه ولأسرته مقبرة كبيرة بصحراء قايتباى . وتستخدم القبة فى الوقت الحاضر مسجدا جامعا ، عرف باسم مسجد القبة ، وفى سنة ١٢٧٨[4] جدد الأمير مصطفى فاضل ، نجل الأمير إبراهيم باشا وحفيد محمد على ، قبة يشبك وبنى إلى جانبها وملاصقاً لها من الجهة الجنوبية ، مسجدا محل المدرسة التى أقامها يشبك واندثرت ، وذلك على يدى نيازى بك ، مهندس الأمير فاضل .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ١ ص ٨٣

(٢) محمد رمزى : القاموس الجغرافى القسم الثانى الجزء الأول ص ١٥

(٣) سامى عبد الحليم : الأمير يشبك وآثاره المعمارية بالقاهرة ص ٧٥

(٤) المرجع السابق : ص ٩٠

الوصف المعماري

تتكون القبة من مربع كبير يبلغ طول ضلعه من الخارج (١٣٫٧٥) من المتر، يرتفع عن مستوى الشارع بمقدار (٢٫٥) من المتر حيث بأسفله دورا أرضيا كان مستخدما كضريح لتخزين المياه، ويبلغ الارتفاع الكلي للقبة عشرين مترا.

توجد الواجهة الرئيسية بالضلع الشمالي للقبة يبلغ ارتفاعها (٦٫٨٠) من المتر، يصعد إليها بسلم مزدوج من الرخام يبلغ عدد رجاته ثمانية تنتهي إلى بسطة مستطيلة مساحتها ٥٫٧٥×٢٫٥) من المتر. ويتوسط الواجهة المدخل الرئيسي المكون من باب سعته (١٫٨٠) من المتر على جانبيه نافذتان متماثلتان معه من حيث المساحة، ويعلو كل فتحة من الفتحات السالف الإشارة إليها عتب عريض مكون من خمس صنجات معشقة فوق عقد عاتق، وقد ملئت النوافذ بمصبعات حديدية. ويتوج الواجهات شرافات على شكل ورقة نباتية على شكل خمسة فصوص.

ويؤدي باب المدخل الرئيسي إلى داخل القبة وهي عبارة عن مساحة مربعة يبلغ طول ضلعها (١١) مترا وارتفاعها (٥٫٨٥) من المتر حتى قطب القبة من أعلى، ويشغل كل ضلع من أضلاع مربع القبة ثلاث حنيات معقودة بعقود مدببة فتح في كل من الضلعين الشمالي والجنوبي نافذتان وباب، أحدهما باب المدخل الرئيسي السالك الإشارة إليه. وباب الضلع الجنوبي يؤخذ إلى سلم مكون من أربع درجات ينزل منها إلى المسجد الحالي. وفتح في الضلع الغربي ثلاث نوافذ، وفي الضلع الشرقي فتحت نافذتان وحنية القبلة، وجميع النوافذ متماثلة من حيث المساحة والشكل الهندسي.

وقد حول المربع إلى شكل دائري مكون من ستة عشر ضلعا طول كل ضلع (١١) مترا عن طريق مثلث كروي بداخله مقرنص كبير مفصص يبدو قطاعه على شكل نصف

زهرة مكونة من خمسة فصوص . ويقوم على منطقة الانتقال رقبة ذات ستة عشر ضلعا فتحت فى كل ضلع نافذة معقودة ملئت بزخارف جصية معشقة بالزجاج المتعدد الألوان ، ارتفاع كل منها (١٫٨٥) من المتر وسعتها (٠٫٧٥) من المتر . وقد زخرفت جدران القبة من أعلى وباطنها برسوم زيتية مذهبة ، كما غشيت الأرضية وجلسة النوافذ بالرخام الملون وعلى ارتفاع (١٫٥٠) من المتر من أرضية القبة توجد وزرة من الرخام على شكل بحور نقش بداخلها كتابات بالخط الكوفى تبدأ من الضلع الشرقى نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد[1] إن الله وملائكته يصلون على النبى يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما[2] . قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب[3] صدق الله العظيم . وكان الفراغ من ذلك فى شهر ربيع الأول سنة اثنين وثمانين وثمانمائة .

ويتخلل الوزرة الرخامية ذات الكتابات الكوفية سالفة الذكر أربع لوحات رخامية مربعة الشكل موجودة بأركان القبة طول ضلعها (٠٫٢٥) من المتر مكتوب عليها بالخط الكوفى كذلك « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ويعلو منطقة الانتقال طراز كتابه (شريط كتابة) بالخط النسخ المملوكى البارز المنقوش باللون الذهبى على أرضية حمراء وزرقاء داكنة ونص الكتابة كما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ، إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ، ويتيما وأسيرا

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الأحزاب الآية (٥٦) .

(٣) سورة آل عمران الآية (٢٥ — ٢٦) .

إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا »(1) ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وثمانين وثمانمائة .

كما يوجد شريط ثان من الكتابة البارزة المذهبة على أرضية حمراء وزرقاء تعلو نوافذ رقبة القبة جددتها لجنة حفظ الآثار الإسلامية سنة ١٣١٤هـ(2) (١٨٩٦م) نصها :

«بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم » جددت هذه القبة المباركة فى عصر خديوى مصر الأعظم عباس حلمى الثانى الأفخم سنة أربعة عشر وثلاثمائة وألف » .

وقد كتب بقطب القبة من أعلى بالخط الثلث المملوكى وباللون الذهبى ما نصه :

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء » إلى قوله تعالى : « بيدك الخير إنك على كل شئ قدير » صدق الله العظيم » .

ويتصدر الضلع الشرقى للقبة محراب مجوف سعته (١ر٥) مترا وعمقه (١ر١) م يعلو عقد مدبب ، وقد كسى تجويف المحراب بالرخام الملون إلى ارتفاع (١ر٥) م تأتى فوقها الوزرة الكتابية . وبحيط بعقد المحراب شريط من الكتابة مقسم إلى (بحور) نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لِبَدا »(3)

وإلى جانب المحراب يوجد منبر خشبى حديث الصناعة .

---

(١) سورة الإنسان حتى الآية (١٢) .

(٢) سامى عبد الحليم : الأمير يشبك من مهدى ص ٩٥

(٣) سورة الجن الآية ١٨ ، ١٩

وصف المسجد

يتكون المسجد الملاصق للضلع الجنوبى للقبة من مستطيل تبلغ مساحته (١٨ × ١٣٫٧٥) من المتر يقسمه صفان من البوائك إلى ثلاثة أروقة عمودية على جدار القبلة ، وتتكون كل بائكة من ثلاثة عقود نصف دائرية ترتكز على عمودين من الجرانيت الأحمر . ويوجد المدخل الرئيسى للجامع فى الضلع الجنوبى للجامع وهو يقع محور الباب الرئيسى للقبة . ويقع المدخل الرئيسى داخل حنية مستطيلة وعلى جانبيه مكسلتان .

وفى الضلع الشرقى للجامع يوجد محراب مجوف تعلوه طاقية ذات عقد نصف دائرى تعلوه نافذة مستديرة . وعلى جانبى المحراب توجد نافذتان مستطيلتان تطلان على الطريق ، كما يوجد بالجدار الغربى ثلاث نوافذ مماثلة للنافذتين السابقتين ، وضريح مدفون به الشيخ عرفات الأنصارى والشيخ بدر الدين محمد بن جمعة الحنفى الفيومى[1] ، فى الرواق الشمالى المجاورة للقبة ، كذلك توجد نافذة فى الجدار الجنوبى مجاورة للمدخل الرئيسى للجامع . ويبلغ ارتفاع الجامع (٧٫٢٥) من المتر ومغطى بسقف خشبى يتوسطه فتحة مثمنة الشكل (شخشيخة) ويحيط بالمسجد من جهته الجنوبية مبان حديثة عبارة عن كتاب ومكتبة وميضأة ودورة مياه .

وفى الركن الجنوبى الغربى للجامع توجد المئذنة وهى تبرز عن سمت واجهة الجامع الغربية بمقدار (٢٫٧٥) من المتر وتحتوى على قاعدة مربعة الشكل يعلوها بدن اسطوانى يستدق كلما صعدنا إلى أعلى حتى تنتهى بطرف على شكل القلم الرصاص . والمئذنة مقسمة إلى ثلاثة طوابق عن طريق شرافات ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات تفصل بينها .

---

(١) حسن قاسم : المزارات الإسلامية جـ ٤ ص ٢٠٦

ويوجد بالمسجد اللوحة التأسيسية الخاصة بإنشائه سنة ١٢٧٨ هـ وهى من الرخام الأبيض ومربعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٠٫٧٥) من المتر كتب عليها ما يلى :

حازا أجرا بمسجد قد بناه　　من علا رتبة وزاد اشتهارا
مصطفى فاضل الوزير المرجى　　زاده الله هيبة ووقـــارا
بعلا همت تفوق الثريـــا　　وندى راحة عد البحـــارا
يا له صدر دولت موفيها　　شمس فضل قد أنجبت أقمارا
قبل الله منه ما قـــد بنـاه　　فهو فى السر مخلص وجهارا
إنه مسجد على خير تقـــوى　　كان تأسيسه فزاد فخارا
فهو البيك ذو المعالى نيازى　　بشرته العلا به استبشارا
ولقد قال الكامل فيـــه أرخ　　تم بالمجد واكتسى أنوارا

سنة ١٢٧٨

مدرسة ابن قرقماس

المعروفة باسم مدرسة جنبلاط سنة ٨٨٦هـ
بشارع اسماعيل أبوجبل
المتفرع من درب الجماميز

أنشأ هذه المدرسة محمد بن قرقماس بن عبد الله ناصر الدين القاهرى الحنفى المعروف باسم جنبلاط ، ولد سنة اثنتين وثمانمائة تقريباً بالقاهرة ونشأ بها(١) . وإلى هنا ينتهى التعريف بأصله ونسبه فلا يذكر مصدر ولا مرجع شيئاً عنه ، لكن الذى يمكن أن نرجحه فى هذا الصدد ، أنه ليس مملوكاً أو ابن مملوك ، كما أنه ليس من أولاد الناس ، ولا أولاد المعممين ومن ثم فقد يكون من أبناء عامة المصريين كما أننا لاندرى السبب فى تسميته باسم (جنبلاط) كما يقول السخاوى ، ولعلها نسبة إلى الرجل الذى تولى أمره منذ نعومة أظفاره فعرف بها .

وقد أظهر محمد بن قرقماس بن عبد الله منذ طفولته ذكاء نادراً وقوة حافظة ، لقد قرأ القرآن وحفظ وهو لم يبلغ العاشرة بعد مما جعل الشيخ على الجمال محمود بن القوال مقرئ ذلك العصر يعنى بأمره ويتعهده حتى أتقن الحفظ . ويظهر أنه كان رقيق الحال وكان عليه أن يعول نفسه فتعلم الغزل والحب حتى فاق وبز أقرانه ممن كانوا يعملون معه . ولكن نفسه الوثابة وذكاءه وقوة حافظته الخارقة لم تقنع بهذه الحرفة اليدوية فأعرض عنها فرجع إلى العلوم الدينية ينهل منها . فتعلم القراءات السبع عن مؤدبه وأستاذه الأول على الجمال محمود ابن القوال وأخذ الفقه والحديث عن العز عبد السلام البغدادى ، كما درس علوم اللغة من

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ص ٢٩٥

نحو وصرف والمنطق وفن الجدل والحوار على يد كثيرين من علماء القرن التاسع الهجرى الذين كانت تزخر بهم القاهرة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر العز بن جماعة ، الذى كان يحرص على حضور دروسه شيخنا ابن قرقماس .

وقد بلغ ابن قرقماس شأواً لابأس به فى علوم الدين والأدب حتى أصبح يذكر فيهما وفى ذلك يقول ابن إياس[1] « وتعلم الأدب وعلم الحرف فصار له ذكر فيهما فنظم كثيراً وخاض بحور الشعر وصنف فيه ، وربما قصد بالأسئلة عن شىء من الضمائر فيخرج فيه نظماً على هيئة ما يخرج من الزايرجة وربما زعم أنه منها » . وقد ترك الشيخ جنبلاط ، بعض المصنفات التى حبسها على مدرسته مثل « زهر الربيع » فى علم البديع يقع فى عشر كراريس وقسمه تقسيما حسناً وصل فيه إلى نحو مائتى نوع ذكر فى كل نوع منها شيئاً من نظمه . كما صنف فى التفسير كتاباً سماه (الغيث المريع) كما وضع كتاباً مسجوعاً اسمه (الجمان على القرآن) وغير ذلك من المصنفات نسخها كلها بخطه ، كما نسخ غيرها من أمهات الكتب بخطه الفائق الحسن . والجودة حبسها كلها على مدرسته ، وقد أخذت على هذه المصنفات مآخذ كثيرة ذكرها السخاوي فقال « إنها اشتملت على لحن كثير فى النظم والنثر وخطأ فى أبنية الكلمات من حيث التصريف كما احتوت على تراكيب غير مستساغة كما أن شروحه وتفاسيره منتقدة » .

وكان الشيخ جنبلاط ورعاً صالحاً حسن الاعتقاد ممتعاً فى المحاضرة ، وكان ممن يقصد للزيارة طلباً للتبرك ورغبة فى العلم فقد كان ودوداً مع طلبته مقبلا عليهم باذلا نفسه مع قاصده وقد وهبه الله إلى جانب حسن الخلق ، جمال الخلقة فكان شكله « نضر بهيج رائق وشيبة نيرة وسكينة وصمت ومحبة فى الفقراء ، إلا أن الله ابتلاه بثقل فى سمعه[2] » وكان من طبعه الانقطاع عن الناس وملازمة الكتابة التى كانت مورد رزقه ، ويقال إن أكثر كتابته وتأليفه كان يتم ليلا ، وأن الله قد عوضه عن ضعف السمع قوة فى بصره حتى أنه كان

---

(١) [ابن] إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٠٤

[(٢)] بدائع الزهور .

يكتب فى ضوء القمر ، فاذا ما انتهى من كتابته أخذ يتهجد ويتلو كثيراً من الأوراد . وكان خيراً متواضعاً كريماً ذا خط حسن فائق ، وكان عنده رغبة ملحة فى التزيى بزى الجند .

وقد زار الشيخ جنبلاط بيت المقدس فصلى بالأقصى وطاف بالصخرة المقدسة ، كما أدى فريضة الحج ، ومن الكرامات التى وقعت له عند بيت الله الحرام ماحدثنا عنه السخاوى فقال : « حج الشيخ ابن قرقماس رفيقاً للشيخ الدقوسى وكانت معه حينئذ ودائع لأناس شتى فضاعت منه ، فبينما هو فى حساب ذلك ، إذ بقائل يقول من فقد له هذا الكيس فأخذه منه وكان بالكيس الشىء الكثير ، فوجده كما هو لم يفقد منه شىء . ورام الاحسان لواجده بشىء من عنده ، فالتفت فلم يجده » .

وقد سمع السلطان خشقدم عن علمه وورعه وتقواه فقربه إليه وتقدم عنه فقرره شيخاً للقبة بتربته فى الصحراء وجعل له خزن كتبها وغير ذلك . وظل الشيخ جنبلاط فى وظيفته هذه معززاً مكرماً فى عهد السلطان الملك الظاهر أبو النصر بلباى المؤيدى الذى لم تدم مدة سلطنته عن شهرين إلا أربعة أيام . وكذا فى عهد سلطنة الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهرى التى استمرت قرابة ثلاثة شهور وخمسة وعشرون يوماً فقط .

وقد علا نجم ابن قرقماس فى عهد السلطان الأشرف أبو النصر قايتباى ، فقد أنشأ له السلطان مدرسة خاصة له أطلق عليها اسمه ، وطلب منه أن يقوم بالتدريس فيها ، وحرصاً منه على صحته لكبر سنه وضعفه ، فقد أنشئت المدرسة قريبة من داره فقد جاء فى ابن إياس أنها أنشئت بلصق درب الحجر تجاه سكن ابن قرقماس .

وظل الشيخ محمد بن قرقماس يقوم بالتدريس فى مدرسته حتى واتته العلل والمرض ومات فى آخر شهر شوال سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ودفن بمدرسته ، وقد كتب فى رثائه الأبيات الآتية :

ياخليلى أصاب قلبى المعنى ... يوم سار الطعون والركبان
طاعن طاعن برمح قوام ... قد علاه من مقلتيه سنان

ويحدثنا على مبارك[1] عن تاريخ هذه المدرسة وموقعها فيقول : إن جامع جنبلاط أنشأه أول مرة مدرسة الشيخ محمد بن قرقماس فى القرن التاسع للهجرة ولما مات دفن به ، وعلى قبره مقصورة من الخشب، ومشهور بين العامة بالشيخ جنبلاط ولهذا عرف به » . ويضيف على مبارك فيقول « ثم جدده الأمير على أغا كتخدا الجاوشية تابع ابراهيم بك الكبير المعروف بشيخ البلد وجدد بجواره سبيلا ومكتباً وذلك سنة عشر ومائتين وألف وهو إلى اليوم مقام الشعائر بنظر الشيخ عبدالله » .

ويحدد على مبارك موقع المدرسة فيقول : تقع المدرسة بدرب الحجر[3] ، الذى يبدأ أوله من آخر شارع قنطر سنقر وآخره درب الحمام (حمام الدود حالياً بالحلمية) وسويقة السباعين وبه من جهة اليساره حارة درب الحجر ، وأما الجهة اليمنى فيها حارة التمساح وهى حارة كبيرة يتوصل منها لشارع عابدين وبداخلها جامع البرمونى » وقد عرف شارع درب الحجر باسم شارع اسماعيل أبوجبل ، لما بنى اسماعيل باشا أبو جبل داره به ، ويتفرع شارع درب الحجر (أبو جبل حالياً) من شارع درب الجماميز (بورسعيد حالياً) بالقرب من محطة ترام سنقر أمام شارع بالقرب من شارع البرمونى بعابدين .

---

(١) على مبارك : الخطط جـ ٤ ص ٧٣
(٢) الجبرتى ٤ عجائب الآثار جـ ٢ ص ٦٢٥
(٣) على مبارك جـ ٣ ص ٨٩

الوصف المعمارى

الواجهة الرئيسية :

تتكون المدرسة من مربع تقريباً إذ يبلغ طولها ١٧٫٢٠ من المتر وعرضها ١٦٫٥ من المتر ، وتقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الجنوبى الغربى للمدرسة وتطل على شارع اسماعيل أبو جبل (درب الحجر سابقاً) ويبلغ طول هذه الواجهة إذا استبعدنا واجهة السبيل الذى بنى فى العصر العثمانى (١٥) متراً ينقسم إلى قسمين يبرز أحدهما عن الآخر بمقدار (٢٫٣٠) من المتر .

ويبلغ طول الجزء البارز (١١٫٥) من الأمتار ويتكون من حنية عميقة كان بها المدخل الثانوى للمدرسة قبل الإصلاح والتجديد الذى أحدثه على أغا كتخدا سنة ١٢١٢ هـ وحنية كبيرة قليلة العمق فتح فيها صفان من النوافذ يتراوح عرضها بين (١٫١٠ ، ١٫١٧ ، ١٫٢٥) من المتر نوافذ الصف السفلى تتكون من مستطيل يعلوه عتب فوقه عقد عاتق رهى مملوءة بمصبعات حديدية أما الصف العلوى فنوافذه يعلوها عقود مدببة .

ويقع المدخل الثانوى فى حنية تبلغ سعتها (٢٫٤٤) من المتر وعمقها (٠٫٤٥) من المتر قد سد بابه الآن بحائط من الحجر يشبه الدعامة الساندة مما يدل على أن المدخل الثانوى للمدرسة قد سد لتقوية حائط الواجهة الرئيسية وإن كان عتبه والعقد العاتق الذى يعلوه مايزال موجوداً حتى الآن ، ويعلو حنية المدخل عقد ذو ثلاث فصوص ملئت بمجموعات من الدلايات فى أوضاع هندسية بديعة وكان الغرض من إنشاء المدخل الثانوى أن يوصل إلى سطح المدرسة وإلى المئذنة المجاورة له . ويعلو هذا الجزء من الواجهة شرفات جميلة على شكل ورقة نباتية ذات ثلاثة فصوص .

ويلى المدخل الثانوى قاعدة يبلغ طولها (٢-٥٠) من المتر وعرضها (٢-٣٠) من المتر التى تكون الجزء البارز فى هذه الواجهة ، تقوم فوقها مئذنة المدرسة ، ويأتى بعدها حنية المدخل الرئيسى الذى بنى سنة ١٢١٠ هـ وسعتها (٣) أمتار وعمقها (٣٥) سم على جانبيها مكسلتان ويعلوها

عقد ذو ثلاثة فصوص . ويتوسط حنية المدخل باب عرضه (٥٤ـ١) من المتر يعلوه عتب فوقه عقد عاتق زخرفت جميعها برسوم نباتية وهندسية محفورة فى الحجر ، كما يحيط بها جميعها شريط رفيع به زخارف هندسية ينتهى عند جانبي الباب بمربعين بهما زخرفة نجمية ، ويعلو ذلك نافذة مستطيلة يكتنفها عمودان مندمجان ويعلوها عقد مسطح مكون من ثلاثة صفوف من الدلايات ويحيط بالنافذة شريط به زخارف هندسية يشبه ذلك الذى يحيط بالباب وقد ملئت النافذة بضلفتين من الخشب الخرط .

وتنتهى هذه الواجهة بحنية صغيرة العمق تبلغ سعتها (٥٠ـ١) من المتر يعلوها عقد نصف دائرى مفصص فوق نافذة صغيرة مربعة . وتكون هذه الحنية جزءًا من المدخل الرئيسى كما أنها تفصل بين المدرسة والسبيل .

داخل المدرسة :

يؤدى المدخل الجديد إلى صحن المدرسة ، الذى يتكون من مستطيل يبلغ طوله (٧٥ـ١٠) من المتر وعرضه (٥ـ٤) متراً وسقفه مغطى بألواح خشبية يبدو أنها كانت مدهونة برسوم زيتية زالت كلها الآن ، ويتوسطه شخشيخة . ويوجد بالضلع الجنوبى الغربى سدلة صغيرة ، أما الضلع الشمالى الغربى فيقابل السدلة وفتحة المدخل نافذتان تطلان على دورة المياه المجددة حديثاً . ويطل على الصحن إيوان القبلة والايوان المقابل له .

ايوان القبلة :

وهو عبارة عن مستطيل يبلغ سعته (١٥) متراً وعمقه (٧) أمتار ويتقدمه ثلاثة عقود مدببة ترتكز على عمودين من الرخام ، وتطل هذه العقود على الصحن ، وفى صدر إيوان القبلة يوجد محراب مجوف تبلغ سعته (٥٥ـ١) من المتر وعمقه (٢) متران ويكتنفه عمودان من الرخام زخرف الجزء الأسفل منه برسوم زيتية حديثة جداً أما الجزء العلوى وكذا خواصر عقد وشريط فوقه فقد غشى ببلاطات من القاشانى من العصر العثمانى .

ويعلو عقد المحراب وزرة خشبية عريضة بها كتابة محصورة فى اثنى عشر (بحرا) بها كتابة بالخط الثلث تحتوى على اسم مجدد المدرسة الأمير على أغا كتخدا الجاوشية وتاريخ التجديد سنة ١٢١٢ هـ وعلى جانبي المحراب يوجد محرابان صغيران سعة كل منهما (١ـ١)

من المتر يعلو كل منهما عقد عاتق غشيت طبلة كل منهما ببلاطات من القاشانى العثمانى ، وإلى جانب المحراب المجوف يوجد كرسى خشبى مزخرف بطريقة الحفر وبالخرط ، وهو يرجع إلى عهد الأمير على أغا كتخدا .

ويعلو الجزء العلوى من جدار إيوان القبلة أربعة نوافذ معقودة يتوسطها نافذة مستديرة يعلو المحراب المجوف تماماً ، وقد سدت النوافذ الأربعة الآن ، ولعل السبب فى ذلك هو تقوية الجدار ولم يبق غير النافذة المستديرة التى تعلو المحراب ، والتى ما تزال تحتفظ بالجص المعشق بالزجاج المتعدد الألوان الذى يرجع إلى عهد ابن قرقماس فى القرن التاسع الهجرى ، وفى الركن الجنوبى الشرقى لإيوان القبلة يوجد مدفن الشيخ محمد قرقماس .

الايوان الشمالى الغربى :

يقابل إيوان القبلة الإيوان الشمالى الغربى وهو عبارة عن مستطيل تبلغ سعته الان (٧٥ر١٠) من المتر وعمقه (٤) أمتار ، ومن المرجح أن تكون سعتها وقت انشائه فى القرن التاسع الهجرى (١٤) متراً بحيث يكون فى امتداد خط الواجهة الرئيسية وأنه قد اقتطع منه فى وقت التجديد سنة ١٢١٢ هـ (٢٠ر٣) من المتر أدخلت فى مبنى السبيل والكتاب ويتقدم الإيوان ثلاثة عقود ترتكز على عمودين من الرخام ، وهى مقابلة لعقود إيوان القبلة وتطل على الصحن . وفى صدر هذا الإيوان توجد دكة للمبلغ لعله يرجع إلى عهد التجديد ، وفى الضلع الشمالى الشرقى للإيوان توجد فتحة استحدثت فى عهد التجديد تؤدى إلى دورة المياه ، وسقف الإيوان مغطى بألواح خشبية كما هو الحال فى إيوان القبلة وصحن المدرسة .

المئذنة :

تبدو من شكل المئذنة أنها ترجع إلى عهد التجديد الذى حدث للمدرسة سنة ١٢١٢ هـ فهى عثمانية الطراز ، فهى على شكل مسلة متعددة الأضلاع ويتوسطها شرفة متعددة الأضلاع كذلك تقوم على خمسة صفوف من المقرنصات .

السبيل والكتاب :

لقد أنشأ هذه الكتلة المجاورة لمدرسة جنبلاط الأمير على أغا كتخدا الجاوشية سنة ١٢١٢ هـ ولا دخل لها بالمدرسة .

جامع تمراز أو البهلوان

بميدان السيدة زينب

رضوان الله عليها

الأمير تمراز التمشى المحمودى الظاهرى جركس الجنس جلبه إلى مصر الخواجا محمود فى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة ، فاشتراه منه الملك الأشرف برسباى هو وعدة من المماليك الصغار ، كان من بينهم قايتباى الذى كان يمت بصلة القرابة لتمراز فهو ابن أخته . وكان ضريبة كل مملوك خمسين دينارا فلما اشتراهم أنزلهم بالطبقة وقد أظهر تمراز من الفطنة والذكاء ماجعل السلطان برسباى يضمه هو وقايتباى إلى جملة المماليك الكتابية ، واستمر على ذلك حتى توفى الأشرف برسباى وتسلطن الظاهر جمقق فاشتراه من بيت المال على يد جاسوك، وصى الملك الأشرف برسباى هو وعدة من المماليك الكتابية . واستمر فى رق الظاهر جمقق حتى أعتقه . وكان السلاطين يحتفلون احتفالا خاصاً بعتق مماليكهم ، فقد كانوا يخرجون لهم خيلا ويلبسونهم الشاش والقماش وقد تولى تمراز عدة مناصب فى عهد السلطان جمقق فلما توفى الظاهر جمقق وتولى الظاهر بلباى ساءت العلاقة بينهما ، فيذكر لنا ابن إياس فى حوادث سنة ٨٧٢ هـ « أشار الأمير خير بك على السلطان بلباى بأن يمسك الأمير قرقماش الجلب ، والأمير أرغون شاه استادار ، والأمير تمراز ، فأرسل بالقبض عليهم ، وكان الملك الظاهر خشقدم قد أرسلهم إلى نحو الصعيد مع الأمير يشبك ، فأرسل للقبض عليهم من هناك وأرسل بعضهم إلى سجن ثغر الاسكندرية ، أما تمراز فقد أرسل إلى ثغر دمياط فلما وقع ذلك نفرت منه قلوب الرعية ، ولكن سرعان ما استرد الأمير تمراز حريته ومركزه وأملاكه ، إذا لم يستمر السلطان الظاهر بلباى فى الحكم أكثر من شهرين إلا أربعة أيام ، فقد كان كما قيل

---

(١) بدائع الزهور ص ٣٨٨

فيه « جمع بين قبح الفعل والشكل وسوء الطباع ومقت اللسان » . فلما تسلطن الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا ، رسم بالإفراج عن الأمير قرقماس الجلب فأحضره من ثغر الاسكندرية ، والأمير تمراز فأحضره من ثغر دمياط ، وهم من مماليك الأشرف برسباى ، ثم أنعم على الأمير تمراز بتقدمه ألف .

وعلا قدر الأمير تمراز عندما اعتلى قريبه السلطان الأشرف قايتباى كرسى السلطنة فقد كان تمراز من بين المماليك الذين أجلسوه على العرش بعد تنحيه وخلع السلطان السابق الظاهر تمربغا ، وفى ذلك يقول ابن إياس[1] « فلما تمت بيعة السلطان الأشرف قايتباى ، وجلس على سرير الملك وقبلت له الأمراء الأرض ، دخل يشبك من مهدى وتمراز الشمس على السلطان المخلوع تمربغا ، وأقاموه من فوق مرتبته وأدخلوه إلى قاعة البحرة بالقصر الكبير بالقلعة ، وهو فى غاية الإكرام ، ثم أخذوا منه النمجاه[2] والترس والدواة وأحضروها بين يدى الأشرف قايتباى ، ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام » .

وقد عين قايتباى قريبه تمراز ، أحد المماليك المقدمين كاشفاً على أعمال الغربية فقد جاء فى حوادث سنة ٨٧٣ هـ « أن الأمير تمراز الشمس قريب السلطان خرج وتوجه إلى الغربية للكشف على الجسور ، وصار يتوجه إليها فى كل سنة ويقيم بها شهراً » .

وكانت ثقة قايتباى فى الأمير تمراز لاحدود لها ، فقد كان كريم النفس وفياً ورعاً تقياً لايخون من ائتمنه ولو كان خائناً ولذلك فقد كان يكل إليه بالكثير من الأعمال التى كان يخشى عواقبها ، فقد جاء فى ابن اياس « وعين السلطان تجريده ثقيله إلى (سوار) وعين بها من الأمراء المتقدمين يشبك دوردار كبير باش العسكر ، وتمراز ابن أخت السلطان أحد المقدمين » . « فلما فل عن سوار عسكره وأراد الله خذلانه ، فأرسل يطلب الأمير تمراز قريب السلطان ، فلما طلع الأمير تمراز إلى سوار واجتمع به تعلل سوار بأن يلبس

---

(١) بدائع الزهور ص ٣٩٤

(٢) النمجـاه :

خلعة : السلطان ويبوس الأرض ، فقبل تمراز ولكن يشبك لم يوافق وقبض على سوار ثم قتلوه فغضب تمراز غضباً شديداً لأن يشبك لم يمكنه من الوفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه حيال سوار.

وقد كافأ قايتباى الأمير تمراز على إخلاصه وتفانيه فى خدمته ، بأن رقاه إلى وظيفة رأس نوبة النوب ، وكان يصطحبه دائماً فى حله وترحاله ، فقد جاء فى حوادث سنة ٨٨٢ هـ إن السلطان استدعى الأمير تمراز الشمس للاحتفال بالمولد النبوى ، كما حضر القضاة الأربعة وجميع الأمراء ، ولما انتهى المولد قصد التوجه إلى ثغر الاسكندرية فسافر من البر وسافر صحبته الأمير تمراز رأس نوبة النوب . ولما عاد من الثغر إلى القلعة توجه إلى بر الجيزة وكشف عن خيوله وأقام هناك أياماً ثم توجه إلى جهة منوف العلا ، وكشف عن جسورها وأمر بإصلاحها ، وأقام هناك أياما وعاد إلى الجيزة ثم سافر من هناك إلى الفيوم وكان معه فى كل تلك الزيارات الأمير تمراز رأس نوبة كبير .

وقد وقع بين تمراز وبين السلطان خلاف ووحشه كاد يودى به إلى النفى إلى مكة وذلك لأن تمراز رفض أن يترك القاهرة لكى يتولى نيابة الشام ، مخافة أن تغدر به حاشية السلطان، ويقص علينا ابن اياس هذه الواقعة فيقول ، وفى سنة ٨٨٥ هـ عين السلطان تمراز الشمس قريبه لنيابة الشام ، فامتنع عن ذلك ، وادعى الفقر وعدم الرزق ، فوبخه السلطان بالكلام ، فحنق منه تمراز ونزل إلى داره وأغلق بابه ولم يجتمع بأحد من الناس وصرف نقباءه عن بابه وكثر القيل والقال فى ذلك . فأرسل السلطان يقول له توجه إلى مكة وأقم بها بطالا . واستمر فى هذه الحركة أياماً وهو فى اضطراب ، والسلطان يستحثه فى سرعة الخروج إلى مكة ثم ان الأتابكى أزبك مشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فطلع إلى القلعة ، وقابل السلطان ، فخلع عليه ونزل إلى داره فى موكب حفل وقد زال ما بينه وبين السلطان من الوحشة بسبب نيابة الشام .

ومن الأحداث التى أثرت فى الأمير تمراز وهزت مشاعره وفاة زوجته خوند بنت الملك المنصور ، وكانت شابة جميلة ، فقد ماتت نفساء بعد أن وضعت وليدها الذكر . فحزن تمراز حزناً شديداً أرقده الفراش فترة طويلة ، فأراد السلطان أن يسرى عنه فقرره فى أمرية سلاح ثم أخذ يترقى فى أكبر وظائف الدولة حتى وصل إلى وظيفة الأتابكية سنة ٩٠١ هـ كما خلع عليه السلطان فى نفس السنة وأقره فى نظارة البيمارستان المنصورى فتوجه إلى هناك فى موكب حافل .

ولما مرض السلطان قايتباى مرض الموت أمر أن ينوب عنه الأمير تمراز فى الاحتفال بوفاء النيل وبفتح السد ، فطلع تمراز إلى القلعة ولبس خلعة خاصة بهذا الاحتفال ، ولما اشتد المرض على السلطان واضطرب الأمن فى البلاد ، طلع الأتابكى تمراز إلى القلعة كما يقول ابن اياس ، ودخل على السلطان فى البيت فوجده فى النزع الأخير ، فقال له « يامولانا السلطان إن الأحوال قد فسدت ، ومن الرأى أن تسلطن سيدى محمد » فلم يرد السلطان جوابا ، فأخذ تمراز سيدى محمد بن السلطان ، وكان فتى صغيرا لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ونزل به إلى باب السلسلة (بالقلعة) فأجلسه فى المقعد الذى هناك وجلس معه ليوليه السلطنة ، فلم يشعر تمراز إلا وقد هاجمته العساكر كالجراد المنتشر فقبضوا عليه وقيلوه وسجنوه بالبرج الذى بباب السلسلة ، ثم فى عقيب ذلك اليوم نزلوا به وهو مقيد بقيدين أحدهما برجليه والآخر بركبتيه وخلفه أوجاق (جندى) بخنجر فنزلوا به من باب الميدان وتوجهوا به إلى البحر فأنزلوه فى الحراقة (مركب) وتوجهوا به إلى الاسكندرية فسجن بها وكان ذلك سنة ٩٠١ هـ . ومنذ ذلك التاريخ لم نسمع عن تمراز شيئا .

وكان الأمير تمراز واسع الثراء بل قيل إن ثروته تكاد تعادل ثروة السلطان مما جعل بعض المحتالين والمدجلين يحتالون عليه هو والسلطان بقصد ابتزاز بعض أموالهم فقد حدث سنة ٨٨٥ هـ أن أوحى شخص يقال له على بن محمد المرجوشى إلى السلطان وكذلك الأمير تمراز بأنه يعرف صناعة الكيمياء ، فانصاع له السلطان وتمراز حتى أتلف عليهما جملة مال له صورة (نقود) ولم يستفيدا من ذلك شيئا . وقد ساعد تمراز ثروته الطائلة من إنشاء كثير من العمائر لم يبق منها غير مسجده الذى دفن به .

ويعرف مسجد تمراز أيضا باسم جامع بهلول ، وقد بحثت فى كتب التراجم والطبقات عن ضريح أو زاوية لشيخ أو صوفى اسمه بهلول عاش أو دفن فى هذه المنطقة التى أقيم عليها المسجد ، فلم أجد غير المتصوف بهلول بن إسحاق الإنبارى المتوفى سنة ٢٩٨ هـ ، وقد جاء ذكره فى النجوم الزاهرة[١] أنه توفى بمصر ولكن لم يحدد مكان زاويته أو ضريحه ، كما ذكره العينى[٢] وأبو فرج بن الجوزى[٣] .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٧٧

(٢) عقد الجمان العينى .

(٣) المنتظم لأبى فرج بن الجوزى .

وصف المسجد

يقع هذا الجامع بشارع اللبودية تجاه قنطرة عمر شاه ، كما يقول على مبارك ، والواقع أن هذا الجامع كان يقع على ضفاف الخليج المصرى الذى كان يبدأ من فم الخليج وينتهى عند السويس ، وكان أمام المسجد وعلى الخليج قنطرة تعرف باسم قنطرة عمر شاه ، فلما ردم الخليج وأصبح شارعا ، عرفت المنطقة باسم حى عمر شاه ، كما عرفت محطات الترام والأوتوبيس باسم عمر شاه كذلك . ولما وسع ميدان السيدة زينب دخلت منطقة عمر شاه فى الميدان وعلى ذلك نستطيع القول بأن المسجد يقع اليوم فى ميدان السيدة زينب بالقرب من بركة الفيل ، وهو من أجمل مساجد الميدان بعد مسجد السيدة زينب رضوان الله عليها.

وتقع واجهة المسجد الرئيسية فى الجهة الغربية وهى التى تطل على ميدان السيدة زينب ويوجد بها المدخل الرئيسى وباب آخر صغير فى الطرف الجنوبى من المسجد يؤدى إلى الميضأة وإلى السبيل ومنه يصعد إلى الكتاب أعلى السبيل . وفى الطرف الشمالى من المسجد يوجد ضريح الأمير تمراز وهو عبارة عن حجرة مربعة الشكل وبكل ركن من أركان الحجرة توجد خمسة صفوف من المقَرنصات تقوم فوقها رقبة مستديرة تعلوها القبة وبين مقرنصات الأركان توجد أربع نوافذ مستديرة كما يوجد برقبة القبة أربعة نوافذ أخرى كلها مملوءة بالجص والزجاج المتعدد الألوان . كما يوجد بالضلع الغربى للضريح نافذتان على الشارع على واجهة المسجد . والمسجد مستطيل الشكل يتوسطه صحن مربع صغير جدا منخفض ومفروش بالفسيفساء الرخامية يحيط به من ثلاث جهات صفان من البوائك المكون من عقود حجرية مدببة يقوم بعضها على أعمدة رخامية تيجانها كورنثية والبعض الآخر على دعائم حجرية . أما الجهة الرابعة للصحن وهى الجنوبية فيوجد بها باب صغير يؤدى إلى دورة المياه السابق ذكرها ، ويعلو الصحن (شخشيخة) مربعة للتهوية والإنارة .

وفى منتصف حائط القبلة يوجد محراب كبير على جانبيه حنيتان فتحت فيهما نوافذ ، ويعلو المحراب كتابة محفورة فى الحجر نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر – إلى آخر الآية » وبجانب المحراب منبر أثرى يرجع إلى تاريخ الأمير تمراز منشىء المسجد فقد كتب على أحد جوانبه « أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك الجناب العالى السيفى أمير آخور تمراز » وعلى الجانب الآخر « وكان الفراغ من عمل هذا المنبر المبارك فى شهر المحرم من سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ، إن الله وملائكته يصلون – إلى آخر الآية » وفى منتصف الإيوان الغربى للمسجد يوجد مقصورة خشبية يعلوها قبة من الخشب المنقوش مذهبة بأسلوب العصر العثمانى . وبداخل المقصورة توجد مقبرة عليها تركيبة من الرخام كتب على أحد جوانبها منها ما يلى .

كان الموت حيث يدرك نفس — بجوار البهلول زخرفت رمس
ارتجى عفو خالقى ورضـــاه — تنتقى وحشتى ويحصل أنسى
هكذا شأن أهل بيت نبى — اذهب الله عنهم كل رجس
مذ رأيناك يابن محمود تسعى — يسعى خير برٍ قلت لنفسى
فى مراقى الفلاح قد أرخوه — أبدا يرتقى محمد شمس
سنة ١٢٣٠ هـ

ومن هذه الأبيات نفهم أن القبر أصله للشيخ بهلول الذى بنى له الأمير تمراز المسجد ، ثم دفن بجواره بداخل المقبرة محمد الشمس ، ويحدثنا على مبارك[١] عن محمد الشمس فيقول : وبمسجد تمراز الأحمدى ضريح السيد محمد الشمس كان سروانا (ياوراً) لمحمد على وعلى الضريح تركيبة رخام عليها مقصورة خشب ، » ثم يصف المسجد فيقول « وبجواره من تعلقاته سبيل فى سقفه نقوش مذهبة وعليه مكتب عامر . وكان ذلك المسجد قد تخرب وجدده الأمير حسن أفندى ووقف عليه ثلاثة حوانيت أسفله (لا وجود لها الآن) وسبعة حوانيت تجاه القنطرة بمقتضى وقفية مؤرخة سنة ١١٩٠ هـ وفيها اشترط أن يصرف ريع ذلك على مصالح شعائر مسجد تمراز الأحمدى . وقد نقش تاريخ هذا التجديد على لوح رخامى وضع على واجهة الباب الموصل بين المسجد ودورة المياة سنة ثمانين بعد المائة والألف سنة ١١٨٠ هـ .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٤ ص ٧٠

جامع يشبك

بالقبة الفداوية

سنة ٨٨٤ هـ

كان الأمير يشبك من مهدى أحد أمراء دولة المماليك الجراكسة . تقلّد عدة وظائف حتى وصل إلى درجة دويدار كبير . فقد كان يشبك من مهدى يشغل وظيفة كاشف (حاكم) الوجه القبلى فى عهد السلطان الظاهر تمربغا ، فلما خلع السلطان عن عرشه ، كلف يشبك من مهدى ومعه تمراز الشمسى بمهمة تنحيته عن كرسى العرش ليجلس عليه السلطان الجديد الملك الأشرف قايتباى . وفى ذلك يقول ابن اياس : ثم دخل يشبك من مهدى وتمراز الشمسى على الظاهر تمربغا وأقاموه من فوق مرتبته وأدخلوه إلى قاعة البحر وهو فى غاية الإكرام ، ثم أخذوا منه النمجاة والترس والداواة (شارات السلطنة) وأحضروها بين يدى الأشرف قايتباى » . وقد كافأ قايتباى يشبك من مهدى على عمله هذا بأن خلع عليه (أى أعطاه خلعة) وقرره فى الداودارية الكبرى . وقد أخلص يشبك فى خدمة السلطان قايتباى سواء فى الأعمال الداخلية أو فى الحروب الخارجية التى قام بها ليقضى على الفتنة التى قام بها حسن الطويل فى بلاد الشام مما جعل السلطان يخلع عليه خلعة حافلة كخلعة الأتابكى (أكبر وظيفة فى الدولة بعد السلطان) وقرره فى الوزارة مضافا للدوادارية الكبرى . وقد اتصف الأمير يشبك بالقسوة والعنف فى معاملاته للناس ، فيذكر ابن اياس « إنه فعل ببلاد الصعيد من المظالم ما لم يسمع بمثله حى أنه شوى بالنار محمودا شيخ بنى عدى وخوزق من العربان جماعة ، وسلخ جلد جماعة ودفن جماعة فى التراب وهم أحياء ، وفعل بالعربان من أنواع هذا العذاب ما لم يفعله أحد قبله فدخل الرعب فى قلوبهم ، فلما صعد الأمير يشبك إلى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنيّة

ونزل إلى داره فى موكب حافل » . وهكذا كان يشبك يخرج عن الحدود المشروعة فى معاملة الناس ابتغاء إرضاء السلطان .

ولم تقتصر أعمال الأمير يشبك على الأعمال الإدارية والحربية فحسب بل شملت كذلك الأعمال المعمارية ، فقد أنشأ الكثير من الآثار التى ما يزال بعضها باقيا حتى الان منها القبة وملحقاتها (القبة الفداوية) وقبة ومدرسة بحى القبة . فقد أمر الأمير يشبك بإزالة القبور والدور الممتدة بين العباسية وحى الحسينية وأن يقام مكانها مناظر (جمع منظرة وهى استراحة للنزهة) وحوض كبير وقبة كبيرة أمامها بساتين ومشاتل. وأقام إلى الجنوب من هذه القبة تربة كبيرة ألحق بها مساكن للصوفية وشيخهم ، وبنى تجاه التربة مسجدا وسبيلا وحوضا لشرب الدواب ثم شق ترعة كبيرة لتوصيل المياة إلى البساتين حتى صارت المنطقة من أبهج المتنزهات . وكان الغرض الأصلى من إنشاء هذه القبة هو أن تكون منظرة ينزل بها يشبك أو السلطان للراحة والرياضة وأقيم بها محراب للصلاة .

وقد ذاعت شهرة هذه القباب حتى عرفت الأحياءُ الموجودة بها بأسمائها ، فقد عرف الحى الذى يقع بين حى العباسية والحسينية باسم القبة الفداوية وغلبت هذه التسمية على اسم السلطان قايتباى وعلى اسم الأمير يشبك . والفداوية هى طائفة من الشيعة الإسماعيلية ، يعتقدون كما يقول ابن فضل الله العمرى (أن كل من ملك مصر كان ظهيرا لهم ولذلك يرون إتلاف نفوسهم فى طاعته . وكان لمشايعتهم هذه لملوك مصر أكبر الأثر فى إرهاب أعدائهم . وكان من تقاليدهم أن من جبن عن أداء رسالته أو هرب . قتله أهله ، ولا يبالى الفداوى أن يؤدى رسالته ولو قتل بعدها . وقد ورد فى قوانين دواوين المماليك البحرية أنه كان يدخل فى اختصاص رئيس ديوان الإنشاء النظر فى أمر الفداوية ، وكان لملوك الإسلام عناية كبيرة بهم . وممن عنى بهم الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، فقد عهد إليهم ببعض الأعمال فى الحروب التى خاضها ضد المغول فى عين جالوت وفى معاركه ضد الصليبيين والتى كتب له النصر فيها جميعا وكذلك عنى بهم الملك الأشرف خليل بن قلاوون والناصر محمد بن قلاوون فرتبوا لهم المرتبات والهبات الكثيرة وخلعوا عليهم الخلع كما قرروا لهم دورا ومساكن خاصة) .

وقد عرفت طائفة الفداوية فى البلاد العربية والإسلامية باسم الاسماعيلية أما بلاد الفرنجة فقد كانت تطلق عليهم الحشيشية . وأما فى مصر فقد عرفوا بالفداوية وذلك لاسترخاصهم الحياة فى سبيل سيادتهم الروحية ، وقد أنشأ لهم الأمير يشبك مساكن بجانب القبة فعرفت القبة باسمهم ومن بعدها الحى كله . وفى القرن الثامن الهجرى عرفت طوائف الفداوية باسم (المجاهدين » كما أطلق على كبيرهم (أتابك المجاهدين) . وفى القرن الثانى عشر الهجرى كانوا يسمون كبيرهم والمتحدث باسمهم (مقدم الفداوية) أو شيخ الفداوية ، بل إنهم بلغوا من الشهرة أن كان يطلق لقب الفداوية على الأشداء من الرجال .

أما القبة الثانية التى أنشأها الأمير يشبك سنة ٨٨٤ ، والتى ما تزال قائمة حتى اليوم بحى القبة ، فقد نسبت خطأ إلى السلطان الغورى ، ونشأ هذا الخطأ أن السلطان كان كثير التردد عليها للنزهة . وقد بنى الناس قرية جديده حول هذه القبة فى القرن الحادى عشر الهجرى ، أى فى العصر العثمانى عرفت باسم قرية القبة نسبة إليها ، ومن هنا أتى اسم الأحياء المعروفة الآن باسم حدائق القبة وسراى القبة وحمامات القبة وكوبرى القبة من ضواحى القاهرة الشمالية .

وتخطيط القبة الفداوية فريد فى نوعه ، فقد أقيمت القبة على دور أرضى مكون من ثلاث قاعات مستطيلة ارتفاعها خمسة أمتار ومغطاة بسقوف مقببة على شكل نصف دائرة . وعلى هذا الدور أقيم بناء مربع يبلغ طول ضلعه عشرين مترا تقريبا من الحجر الجيرى وقد بنى على المربع منطقة انتقال بين المربع والدائرة مكونة من أربعة عقود بداخل كل منها ثلاث مقرنصات فى وضع هرمى ملىء المقرنص العلوى منها بدلايات غاية فى الدقة والجمال . وأقيم على منطقة الانتقال رقبة بها ست عشرة نافذة ، وزخرفت من الداخل بشريط من الكتابة بالخط الثلث المملوكى الجميل لم يذكر فيه اسم منشئ القبة الأمير يشبك بل ذكر اسم السلطان قايتباى وفيما يلى نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة — إلى نهاية الآية ، إن الدين عند الله الإسلام) » قل اللهم مالك الملك حتى آخر الآية) . اللهم وأدم عز مولانا

ولى النعم سيد ملوك العرب ، والعجم ناصر دين الله ، حافظ بلاد الله قسيم خليفة الله ، الحاج إلى بيت الله ، الفائز بزيارة قبر رسول الله السلطان ، الملك ، الأشرف أبو النصر قايتباى خلد الله سلطانه وأفاض على البلاد والعباد جوده وإحسانه من فضله الله بالحج والزيارة على ملوك البرية وناداه ربه فحج فى سنة أربع وثمانين وثمانمائة » .

وعلى الرقبة أقيمت قبة مبنية من الطوب المكسى بطبقة من الجصّ من الخارج أما من الداخل فقد زخرفت جدران المربع والعقود والمقرنصات والرقبة وقطب القبة بنقوش من الجص الملون . وترتفع القبة على مستوى أرض الشارع بمقدار ٤٫٢٥ من المتر . ولذلك فإنه يصعد إليها بدرج مرتفع . ويقع المدخل الرئيسى للقبة فى الجهة الجنوبية منها وقد حليت أعتابه بالرخام الملون . كما حليت أعتاب النوافذ الموجودة بجدران المربع.

ويصف الرحالة النابلسى هذه القبة فيقول : « زرنا جامع اليشبكية نسبة إلى يشبك من مهدى فصعدنا إليه فإذا هو جامع عظيم فى أحسن ترصيف وأقوم وأكمل بنيان وأجمل إتقان وبجانبه مساكن وقصور وبيوت ، وهناك بركة كبيرة يستخرج إليها الماء بالمدار (بالساقية) وفى جانبها قصر مطل عليها بشبابيك ينطلق منها البصر فى فسيح تلك الأقطار » .

وفى نهاية القرن التاسع عشر قامت مصلحة الآثار بعدة ترميمات لهذه القبة كما أزالت المبانى التى كانت تحجب واجهتها الشرقية ، فهدمت مركزا للدخولية (الضريبة التى تفرض على كل ما يدخل القاهرة من صناعات ومأكولات) وغيره من المبانى وبذلك أصبح هناك ميدان فسيح أمام الواجهة الشرقية ولذا اضطرت المصلحة لفتح باب فيها . وقد سجل هذا الترميم على لوحة تذكارية كتب فيها (رممت القبة فى سنة سبع عشرة وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة) . كما نقلت مصلحة الآثار إلى القبة منبر مسجد كاتم السر بشارع بورسعيد (درب الجماميز سابقا) وهو عبارة عن منبر صغير طعمت حشواته المجمعة بالصدف والعاج والأبنوس ويرجع تاريخه إلى نفس تاريخ إقامة القبة أى إلى القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى .

مدرسة أبو بكر بن مزهر

سنة ٨٨٥ هـ بحارة برجوان
بحي الجمالية

هو زين الدين أبو بكر محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الخالق بن عثمان الزين بن البدر بن البدر الأنصارى الدمشقى الأصل القاهرى الشافعى[١] ، ولد بالقاهرة فى رجب سنة ٨٣١ هـ ، مات أبوه وهو صغير فنشأ يتيما وتربى فى حجر السعادة[٢] على أيدى الفقهاء حتى حفظ القرآن الكريم والعمدة والمنهاج والقبة النحو وغيرها ، وعرض فى صباه على أفاضل العلماء ، كابن القادرى والعلم البلقينى وتعلم اللغة التركية وأجاز له فقهاء من مكة والمدينة وبيت المقدس والقاهرة ودمشق[٣] وغيرها .

تقدم أبو بكر بن مزهر بمجالسة أهل العلم حتى تميز وتهذب وفوض إليه التكلم فى القضاة ، حج أكثر من مرة ، آخرها مع والدته سنة ٨٧١ هـ وقد بدأها بزيارة المدينة المنورة حيث صلى بالناس إماما ، وعرضت عليه خطابتها فامتنع عنها تأدبا منه . وشارك

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ ١٢ ص ٢٥ ، ٢٦

(٢) ذكر المقريزى على لسان ابن عبد الظاهر أن : الحجر قريب من باب النصر ، وهو مكان كبير فى نصف دار الوزارة ، إلى جانبه باب القوس الذى يسمى باب النصر قديماً على يمنة الخارج من القاهرة وكانت تربى فيه جماعات من الشباب يسمون صبيان الحجر يكونون من جهات متعددة ، ولكل حجر اسم يعرف به كالمنصورة والفتح والسعادة وغيرها ، وكان صبيان الحجر على مثال الزوابة والأستار ، وكانوا إذا سمى الرجل منهم بعقل وشجاعة خرج من هناك إلى الأمرة والتقدمة ، والصبيان الحجرية حجرة مفردة ، عليهم استاذون يبيتون عندهم وخدام برسمهم .

راجع المقريزى : الخطط : جـ ٢ ص ١٩٢

(٣) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ ١١ ص ٨٨

فى العديد من الرحلات والحفلات والمجالس ، وكان على رأس أرباب الدولة الذين مشوا أمام محفة خوند فاطمة زوجة السلطان قايتباى عندما حجت فى سنة ٨٧٩ هـ[١] ، كما صاحب السلطان فى رحلته إلى بيت المقدس لزيارة قبر الخليل إبراهيم عليه السلام والمسجد الأقصى[٢] .

وفى جمادى الأولى سنة ٨٩٣ هـ سافر إلى نابلس وبصحبته الأمير اقبردى الدوادار الكبير لإعداد الرجال لقتال السلطان بايزيد العثمانى ، ورجع بعد تجهيز الحملة مريضا إلى القاهرة[٣] . —

كان ابن مزهر يتمتع بقسط وافر من المال والثروة وآية ذلك أن بركة الرطلى[٤] التى كان يقطن فيها لم تشهد من الأفراح والولائم ما شهدته فى حفل ختان أولاده الذى تم فى شعبان سنة ٨٨٦ هـ ذلك الحفل الذى استمرت فيه الوقدة وحراقة النفط كما يقول ابن اياس (ثلاث ليال متوالية)[٥] ، كان ليل البركة فيها كأنه نهار ولم تغب شمسه من كثرة ما سطع فيه من أضواء ، وقد وصف الشمس القادرى ذلك فى بيت شعرى قال فيه :

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها وكأن الشمس لم تغب

كان أبو بكر بن مزهر رجل مروءة ووفاء ، أدى للناس الكثير من الخدمات والشفاعات منها أنه ساعد فى ذى الحجة سنة ٨٧٧ هـ صاحب صهاب الدين أبو العباس أحمد بن المحوجب الدمشقى الشافعى وأقره فى خطابه المسجد الأقصى[٦] . وكانت شفاعاته مقبولة

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٣ ص ١٠٠ .

(٢) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل جـ ٢ ص ٦٤٧

(٣) مجير الدين الحنبلى : المرجع السابق جـ ٢ ص ٦٧٣ ، ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٣ ص ٢٤٥

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٥٨١

هذه البركة من جملة أرض الطبالة عرفت ببركة الطوابين لأنه كان يعمل فيها الطوب . فلما حفر الناصر الخليج الناصرى جعله يمر من ظاهرها فروى ماؤه أرضها ، وعرفت أيضاً ببركة الحاجب لأنها كانت بيد الأمير بكتمر الحاجب وكان فى شرقها زاوية بها شخص يصنع الأرطال الحديد التى توزن بها فسماها الناس بركة الرطلى .

(٥) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٣ ص ١٨٠ ، ١٨١

(٦) مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل جـ ٢ ص ٦٢٩

لدى السلطان مجابة عنده ، ولم تكن مكانة ابن مزهر المرموقة قاصرة على صلته بالسلطان، بل كانت له نفس المكانة لدى العامة ، إذ لولا شفاعته عندهم فى ناظر الخاص العلائى ابن الصابونى ـ الذى كان قد ضرب نقودا جديدة فى رمضان سنة ٨٨٦ هـ وأراد أن يخرجها بثمن أغلى من النقود القديمة ـ الأمر الذى أثار عليه العامة فى المجلس الذى عقد بالمدرسة الصالحية بحضرة السلطان[١] وقد هدّأ الموقف عطف ابن مزهر وتسامحه وتدخله بالوساطة لدى العامة للعفو عن المذكور .

ومما يدل على تسامح ابن مزهر أنه استخدم شخصا يدعى (يوسف) يهودى الديانة كلفه بالقيام على عمارة مدرسته وظل هذا اليهودى يطالع كتب الدين الإسلامى حتى اهتدى آخر الأمر إلى الإسلام[٢] .

توفى ابن مزهر بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال أثر مرض لازمه فترة طويلة وكانت وفاته فى يوم الخميس سادس رمضان سنة ٨٩٣ هـ ودفن ليلة الجمعة فى تربته التى كان قد أنشأها قبل وفاته بالصحراء .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ ٣ ص ١٨٤

(٢) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع جـ ١٠ ص ٣٤٠

الوصف المعماري

تقع مدرسة أبو بكر مزهر فى حارة برجوان المتفرعة من شارع المعز لدين الله بحى الجمالية بالقرب من سوق العصر ، ويحدثنا المقريزى[1] عن حارة برجوان فيقول إنها عرفت بهذا الاسم نسبة إلى الأمير برجوان وزير الخليفة الحاكم بأمر الله ، وكان موقع هذه الحارة (فى العصر الفاطمى) بالقرب من الميدان المجاور للقصر الغربى الصغير ، ويعرف الآن بحى الخرنشف[2] والذى حرفته العامة فأصبح يعرف (بحى الخرنفش) وكان حى برجوان يشتمل على « دار برجوان ودار الضيافة ورحبة الأفيال »[3] .

وتتكون مدرسة أبو بكر مزهر من مستطيل تبلغ مساحته من الخارج (٢١٫٥) متراً ١٨٫١٠) من المتر ومن الداخل (١٩٫٥ × ١٥) مترا .

الوصف الخارجى :

تقع الواجهة الرئيسية للمدرسة فى الضلع الشرقى للمدرسة ويبلغ طوله (١٨٫١٠) من المتر ويشمل جدار إيوان القبلة ويبلغ طوله (١٢) مترا ويتكون من حنيتين يفصل بينهما بروز حنية المحراب من الخارج ، ويبلغ عمق كل حنية (٢٥ر) من المتر . وتحتوى كل حنية على نافذة مستطيلة يبلغ ارتفاعها (٢٫٧٥) من المتر وعرضها (١٫٥) من المتر مملوءة بمصبعات حديدية ، ويعلو النافذة عتب مكون من صنجات معشقة يعلوه عقد عاتق ، ويعلو النافذة السفلى نافذة أخرى علوية مستطيلة الشكل يبلغ طولها (٢٫١٠) من المتر وعرضها (١٫٥) من المتر ويعلوها عقد نصف دائرى وهو مملوء بجص معشق بزجاج متعدد الألوان ،

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٦٢

(٢) الخرتشف : هو متخلفات وقود الحمامات ، وكانت تلك المنطقة توجد بها حمامات القصور الفاطمية .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع جـ ١١ ص ٨٨

ويوجد أعلى بروز المحراب نافذة مستديرة قطرها (١٫٢٥) من المتر مملوءة بجص مخرم ومتعدد الألوان .

وتنتهى كل حنية من أعلى بصفين من الدلايات يعلوها شرافات الواجهة ، ويشغل الركن الشمالى الشرق من الواجهة الرئيسية مدخل المدرسة الرئيسى ويبلغ عرضه (٦٫١٠) من المتر وهو يرتفع عن مستوى الشارع بمقدار (٣٫٥) أمتار ومن ثم فإن مدرسة أبو بكر مزهر تعتبر من المدارس المعلقة إذ يوجد تحتها طابق أرضى ويصعد للمدخل الرئيسى بخمس درجات حجرية ، ويتوسط المدخل حنية كبيرة يبلغ عمقها (١٫٥) أمتار يعلوها عقد ذو ثلاث فصوص ملئت بمجموعات من الدلايات بديعة التكوين ، ويتوسط الحنية فتحة الباب الذى يبلغ ارتفاعه (٢٫٢٥) من المتر وسعته (١٫٩٠) من المتر ويكتنفه مكسلتان حجريتان طول كل منهما (١٫٤) أمتار وعرضها (٠٫٦) أمتار . ويعلو الباب عتب من البازلت الأسود ويعلوه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة ويكتنفه حشوتان مزخرفتان ، وفوق العقد توجد نافذة مستطيلة تبلغ مساحتها (٠٫٧ × ٠٫٦) من المتر مملوءة بمصبعات حديدية ، ويعلوها نافذة ثانية طولها (٢٫٦) أمتار وعرضها (٠٫٦٠) من المتر مملوءة كذلك بمصبعات حديدية ، وفوق النافذة الثانية نافذة ثالثة يبلغ طولها مترا وعرضها (٠٫٩) أمتار يعلوها عتب مكون من صنجات معشقة ويتوجه صفان من الدلايات .

ويقفل على باب المدخل الرئيسى ضلفتان من الخشب المصفح المحتوى على زخارف نباتية وهندسية وكتابية بعضها مخرم ، جددت معظمه لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٣١٥ هـ ويؤدى المدخل الرئيسى إلى (دركاة) ردهة تبلغ مساحتها ٣٫٥ × ٢٫٨٥) من المتر وارتفاعها (٩٫٥) مترا يغطيها سقف خشبى مزخرف بنقوش زيتية ، وأرضيتها مفروشة بفسيفساء رخامية . ويتصدر الدركاة جلسة حجرية يبلغ طولها (٣٫٥) أمتار وعرضها (٠٫٧) أمتار ويعلو الجلسة نافذة مستطيلة يبلغ طولها (٢٫٨) أمتار وعرضها (١٫٥) أمتار مملوءة بمصبعات حديدية وفى الضلع الجنوبى للدركاة يوجد باب ارتفاعه (٢٫٥) أمتار وعرضه (١٫٥) أمتار يعلوه عقد نصف دائرى يؤدى إلى دهليز طوله (٥٫٢٥) من المتر به عدة انكسارات يفضى فى النهاية إلى صحن المدرسة . ويغطى الدهليز سقف خشبى مزخرف بنقوش

زيتية بديعة التكوين بينها رنك المنشئ وهو الدواة ، كما احتوت على كتابات تذكارية من ثلاثة سطور نصها :

١ - شرع فى تجديد هذا المسجد المبارك فى عصر ساكن الجنان الخديو الأعظم محمد توفيق .

٢ - باشا سنة ثلاثة مائة وألف وانتهى فى عصر ولى النعم الخديوى الأعظم عباس حلمى باشا

٣ - الثانى بمباشرة لجنة حفظ الآثار العربية عام خمسة عشرة وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية .

الوصف من الداخل :

يتوسط المدرسة صحن مستطيل الشكل يبلغ مساحته (١٠ × ٨٫٢٥) من المتر وارتفاعه (٩٫٥) مترا يغطيه سقف خشبي تتوسطه فتحة مثمنة الشكل (شخشيخة) طول كل ضلع منها (٢٫٥) أمتار وارتفاعها (١٫٧) أمتار فتح بكل ضلع ثلاثة نوافذ مستطيلة ، وتنخفض أرضية الصحن على الإيوانات الأربعة التى تحيط به بمقدار (٠٫٢٥) من المتر ويغطى أرضية الصحن رخام متعدد الألوان فى تكوينات هندسية جميلة . ويكتنف الإيوانين الشمالى والجنوبى بابان خشبيان يفتحان على الصحن تؤدى جميعها إلى ملحقات المدرسة والسبيل والكتاب إلى مدخل المدرسة وإلى إيوان يقال له بئر[1] الزيت (أى زيت القناديل) .

ويقع إيوان القبلة فى الضلع الشرقى للصحن ، وهو مستطيل الشكل تبلغ مساحته (١٠ × ٧٫٢٥) من المتر يفتح على الصحن بثلاثة عقود نصف دائرية ممتدة تقوم على عمودين مثمنين ، وكتفين ملتصقين بالجدار . ويوجد فى الضلع الشمالى والجنوبى لهذا الإيوان صفان من النوافذ علوى وسفلى يتكون كل صف من نافذتين مستطيلة الشكل تبلغ طولها متران وعرضها (١٫١٥) من المتر يعلوها عقد مدبب ومملوءة بالجص المعشق بالزجاج

---

(١) عاصم محمد رزق : مسجد أبو بكر مزهر ص ٦٢

المتعدد الألوان . ويوجد فى الضلع الشمالى حنية يتقدمها ضلفة خشبية مزخرفة بالحشوات المجمعة ومطعمة بالصدف والعاج تستعمل لحفظ المصاحف وما إليها (كتبية) .

أما الجدار الشرقى ، فقد سبق الإشارة إلى نوافذه ، عند الحديث عن الواجهة الرئيسية ، ويتصدره محراب مجوف يبلغ عمقه (٧ر) وسعته (١ر١) أمتار وارتفاعه (٤) أمتار يعلوه عقد مدبب ويكتنفه عمودان مثمنان الشكل من حجر السماق الأصفر[١] . وقد زخرفت حنيته بالفسيفساء الرخامية ، ويعلو المحراب نافذة مستديرة الشكل (قمرية) سبق الاشارة إليها مع الواجهة الرئيسية ، وعلى يمين المحراب يوجد منبر خشبى يتكون جانبيه (ريشتيه) من حشوات مجمعة مطعمة بالعاج والصدف ويعلوها إزار من خشب الخرط وقد نقش على باب المنبر كتابة تذكارية نصها :

« بنى منبر بحديقة فى روض مجد مزهر (وكان) فراغه منه عام خمس وثمانين وثمانى مائة » ونقش أعلى باب المنبر كتابة قرآنية نصها : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » .

كما كتب على باب الروضة نصان هما :

عمرت لمسجد بالذكر باق بمنبره اللطيف المستديم
أيا من قد بنى لله بيتا لك التعويض من رب كريم

وعلى الجانب الثانى من باب الروضة كتب :

ستلقى فى غد بيتا عظيما بناه الله فى دار النعيم
تجاه محمد خير البرايا نبى الله ذو الجاه العظيم

ويقابل إيوان القبلة الإيوان الغربى وتبلغ مساحته (١٠ × ٥ر٤) مترا ، يفتح على الصحن بثلاثة عقود مدببة ممتدة ترتكز على عمودين وكتفين ملتصقين بالجدران .

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ١١٣

ويوجد بالضلع الشمالى والجنوبى لهذا الإيوان بابان تتقدمهما ضلفة خشبية مزخرفة بحشوات مجمعة يؤدى الشمالى منهما إلى ردهة تؤدى إلى غرفة مستطيلة ، ويؤدى الباب الجنوبى إلى ردهة تنتهى إلى سلم يصعد منه إلى سكن إمام المدرسة وإلى دكة المبلغ ويعلو البابين عتب خشبي مزخرف فوقه نافذة مستطيلة مملوءة بجص معشق بزجاج متعدد الألوان .

ويتصدر الإيوان الغربي ثلاث نوافذ سفلية مستطيلة الشكل ارتفاع كل منها (٣ر٩٥)م وعرضها (٥ر١) أمتار مملوءة بمصبعات حديدية ، يعلو المتوسط منها دكة المبلغ ، المصنوعة من خشب الخرط وصفوف من الدلايات المطلية باللونين الأسود والذهبي . ويكتنف دكة المبلغ نافذتان علويتان مستطيلتان مملوءتان بالجص والزجاج المعشق .

أما الإيوانان الشمالى والجنوبى (السدلتان) فمتشابهان ، إذ تبلغ مساحة كل منهما (٥ر٣ × ٥ر٢) م يفتح كل منهما على الصحن بعقد نصف دائرى ممتد يرتكز على كتفين ملتصقين ويحتوى كل إيوان على نافذتين مستطيلتين ، السفلى مملوءة بمصبعات حديدية والعليا بالجص المعشق بالزجاج الملون ، ويغطى الإيوانين سقف خشبي مزخرف بنقوش زيتية متعدد الألوان ، والأرضية مفروشة برخام متعدد الألوان .

المئذنة :

تعلو المئذنة الركن الشمالى الشرقى للواجهة الرئيسية الشرقية ، وهى تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها (٧٥ر٢) م وارتفاعها (٩٠ر٤) م ، وتتكون من ثلاثة طوابق ويبلغ مجمل ارتفاعها (٥ر١٨) م . ويتكون الطابق الأول من شكل مربع يبلغ ارتفاعه (٥ر٧) أمتار يحيط ببدنه ثمانية أعمدة تعلوها عقود مدببة ، وبكل ضلع من أضلاع المربع توجد نافذة ضيقة عرضها (٢٠ر) م وطولها (٦٠ر١) م بتقدمها شرفة صغيرة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات ، ويفصل بين الطابق الأول والثانى شرفة تقوم على أربعة صفوف من الدلايات فى تكوينات هندسية بديعة .

ويتكون الطابق الثانى من شكل دائرى يبلغ ارتفاعه (١٠ر٦) م زخرف بدنه بنقوش هندسية مكون من خطوط متداخلة يتوسطها شكل نجمى متعدد الرؤوس ، ويتكون الطابق الثالث من جوسق ذى ثمان أعمدة يبلغ ارتفاعها (٩٠ر٤) م ، وهى مثمنة الشكل ومن الرخام الأبيض يعلو تيجانها ثلاثة صفوف من الدلايات ، ويفصل بين الطابق الثانى والثالث شرفة حجرية ترتكز على أربعة صفوف من الدلايات ، ويعلو الطابق الثالث خوذة كمثرية الشكل يتوجها هلال من المعدن .

جامـــع المزهريـــة

بشارع البغالة بحى الحسينية

بالقرب من باب الفتوح ٨٩٣هـ

يقع هذا الجامع بحى الحسينية الذى يعتبر من أهم وأقدم خطط القاهرة فى العصور الوسطى لذلك فقد رأينا أن نذكر شيئا عن هذا الحى قبل أن نتناول مسجده بالبحث والدراسة .

يقول المقريزى[1] : حارة الحسينية عرفت بطائفة من عبيد الشراء يقال لهم الحسنية ، ويقول المسبحى فى حوادث سنة خمس وتسعين وثلثمائة : أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بعمل شونة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا فابتدأ بعملها فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وثلثمائة وظن كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين أن هذه الشونة عملت لهم ، فهرعوا إلى القصر يدعون ويتضرعون ويضجون ويسألون العفو عنهم ومعهم رقعة كتبت عن جميعهم ، فأجابهم الحاكم إلى ما سألوا .

ويقول عبد الظاهر ، أما الحارات التى من باب الفتوح ميمنة وميسرة للخارج منه فالميمنة إلى المليلجة والميسرة إلى بركة الأرض برسم الريحانية وهى الحسنية الآن ، وكانت برسم الريحانية الغزاوية والمولدة والعجمان وعبيد الشراء . وقد عرفت بالحسينية نسبة إلى جماعة من الأشراف الحسينيين كانوا فى أيام السلطان الكامل الأيوبى قدموا من الحجاز فنزلوا خارج باب الفتوح بهذه الأمكنة واستوطنوها وبنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم (الجلد) المشبه بالطائفى .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٢٠

وفى القرن السابع الهجرى وفد على مصر طائفة من الأويراتية وهم جنود بيلوين طرغاى ابن هولاكو خوفا من انتقام أخيه الملك غازان بعد قتله قائدهم الملك طرغاى. ويصف المقريزى مجيئهم إلى مصر فيقول : طوائع الملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى وهو يومئذ سلطان مصر والشام بأمرهم ، فاتفق الرأى على استدعاء أكابرهم إلى الديار المصرية وتفريق باقيهم فى البلاد الساحلية وغيرها من بلاد الشام وخرج إليهم الامير علم الدين سنجر ، والأمير شمس الدين سنقر إلى دمشق فجهزا من أكابر الأويراتية نحو الثلثمائة للقدوم على السلطان ، ولما وصلوا إلى القلعة أنعم عليهم السلطان وأنزلهم بالحسينية .

ويصف المقريزى طائفة الأويراتية فيقول : وكانوا صورا جميلة فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والإناث واتخذوا منهم علة صيروهم من حملة جندهم . وقد وقع التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم إلى خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك . فلما قام فى السلطنة من بعده الملك المنصور لاجين قبض على طرغاى مقدم الأويراتية وعلى جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الاسكندرية فسجنهم بها وقتلهم وفرق جميع الأويراتية على الأمراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم .

ويستطرد المقريزى فيقول : فصار أهل الحسينية لذلك يوصفون بالحسن والجمال البارع ، وما برحوا يوصفون بالزعامة والشجاعة وكان يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان وكانوا يلبسون لباس الفتوة ويحملون السلاح .

وهكذا نرى أن لقب فتوات الحسينية ظهر منذ القرن السابع الهجرى على أقل تقدير. وهنا يجدر بنا أن نذكر شيئا عن نظام الفتوة الذى أسيء فهمه فى مصر والذى أصبح من الصفات الملازمة لشبان الحسينية . والفتوة نظام اجتماعى أسسه العلويون فى القرن الثانى للهجرة ، معتبرين الإمام على فتاهم الأكبر ومثلهم الأعلى الذى يهتدون بهديه . على أن أقدم من تكلم عن الفتوة هو الإمام جعفر[1] الصادق . وقد عرف نظام الفتوة فى القرن الثانى للهجرة باسم فتوة الفروسية وكان يشترط على من يريد الانتماء إليها شروطاً معينة :

---

(١) ابن بيدكين : الحجة والبرهان على فتيان هذا الزمان .

أولا – أن يتمسك الفتى بكل فضيلة ومكرمة ويتجنب كل ما من شأنه أن يحط من كرامة الفرد[1] .

ثانيا – على الفتى أن يلبس سراويل خاصة بالفتوة عليها صورة كأس الفتوة ومعتقدين أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد ألبس على بن أبى طالب لباس الفتوة ثم أمره أن يلبس من يشاء . وتتم هذه العملية بأن يتقدم الفتى إلى نقيب الفتوة فيلبسه سراويل الفتوة بيده ، ثم يشرب الفتى كأس الفتوة وهى ماء وملح ، وكانت هذه العملية تتم عادة بمشهد الإمام على بالنجف .

ثالثا – على الفتى أن يمارس ألعاب الفتوة كالصيد ورمى البندق وحمل السلاح وغير ذلك من ألعاب القوى . فإذا قام المتفتى بما شرط عليه فإنه يعطى عهد الفتوة وهو أشبه ما يكون بالإجازة التى تمنح لمن أتم علومه وأصبح صالحا للتدريس .

انتشرت الفتوة بين معظم الطبقات وبين الطبقات التى اختصت بها هم العيارون ، ولما ضعفت الدولة العباسية فى القرن الثالث الهجرى وصارت ألعوبة بيد الأمراء والقواد . ولما رأى الأمراء والقواد ما عليه فتوة العيارين من القوة والجموع الكثيرة استخدموهم لقضاء مآربهم الخاصة فانحرفت الفتوة عن قصدها النبيل ، وتبعت فتوة العيارين غيرها من الطبقات المنحطة (كالشطار والدعار) وأخذوا يفسدون فى البلاد باسم الفتوة ويعكرون صفو الأمن والاطمئنان .

إلا أن الله قيض من يعيد للفتوة سيرتها الأولى ، فبعثت من جديد على يد الخليفة العباسى الناصر لدين الله وذلك سنة ٦٠٧ هـ الذى لم يكتف على نشرها فى العراق فحسب بل عزم على تعميمها فى جميع الممالك الإسلامية .

أما عن الفتوة فى مصر فقد حافظت عليها فترة وجيرة ، وكان الخليفة العباسى فى

---

(١) أبو تمام : الجماهير فى معرفة الجواهر ص ١٢

العصر المملوكي فى مصر هو الذي يتولى أمر تفتى من أراد الانتماء إلى هذه الفتوة من ملوك وسلاطين المماليك ، على اعتبار أنه وارث هذا عن أجداده الخلفاء العباسيين فى بغداد[1] ، ولكن لم يلبث أمر هذه الفتـــوة أن تداعى بتداعى الخلافة العباسية فى مصر وضعف سلطانها واستعملها الطبقات المنحطة .

ويحدثنا ابن تيمية وتلميذه ابن بيدكين عن انحطاط الفتوة فى مصر فيقول : وكان شيخ الفتوة يجمع حوله الأشرار والمتمردين والبطالين الذين لا عمل لهم فى دساكر لهم مخصوصة ويسخرهم فى أعمال الفساد ولهذا نجد جمهرة العلماء قد أفتوا بمقاومة هذه الفتوة المزيفة وأوجبوا على ولاة أمور المسلمين القضاء عليها لأنها (فتوة شيطان تشتمل على الإثم والعدوان) .

واستكمالا لتاريخ حى الحسينية نقول نقلا عن المقريزى : وكانت الحسينية قد أربت فى عمارتها على سائر أخطاط مصر والقاهرة وأنها كانت عامرة بالأسواق والدور وسائر شوارعها مزدحمة بالناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش ، وما زال أمر الحسينية متماسكا إلى أن كانت حوادث ومحن سنة ست وثمانمائة وما بعدها فخربت حارتها ونقضت مبانيها وبيع ما فيها من الأخشاب وغيرها .

أنشأ جامع المزهرية الأمير محمد بن أبى بكر بن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الخالق بن عثمان البدر بن الزين الأنصارى الدمشقى الأصل القاهرى الشافعى ويعرف كسلفه بابن مزهر . ولد فى شهر رمضان سنة ستين وثمانمائة . وهو ابن أبى بكر مزهر أحد كبار رجال الدولة فى القرن التاسع الهجرى ، إذ أنه ولد فى سنة ٨٣١ هـ ومات أبوه وهو صغير فنشأ يتيما وتربى فى حُجر السعادة (وهى مبنى كبير قريب من باب النصر كانت تربى فيه جماعة من الشباب يسمون صبيان الحجر) على أيدى الفقهاء حتى حفظ القرآن والفقه . وقد تقدم ابن أبى بكر مزهر بمجالسة أهل العلم حتى تميز وتهذب وفوض إليه التكلم فى القضاء والافتاء . وقد تدرج ابن أبى بكر فى وظائف الدولة الكتابية

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ٢ ص ٤٩٦

الكبرى فشغل نظارة الاصطبل ونظارة الجوالى المصرية والشامية ووكالة بيت المال ثم نظارة الجيش حتى انتهى بوظيفة كاتب سر السلطان التى ظل يشغلها حتى توفى سنة ٨٩٣ هـ .

أما والدة صاحب الترجمة فهى الزوجة الثانية لوالدة أبى بكر وكانت رومية اسمها شكرباى . وأمضى محمد طفولته وصباه فى بحبوحة من العيش فقد كان أبوه يتمتع بقسط وافر من المال والثروة وفى ذلك يحدثنا ابن اياس فيقول : إن بركة الرطلى (بالفجالة الآن) التى كان يسكنها أبو بكر مزهر ، لم تشهد من الأفراح والولائم ما شهدته فى حفل ختان ولده محمد صاحب الترجمة ذلك الحفل الذى استمرت فيه الوقدة وحراقة النفط ثلاث ليال متوالية[1] كأن ليل البركة فيها وكأنه نهار لم تغب شمسه من كثرة ما سطع من أضواء . وقد وصف الشمس القادرى ذلك الفرح فقال فيه :

حتى كأن جلابيب الدجى رغبت   عن لونها وكأن الشمس لم تغب

وكان محمد عالما فاضلا قال فيه شيخ الشعراء الشهاب الحجازى وغيره : أنه أكمل حفظ القرآن ثم صلى به بمقام الحنفية من المسجد الحرام فى سنة إحدى وسبعين وثمانمائة أى وهو لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، وذلك عندما حج به والده فى الرجبية بملاحظة فقيهه الشمس بن قاسم . وتفقه فقرأ المنهاج وجمع الجوامع وغيرهما . وعرض على جماعة كثيرة من الفقهاء وأخذ عن ابن قاسم والجمال الكورانى وكذا عن الكمال بن أبى شريف وأخيه . وقد تميز بذكائه فولى نظارة الخاص بعد التاج بن المقسى فباشرها مدة تكلف أبوه بسببها كثيرا . ثم تولى بعد ذلك الحسبة بعد يشبك الجمالى مدة وناب عن والده فى كتابة السر بالديار المصرية ثم استقل بها بعد موته .

أماديوان الإنشاء الذى تولاه محمد بن مزهر بعد وفاة والده ، فكان يطلق على متوليها كاتب الدست الشريف أو كاتب الدرج إلى أن كان عصر المنصور قلاوون فأصبح متوليها

---

(١) صبح الأعشى جـ ١ ص ١٠٤

يعرف بكاتب السر ، ونقل بذلك لقب كاتب الدست وكاتب الدرج إلى طبقتين ثانيتين من كتاب الديوان أدنى مرتبة من كاتب السر وقد أبدل العامة ، كما يقول القلقشندى ، حرف الباء فى كلمة كاتب إلى ميم على لغة ربيعة فقيل كاتم السر . ويقول خليل الظاهرى[1] ومن المرجح أن كلا التعريفين صحيح فهو الذى يكتب أسرار الدولة وهو الذى يتكتم عليها . وكان لا يتولى هذا الديوان إلا أجل كتاب البلاغة . وقيل كلما حفظ كاتم السر لسانا من الألسن كان عظمة فى حقه .

وقد حمدت إذ ذاك مباشرته لديوان الإنشاء ، وذكرت كفاءته وتودده وأدبه ولطفه وإقباله على الفضلاء والطلبة مع حسن شمائله ورقة طباعه كل ذلك مع اشتغال فكره بالقيام بما كلف به مما يفوق الوصف . وكثر الدعاء له من أصدقائه وأحباب والده . وقد زوجه والده إبنة الأمير لاجين واستولدها عده أولاد ، وفى غضون ذلك حج بصحبة صهره الذى كان عين أميرا للحج سنة إحدى وثمانين وثمانمائة . ولما عاد شرع فى بناء مدرسة بالقرب من سويقة اللبن ، قال : إن الخطة (الحى) فى حاجة إليها .

---

(١) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ص ١٠٠

وصف الجامع

يقع هذا الجامع بحى الحسينية على يمين السالك من باب الفتوح إلى شارع البغالة تجاه حارة البزازة وشعائره كما يقول على مبارك مقامة به وبه حطبة وله منارة . وجاء فى الضوء اللامع : كان جامع المزهرية فى أول أمره مدرسة ، فلما أهملت تحولت إلى مسجد فقط ، فقد كانت المدرسة تتكون من أربعة إيوانات ذات تخطيط متعامد الإيوان الشرق وبه المحراب والمنبر وعلى جانبيه الشمالى والجنوبى حنيتان مجوفتان ويتقدمه عقد مدبب مرتفع أما سقف الإيوان فمن الخشب المنقوش بنقوش زيتية غاية فى الجمال دب التلف إلى كثير من أجزائها .

ويقابل الإيوان الشرقى الإيوان الغربى وهو يماثله فى اتساعه ولكنه أقل منه عمقا . وفى الجهة الجنوبية والشمالية كان يوجد إيوانان سدا الآن ، ولم يبق سوى الإيوانين الشرق والغربى مما جعل الكثير من كتب الخطط يطلق عليها اسم جامع لا مدرسة .

ومازال المدرسة تحتفظ بالمدخل الذى بناه منشؤها محمد بن أبى بكر مزهر ، ويقع فى الجهة الجنوبية من المدرسة ويتكون من عقد مفصص مرتفع مملوء بعدة صفوف من الدلايات البديعة الصنع . ويلى عقد المدخل باب يعلوه عتب به صفحات معشقة جميلة وعلى جانب الباب مكسلتان . ويؤدى الباب إلى دركاة تؤدى بدورها إلى داخل المدرسة .

مدرسة أزبك اليوسفى

سنة ٩٠٠ هـ بشارع أزبك بحى طولون

جاء أزبك إلى مصر مجلوبا مع تجار المماليك سنة ٨٤١ هـ ، فاشتراه السلطان الملك عبد العزيز[1] يوسف بن برسباى ، ومن ثم فقد عرف منذ ذلك الحين باسم أزبك اليوسفى نسبة إلى السلطان . على أن السلطان عبد العزيز يوسف لم يستطع أن يحتفظ بالحكم بعد وفاة والده لصغر سنه ، سوى بضعة شهور ثم استولى عليه السلطان الظاهر جقمق (سنة ٨٤٢ هـ ١٤٣٨ م إلى سنة ٨٥٧ هـ ١٤٥٣ م الذى أجزل العطاء للمماليك التراكمة وأسبغ عليهم عطفه ورعايته ، فانتقل إليه هؤلاء المماليك الذين جلبوا فى الأيام العزيزية[2] (نسبة إلى السلطان عبد العزيز يوسف بن برسباى) وكان من بينهم أزبك اليوسفى الذى اشتهر باسم (فستق) فى ذلك الوقت .

وقد أظهر أزبك من البراعة والنبوغ فى علم الحساب رغم حداثة سنه فى عهد السلطان جقمق ما جعل السلطان يعتقه ويوليه أمور خزانة السلطنة فعرف باسم أزبك الخازندار ، على أن أزبك لم يظهر فى كتابات المؤرخين إلا فى سنة ٨٧٦ هـ فى عهد السلطان قايتباى ، إذ يذكر ابن اياس فى حوادث تلك السنة أن السلطان بعث إلى الأمير أزبك وأنعم عليه وصار أميرا مقدما . ثم خلع عليه وقرره فى نيابة عيذاب . التى كانت فى العصور الوسطى

---

(١) السخاوى : الضوء جـ ١ ص ٢٧٢

(٢) ابن إياس : جـ ٢ ص ٣٠٤

من أهم موانى مصر التى يبحر منها الحجيج إلى الحجاز ، ولذلك فقد اختير أزبك اليوسفى فى عام ٨٨٧ .هـ[1] لإمارة ركب المحمل وأمير للحاج . ويصف لنا ابن اياس ركب المحمل فيقول ، خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد وكان أمير الركب أزبك اليوسفى ، ولكن عند رجوع المحمل فى أوائل سنة ٨٨٨ هـ[2] ، لم تحمد سيرة أمير ركب المحمل وكان سبب ذلك هو هجوم العربان على ركب المحمل .

وقد كان أزبك اليوسفى من الأمراء المقدمين المقربين لدى السلطان قايتباى حتى أن السلطان كان يحرص أن يصطحبه معه فى معظم أسفاره داخل القطر فقد ورد فى حوادث سنة ٨٧٧ هـ[3] أنه فى شهر صفر نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو دمياط ورشيد ، ثم سافر فى البحر فى عدة مراكب وكان بصحبته الأتابكى أزبك اليوسفى وغيره من الأمراء ، واستمر السلطان فى هذه السفرة نحو ثلاثة عشر يوما طاف أثناءها بعدة بلاد . وقد ظلت هذه الصلة الوثيقة بين السلطان والأمير أزبك اليوسفى لمدة طويلة ، فقد كان من بين الأمراء وكبار رجال الدولة الذين خرجوا مع السلطان لإفتتاح قلعة مدينة الاسكندرية التى أقامها السلطان قايتباى على جزيرة (فاروس) التى اتصلت بالميناء عن طريق جسر طويل يبلغ طوله قرابة مائة متر ، عرف باسم (الهيپاستاد) يطلق عليه الآن اسم (اللسان) . وقد كان يقوم على هذه الجزيرة منارة الاسكندرية التى أقامها بطليموس[4] الثانى سنة ٢٨٠ ق.م واستمرت تؤدى عملها حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) . وقد استطاع الرحالة المعمارى أبو الحجاج يوسف البلوى الأندلسى المعروف بابن الشيخ[5] الذى زار مدينة الاسكندرية فى القرن السادس الهجرى أن يعطينا وصفا دقيقا للمنارة . وفى نفس البقعة التى كانت بها منارة الاسكندرية ، وعلى أنقاضها بنى السلطان قايتباى قلعة (طابية) الاسكندرية التى تعد من أهم القلاع المصرية على الإطلاق والتى تناظر قلعة

---

(١) ابن إياس ٢ ص ١٢٩
(٢) السخاوى : جـ ٢ ص ٨٤٧
(٣) ابن إياس : جـ ٢ ص ١٣٧
(٤) إبراهيم نصحى : دراسات فى تاريخ مصر فى عصر البطالمة ص ١١
(٥) ابن الشيخ : ألف باء جـ ٢ ص ٥٣٧

الجبل التى بناها صلاح الدين . ويرجع السبب فى بناء قايتباى لهذه القلعة هو ازدياد النفوذ العثمانى وتفوقهم البحرى ومحاولتهم تأسيس دولة استعمارية تهدد الدول المجاورة لها لذلك فكر فى حماية أهم ثغور ساحل مصر الشمالى[1] .

ويحدثنا ابن اياس عن خروج السلطان قايتباى من القاهرة سنة ٨٨٤ هـ إلى الاسكندرية لافتتاح قلعة الاسكندرية التى تم بناؤها فيقول « توجه السلطان فى البحر فى عدة مراكب كثيرة وكان معه من الأمراء ، والأتابكى أزبك بن ططخ ويشبك الدوادار وخاير بك ابن حديد وأزبك اليوسفى وآخرون من الأمراء المقدمين وعدد وفير من الأمراء الطبلخانات والعشروات من المماليك السلطانية ، وكانت سفرة السلطان إلى الاسكندرية من أجل البرج (أى القلعة) وقد انتهى به مكان المنار القديم فجاء من محاسن زمانه» .

وقد عرف الأمير أزبك اليوسفى بشجاعته وفروسيته حتى أن السلطان أشركه فى كثير ابن التجريدات فقد خرج فى تجريدة لمحاربة العثمانيين ، فقد أمر السلطان سنة ٨٨٩ هـ بخروج تجريدة وعين بها تمراز الشمس باشى العسكر ومن المقدمين أزبك اليوسفى وعين من الجند أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية وكان سبب ذلك كما يقول ابن اياس ، هو أن ابن عثمان ملك الروم (أى سلطان الدولة العثمانية) أغار على دويلات كثيرة ، ويعتبر هذا أول تحول من ابن عثمان على بلاد السلطان ، (أى الدولة المملوكية فى مصر والشام) .

كذلك اشترك الأمير أزبك اليوسفى فى التجريدة التى تعتبر من أكبر التجاريد التى أرسلها السلطان قايتباى إلى دويلات (أخو سوار) ، التى جاء فى وصفها : « وفيها خرج العسكر وقد لبسوا اللباس البحرى وحملوا جميع أسلحتهم وكان يوما مشهودا » . وقد كافأ السلطان الأمير أزبك اليوسفى نظير ما قام به من خدمات جليلة وما أبلاه فى مواقع القتال من شجاعة وفروسية فخلع عليه فى سنة ٨٩٤ هـ وقرره فى رأس نوبة كبيرة عوضا عن تغرى بردى ابن ططر الذى توفى فى ذلك العام . ووظيفة (رأس نوبة) من الوظائف الكبرى فى العصر

---

(١) سعاد ماهر : محافظات الجمهورية العربية المتحدة ص ١٦٣

المملوكى يشغلها عسكريون من طبقة أمراء المئين مقدمى الألوف فى الحضرة السلطانية ، كما أنها الوظيفة السادسة فى الدولة . وقد ورد ذكر هذه الوظيفة فى الكتابات التى نقشت على مدرسته تسع مرات مما يدل على أهميتها مما جعل المعمار يحرص على ذكرها فى النصوص التى نقشت على جدران المدرسة .

كذلك اشترك أزبك اليوسفى فى التجريدة التى خرجت إلى البحيرة لتأديب العربان الذين كثيرا ما شقوا عصا الطاعة على الحكام وكان ذلك فى سنة ٨٩٨ هـ وكان أزبك أميرا جليلا لين الجانب متدينا محبوبا من جميع أمراء المماليك ، مما جعل السلطان يستعين به فى فض المنازعات والفتن التى تنشأ بين كبار أمراء المماليك . فقد استطاع الأمير أزبك أن ينهى الخلاف والفتن التى قامت بين قانصوة خمسمائة والأتابكى أزبك ابن ططخ ، وذلك بأن طلب من السلطان أن يرسل الأخير إلى الأراضى المقدسة فبقى هناك فترة من الزمن ثم رجع إلى الأتابكية مرة ثانية . وقد قدر السلطان قايتباى ما أبداه الأمير أزبك من حنكة سياسية وبعد نظر ، أن قرره فى أمرية السلاح عوضا عن ثانى بك الجمالى ، وتعتبر وظيفة أمرة السلاح من الوظائف العسكرية الهامة والتى تأتى فى المرتبة الثانية [1] بالنسبة لوظائف الدولة فى القصر السلطانى بحيث صارت تلى مباشرة أتابك العسكر أو الأمير الكبير وكان يعين لها دائما مقدم ألف .

ومن الأحداث التى حزن لها الأمير أزبك وهزت كيانه وفاة زوجته بنخ ، وكانت من مشاهير الخوندات (أى السيدات) وكانت قريبة للملك الظاهر جقمق ، تزوجت تنم المؤيدى نائب الشام ، فلما توفى ، تزوجت الأمير أزبك ، وكانت زوجة صالحة خيرة أخلصت لزوجها أزبك وحسنت عشرتها ، فلما توفيت سنة ٨٩٩ هـ حزن عليها كثيرا ودفنها فى الإيوان (السدلة) الشمالى الشرقى بمدرسته التى نحن بصدد دراستها كما دفن معها ابنها سيدى فرج ابن تنم المؤيدى .

أما الحادثة الثانية فهى وفاة السلطان الأشرف قايتباى سنة ٩٠١ هـ ، فقد كان أزبك

---

(١) خليل الظاهرى : زبدة كشف الممالك .

من أخلص مماليكه وأقربهم إليه ، لذلك حزن عليه حزنا عميقا ، فلما تولى ابنه ناصر الدين محمد الناصر قايتباى حفظ للأمير أزبك وفاءه لذكرى والده فأنعم عليه مع جماعة الأمراء بتقادم ألوف ، ثم جعله أمير مجلس . ولم يكن فى بلاط السلطان غير أمير مجلس واحد فقط يختار من بين أمراء المئين ومقدمى الألوف ، وكانت مهمة أمير مجلس ، هو ترتيب مجلس السلطان وحراسته حتى داخل قصره بل وحجرة نومه والمحافظة على صحة السلطان ووقايته .

على أن السلطان الجديد لم يستطع أن يملأ الفراغ الذى تركه وفاة والده ، فقد سادت البلاد الفوضى والاضطرابات ، وقد أخذت الفتن والفوضى تزداد شيئا فشيئا مما جعل السلطان يأمر بنفى جماعة من كبار الأمراء كان من ضمنهم أزبك اليوسفى فستق الظاهرى جقمق ، وخلعه من امرية المجلس ، ولكن سرعان ما رضى عنه السلطان وخلع عليه وقرره مقدم ألف مشير مملكة . ولقب مشير المملكة أو السلطنة ، هو لقب فخرى يطلق على المشير والوزير .

وفى سنة ٩٠٤ هـ توفى الأمير أزبك فى عهد السلطان قانصوة الغورى ، ويحكى أنه توفى فى نفس يوم وفاة أزبك الأتابكى أزبك بن ططخ ، فلما علم السلطان ذلك نزل وصلى عليه وقيل له أثناء ذلك أن الأمير أزبك اليوسفى فى النزع الأخير وسيموت فى هذه اللحظة فجلس السلطان على مدوره سبيل المؤمنين ينتظر أزبك حتى يموت ويصلى فلم يحدث فى تلك الساعة فقام السلطان وطلع إلى القلعة ، فلما كانت صلاة العصر فى ذلك اليوم ، توفى الأمير أزبك اليوسفى وصلى عليه السلطان وطلعت جنازته من الصليبية (بحى طولون) فلما رجعوا توجهوا إلى مدرسته التى أنشأها ودفن فى الإيوان (السدلة) التى دفنت فيها زوجته وابنها .

الوصف المعمارى

ويحدد على مبارك[1] موقع المدرسة فيقول : يقع الجامع (أى المدرسة) فى شارع أزبك الذى ابتداؤه من آخر شارع الصليبية وأول شارع صدرة الحناء تجاه حارة بئر الوطاويط، وانتهاء بركة الفيل ، وقد عرف الشارع الذى بنيت فيه المدرسة بعد بنائها باسم شارع أزبك. ويقول ابن اياس[2] فى حوادث سنة ٩٠٠ هـ وفى رمضان سنة تسعمائة أقيمت الخطبة بالجامع الذى أنشأه الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة كبير بدرب البابا ، وكان درب البابا يحد المدرسة من جهته الشمالية الغربية ، وقد عرف بهذا الاسم نسبة إلى حمام صغير (بهذا الاسم) كان موجودا فى تلك الجهة ، ظل قائما حتى النصف الأول من القرن العشرين ، أزيل الآن وحلت محله عمائر أخرى .

أقيمت المدرسة على مساحة غير منتظمة متعددة الأضلاع وذلك حتى تتفق وخط تخطيط الشارع ، الذى تطل عليه الواجهة الرئيسية للمدرسة وهو شارع أزبك ، وتقع الواجهة الرئيسية للمدرسة فى الضلع الشمالى الشرقى ويبلغ طولها ١٧٫٥ م ويمكن تقسيمها إلى قسمين يفصل بينهما المدخل الرئيسى ، القسم الشمالى الذى يقع إلى يمين المدخل وينقسم إلى ثلاثة طوابق يشغل الطابق الأول (الذى اختفى جزء كبير منه ، لارتفاع منسوب شارع أزبك الآن) بما يقرب من متر ، مدخل صغير يعلوه عقد مليب مكون من صنجات معشقة يحيط به إطار مستطيل من الزخارف القالبية ، ويلى المدخل خمس درجات تؤدى إلى ممر مقبى يؤدى إلى دورة مياة المدرسة . أما الطابقان الثانى والثالث فبكل منهما نافذتان إحداهما مستطيلة ويعلوها أخرى مربعة صغيرة وكلها مملوءة بمصبعات حديدية . ويعلو هذا الجزء من الواجهة المئذنة .

---

(١) على مبارك : الخطط الجديدة جـ ٢ ص ١٢٦

(٢) ابن إياس : ص ١٢٧

أما الجزء الجنوبي من الواجهة الذى يقع على يسار المدخل فيتكون من طابقين يشغل الطابق الأول منه مدخل صغير معقود مماثل للمدخل الذى يقع فى شمال الواجهة وهو يؤدى إلى درقاعة يشغل جزءاً منها سلم يؤدى إلى الطابق العلوى كما يفتح فيها باب يؤدى إلى السبيل ، ويحيط بعقد المدخل أربع حشوات مملوءة بالزخارف النباتية المحورة ، ويعلو ذلك نافذة صغيرة مربعة مملوءة بمصبعات حديدية يكتنفها مربعان بداخلهما شارتان (رنكان) متماثلان ، يحتوى كل منهما على شطب علوى يتوسطه بقجة وسيفان والشطب المتوسط خالٍ والشطب الأسفل يتوسطه كاس على جانبيه بقجتان صغيرتان . وتمثل هذه الشارات الوظائف التى تولاها الأمير أزبك . ويعلو النافذة دائرة كبيرة داخل إطار مربع طول ضلعه بعرض المدخل كله ، ويتوسط الدائرة دائرة أخرى صغيرة عبارة عن شارة (رنك) تحتوى على اسم السلطان قايتباى ، أما الدائرة الكبيرة فمكونة من صنجات معشقة باللون الأبلق ، وإلى جانب المدخل الصغير فى الجزء الجنوبى من الواجهة الشمالية الشرقية يوجد السبيل الذى يرتفع قليلا عن منسوب الطريق ويبلغ اتساع فتحته ٢٫٥٠ م وارتفاعها ٣٫٧٥ م ملئت كلها بمصبعات حديدية ، ويعلو النافذة عتب مكون من صنجات معشقة يعلوه عقد عاتق مكون كذلك من صنجات معشقة ، ويعلو عقد السبيل شريط عريض نقشت به كتابة بالخط الثلث المملوكى بالحفر البارز ، يمتد بطول الجزء الجنوبى من الواجهة الشمالية ، وتشتمل هذه الكتابة على ست آيات من سورة الإنسان من الآية الرابعة حتى التاسعة « بسم الله الرحمن الرحيم إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا.. إلى ... لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا » .

ويعلو السبيل شرفة الكتاب المكونة من عقدين مدببين يفصل بينهما عمود من الرخام مثمن الشكل يعلوه تاج على شكل الرمانة ، ويشغل الجزء الأسفل من الشرفة ساتر من الخشب الخرط ، ويعلو عقود الشرفة مظلة خشبية مائلة محمولة على كوابيل خشبية .

ويتوسط الواجهة الشمالية الشرقية تقريبا المدخل الرئيسى للمدرسة ، الذى اتساعه ثلاثة أمتار ويعلوه عقد ذو ثلاثة فصوص ملئت بأربع حطات من الدلايات بديعة التكوين

ويرتفع عقد المدخل إلى ما يقرب سمت عقود الكتاب ثم تأتى بعد ذلك شرفات الواجهة . ويبلغ عمق المدخل (١٫٥٠) من المتر تقريبا حيث امتدت مكسلتان على ارتفاع أربعة مداميك من الأرض . وعلى ارتفاع أربعة مداميك أخرى من المكسلتين يوجد شريط عريض به كتابة ثلث بارزة نص الجانب الأيسر منه « أمر بإنشاء هذا المسجد الجامع المقر الأشرف الكريم السيف أزبك اليوسفى أمير رأس نوبة النواب الملكى الأشرف بتاريخ شهر شعبان المكرم سنة تسعمائة من الهجرة .

ويتوسط المدخل باب له مصراعان من الخشب زخرف أحد الوجهين بجامة كبيرة من النحاس مزخرفة بطريقة التخريم فى الوسط وقطاعات من الجامة فى أركان المصاريع الأربعة كما يحتوى كل مصراع على شريطين من النحاس المخرم من أعلى وأسفل المحتوى على كتابة بالخط الثلث نص الكتابة فى المصراع الأيمن كما يلى : « أنشأ هذا المكان المبارك من فضل الله تعالى المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الملكى العالمى المجاهدى) وتكملة النص على المصراع الأيسر (المرابطى المثاغرى السيفى أزبك أمير رأس نوبة النواب الملكى الأشرفى وكان الفراغ منه فى مستهل رمضان المعظم قدره عام تسعمائة .

ويعلو فتحة الباب عتب رخامى أسود فوقه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة من الرخام الملون يكتنفه مربعان بهما زخارف نباتية وهندسية منحوتة نحتا بارزا ، ويعلو العقد نافذة صغيرة مربعة مملوءة بمصبعات حديدية وعلى جانبيها شارتان (رنكان) مماثلتان للرنوك السابقة الإشارة إليها .

ويعلو عقد المدخل ذى الثلاث فصوص شريط عريض نقشت عليه نقشا بازرا من الكتابة الثلث ، ويمتد بعرض الواجهة كلها التى يبلغ طولها (١٧٫٥) من المتر هذا نصها : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السعيدة المقر الأشرفى العالى المولوى السيد السندى المزخرفى الحضرى السيفى أزبك اليوسفى أمير رأس النواب الملكى الأشرف أعز الله أنصاره بمحمد وآله وسلم بتاريخ مستهل شهر جمادى الآخرة سنة تسعمائة من الهجرة » .

ويلى المدخل الرئيسى دركاة مربعة الشكل تقريبا إذ تبلغ مساحتها (٢٫٤×٢٫٩٠)

من الممر يتصدرها جلسة المقرئ يعلوها نافذة مربعة صغيرة مملوءة بمصبعات حديدية ، وتطل على الإيوان الشمالى الشرقى . ويغطى الدركات سقف خشبى مكون من حقاق زخرفت بنقوش زيتية متعددة الألوان . وتؤدى الدركات من جانبيها الشمالى والجنوبى إلى ممرين ، الأيمن منهما يحتوى على حنية المزملة وسلم يصعد منه إلى الدور العلوى الذى يؤدى إلى المئذنة وينتهى الممر إلى صحن المدرسة ، أما الممر الأيسر فيؤدى إلى دركات المدخل الذى يقع إلى جنوب المدخل الرئيسى المجاور للسبيل ، وينتهى إلى صحن المدرسة .

ويتوسط المدرسة صحن (درقاعة) مربع الشكل يبلغ طول ضلعه (٧٫٥) من المتر يغطيه سقف خشبى يتوسطه فتحة مربعة ، ويحيط بالصحن من جهاته الأربع الإيوانات وتنخفض أرضيته عن الإيوانات بمقدار (٤٠) سم وهى مغطاة بالرخام الملون . ويفتح فى الصحن أربعة أبواب اثنان سبق الإشارة إليهما الموصلان إلى المدخل الرئيسى ويكتنفان الإيوان الشمالى الشرقى والاثنان الآخران يكتنفان الإيوان الجنوبى الغربى ويؤدى أحدهما إلى ممر ينتهى إلى المدخل الثانى بواجهة المدرسة الجنوبى الغربى ، وقد زخرفت مصاريع الأبواب الأربعة ، بثمان أشرطة معدنية كتب عليها نص مكرر يحتوى على اسم المنشئ وألقابه .

وتعلو عقود الأبواب الأربعة لوحات خشبية تحتوى على كتابات عربية تكون فى مجموعها نصا واحدا نصه : ١ ـ اللهم أيد الإسلام وأعلِ كلمة الإيمان ببقاء سيدنا الإمام الأعظم والملك المكرم ٢ ـ) السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه بمحمد وآله ٣ ـ) أمر بإنشاء هذه المدرسة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر الأشرف الكريم العالى ٤ ـ) السيفى أزبك اليوسفى أمير رأس نوبة النواب الملكى الأشرفى بتاريخ رجب وتسعة وتسعماية) . وتعلو هذه الأبواب حنيات مستطيلة ينتهى بعقد ذى زاوية مفصص ومملوء بثلاثة صفوف من الدلايات ويرتكز على عمودين مندمجين . ويتوسط الحنية نافذة مملوءة بمصبعات حديدية . ويحيط بأعلى الصحن وفوق عقود الإيوانات التى تطل عليه شريط عريض حفرت فيه كتابة بالخط الثلث يحتوى على اسم منشئ المدرسة وألقابه وتاريخ الإنشاء وإيوان القبلة وهو أكبر إيوانات المدرسة وتبلغ مساحته (١٠ × ٧٫٧٥) من المتر يغطى فتحته عقد على شكل حدوة الفرس المدببة مكون من صنجات من الحجر الأبلق ،

ويملأ خواص العقد زخارف نباتية محورة محفورة فى الحجر ، وترتكز العقد على أكتاف حائطية تيجانها مكونة من أربع حطات من الدلايات .

ويتصدر حائط الإيوان الجنوبى الشرقى محراب القبلة الذى يبلغ اتساعه (١٫١٠) من المتر وعمقه (٠٫٨٥) من المتر ، يعلوه عقد نصف دائرى يرتكز على عمودين من الرخام تيجانهما(١) على شكل أوراق نباتية بعضها محور . ويكتنف المحراب أربعة نوافذ بارتفاع المحراب وتعلوها عقود نصف دائرية ومماثلة تماما للمحراب . ويعلو هذه النوافذ صف ثان من النوافذ العلوية معقودة ومملوءة بزخارف جصية معشقة بالزجاج الملون ، أما المحراب فيعلوه نافذة مستديرة مملوءة كذلك بالزجاج المعشق ويحيط بها دائرة كبيرة مكونة من صنجات معشقة باللون الأبلق .

وتوجد نافذتان فى الضلعين الشمالى والجنوبى لإيوان القبلة ، الشمالى منهما يفتح على السبيل ، أما الجنوبى فيمتد حتى يفتح فى الضلع الجنوبى الغربى . وإلى يمين المحراب يوجد منبر خشبى زخرفت (ريشتاه) بحشوات مجمعة قوام زخرفتها الطبق النجمى ومطعمة بالعاج والصدف ، كما يوجد فى إيوان القبلة كرسى مصحف مصنوع من الخشب ومزخرف كذلك بالحشوات المجمعة ومطعم بالعاج والصدف والإيوان مغطى بسقف خشبى مزخرف بحقاق (براطيم) نقشت عليها رسوم زيتية متعددة الألوان .

ويقابل إيوان القبلة الإيوان الشمالى الغربى وتبلغ مساحته (٧٫٥×٣٫٩٠) من المتر ويتقدمه عقد على شكل حدوة الفرس مدبب مماثل لعقد إيوان القبلة ، وفى صدر الإيوان توجد حنية عميقة معقودة يبلغ سعتها (٣) أمتار وترتفع عن أرضية الإيوان بمقدار ،(٤٠) سم . وعلى ارتفاع (١٤) مدماك من أرضية هذه الحنية توجد شرفة خشبية من الخرط ترتكز على كرادى خشبية . ومن المرجح أن تكون هذه الشرفة كانت معدة لصلاة السيدات حيث أنها تتصل بالدور الثانى عن طريق سلم موصل إليها . وفى الضلعين الشمالى والجنوبى لهذا الإيوان توجد ثمان حنيات صغيرة تبلغ مساحة كل منهما (١٫٢٥ × ١٫٥٠) م يتقدم كل

---

(١) لقد وضع العمود مقلوباً بعد ترميم المحراب ، فأصبح التاج مكان القاعدة .

منها باب خشبي فوقه لوحة خشبية عليها كتابات قرآنية ، وتعرف مثل هذه الحنيات باسم كتبية (تصغير مكتبة) مما يدل على أنها كانت تستعمل كدواليب حائطية لحفظ الكتب .

أما الإيوانان الآخران الشمالى الشرقى والجنوبى الغربى فصغيران ، إذ تبلغ مساحة كل منهما (٥ر٣×٧٥ر٢) من المتر ويتقدم كل منهما عقد مدبب ممتد وتعرف هذه الإيوانات الصغيرة فى عصر المماليك الشراكسة باسم (السدلة) ، وسقف الإيوانين مغطى بحقاق (براطيم) خشبية مماثلة لإيوان القبلة ويوجد بالإيوان الشمالى الشرقى مقبرة مدفون بها زوجة الأمير أزبك وابنها من زوجها الأول سيدى فرح وكذا الأمير أزبك ، فقد كتب على الحجاب الخشبي الذى يتقدم الإيوان النص التالى : « توفيت المرحومة خوند سلطان بنخ جهة المقر الأشرف السيفى أزبك السيفى ، ثانى ربيع الأول سنة تسع وتسعين وثمان مايه » . كما نقش على جوانب المقبرة الرخامية نص باسم سيدى فرح بن تنم المؤيدى نائب الشام وابن زوجة أزبك السابق الإشارة إليهما .

وتتكون المئذنة التى تعلو الواجهة الشمالية الشرقية من ثلاث طوابق وقاعدة ، الطابق الأول مثمن الشكل وبه أربع نوافذ وتزخرف كل ناصية من نواصيه الثمانية ثلاثة أعمدة والطابق الثانى مستدير الشكل ويفصل بينه وبين الطابق الأول شرفة تعتمد على خمس صفوف من الدلايات أما الطابق الثالث فمكون من ثمانية أعمدة تقوم فوقها حوذة القبة التى يعلوها الهلال النحاسى .

وتحتوى المئذنة على شريطين عريضين بهما كتابة بالخط الثلث المملوكى يحتوى على آيات قرآنية .

جامع الشيخ شاهين الخلوتى

بسفح جبل المقطم ٩٠١هـ

ولد الشيخ الصالح العابد شاهين المحمدى بمدينة تبريز بإيران فى القرن التاسع الهجرى إذ لا يعرف تاريخ ميلاده على وجه التحديد، وأمضى فى فارس طفولته ومعظم شبابه ثم رحل إلى مصر فى عهد السلطان الأشرف قايتباى[1] ، وكان ذا همة وشجاعة جميل الخلقة ممشوق القوام ، فاشتراه السلطان وأصبح من مماليكه الجلبان ، وانتظم فى جنده . ولكن حياة المماليك والجندية لم توافق مزاج شاهين ولا طبيعته التى فطر عليها ، فقد كان منطويا يحب العزلة ولا يطمئن إلا إلى صحبة الفقهاء ورجال الدين ، فحفظ القرآن والكثيرمن الأحاديث . فلما عرف السلطان عنه هذه الصفات قرّبه منه وصار لا يبرح مجلسه ولما طلب منه شاهين أن يتركه ويخليه[2] لعبادة ربه فعل وأعتقه فساح إلى بلاد فارس وهناك تتلمذ على يدى الشيخ العارف بالله تعالى عمر روشنى الموجود بمدينة تبريز . حتى أصبح من أقرب تلاميذه ومريديه إليه . وأخذ عنه الطريق .

ثم رجع إلى مصر وصاحب ولى الله محمد الدمرداش بالعباسية وأصبح من أعز رفقائه ومريديه ، ولذلك عرف باسم شاهين الدمرداشى المحمدى ، كذلك أخذ الشيخ شاهين عن الشيخ أحمد بن عقبة اليمنى وحسين جلبى المدفون بزاوية الدمرداش . ولما توفى الشيخ الدمرداش ترك العباسية وسكن الجبل المقطم وبنى له فيه معبدا وحفرله

---

(١) المناوى : الكواكب الدرية جـ ٤

(٢) الشعرانى : الطبقات الكبرى .

فيه قبرا . وكان طبيعيا أن يلجأ الزهاد والمتصوفون إلى جبل المقطم يتخذون من سفحه مقاما ومن أوديته مناما بعد أن عرفوا تقديس الديانات السماوية السابقة على الإسلام له ، وتكريم المسلمين أيضا . فيقول ابن الزيات[1] : إن جبل المقطم كان أكثر الجبال أنهارا وأشجارا ونباتا ، فلما كانت الليلة التى كلم الله فيها موسى عليه السلام ، أوحى إلى الجبال ، أنى مكلم نبيا من أنبيائى على جبل منكم ، فتطاول كل جبل ، وتشامخ ، إلا جبل طور سيناء ، فإنه تواضع وتصاغر ، فأوحى الله سبحانه وتعالى إليه ، لم فعلت ذلك وهو به أعلم ، قال : إجلالا لك يارب ، فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن يجود كل جبل بشئ مما عليه إلا المقطم فإنه جاد له بجميع ما كان عليه من الشجر والنبات والمياه فصار كما ترون أقرع . قال : فلما علم الله سبحانه وتعالى ذلك عنه ، أوحى إليه لأعوضنك عما كان على ظهرك لاجعلن فى سفحك غراس أهل الجنة .

وحكى الإمام الليث بن سعد ، أن المقوقس سأل عمرو بن العاص رضى الله عنه أن يبيعه سفح جبل المقطم بسبعين ألف دينار ، فكتب بذلك إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فرد عليه عمر قائلا : سله لماذا أعطاك ما أعطاك فيه وهو لا يزرع ولا يستنبط منه ماءً . فسأل عمرو بن العاص المقوقس عن ذلك فقال : إنا نجد فى صفحه الكتب القديمة أنه يدفن فيه غراس الجنة . فكتب بذلك عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين فرد عليه قائلا : أنا لا أعرف غراس الجنة إلا للمؤمنين ، فاجعلها مقبرة لمن مات قبلك من المسلمين .

ولم يزل الشيخ شاهين مقيما فى خلوته فى جبل المقطم لا ينزل إلى مصر نحو ثلاثين سنة ، واشتهر أمره فتردد عليه الأمراءُ والوزراءُ لزيارته والتبرك به . وكان كثير المكاشفة قليل الكلام جدا ، وفى ذلك يقول الشعرانى : كنا نجلس عنده اليوم كاملا لا تكاد تسمع منه كلمة . وكان كثير السهر متقشفا فى الملبس معتزلا عن الناس وظل كذلك حتى توفى سنة ٩٠١ هـ .

---

(١) الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة ص ١٢

وصف المسجد

يقع مسجد شاهين الخلوتى بسفح جبل المقطم ، مرتفع الأرضية يصعد إليه بمزلقان وقد أنشأ هذا المسجد جمال الدين عبد الله نجل العارف بالله شاهين الخلوتى مكان الخلوة التى كان يقوم بها والده . ونقش على بابه تاريخ الإنشاء ، فقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » . . . . إلى آخر الآية ، أنشأ هذا الجامع ووقفه العبد الفقير إلى الله تعالى جمال الدين عبد الله نجل العارف بالله تعالى الشيخ شاهين الخلوتى افتتح سنة خمس وأربعين وتسعمائة . ويصف على مبارك[1] المسجد فيقول : وبه أربعة أعمدة من الحجر وقبلته مشغولة (مزخرفة) بقطع من الرخام الملون ومطعم بالصدف ويكتنفه عمودان من الرخام . كما يحتوى الجامع على منبر من الخشب ودكة المبلغ قائمة على عمود من الرخام . وهناك بداخله تربتان ، إحداهما تربة من الرخام مكتوب بدائرها آية الكرسى . كما يوجد بأسفل المسجد جملة من الخلاوى الصوفية ، وله ميضأة ومرافق وبه صهريج صغير .

وقد حرص كبار الرحالة الذين وفدوا على مصر على زيارة ضريح الشيخ شاهين الخلوتى رغم المشقة التى تكبدها من يريد الوصول إليه ، فقد كان عليه الصعود إلى سفح جبل المقطم فى مطلع غير معبد وكثير الانحدار ، ومن هؤلاء الرحالة النابلسى[2] الذى قال : وسرنا إلى أن دخلنا جامع الشيخ شاهين الدمرداش الذى اشتهر بالصلاح والتقوى ، فقد كان يغتسل لكل صلاة » .

---

(١) الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٣١

(٢) الحقيقة والمجـاز .

مدرسة السلطان قانصوه الغورى

بشارع المعز لدين الله

بالغورية ٩٠٨ هـ

هو السلطان[١] الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى من بيردى الشركسى الجنس ، ولد فى حدود سنة ٨٥٠ هـ - ١٤٤٦ م ، وهو السلطان الرابع والعشرون من سلاطين المماليك الشراكسة ، وكان يبلغ حوالى الستين عاما عندما تولى منصب السلطنة .

كان الغورى مملوكا للسلطان قايتباى وقد أعتقه السلطان قايتباى لذكائه وشجاعته وعينه فى جملة مماليكه الجمدارية[٢] ثم أصبح خاصكيا[٣] ثم كاشفا للوجه القبلى سنة ٨٨٦ هـ فأميرا لعشرة فى سنة ٨٧٩ هـ ثم بدأ نجمه فى الصعود وصار من الأمراء الذين بيدهم الحل والعقد كما خرج فى بعض الحملات إلى حلب وعين بعد ذلك نائبا للسلطان فى طرسوس ، وفى سنة ٨٩٤ هـ عين حاجبا للحجاب فى حلب ثم نقل إلى نيابة ملطية ، وفى عهد الناصر محمد بن قايتباى أنعم عليه بلقب أمير مائة ومقدم ألف وأصبح رأس نوبة النوب[٤]، وفى عهد السلطان الأشرف جانبلاط سافر إلى الشام فى صحبة الأمير

---

(١) أصل كلمة سلطان فى اللغة الحجة ، قال تعالى (ما كان له عليهم من سلطان) يعنى من حجة وسمى السلطان بذلك لأنه حجة على الرعية يجب عليهم الانقياد له . (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٧ ص ٤٤٧ - ٤٤٨) .

(٢) الجمدار : هو من يتولى إلباس السلطان (القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٩) .

(٣) الخاصكية : جماعة من حاشية السلطان يأتون فى الترتيب بعد الأمراء المقدمين وامتازوا بحسن المظهر وأناقة الملبس ومصرح لهم الدخول على السلطان دون إذن . (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٧٩ ، ١٨٠) .

(٤) رأس النوبة : وظيفة يقوم أصحابها بالحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناة والمراد بالرأس هنا الأعلى .

(صبح الأعشى : جـ ٤ ص ١٨ ، جـ ٥ ص ٤٥٥) .

طومان باى الداوادار لمحاربة قصروه نائب الشام الذى أعلن العصيان . وفى بلاد الشام تآمر طومان باى ومن معه من قادة الجند ومعهم الأمير قانصوه الغورى على الغدر بالسلطان الأشرف جانبلاط ، باتفاقهم مع الأمير قانصوه نائب الشام على أن يكونوا ضد جانبلاط وأعلن طومان باى نفسه سلطانا على بلاد الشام بمعونة من معه من المتآمرين ولقب نفسه بالعادل وزحفوا جميعا على مصر فدافع جانبلاط عن نفسه غير أنهم تمكنوا من القبض عليه وخنقه بالاسكندرية سنة ٩٠٦ هـ وبذلك تم للسلطان العادل حكم مصر فأسند الأتابكية إلى الأمير قصروه كما أسند الداودارية الكبرى والوزارة والاستادارية[١] إلى الأمير قانصوه الغورى .

وفى أول شوال سنة ٩٠٦ هـ اجتمع الأمراء المقدمين لاختيار سلطان جديد بدلا من العادل طومان باى ، فاستقر رأيهم على اختيار الأمير قانصوه الغورى. امتنع الأمير الغورى عن قبول السلطنة لأن حالة البلاد غير مستقرة ، كما أن الأمراء غير مستقرين والجنود متنابذين وأعداء البلاد يتربصون بها الدوائر ، وخزانة الدولة خاوية على عروشها واقتصادياتها فى سبيلها إلى الانهيار[٢] ، لكل هذا كان الأمير الغورى يمتنع عن قبول السلطنة[٣] ويبكى لإشفاقه على نفسه من تحمل أعباء السلطنة الجسام فى ذلك الوقت الحرج غير أن الأمراء سحبوه وأجلسوه وقالوا : « ما نسلطن إلا هذا »[٤] . فقبل السلطنة مشترطا عليهم أن لا يقتلوه بل إذا أرادوا خلعه وافقهم على ذلك فحرروا محضرا بذلك أثبتوا فيه خلع العادل طومانباى من السلطنة لسفكه الدماء وعقدت البيعة للغورى فبايعه الخليفة العباسى المستمسك بالله يعقوب كما بايعه القضاة والأمراء وكبار رجال الدولة ولقب بالملك الأشرف وكنى بأبى النصر .

---

(١) الاستادارية : وظيفة يتولى صاحبها أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناة والحاشية والغلمان وهو مطلق التصرف فى استحضار كل ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات وغيره .
(صبح الأعشى : جـ ٤ ص ٤٠ ، جـ ٥ ص ٤٥٧) .

(٢) محمود رزق سليم : ص ٣٥

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٤

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٨ ص ١١٣

وهكذا بدأ حكم الغورى الذى كان له أثر بالغ فى تاريخ القاهرة بصفة خاصة ودولة المماليك الشراكسة بصفة عامة وكانت نهاية الغورى فى معركة مرج دابق التى وقعت بين المماليك والعثمانيين ، ولم يعثر للغورى على أثر بعد المعركة . وتعتبر معركة مرج دابق[1] التى وقعت بين المماليك والعثمانيين فى ٢٤ أغسطس سنة ١٥١٦ م معركة فاصلة بالنسبة لمصر ، إذ وضعت نهاية لحكم الغورى وقضت على سلطنته وقتل فيها عدد كبير جدا من أمراء الدولة وجنودها ، فكانت الضربة القاضية على الجهاز العسكرى المملوكى وأتت على حكم المماليك لمصر وحددت مصير مصر والشام لعدة قرون تالية .

ولابد لنا أن نشير فى النهاية إلى أنه من سوء حظ الغورى أن تجمعت فى حكمه جميع مفاسد ومساوئ العصر المملوكى الذى ترسبت فيه على مدى عشرات السنين كل أسباب الضعف والتدهور والانحلال ، من إغراق فى اللهو والترف وتدبير للفتن والمؤامرات ورغبة فى تحقيق الأطماع غير المشروعة وبعد عن رعاية المصلحة العامة ، فاستفحلت الضائقة الاقتصادية وعجز السلطان عن سداد متطلبات المماليك ، الأمر الذى أدى إلى انتشار التذمر بينهم وتهديدهم بالعصيان والفتنة وازدادت وطأتهم على الناس وكثر نهبهم للأموال وعدوانهم على التجار واستشرى أذاهم فى الأرض وكلما ازداد جشع السلاطين وحاجتهم إلى المال لم يجدوا أمامهم إلا الشعب المغلوب على أمره يستنزفونه ويمتصون دماءه حتى أشرف على الهلاك والبؤس ، وقد لقى الناس الأمرين من الغورى وأمرائه إذ ضاعف الرسوم الجمركية وتلاعب فى العملة حتى يستفيد من فروقها ، الأمر الذى أضر بالمواطنين وبصفة خاصة التجار ويذكر ابن اياس أن الغورى ضرب فلوسا جدد تخسر فى المعاملة الثلث ، الأمر الذى أدى إلى تعطل الأسواق عن البيع والشراء وكان نصف

---

(١) مرج دابق : سهل يقع إلى الشمال قليلا من حلب ، وقد جرت فيه المعركة التى وقعت بين المماليك والعثمانين وعلى الرغم مما أبداه المماليك من شجاعة إلا أنهم منوا بهزيمة ساحقة ويرجع ذلك إلى تفوق العثمانين فى البنادق والمدفعية وخيانة خاير بك الذى استطاع سليم الأول أن يضمه إلى جانبه فنشر بين صفوف الجيش المملوكى أن الغورى قد قتل وانسحب بالجناح الأيسر للجيش فكشف باقى الجيش أمام الأعداء .

الفضة ينكشف فى ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمراء ، إذ كانوا يخلطون الذهب والفضة بالنحاس[1] .

وبذلك استطاع الغورى أن يحقق أمنيته ، فجمع ما يريد من المال الذى أنفقه فى شراء مماليكه وإقامة المنشآت المعمارية التى كتبت له صفحة خالدة فى مجال العمارة الإسلامية والتى لازال الكثير منها قائما فى القاهرة حتى اليوم .

---

(١) ابن إياس : جـ ٥ ص ٨٩

الوصف المعمارى

تقع المدرسة فى شارع المعز لدين الله عند التقائه بشارع الأزهر ، وقد حلت هذه المدرسة محل مدرسة قديمة تعرف باسم مدرسة مختص نسبة إلى منشئها الطواشى مختص رأس نوبة السقاة فى عهد السلطان الظاهر قنصوه سعيد ، فلما تولى السلطان الغورى ملك مصر غضب على الطواشى مختص وصادر أمواله وقرر عليه غرامة كبيرة لم يستطع سدادها فأعطاه مدرسته سدادا لجزء مما عليه ، فهدم الغورى المدرسة وأضاف إلى مساحتها أرض سوق الحملون وما حوله من الأسواق وبنى على كل تلك المساحة التى بلغت (٨٨٠) مترا مربعا مدرسته المعروفة .

ويحدثنا ابن اياس[1] عن فخامة وروعة مدرسة الغورى ، فيقول : إنه قد صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، وأن بناءها تم فى ليلة عيد الأضحى سنة ٩٠٨ هـ فأقيمت هناك وليمة حافلة حضرها الخليفة العباسى المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة وأعيان الناس والأمراء ، كما حضر قراء البلد والوعاظ ومدت الأسمطة الحافلة ، وعملت هناك وقدة حافلة وزينت الدكاكين التى كانت هناك من باب زويلة إلى سوق الشوايين وعلقت التنانير والقناديل الموقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة .

ومما يؤخذ على السلطان الغورى فى بنائه هذه المدرسة أنه استغل سلطته فى الحصول على المواد اللازمة للبناء بثمن بخس ، كما خرب الكثير من العمائر القائمة للاستيلاء على ما بها من رخام وأخشاب وفسيفساء ، مما جعل أهل القاهرة يسخرون من الغورى فأطلقوا على المدرسة اسم « المسجد الحرام » لما وقع فيها من غصوبة الأرض ومصروف العمارة من مال فيه شبهات » كما يقول ابن اياس[2] .

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ٨٧ .

(٢) المرجع السابق : جـ ٤ ص ٥٩ .

وبرغم وصف السلطان سليم الأول لمدرسة الغورى بأنها « قاعة تاجر » كناية عن المبالغة الكبيرة والمغالاة فى الزخرفة والزينة وكثرة الأموال التى أنفقت عليها من غير حساب ، إلا أنه قد أعجب بها إعجابا شديدا ، فقد ذكر ابن اياس فى حوادث سنة ٩٢٣ هـ أن السلطان سليم قد شرع فى فك رخام قاعة البيسرية وقاعة البحرة والقصر الكبير وغير ذلك من المنشآت الموجودة بالقلعة كما فك الأعمدة الموجودة بالإيوان الكبير ، لأنه ينوى إنشاء مدرسة فى اسطانبول مثل مدرسة الغورى » .

الواجهة الرئيسية :

تقع فى الضلع الشرقى للمدرسة ويبلغ طولها (٣٨٫٧٥) من المتر ، ويمكن تقسيمها إلى قسمين واضحين ، القسم الأول ويحتوى على مدخل المدرسة الرئيسى ويبلغ طوله (١٥٫٩٥) م والثانى يبرز على الأول بمقدار (٠٫٣٥) من المتر ويشمل واجهة إيوان القبلة وقاعدة المئذنة ويبلغ طوله (٢٢٫٨٠) من المتر . ويتكون الجزء الثانى من الواجهة من خمسة حنايا ضحلة مستطيلة تمتد حتى نهاية جدار المدرسة . ويتوجها أربعة صفوف من الدلايات البديعة التكوين ويعلو ذلك شرفات الواجهة المكونة من ورقة نباتية ذات خمسة فصوص ، وبكل حنية نافذتان إحداهما سفلية مستطيلة تملأها مصبعات حديدية ، ويعلوها عتب فوقه عقد عاتق وكلها مكون من صنجات معشقة من الرخام الأبيض والأسود ، ويعلو العقد شريط من الكتابة القرآنية ، أما النافذة العلوية فهى قنديلية الشكل مملوءة بجص معشق بزجاج متعدد الألوان .

أما الجزء الأول من الواجهة الرئيسية وهو الذى يقع شمال الجزء الثانى فيحتوى على ثلاثة صفوف من النوافذ ، يتكون الصف الأول منها من نافذتين مستطيلتين ، تقعان على شمال المدخل الرئيسى ، ويعلو النافذتين عتب فوقه عقد عاتق تحتوى كل منهما على صنجات معشقة من الحجر ، وقد ملئت النافذتان بمصبعات من الحديد . أما الصف الثانى فيتكون من أربع نوافذ معقودة بعقد مدبب ، اثنان على كل جانب من جوانب المدخل الرئيسى ، ويعلو النوافذ عتب مكون من سبع صنج معشقة من الحجر فوقه عقد عاتق يحتوى على خمس صنجات معشقة من الحجر كذلك ، أما الصف الثالث فيحتوى على

ثلاث نوافذ ، اثنتان على شمال المدخل الرئيسى وواحدة على جنوب المدخل ، ويعلو النوافذ جميعها عتب فوقه عقد عاتق تحتوى كلها على صنجات معشقة من الحجر .

ويتوسط المدخل الرئيسى القسم الشمالى من الواجهة الرئيسية ، وهو يرتفع عن مستوى أرض الشارع بمقدار (١٫٧٥) من المتر ، ويصعد إليه بسلم مزدوج تبلغ عدد درجات كل منها تسع درجات ، وتنتهى هذه الدرجات بردهة (بسطة) من الرخام الملون تتقدم المدخل تبلغ مساحتها (٧٫٥×٢٫١٠) من المتر يحدها سور من الرخام .

ويقع المدخل فى حنية تبلغ سعتها (٢٫٩٥) من المتر وعمقها (١٫١٥) من المتر كسيت واجهتها وجوانبها بالرخام الأبيض والأسود ، ويكتنفها مكسلتان من الحجر يبلغ طول كل منهما (١٫١٥) من المتر وعرضها (٠٫٥٥) من المتر يعلوهما شريط من الكتابة القرآنية ويتوسط الحنية فتحة الباب الذى يبلغ طوله (٢٫٨٠) من المتر وسعته (١٫٦٥) من المتر يعلوه عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات معشقة ، ويعلو العقد نافذة مستطيلة مغشاة بمصبعات نحاسية يكتنفها عمودان من الرخام الأبيض ، والنافذة داخل حنية مستطيلة يتوسطها خمسة صفوف من الدلايات ، يعلوها شريط من الكتابة محفورة فى الحجر ، ويحيط بالمدخل كله إطار مستطيل يعلوه عقد ذو ثلاثة فصوص تملؤه سبعة صفوف من الدلايات فى تكوين هندسى بديع وقد ملئ خواصر العقد بدوائر تحتوى على جمل دعائية للسلطان .

ويفضى الباب إلى ردهة (دركاة) مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٣٫٣٥) من المتر يتصدرها جلسة كبيرة يبلغ سعة حنيتها (٢٫٧٥) من المتر وعمقها (١٫٦٥) من المتر ويكسو حوائط الحنية فوق الجلسة وزرة من الرخام الملون يعلوها شريط من الكتابة القرآنية ، وسقف الدركاة من الخشب المزخرف بنقوش زيتية مذهبة ، وأرضيتها مفروشة بالرخام المتعدد الألوان ويكتنف الدركاة بابان ، الأيمن منهما يؤدى إلى دهليز طوله (٥٫٧٥) من المتر وعرضه (٠٫٩٠) من المتر يؤدى إلى حجرة مستطيلة بها نافلتان تطلان على شارع المعز ، وقد سبق التحدث عنهما عند وصف الواجهة الرئيسية للمدرسة ، كما يؤدى الدهليز فى جهته اليسرى إلى حجرة بها سلم حجرى يؤدى إلى ممر علوى من الخشب .

والباب الأيسر فى الدركاة يؤدى إلى ردهة مربعة الشكل تقريبا تبلغ مساحتها (٤٫٦٥×٤٫٧٥) من المتر . غير مسقوفة يتوصل منها إلى دهليز طوله ٦٫٦٥ من المتر وعرضه ١٫٧٥ من المتر جزء منه غير مسقوف ينتهى إلى صحن المدرسة .

الوصف من الداخل :

يتوسط المدرسة مكشوف مربع الشكل تقريبا إذ تبلغ مساحته (١١×١٢) مترا تحيط به الإيوانات من جهاته الأربع ، وتنخفض أرضيته عن باقى الإيوانات بمقدار (٣٥ر) من المتر . ويحيط بدائر الصحن من أعلى شريط من الكتابة القرآنية تعلوه أربعة صفوف من الدلايات الخشبية المموه بالذهب يتأتى فوقها ايزار من الخشب الخرط ، ويكسو حوائط الصحن وكذا الإيوانات رخام متعدد الألوان إلى ارتفاع (٢) مترين ويعلو الرخام شريط من الكتابة .

ويوجد بالصحن أربعة أبواب اثنان فى الضلع الشمالى يكتنفان الإيوان الشمالى ، يؤدى أحدهما إلى حجرة صغيرة والثانى إلى دهليز المدخل . واثنان فى الضلع الجنوبى يكتنفان الإيوان الجنوبى ، يؤدى أحدهما إلى المدخل الشمالى الغربى للمدرسة ، وإلى ضريح الشيخ الأنصارى الملحق بالمدرسة وغيره من الغرف والحواصل التابعة للمدرسة . أما الباب الثانى فيؤدى إلى دورة المياه ، ويعلو هذه الأبواب عتب علق عليه لوحات خشبية مكتوب عليها جمل دعائية ويعلو ذلك عقد عاتق مكون من صنجات معشقة فوقه شريط كتابى ، ويعلو ذلك حنية تنتهى بعقد مفصص منكسر يتوسطها نافذة صغيرة يكتنفها عمودان مندمجان ومملوءة بمصبعات حديدية .

ويشغل الضلع الشرقى من الصحن إيوان القبلة الذى يتكون من مستطيل كبير تبلغ سعته (٢٠٫٢٥) من المتر وعمقه (٩٫٥) من المتر يتقدمه عقد مدبب على شكل حدوة الفرس تبلغ سعته (٨٫٢٥) من المتر يرتكز على كتفين يبلغ سمك كل منهما (١٫١٠) من المتر . ويشغل جزءا كبيراً من مساحة إيوان القبلة حنيتان على جانبيه الشمالى والجنوبى تبلغ مساحة كل منهما (٥٫٨٠×٤٫٢٥) من المتر تعلو أرضيتهما عن مستوى أرضية الإيوان بمقدار (٣٠ر) من المتر . وتحتوى الحنية الشمالية على أربع فتحات ، نافذة فى الجهة الشرقية سبق وصفها عند

وصف الواجهة الرئيسية ، ونافذة فى الجهة الشمالية تطل على سلم المدخل الرئيسى للمدرسة كما يوجد باب آخر فى الضلع الشمالى إلى جوار النافذة يؤدى إلى غرفة مستطيلة يبلغ مساحتها (٤٫٢٥×٢٫٢٠) من المتر . وفى الضلع الغربى للحنية توجد كتبية كما جاء فى حجة الوقف[1] يقفل عليها مصراعان من الخشب المزخرف بطريقة الحشوات المجمعة ومطعم بالعاج والصدف .

أما الحنية الجنوبية بإيوان القبلة فعبارة عن مصلى ، يشغل ضلعها الجنوبى نافذتان معقودتان تطلان على حارة الطواقجية اتساع كل منهما (١٫٧٥) من المتر مملوءتان بمصبعات حديدية ويعلو كل منهما نافذة ثابتة معقودة ومملوءة بجص معشق بزجاج ملون ، وفى الضلع الغربى توجد فتحة باب تؤدى إلى غرفة صغيرة مساحتها (٣٫٣٥×٣٫٧٠) من المتر تذكر حجة الوقف أن هذا الباب يدخل إلى خلوة برسم الخطيب ، وفى الضلع الشرقى للحنية كتبية ذات مصراعين من الخشب المكون من حشوات مجمعة مطعمة بالعاج والصدف .

ويتصدر إيوان القبلة محراب مجوف تعلوه طاقية ذات عقد مدبب ، ويبلغ اتساع حنية المحراب (١٫٨٠) من المتر يكتنفها عمودان مثمنان من الرخام الأبيض ، ويبلغ ارتفاعها (٤٫٦٥) من المتر وعلى يمين المحراب يوجد منبر خشبى جميل مصنوع بطريقة الحشوات المجمعة ومطعم بالعاج والصدف وله ايزار يحيط جانبيه (ريشتاه) من أعلى من خشب الخرط . ويكتنف المحراب نافذتان يعلوهما نافذتان أخريان سبق الإشارة إليهما عند وصف الواجهة الرئيسية ويغطى إيوان القبلة سقف خشبى مزخرف بنقوش زيتية مذهبة ، ويحيط به إزار خشبى مقسم إلى بحور مستطيلة نقشت بها كتابات قرآنية .

ويشغل الضلع الغربى للصحن الإيوان الغربى المقابل لإيوان القبلة يتقدمه عقد مدبب على شكل حدوة الفرس تبلغ سعته (٨٫٤٠) من المتر . ويتكون الإيوان من مستطيل تبلغ مساحته (٩×٧٫٢٥) من المتر ويوجد بالضلع الشمالى لهذا الإيوان نافذتان معقودتان يطلان على سوق الجملون مملوءتان بمصبعات حديدية يعلوهما نافذتان علويتان مملوءتان بجص معشق

---

(١) محمد فهيم : مدرسة الغورى (حجة الغورى رقم) ٨٨٣ (أوقاف) .

بزجاج ملون ، ويشغل الجانب الجنوبى من الإيوان نافذة مستطيلة مملؤة بمصبعات حديدية تطل على ضريح الشيخ الأنصارى ، كما يشغلها حنية معقودة تستعمل لحفظ الكتب .

ويتصدر الإيوان الغربى حنية كبيرة مساحتها (٤٫٥ × ٣٫١٠) م يتقدمها عقد مدبب على شكل حدوة الفرس ترتفع عن أرضية الإيوان بمقدار (٠٫٣٠) م يشغل ضلعها الغربى نافذة مملؤة بمصبعات حديدية تطل على حارة التربيعة يعلوها نافذتان قنديليتان مملؤتان بجص معشق بالزجاج الملون ، ويشغل الضلع الجنوبى لهذه الحنية ، توجد حنية مستطيلة معقودة يبلغ اتساعها (١٫٥) م وعمقها (٠٫٢٥) م يقابلها فى الضلع الشمالى حنية مماثلة إلا أنها أكثر منها عمقا ، إذ يبلغ عمقها (١٫٥٥) مترا .

ويعلو الحنية التى تتصدر الإيوان الغربى دكة المبلغ ، المصنوعة من الخشب ويبلغ ارتفاعها (٥٫٧٥) م محمولة على مساند (كابولين) من الخشب .

الإيوانان الشمالى والجنوبى (السدلتان) :

يتكون كل منهما من مستطيل تبلغ سعته (٤٫٧٥) م وعمقه (٣٫٤٠) م ، ويتقدمه عقد مدبب على شكل حدوة الفرس ، ويصدر كل منهما حنيتان معقودتان بكل منهما باب خشبى يعلوه نافذة مستطيلة معقودة مملؤة بجص معشق بزجاج ملون ويؤدى أحد أبواب الإيوان الجنوبى إلى دهليز مستطيل يبلغ طوله (٥٫١٠) م وعرضه (١٫١٠) م مسدود يحيط بفتحة سماوية (منور) أما الباب الثانى فعبارة عن كتبية لحفظ الكتب .

أما أبواب الإيوان الشمالى فعبارة عن كتبيتين لحفظ الكتب .

المئذنة :

تقع المئذنة فى الركن الجنوبى الشرقى للمدرسة وتقوم على كتلة كبيرة مربعة من الحجر وتتكون من ثلاثة طوابق ، الطابق الأول مربع الشكل طول ضلعه (٤٫٣) م يفتح فى كل ضلع نافذة ضيقة داخل حنية يتوجها عقد دائرى ويكتنفها عمودان مندمجان ،

ويتقدم النافذة شرفة صغيرة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات ، ويتكون الطابق الثانى من مربع يبلغ طول ضلعه (٣٫١٠) م تحيط به شرفة من الخشب يرتكز على أربعة صفوف من الدلايات وبكل ضلع طاقة مستديرة قطرها (٠٫٧٠) م والطابق الثالث يتكون من مربع طول ضلعه (٢٫٨٠) مترا ، يفتح فى كل ضلع منه نافذة ضيقة معقودة ويفصل بين الطابق الثانى والثالث شرفة ترتكز على أربعة صفوف من الدلايات .

ويعلو الطابق الثالث خمسة رؤوس كمثرية الشكل من الخشب يعلو كل منها هلال من النحاس .

مدرسة الأمير قانى باى قرا الرماح

بالقلعة

جاء قانى باى قرا إلى مصر وهو صغير السن لم تتجاوز سنه الحادية عشرة ضمن من كان يجلب من المماليك وتملكه أولا « ولى الدين » لذلك كان اسمه « بقانى باى قرا من ولى الدين » نسبة إلى ولى الدين التاجر الذى باعه[1] قبل أن يتملكه السلطان قايتباى .

تعلم قانى باى القرآن الكريم فى كنف سيده السلطان قايتباى على يد فقيه طبقته كما تعلم الخط وأحكام الدين وآداب الشريعة الإسلامية ، كما تعلم فنون الحرب والنزال عند بلوغه سن الجندية وكذلك أنواع الفروسية الأخرى من ركوب الخيل والرمى بالنشاب واللعب بالرمح وقد أبلى فيها بلاء حسنا وصار مشهورا بين أقرانه بالشجاعة والفروسية واشتهر « بالرماح » وصار لقب « الرماح » ملازما لاسمه منذ ذلك الوقت .

كان قانى باى موضع عناية السلطان قايتباى فكان يحسن معاملته ويجعله محل إكرامه حتى أنه أعتقه ومنحه المال الوفير والملابس الغالية والأسلحة والخيل وعينه بوظيفة « جمدار »[2] ثم ترقى إلى وظيفة « سلاحدار » وفى صفر سنة ٨٩٨ هـ أنعم عليه

---

(١) بدائع الزهور جـ ٤ ص ٣٠ (نشر محمد مصطفى) .

(٢) الجمدار : اسم لوظيفة من وظائف الأمراء بالعصر المملوكى وهى تتألف من لفظين إحداهما من اللغة التركية جاما ومعناها الثوب والثانية دار الفارسية بمعنى ممسك . وبذلك يكون معناها الإجمالى ممسك الثوب أو الوصيف الذى يلازم السلطان أو الأمير لإلباسه ثيابه ويشترك فى حراسته .

القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٦ ، ضوء الصبح المسفر ص ٣٤٤

السلطان الأشرف قايتباى بأن جعله أمير عشرة ثم عينه بعد ذلك بفترة قصيرة فى نيابة « قلعة صهيون » بالشام نيابة عنه وواليا عليها من قبله وتلى ذلك أن عينه السلطان أتابكا بحلب ، وظل فى هذا المنصب حتى أوائل عام ٩٠٢ هـ (١٤٩٧ م) وهو مقيم بحلب .

وفى عام ٩٠١ هـ توفى السلطان قايتباى وخلفه فى السلطنة ابنه محمد بن قايتباى الذى أنعم على قانى باى الرماح عند حضوره إلى القاهرة من حلب وجعله « مقدم ألف » بدلا من « أمير عشرة » وفى المحرم من عام ٩٠٣ هـ بدأ نجم قانى باى الرماح فى التألق والصعود ، إذ عينه السلطان محمد بن قايتباى فى وظيفة « أمير آخور كبير » .

ظل قانى باى الرماح يشغل وظيفة « أمير آخور كبير » بعد وفاة السلطان محمد بن قايتباى وحكم السلطان قانصوة الأشرفى ٩٠٤ ـ ٩٠٥ هـ) .

أفل نجم قانى باى الرماح فى عهد السلطان الدوادار الذى اعتلى عرش السلطنة بعد السلطان قانصوة الأشرفى إذ قبض عليه السلطان الدوادار وسجنه(١) .

وعندما اعتلى عرش السلطنة الأشرف جانبلاط بعد قتل السلطان الدوادار ، أفرج عن قانى باى الرماح سنة ٩٠٥ ـ٩٠٦ هـ) وأعاده إلى وظيفته السابقة وهى (أمير آخور كبير) .

وفى جمادى الأولى من عام ٩٠٦ هـ أرسله السلطان الأشرف جانبلاط قائدا للحملة إلى بلاد الشام ومعه الأمير طومانباى لإخماد الفتنة التى فجرها (قصروه) نائب الشام الذى شق عصا الطاعة على السلطان وبعد عودة قانى باى الرماح من الشام أعيد إلى وظيفته الأصلية بعد غيبة مقدارها شهر وذلك بعد أن أبعد السلطان جانبلاط عن الحكم وتولى السلطنة مكان طومانباى الأول .

وفى عهد السلطان قانصوه الغورى (٩٠٦ـ٩٢٢هـ) سطع نجم قانى باى الرماح مرة أخرى إذ أوكل إليه السلطان قيامه على رأس حملة عسكرية لتأديب عربان الشرقية الذين أثاروا

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ٤٣٥

الفتنة ضد السلطان وبعد ذلك اختاره السلطان للنظر فى المظالم والشكاوى المقدمة من أفراد الشعب ضد الضرائب الجديدة التى فرضت عليهم وكان نصيب قانى باى الرماح البت فى مظالم الأهالى الخاصة بضرائب المراكب والسواقى[1] .

أناط السلطان الغورى مهمة سد جسر أم دينار[2] بالجيزة إلى الأمير قانى باى الرماح وذلك لفيضان المياه منه أثناء زيادة النيل عام ٩١٥ هـ .

تولى الأمير قانى باى الرماح بتكليف من السلطان الغورى أيضا مهمة تجديد عمارة ميدان المهارة الذى يقع بالقرب من قناطر السباع[3] وذلك فى عام ٩١٨ هـ .

قاد قانى باى الرماح حملة عسكرية جهزها السلطان الغورى عام ٩١٣ هـ ، للذهاب إلى بلاد الشام عندما بلغه أن اسماعيل شاه الصفوى قد هاجم الأطراف الشمالية من السلطنة المملوكية وقد وصل قانى باى بجيشه إلى مدينة (ملطية) فى الشمال الشرقى لمدينة حلب وكانت وظيفته فى الجيش باشا على العساكر وهى كلمة تتألف من لفظة (باش) التركية بمعنى رأس أو رئيس والعساكر بمعنى الجنود وهى وظيفة عسكرية عالية فى مصر عصر المماليك .

بدأ الأتراك العثمانيون يولون وجههم شطر العالم الإسلامى العربى وضد الشيعة الصفويين على وجه الخصوص إذ بعث سليم العثمانى فى ربيع الأول عام ٩٢٠ هـ رسالة إلى السلطان الغورى أوضح له نواياه تجاه الصفويين ، فما كان من الأخير إلا أن جرد جيشا كبيرا أسند قيادته إلى الأمير قانى باى الرماح « باش العسكر » ليرابط فى حلب ويرقب ما سيحدث بين الفريقين المتخاصمين وقد مكث قانى باى الرماح بجيشه مرابطا فى حلب حتى وصلت

---

(١) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٥

(٢) أم دينار : قرية من قرى مركز امبابة بمحافظة الجيزة تقع إلى الشمال الغربى من القناطر الخيرية وقد أقيم عندها جسر فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون لتنظيم الرى بماء النيل فى الأحواض وقت الفيضان وهذا الجسر لا يزال باقياً إلى اليوم ومعروفاً باسم (صليبة أم دينار) ابن إياس جـ ٤ ص ١٥٩

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٢٨٨

الأنباء للسلطان الغورى بانتصار سليم العثمانى على الصفويين[١] عند ذلك عاد قانى باى الرماح بجيشه إلى القاهرة من حلب بعد أن ظل مقيما بها حوالى تسعة أشهر وقد قابل هو والأمراء المرافقين له السلطان الغورى بالقلعة حيث كافأهم ومنحهم بعض الخلع وأثنى عليهم لإخمادهم ثورة الجنود الذين تحت امرتهم الذين عاثوا فى مدينة حلب فسادا ونهبوا الدور وهددوا بنهب أسواق المدينة بسبب تأخر صرف رواتبهم وبلغ بهم الأمر أن هددوا قانى باى الرماح نفسه بالقتل .

امتاز الأمير قانى باى الرماح بالكثير من الخصال الحميدة فوصفه ابن إياس[٢] بأنه كان أميرا جليلا مبجلا معظما وكان يتصف بالمروءة والشجاعة والنجدة وفى حياته شواهد عديدة على ذلك ، منها مساعدته للحجاج الفقراء الذين كانوا يرافقون بعثة الحج الرسمية فكان يرسل إليهم الإبل والمؤونة والملابس والماء وكان يكثر من الصدقات على الفقراء المقيمين بالحرمين المكى والمدنى وكذلك على المجاورين بالأزهر الشريف . وكان مالكى المذهب كما هو واضح من الألقاب الواردة فى النصوص التذكارية المنقوشة فى مدرستيه بميدان القلعة وبحى الناصرية .

ومن مآثره تشييده لكثير من الأسبلة بالقاهرة وضواحيها حيث كان يصب فى صهاريجها وخزاناتها « روايا الماء العذب » الذى كان يجلب من نهر النيل » ومن صفات قانى باى أيضا حبه للترف ويتجلى ذلك فى خروجه فى حرس خاص عند توجهه إلى حلب فى أعظم قوة وأبهج زى وأفخر هيئة وأحسن ملبس ويصف ابن اياس[٣] « طلب » الأمير قانى باى بأنه : « كبير غاية فى الحسن ، ما بقى فيه ممكنا » .

كان قانى باى شغوفا باقتناء الكتب وجمع المصاحف فقد زود مدرستيه بالقلعة والناصرية بنسخ منها لينتفع بها الصوفية وطلبة العلم وغيرهم ...

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٤٠٠ ، ٤٠١

(٢) بدائع الزهور جـ ٤ ص ٤٥١

(٣) بدائع الزهور جـ ٤ ص ٣٩٢ : الطلب مفرد والجمع أطلاب وهم الحرس الخاص لأمراء المماليك يحملون سلاحاً كالأجناد .

هذا إلى أن قانى باى لم يشذ عن بقية أمراء المماليك من حيث التناحر والتنافس بين بعضهم البعض والوثوب إلى مراكز السلطة والحكم واستعمال البطش والقسوة فى الوصول إلى تلك الغاية ومما يؤخذ عليه قسوته وتعليبه للفلاحين والعربان الذين يشقون عصا الطاعة على السلطان فكثيرا ما أساء إلى الناس لإخلادهم إلى السكينة . ولقد لقى منه أهل الشام وحلب العديد من صنوف القسوة فى تحصيل ما عليهم من ضرائب للسلطان الغورى.

استطاع الأمير قانى باى الرماح أن يكون لنفسه أسرة كبيرة بمصر من أبنائه وبناته وأصهاره ، فقد تزوج بابنة الأمير يشبك من مهدى « الست سعد الملوك » ورزق منها بولد هو الناصرى محمد وكان شديد العناية بولده وحريص على حياته وحياة أمه سعد الملوك . إذ حدث أن تزايد وباء الطاعون بمصر ، فقد أرسل الأمير قانى باى الرماح ولده الناصرى محمد بصحبة والدته إلى جبل الطور التى كان يعتقد أنه لا يدخلها الطاعون .

توفيت (سعد الملوك) زوجة الأمير قانى باى الرماح بعد وفاته بحوالى عامين .

كان للأمير قانى باى الرماح بنت من إحدى جواريه (جان سوار) هى سنينة التى تزوجت بعد وفاة أبيها بعام من الأمير[1] الماس المعروف بدوادار مسكين وكان أمير عشرة عند دخوله بها ثم كان فيما بعد واليا للشرطة بالقاهرة واحتفل بعرسه أمراء الدولة آنذاك .

ولقد كان للأمير قانى باى الرماح شغف كبير بالبناء والتعمير ، فقد شيد العديد من العمائر والمنشآت الدينية والمدنية بمصر والشام ، وما بين طباق سكنية ووكائل وخانات وقاعات ومدارس وأسبلة ، سجلها كلها بدقة فى حجة وقفه المدونة فى شهر رمضان سنة ثمان وتسعمائة[2] (سنة ١٥٠٣ م) على أن أعظم منشآته الدينية التى ما تزال قائمة بمدينة القاهرة هما مدرسته بالقلعة ومدرسة الناصرية اللتان ذكرهما ابن اياس[3]

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٥ ص ١٤ ، جـ ٥ ص ٢٦

(٢) حجة وقف الأمير قانى باى الرماح محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة رقم (١٠١٩) .
أنظر سامى عبد الحليم : آثار قانى باى الرماح بالقاهرة (رسالة دكتوراه مخطوطة بجامعة القاهرة) .

(٣) ابن إياس : جـ ٤ ص ٤٥١

فقال : « كما أنشأ الجامع الذى عند المصنع تجاه سوق الخيل (ميدان القلعة) والجامع الذى بالقرب من ميدان المهارة الذى بجوار البركة الناصرية » وسنقف بوصف كل منهما وصفا معماريا مفصلا . أقام الأمير قانى باى الرماح بالقاهرة بعد رجوعه من حاب فى الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٩٢١ هـ (مايو ١٥١٥ م) فى المكان الذى كان يعرف « بباب السلسلة » من الاصطبل السلطانى بالقلعة وبعد خمسة أيام من إقامته مرض مدة خمسة أيام أخرى ووافته منيته فى السادس والعشرين من ربيع الأول عام ٩٢١ هـ عن عمر يقارب الستين عاما وعلق ابن اياس على موته بقوله إن ذلك كان حتى أشيع أنه مات مسموما » وقد أمر السلطان الغورى بنقل جثمانه من « باب السلسلة » بالقلعة فى تابوت إلى بيته « بجدرة البقر » المطلة على بركة الفيل بدرب الجماميز ثم أخرجت جنازته من داره فى موكب حافل سار فيه القضاة الأربعة وكبار الأمراء وغيرهم من كبار موظفى الدولة وكانت تتقدم نعشه « كفارة »[١] . وعند وصول الجنازة إلى ميدان الرميلة (القلعة الآن) لحق بها السلطان الغورى وصلى على الجنازة مع باقى المشيعين ثم دفنوه فى مدرسته التى تجاه سوق الخيل[٢] .

---

(١) كفارة : هى أن يسير أمام نعش الميت جمل أو أكثر يحمل على جانبيه صناديق مملوءة بالفطير والشريك ونحوها (تسمى كفارة) حيث يوزعها راكب الجمل على طول الطريق (العادات والتقاليد المصرية أحمد أمين) .

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١١١ حاشية رقم (١) سوق الخيل كان واقعاً تحت قلعة الجبل فى الجهة التى كانت تعرف قديماً بالرميلة والآن بالمنشية بدائرة قسم الخليفة بالقاهرة .

الوصف المعمارى

(أثر رقم ١٣٦)

تقع هذه المدرسة الآن بميدان القلعة الذى كان يعرف قديما باسم ميدان الرميلة وبسوق الخيل وبالمنشية ثم بسوق العصر حيث كان يقوم فيه سوق عصر كل يوم ثم أطلق عليه ميدان صلاح الدين[1] وتقع المدرسة على ربوة وأمامها طريق صاعد مبنى بالحجر ينتهى من أعلاه بدرجات توصل إلى الطريق العام المعروف باسم (سكة درب اللبانة)[2] .

تتكون المدرسة من شكل مستطيل تبلغ مساحته ٤١٫٦ م طولا × ٢٤ مترا عرضا وهى من المدارس المعلقة ، إذ يوجد تحتها دور أرضى يحتوى على حواصل ويصعد إليها بمجموعة من الدرجات .

الواجهة الرئيسية :

تقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الجنوبى من المدرسة ويبلغ طولها (٤١٫٦٠) م وارتفاعها عن مستوى الأرض حتى نهاية الشرفات (١٨) م وتنقسم الواجهة إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يشمل الركن الجنوبى الشرقى القبة والحجرة التى تتقدمها والجزء الأوسط مدخل المدرسة الرئيسى ومدخل المئذنة والقسم الجنوبى الغربى الذى يشمل السبيل والكتاب الملحق بالمدرسة .

ويحتوى الجزء الجنوبى الشرقى من الواجهة على حنيتين مسطحتين إحداهما كبيرة وهى التى تكون حائط الضريح الجنوبى وتحتوى على صفين من النوافذ ، يتكون الصف السفلى من ثلاث نوافذ يبلغ طول كل منها (٢٫٤) م وعرضها (١٫٣) م ويعلوها

---

(١) سامى عبد الحليم : آثار الأمير قانى باى الرماح بالقاهرة (رسالة دكتوراه مخطوطة) .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٧٥

جميعا عتب ممتد مكون من صنجات معشقة ، ويعلو كل نافذة عقد عاتق مكون من صنجات معشقة كذلك ، ملئت بمصبعات حديدية ، ويعلو هذه النوافذ صف آخر من ثلاث نوافذ (قنديلية) يحيط بالجزء العلوى منها إطار منحوت فى الحجر بنقوش (جفوت وميات)[1] ويتوج هذه الحنية الكبيرة ثلاثة صفوف من الدلايات فى وضع هندسى جميل . ويلى للحجرة التى تتقدم الضريح تحتوى كل منهما على نافذتين إحداهما سفلية تشبه تماما نوافذ الحنية الكبيرة وأخرى علوية معقودة ، وتحتوى كل حنية بثلاثة صفوف من الدلايات تشبه دلايات الحنية الكبيرة .

أما الجزء المتوسط من الواجهة فيبرز قليلا عن الجزء السابق ، وقد خلف فى هذا البروز عمود صغير منحوت فى الحجر بقصد الزخرفة ، ويتوسط المدخل الرئيسى للمدرسة هذا الجزء ، وهو يرتفع بمقدار (٧) م عن مستوى الأرض ، ويصعد إليه عن طريق مصعد منحدر عرضه (٥ر٤) م يمتد بطول المدرسة وله حاجز حجرى قليل الارتفاع (درابزين) . ومن هذا المنحدر يصعد إلى المدرسة بأربع عشرة درجة . ويتكون المدخل من باب عرضه (٦٠ر١) م وارتفاعه ثلاثة أمتار ، يعلوه عتب مكون من صنجات معشقة من الرخام الملون ، فوق عقد عاتق يحتوى على صنجات معشقة كذلك ، وعلى جانبى الباب مكسلتان ترتفع كل منهما بمقدار متر عن مستوى أرضية المدخل ويعلو كل منهما شريط عريض يحتوى على كتابة بالخط الثلث المملوكى نص ما جاء فى الجانب الأيسر من الباب : « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة من فضل الله المقر الأشرف الكريم » وتكملة النص فى الجانب الأيمن « العالى المولوى السيفى قانى باى أمير آخور كبير أعزه الله تعالى » .

ويعلو العقد العاتق للباب نافذة مستطيلة يكتنفها عمودان مندمجان ويعلوه ثلاثة صفوف من الدلايات ، ويتوج المدخل كله من أعلى عقد ذو ثلاثة فصوص ويحيط به إطار مستطيل من الزخارف الحائطية البارزة .

---

(١) هذه التعبيرات ترد دائماً فى الوصف المعمارى لحجج الوقف ، وهى عبارة عن زخارف معظمها محفور فى الحجر تشبه الزخارف القالبية على شكل .

وإلى يسار المدخل توجد قاعدة المئذنة ، ويلى ذلك باب كبير ذو عقد دائرى تبلغ سعته « ٣٫٤ » م وارتفاعه (٦٫٥) م يصعد إليه بمطلع موازى لمطلع المدرسة السابق الإشارة إليه يبدأ من الركن الشمالى الغربى بأسفل نافذة السبيل وتبلغ عدد درجاته ست . ويعلو الباب نافذة مستطيلة يعلوها عقد مسطح مكون من صنجات معشقة ملونة ، ويعلوه ثلاث نوافذ صغيرة معقودة ويجاور هذا الباب الكبير باب آخر صغير يؤدى إلى السبيل والكتاب يعلوه عتب وعقد عاتق مكون من صنجات معشقة ملونة ويعلو هذا الباب ثلاث نوافذ فى وضع رأسى ، اثنان مربعان ، والعلوى منهم مستطيل وكلها مملوءة بمصبعات حديدية القصد منها إضاءة السلم الموصل إلى السبيل والكتاب .

أما القسم الثالث من الواجهة فيشغله السبيل والكتاب وهو يبرز عن الجزء المتوسط من الواجهة بمقدار (١٫١) مترا ونلاحظ أن المئذنة قد تصدعت سنة ١٨٧٠ م[1] وأعادت لجنة حفظ الآثار الإسلامية بناءها ، كما أعادت بناء السبيل والكتاب سنة ١٣٥٨ هـ ، متبعة فى ذلك نفس النظام المعمارى والهندسى القديم ، ويعلو الواجهة كلها شرفات على شكل ورقة نباتية ذات ثلاثة فصوص فى وضع هندسى بديع

وصف المدرسة من الداخل :

يؤدى المدخل الرئيسى إلى دركاة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٢٫٣) م بصدرها جلسة حجرية مخصصة كما جاء فى حجة الوقف (لقراء الصفة) بالمعيدين بالمدرسة ، وسقف الدركاة من الخشب الملون والمذهب والذى وصفه بحجة الوقف باسم (مسقف سكندريات على مربعات)[2] ويحيط بالسقف الخشبى إزار مكون من ثلاثة صفوف من الدلايات ، وتؤدى الدركاة إلى ممر منكسر يبدأ من الضلع الشرقى لها ويبلغ طول ضلعه الأول (٤٫٢) م وعرضه (١٫٦) م وهو مغطى بقبو حجرى مدبب الشكل ويغطى زوايا الانكسار فى هذا الممر أقباء متقاطعة وينكسر هذا الدهليز أو الممر أولا فى جهته الغربية

---

(١) وزارة الأوقاف : مساجد مصر جـ ٢ ص ١١٢

(٢) سامى عبد الحليم : آثار قانى باى بالقاهرة ص ١١٣

إلى ضلع يوصل إلى باب سلم المئذنة يبلغ طوله (٢٫٥٥) م وعرضه (١٫٢٠) م ثم يمتد الدهليز بعد ذلك عموديا حتى ينتهى إلى صحن المدرسة ويبلغ طول هذا الضلع (٨٫٩) م وعرضه (١٫٣٠) م غطى جزء منه يبلغ طوله (٤٫٧) م بقبو حجرى مدبب وترك الجزء الباقى الذى ينتهى إلى الصحن مكشوفا ويفتح فى هذا الدهليز باب يؤدى إلى حجرة صغيرة يبلغ مساحتها ٢٫٤٢ × ١٫٥٠ مترا ولها نافذة تطل على الواجهة الرئيسية ، يستخدمها حاليا خادم المدرسة ، كما يفتح فى الضلع الكبير من هذا الممر نافذتان للحجرة التى تتقدم الضريح .

وتتكون المدرسة من تخطيط متعامد ، إذ يتوسطها صحن مربع الشكل يبلغ طول ضلعه (٧٫٥) م تحيط به الإيوانات من جهاته الأربع ، وكان الصحن وقت إنشائه كما جاء فى حجة الوقف مغطى بسقف خشبى تتوسطه فتحة مثمنة الشكل (شخشيخة) ، أما الآن فهو صحن مكشوف ، ويوجد بالصحن أربعة أبواب اثنان بالضلع الجنوبى منه أحدهما باب الدخول من الممر السابق الإشارة إليه والثانى يؤدى إلى الحجرة التى تتقدم الضريح ، والبابان الآخران بالضلع الشمالى الشرقى منهما كان خلوة ، فتحت الآن ، أما الغربى فكان يؤدى إلى مبانى أخرى كانت ملحقة بالمدرسة اندثرت كلها الآن ، ويبلغ سعة هذه الأبواب (١٫٣) م وارتفاعها (٢٫٩٠) م ويغلق على كل منها ضلفتان من الخشب ، ويعلو كل باب عتب مكون من صنجات معشقة يعلوه عقد عاتق فوقه شريط عريض نقش به شريط من الكتابة بالخط الثلث المملوكى نصها يبدأ من باب الضلع الشمالى الشرقى « أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة » ويستمر إلى الباب الثانى بهذا الضلع « المقر الأشرف الكريم العالى » ثم يسير إلى باب الضلع الجنوبى « السيفى قانى باى أمير آخور وينتهى عند الباب المؤدى إلى الضريح « كبير الملكى الأشرفى أعز الله أنصاره » .

ويعلو شريط الكتابة نافذة يكتنفها عمودان مندمجان ويعلوها مصبعات حديدية ويعلو النافذة حنية زخرفية تنتهى بعقد ذى زاوية به زخارف مشعة .

ويعتبر إيوان القبلة الإيوان الرئيسى للمدرسة ومن ثم فقد أطلق عليه فى حجة الوقف اسم الإيوان الكبير ، ويتكون من مستطيل يبلغ طوله (١٠) مترا وعرضه (٦٫٢) م يفتح

على الصحن بعقد مدبب ذى حلوة فرس ممتدة يبلغ سعته (٦ر٥) م وارتفاعه (٨ر١) م وعرض صنجاته (٩٠ر) م ، وتنتهى أرجله بصفين من الدلايات . ويرتفع الإيوان عن أرضية الصحن بمقدار (٢٥ر) مترا . ويوجد فى الضلع الجنوبى لإيوان القبلة نافذتان تفتحان على الضريح المجاور ، ارتفاع كل منهما (٥ر٢) م وعرضها (٣٥ر١) م مملؤة بمصبعات حديدية ويرتفع كل منهما عن مستوى أرضية الإيوان بمقدار (٢٥ر) م . ويعلو كل منهما عتب مكون من صنجات معشقة فوقه عقد عاتق تحتوى كذلك على صنجات معشقة ، ويعلو النافذتين نافذتان علويتان معقودتان ارتفاع كل منهما (٦٠ر٢) مترا وعرضها (٢٥ر١) م وبالضلع الشمالى لإيوان القبلة توجد نوافذ مماثلة تماما لنوافذ الضلع الجنوبى وهى تطل على خرائب الآن .

وبصدر إيوان القبلة يوجد محراب يبلغ عمقه (٩ر) م وسعته (١ر١) م تعلوه طاقية ذات عقد مدبب ويكتنفه عمودان من الرخام مثمنة الأضلاع ويبلغ ارتفاعه (٦ر٤) م وقد زخرفت حنية المحراب بأشرطة بها زخارف نباتية تحصر بينها نقوش كتابية من آيات الذكر الحكيم نصها :

١ - « بسم الله الرحمن الرحيم « يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا » .

٢ - « واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » صدق الله العظيم

كما زخرفت حواضر عقد المحراب بزخارف هندسية دقيقة غاية فى الإبداع ، ويكتنف المحراب حنيتان متماثلتان اللهم إلا فى العمق ، إذ تبلغ ارتفاع كل منهما (٨ر٣) م وسعتها (٢٥ر١) م وعمق الجنوبية منهما (٢٥ر) م والشمالية (٧٥ر) م ويعلو كل منهما عقد مدبب مماثل لعقد طاقية المحراب ويقفل على كل منهما ضلفتان من الخشب ، تستعمل العميقة منهما كما جاء فى حجة الوقف لخطيب المدرسة أما الثانية فهى (كتبية) ويعلو المحراب نافذتان قندلية كبيرة تتكون من ثلاث فتحات مستطيلة معقودة يعلوها ثلاث فتحات مستديرة يضمها جميعا إطار مستطيل ، وإلى جانب المحراب يوجد منبر من الخشب الخرط والحشوات المجمعة .

ومما يدعو للملاحظة أن المعمار أراد تغطية إيوان القبلة المستطيل بقبة ومن ثم فقد كان عليه أن يحول الإيوان إلى مربع فأقام عقدين يبدأ كل منهما من فتحة الإيوان وينتهى إلى حائط القبلة ، وبذلك حصل على مربع طول ضلعه (٦٫٥) م يكتنفه مستطيلان مقبيتان استطاع أن يقيم عليه قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية . وتغطية الإيوانات بالقباب ظاهرة تستحق التسجيل ، إذ لم يسبق لها ، ونحن لا نتفق مع ما ذهب إليه هونكير (Honker) من أن هذا الأسلوب من التغطية متأثر بالطراز العثمانى وذلك لأسباب عدة أولها أن هذه المدرسة قد بنيت قبل الفتح العثمانى إذ من الثابت أنها أنشئت سنة ٩٠٨ هـ بينما كان الفتح العثمانى سنة ٩٢٣هـ ، ثانيا لم يكن هناك اتصال تجارى أو ثقافى أو حربى مباشر فى تلك الفترة بين مصر وتركيا ، وإذا أضفنا إلى ما تقدم أن هناك قياس مع الفارق بين تغطية الجامع التركى الذى يختلف فى تخطيطه اختلافا كبيرا عن الجامع والمدرسة فى مصر والشام ، الذى يتكون من جزئين رئيسيين مربع للصلاة مغطى بقبة ومربع للصحن مكشوف ، كما لا نتفق مع ما ذهب إليه سامى عبد الحليم أن هذا الأسلوب من التغطية قد وجد منذ العصر الفاطمى ، وهذا قياس مع الفارق ، إذ أن القباب التى أقيمت فى العصر الفاطمى بل والسابقة عليها مثل قبة الصليبية كانت لتغطية مربع داخلى وليس لتغطية إيوان مستطيل مفتوح كلية على الصحن .

هذا وقد نقش بدائر القبة شريط من الكتابة المملوكية يبدو عليها آثار التذهيب نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الاخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » صدق الله العظيم أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة المقر الأشرف الكريم العالى المولوى السيدى السندى الزخرى العضدى الأميرى الكبيرى السيفى قانى باى أمير آخور كبير الملكى الأشرفى أعز الله أنصاره بمحمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا » .

ويتكون الإيوان الغربى أو كما جاء فى حجة الوقف (الإيوان الصغير) وهو المقابل لإيوان القبلة من مستطيل يبلغ طوله (٧) أمتار وعمقه (٣٫٩) م يتقدمه عقد مدبب

---

(٢) سامى عبد الحليم : آثار قانى باى بالقاهرة ص ١٢٨

على شكل حدوة الفرس الممتدة يبلغ سعته (٦ر٥) م وارتفاعه (١٠ر٨) م وهو يماثل عقد إيوان القبلة تماما حتى فى زخارفه ، ويوجد فى الضلعين الجنوبى والشمالى للإيوان الغربى حنيتان متماثلتان يبلغ عمق كل منهما (٥ر) مترا وسعة الفتحة (١٫٥٠) مترا والارتفاع (٢ر٥) مترا . ويعلو كل منهما عتب مكون من صنجات معشقة يعلوه عقد عاتق وفوق ذلك نافذة مستطيلة مملؤة بمصبعات حديدية .

وفى صدر الإيوان الغربى توجد ثلاث نوافذ يبلغ ارتفاع كل منها (٢ر٥) م وعرضه (١ر٢٥) م يعلوها صف آخر من النوافذ معقودة بعقود مدببة ، والإيوان مغطى بسقف يشبه إلى حد كبير سقف إيوان القبلة مع خلاف بسيط ، إذ بينما يغطى الأخيرة قبة يغطى الإيوان الغربى أقباء متقاطعة ، وهى أيضا ظاهرة تستحق الملاحظة وتؤكد مصريتها وعدم تأثرها بالطراز العثمانى .

أما الإيوانان الاخران الجنوبى والشمالى والذى ورد ذكرهما فى حجة الوقف باسم (السدلتان) أى الحنية فهما متماثلان تماماً ، إذ يتكون كل منهما من مستطيل تبلغ طوله (٣ر٥) م وعمقه (١ر٩) م يتقدمه عقد مدبب يبلغ ارتفاعه (٥ر٩) م.

القبـة :

يقع الضريح فى الركن الجنوبى الشرقى للمدرسة ، ويتكون من مربع يبلغ ضلعه (٧ر٥)م ويوجد بكل ضلع من أضلاع المربع فيما عدا جدار القبلة ست نوافذ ، تطل على الواجهة الرئيسية وتطل على الحجرة التى تتقدم الضريح خمس نوافذ وباب الدخول إلى الضريح والضلع الشمالى يحتوى على أربع نوافذ تطل على إيوان القبلة والنافذتان الأخريان يقعان فى الجزء البارز عن سمت حائط القبلة وتطلان على الواجهة الشرقية للمدرسة ، وفى صدر الضريح توجد حنية المحراب التى يبلغ عمقها (٩٠ر) م وسعتها (١ر١) م ويعلو عقد مدبب يبلغ ارتفاعه (٤ر٩) م ويكتنفه عمودان من الرخام مثمن الأضلاع ، وقد زخرفت خواصر عقد المحراب بدوائر تحتوى على زخارف هندسية ، كما نقش فى حنية المحراب أشرطة بها كتابات قرآنية كما نقش بأعلى المحراب شريط على شكل (بحر) يحتوى على كتابات قرآنية ، يعلوها فتحة مستديرة تحيط دائرة كبيرة بها خطوط مشعة ، وعلى جانبى

المحراب حنيتان عمق كل منهما (٧٥ر) م وسعتها (١٫٢٥) م وارتفاعها (٣٫٧٥) م مترا يعلوها عقد مدبب ، يغطيهما ضلفتان من الخشب ، ويعلو الحنيتين نافذتان معقودتان .

ويغطى الضريح قبة ذات قطاع مدبب يبلغ ارتفاعها حتى قطبها (١٨٫٥) م تقوم على ثمان صفوف من المقرنصات ، وقد فتح فى منطقة الانتقال فى الأضلاع الأربعة بين صفوف المقرنصات نوافذ قنديلية كبيرة ، كما فتح فى رقبة القبة ست عشر نافذة ، ويحيط بالقبة من الداخل شريط عريض يحتوى على كتابات قرآنية ونص إنشاء المدرسة واسم المنشئ ويحتوى الضريح على تركيبتين حجريتين تعلو الفساقى الثلاث التى تحتوى إحداها على جثمان الأمير قانى باى الرماح ، والباقى على أفراد أسرته .

المئـذنة :

لقد سقطت المئذنة القديمة سنة ١٨٧٠ م كما سبق أن بينا وقد أعادت لجنة حفظ الآثار الإسلامية بناءها على ما كانت عليه فى الأصل . وتتكون المئذنة الحالية من ثلاثة طوابق تقوم على قاعدة تطل على الواجهة الرئيسية للمدرسة وهى الجزء القديم منها والتى يبلغ ارتفاعها (١٣٫٢٥) م . ويتكون الطابق الأول والثانى من مربعين فتح فى كل ضلع من أضلاعه نافذة معقودة ويفصل بين الطابقين شرفات تقوم خمسة صفوف من الدلايات ، أما الطابق الثالث فيتكون من ثمانية أعمدة يرتكز على شرفة تقوم على ثلاثة صفوف من المقرنصات ويعلو الطابق الثالث مربعان قائمان يعلوهما خوذتان فوقهما الهلال ، وظاهرة احتواء المئذنة على رأسين بدأت فى مصر منذ النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، فقد ذكر ابن كثير أن المئذنة المزدوجة الرأس وجدت فى مدرسة السلطان حسن التى سقطت سنة ٧٦٢ هـ ، ثم شاع هذا النوع من المآذن فى القرن التاسع للهجرة وحتى نهاية العصر المملوكى[1] .

---

(١) سامى عبد الحليم : آثار قانى باى الرماح بالقاهرة ص ١٥٩

مدرسة قانى باى الرماح

سنة ٩١١هـ بالناصرية

بحى السيدة زينب

أثر رقم (٢٥٤)

تقع المدرسة بحى الناصرية ، فقد ذكرها ابن اياس[١] فقال ، إن الأمير قانى باى أنشأ هذه المدرسة فى منطقة قريبة من ميدان المهارة الذى بجوار البركة الناصرية . وقد عرفت هذه المنطقة منذ القرن الثامن للهجرة باسم خط بركة الناصرية نسبة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى شيد هذا الميدان برسم سباق المهارى الخيل . أما عن تاريخ هذا الحى قبل السلطان الناصر محمد فيحدثنا عنه المقريزى[٢] فيقول : « إن بركة الناصرية كانت من جملة جنان الزهرى ، وسبب حفرها هو أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون لما أراد بناء الزريبة على النيل ، احتاج فى بنائها إلى طمى ، فأمر بنقله من مكان هذه البركة إلى مكان الزريبة المذكورة سنة ٧٢١ هـ » ، ومن ثم فقد نتج عن نقل الطمى أن تكونت حفرة كبيرة وعميقة تنشع فيها المياه وخاصة وقت الفيضان ، لذلك أمر السلطان بإجراء الماء إليها من جوار الميدان السلطانى الكائن بأرض بستان الخشاب (جاردن سيتى الآن)[٣] فامتلأت الحفرة بالماء وأصبحت بركة صارت مساحتها سبعة أفدنة فحكر الناس حولها وبنوا الدور العظيمة .

ويحدد محمد رمزى[٤] ميدان المهارى الآن فيقول : « كان ميدان المهارى يقع فى

---

(١) ابن إياس : جـ ٤ ص ٤٥١

(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٦٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٩٤ حاشية رقم (٢) .

(٣) سعاد ماهر : القاهرة وأحياؤها القديمة ص ٩٦

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٤ حاشية رقم (٣)

المنطقة التى يحدها اليوم من الجنوب شارع المبتديان ومن الشرق شارع الناصرية ومن الشمال جامع الاسماعيلى ومن الغرب شارع نوبار (الدواوين سابقا) وتعرف هذه المنطقة التى تقع بها المدرسة قانى باى الرماح باسم حى الناصرية ، الذى يقع فى الجنوب الشرقى لمدينة القاهرة ومجاورا لحى السيدة زينب .

والمدرسة خالية من ثلاث جهات ، فالواجهة الجنوبية وهى الواجهة الرئيسية تطل فى جزئها الأول على حارة ضرب البندق ، وجزئها الثانى على حارة الرماح ، أما ضلعها الشمالى التى يفتح فيها الباب الثانى للمدرسة وباب الميضأة فهى تطل فى جزئها الأول على زقاق جامع الرماح وعطفة عبد ربه صالح ، أما الضلع الشرقى حيث يوجد جدار القبلة فيطل على شارع الناصرية .

وتتكون المدرسة من مستطيل شبه منحرف يبلغ طوله (٣١) م ، وعرضه (١٦٫٥) م وتبلغ مساحة المدرسة (٥٢٠) مترا مربعا تقريبا . وهى من المدارس المعلقة إذ ترتفع عن مستوى أرضية الشارع (١٢) مترا ، فهى تقوم على دور أرضى كان معدا للميضأة ودورة المياة .

الواجهة الرئيسية :

تقع الواجهة الرئيسية للمدرسة فى ضلعها الجنوبى ، ويبلغ طولها (٣١) مترا وارتفاعها (٦٫٧٥) م . ويمكن تقسيم الواجهة إلى ثلاثة أقسام تبعا للبروز الظاهر بينها ، القسم الأول الذى يشغل الجزء الشرقى من الواجهة ويبلغ طوله (٩٫٥) م وهو يبرز عن القسم المتوسط بمقدار (٢٥ر) م ويبلغ طول القسم الثانى (٩٫٥) م أما القسم الثالث فيبلغ طوله (١٢) مترا ويشغل الواجهة صفان من النوافذ عدد كل منها خمس ، الصف السفلى نوافذه مستطيلة إذ يبلغ طول كل منها (٢٫٤) م وعرضها (١٫٥) م يعلوها عتب مكون من صنجات معشقة فوقه عقد عاتق يحتوى على صنجات معشقه كذلك ، فيما عدا النافذة التى تطل على دركات المدخل الرئيسى فهى أقل فى العرض، إذ يبلغ عرضها (٩٠ر) م وقد ملئت نوافذ الصف الأول جميعها بمصبعات حديدية ، أما الصف العلوى فيتكون

من نوافذ قنديلية ، وتفتح هذه النوافذ على الأجزاء الآتية من مبنى المدرسة اثنتان على إيوان القبلة وواحدة تفتح على الغرفة التى تقع خلف الإيوان الجنوبى للمدرسة والتى يفصل بينها وبين إيوان القبلة كتلة البناء المصمت التى تكون قاعدة المئذنة . ثم تجئ بعد ذلك النافذة الضيقة التى تفتح على دركات المدخل وينتهى هذا الصف بالنافذة التى تفتح على الإيوان الغربى .

وفى نهاية الواجهة الرئيسية من جهة الغرب توجد نافذة كبيرة تفتح على السبيل الملحق بالمدرسة ويبلغ طولها (٢٫٧٥) م وعرضها (١٫٧٥) م يعلوها عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات ، ويحيط بها إطار شبه مربع مكون من زخارف بارزة محفورة فى الحجر باللون الأبلق . ويتوسط الواجهة الرئيسية المدخل الرئيسى للمدرسة ، بين القسمين الثانى والثالث من الواجهة الرئيسية وهو مرتفع قليلا عن أرضية الشارع إذ يبلغ ارتفاعه (١٫٧٥) م ويصعد إليه بواجهة قلبة من الدرجات تبلغ عددها أربع . ويلاحظ انحراف هذه الدرجات وذلك تبعا لانحراف المدخل وانحراف الجدار الجنوبى للمدرسة ، ويتوسط المدخل باب يبلغ ارتفاعه (٢٫٧٥) من المتر وعرضه (١٫٣) من المتر ويعلوه عتب فوق عقد عاتق مكون من صنجات ، ويوجد على جانبى الباب مكسلتان ترتفع كل منهما بمقدار (٠٫٩٠) م عن مستوى أرض المدخل ، يعلو كل منهما شريط (بحور) محفور يحتوى على كتابة نصها على الجانب الأيسر « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » .

ويعلو عقد الباب نافذة صغيرة مملوءة بمصبعات حديدية ، يتأتى فوقها ثلاثة صفوف من الدلايات فى وضع هندسى بديع ، ويتوج المدخل الرئيسى طاقية نصف دائرية ملئ تجويفها أربعة صفوف من الدلايات محفورة فى الحجر ، ويحيط بالمدخل كله إطار مستطيل من الزخارف الحجرية .

وصف المدرسة من الداخل :

يؤدى باب المدخل الرئيسى إلى دركات مربعة الشكل طول ضلعها متران يتصدرها جلسة حجرية فى ضلعها الجنوبى نافذة ضيقة تطل على الواجهة سبق الإشارة إليها ، ويغطى الدركات سقف خشبى مزخرف بنقوش زيتية مذهبة تسميه الحجة (سقف سكندرى على مربعات) ويحيط بالسقف الخشبى إزار مكون من ثلاثة صفوف من الدلايات .

وتؤدى الدركات إلى ردهة يبلغ طولها (١٫٧٥) م وعرضها (١٫٥٥) م تؤدى إلى صحن المدرسة ، ويغطى هذه الردهة سقف خشبى زخرف برسوم زيتية .

ويتوسط المدرسة صحن مستطيل الشكل يبلغ طوله (٧٫٢٥) م وعرضه (٦٫٥) م تحيط به الإيوانات من جهاته الأربع . وكان الصحن وقت إنشائه مغطى بسقف خشبى تتوسطه فتحة مثمنة (شخشيخة) مزخرف برسوم زيتية مموه بالذهب[1] . وقد تلف هذا السقف وحل محله السقف الخشبى الحالى الخالى من الزخارف والذى تتوسطه فتحة مربعة .

ويوجد فى أركان الصحن الأربعة ، حنيتان متقابلتان متماثلتان على جانبى إيوان القبلة ، يبلغ عمق كل منهما (٣ر) م وعرضها (١٫١) من المتر وارتفاعها متران وترتفع عن أرضية الصحن بمقدار (٥ر) من المتر . ويتقدم كل منهما ضلفتان من الخشب ، ويعلو كل دخلة عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات ، ويعلو العقد شريط محفور طوله (١٫٢٥) م وعرضه (٥٠ر) م حفر بداخله لفظ الجلالة مكرر أربع مرات . ونلاحظ هنا أن لفظ الجلالة كتب بالخط الكوفى المضفور الذى انتشر كعنصر زخرفى هام فى العصر المملوكى، وتستعمل هاتان الحنيتان (كتبية) كما جاء فى حجة الوقف . وفى الركنين الآخرين للصحن يوجد بابان ، باب المدخل الرئيسى الذى سبق الإشارة إليه ، ويقابله وعاثله

---

(١) على مبارك : الخطط التوفيقية جـ ٥ ص ٧٥

باب آخر للمدرسة من الواجهة الشمالية(١) ، ويبلغ عرض فتحة كل باب (٩ر) م وطوله (٢٫٣٥) م ويغلق على كل باب مصراع خشبي من ضلفة واحدة . ويعلو كل باب عتب فوقه عقد عاتق مكون من صنجات ، ويعلو العقد شريط محفور نقش به لفظ الجلالة أربع مرات يشبه تماما تلك التى تعلو الحنايا السالف الإشارة إليها .

ويعلو الحنيتين والبابين بأركان الصحن نوافذ مستطيلة الشكل يبلغ طول ضلعها (١٫٦٠) م وعرضها (٧٥ر) م يكتنف كل منها عمودان مندمجان منحوتان فى الحجر ، ويعلوها عقد مدبب ذى زاوية .

ويحيط بالصحن أربعة عقود كبيرة تتقدم الإيوانات الشرقى والغربى أى إيوان القبلة وما يقابله منهما يتكونان من عقود مدببة على شكل حدوة فرس ممتدة ، يبلغ ارتفاع كل منهما (٨٫٥) م ، وتحيط به صنجات يبلغ عددها (٣٣) صنجة ، وتنتهى أرجله بثلاثة صفوف من الدلايات منسقة فى شكل هرمى جميل ، وكلها منحوتة فى الحجر ، أما العقدان الشمالى والجنوبى فيتكون كل منهما من عقد مدبب ممتد ، وهما يكونان عقد (السدلتين) الإيوانين الشمالى والجنوبى ، ويحتوى كل عقد على (٣١) صنجة حجرية ، ويبلغ ارتفاع كل عقد عن أرضية الإيوان بمقدار (٨٫٦) من المتر وتنتهى أرجل العقد بثلاثة صفوف من الدلايات فى وضع زخرفى يماثل العقدين السابقين ، وقد حليت واجهات العقود كلها وكذا خواصرها بزخارف نباتية محورة محفورة فى الحجر. ويعلو العقود والزخارف السالفة الذكر شريط يبلغ طوله فى كل ضلع (٦٫٥) م وعرضه (٥ر) م نصها :

الضلع الشمالى (١) أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة من فضل الله تعالى وجزيل عطائه العميم المقر الأشرف الكريم العالى

الضلع الغربى (٢) المولوى الاميرى الكبيرى المالكى المخدومى الهمامى الملاذى القوامى النظامى المحترمى المجاهدى .

---

(١) كان القصد من عمل الباب الثانى للمدرسة إلى جانب الدخول إلى المدرسة هو الصعود منه إلى الطباق السكنية الست التى شيدها قانى باى ضمن عمارة المدرسة وكان كل طبقة منها تتكون من إيوان يتقدمه صحن منخفض به خزانة ومنافع أخرى وتطل على المدرسة من داخلها كما تطل على الطريق كذلك من الجهة الشمالية للمدرسة .

(انظر حجة الوقف (ظهر) سطر رقم (٩٤١) عن سامى عبد الحليم : آثار قانى باى بمدينة القاهرة ص ٢١٠) .

الضلع الجنوبى (٣) المرابطى الراكعى الساجدى الخاشعى المختشعى المالكى التالى كتاب الله القايم بحدود الله التابع سنة رسول الله(١) .

الضلع الشرقى (٤) الذى يعلو إيوان القبلة السيفى قانى باى أمير آخور كبير بالديار المصرية الملكى الأشرفى أعز الله أنصاره بمحمد وآله فافتتح منه ذلك بتاريخ شهر شوال سنة إحدى عشرة وتسعمائة من الهجرة » .

ويتكون إيوان القبلة أو الإيوان الكبير كما جاء فى حجة الوقف ، من مستطيل يبلغ طوله (١٥) مترا وعمقه (٥ر٢٥) م وارتفاعه (٩ر٢٥) م وسعة فتحته عقده المطل على الصحن والسابق الإشارة إليه (٥ر٥) م ، ويبلغ ارتفاع الإيوان (٩ر٢٥) م ، كما يرتفع عن أرضية الصحن بمقدار (٢٥ر) م ويغطى الإيوان سقف خشبى بطريقة (التسقيف السكندرى) المزخرف بالنقوش الزيتية المموه بماء الذهب واللازورد ، وإن كان السقف الموجود حاليا مجدد ولكن بنفس الطراز القديم .

ويتصدر إيوان القبلة حنية المحراب التى يبلغ عمقها (٩٠ر) م وسعتها (١ر٧٥) م يكتنفها عمودان من الرخام الأبيض ذات أبدان مثمنة الشكل ، ويبلغ ارتفاع المحراب (٢ر٧٥) م يعلوه طاقية مدببة الشكل فوقها إطار مستطيل الشكل تعلوه نافذة مستديرة مملوءة بجص معشق بزجاج متعدد الألوان يتوسطها عبارة (ماشاء الله) ويحيط بها ست دوائر أخرى زجاجية صغيرة ، ويحيط بهذه النافذة شريط يحتوى على كتابة قرآنية « بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون » ، وإلى جوار المحراب يوجد منبر خشبى مكون من خشب الخرط ومن الحشوات المجمعة المطعمة بالعاج والصدف والمزخرفة بطريقة الطبق النجمى .

ويوجد بالضلع الجنوبى لإيوان القبلة صفان من النوافذ اثنان بكل صف سبق الإشارة إليهما فى جهة المدرسة الرئيسية ، ويقابلهما فى الضلع الشمالى للإيوان الذى يطل على زقاق

---

(١) انظر فى هذا الموضوع آثار قانى باى بمدينة القاهرة (تأليف سامى عبد الحليم ص ٢١٣) .

جامع الرماح أربعة كذلك متماثلة تماما ، أما الضلع الشرقى للإيوان وهو جدار القبلة الذى يطل على شارع الناصرية فيحتوى كذلك على صفين من النوافذ يحتوى كل صف على ست ، كل ثلاثة منها على جانب من المحراب وهى مماثلة كذلك لباقى نوافذ الإيوان ، ويبلغ طول النوافذ العشرة بالصف الأسفل للإيوان (٢٫٧٥) من المتر وعرضها (١٫٥٠) من المتر أما النوافذ العشرة بالصف العلوى فهى قنديلية الشكل .

ويوجد بالجدار الغربى لإيوان القبلة خلوتان أحداهما فى الجهة الجنوبية وهى مجاورة لكتلة قاعدة المئذنة وتتكون من حجرة مستطيلة يبلغ طولها (٢٫٥) من المتر وعرضها (١٫٢٥) من المتر مغطاة بسقف مقبى مدبب الشكل ، وكانت معدة لحفظ الربعة الشريفة التى وقفها الأمير قايتباى على المدرسة ، أما الخلوة الثانية فتقع بالجهة الشمالية من الضلع الغربى لإيوان القبلة وهى كذلك مستطيلة الشكل إذ يبلغ طولها (٢٫٧٥) مترا وعرضها (١٫٥٠) من المتر وتحتوى على نافذة ضيقة تطل على الواجهة الشمالية للمدرسة ويغطيها سقف خشبى . وقد خصصت هذه الخلوة لخطيب المدرسة كما جاء فى حجة الوقف .

ويتكون الإيوان الغربى المواجه لإيوان القبلة ، أو الإيوان الصغير كما جاء فى حجة الوقف من مستطيل يبلغ طوله (٧٫٢٥) من المتر وعمقه (٣٫٥) من المتر ويبلغ ارتفاعه عن مستوى أرضية الإيوان (٩٫٢٥) من المتر ويرتفع عن أرضية الصحن (٢٥ر) من المتر والإيوان مغطى بسقف خشبى مجدد مماثل للسقف القديم (السكندرى) الوارد فى حجة الوقف ويحتوى الإيوان على نافذة تطل على الواجهة الرئيسية فى ضلعه الجنوبى السابق الإشارة إليه . أما الضلع الشمالى منه فيوجد به حنية مقابلة للنافذة الجنوبية ، يبلغ عمقها (٣٥ر) من المتر وعرضها (١٫٥٠) من المتر وارتفاعها (٣٫٥) من المتر ويعلوها عقد مدبب يحتوى على صنجات .

ويتصدر الإيوان الغربى دكة المبلغ ، التى تقع على ارتفاع (٤٫٥) من المتر من أرضية الإيوان يبلغ طولها (٣٫٧٥) من المتر وعرضها (٧٥ر) مترا ويتقدمها شرفة من الرخام ويحيط بالدكة من أعلى سياج من خشب الخرط ارتفاعه (٥٥ر) من المتر . ويتقدم دكة المبلغ عقد مدبب يطل على الإيوان الغربى يبلغ سعته (٢٫٩) من المتر يحتوى على تسع عشرة صنجة

وترتكز الدكة على أربعة مساند (كوابيل) التى ذكرت فى حجة الوقف باسم (الكباش أو الحرمدان) من الرخام مزخرفة بأسلوب هندسى بديع يشبه المروحة مما أكسب دكة المبلغ منظرا ترتاح العين لرؤيته .

ويتكون الإيوان الجنوبى (أو السدلة) من مستطيل يبلغ طوله (٣٫٥) من المتر وعرضه (١٫٨٠) من المتر مغطى بسقف خشبى (سكندرى الطراز) ويفتح الإيوان على خلوة بديعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٢٫٢٥) مترا تحتوى على نافذة تطل على الواجهة الرئيسية للمدرسة سبق الإشارة إليها ، والإيوان وكذا الخلوة مغطى بسقف خشبى (سكندرى الطراز) ويشبه الإيوان الشمالى للمدرسة الإيوان الجنوبى من حيث المساحة والطراز الزخرفى إلا أنه يحتوى على حنيتين بدلا من الخلوة ، يبلغ عمق كل منهما (٣ر) من المتر وعرضها (٩ر) من المتر وارتفاعها (٢٫٢٥) من المتر يغطيهما ضلفتان من الخشب ويستخدم كل منهما (كتبية) خزانة للكتب كما جاء فى حجة الوقف .

وتتكون المئذنة من طابقين وتقوم على قاعدة مصمتة تطل على الواجهة الرئيسية للمدرسة يبلغ ارتفاعها (١٢) مترا . يتكون الطابق الأول من مربع فتح فى كل ضلع منه نافذة ضيقة مستطيلة يكتنفها عمودان مندمجان ويعلوها شكل عقد حدوة فرس دائرى أحيط به إطار بارز الشكل لرسم عقد خواصره ، ويفصل بين الطابق الأول والثانى شرفة ترتكز على خمس صفوف من الدلايات ، ويتكون الطابق الثانى من مربع كذلك زخرف كل ضلع منه بثلاث حنيات فتح فى الوسط منها شقا للاضاءة ويعلو الطابق الثانى للمئذنة رأسان مستطيلان مربعان فى قطاعهما يبلغ طول كل منهما (١٫٢٥) من المتر وارتفاعها (٤) أمتار يفصل بينهما (٦ر) من المتر ، وفتح فى كل منهما نافذة معقودة لمجرد الزخرفة يبلغ ارتفاعها (٢٫٩٥) من المتر وعرضها (٧ر) من المتر ويعلو الرأسين صفان من الدلايات وتنتهى كل منهما بشكل قلة يعلوها الهلال ويفصل بين الرأسين والطابق الثانى شرفة ترتكز على ثلاثة صفوف من الدلايات وتعتبر هذه المئذنة أقدم مئذنة ما تزال قائمة تحتوى على رأس مزدوج ، فهى ترجع إلى سنة ٩١١ هـ .

مسجد جلال الدين السيوطى

بقرافة سيدى جلال
بحى السيدة عائشة بالقاهرة

ترجم جلال الدين السيوطى لنفسه فى كتابه (حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة) فقال : « إنما ذكرت ترجمتى فى هذا الكتاب اقتداء بالمحدثين قبلى . أما جدى الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطرق الصوفية . أما باقى العائلة فقد كانوا من أهل الوجاهة والرياسة فمنهم من ولى الحكم ببلده ومنهم من ولى الحسبة بها ومنهم من كان تاجرا فى صحبة الأمير شيخون » . وقد بنى جده مدرسة بأسيوط ووقف عليها أوقافا ، ويضيف جلال الدين فيقول : ولا أعرف من أسرتى من خدم العلم حق الخدمة إلا والدى » .

ولد والده الإمام العلامة أبو بكر محمد الخضيرى السيوطى بأسيوط بعد سنة ثمانمائة تقريبا واشتغل ببلده وتولى بها القضاء قبل قدومه إلى القاهرة . ثم قدمها فلازم العلامة القاياتى وأخذ عنه الكثير من الفقه والأصول والكلام والنحو وما إليها . وأجازه بالتدريس فى سنة تسع وعشرين وثمانمائة كما تلقى الكثير من العلوم والمعارف على شيوخ عصره فبرع فى كل الفنون ، وكتب الخط المنسوب (نوع من الخطوط التى تكتب فى ديوان الإنشاء) وبلغ فى صناعة التوقيع النهاية ، وأقر له كل من رآه بالبراعة فى الإنشاء . وقد تولى تدريس الفقه فى الجامع الشيخونى ، كما خطب بالجامع الطولونى ، وكان يخطب من إنشائه ، وهنا يضيف جلال الدين « إن قاضى القضاة شرف الدين المناوى كان يسأله فى أوقات الحوادث فى إنشاء خطبة تليق بذلك ليخطب بها فى القلعة (أى أمام السلطان)

وكان يؤم الصلاة بالخليفة المستكفى بالله الذى كان يجله ويعظمه وكان عزيز النفس لا يتردد إلى أحد من الأكابر . ويقول جلال الدين « أخبرنى بعض القضاة أن الوالد دار يوما على الأكابر ليهنئهم بالشهر ، فرجع آخر النهار عطشان ، فقال له : قد درنا فى هذا اليوم ولم تحصل لنا شربة ماء ، ولو ضيعنا هذا الوقت فى العبادة لحصل لنا خير كثير . ولم يهنئ أحدا بعد ذلك اليوم بشهر ولا بغيره . وكان على جانب عظيم من الدين والتحرى فى الأحكام وعزة النفس والصيانة يغلب عليه حب الانفراد وعدم الاجتماع بالناس صبورا على كثرة أذاهم له ، مواظبا على قراءة القرآن ، يختم كل جمعة ختمة .

ويرجح جلال الدين أن يكون جده الأعلى أعجمياً أو من المشرق ، ومن هنا جاءت نسبتهم بالخضيرى . والخضيرية محلة ببغداد ، فالظاهر أن النسبة إلى المحلة المذكورة .

ولد جلال الدين السيوطى فى مستهل شهر رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، فحمله والده إلى الشيخ محمد المجذوب ، وكان من كبار أولياء عصره يسكن بجوار المشهد النفيسى فبارك عليه ، وسرعان ما توفى والده فنشأ يتيما ، وحفظ القرآن وهو دون الثامنة عشرة ، كما حفظ العمدة ، ومنهاج الفقه والأصول وألفية ابن مالك . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره شرع فى الاشتغال بالعلم وكان ذلك سنة ٨٦٤ هـ ، وأجيز بتدريس العربية فى مستهل سنة ٨٦٦ هـ وقد ألف فى تلك السنة أول مؤلفاته فى شرح الاستعاذة والبسملة فلما اطلع عليه شيخ الإسلام على الدين البلقينى ، كتب عليه تقريظا ، وضم جلال الدين إلى مجلسه فلازمه دراسة الفقه حتى مات ، فلازم ولده من بعده ، فأجازه بالتدريس والإفتاء من سنة ٨٧٦ هـ وحضر تصديره .

ولم يكتف عالمنا الجليل بما حصل عليه من علوم وثقافات من مصر بل ارتحل إلى كثير من البلاد والأقطار طلبا فى المزيد ، فسافر إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور (غرب السودان) . ويقول جلال الدين (لما حججت شربت من ماء زمزم لأمور ، منها أن أصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى ، وفى الحديث إلى رتبة الحافظ بن حجر . ورزقت التبحر فى سبعة علوم : التفسير ، والحديث ، والفقه ،

والنحو ، والمعانى ، والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة . ويضيف شيخنا فيقول : « والذى أعتقده أن الذى وصلت إليه من هذه العلوم السبعة لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخى فضلا عمن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه ، بل شيخى فيه أوسع نظرا وأطول باعا . وبلغت مؤلفاتى إلى الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه » .

ويقول العالم المحقق محمد أبو الفضل إبراهيم فى مقدمة كتاب (حسن المحاضرة للسيوطى) قد تدارس العلماء كتبه فى كل مكان فعمرت بها المدارس والمعاهد ودور الكتب، مما أثار عليه فريقا من أقرانه ومعاصريه من العلماء وتحاملوا عليه ورموه بما هو منه براء، وكان من أشد الناس خصومة عليه وأكثرهم تجريحا وتشهيرا ، المؤرخ شمس الدين السخاوى صاحب كتاب « الضوء اللامع » فقد ترجم له فى هذا الكتاب ونال من علمه وخلقه مما يقع مثله بين النظراء والأنداد. وانتصر السيوطى لنفسه فى مقامة أسماها « الكاوى على تاريخ السخاوى » . وهذا مما يذكر بالفخر والسبق فى ميدان الأسلوب العلمى الحديث فى التأليف منهج السيوطى المعروف ، وهو ذكره ، وخاصة فى كتبه المطولة ، المصادر التى اعتمد عليها وأسماء مؤلفيها .

أما عن حياة السيوطى الخاصة ، فكان كما يقول الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم على أحسن ما يكون عليه العلماء ورجال الفضل والدين ، عفيفا كريما ، غنى النفس ، متباعدا عن ذى الجاه والسلطان ، لا يقف بباب أمير أو وزير ، قانعا برزقه من خانقاة شيخو لا يطمع فيما سواه . وكان الوزراء والأمراء يأتون لزيارته ويعرضون عليه أعطياتهم فيردها . فقد حدث أن أرسل السلطان الغورى إليه مرة هدية من خصى وألف دينار ، فرد شيخنا السيوطى الدنانير وأخذ الخصى ثم أعتقه وجعله حارسا فى الحجرة النبوية بقبة الغورى (فى ذلك الوقت) ، وقال لرسول السلطان : « لا تعد تأتينا قط بهدية فإن الله أغنانا عن ذلك » .

وكان السيوطى كثيرا ما يردد شكره لله عز وجل على نعمة العلم والمعرفة وقد سجل فى ذلك ترجمته لنفسه فقال : « وقد كمل عندى الآن الجهاد بحمد الله تعالى ، أقول

ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى لا فخرا ، وأى شئ فى الدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر. وقد أزف الرحيل وبدأ الشيب وذهب أطيب العمر » وتوفى السيوطى سنة ٩١١ هـ ودفن بجوار خانقاه قوصون خارج باب القرافة ، وتعرف المنطقة الآن باسم جبانة سيدى جلال نسبة إليه .

* * *

ويوجد ضريح جلال الدين السيوطى خارج سور صلاح الدين الجنوبى الشرقى المجاور للقلعة وبالقرب من الباب الذى فتح فى سور صلاح الدين وكان يعرف باسم باب القرافة لقربه من القرافة الصغرى أو قرافة الإمام الشافعى والذى عرف فيما بعد باسم باب السيدة عائشة لقربه من ضريح السيدة عائشة . والضريح عبارة عن غرفة صغيرة مربعة الشكل وفى أركانها مقرنصات مصفوفة فى أربع خطات بالترتيب التالى مقرنص واحد فثلاث فخمس فسبع حتى تتلاصق مقرنصات الأركان الأربعة فى الخطة الرابعة . وفوق المقرنصات ترتفع قبة بها أربع نوافذ قنديلية كانت قديما مغشاة بزجاج معشق . وفوق الرقبة تقوم قبة صغيرة مدببة مفصصة .

وضريح جلال الدين السيوطى بحالة سيئة للغاية الآن وإنى أهيب بالسيد الدكتور وزير الأوقاف أن يتفضل مشكورا بترميم ضريح الرجل الذى وهب حياته للعلم صاحب كتاب «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » وإظهاره بالمظهر اللائق به فى مدينة القاهرة .

مدرسة بيبرس الخياط

بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية بحى الأزهر سنة ٩٢١ هـ

منشئ هذه المدرسة الأمير السيفى بيبرس بن عبد الله بن عبد الكريم بن عمر الأشرف قانصوة الغورى[1] . وكان بيبرس هذا من أقارب السلطان الغورى ، كما كان فى أول أمره خياطا خاصا به[2] ومن ثم فقد عرف ببيبرس الخياط . وعندما تولى الغورى سلطنة الديار المصرية خلع على قريبه بيبرس وظيفة أمير آخور ثانى ، أى الموظف المختص بأمر الدواب والأصطبلات السلطانية ، وتنقسم إلى أربع درجات أمير آخور كبير وثانى وثالث حتى أمير آخور رابع[3] .

وقد كان بيبرس الخياط من المقربين إلى السلطان حتى أنه كان يصطحبه معه فى أسفاره خارج مصر ، رغم صغر مرتبته الوظيفية ، فقد ذكر ابن اياس[4] فى حوادث سنة ٩١٣ هـ « أن السلطان الغورى قد سافر إلى البلاد الشامية بسبب الكشف على القلاع الساحلية مثل قلعة الحصن والمرقب وطرطوس وغيرها وكان يصحبه فى هذه السفرة قريبه أمير آخور ثانى بيبرس الخياط » .

وأخذ بيبرس يترقى فى سلم الوظائف العسكرية حتى أنعم عليه السلطان الغورى بوظيفة

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ص ٤٤

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ٤ ص ٩٩

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٧

(٤) ابن إياس : جـ ٤ ص ١٢٩

مقدم ألف ، أى أنه أمير لمائة مملوك يرأسهم ويتولى قيادتهم فى وقت الحروب . ويتضح من استقراء الأحداث والوقائع ، أن الأمير بيبرس قد ارتكب خطأ أو أتى عملا لم يرض عنه السلطان مما جعله « يبطل تعيينه فى وظيفة مقدم ألف وصار فى سنة ٩٢١ هـ من بقية الأمراء المقدمين من غير أرباب الوظائف ، وبذلك أصبح ما يختص به بيبرس من مماليكه أربعة وأربعين مملوكا »[١] .

وقد آهل الأمير بيبرس الخياط عين أعيان الأمراء المقدمين الألوف بالديار المصرية ، وقريب المقام الشريف الملكى الأشرف قرابته من السلطان إذ يقال أنه ابن عم[٢] السلطان الغورى من الزواج من الست المصونة المحجبة المخدرة ذات الستر الرفيع والحجاب المنيع (جان سكر) المرأة الكاملة بنت عبد الله الجركسية الجنس عتاقة المقر المرحوم العالى المولوى السيف إينال الخسيف .

وبرغم عزل السلطان الغورى لبيبرس من وظيفة مقدم ألف وجعله من غير أرباب الوظائف إلا أنه خرج مع الجيوش المصرية إلى بلاد الشام لملاقاة الجيش العثمانى بقيادة سليم الأول ، وأخذ يقاتل فى ميدان الوغى حتى قتل فى ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ هـ[٣] فى موقعة مرج دابق مع قريبه السلطان الغورى .

وتحدد الوثائق موقع مدرسة بيبرس الخياط فتقول : « وقد أنشأ الأمير بيبرس الخياط المدرسة بخط الملوخيين فيما بين حارة الجودرية وزاوية سيدى الحبيب[٤] . وقد يكون من المفيد أن نذكر شيئا عن تاريخ تلك الأحياء والحارات التى أنشئت فيها مدرسة بيبرس الخياط موضوع البحث . فخط الملوخيين السابق الإشارة إليه يعرف الآن باسم درب ملوخيا[٥] نسبة إلى ملوخيا الفراش الذى كان يشغل وظيفة صاحب ركاب الخليفة

---

(١) ابن إياس : جـ ٥ ص ٤٢

(٢) عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ص ٤٤

(٣) ابن إياس : جـ ٥ ص ٦٩

(٤) عبد اللطيف إبراهيم : الوثائق فى خدمة الآثار ص ٤٣

(٥) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٨

الحاكم بأمر الله ، وكان خط الملوخيين يعرف ذلك باسم حارة قائد القواد ، نسبة إلى حسين بن القائد جوهر أبو عبد الله الملقب بقائد القواد[1] ، ذلك أنه بعد وفاة والده خلع عليه الخليفة الفاطمى العزيز بالله وجعله فى رتبة أبيه ولقبه بالقائد بن القائد ، ومن ثم فقد عرف الحى الذى يسكنه باسمه .

أما حارة الجودرية ، أى حى الجودرية بمفهومنا اليوم ، فينسب إلى أبى على منصور الجودرى الذى دخل فى خدمة الأستاذ جودر الصقلى الذى دخل فى خدمة الإمام المهدى بالله الفاطمى ثم توثقت الصلة بينه وبين ولى عهده القائم بأمر الله . كما ارتفعت منزلته عند باقى خلفاء الدولة الفاطمية فى شمال إفريقية المنصور والمعز لدين الله . وقد أبى الجودرى أن يفارق المعز لدين الله فسار معه إلى مصر ولكنه توفى بالقرب من مدينة برقة فى مكان يعرف بمياسر سنة ٣٦٢ هـ[2] . وكان أبو على منصور مغمورا لا نكاد نعرف عنه شيئا ، إلا عندما دخل فى خدمة أستاذه جودر كاتبا له سنة ٣٥٠ هـ وظل فى عمله هذا إلى أن توفى سيده جودر ، فاتصل بالخليفة المعز لدين الله ثم بابنه الخليفة العزيز ، وفى عهد العزيز علا قدره وارتفعت مكانته ، إذ جعله العزيز فى نفس المرتبة التى كان يشغلها جودر[3] . وزادت مكانته فى عهد الحاكم بأمر الله فأضيفت إليه مع الأحباس ، الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك .

ويحدثنا المقريزى[4] عن حارة (حى الجودرية) وبعض الأحداث التى وقعت به فيقول : الجودرية داخل أسوار القاهرة القديمة بالقرب من باب زويلة من جهة الغرب ، وهو من أقدم أحياء القاهرة الفاطمية ، إذ أنه يرجع إلى عهد الخليفة الحاكم[5] بأمر الله . وقد عرف الحى بهذا الاسم نسبة إلى جماعة الجودرية الذين اختطوه وكان عددهم أربعمائة منهم أبو على منصور الجودرى الذى أقام له مسجدا فيها . ومن الأحداث التى

---

(١) المقريزى : المرجع السابق ص١٤

(٢) محمد كامل حسين : فى أدب مصر الفاطمية ص ١٤٤

(٣) سعاد ماهر : مساجد مصر جـ ٢ ص ٨٧ – ٩١

(٤) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٥

(٥) ويقول القلقشندى أن الحى أنشىء فى عهد جوهر الصقلى حين بنى القاهرة ، جـ ٣ ص ٣٥٧

وقعت فى هذا الحى ، أنه كان يسكنه جماعة من اليهود وبلغ الخليفة الحاكم أنهم يجتمعون بها فى أوقات خلواتهم ويغنون :

وأمة قد ضلوا ودينهم معتل   قال لهم نبيهم نعم الأدام الخل

ويسخرون من هذا القول ويتعرضون إلى ما لا ينبغى سماعه ، فأتى إلى أبواب الحارة وسيرها عليهم ليلا وأحرقها ، ويضيف المقريزى فيقول ، فإلى هذا الوقت لا يبيت بها يهودى ولا يسكنها أبدا .

على أننا نستطيع تحديد موقع المدرسة الآن بأنها تقع فى حى الجودرية الذى يمتد غربا من درب سعادة[1] (الذى بباب من ميدان باب الخلق) وينتهى شرقا عند حارة الحمزاوى الصغير التى تنتهى عند الغورية .

ويحدد محمد[2] رمزى مكان المدرسة على وجه الدقة فيقول : وبالبحث الدقيق تبين لى أن مدرسة بيبرس الخياط قد حلت محل المدرسة الشريفية التى ذكرها المقريزى[3] ، فقال : إنها بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة أنشأه الأمير الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل بن حصن الدولة فخر العرب ثعلب بن جعفر الجعفرى الزينى أمير الحاج وأحد أمراء مصر فى الدولة الأيوبية ، والتى تم بناؤها سنة ٦١٢ هـ وهى من مدارس الفقهاء الشافعية . وللأمير نصر اسماعيل ثعلب عدة منشآت غير المدرسة الشريفية ، مثل مدرسة وضريح السادات الثعالبة[4] بشارع سيدى عقبة بالقرب من الإمام الشافعى .

---

(١) سعادة : هذا هو حامل مظلة الخليفة المعز لدين الله الفاطمى ، فهو إذن رجل وليس سيدة كما تصر على ذلك محافظة القاهرة فتسمى الدرب (درب الست سعادة) .

(٢) محمد رمزى : النجوم الزاهرة جـ ٨ حاشية (٤)

(٣) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٧٣

(٤) سعاد ماهر : مساجد مصر جـ ٢ ص ١٩٢

الوصف المعمارى

الواجهة الرئيسية :

تقع الواجهة الرئيسية فى الضلع الجنوبى الشرقى بالنسبة للمدرسة ، وهى على ثلاثة مستويات ، يمثل المستوى الأول الذى يقع فى الجهة الجنوبية من الواجهة كتلة المدخل الرئيسى ، ويبلغ طوله ستة أمتار ويبرز عن المستوى الثانى بمقدار أربعة أمتار . ويزخرف هذا الجزء حنية مسطحة قليلة العمق يشغل جزءاً منها نافذة مستطيلة مملوءة بمصبعات حديدية .

ويكون المستوى الثانى كتلة إيوان القبلة ويبلغ طوله اثنى عشر مترا ويبرز عن المستوى الثالث بمقدار (٣٫٨٥) م . ويتوسط هذا الجزء كتلة المحراب التى تبرز عن سمت الحائط بمقدار (٤٠) سم والتى يزخرف أعلاها نافذة مستديرة ملئت من الداخل بزخارف جصية ، أما من الخارج فيحيط بها زخارف قالبية عن شكل دائرة داخل مربع . ويكتنف بروز حائط المحراب حنيتان كبيرتان تحتوى كل منهما على صفين من النوافذ ، يتكون الصف الأسفل من نافذتين مستطيلتين مملوءتين بمصبعات حديدية ويعلو كل منهما عتب فوق عقد عاتق مكون من صنجات معشقة ويعلو العقود بحر كبير فقدت الكتابة التى نقشت فيه . أما الصف العلوى فيتكون من نافذتين قنديليتين . ويتوج الحنيتين ثلاثة صفوف من الدلايات وتأتى بعد ذلك الشرفات المكونة من شكل ورقة نباتية من خمسة فصوص ويوجد بالركن الشمالى لهذا الجزء من الواجهة شطف يشغله عمود مندمج بدنه مستدير وتاجه مكون من صفين من المقرنصات .

أما المستوى الثالث وهو الذى يكون كتلة القبة فيبلغ طوله (٨٫٨٥) من المتر ، ويتوسط هذا الجزء حائط قبلة القبة الذى يبرز قليلا عن سمت الحائط ، ويكتنفه من الجانبين

حنيتان مسطحتان قليلتا العمق يشغل كل منهما صفان من النوافذ السفلى مستطيلة والعليا قنديلية ، ونلاحظ أن المدرسة معلقة إذ يشغل الجزء المحازى لمستوى الشارع عدة حوانيت سدت كلها الآن .

المدخل الرئيسى :

يقع المدخل فى الجزء الجنوبى من الواجهة الرئيسية وهو يرتفع عن مستوى الشارع بمقدار مترين ويصعد إليه بخمس درجات ويتقدمه ردهة مستطيلة تبلغ مساحتها (٤ر٤×٥ر٢) مترا يحيط بها سور حجرى بارتفاع نصف متر تقريبا ، ويتوسط المدخل حنية عميقة تبلغ سعتها (٦٠ر٢) م وعمقها (٢٠ر١) م . وعلى جانبى الحنية توجد مكسلتان يعلوهما شريطان بهما كتابة قرآنية نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »

ويتوسط المدخل باب المدرسة يبلغ عرضه (٢٥ر١) م يعلوه عتب يحتوى على شريط من الكتابة الثلث نصها : « جدد هذا المسجد المبارك فى عصر خديو مصر عباس حلمى الثانى أدام الله أيامه سنة ١٣١٣ هـ » ويعلو العتب عقد عاتق ، ويحيط بالعتب وكذا العقد العاتق زخارف قالبية منحوتة فى الحجر تنتهى عند جانبى الباب بشكل نجمة ويعلو الباب حنية مربعة تقريبا يكتنفها عمودان مندمجان ويتوجها ثلاثة صفوف من الدلايات ، ويتوسط هذه الحنية نافذة مربعة مغشاة بالخشب الخرط . ويتوج حنية المدخل عقد ذى ثلاث فصوص ، زخرف الفص الأوسط بإشعاعات مفصصة وملئ الفصان الآخران بأربعة صفوف من الدلايات ، ويعلو عقد المدخل الشرافات التى تحيط بالمدرسة من جهاتها الثلاث .

ويؤدى الباب إلى درقاعة مستطيلة تبلغ مساحتها (٤ × ٧٥ر٢) م ويفتح بها نافذة (السابق الإشارة إليها فى الجزء الجنوبى من الواجهة الرئيسية) وتؤدى الدرقاعة إلى دهليز طويل على شكل حرف (L) يتجه إلى الغرب ثم ينحنى إلى الشرق ، ويبلغ طول هذا

الدهليز (١٢) مترا وعرضه (١٫٧٥) م ، جزء منه مكشوف يبلغ طوله (٦٫٦٠) م والباقى مغطى ، ونجد فى هذا الدهليز ثلاث فتحات ، الأولى عبارة عن باب يؤدى إلى سلم المئذنة والثانية نافذة تفتح فى حجرة إيوان القبلة وينتهى الدهليز بباب معقود إلى صحن المدرسة وهو يرتفع عن أرضية الصحن بمقدار ٣٠ سم .

الصحـــن :

يتكون الصحن من شكل مربع تقريبا إذ تبلغ مساحته (٨٫٩٥×٨٫٤٠) م ويحيط بالصحن إيوانان وسدلتان وبجانب كل منها باب معقود ويعلوه حنية تنتهى بعقد ذى زاوية وبها نافذة مستطيلة مملوءة بمصبعات حديدية أحدهما يوصل إلى دهليز المدخل ويقابله باب يؤدى إلى القبة وباب فى الضلع الجنوبى فتحة حنيته يقابلها باب غرفة مستطيلة وسقف الصحن مغطى (ببراطيم) خشبية مزخرفة بنقوش زيتية جميلة .

ايـــوان القبـــلة :

تبلغ مساحته ١١٫٢٥×٧٫٧٥ م يرتفع عن أرضية الصحن بمقدار ٣٠ سم ويتقدمه عقد مدبب على شكل حدوة الفرس . ويتصدر الإيوان محراب مجوف مزخرف برسوم هندسية من الرخام المتعدد الألوان كما يحتوى تجويفه على شريط من الكتابة الكوفية المملوكية . وإلى يمين المحراب يوجد المنبر المصنوع من الخشب زخرف جانباه (ريشتاه) بزخارف هندسية قوامها الطبق النجمى يعلوهما خشب خرط . كما يوجد بالايوان كرسى مصحف من الخشب الخرط والمزخرف برسوم هندسية قوامها الطبق النجمى .

وفى حائط القبلة يوجد صفان من النوافذ أربعة فى أسفله وأربعة أعلاه تطل كلها على الواجهة الرئيسية ، وقد سبق وصفها .

وفى الضلع الجنوبى لإيوان القبلة توجد مربعة تقريبا لها نافذة تطل على دهليز المدخل، كما يوجد فى الضلع الشمالى للإيوان نافذتان تفتح الأولى منهما فى بروز الجزء الأوسط من الواجهة الرئيسية وتفتح الثانية على القبة ويغطى سقف الإيوان خشب مكون من (براطيم) تحصر بينها مناطق مربعة غائرة زخرفت برسوم زيتية جميلة . ويحيط بالسقف إيزار يشغله شريط كتابى وأركانه محلاة بصفوف من الدلايات فى مثلها فى وسط كل

ضلع . ويشتمل كتابة الإيزار على نص تأسيسى يحتوى على اسم المنشئ وعلى تاريخ الإنشاء نصها :

أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السعيدة فضل من الله تعالى - المقر الأشرف الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى المالكى المخدوى المحترمى العادلى العالى العاملى السيف بيبرس الخياط السيدى السندى العضدى الذخرى الهامى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة هجرية » .

الايوان الشمالى الغربى :

يقابل هذا الإيوان إيوان القبلة وهو مساو له من حيث السعة إذ تبلغ (٧٫٤٠) م ، إلا أن عمقه يدعو للدهشة إذ يبلغ ٤٠ م ، الأمر الذى أرجح معه اقتطاع جزء كبير من عمقه وإضافته الى دورة المياه التى تقع خلفه ، وذلك فى التجديدات التى أجريت للمدرسة وأغلب الظن أن السبب فى ذلك هو تصدع الجدار الشمالى الغربى للإيوان لتأثره من مياه دورات المياه ، ومن ثم فقد رؤى أن يقطع جزء من عمق الايوان حتى تبعد جدأره عن المياه .. ويتقدم هذا الإيوان عقد مدبب مماثل لعقد إيوان القبلة .

ونجد فى صدر الإيوان دكة المبلغ وهى من الخشب الخرط وترتكز على كابولين من الحجر المزخرف ويصعد إليها من سلم جانبى له باب يشبه باب المنبر ، وخلف دكة المبلغ وبعرضها توجد حنية سعتها (٢٫٢٠) م يشغلها كلها نافذة قنديلية مملوءة بخشب الخرط .

السدلتان الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية :

السدلتان متماثلتان تماما ، إذ تبلغ سعة كل منهما (٤٫١٠) م وعمقها (٢٫٤٥) م ويتقدم كل منهما عقد نصف دائرى . وفى أعلى كل منهما نافذة معقودة مملوءة بالجص المعشق بالزجاج المتعدد الألوان ويغطى سقفهما (براطيم) وألواح خشبية مزخرفة برسوم زيتية تشبه باقى سقوف المدرسة .

القبـــة :

يدخل إلى القبة من باب فى الصحن يقع إلى يسار إيوان القبلة ، يؤدى إلى ممر مقبى طوله ثلاثة أمتار وعرضه متر ونصف ، والقبة مربعة الشكل يبلغ طول ضلعها (٧٫٥٠)

أمتار يتوسط الضلع الجنوبي الشرقي المحراب ، ويكتنفه نافذتان في أسفل القبة وقنديلتان في أعلاه سبق وصفهن في الجزء الشمالي من الواجهة الرئيسية ، أما الضلع الشمالي الشرقي فتتوسطه نافذة معقودة عمقها ١,٥ م ومغشاة بمصبعات حديدية ، ويكتنفها حنيتان عمق كل منهما ٢٠ سم .

أما الضلعان الجنوبي الغربي والشمالي الغربي فيحتوى كل منهما على فتحة وحنية عميقة لعلها كتبية ، فتحة الضلع الجنوبي الغربي باب تفتح على إيوان القبلة وفتحة الضلع الشمالي الغربي نافذة تفتح على الطريق .

ويشغل منطقة الانتقال مثلثات مكونة من تسعة صفوف من المقرنصات الصغيرة وبين الأركان في الأضلاع الأربعة توجد نافذة قنديلية مكونة من ثلاث فتحات معقودة يعلوها ثلاث دوائر والمجموعة كلها داخل إطار معقود ذي ثلاث فصوص . ويعلو منطقة الانتقال رقبة القبة التي فتح فيها اثنتا عشرة نافذة صغيرة معقودة . ويعلو الرقبة ذات قطاع مدبب مزخرفة من الخارج بخطوط هندسية متكسرة .

المئذنة :

يصعد إلى المئذنة من باب في دهليز المدخل الرئيسي ، وقد جاء في محاضر جلسات لجنة حفظ الآثار العربية لسنتي ١٨٨٧ - ١٨٨٨ م أن المئذنة ظلت قائمة حتى سنة ١٨٨٤ م حيث سقطت ولم يعد بناؤها .

مسجد أولاد عنان

بميدان محطة مصر
بالقاهرة ٩٢٢ هـ

يقول الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى طبقاته الكبرى[1] « ومن مشايخى الذين أدركتهم فى القرن العاشر رضى الله تعالى عنهم الشيخ سيدى محمد عنان . كان رضى الله عنه من الزهاد العباد ، وما كنت أمثله إلا بطاوس اليمانى أو سفيان الثورى . وما رأيت فى عصرنا مثله ، وكان مشايخ العصر إذا حضروا عنده صاروا كالأطفال فى حجر مربيهم . وكان على قدم فى العبادة والصيام وقيام الليل من حين البلوغ . وكان يضرب به المثل فى قيام الليل وفى العفة والصيانة » ويقول عنه العارف بالله سيدى عبد القادر الدشطوطى « أن الشيخ محمد بن عنان يعرف السماء طاقة طاقة » .

ولد الشيخ محمد بن عنان سنة ٨٠٢ هـ بقرية (بير همتوش) من قرى الشرقية حيث يوجد قبر أخيه الشيخ عبد القادر بن عنان وكان الشيخ محمد فى قريته موضع التبجيل والاحترام حتى ذاعت شهرته فى إقليم الشرقية لما عرف عنه من التقوى والورع وبلغ خبره الشيخ كمال الدين إمام جامع المدرسة الكاملية بالقاهرة ، فسافر إلى الشرقية بقصد رؤيته فقط ، فلما اجتمع به أعجب إعجابا شديدا ، فأخذ عليه العهد وسافر به إلى الشيخ أبى العباس الغمرى بالمحلة الكبرى فآخى بينهما . ويقول الشيخ محمد عن نفسه « حفظت القرآن وأنا رجل فحفظت أولا النصف الأول على الفقيه ناصر الدين الأخطابى ثم النصف الثانى على أخى الشيخ عبد القادر » .

---

(١) الطبقات الكبرى جـ ٢ ص ١١٧ .

ولما حضر الشيخ محمد بن عنان إلى القاهرة ، أقام فى بدء أمره ثلاث سنين فى سطح جامع عمرو بن العاص . ويقول الشعرانى عنه « كان رضى الله عنه يحب الإقامة فى الأسطحة وكل جامع أقام فيه عمل له فوق سطوحه خصا وتارة خيمة . وكان مدة إقامته فى القاهرة لا يكاد يصلى الجمعة مرتين فى مكان واحد ، بل تارة فى جامع عمرو وتارة فى جامع محمود وتارة فى جامع القراء بالقرافة . وحضرته صلاة الجمعة مرة بالقرب من الجامع الأزهر فقال : « هذا مجمع الناس وأنا أستحي من دخولى فيه » .

وكان رضى الله عنه مدة إقامته بجامع عمرو بن العاص لا ينزل من سطح الجامع إلا وقت صلاة الجماعة أو وقت حضور درس الشيخ يحى المناوى الذى كان من أهل علمى الظاهر والباطن كما يقول عبد الوهاب الشعرانى ، كذلك يذكر أنه كان يحضر مجالس الأولياء مثل الشيخ محمد السروى والشيخ محمد ابن أخت الشيخ مدين وأضرابهما » .

وقد أفاض الشيخ الشعرانى فى ذكر القصص والحكايات التى تدل على كرامات الشيخ محمد بن عنان خاصة تلك التى سمعها منه أو شاهدها بنفسه فمن ذلك يقول : (سمعته رضى الله عنه يقول : سخر الله تعالى لى الدنيا مدة إقامتى فى جامع عمرو فكانت تأتينى كل ليلة بإناء فيه طعام ورغيفان، وما خاطبتها قط ولا خاطبتنى ولكن كنت أعرف أنها الدنيا .

وكان الشيخ محمدبن عنان رحمة الله عليه حيبا رقيق الإحساس لا يرد لسائل طلبا مهما كانت الظروف والملابسات ، وفى ذلك يقول الشعرانى : « وكان رضى الله عنه إذا دعاه من فى طعامه شبهة يجيبه ولكن يأخذ فى كمه رغيفا يأكله على سفرة ذلك الرجل مسارقة من غير أن يلحظ أحد به ، هكذا رأيته .

ومن كرامات الشيخ محمد بن عنان التى تواتر ذكرها فى المراجع التاريخية تلك التى يحدثنا عنها ابن اياس فيقول : « طلب السلطان قنصوة الغورى الشريف بركات سلطان الحجاز ولكن الشريف أحس بأن الغورى سيغدر به . فجاء إلى محمد بن عنان بعد صلاة العصر ونحن جلوس بين يديه فقام له الشيخ واعتنقه وقال له الشريف أريد أن أهرب حالا وأخشى أن يلحق بى الغورى ويفتك بى ، وهناك نوق تنتظرنى بالقرب من بركة الحاج ، فدخل الشيخ محمد الخلوة فانتظره الشريف فلم يخرج والوقت ضاق ، فقال

لخادمه الشيخ حسن الحديدى : استعجل لى الشيخ ففتح باب الخلوة فلم يجد الشيخ فيها فرد الباب ، وبعد مضى ساعة خرج الشيخ وعيناه كالدم الأحمر ، وقال للشريف بركات اركب لن يلحقك أحد ، فما شعر الغورى به إلا بعد يومين فتخلص إلى بلاد الحجاز ، فأرسل فى طلبه فلم يلحقوه .

أما عن رأيه فى التصوف والمتصوفين فقد كان فى غاية الاعتدال ، ويدل على سعة أفقه وحرصه على البعد بالدين والمتدينين مما قد يلحقه بهم بعض أدعياء التصوف ، فقد حدث عند أول مجيئه إلى القاهرة من الريف أن جاءه شخص وهو جالس بجامع المقس (أو باب البحر) وقال له : « يا سيدى إن جماعة يقولون إن هذه الخلاوى التى فيها الفقراء لنا وكان ذلك وقت الطعام ، فخرج وأمر بنقل دسوت الطعام إلى الساحة وأكمل طبخ الطعام هناك وقال الفقير رأس ماله قلبه » وكان رحمه الله يعتقد أنه لا يوجد فى زمانه الشخص الورع التقى الذى يستطيع أن يسلك طريق المتصوفة ، فقد جاء فى (تحفة الأحباب وبغية الطلاب) للسخاوى « إنه لا يرى أحدا يصلح للطريق فى زمانه ، ويقول هؤلاء يستهزئون بطريق الله » كما يضيف « وإنه لم يلقن أحدا الذكر غير الشيخ أحمد النجدى ، جاءه بالمصحف وقال أقسمت عليك بصاحب هذا الكلام ، إلا ما لقنتنى ، الذكر ، فغشى على الشيخ من قسمه عليه بالله عز وجل ثم لقنه ، وقال يا ولدى الطريق ما هى بهذا إنما هى باتباع الكتاب والسنة » وفى هذا المقام يذكر الشعرانى القصة التالية : « جاءه مرة شخص لابس زى الفقراء ، فقال كم تنقسم الخواطر ، فقطب الشيخ وجهه ولم يلتفت إليه ، فلما قام الرجل ، قال الشيخ لا إله إلا الله ما كنت أظن أنى أعيش إلى زمان تصير الطريق إلى الله عز وجل فيه كلاما من غير عمل . ومناقب الشيخ محمد عنان لا تعد ولا تحصى ، توفى رضى الله عنه وهو يصلى خلف الإمام والمسبحة فى يده وذلك فى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة عن مائة سنة ودفن بجامع المقس بباب البحر وصلى عليه الأئمة والسلطان طومان باى ، وصار يكشف رجل الشيخ ويمرغ خدوده عليها وكان يوما فى مصر مشهودا » .

وصف الجـــامع

يقع جامع أولاد عنان عند نهاية شارع إبراهيم باشا ويطل على ميدان محطة مصر (ميدان رمسيس) وقد حل المسجد الحالى مكان مسجد أقامه الحاكم بأمر الله كانت تسميه عامة مصر فى زمن المقريزى باسم جامع المقس ، وذلك لوقوعه مكان خليج أمير المؤمنين الذى كان يبدأ من فم الخليج بمصر القديمة وينتهى عند خليخ السويس . وكانت المنطقة التى أقام بها الخليفة الحاكم المسجد ميناء نهرية يجلس بها العشار وهو الماكس أى الذى يجبى المكوس ، فلما غلب جلوس المكس بالمسجد عرف المسجد بالمكسى أو المقسى .

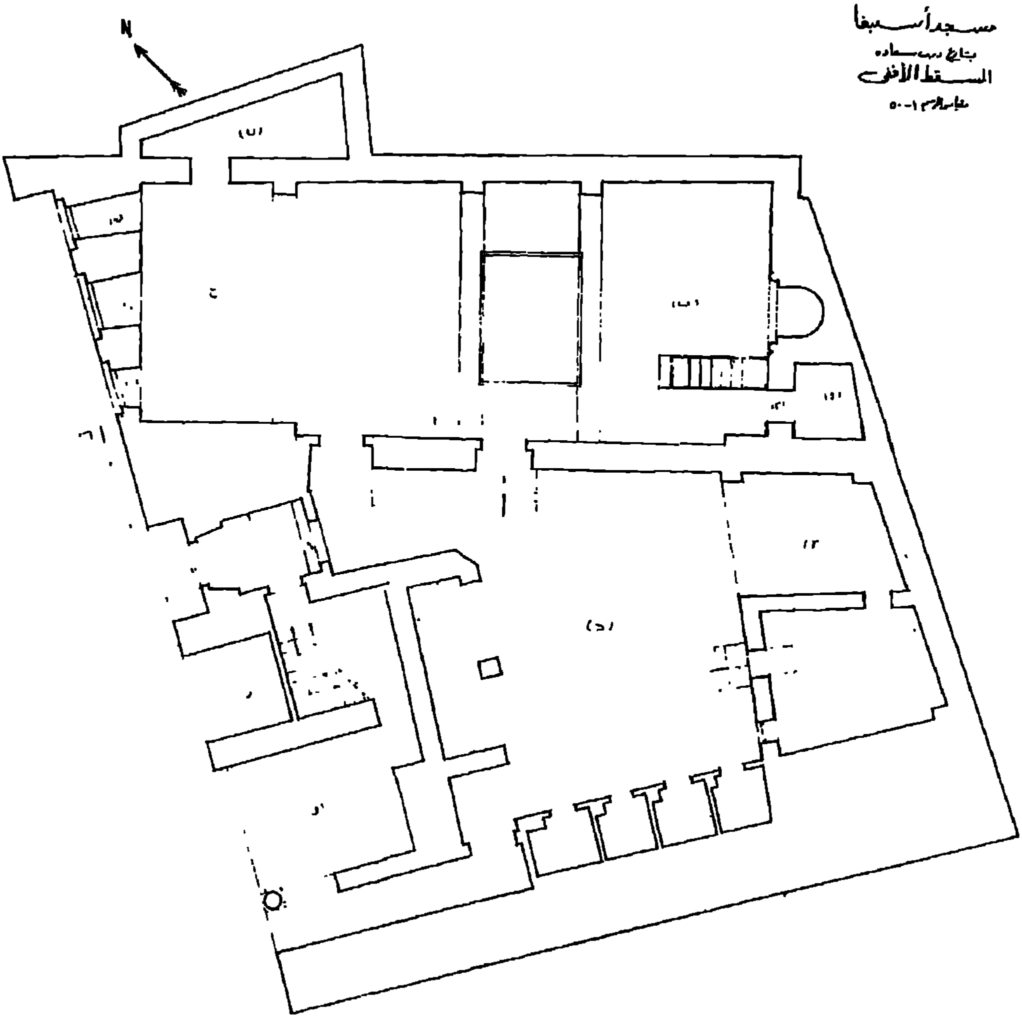
ويسمى على مبارك هذا المسجد بجامع باب البحر فى خططه وذلك لأنه كان يقع عند أحد أبواب سور صلاح الدين الأيوبى الغربى الملاصق لخليج أمير المؤمنين وكان يعرف باسم باب البحر فسمى المسجد باسمه . ويقول المقريزى « وأدركنا المقس خطه فى غاية العمارة بها عدة أسواق ويسكنها أمم من الأكراد والأجناد والكتاب وغيرهم ، وعند حدوث الغلاء بمصر فى أيام الملك الأشرف شعبان تلاشت ، فلما كانت المحن منذ سنة ست وثمانمائة خربت الأحكار والمقس ، وفيه إلى الآن بقية صالحة وبه خمسة جوامع تقام بها الجمعة وعدة أسواق » .

وكان لجامع المقس نخل كثير موقوف عليه منذ عهد الدولة الفاطمية ، وكانت للخليفة الفاطمى منظرة بجانب الجامع يركب إليها عند عرض الأسطول . وفى سنة ٥٨٧ هـ انشقت زريبة من هذا الجامع لكثرة زيادة ماء النيل وخيف على الجامع السقوط فأمر صلاح الدين بعمارته ثم أقام الأمير بهاء الدين قرقوس متولى العمائر فى دولة صلاح الدين بجوار هذا الجامع برجا كبيرا فى مكان منظرة الخلفاء الفاطميين . وفى سنة ٧٧٠ هـ جدد الجامع الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى وهدم البرج وجعل مكانه حديقة أمام الجامع ، فصار فى العامة كما جاء فى المقريزى ، بجامع المقسى .

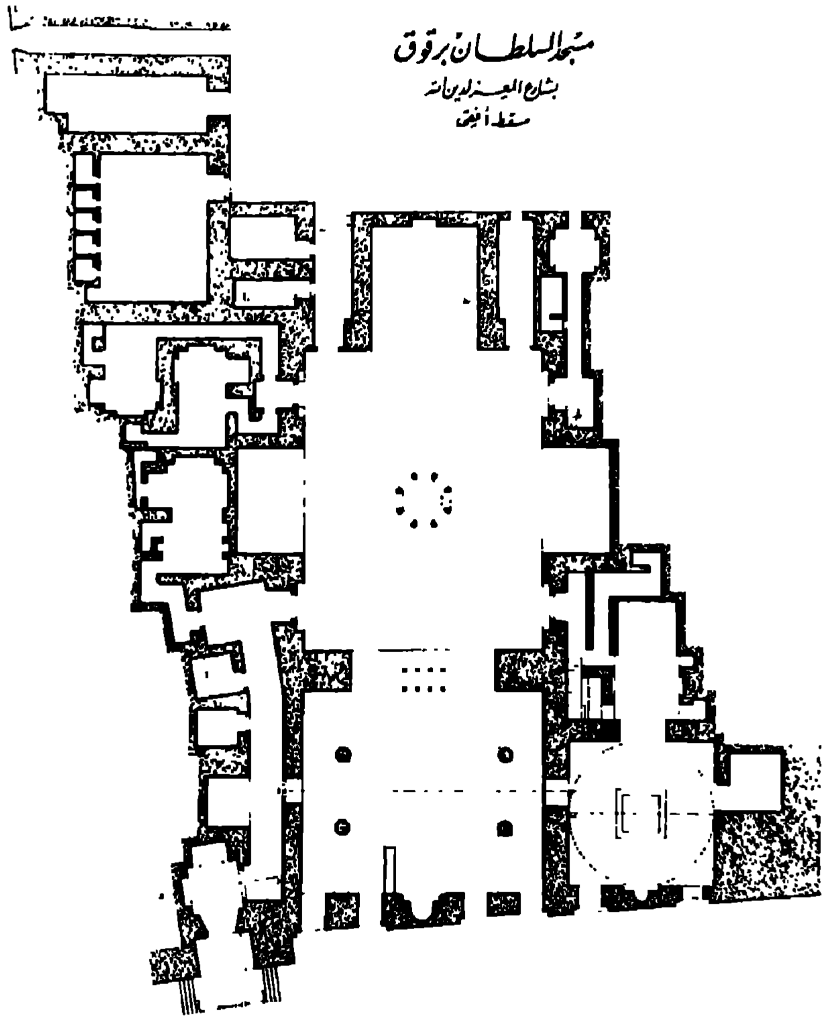
ولما دفن الشيخ محمد عنان ، وأخوه عبد القادر بن عنان بهذا المسجد فى القرن العاشر الهجرى عرف باسم جامع أولاد عنان . وفى أوائل القرن الرابع عشر الهجرى أقيمت على قبر الشيخ محمد بن عنان قبة منفصلة عن الجامع وأعيد بناء الجامع . وقد نقش تاريخ الإنشاء على باب رواق القبلة وجاء فيه : « أنشأ هذا المسجد حسن باشا حلمى رئيس مجلس شورى القوانين ابن المرحوم أمين باشا الأندوسى سنة ١٣١٣ هـ » . وتتكون قبة مسجد الشيخ محمد عنان من غرفتين مربعتين الأولى سقفها مسطح وبها محراب والثانية مربعة كذلك تغطيها قبة مقامة على خمس حطات من المقرنصات ويتوسطها ضريح تحيط به مقصورة من خشب الخرط كتب عليها (أنشأ هذه المقصورة ديوان الأوقاف سنة ١٣٢٧ هـ) وإلى الجنوب من القبة يوجد الجامع ويتكون من إيوان كبير به خمسة أروقة موازية لحائط القبلة تقسمها أربع بوائك وكل منها يتكون من ثلاثة عقود مقامة على عمودين. ويحيط بهذا الإيوان ممر عريض ، فى الجهة الشرقية منه يوجد المدخل الرئيسى للجامع وفى الضلع الشمالى يوجد باب ثانٍ وفى الجهة الغربية من الجامع توجد ميضأة الجامع . وفى الركن الشمالى الرئيسى توجد المئذنة .

هذا وستقيم وزارة الأوقاف مكان مسجد أولاد عنان جامعا جديدا يعرف باسم مسجد فتح ، وإنى لأرجو أن تحتفظ الوزارة بضريح الشيخ محمد عنان وأن يكتب اسمه بجانب اسم كلمة الفتح اعترافا منها بحرمة الأولياء وحفاظا على آثارنا وتراثنا الإسلامى .

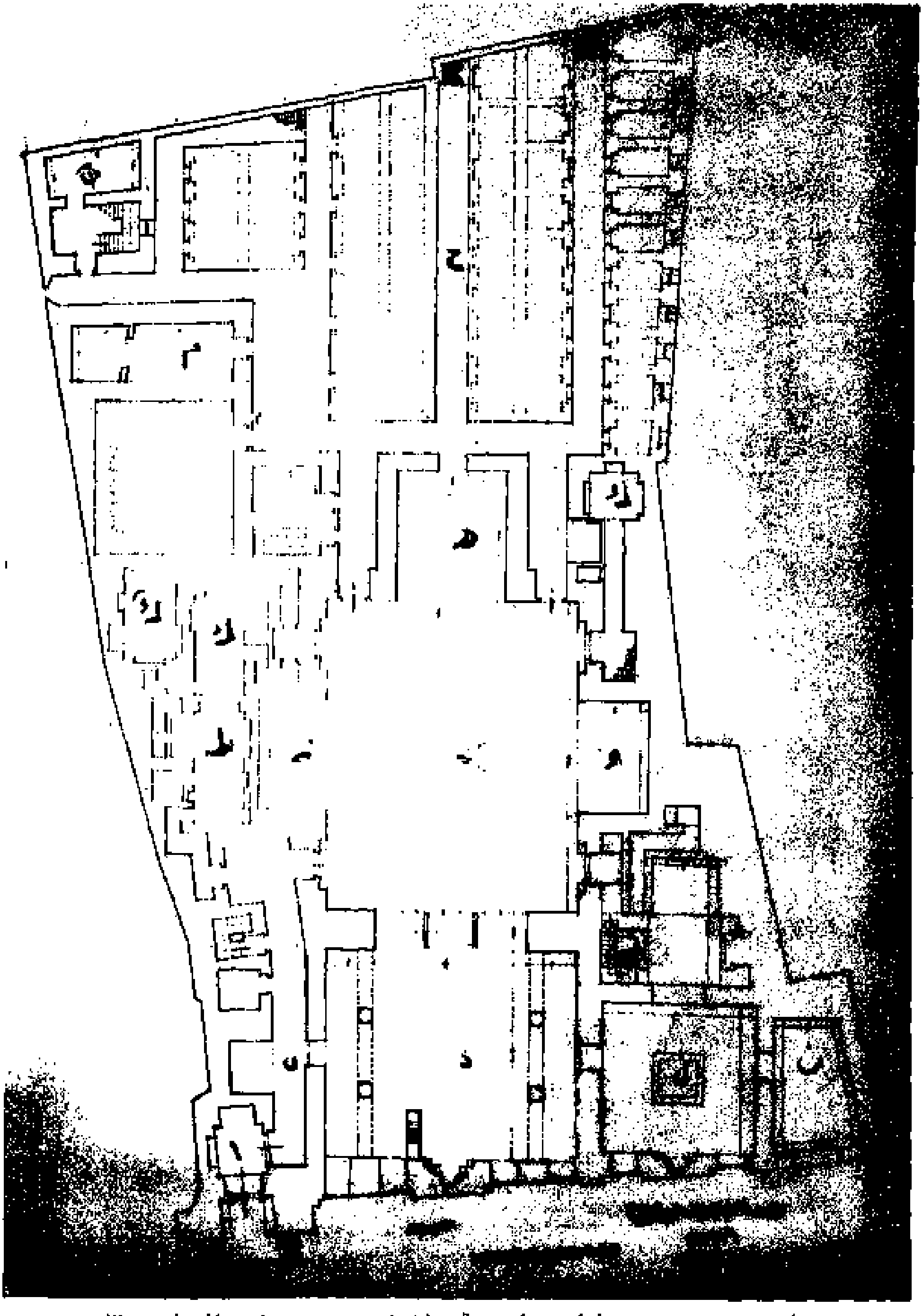
الأشكال



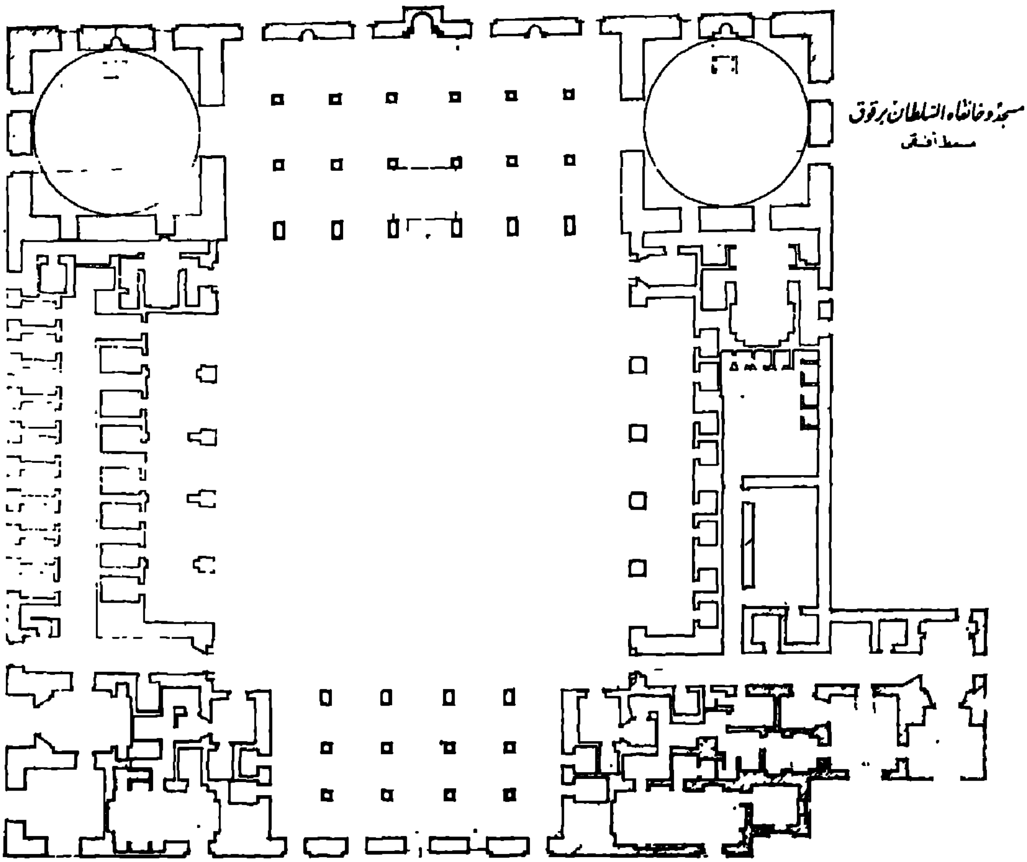
شكل (١) يبين مسقط أفقى لمدرسة اسبنقا



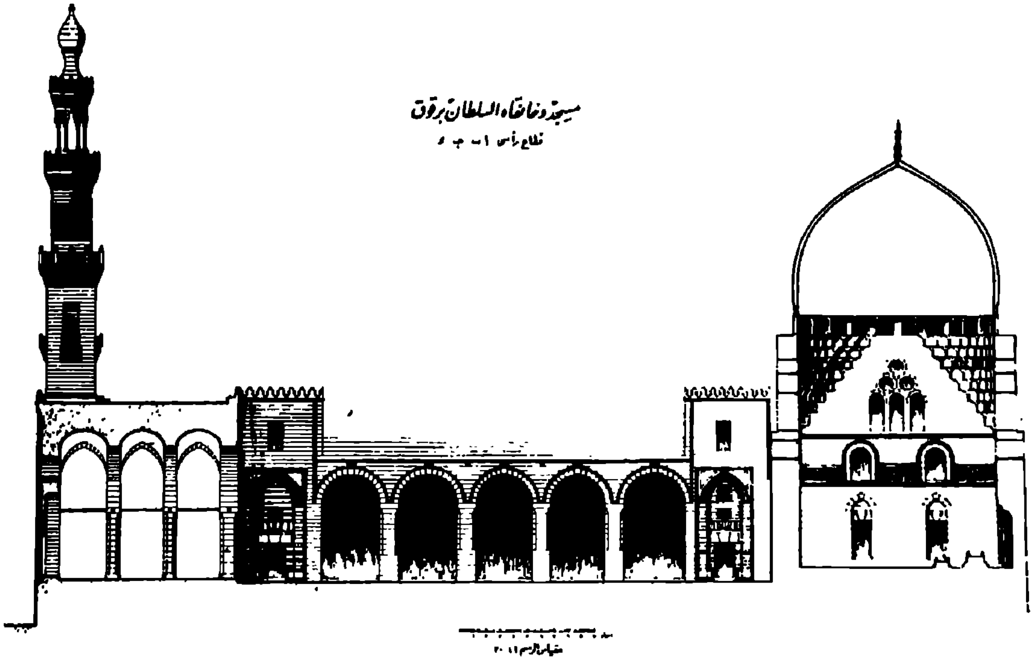
شكل (٢) يبين مسقط أفقى لمدرسة برقوق بشارع المعز الدين الله



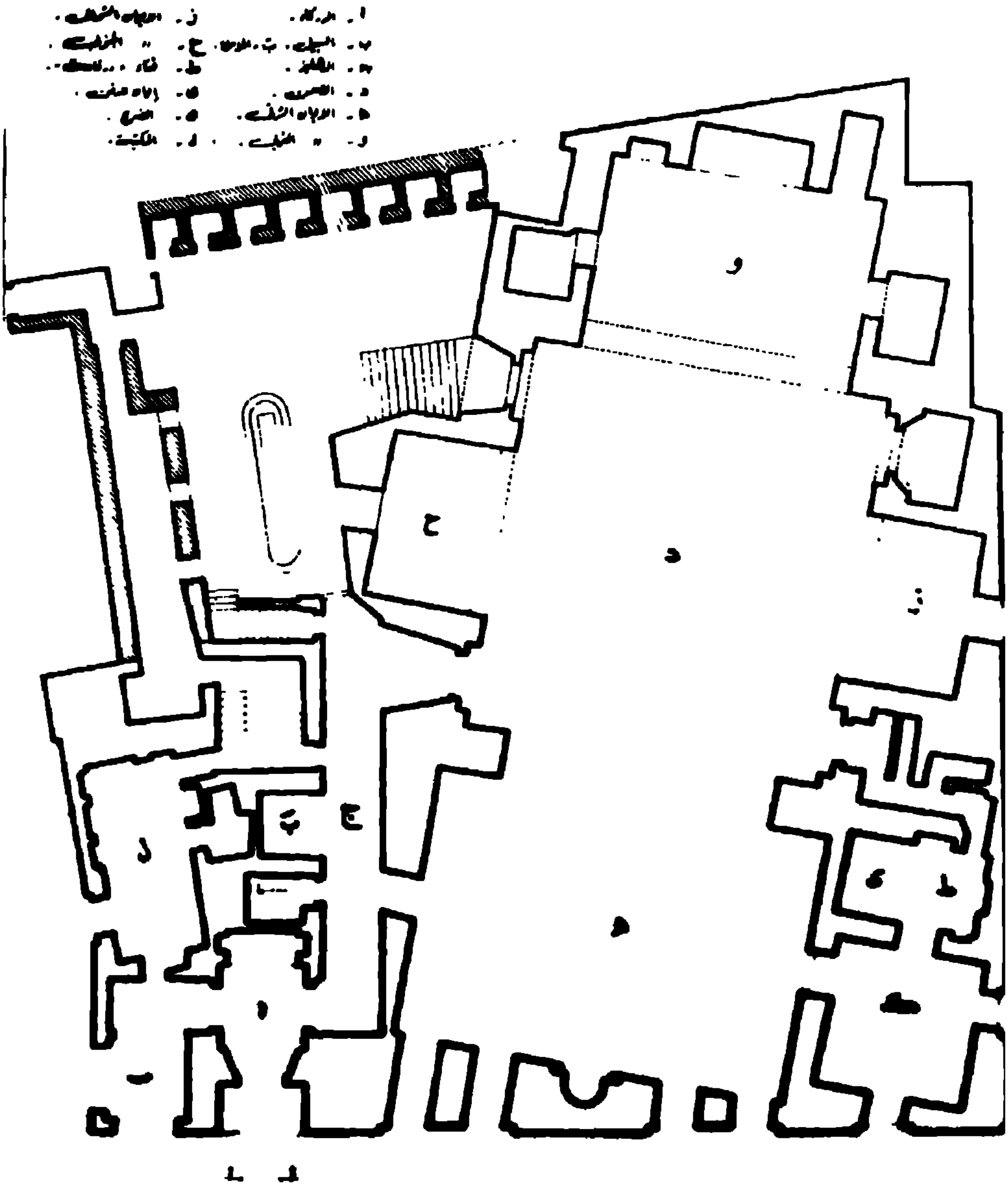
شكل (٣) تبين مسقط أفقى لمدرسة وخانقاه برقوق بشارع المعزلدين الله



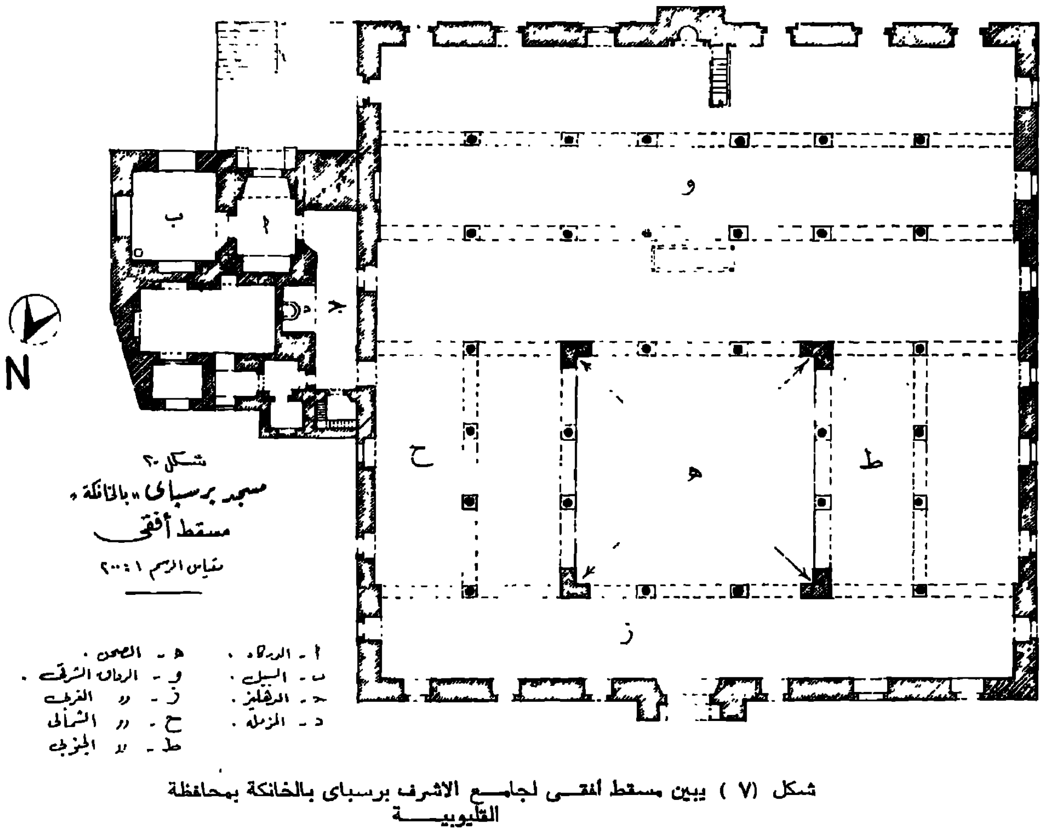
شكل (٤) يبين مسقط افقى للمدرسة والخانقاه البرقوقية بقرافة المماليك بالعباسية



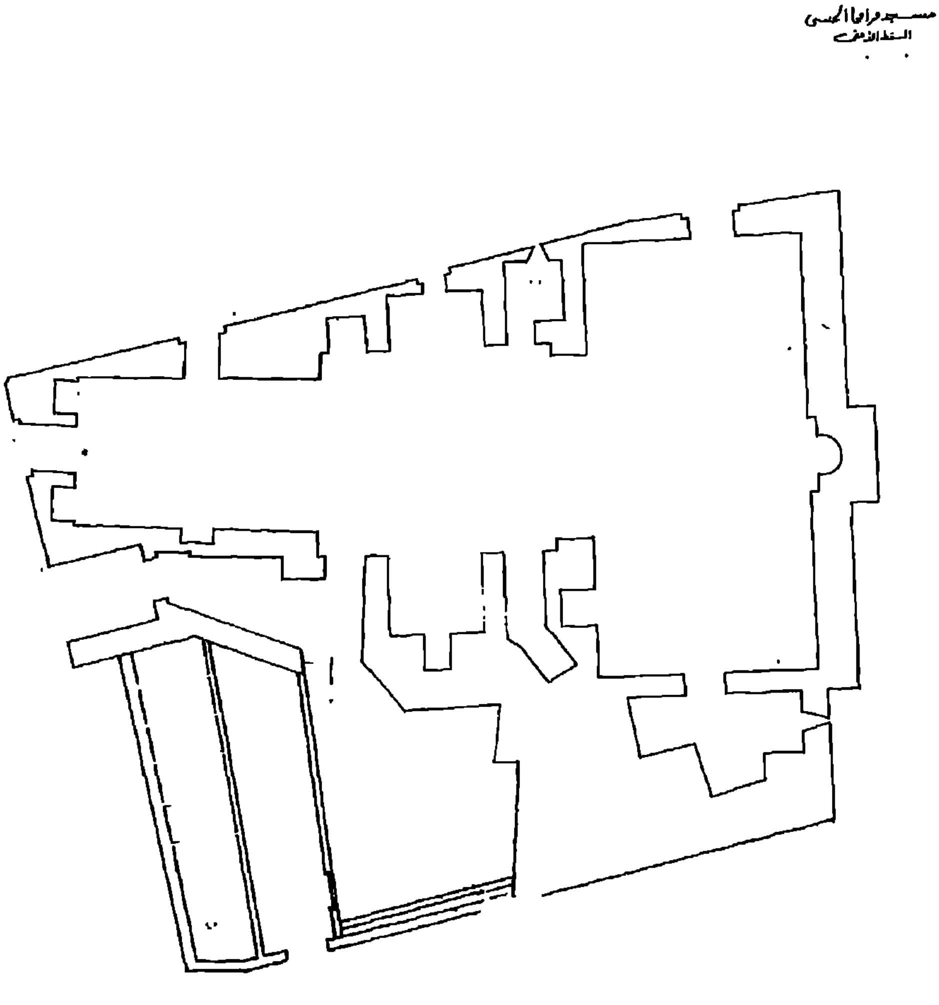
شكل (٥) يبين قطاع رأسى للمدرسة البرقوقية بقرافة المماليك



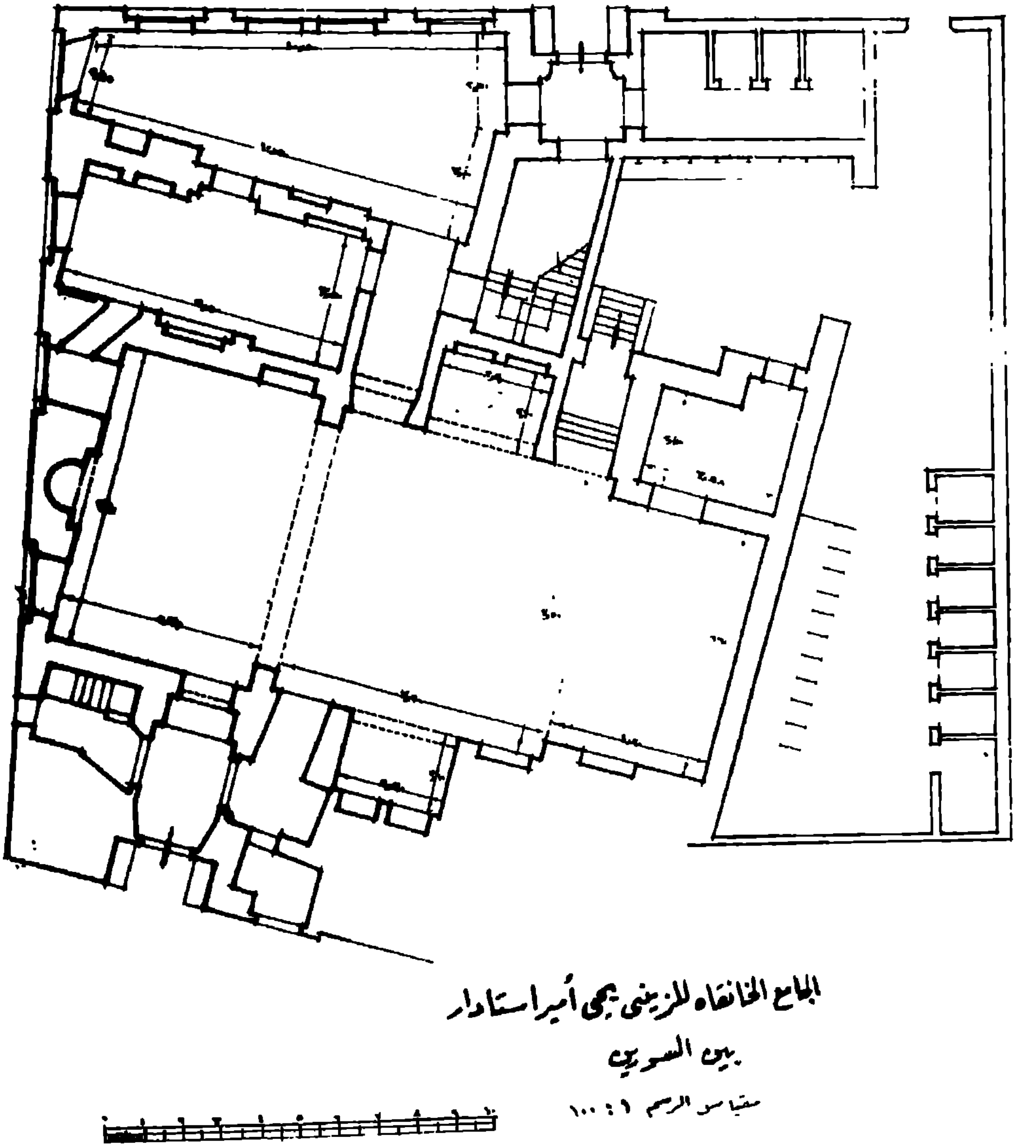
شكل (٦) يبين مسقط أفقى لمدرسة الاشرف برسباى بشارع المعز لدين الله بالقـــاهرة



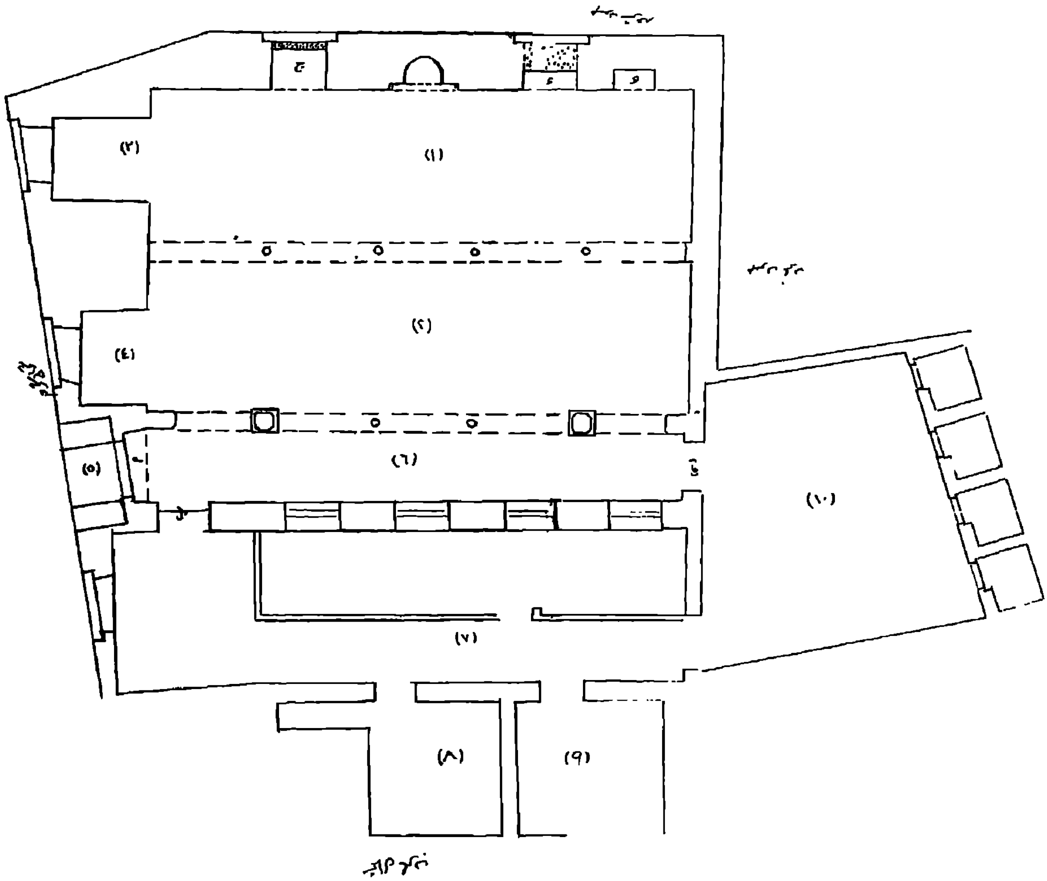
شكل (٧) يبين مسقط أفقـى لجامـع الاشرف برسباى بالخانكة بمحافظة القليوبيـة



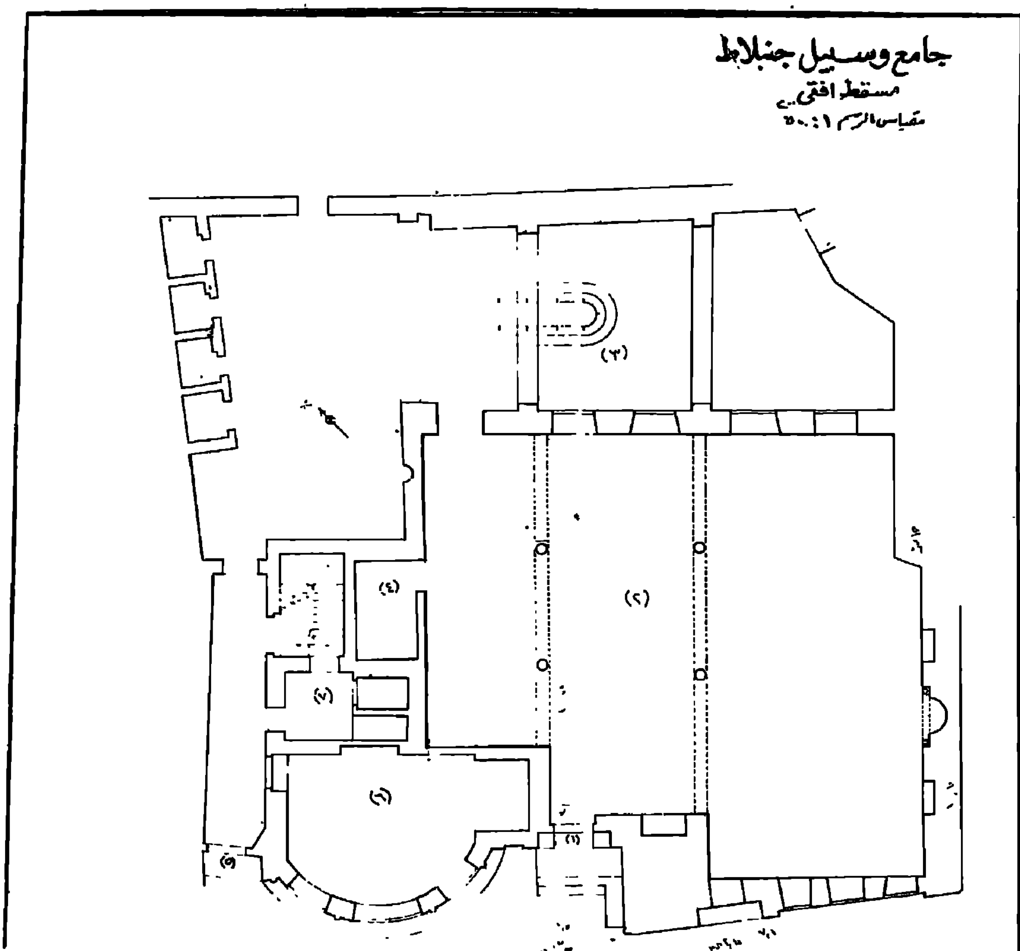
شكل (٨) يبين مسقط أفقي لمدرسة قراقجا الحسني بشارع درب الجماميز بالقـــاهرة



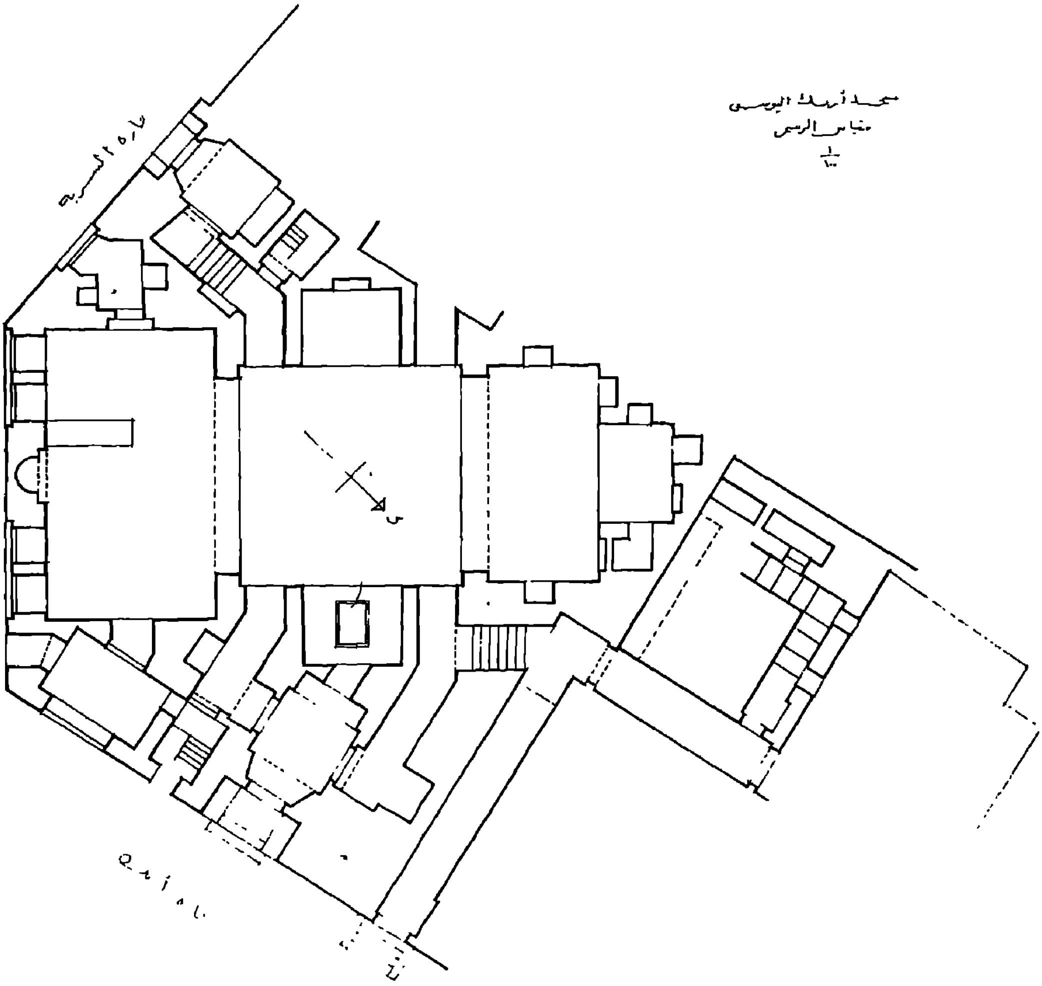
شكل (٩) يبين مسقط أفقى لمدرسة زين الدين يحيى بشارع الأزهر



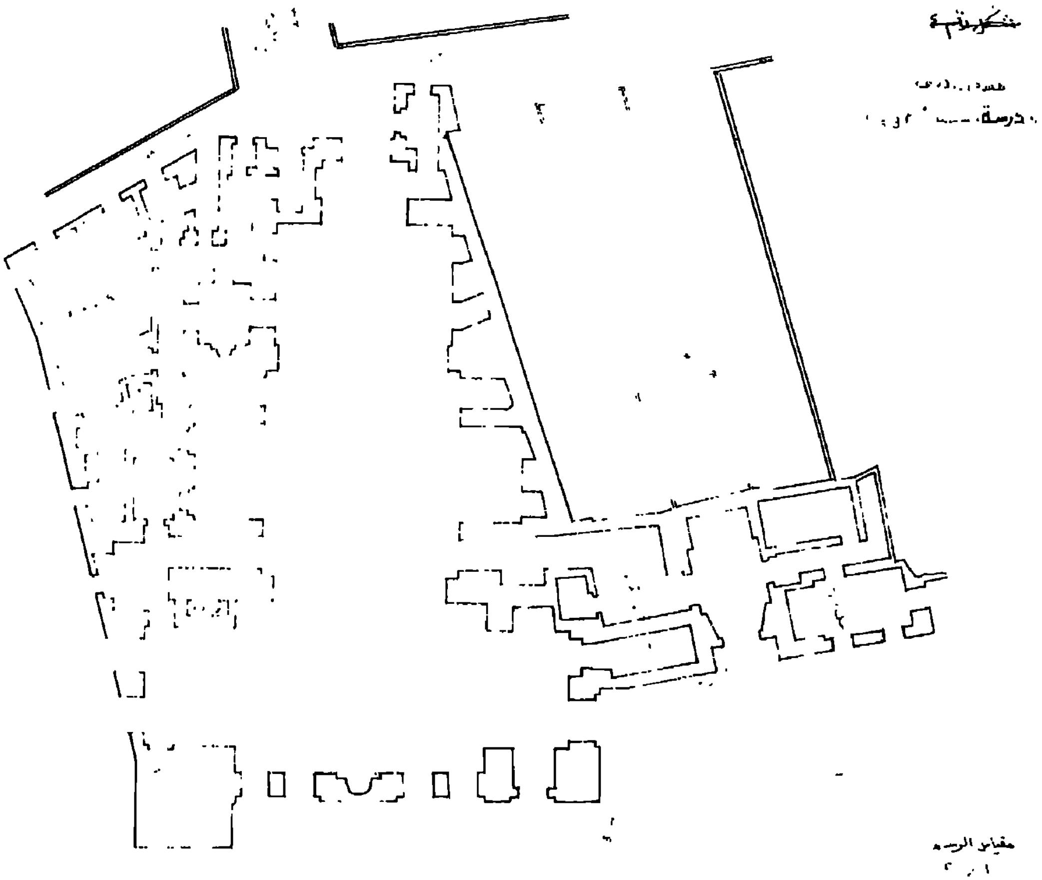
شكل (١٠) يبين مسقط افقي لمسجد تنم رصاص بحي السيدة زينب رضوان الله عليهـــا



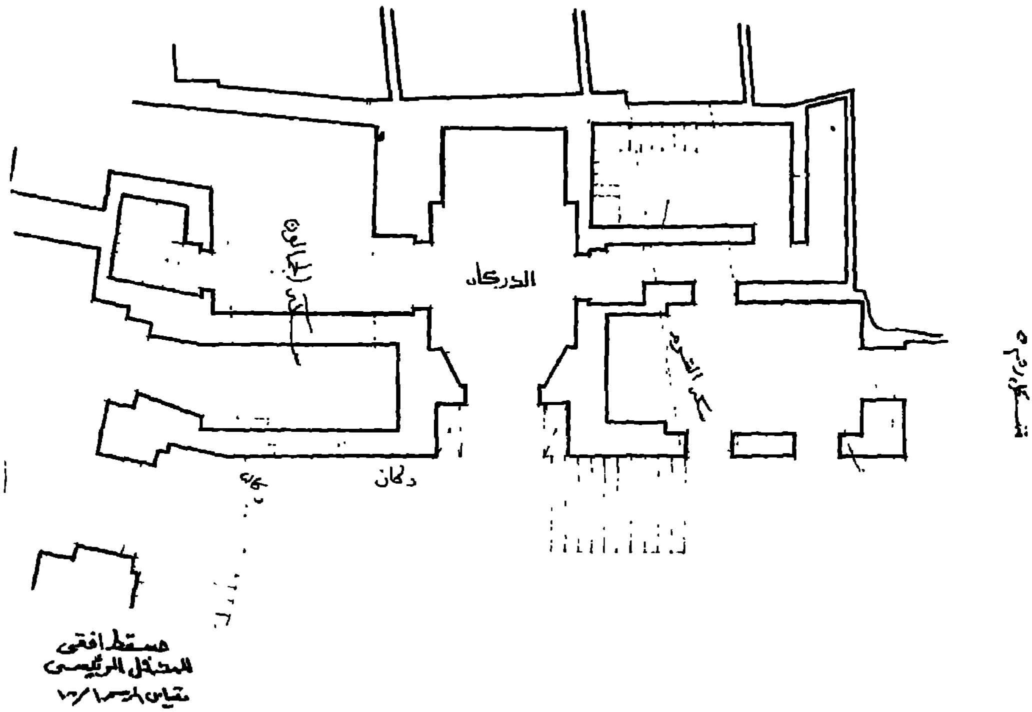
شكل (١١) يبين مسقط افقى لمدرسة ابن قرقماس المعروفة بمدرسة جنبلاط



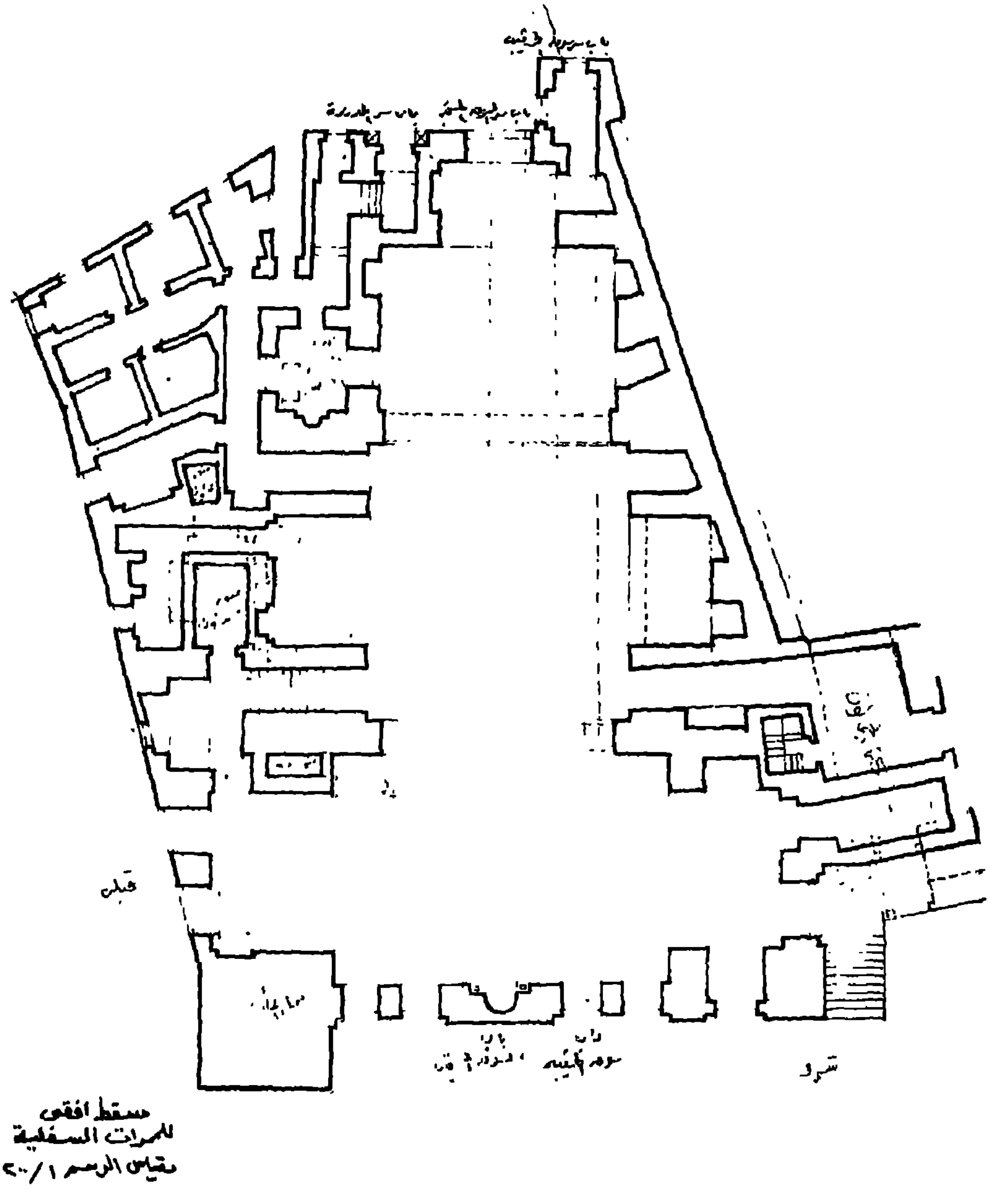
شكل (١٢) يبين مسقط افقى لمدرسة ازبك اليوسفى بحى طولون بالسيدة زينب رضوان الله عليهـــا



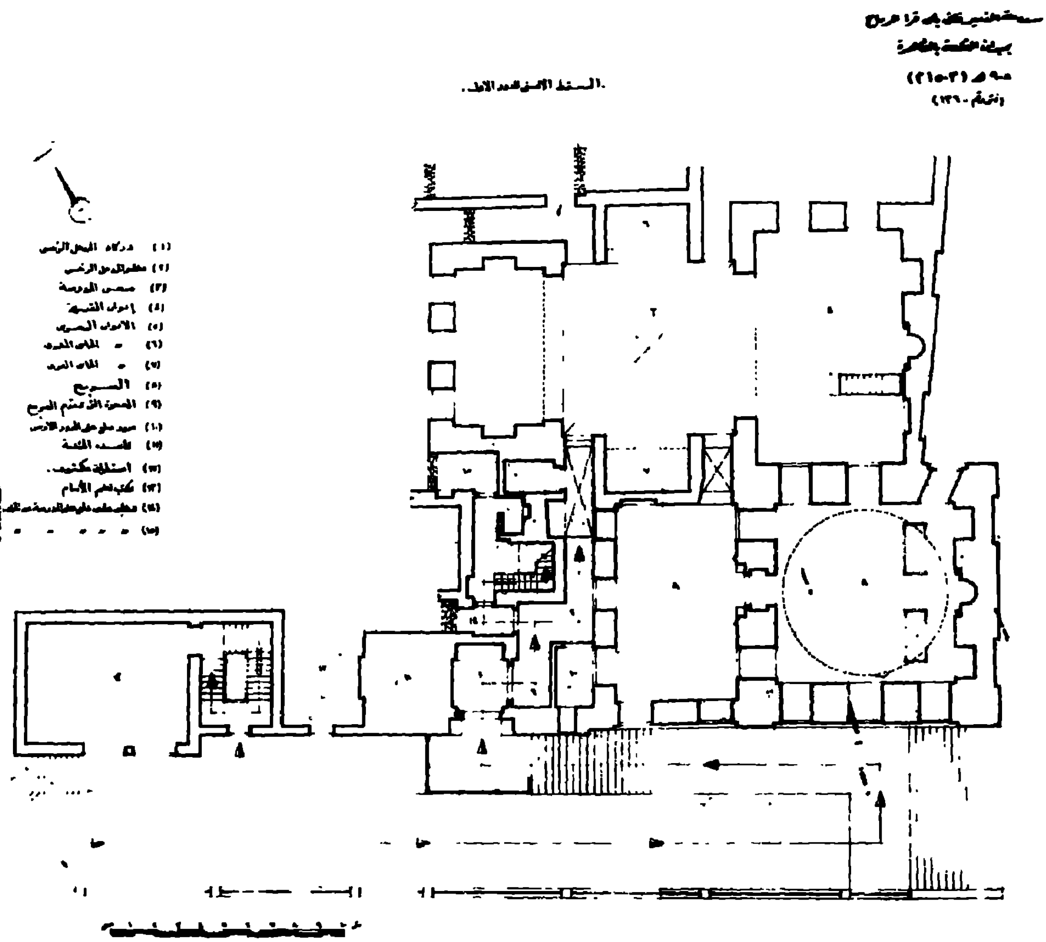
شكل (١٣) يبين مسقط أفقى لمدرسة الغورى بالغورية بحى الازهر بالقاهرة



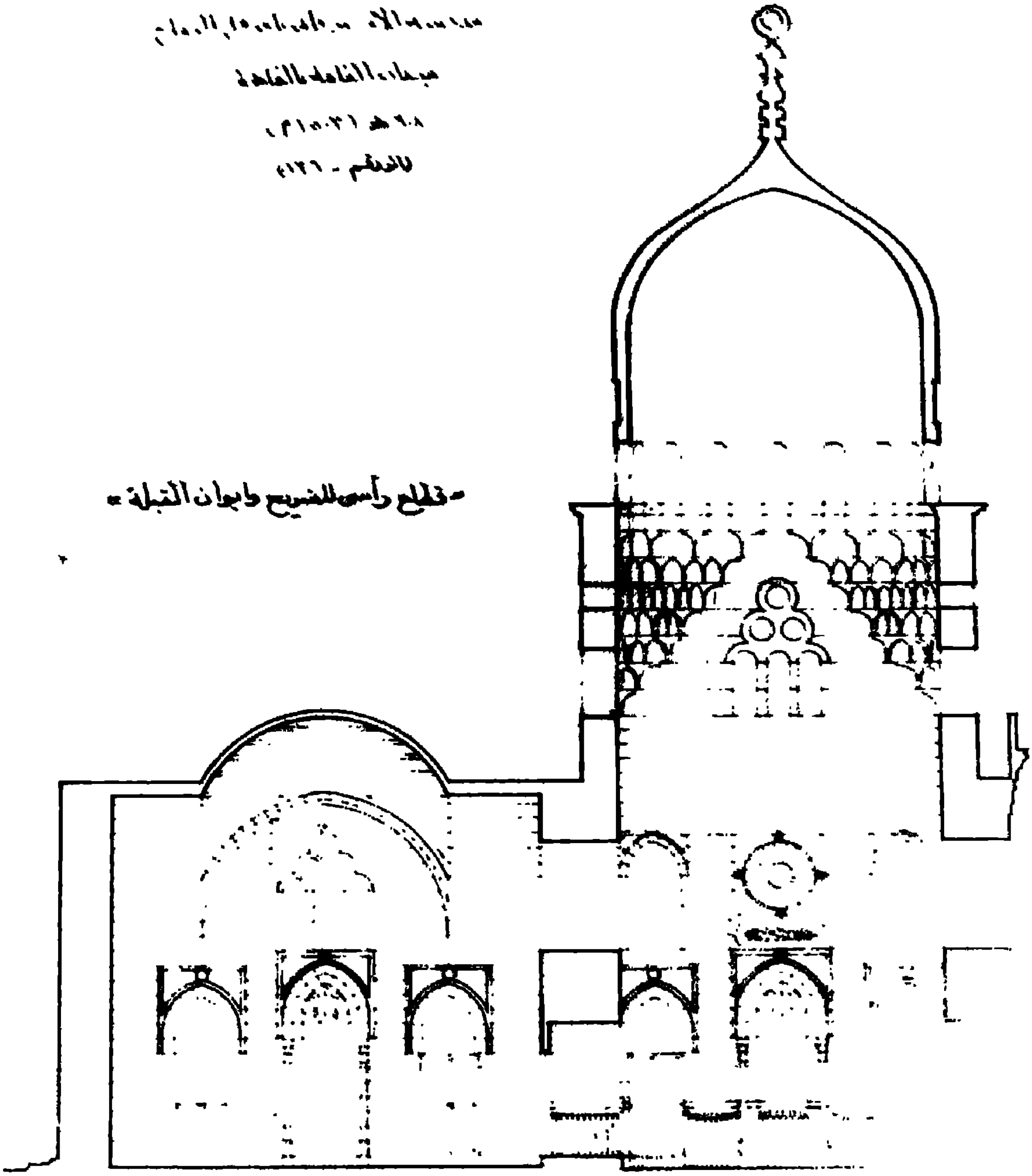
شكل (١٤) يبين مسقط افقى للمدخل الرئيسى لمدرسة الغورى



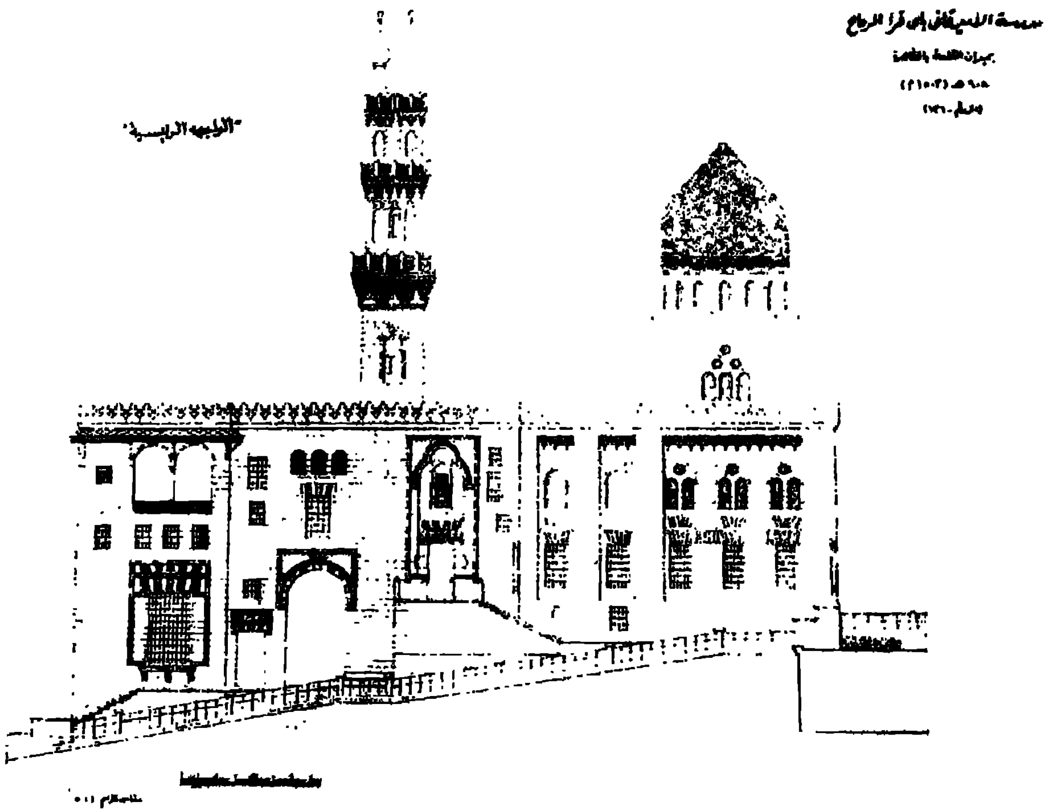
شكل (١٥) يبين مسقط أفقى للممرات السفلية لمدرسة الغورى



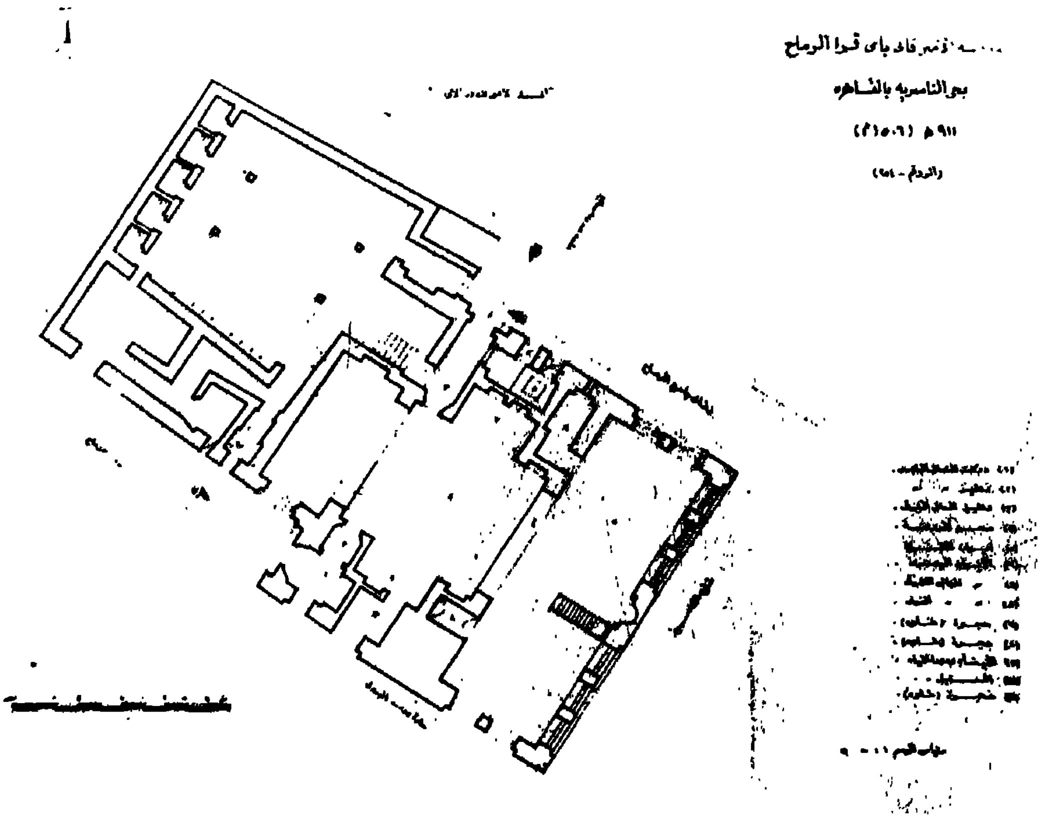
شكل (١٦) يبين مسقط افقى لمدرسة قانى باى الرماح بميدان القلعة
(صلاح الدين حاليا)



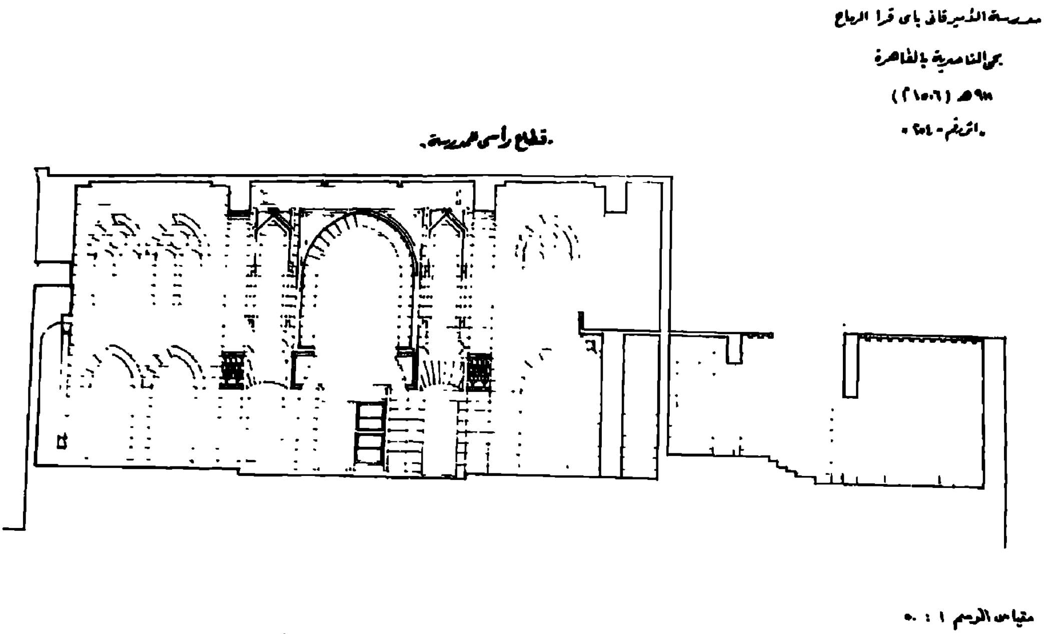
شكل (١٧) يبين قطاع رأسى لضريح وايوان القبلة بمدرسة قانى باى الرماح بميـــدان القلعـــــة



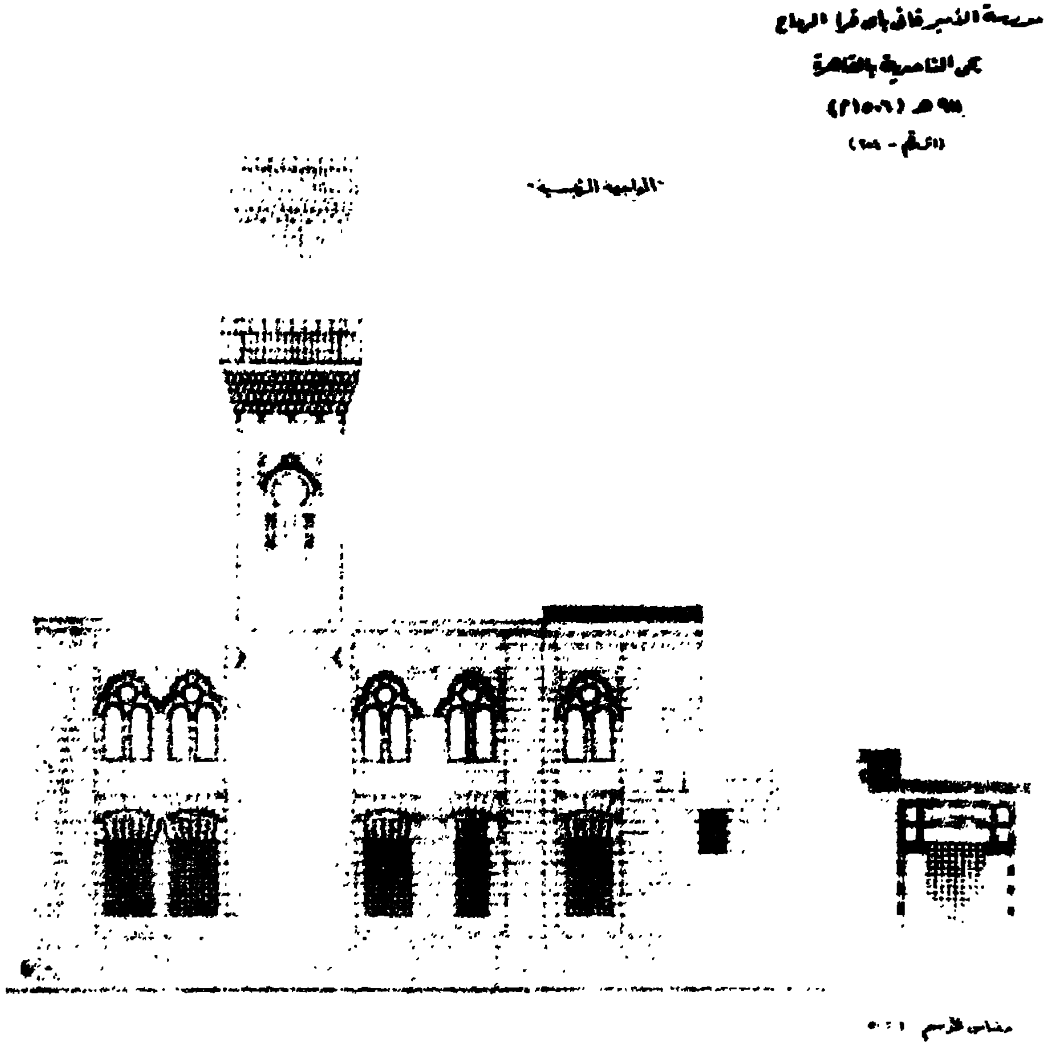
شكل (١٨) يبين مخطط للواجهة الرئيسية لمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة



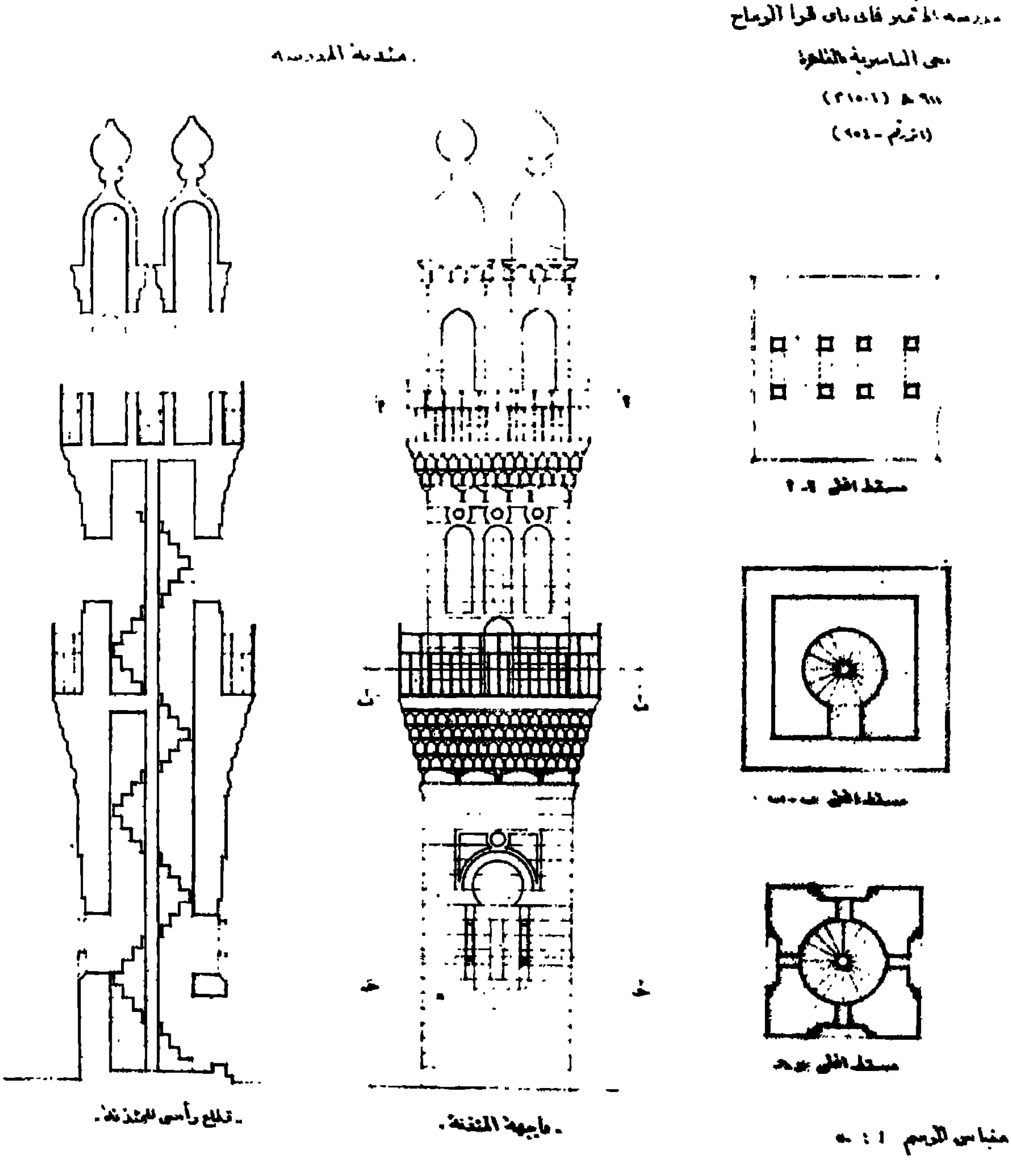
شكل (١٩) يبين مسقط افقى لمدرســـة قانى باى الرمـــاح بحى الناصريـــة بالسيدة زينب رضوان الله عليها



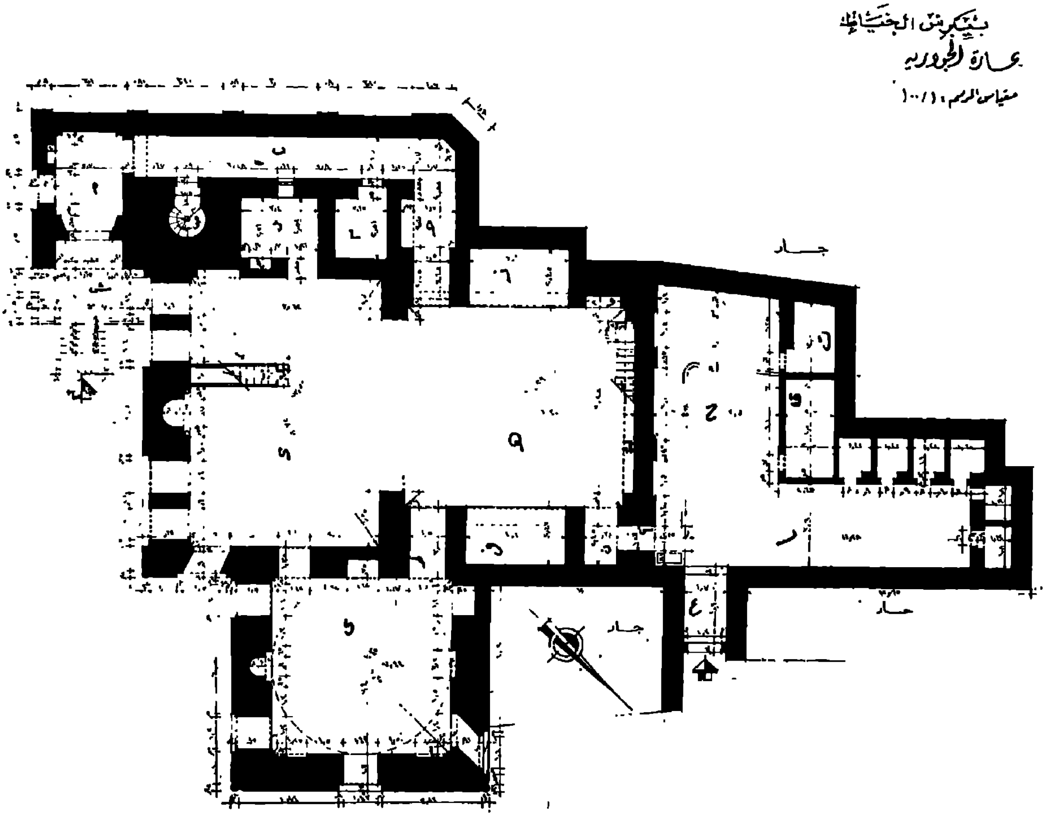
شكل (٢٠) يبين قطاع راسى لمدرسة قانى باى بحى الناصرية



شكل (٢١) يبين مخطط للواجهة الرئيسية لمدرسة قانى باى الرماح بالناصرية



شكل (٢٢) يبين مسقط افقى وقطاع راسى ومخطط لمئذنة مدرسة قانى باى الرماح ذات الرأسين بالناصرية



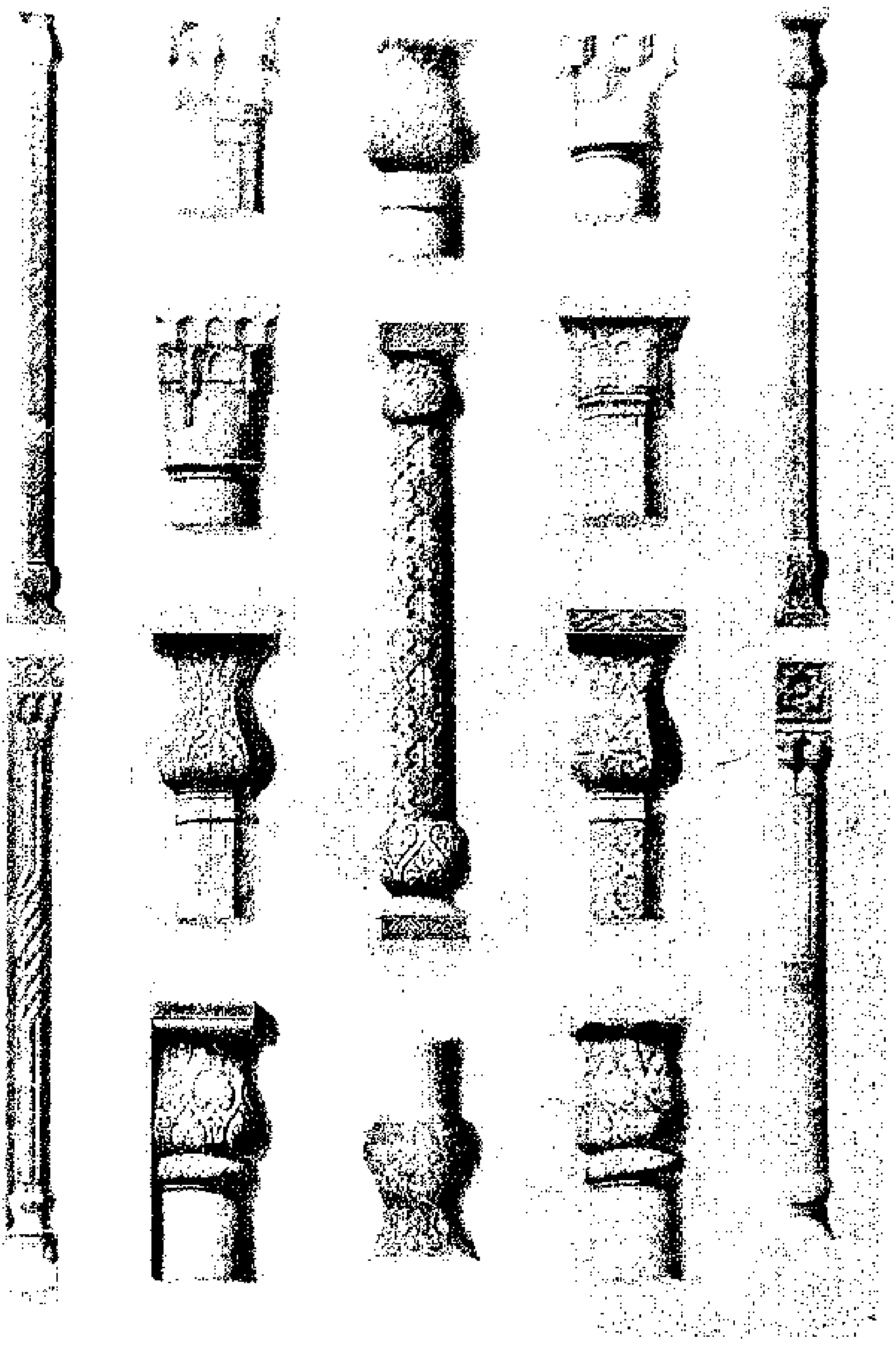
شكل (٢٣) يبين مسقط أفقي لمدرسة بيبرس الخياط بالجودرية بحي الأزهر

اللوحات

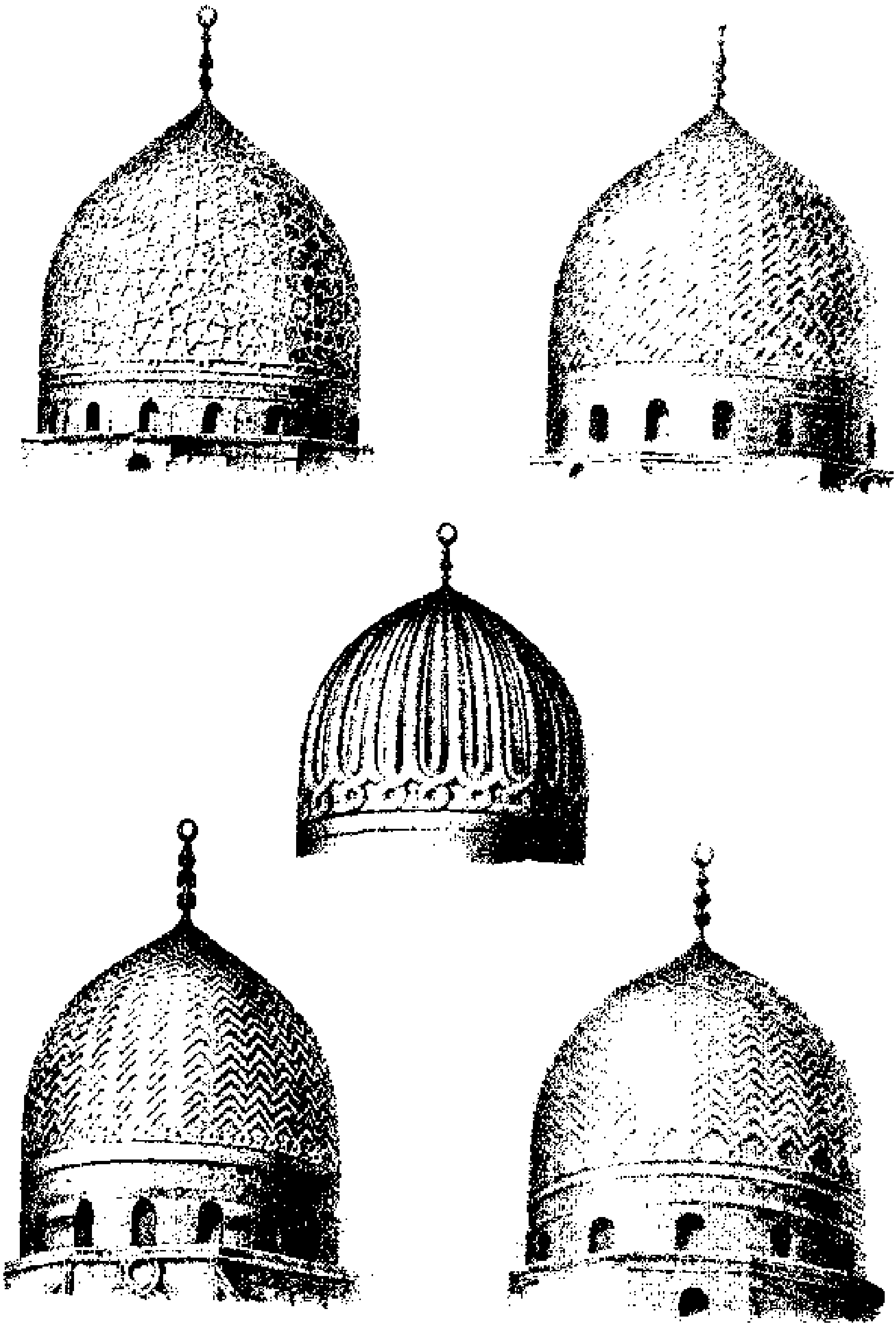


لوحة (١) تبين خليج أمير المؤمنين الذي يخرج من النيل بالقرب من كوبرى الملك الصالح وينتهي في البحر الأحمر عند مدينة القلزم (السويس حاليا) وقد عرف في العصور الوسطى باسم الخليج المصري .

وترى السفن والمشارى تسبح فيه ، وقد ردم هذا الخليج في أوائل القرن العشرين وأصبح شارعاً اسمه الآن شارع بورسعيد . (رسم بريس دافين)



لوحة (٢) مجموعة من الأعمدة الإسلامية وتيجانها المختلفة فى مصر — رسم بريس دافين



لوحة (٣) مجموعة من القباب في مصر الإسلامية .

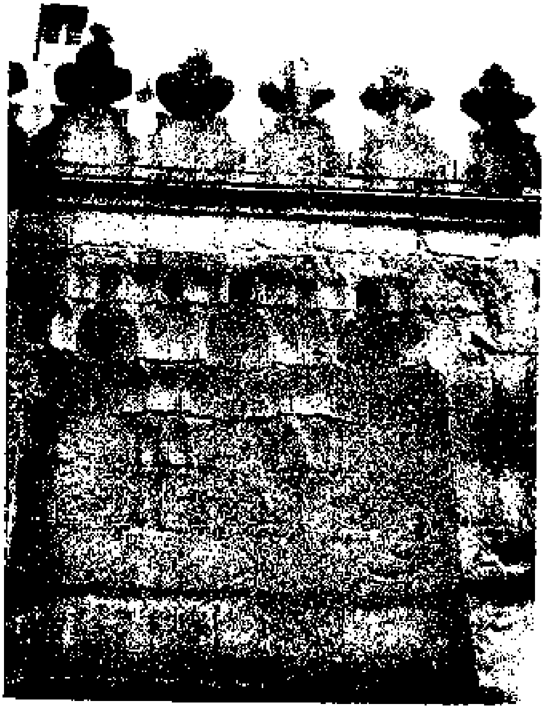
برسم بريس دافين



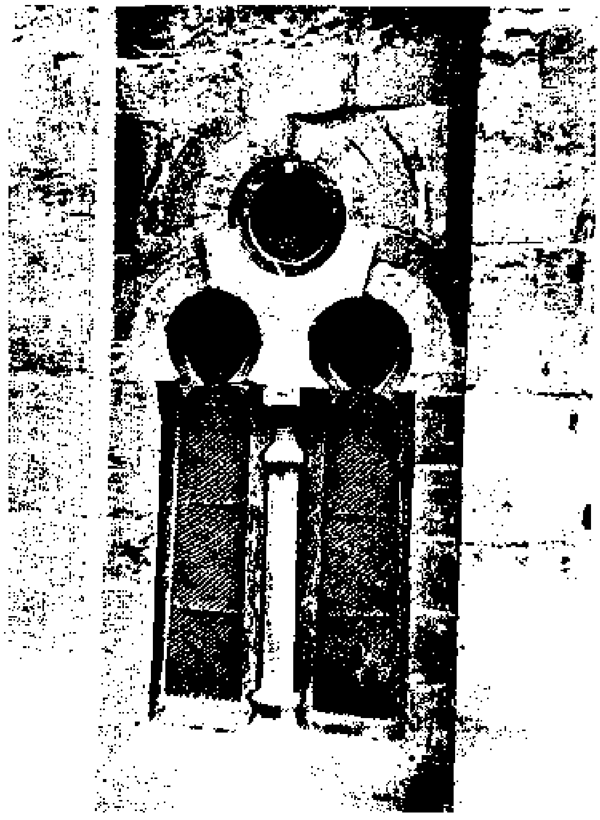
لوحة (٤) تبين المدخل الرئيسي لمدرسة استبغا يحيط به عقد ذو ثلاثة فصوص ومليء بالدلايات في وضع هندسي بديع .



لوحة (٥) نقش كتابي على مدخل مدرسة استبغا على لوحة حجرية تعلو عقده العاتق يحتوي على اسم المنشيء وتاريخ الإنشاء بالخط الثلث المملوكي نصه :
١ – بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذه المدرسة المباركة العبد الفقير إلى الله
٢ – الأمير سيف الدين استبغا بن بكتمر الأبوبكري وذلك سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة .



لوحة (٦) الجانب الأيسر من الواجهة الرئيسية فى الضلع الغربى لمدرسة أسنبغا وهى عبارة عن حنية فتحت فيها نوافذ فى الطابق الأول والطابق الثانى ويتوجها طاقية ملئت بخمس صفوف من الدلايات فى وضع هندسى بديع . والنقش تحت الدلايات شريط من الكتابة يمتد بطول الواجهة الرئيسية فى الضلع الغربى. وتتكون الكتابة من البسملة من آية الكرسى وقد تلف جزء كبير منها .



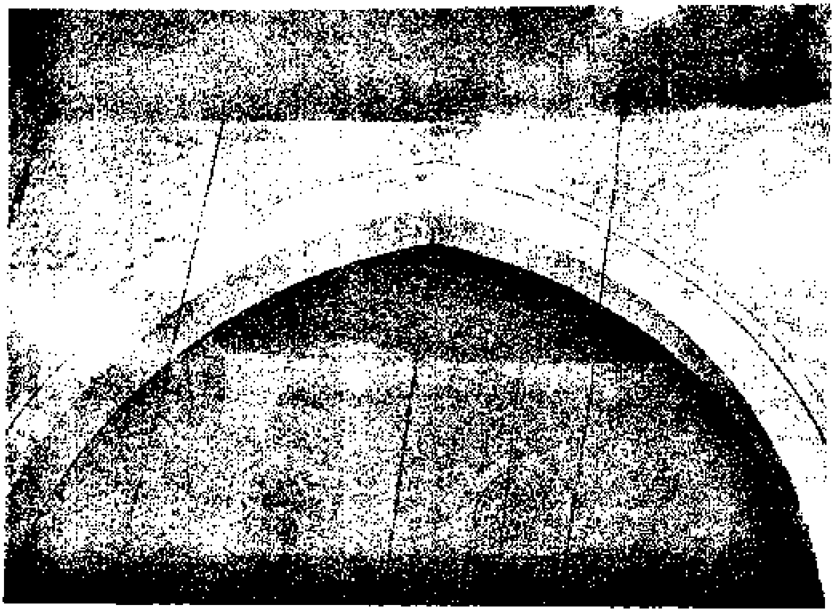
لوحة (٧) نافذة قندلية فى الإيوان الغربى المقابل لإيوان القبلة بمدرسة أسنبغا



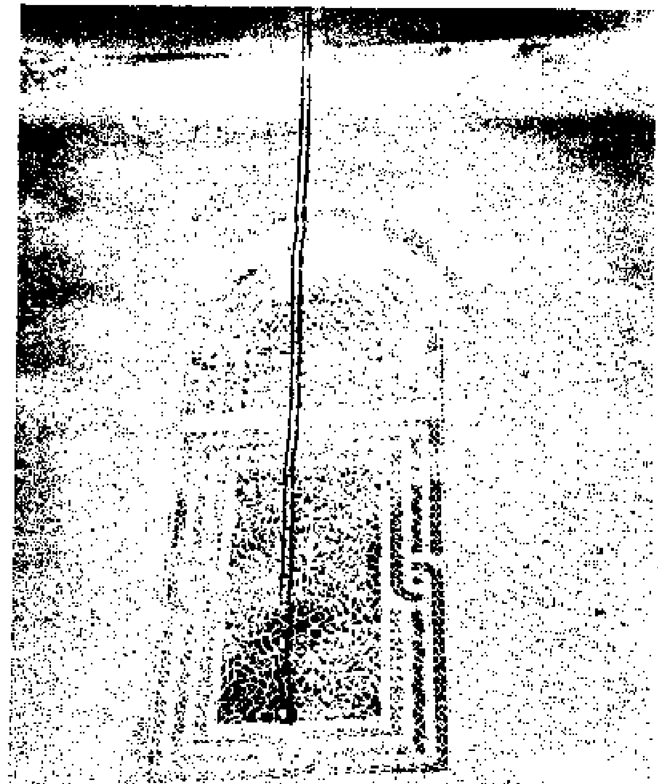
لوحة (٨) نافذة تعليلية بالكتاب الملحق بمدرسة أستبغا

لوحة (٩) المشربية التي تعلو حوض الشرب بمدرسة أستبغا





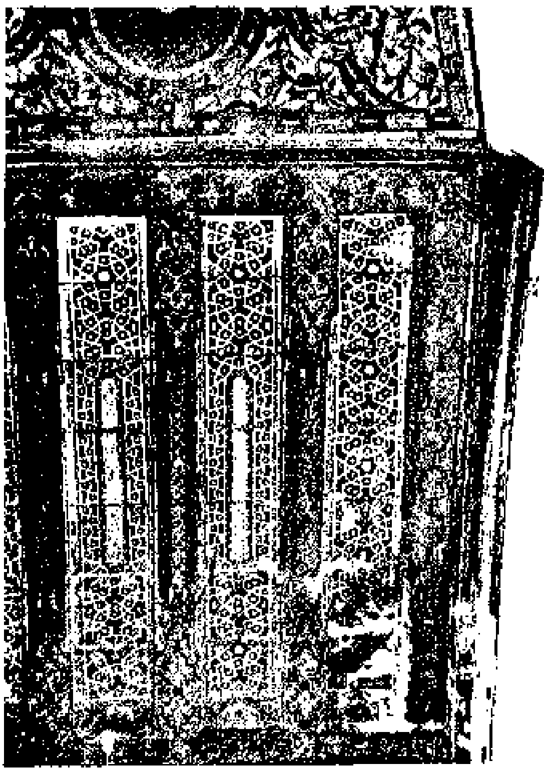
لوحة (١٠) الإيوان الغربي بمدرسة أسنبغا يتقدمه عقد مدبب يطل على صحن المدرسة



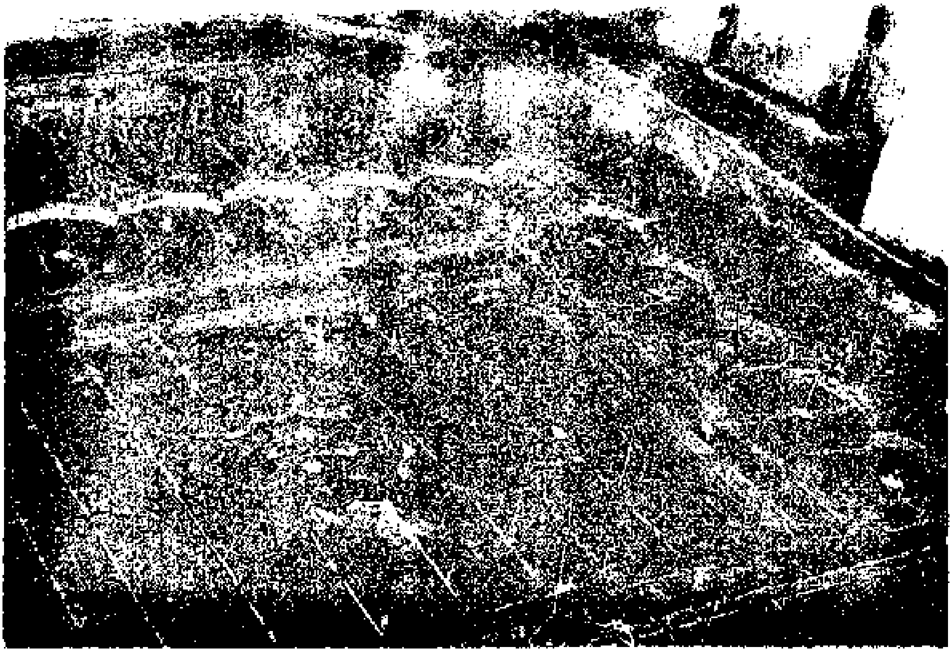
لوحة (١١) النافذة الوسطى بالإيوان الغربي بمدرسة أسنبغا وقد ملئت بزخارف جصية مفرغة بالزجاج الملون .



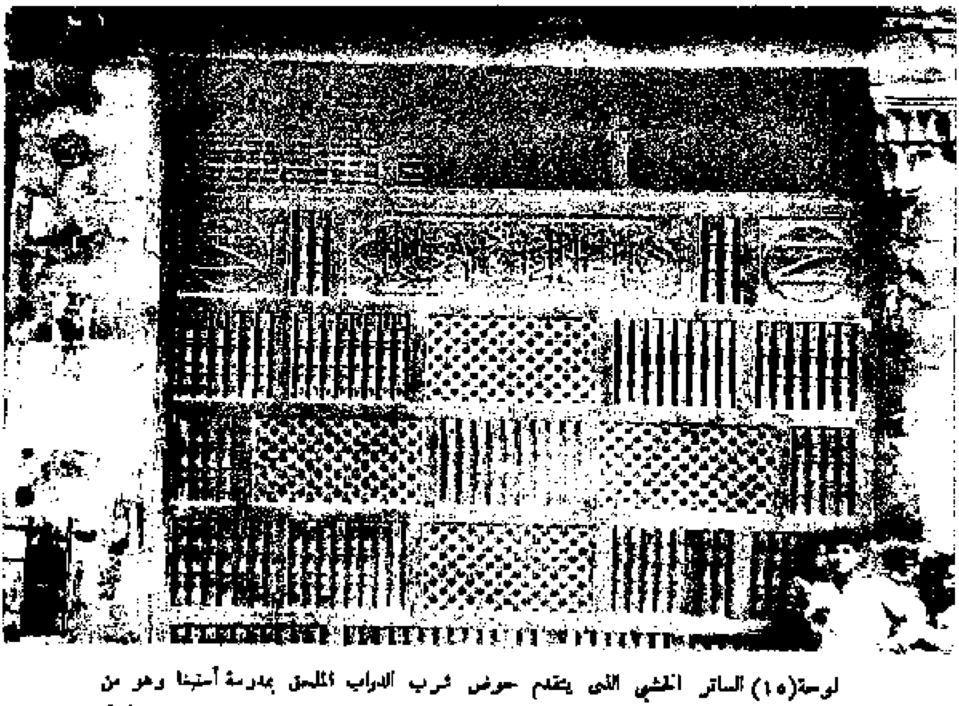
لوحة (١٢) المحراب الذى يتصدر إيوان القبلة بمدرسة أستيفا



لوحة (١٣) الزخارف الزيتية المنقوشة على السقف الخشبى لمدخل مدرسة أستيفا



لوحة (١٤) زخارف السقف الخشبي
لحجرة الشرب بمدرسة أستبغا



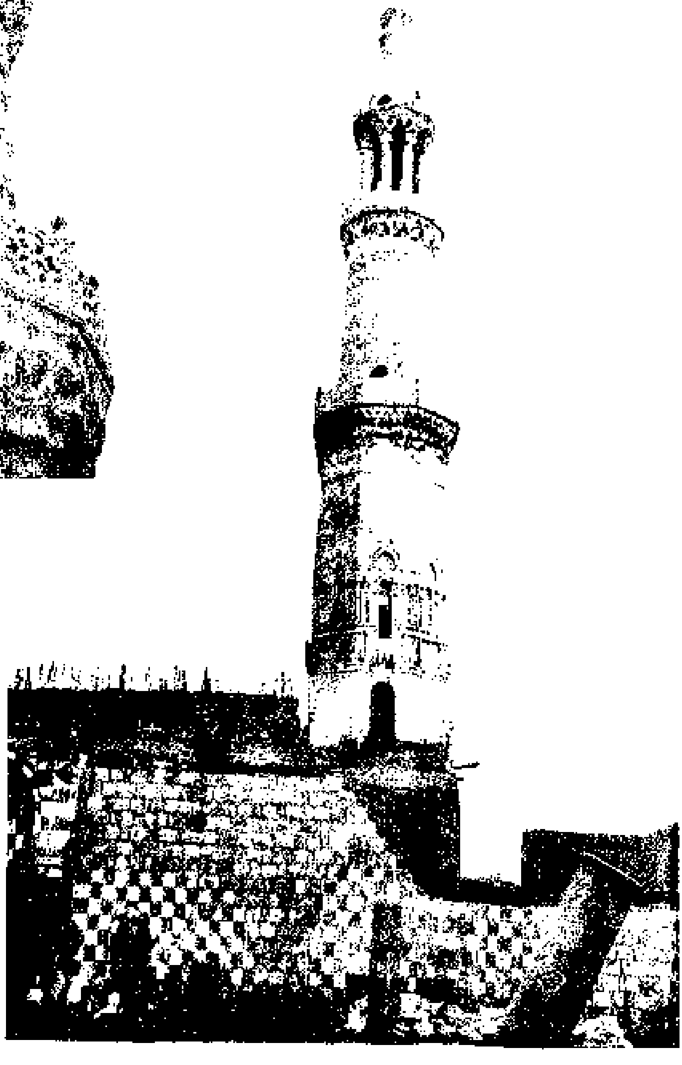
لوحة(١٥) الساتر الخشبي الذي يتقدم حوض شرب الدواب الملحق بمدرسة أستبغا وهو من الخشب الخرط ، وتعلوه لوحة كتب عليها النص التالي : (جدد هذا الحوض المبارك في عصر الخديو الأفخم عباس حلمي الثاني)



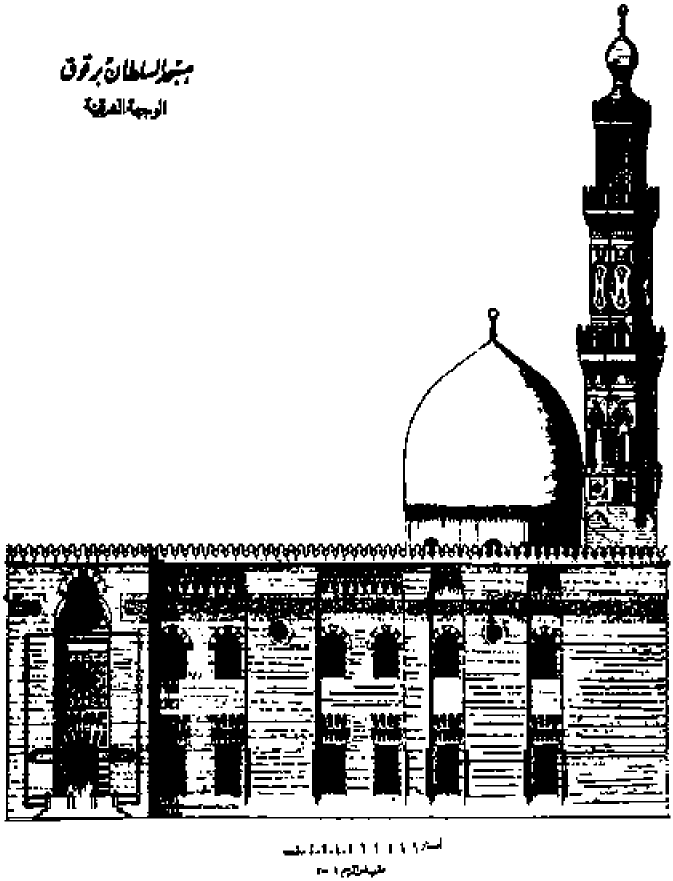
لوحة (١٦) القاعدة والطابق الأول للمئذنة
مدرسة أسنبغا



لوحة(١٧) الطابق الثانى والثالث لمئذنة
مدرسة أسنبغا

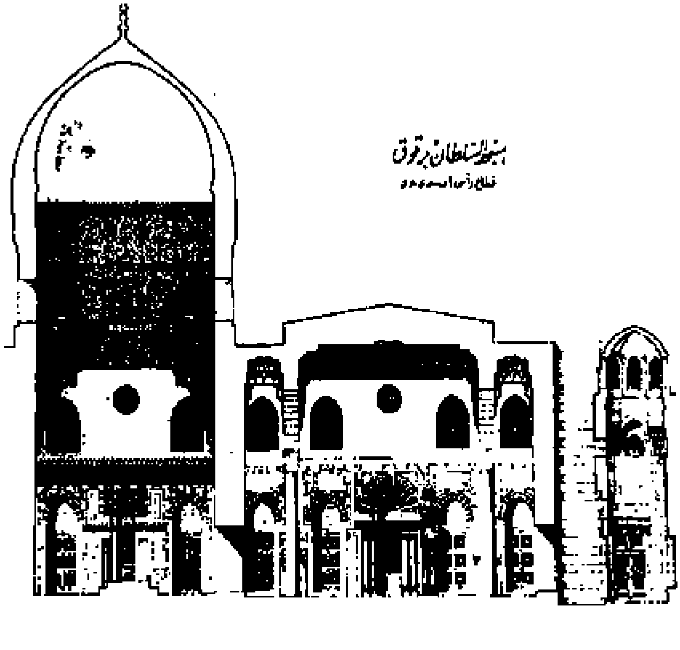


لوحة (١٨) جزء من الواجهة الرئيسية تعلوه المئذنة بجامع إسماعيل بن مازن الموارى المعروف بجامع المتولى بمدينة جرجا

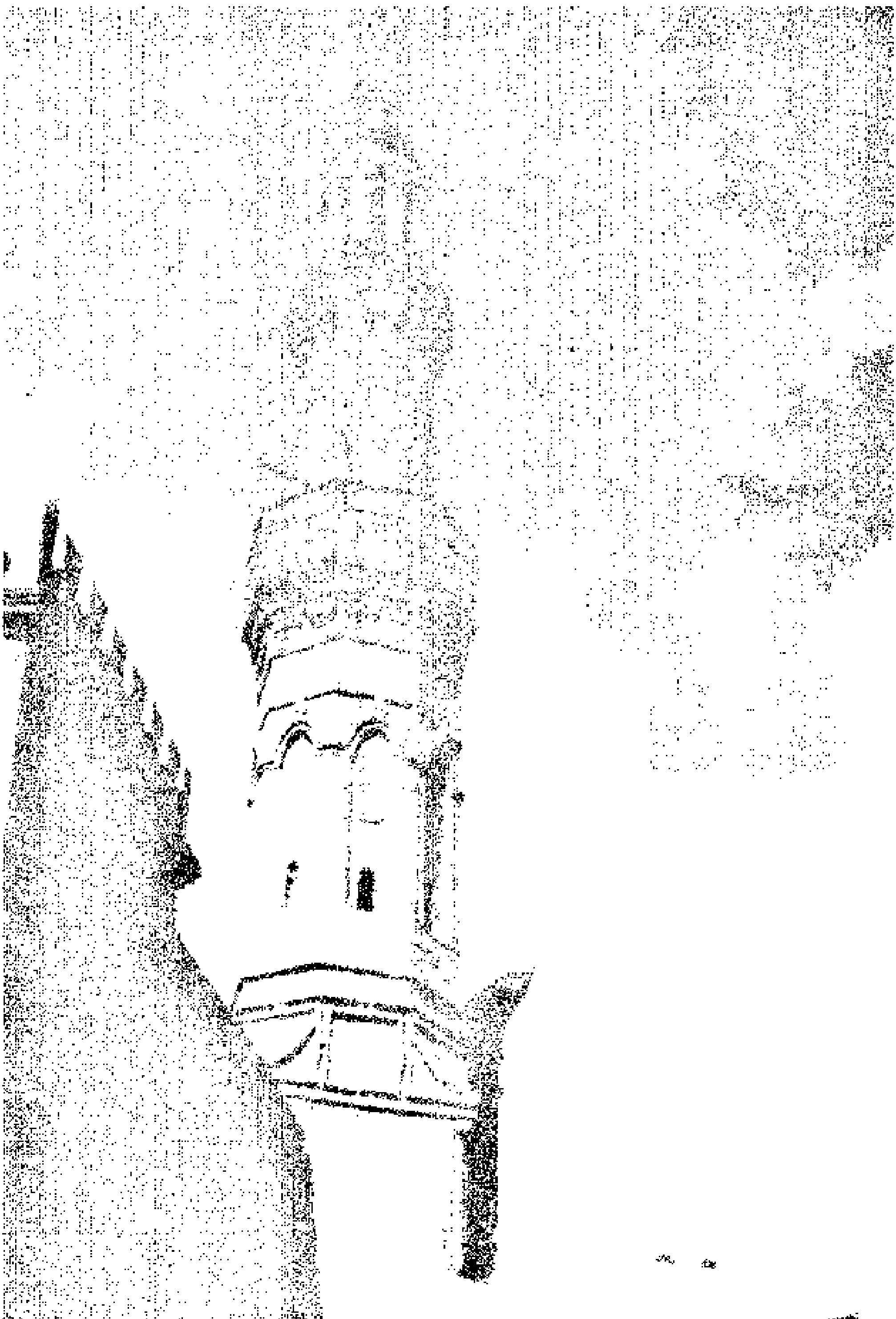


(لوحة (١٩) الواجهة الرئيسية التي تشغل الضلع الشرقي لمدرسة برقوق بشارع المعز لدين الله

لوحة (٢١) تبين الواجهة الرئيسية لجامع الروبي بمدينة الفيوم ، تعلوها المئذنة والقبة .)



(لوحة (٢٠) قطاع رأسي لمدرسة برقوق بشارع المعز لدين الله)



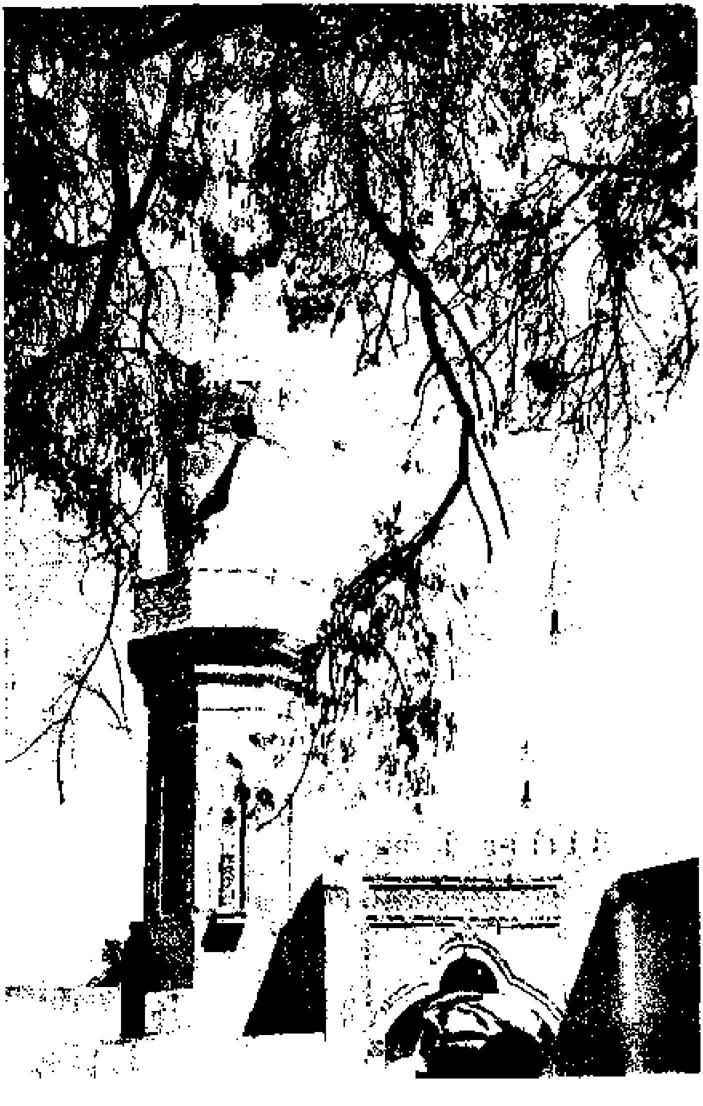


لوحة (٢٢) اللوحة التأسيسية بمسجد الشيخ علي الروبي وقد كتب عليها النص التالي :

١ – بسم الله الرحمن الرحيم : ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم

٢ – ولاهم يحزنون هذا ضريح الشيخ العابد الزاهد الشيخ علي الروبي

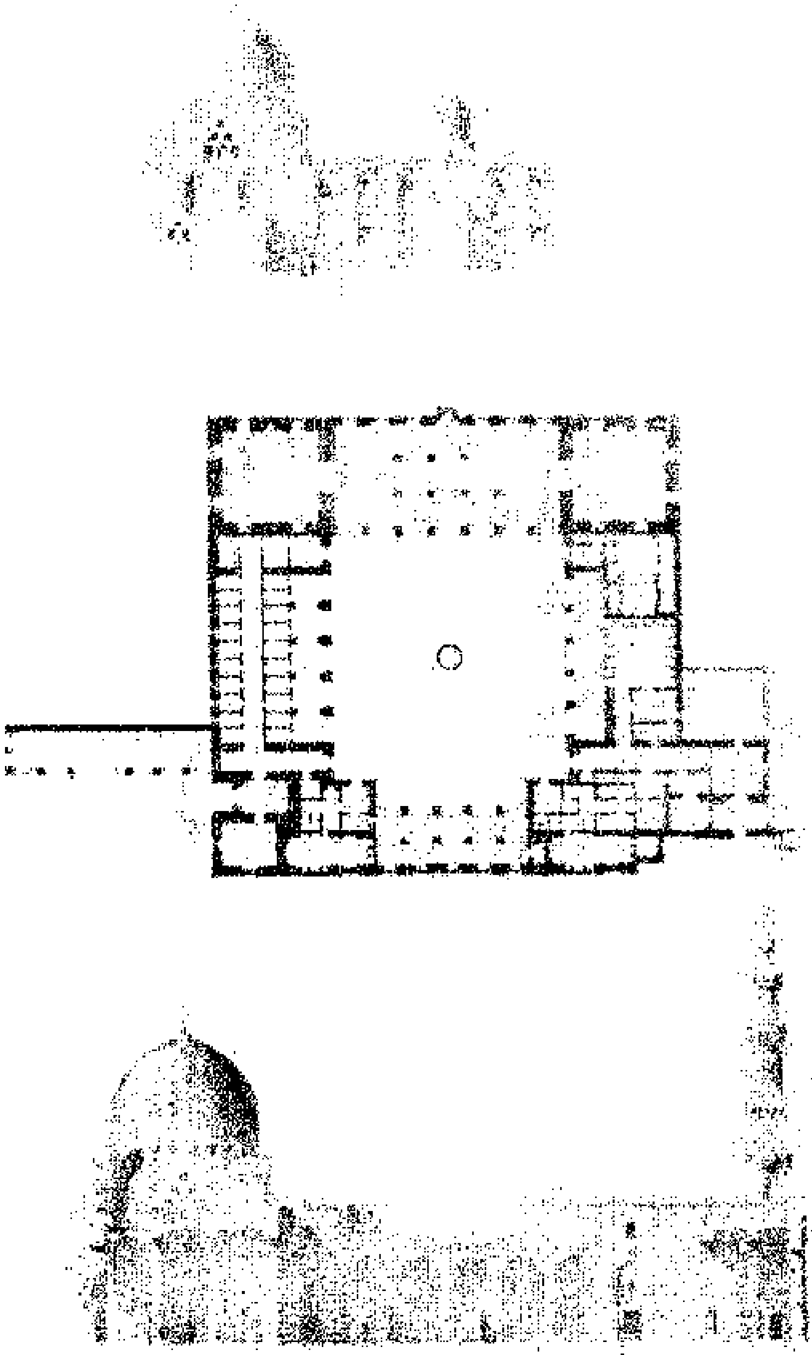
٣ – انتقل إلى رحمة الله في السادس والعشرين من ذي الحجة سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة



لوحة (٢٣) المدخل الرئيسي بجامع الشيخ إبراهيم المتبولي ببركة الحاج بمحافظة القليوبية تعلوها المئذنة

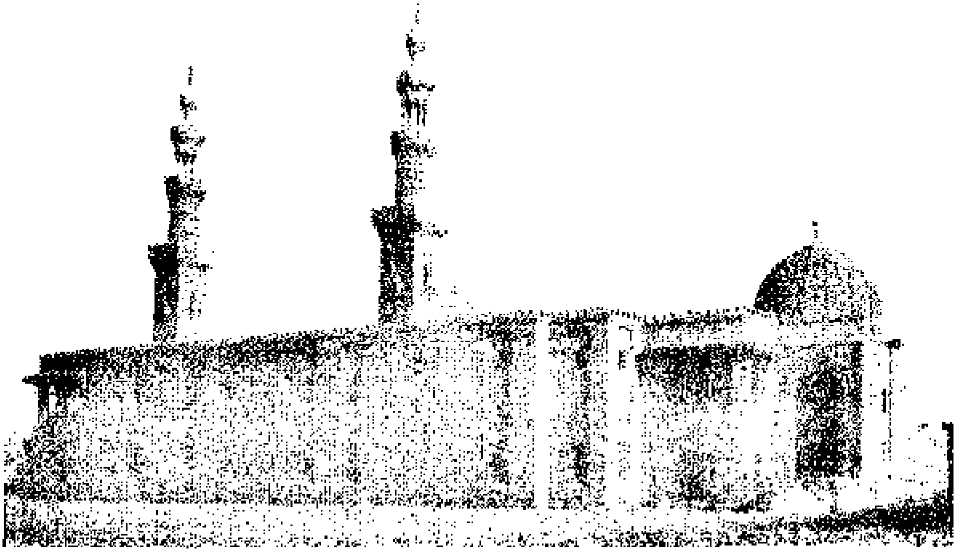


لوحة (٢٤) المدرسة والخانقاة البرقوقية من الداخل بقرافة المماليك بالعباسية رسم بسكال كوست



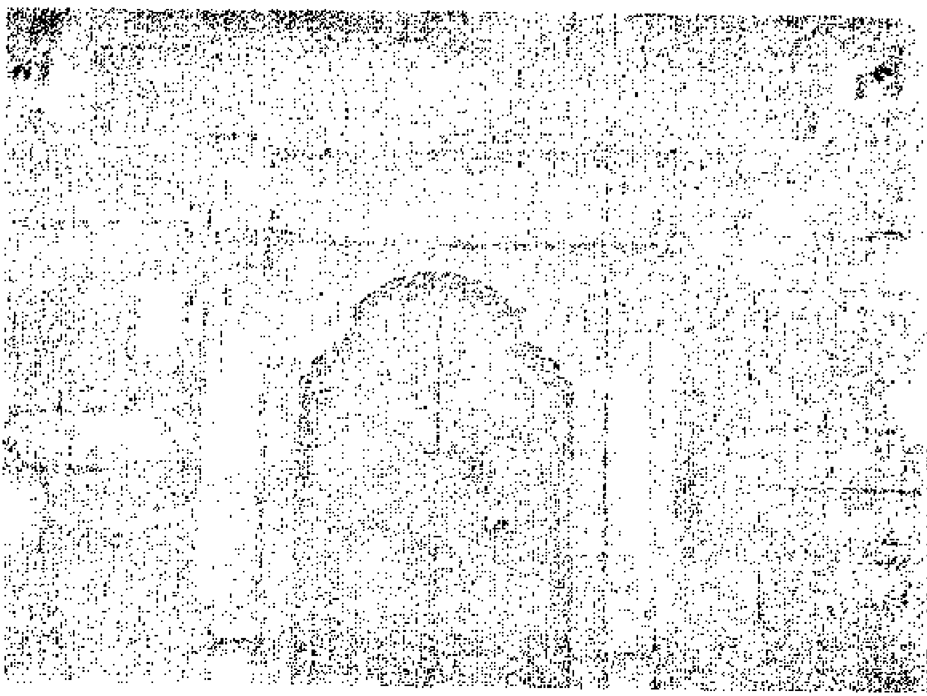
لوحة (٢٥) مدرسة وخانقاه البرقوقية

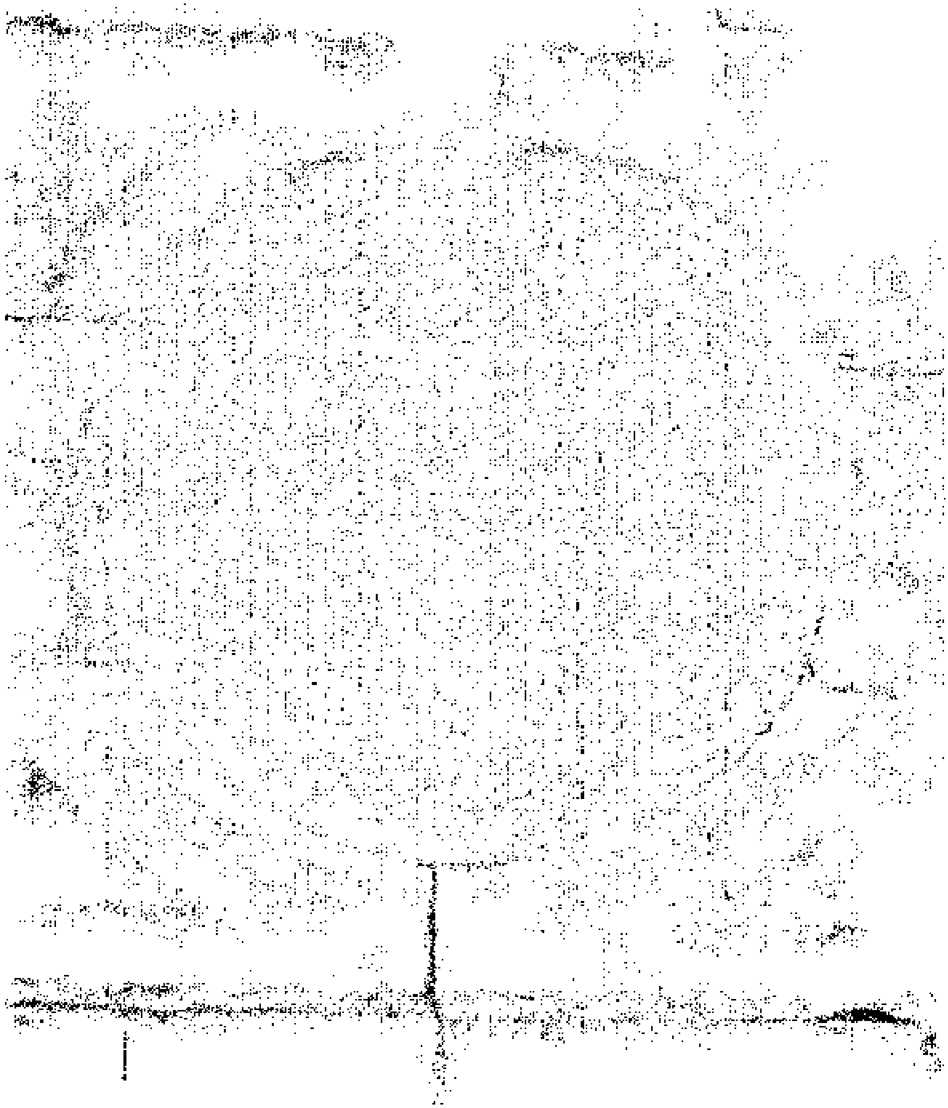
رسم بريس دافين



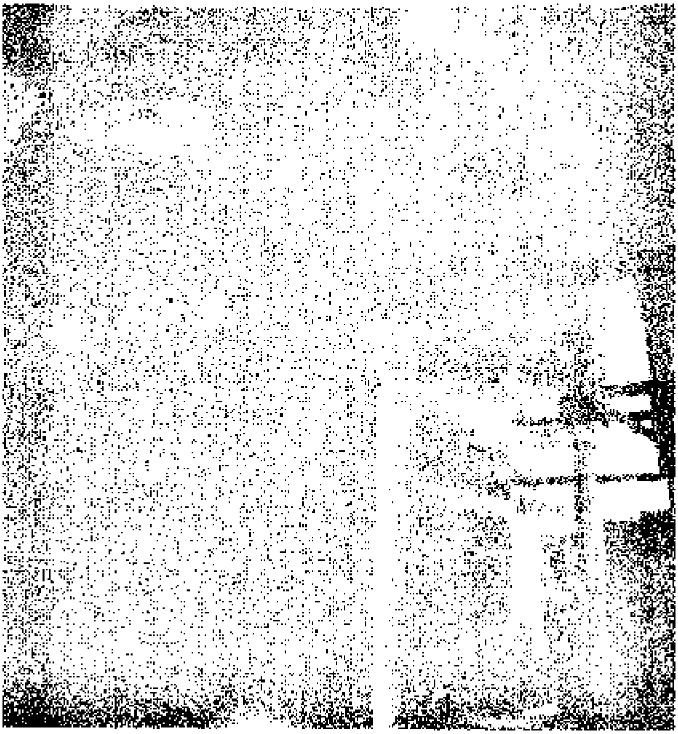
لوحة (٢٦) الواجهة الرئيسية لمدرسة وخانقاه البرقوقية التي تشغل الضلع الغربي للمدرسة

لوحة (٢٧) المدخل الرئيسي لجامع السادات الوفائية بسفح جبل المقطم





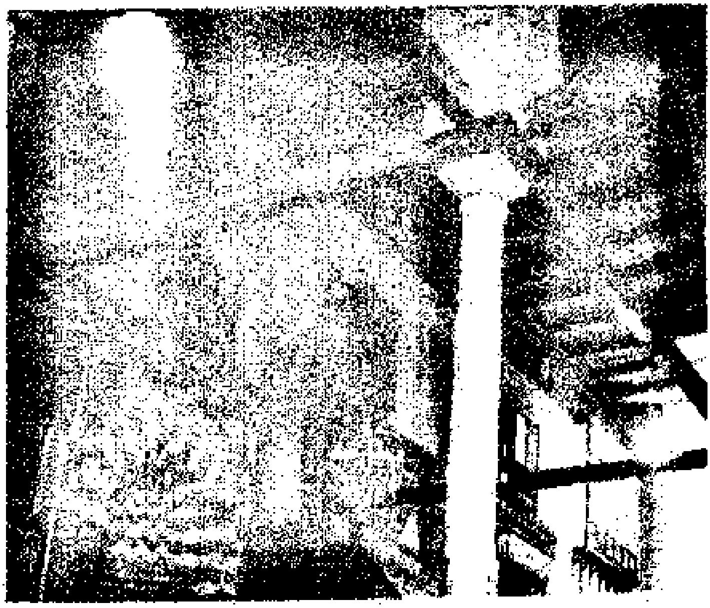
لوحة (٢٨) إحدى الدائرتين اللتين تكتنفان المدخل الرئيسي بجامع السادات الوفائية .



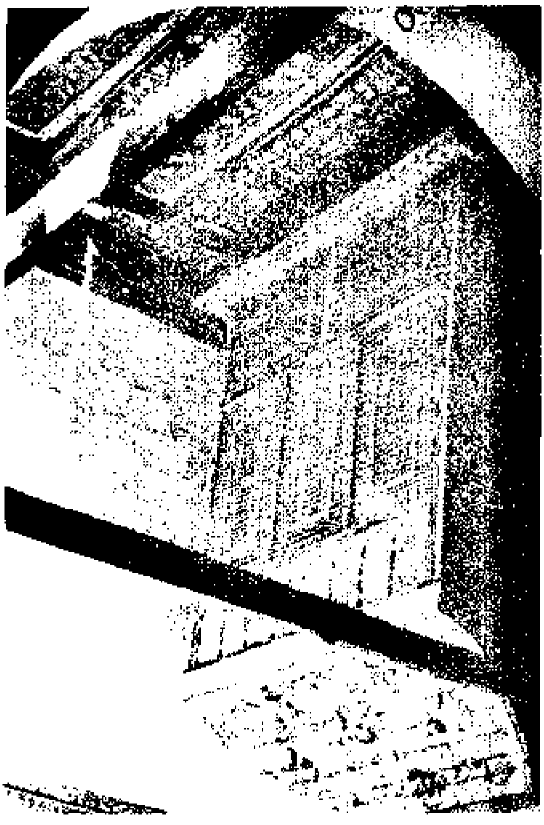
لوحة (٢٩) جامع السادات الوفائية من الداخل



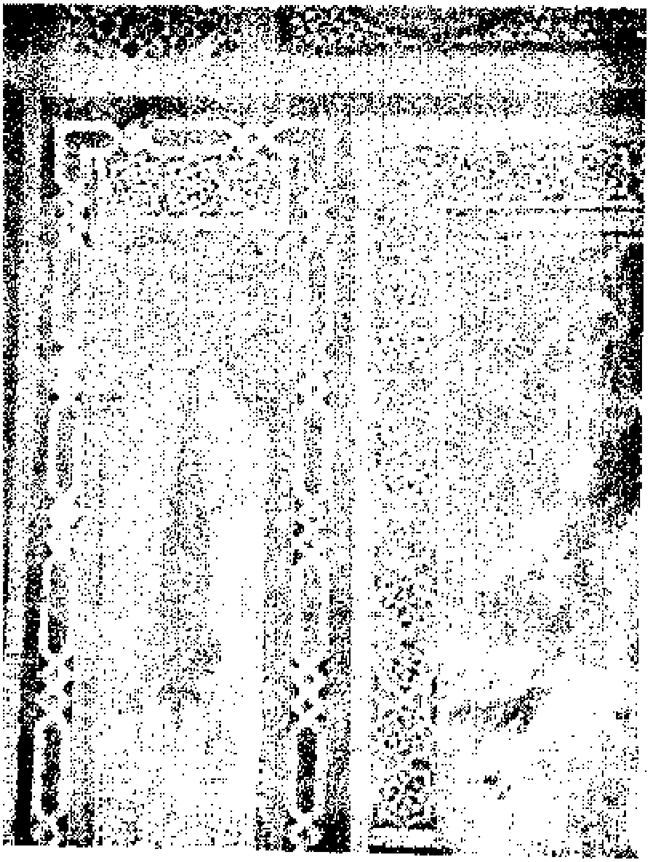
لوحة (٣٠) المقصورة التي تتوسط جامع السادات الوفائية



لوحة (٣١) حائط القبلة بجامع السادات الوفائية يتوسطه المحراب

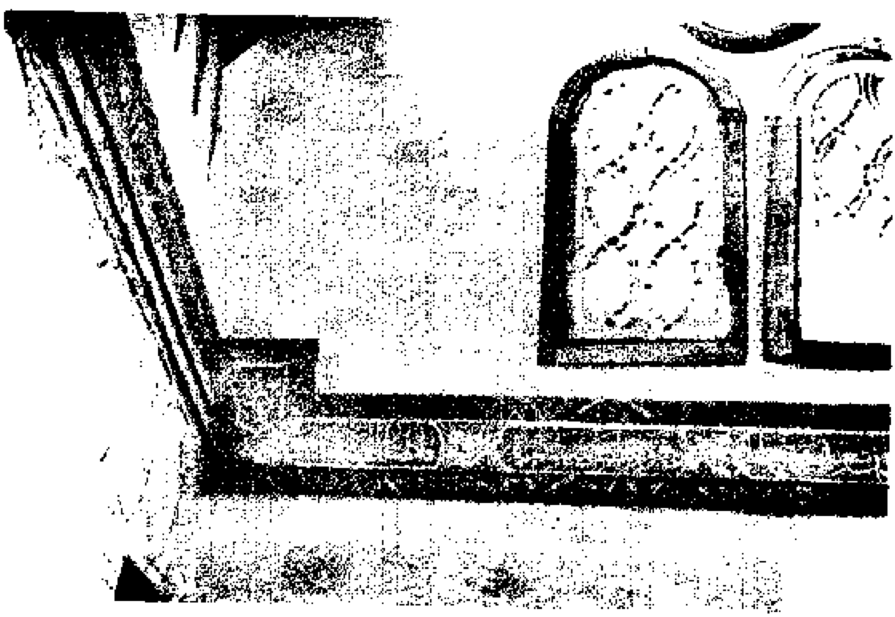


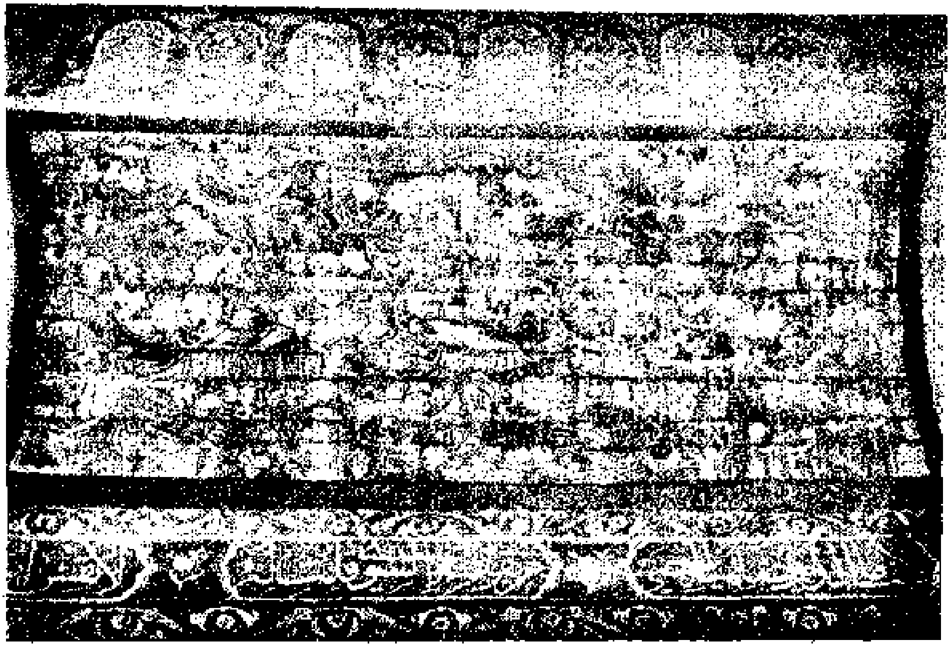
لوحة (٣٢) مشربية من الخشب الخرط تطل من القصر على داخل جامع السادات الوفائية



لوحة (٣٣) الفسيفساء الرخامية التي تكسو جدران جامع السادات الوفائية

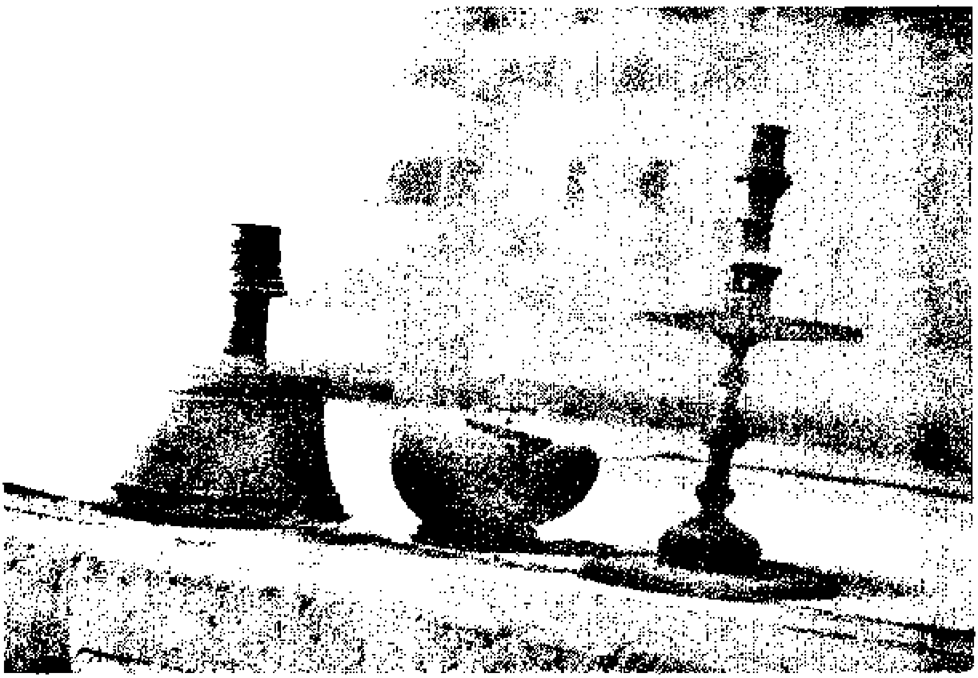
لوحة (٣٤) الوزرة التي تحيط بأعلى جدران الجامع وتحتوي على بحور من الكتابة الثعالية وشجر المراتي . ويعلو الوزرة الشرافات القنديلية

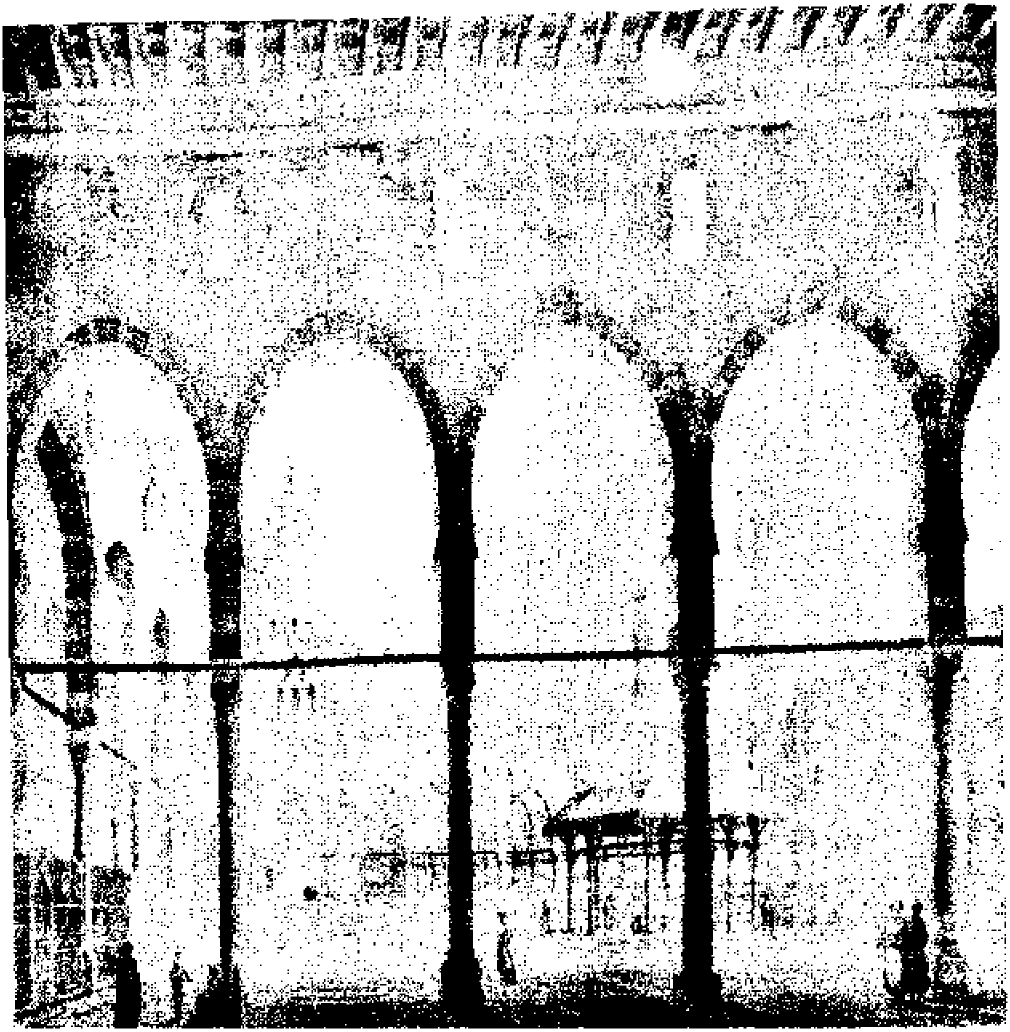




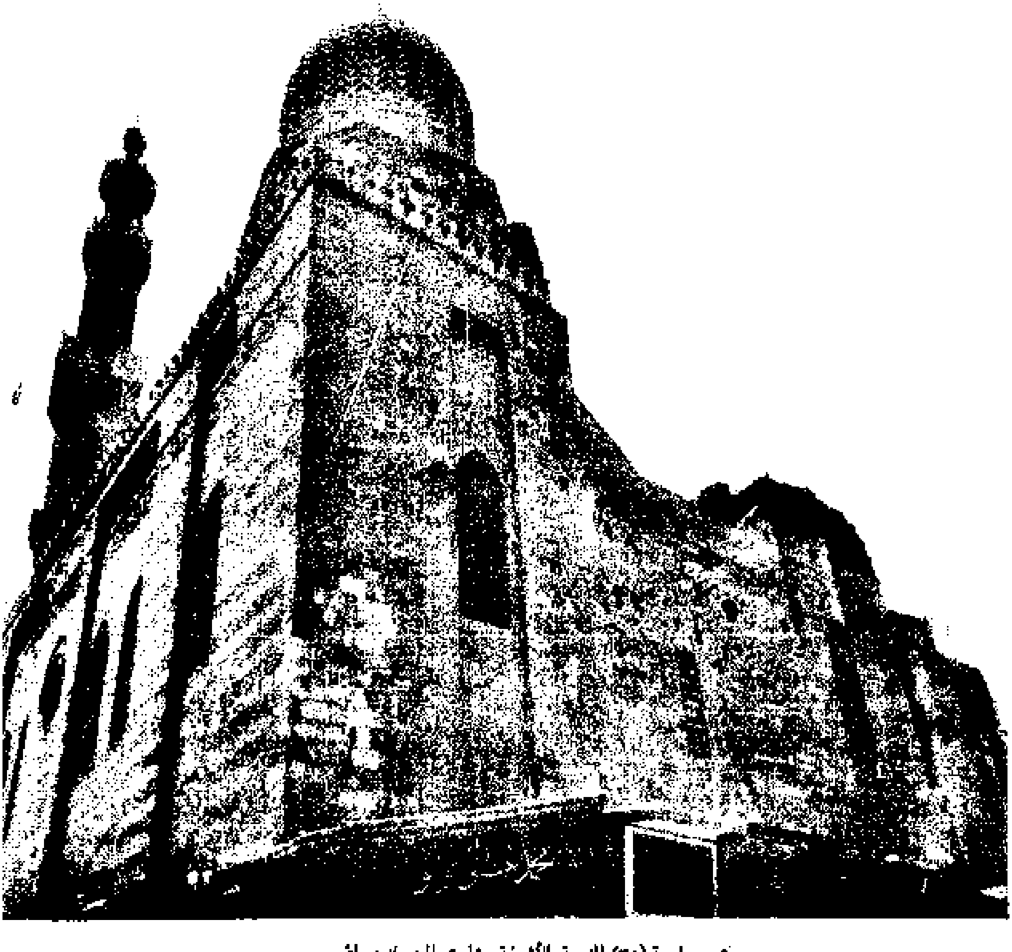
أ لوحة (٣٥) السقف الخشبي المزخرف برسوم زيتية قوامها نقوش نباتية بجامع السادات الوفائية

ب لوحة (٣٦) مجموعة من الشماعد والكشاكيل التي تزخر بها مخازن جامع السادات الوفائية

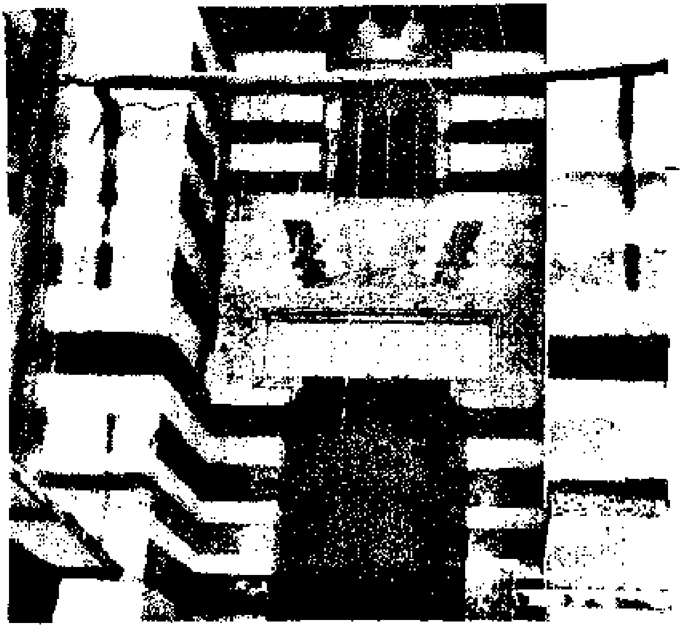




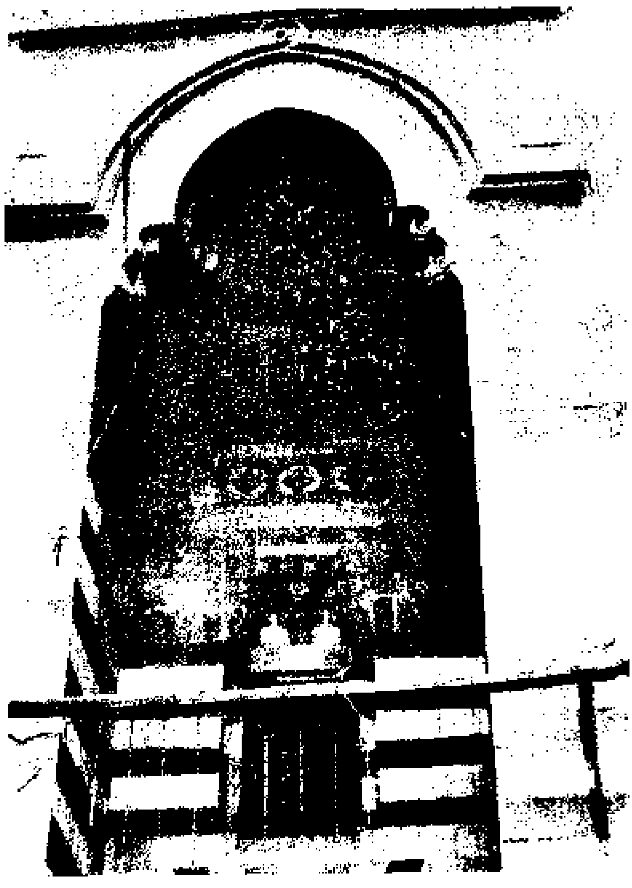
▲ لوحة (٢٧) جامع المؤيد شيخ من الداخل (رسم بسكال كوست)



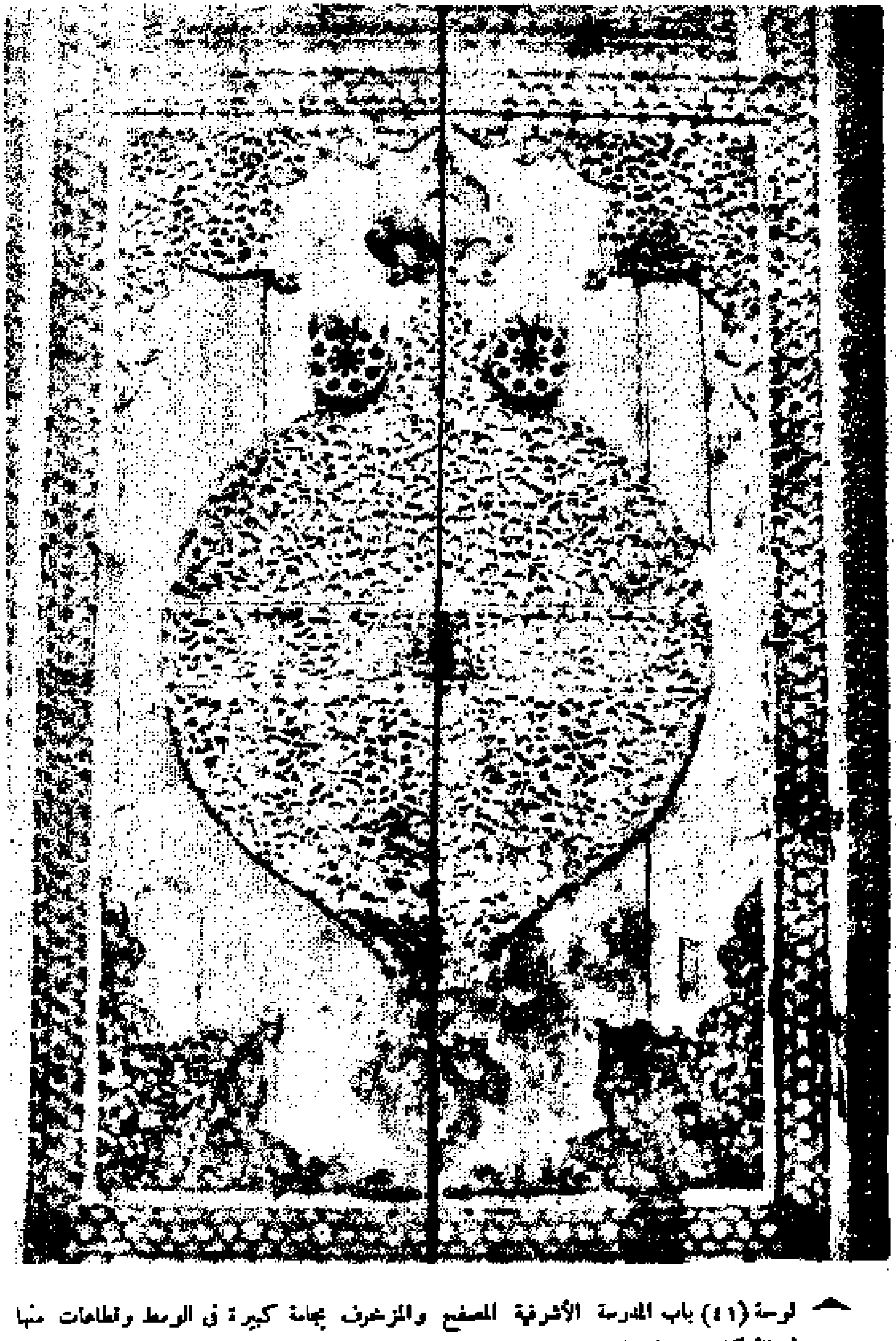
لوحة (٣٨) المدرسة الأشرفية بشارع المعز لدين الله



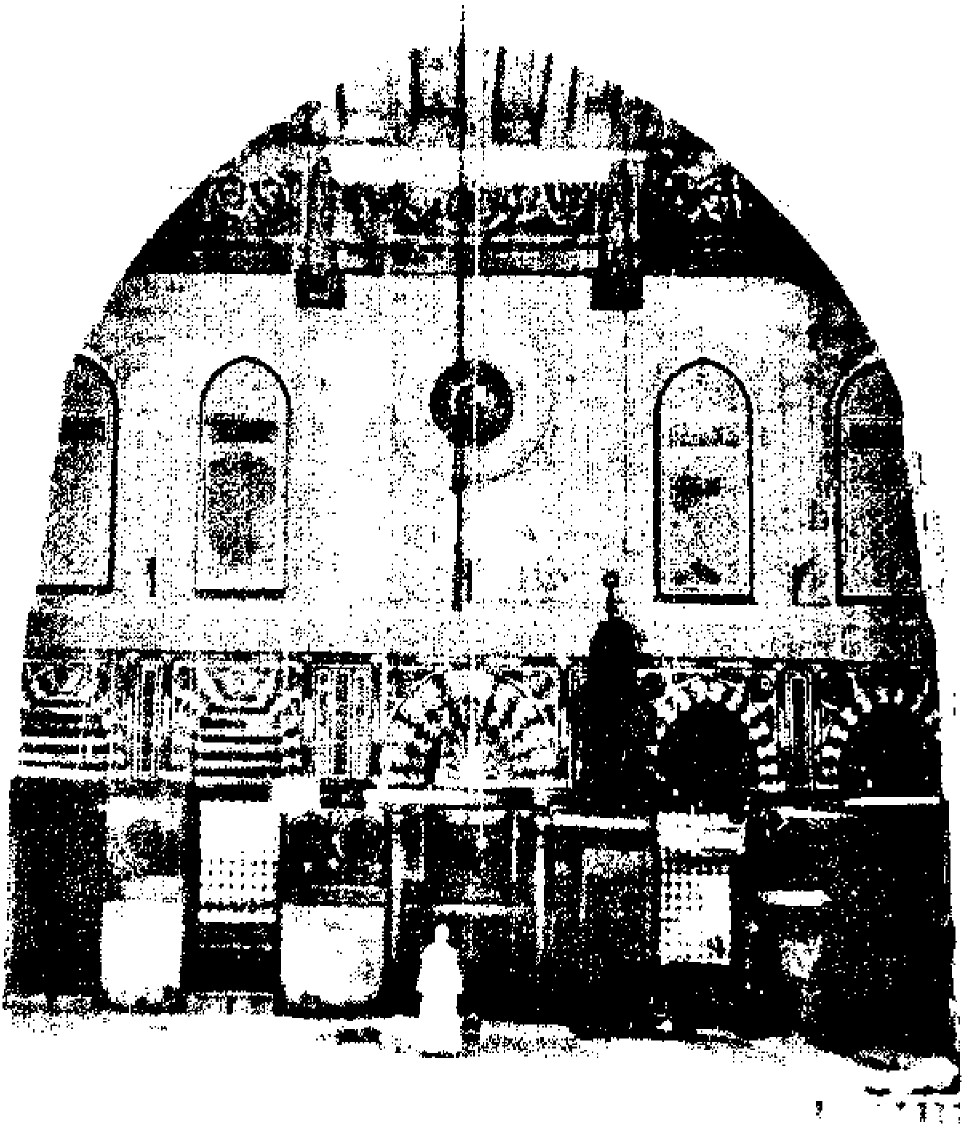
لوحة (٣٩) المدخل الرئيسي للمدرسة الأشرفية



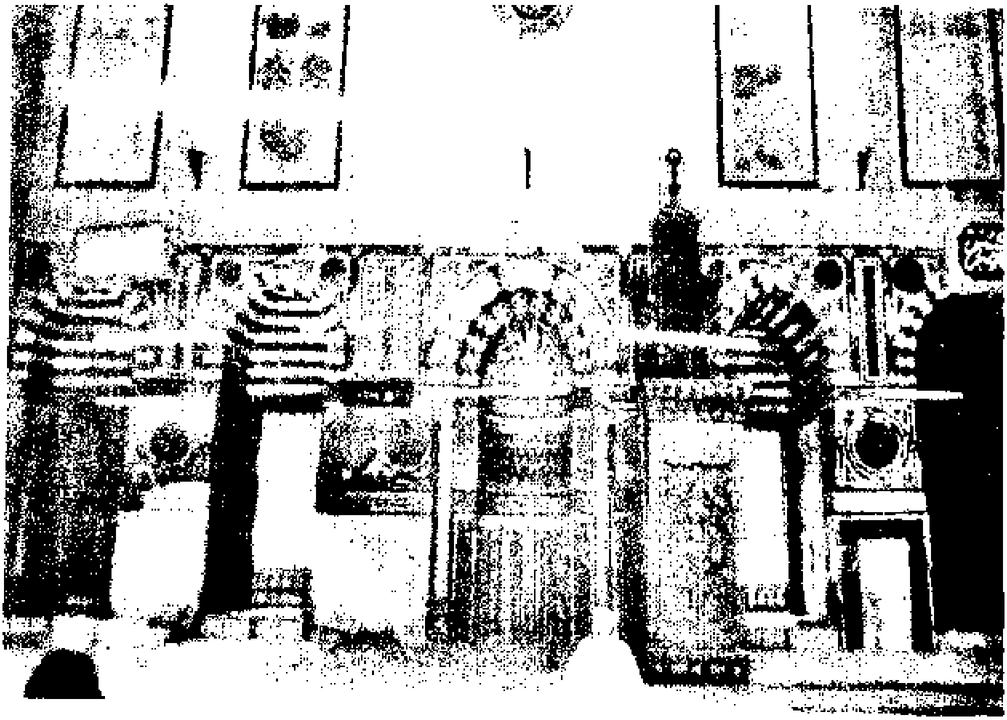
لوحة (٤٠) حنية المدخل الرئيسي يتوجها طاقية مصمصة بالمدرسة الأشرفية

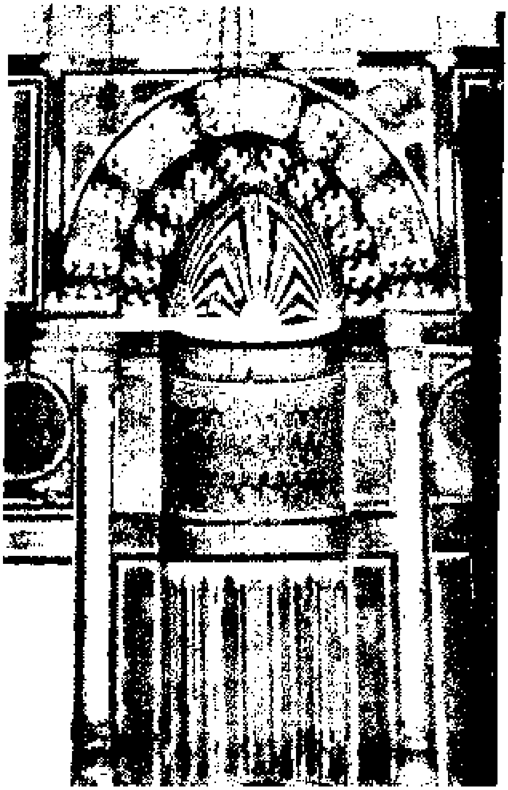


لوحة (٤١) باب المدرسة الأشرفية المصفح والمزخرف بجامة كبيرة فى الوسط وقطاعات منها فى الأركان ويحيط بها مجموعة من الإطارات المصنوعة من النحاس المخرم



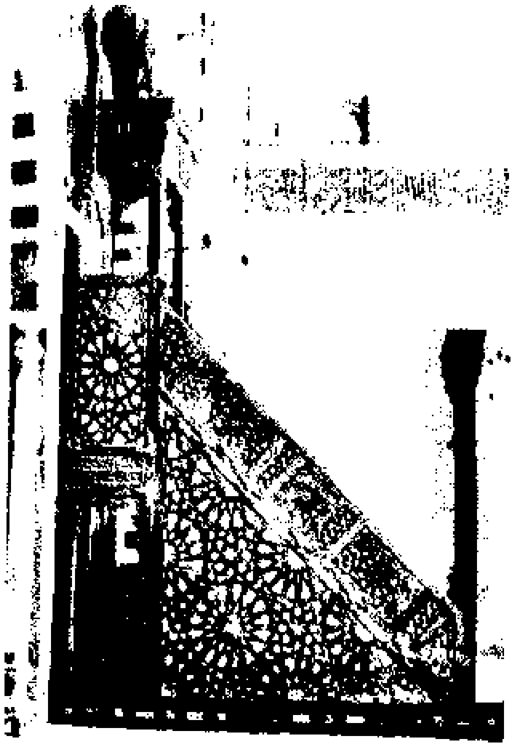
لوحة (١٢) الإيوان الشرقي للمدرسة الأشرفية



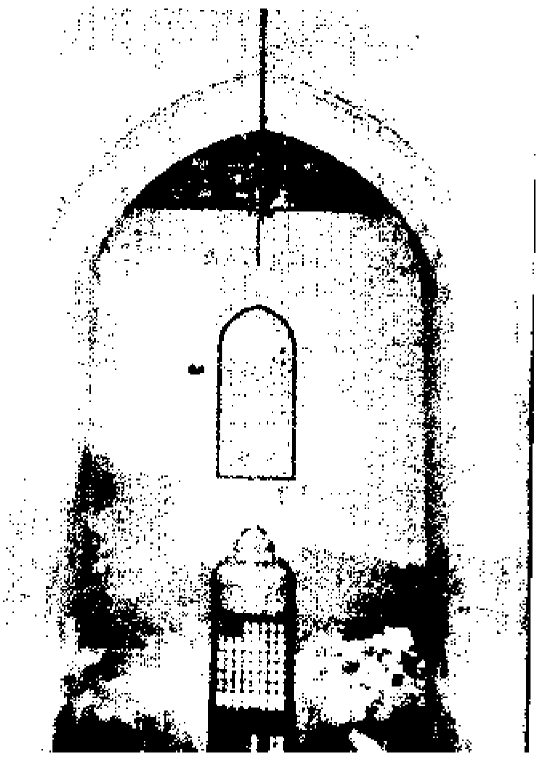


▲ لوحة (٤٣) تفاصيل إيوان القبلة بالمدرسة الأشرفية

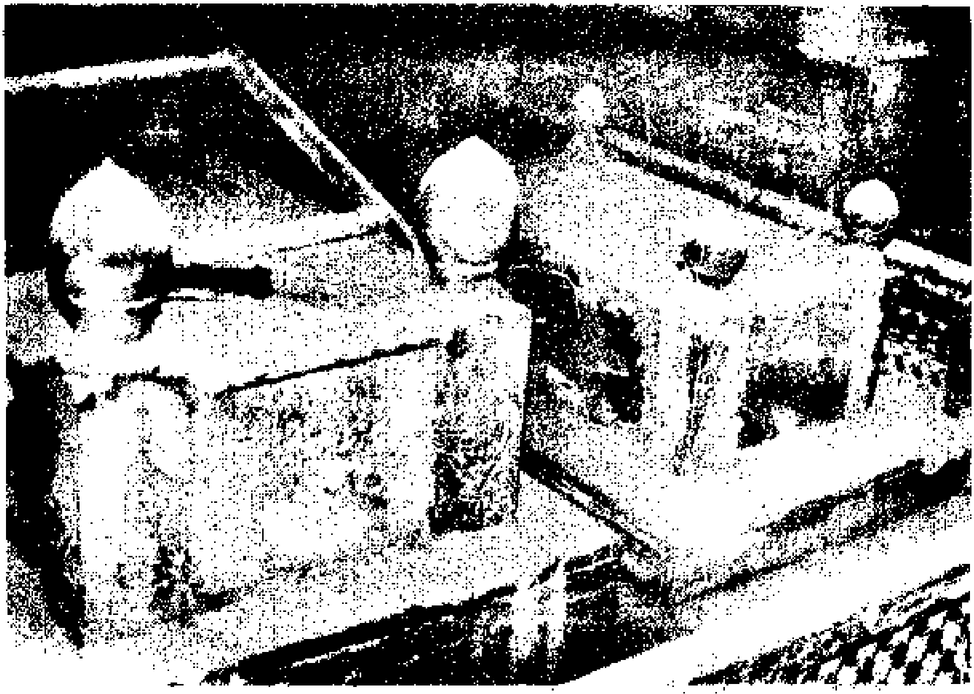
لوحة (٤٤) محراب المدرسة الأشرفية ◄



لوحة (٤٥) منبر المدرسة الأشرفية



لوحة (٤٦) الإيوان الجنوبي (القبلة) بالمدرسة الأشرفية



لوحة (٤٧) تركيبتان من الرخام بالضريح الملحق بالمدرسة الأشرفية

لوحة (٤٨) الواجهة الرئيسية لمدرسة جوهر اللالا

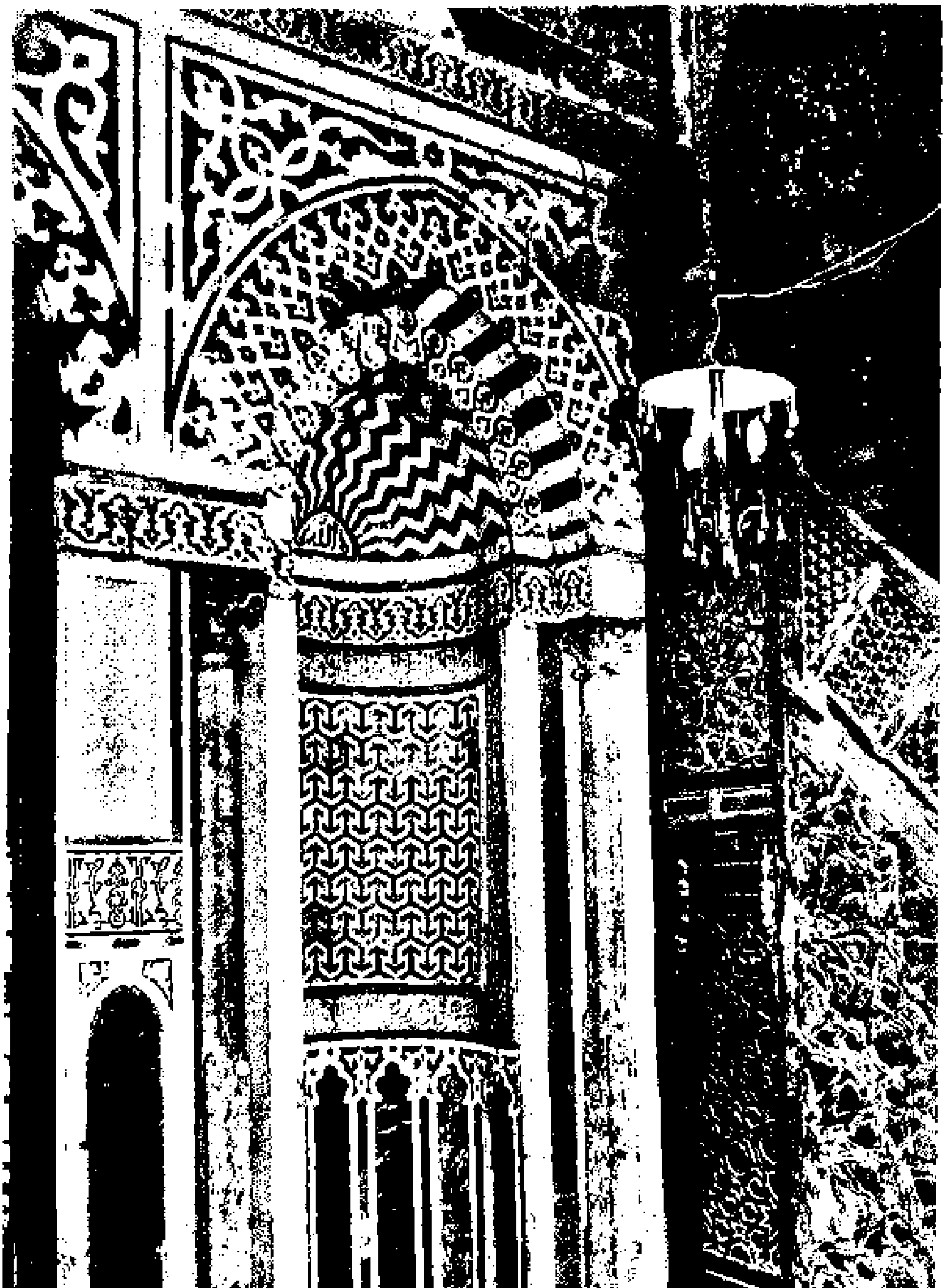




لوحة (٤٩) المدخل الرئيسي لمدرسة جوهر اللالا

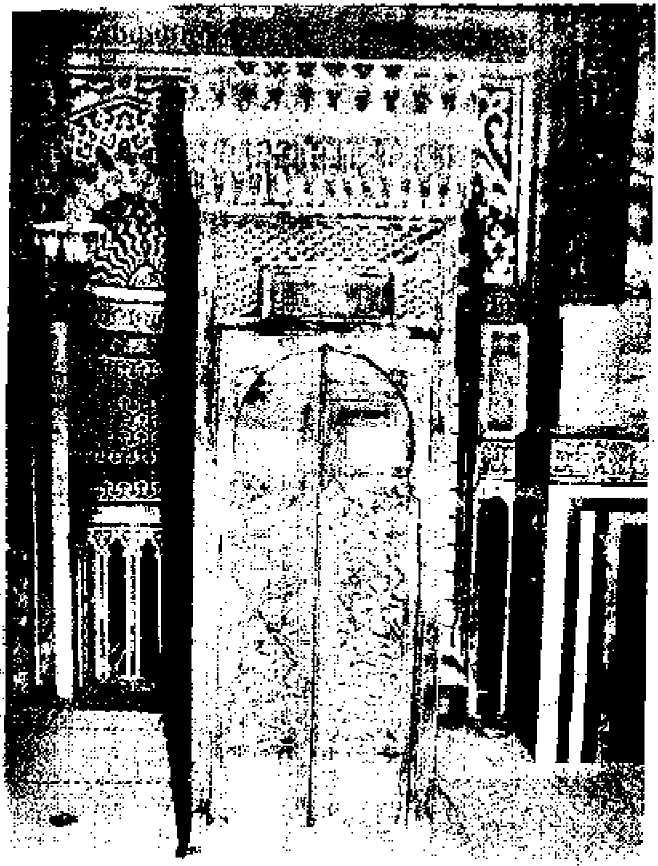


لوحة (٥٠) إيوان القبلة بمدرسة جوهر اللالا

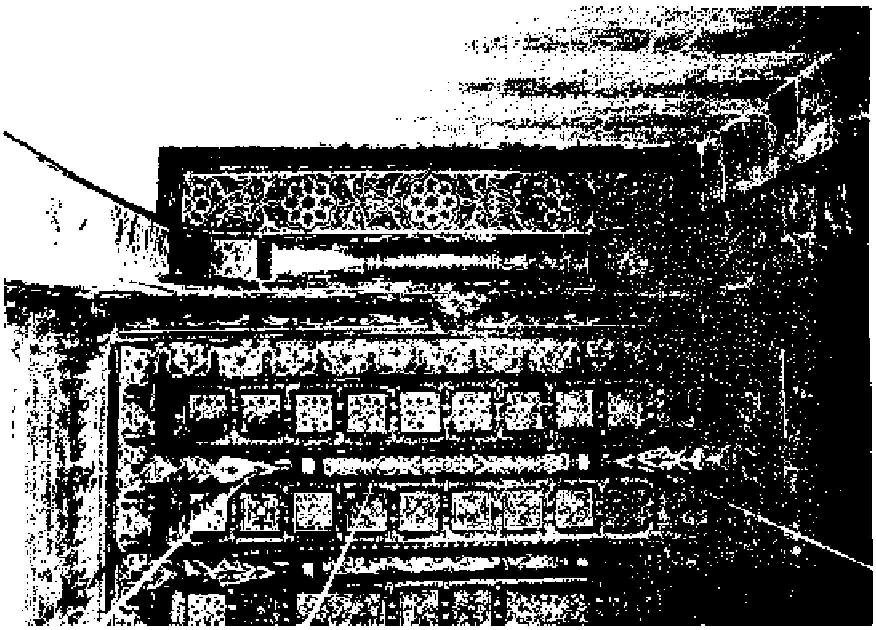


لوحة (١٥) محراب القبلة بمدرسة جوهر اللالا

لوحة (٥٢) باب المنبر
بمدرسة جوهر اللالا



لوحة (٥٣) السقف الخشبي لإيوان
القبلة بمدرسة جوهر اللالا

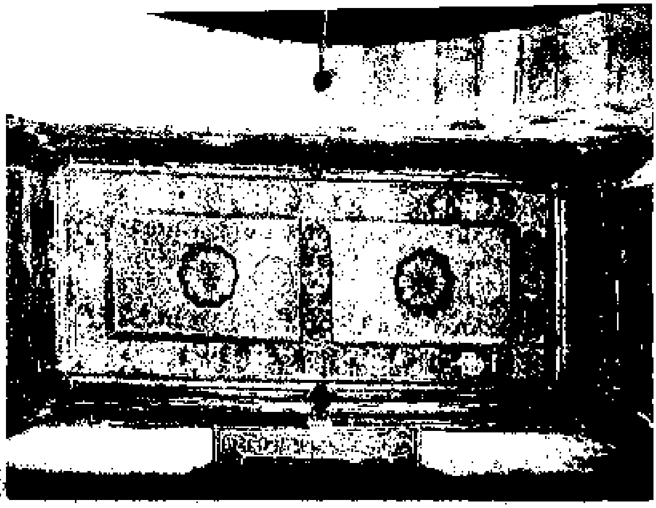




لوحة (٥٤) الإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة بمدرسة جوهر اللالا يتصدره دكة المبلغ

لوحة (٥٥) الحنية التي تتصدر الإيوان الغربي لمدرسة جوهر اللالا

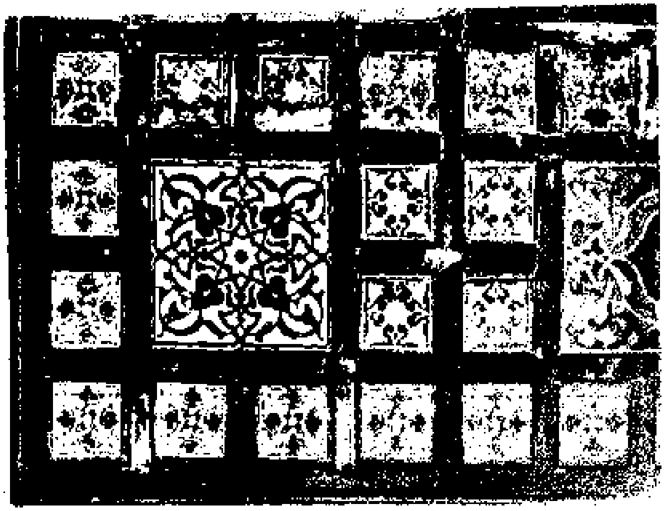




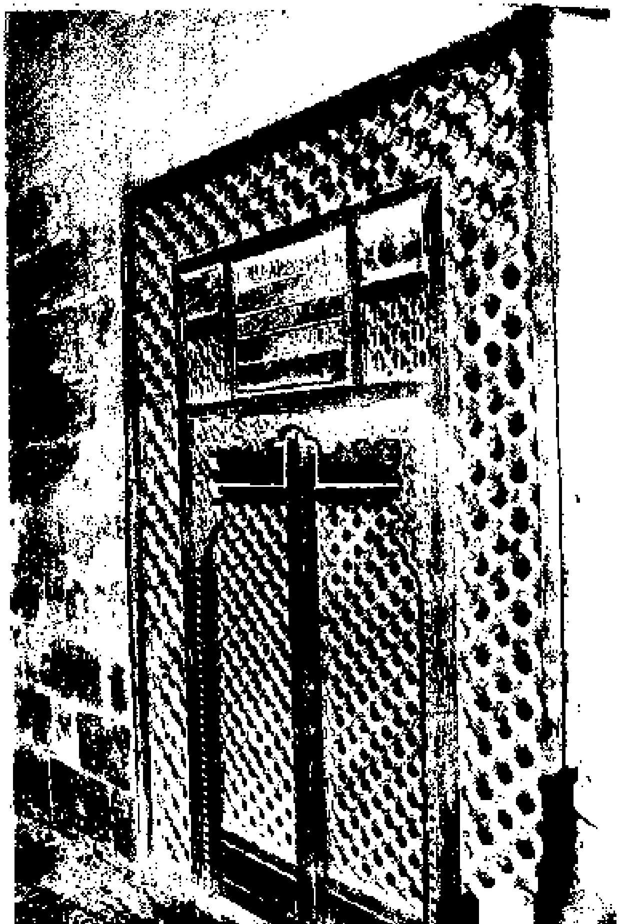
لوحة (٥٦) السقف الخشبي للإيوان الغربي بمدرسة جوهر اللالا



لوحة (٥٧) الإيوان الجنوبي (القبلة) بمدرسة جوهر اللالا

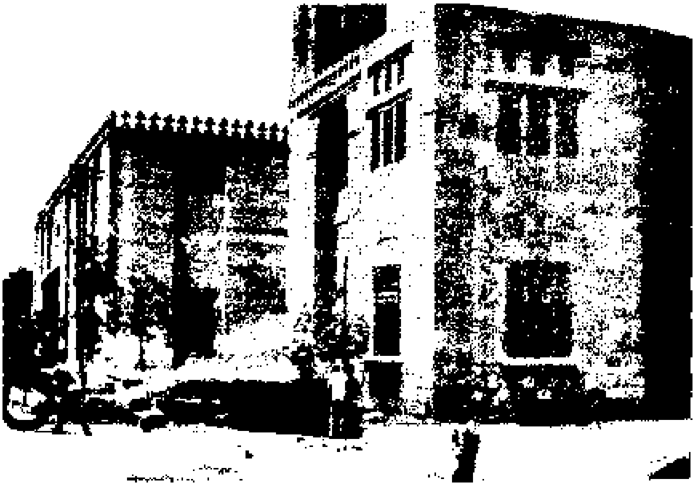


لوحة (٥٨) تفصيل لزخارف سقف صحن بمدرسة جوهر اللالا



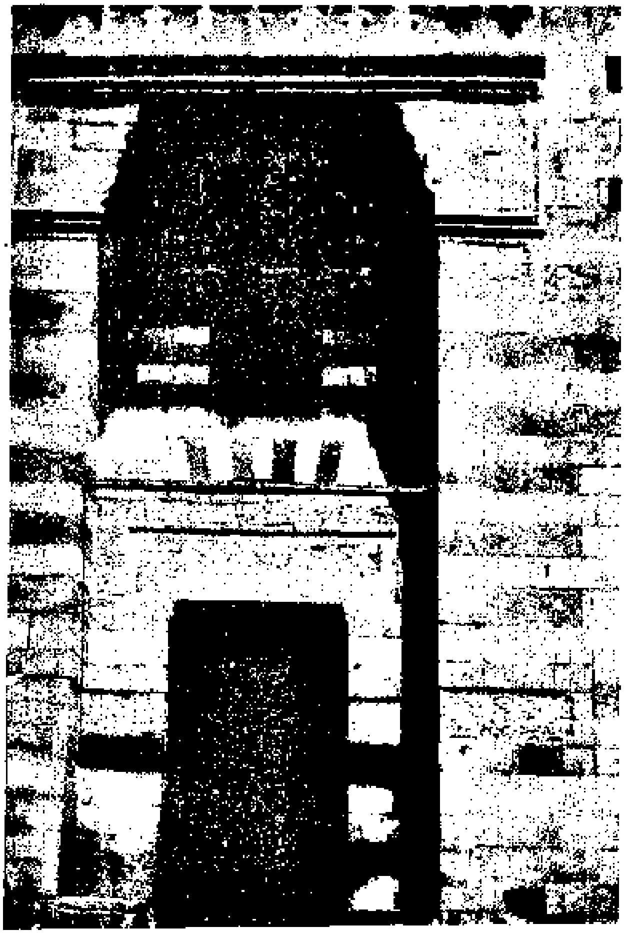
لوحة (٥٩) الساتر الخشبي الذي يتقدم المزملة بمدرسة جوهر اللالا



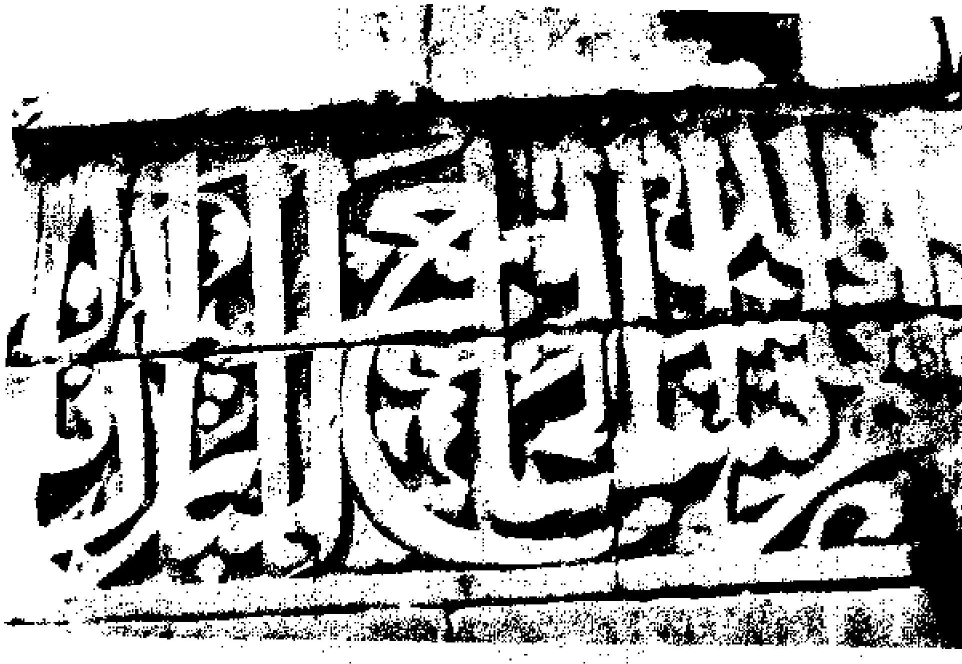


لوحة (٦٠) المئذنة التي تعلو الواجهة الرئيسية بمدرسة جوهر اللالا

لوحة (٦١) الواجهة الرئيسية التي تشغل الضلع الشرقي لجامع برسباي بالخانكة



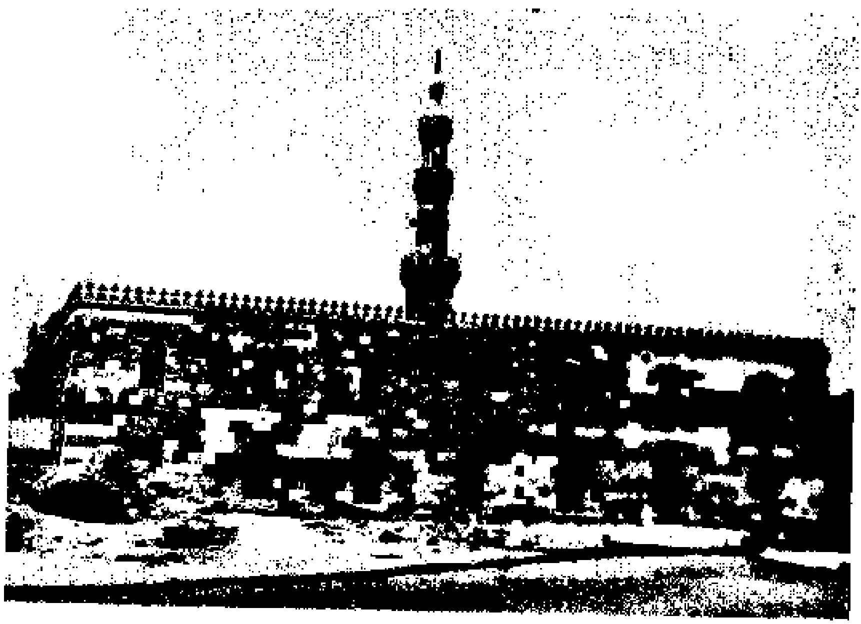
لوحة (٦٢) المدخل الرئيسي لجامع برسباي بالخانكة



▲ لوحة (٦٣) تبين جانباً من النص الإنشائي على جانبي المدخل الرئيسي بجامع برسباي بالخانكة

▼ لوحة (٦٤) الرنك الكتابي للأشرف برسباي بصدر حنية المدخل بالواجهة الشرقية للجامع

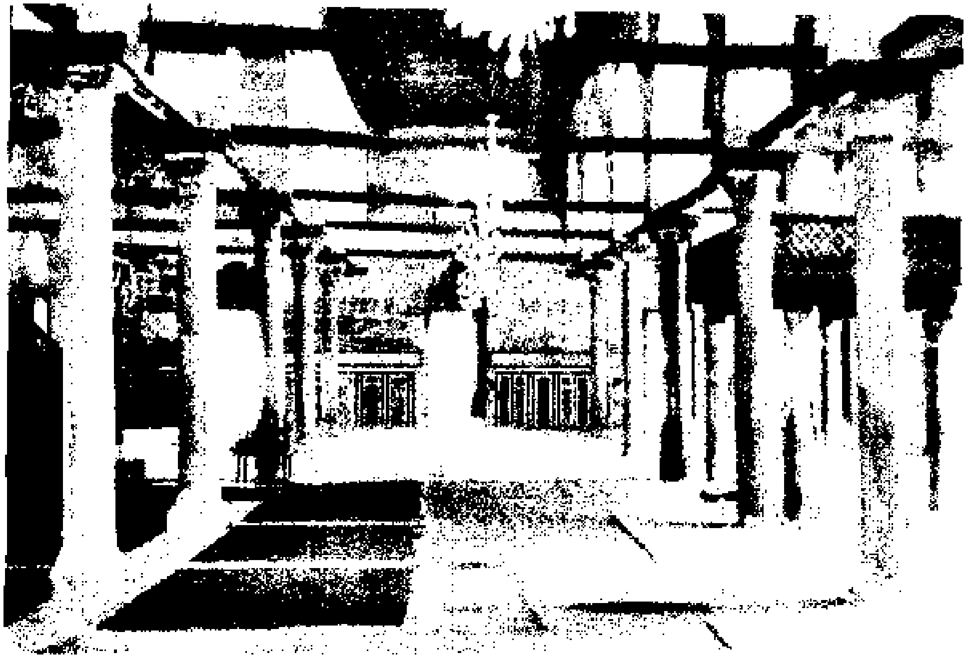




لوحة (٦٥) الواجهة الجانبية لجامع برسباي بالخانكة ↑

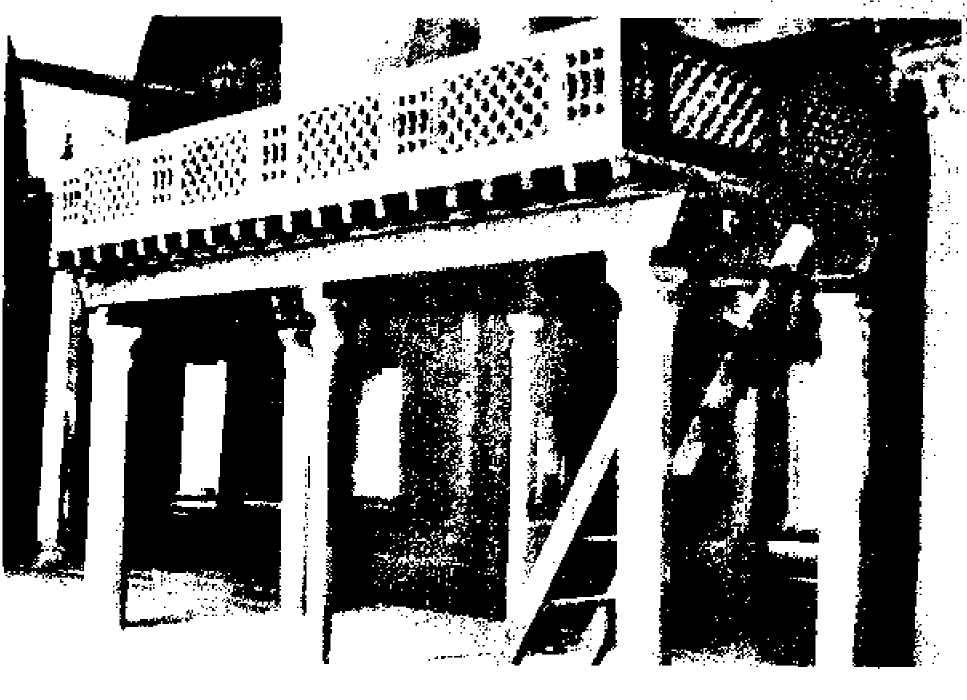
لوحة (٦٦) رواق القبلة بجامع برسباي بالخانكة قبل الإصلاح ↓

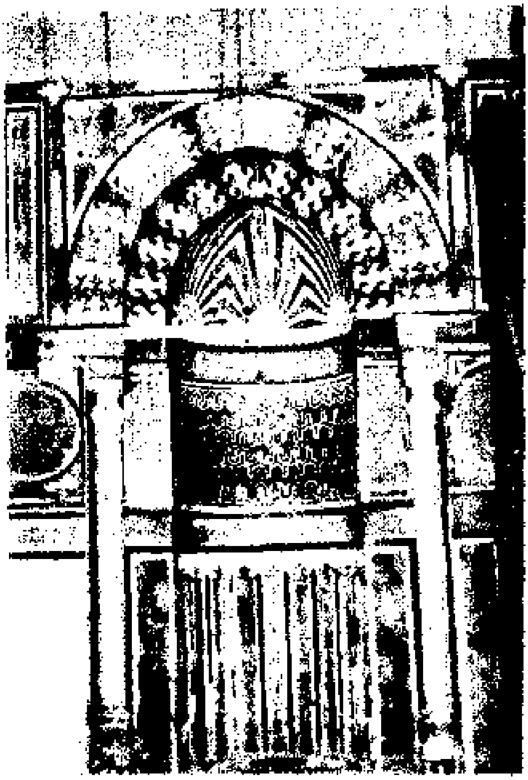




▲ لوحة (٦٧) رواق القبلة بجامع برسباى بالخانكة بعد الإصلاح

▼ لوحة (٦٨) دكة المبلغ برواق القبلة بجامع برسباى بالخانكة

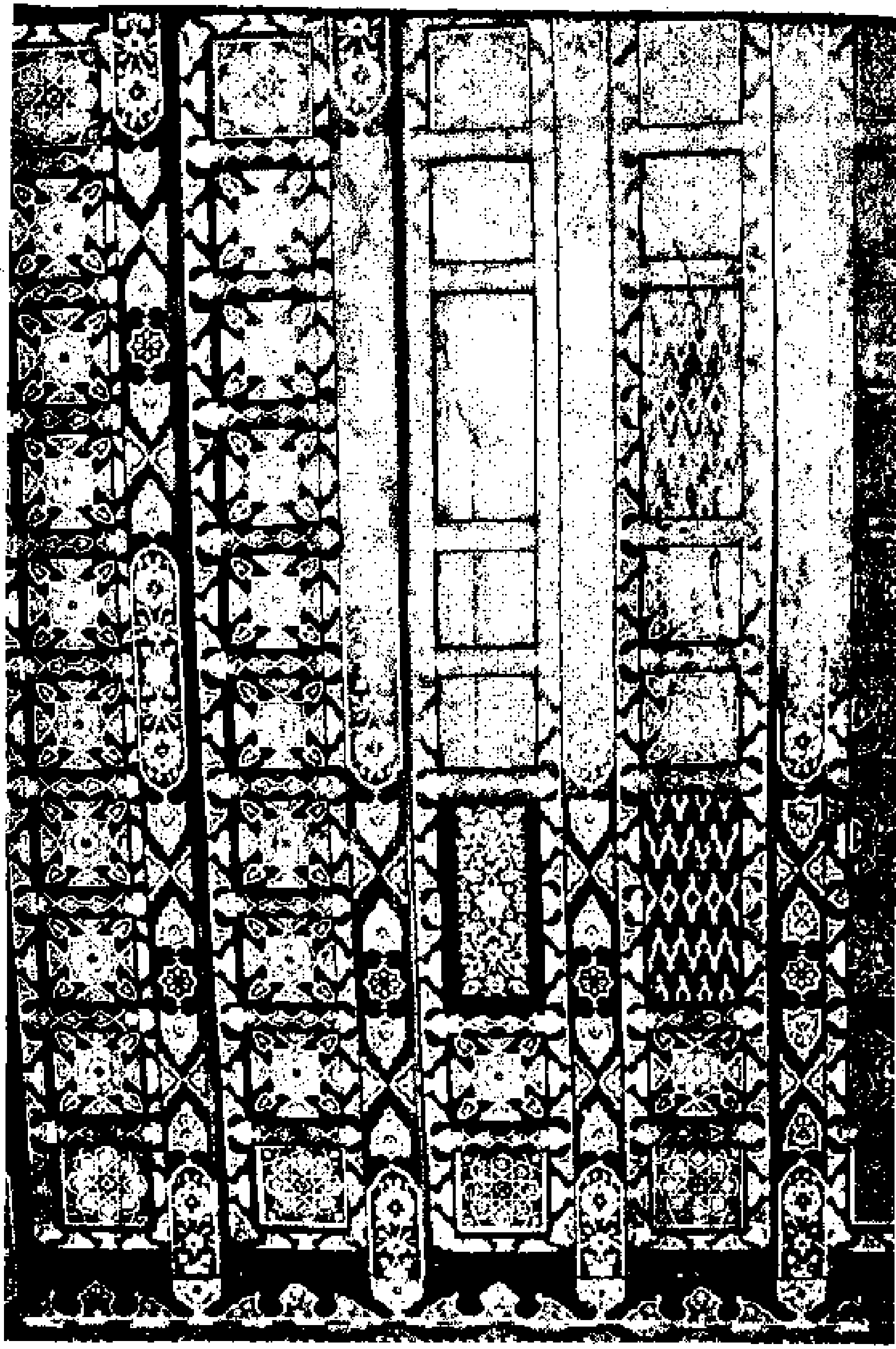




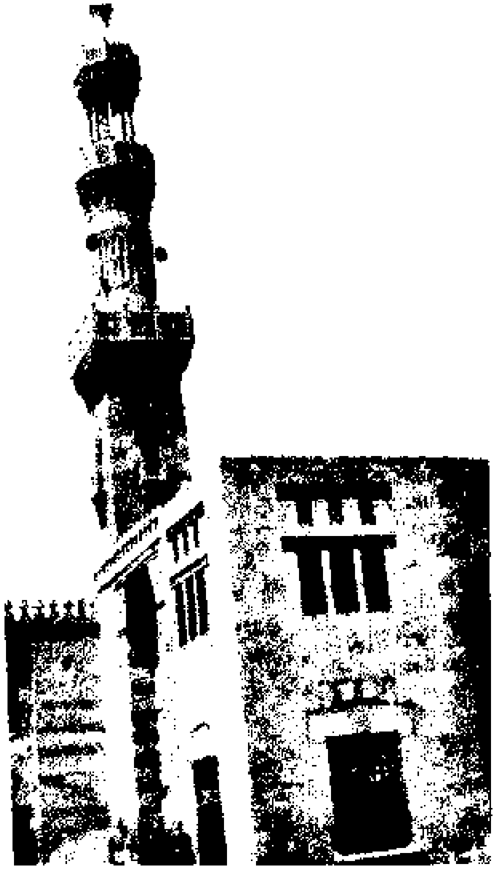
لوحة (٦٩) محراب جامع برسباي بالخانكة.



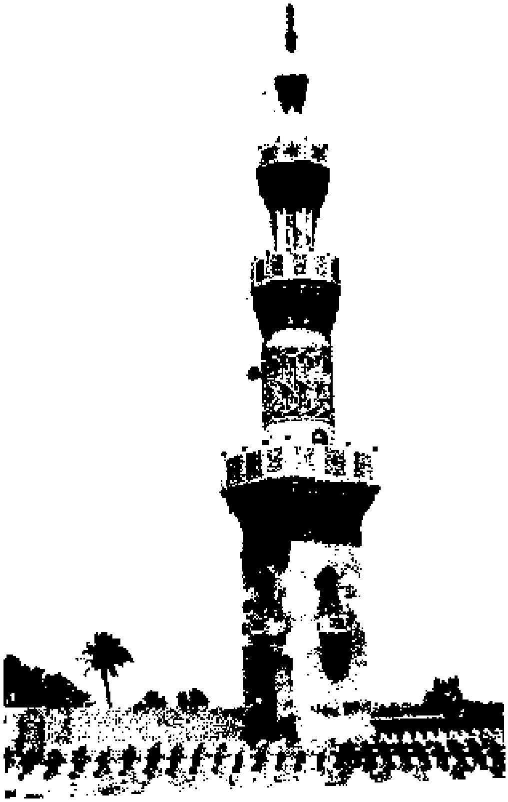
لوحة (٧٠) منبر جامع برسباي بالخانكة



لوحة (٧١) السقف الخشبي لرواق القبلة بجامع برسباي بالخانكة



لوحة (٧٢) الواجهة الشمالية لكتلة المدخل بجامع برسباى بالخانكة



لوحة (٧٣) مئذنة جامع برسباى بالخانكة



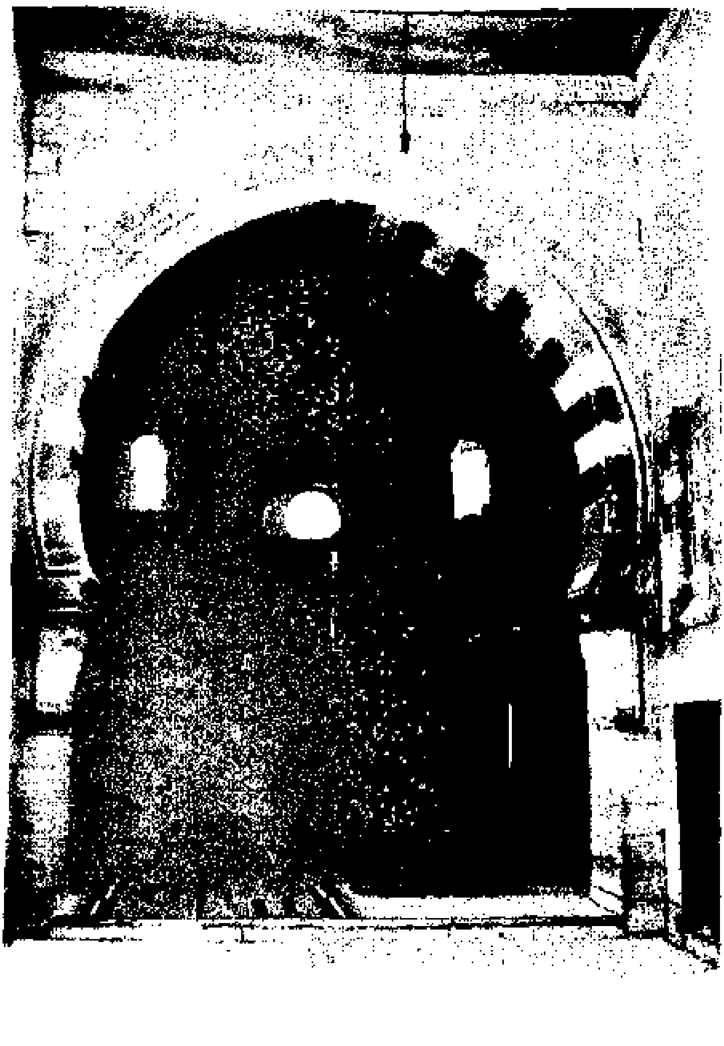
لوحة (٧٤) الواجهة الرئيسية لمدرسة قراقجا الحسني



لوحة (٧٥) الركن الشمالي الغربي لمدرسة قراقجا الحسني



لوحة (٧٦) الكتابة التي تعلو المدخل الرئيسي لمدرسة قراتيبا الحسني



لوحة (٧٧) إيوان القبلة بمدرسة قراتيبا الحسني

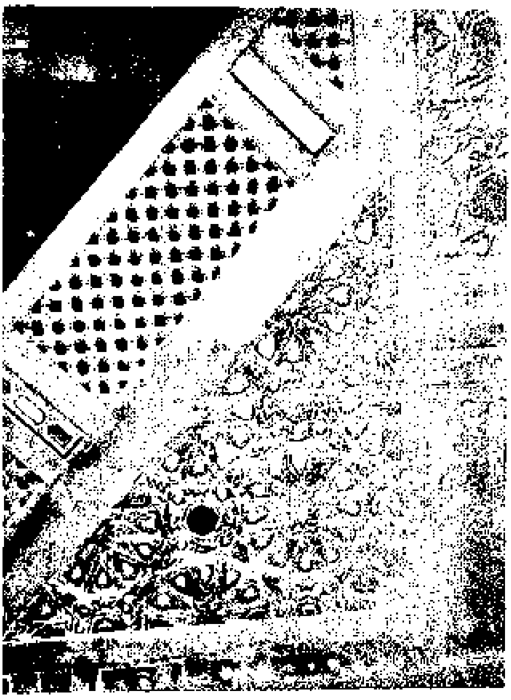


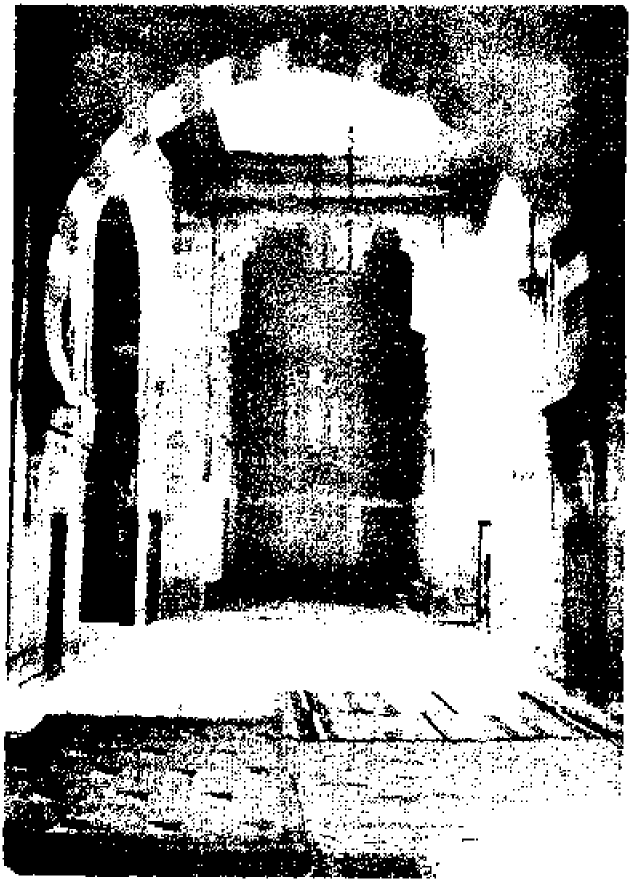
لوحة (٧٨) محراب مدرسة قراقجا الحسني

لوحة (٧٩) منبر مدرسة قراقجا الحسني



لوحة (٨٠) تفاصيل منبر مدرسة قراقجا الحسني

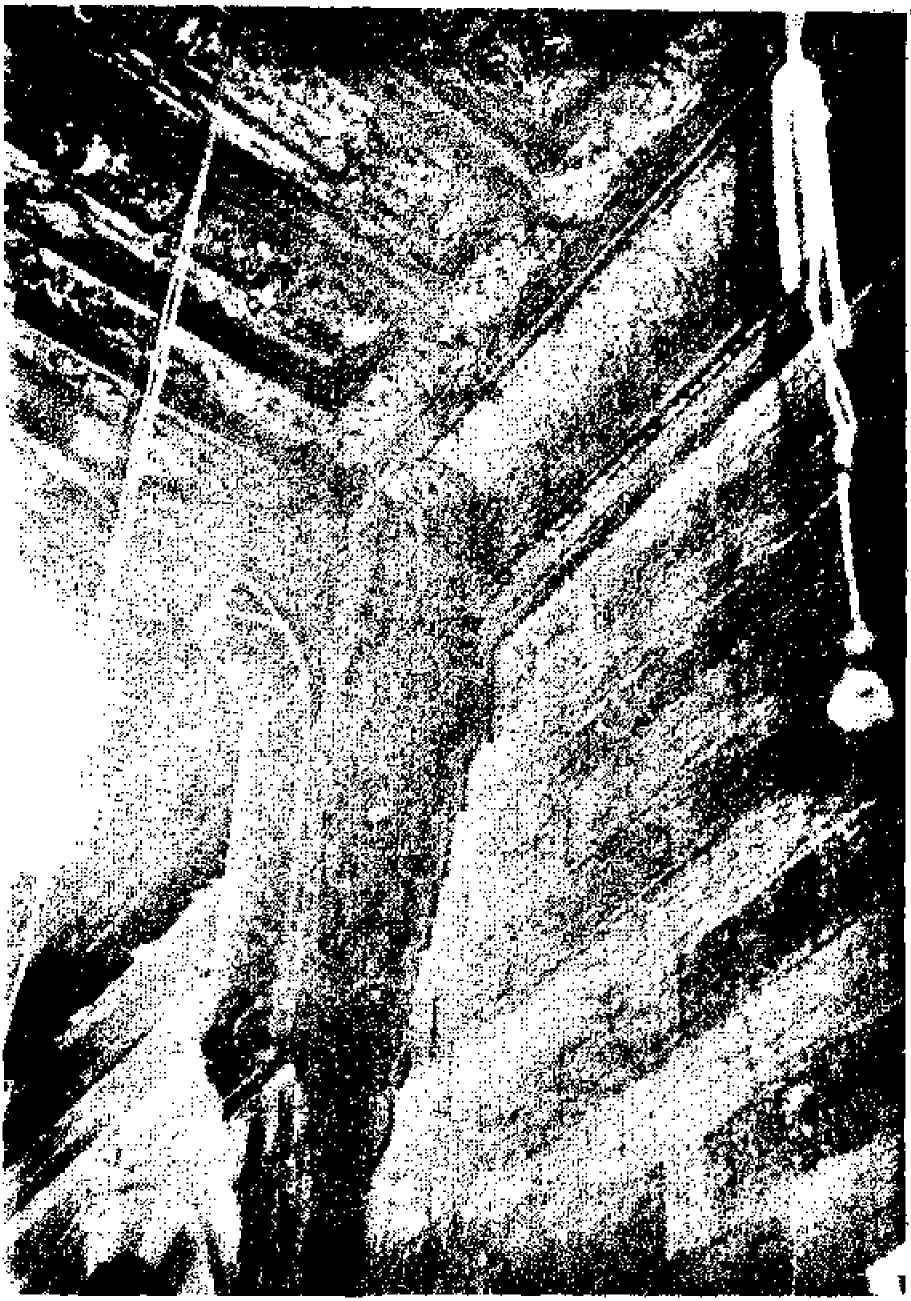




لوحة (٨١) الصحن والإيوان الغربي لمدرسة قراقجا الحسني

لوحة (٨٢) سقف الإيوان الغربي لمدرسة قراقجا الحسني

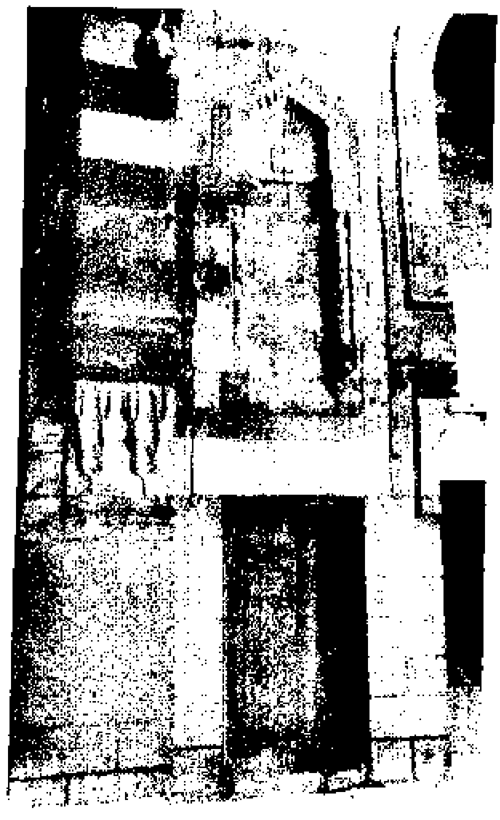




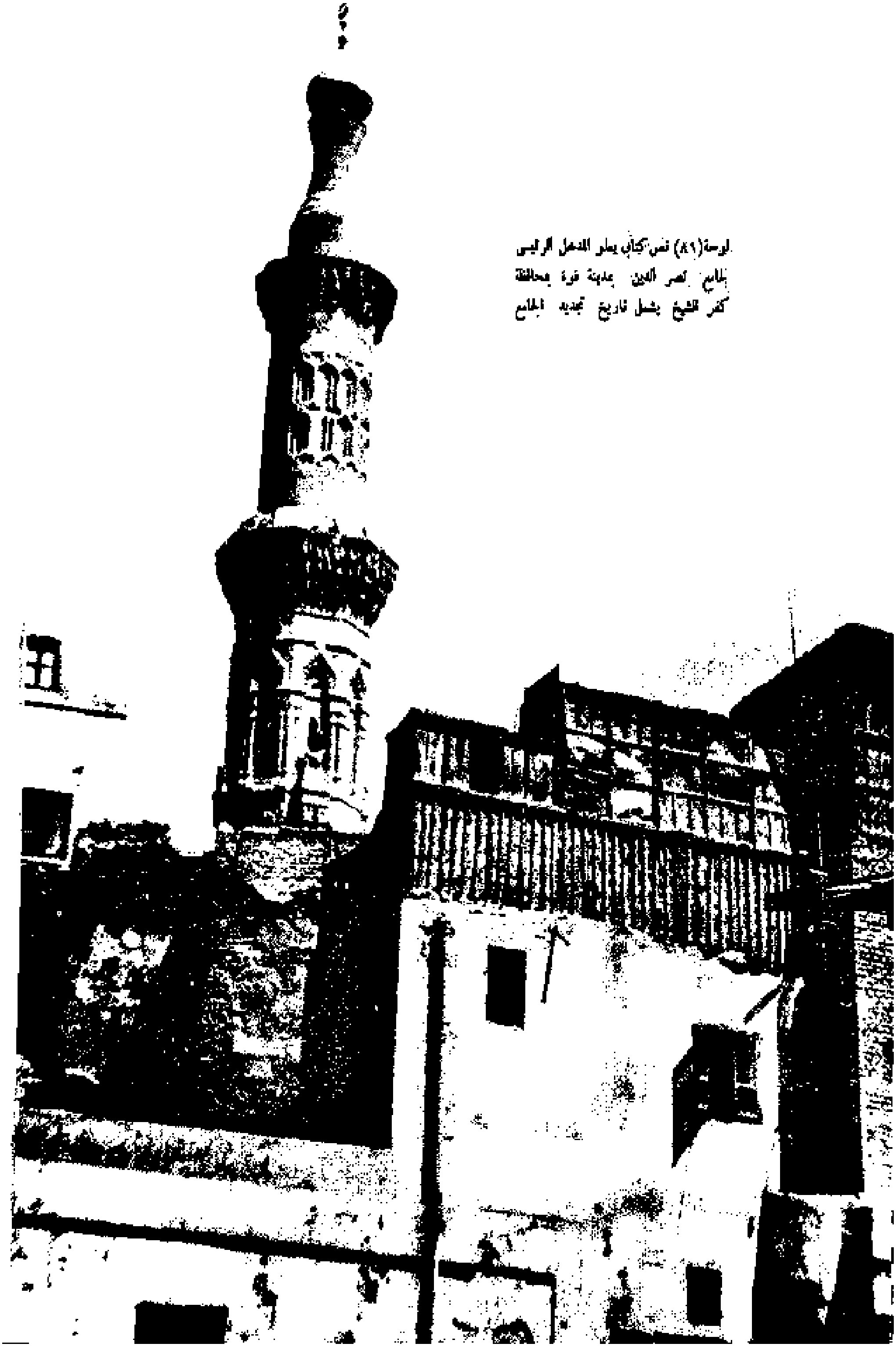
لوحة (٨٣) سقف وكرادى الإيوان الغربي لمدرسة قراقجا الحسني



لوحة (٨٤) الإيوان الجنوبي
(السدلة) لمدرسة قراقجا الحسني



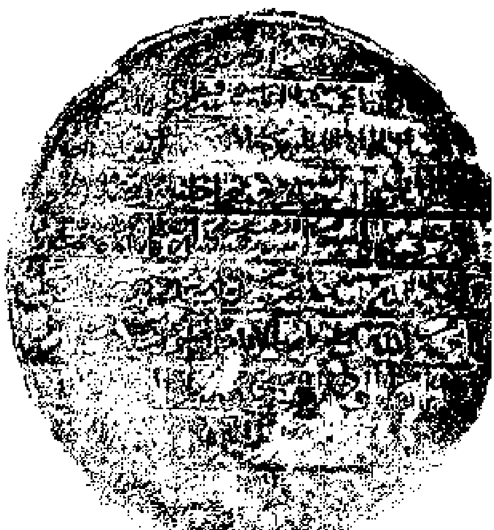
لوحة (٨٥) باب سري يؤدي
إلى بيت أمام مدرسة قراقجا الحسني



لوحة (٨٩) نص كتابي يعلو المدخل الرئيسي
لجامع نصر الدين بمدينة فوة بمحافظة
كفر الشيخ يشمل تاريخ تجديد الجامع



لوحة (٨٧) محراب جامع نصر الدين بمدينة قرة

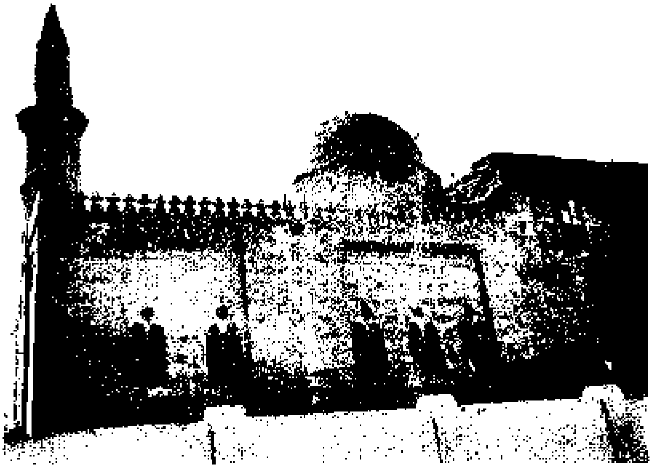


لوحة (٨٨) مرسوم سلطاني داخل جامع نصر الدين





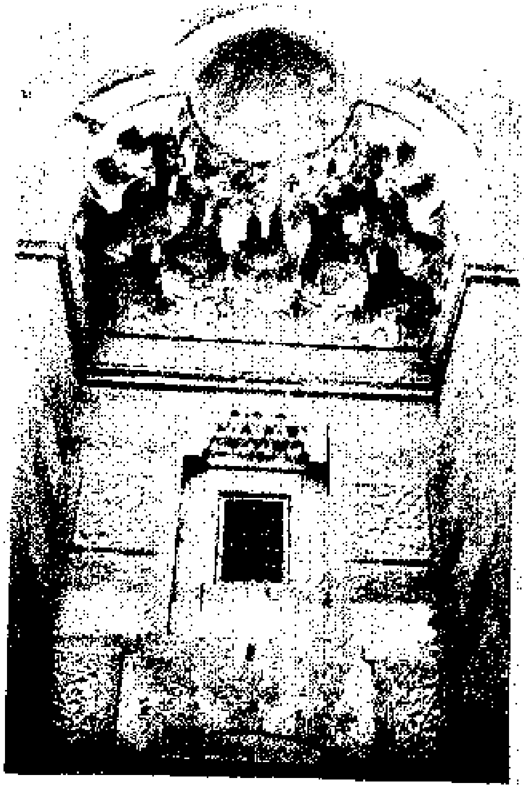
لوحة (٨٩) المدخل الرئيسى بجامع العينى بحى الأزهر



لوحة (٩٠) الواجهة الشمالية بجامع العينى



لوحة (٩١) المدخل الرئيسى لمسجد تم الرصاص (تمر الرصاق) بحى السيدة زينب



لوحة (٩٢) الجزء العلوي من المدخل الرئيسي لمسجد تم الرصاص يتوجه طاقية معقودة بخمسة صفوف من الدلايات في وضع هندسي بديع .

لوحة (٩٣) الجزء الأسفل من الواجهة الشمالية لمسجد تم الرصاص





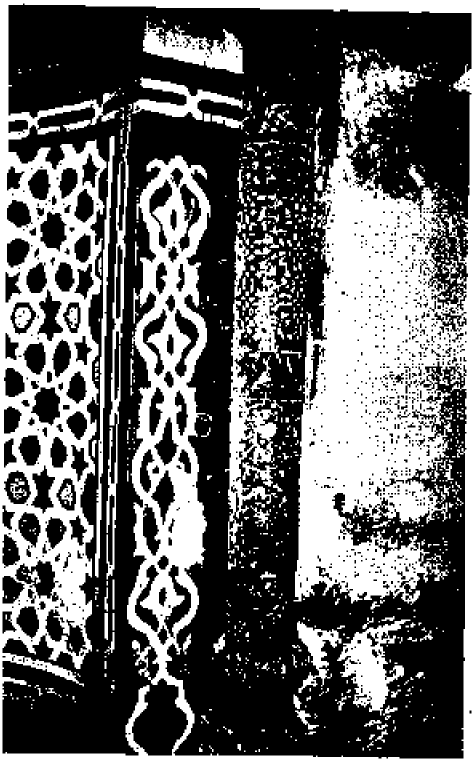
لوحة (٩٤) الجزء العلوي من الواجهة الشمالية لمسجد تم الرصاص



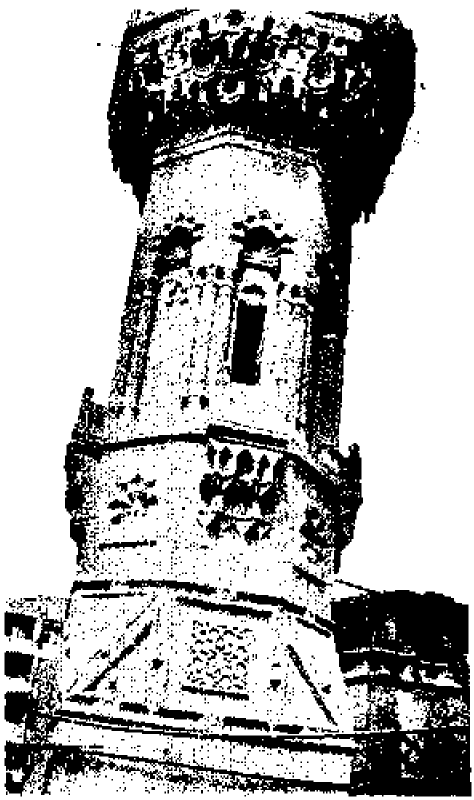
لوحة(٩٥) أروقة مسجد تم الرصاص



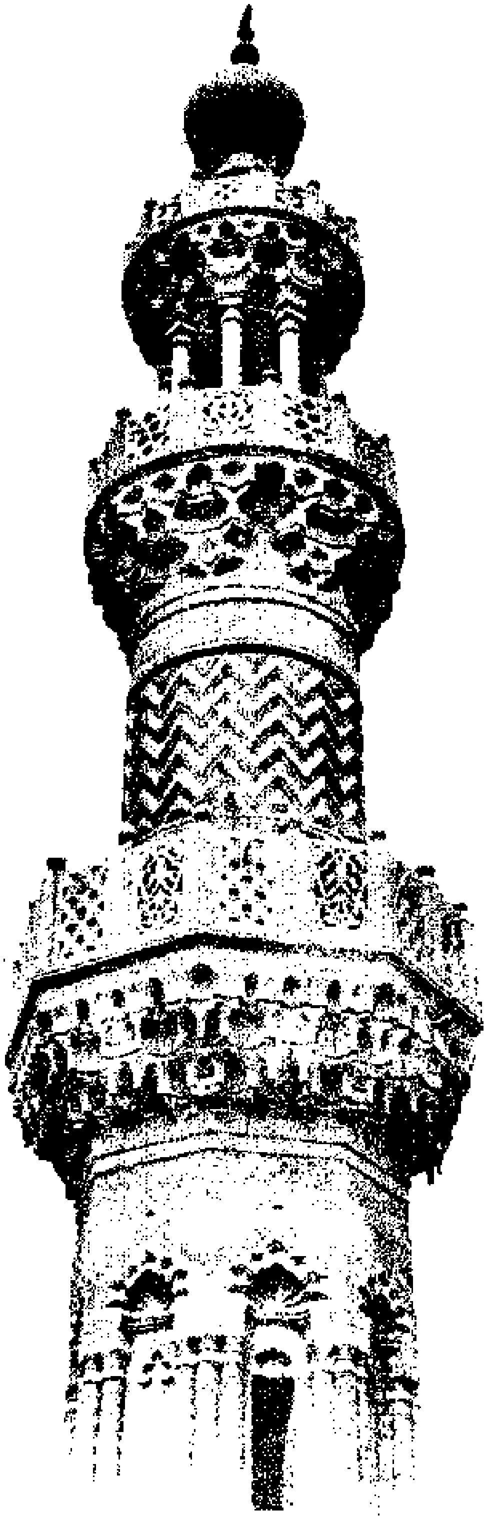
(لوحة (٩٦) دكة المبلغ داخل مسجد تم الرصاص



لوحة (٩٧) جزء من محراب مسجد تم الرصاص



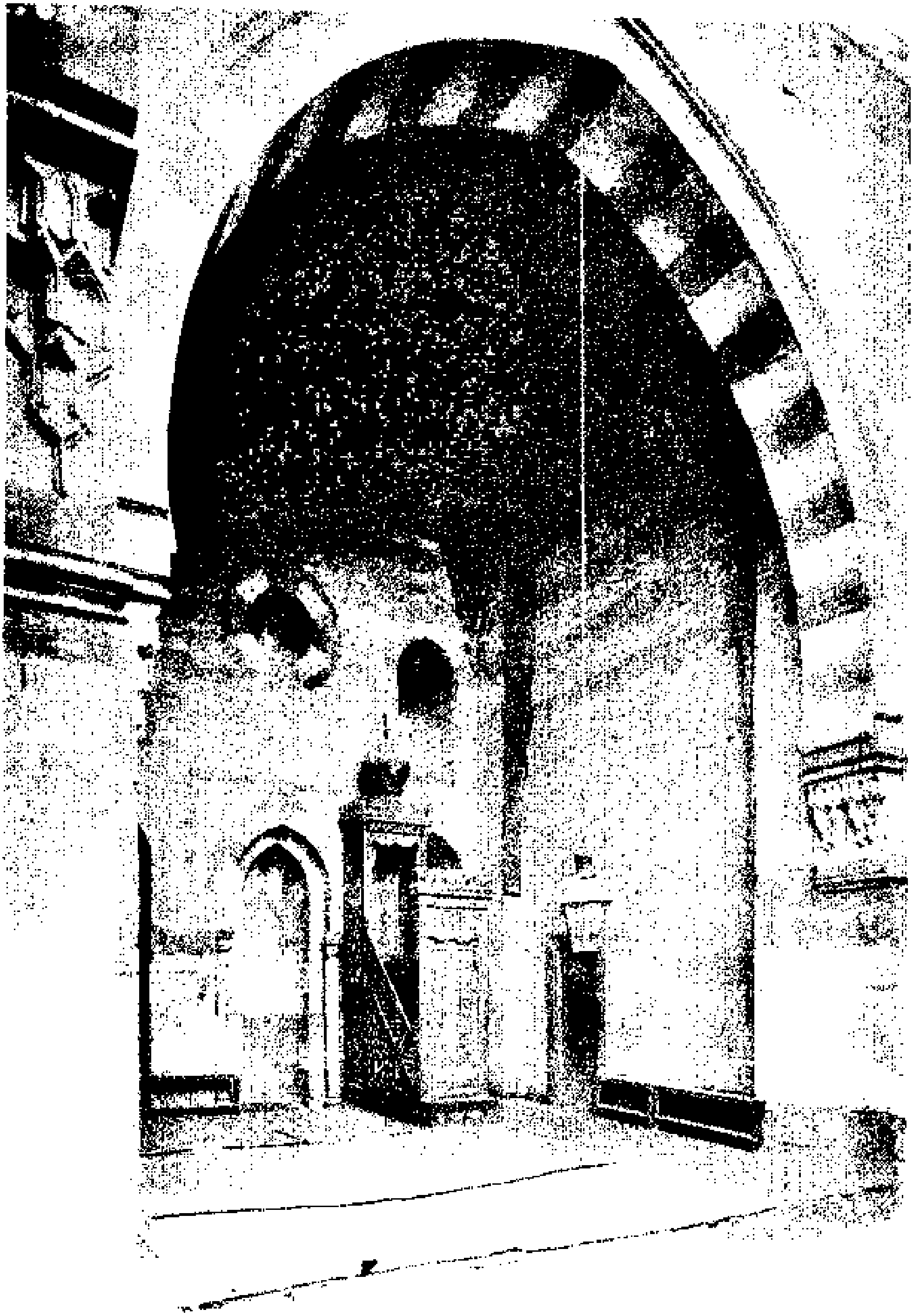
(لوحة(٩٨) القاعدة والطابق الأول من مسجد تم الرصاص



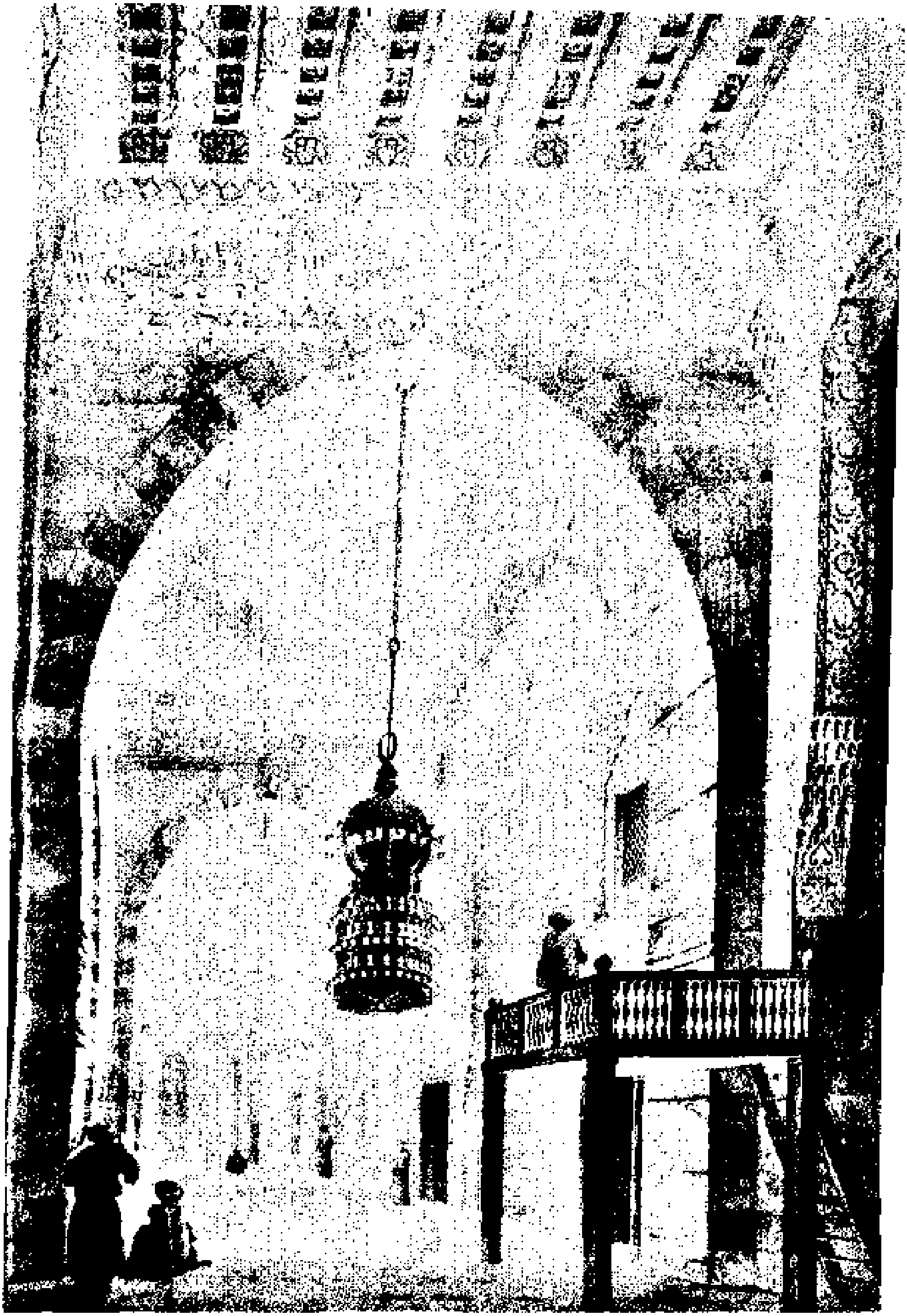
لوحة(٩٩) الطابق الثانى والثالث
من مسجد تم الرصاص



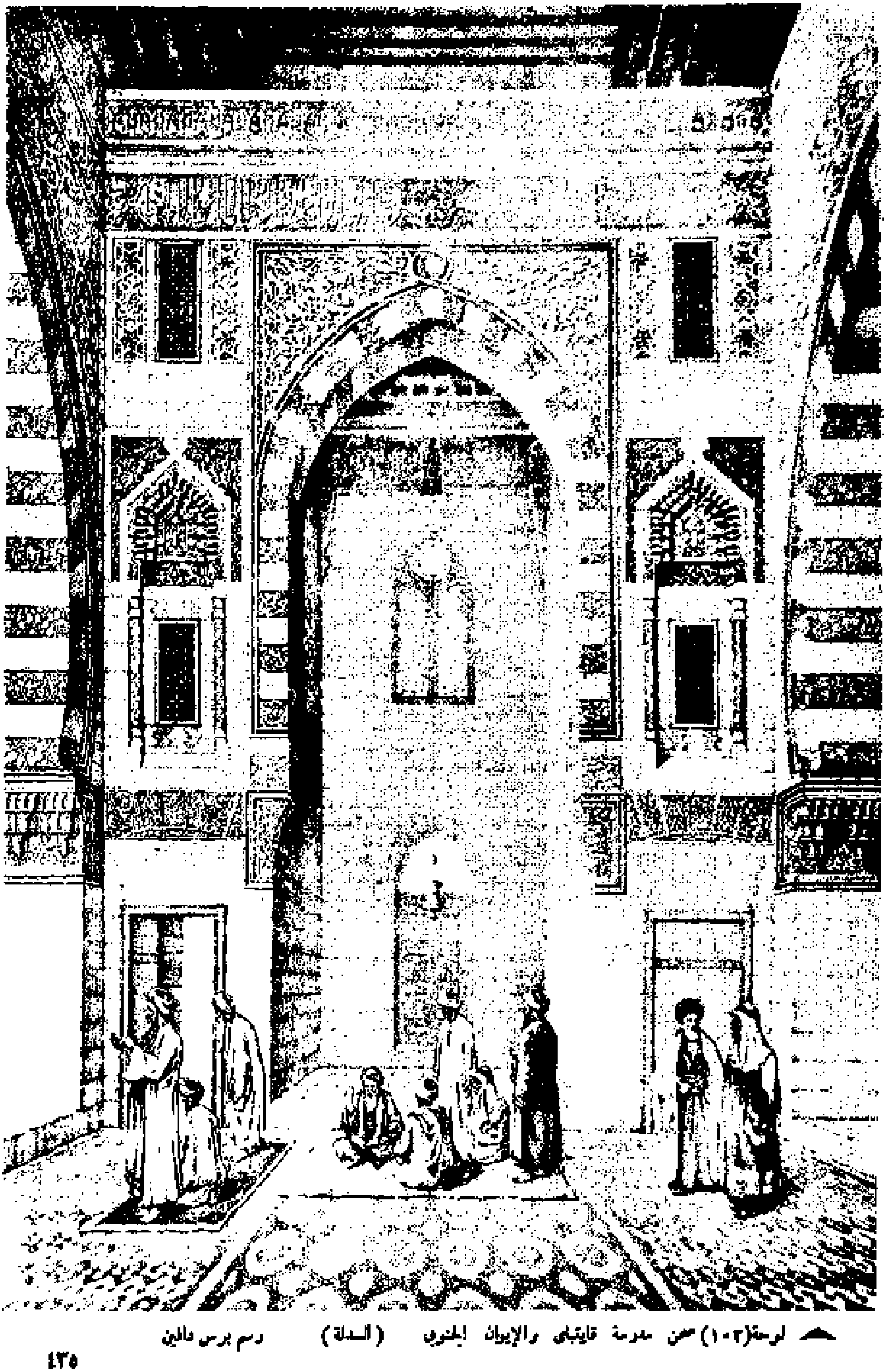
لوحة (١٠٠) المدخل الرئيسي لمدرسة تغرى بردى المقاصيص بحى الصليبة



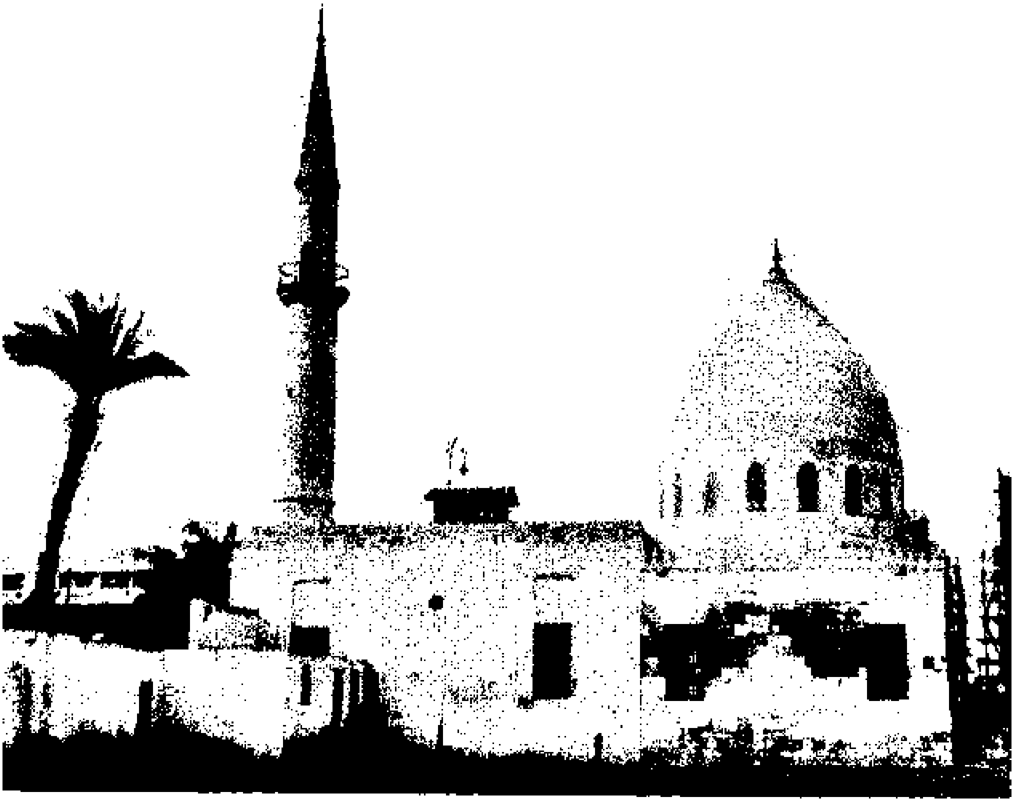
لوحة (١٠١) إيوان القبلة لمدرسة تغرى بردى



لوحة (١٠٢) صحن مدرسة قايتباى بقرافة المماليك بالصحراء تحيط به الإيوانات الأربعة
رسم بسكال كوست



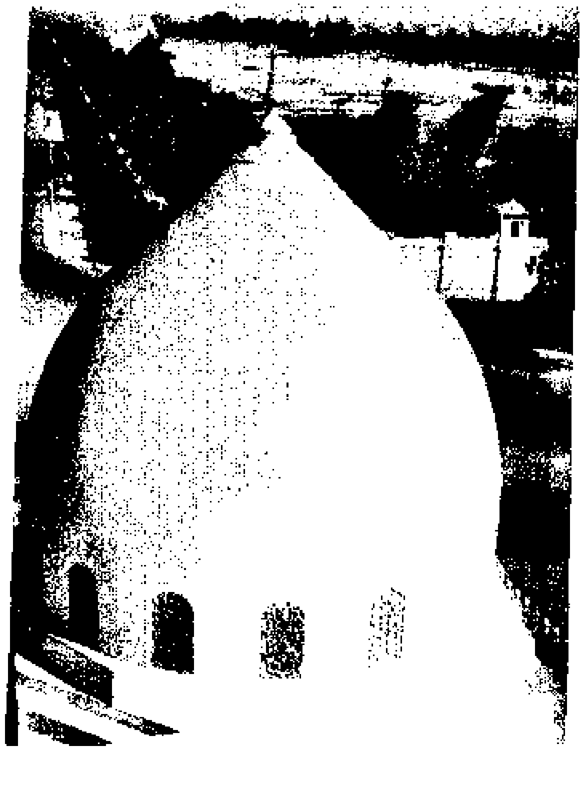
لوحة(١٠٣) صحن مدرسة قايتباي والإيوان الجنوبي (القبلة) رسم بريس دافين



لوحة (١٠٤) منظر عام لقبة ومسجد يشبك من مهدى بكوبرى القبة



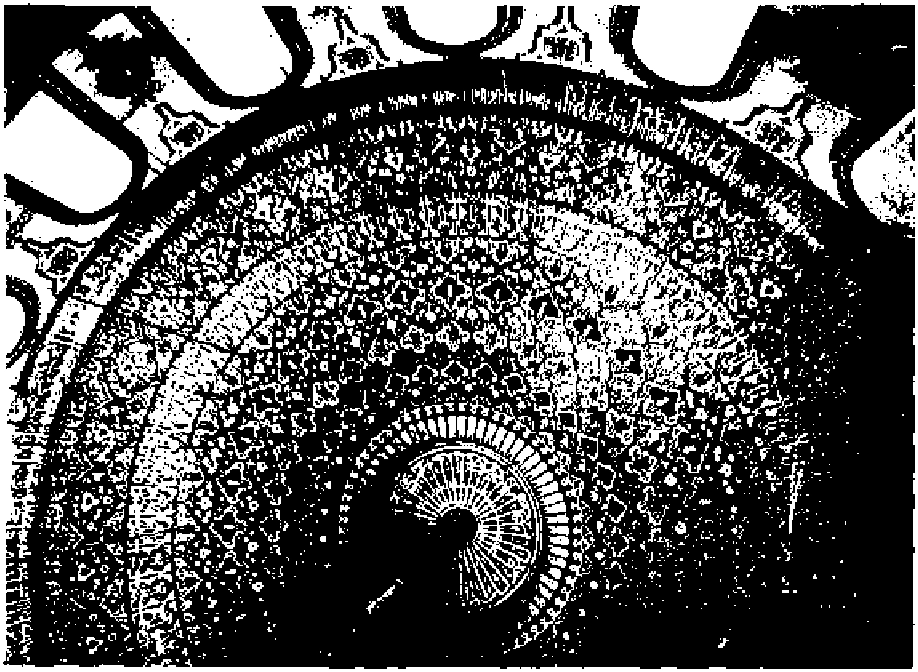
لوحة (١٠٥) منظر خارجي لقبة يشبك قبل إصلاح سنة ١٩٦٧ م



لوحة (١٠٦) المدخل الرئيسى لقبة يشبك

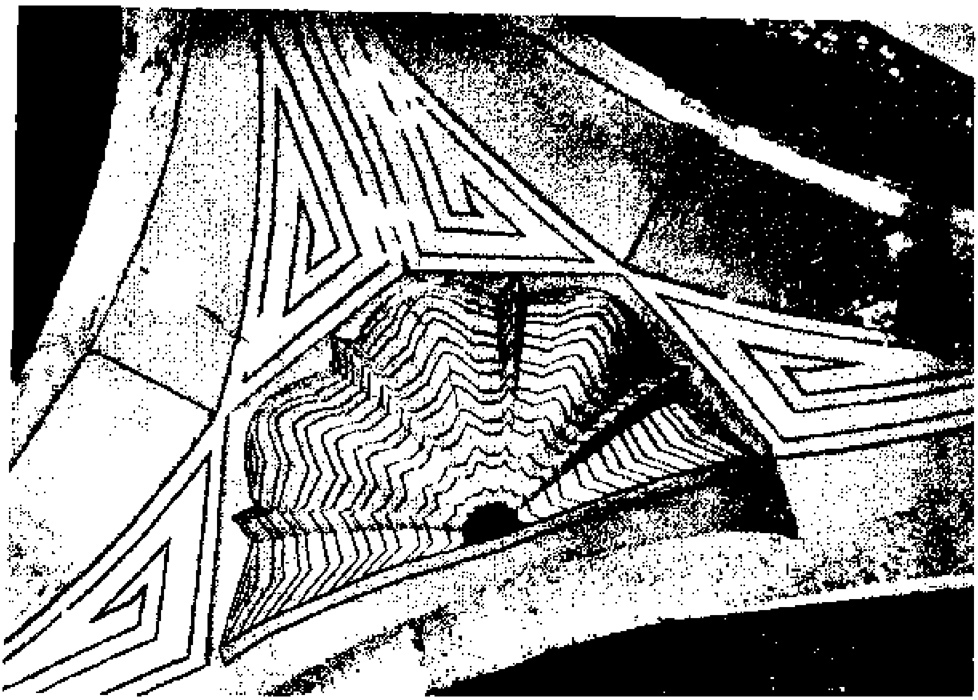


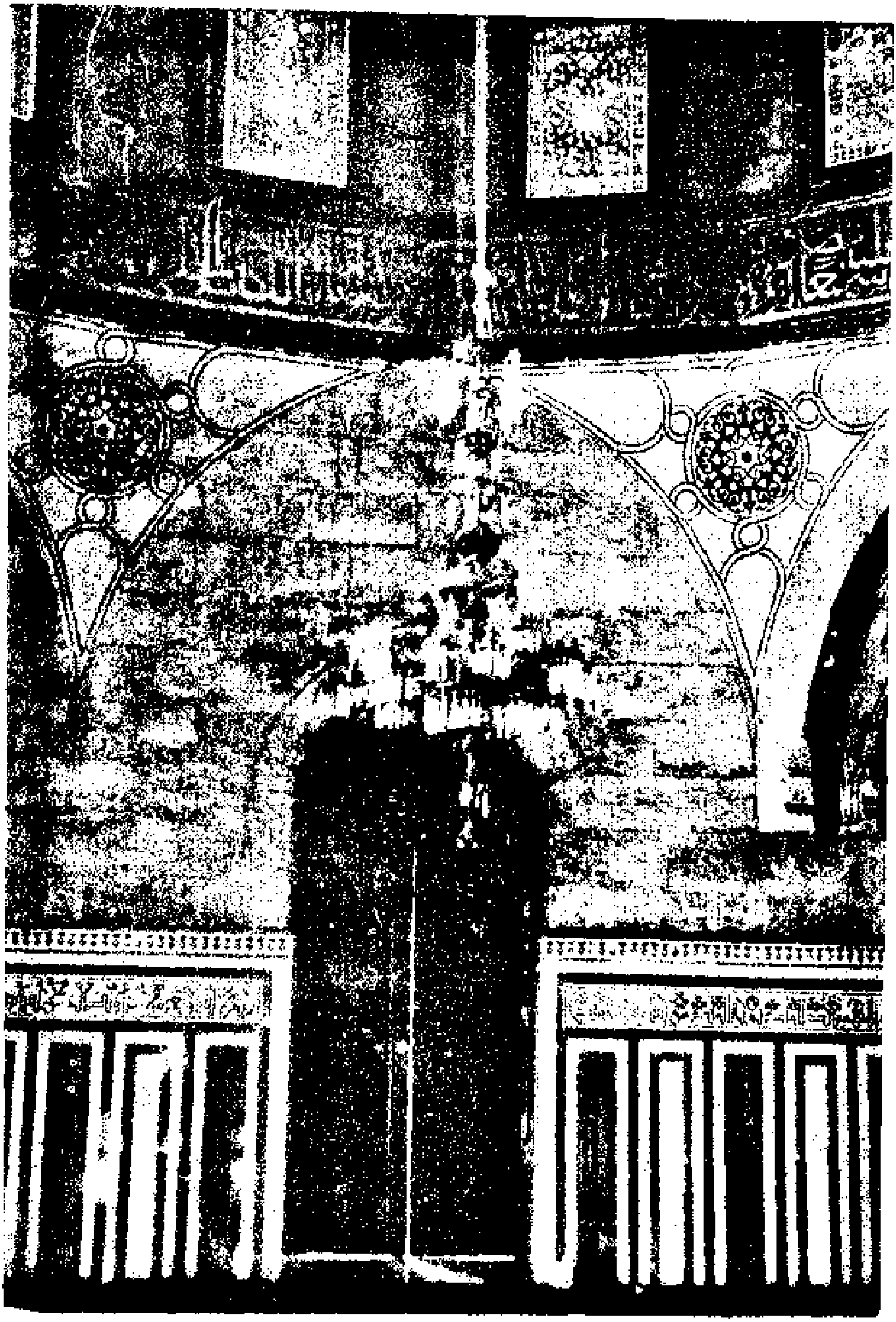
← لوحة (١٠٧) قبة يشبك من الداخل يحيط بها شريط من الكتابة يحتوي على تاريخ تأسيس القبة سنة ٨٨١ هـ



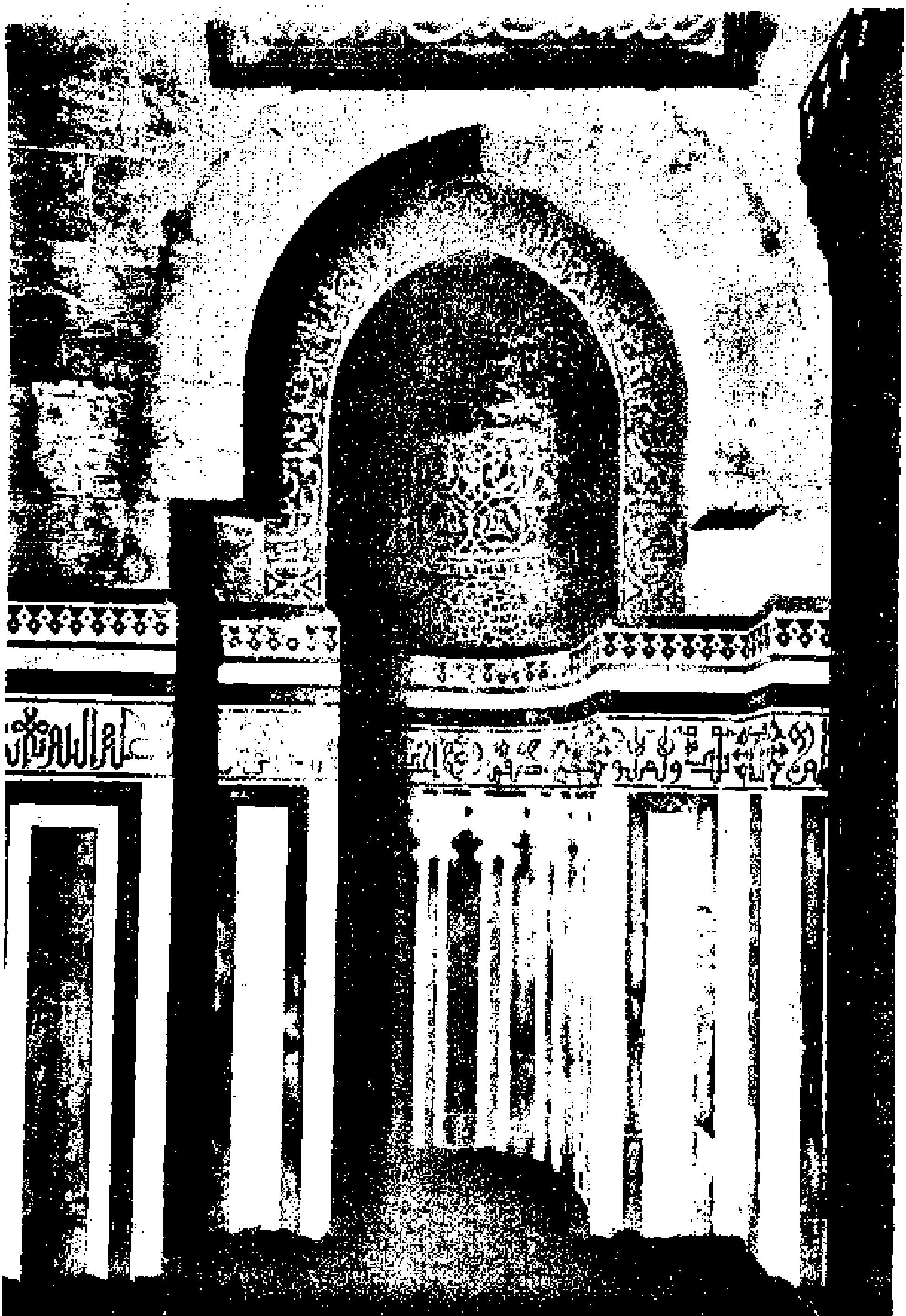
لوحة (١٠٨) نقوش باطن قبة يشبك بعد تجديدها سنة ١٣٠٤ هـ

لوحة (١٠٩) أركان منطقة الانتقال التي تقوم عليها قبة يشبك

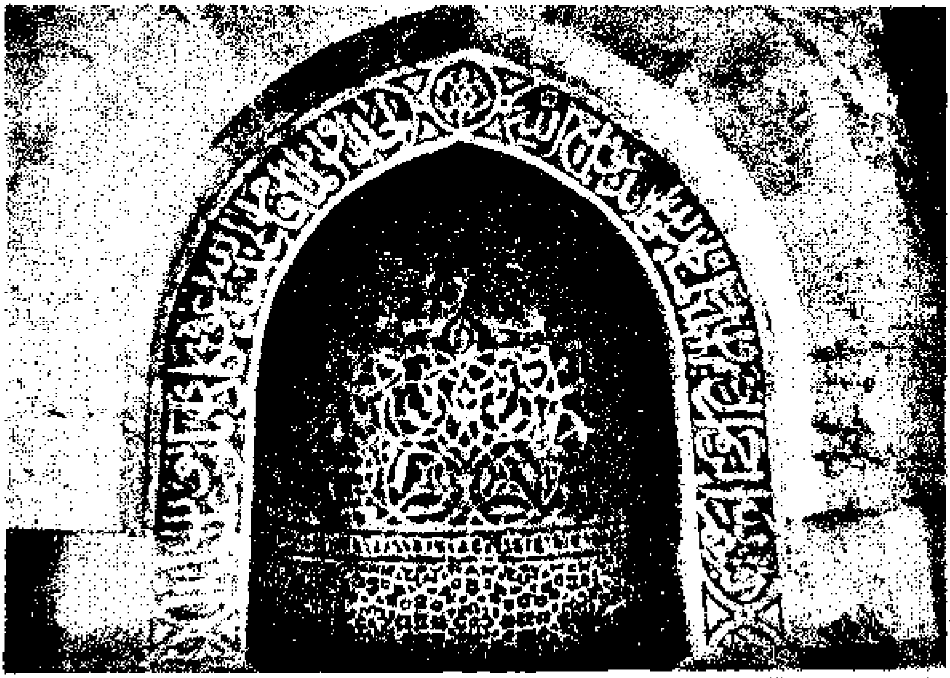




لوحة (١١٠) الباب الداخل لقبة يشبك

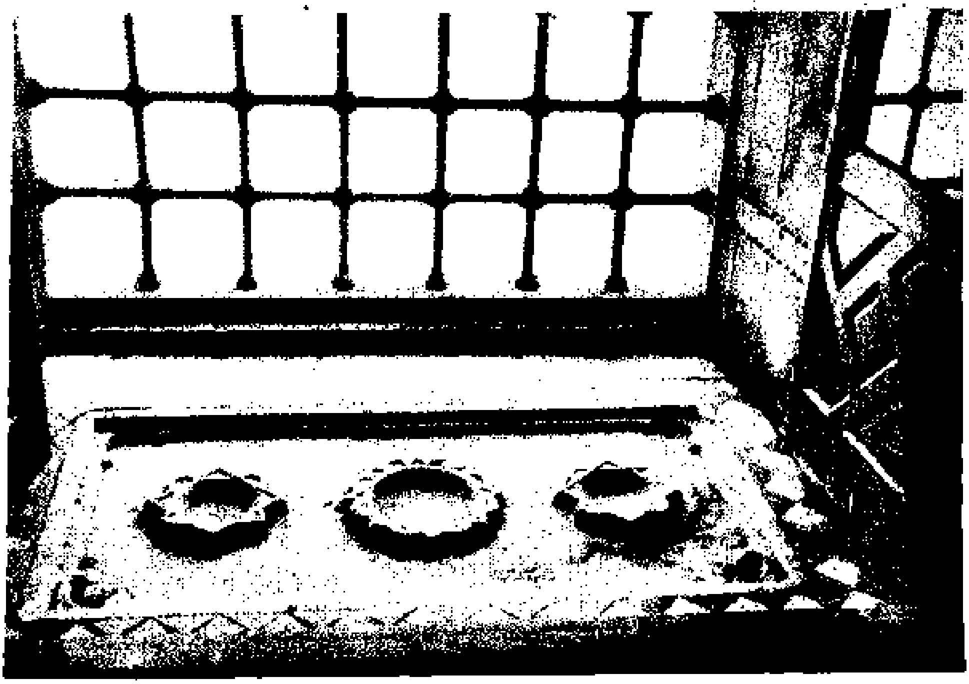


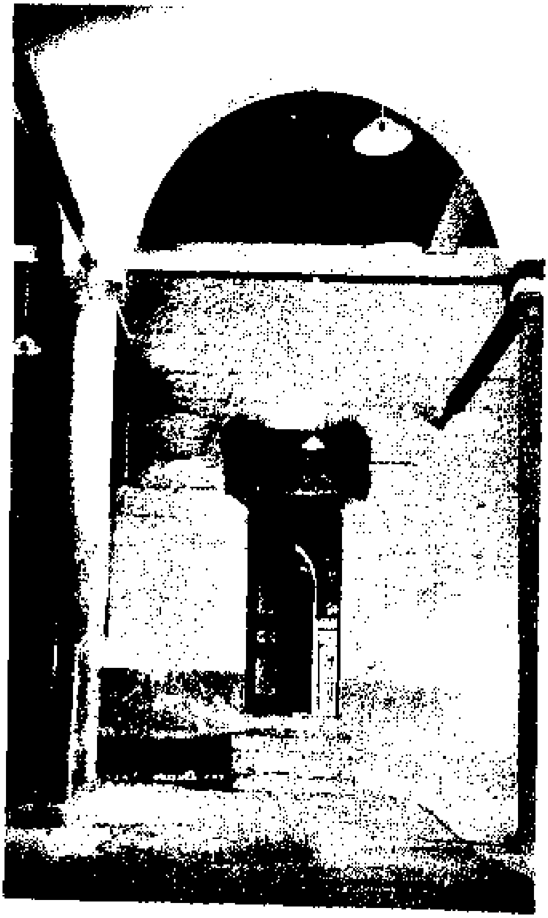
لوحة (١١١) محراب قبة يشبك المشتى بالفيفساء الرخامية



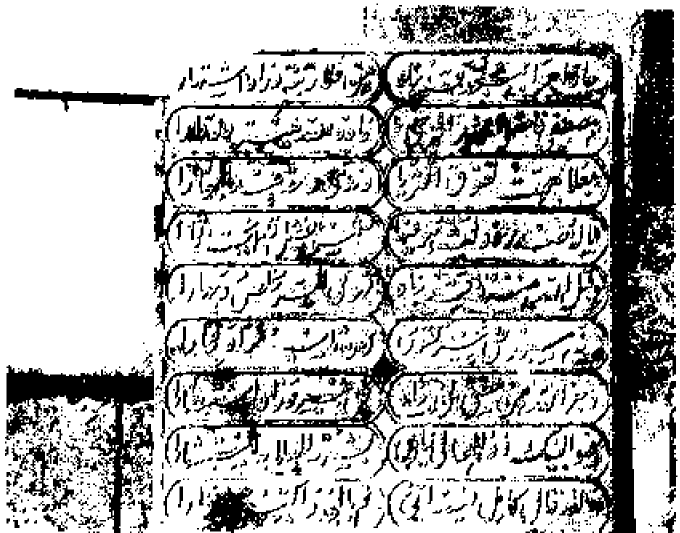
أ - لوحة (١٤٢) طاقية محراب قبة يشبك

ب - لوحة (١٤٣) بلاطة من الرخام الموجودة بجلسة النافذة الشمالية الغربية بقبة يشبك





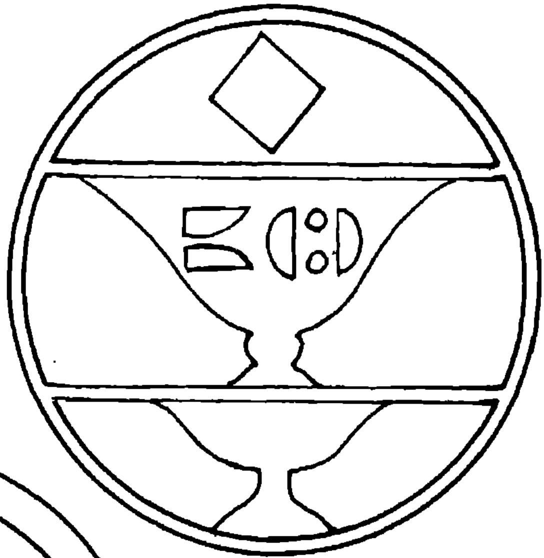
لوحة (١١٤) الباب الذي
يصل قبة يشبك بالجامع



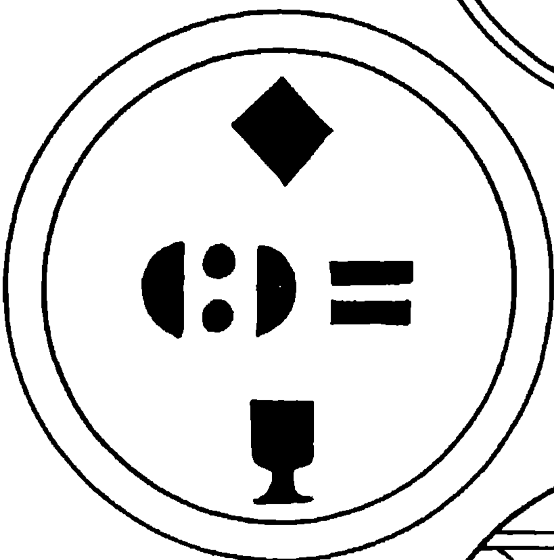
لوحة (١١٥) اللوحة التأسيسية للمسجد
الذي أقامه الأمير فاضل الملاصق
لقبة يشبك بكوبري القبة سنة ١٢٨٧ هـ

لوحة (١١٦)

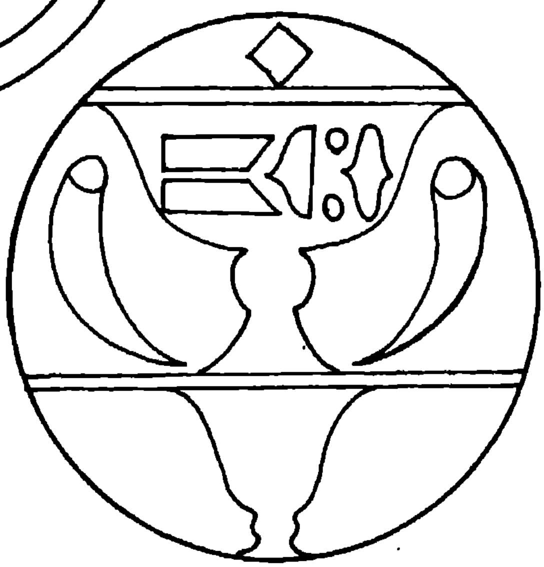
(ا) رنك الأمير يشبك من مهدى منقوشاً على طبق من المعدن (مجموعة بوردى) بالقاهرة



(ب) رنك يشبك مرسوماً على جانبى قصره بالقاهرة



(جـ) رنك يشبك بمجلة مايو سنة ١٩٣٣ م وقد ظهرت عليه شارة سراويل الفتوة (عن سامى عبدالحليم)

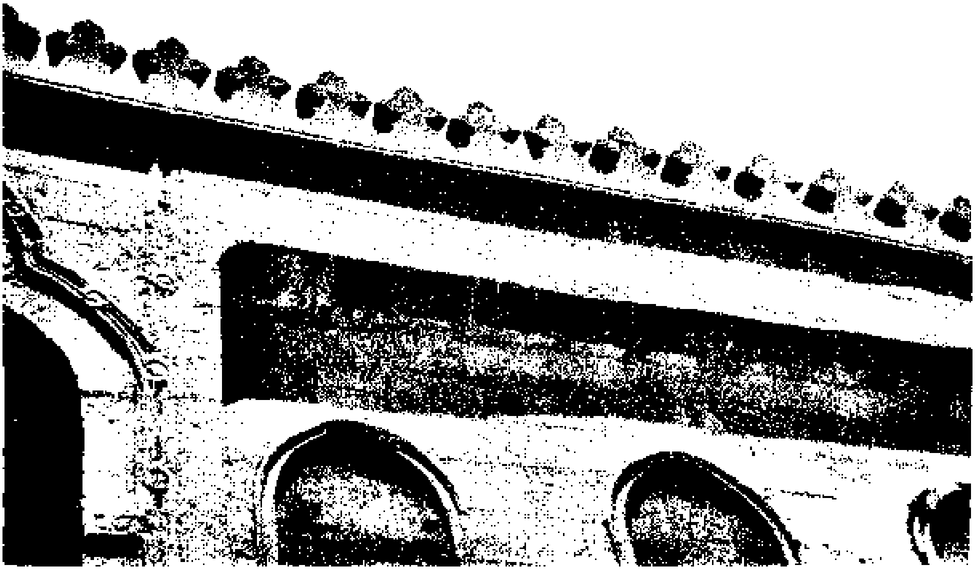




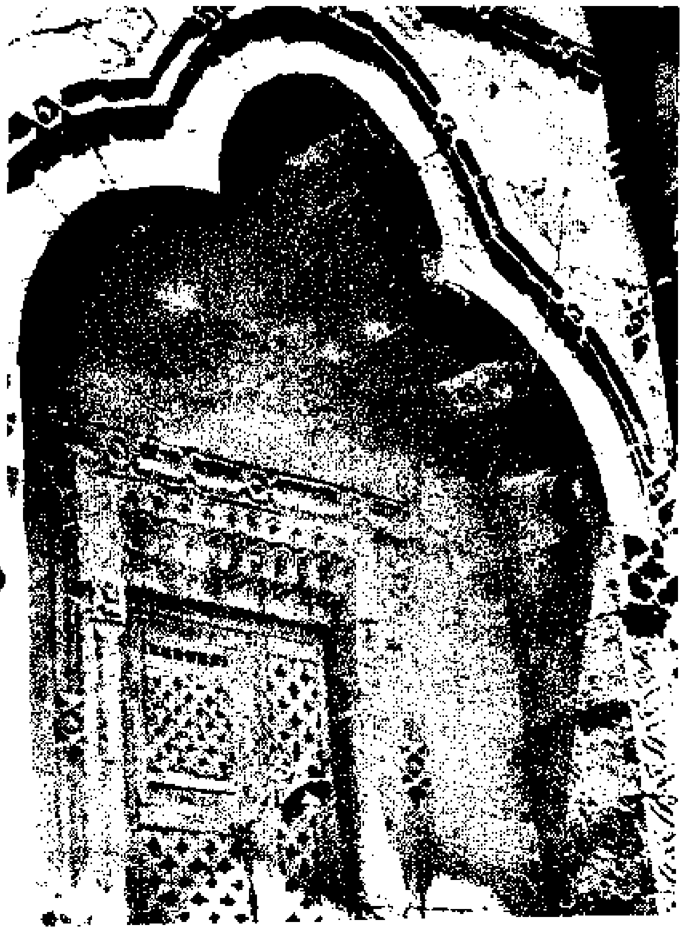
لوحة (١١٧) شريط من الكتابة يبين بعض ألقاب ووظائف الأمير يشبك من مهدي منقوشة على جانبي مدخل قصره (قصر قوصون أو جوش بردق) ، ونصها : السيفي يشبك من مهدي أمير دوادار كبير وباش العساكر المنصورة ومدبر الممالك الإسلامية



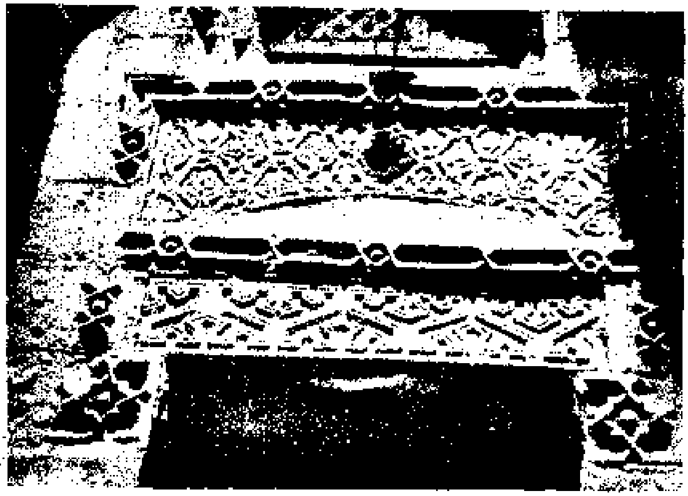
لوحة (١١٨) الواجهة الرئيسية التي تشغل الضلع الجنوبي الغربي للمدرسة جنبلاط



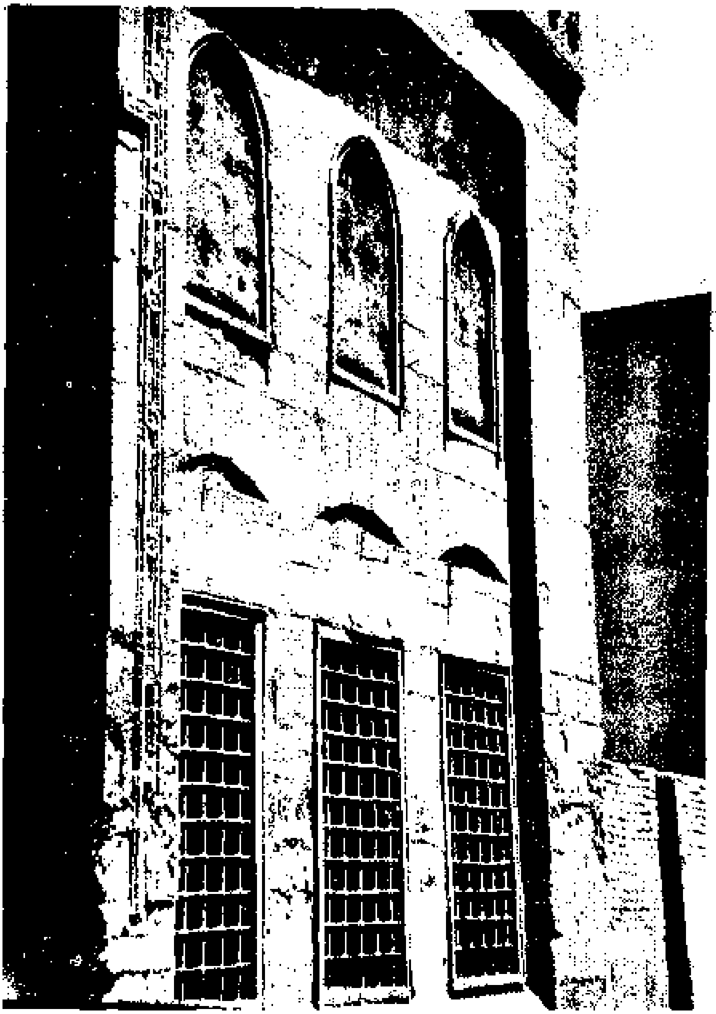
لوحة (١١٩) الواجهة الرئيسية لمدرسة جنبلاط تعلوها الشرفات



لوحة (١٢٠) العقد الثلاثي والنافذة التي تعلو المدخل الجديد بمدرسة جنبلاط



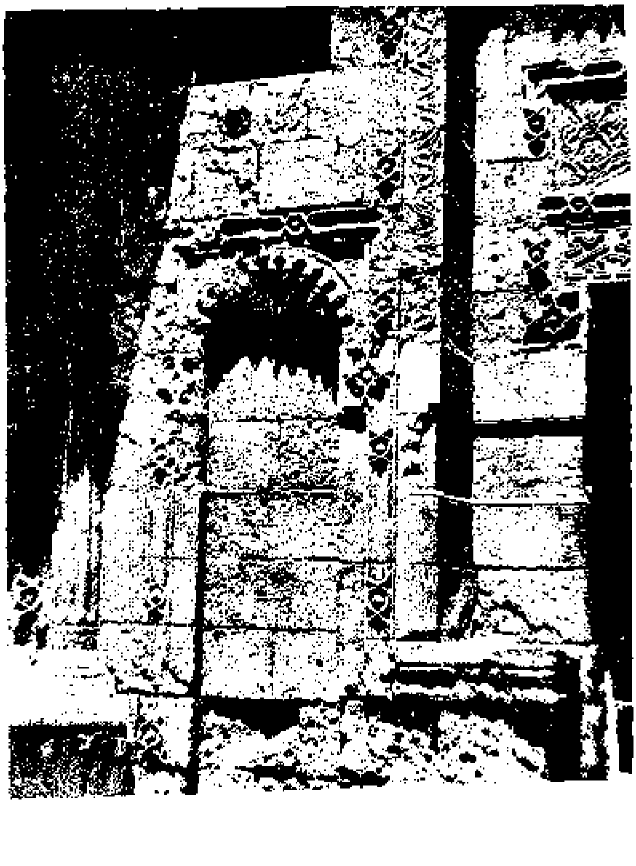
لوحة (١٢٢) الواجهة
القديمة بمدرسة جنبلاط



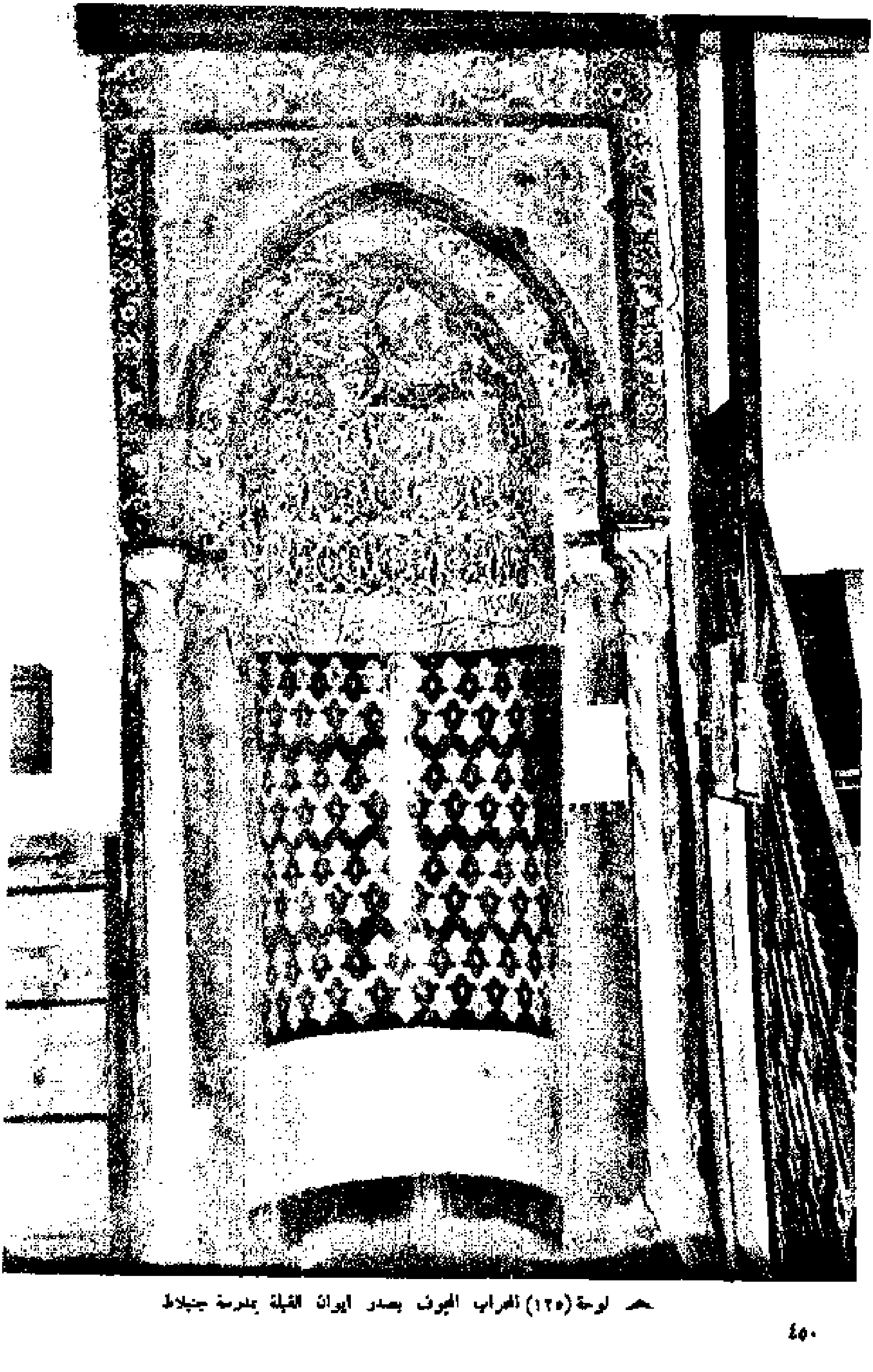
لوحة (١٢١) المدخل
الجديد بمدرسة جنبلاط



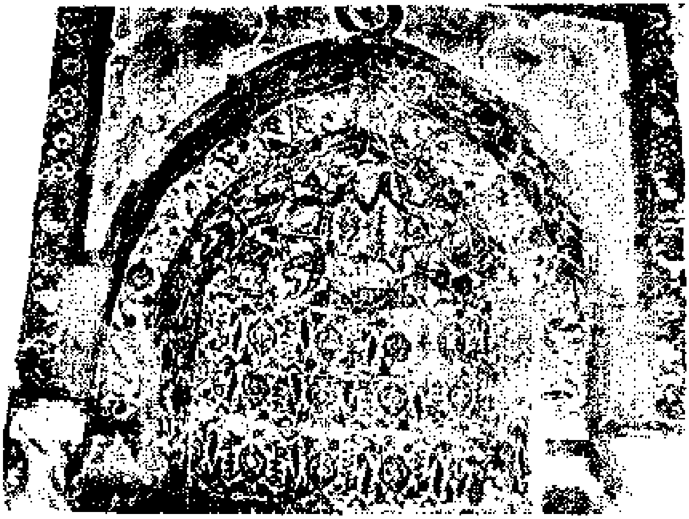
لوحة (١٢٣) العقد الذي يعلو المدخل القديم بمدرسة جنبلاط



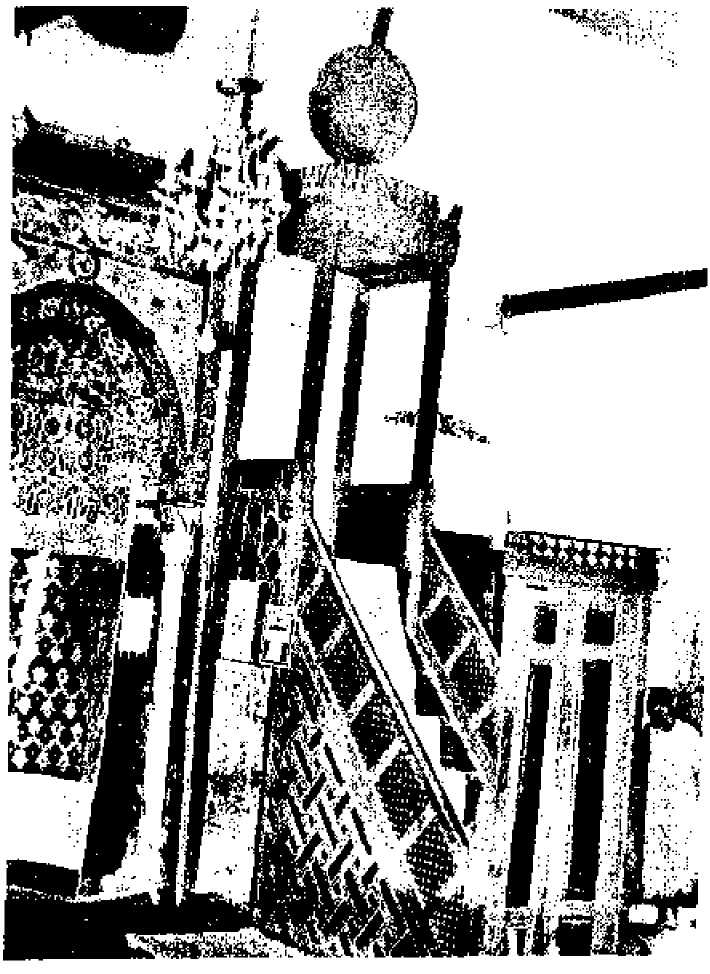
لوحة (١٢٤) الحنية التي تقع بين المدخل الجديد والسبيل بمدرسة جنبلاط



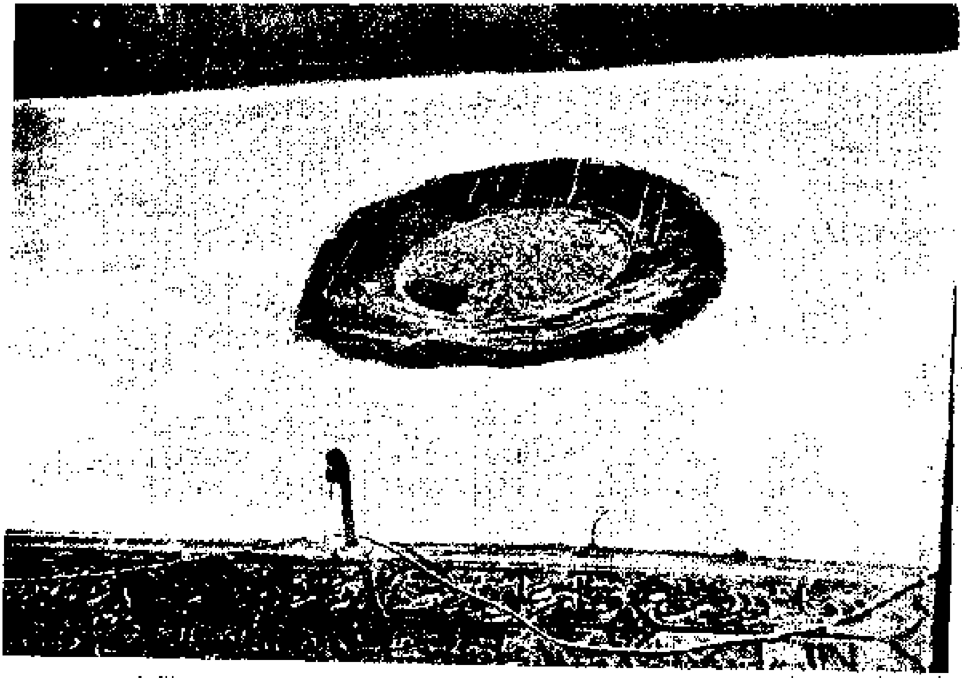
ـــ لوحة (١٢٥) المحراب المجوف بصدر ايوان القبلة بمدرسة جنبلاط



لوحة (١٢٦) البلاطات الخزفية التي تغشى أعلى المحراب بمدرسة جنبلاط



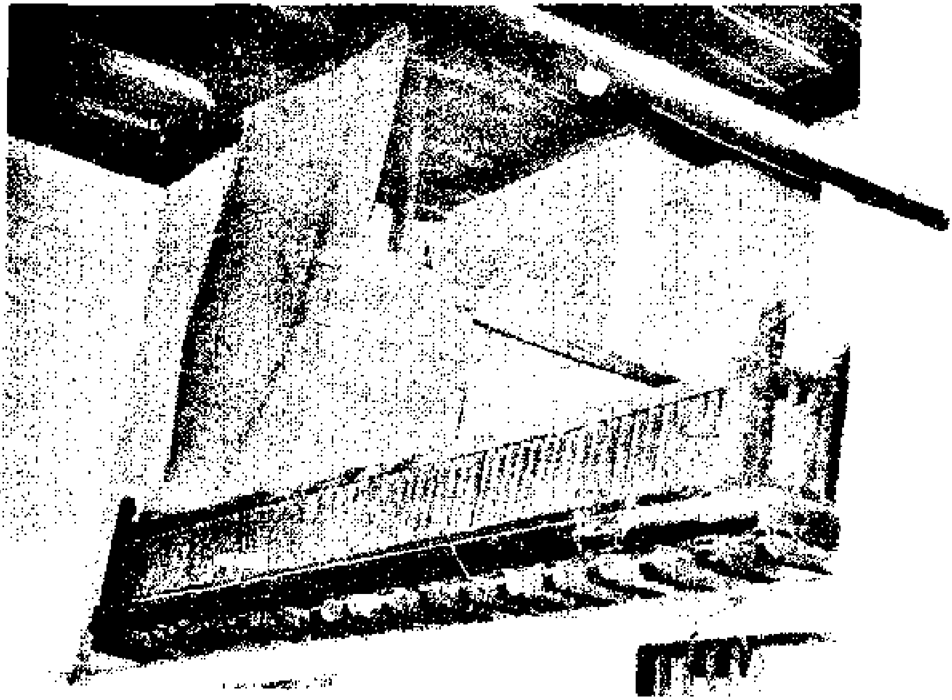
لوحة (١٢٧) المنبر الخشبي الذي يرجع إلى سنة ١٢١٢ بمدرسة جنبلاط



▲ لوحة (١٢٨) النافذة المستديرة التي تعلو المحراب وهي مملوءة بالجص المعشق بالزجاج الملون وترجع إلى عهد ابن طولون في القرن التاسع للهجرة

لوحة (١٢٩) وزرة خشبية عريضة تعلو محراب مدرسة جنبلاط سجل عليها تاريخ التجديد باسم الأمير علي أغا كتخدا الجاويشية سنة ١٢١٠ هـ .
▼

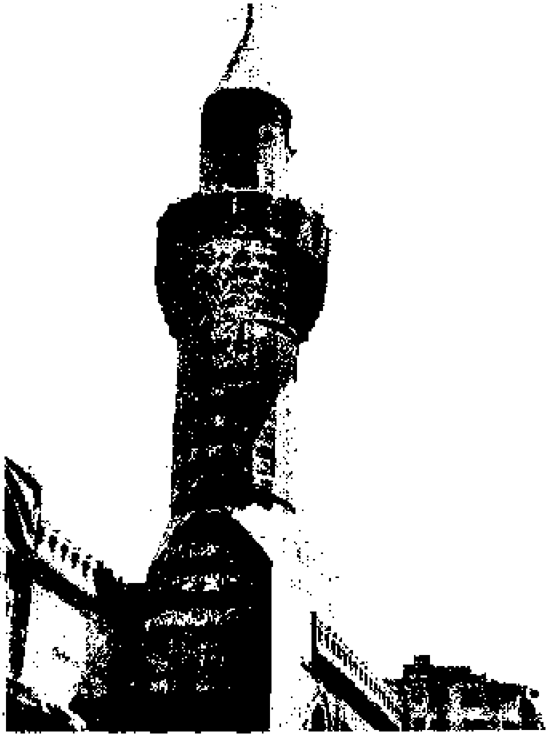




لوحة (١٣٠) دكة المبلغ بالإيوان الشمالي الغربي المقابلة لإيوان القبلة

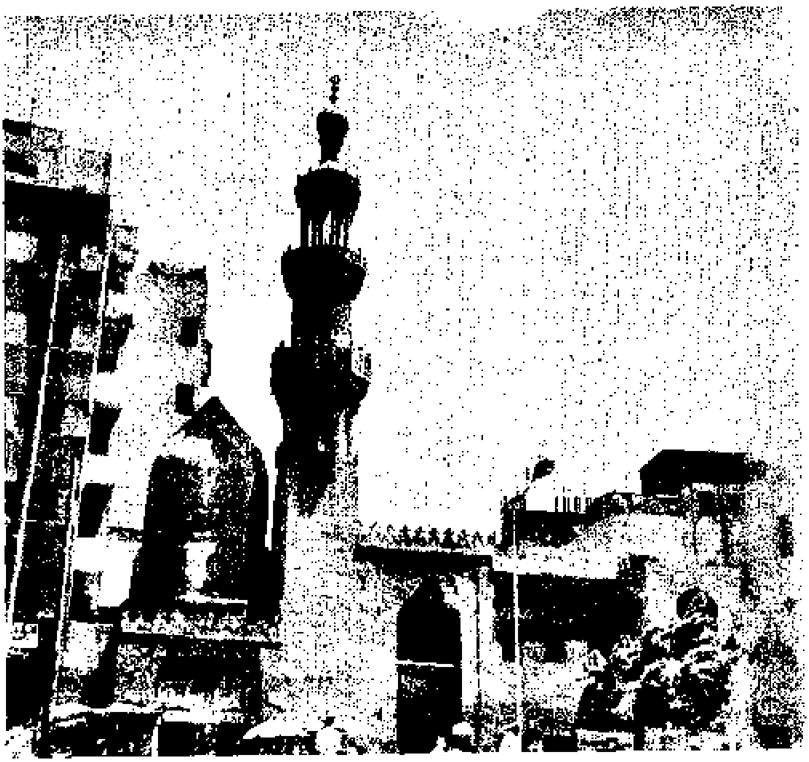
لوحة (١٣١) مدفن الشيخ محمد بن قرقاس بإيوان القبلة





لوحة (١٣٢) المئذنة التي تعلو الواجهة الرئيسية بمدرسة جنبلاط

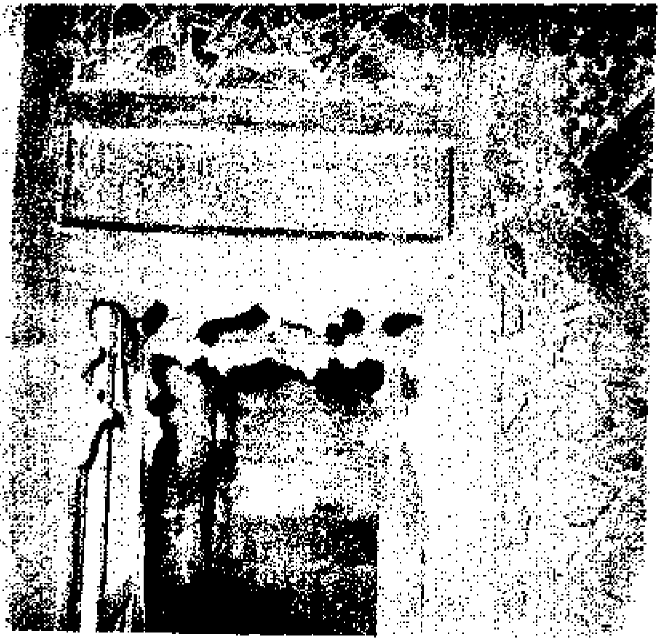
لوحة (١٣٣) الواجهة الرئيسية لمسجد تمراز الأحمدي - ميدان السيدة زينب





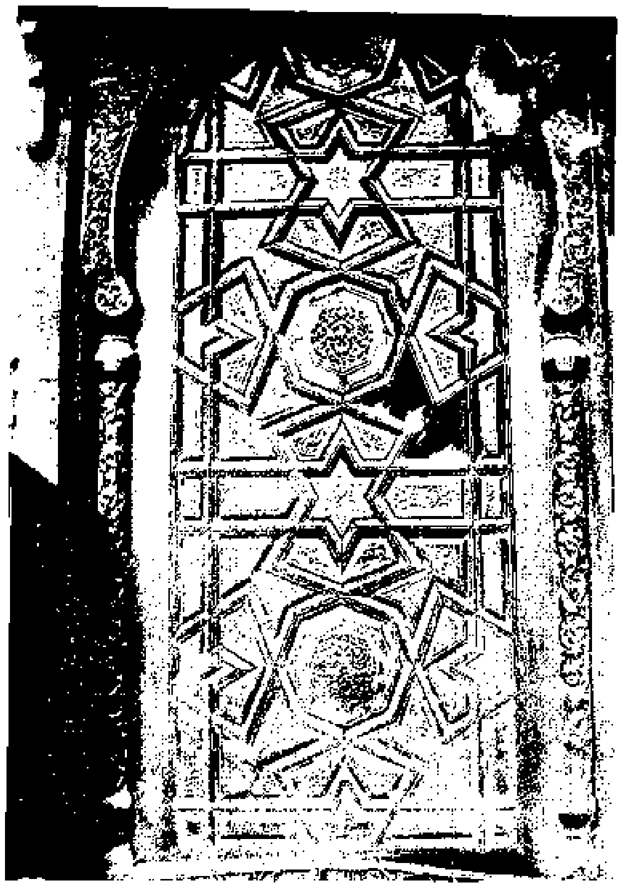
لوحة (١٣٤) تركيبة من الرخام داخل مسجد تمراز



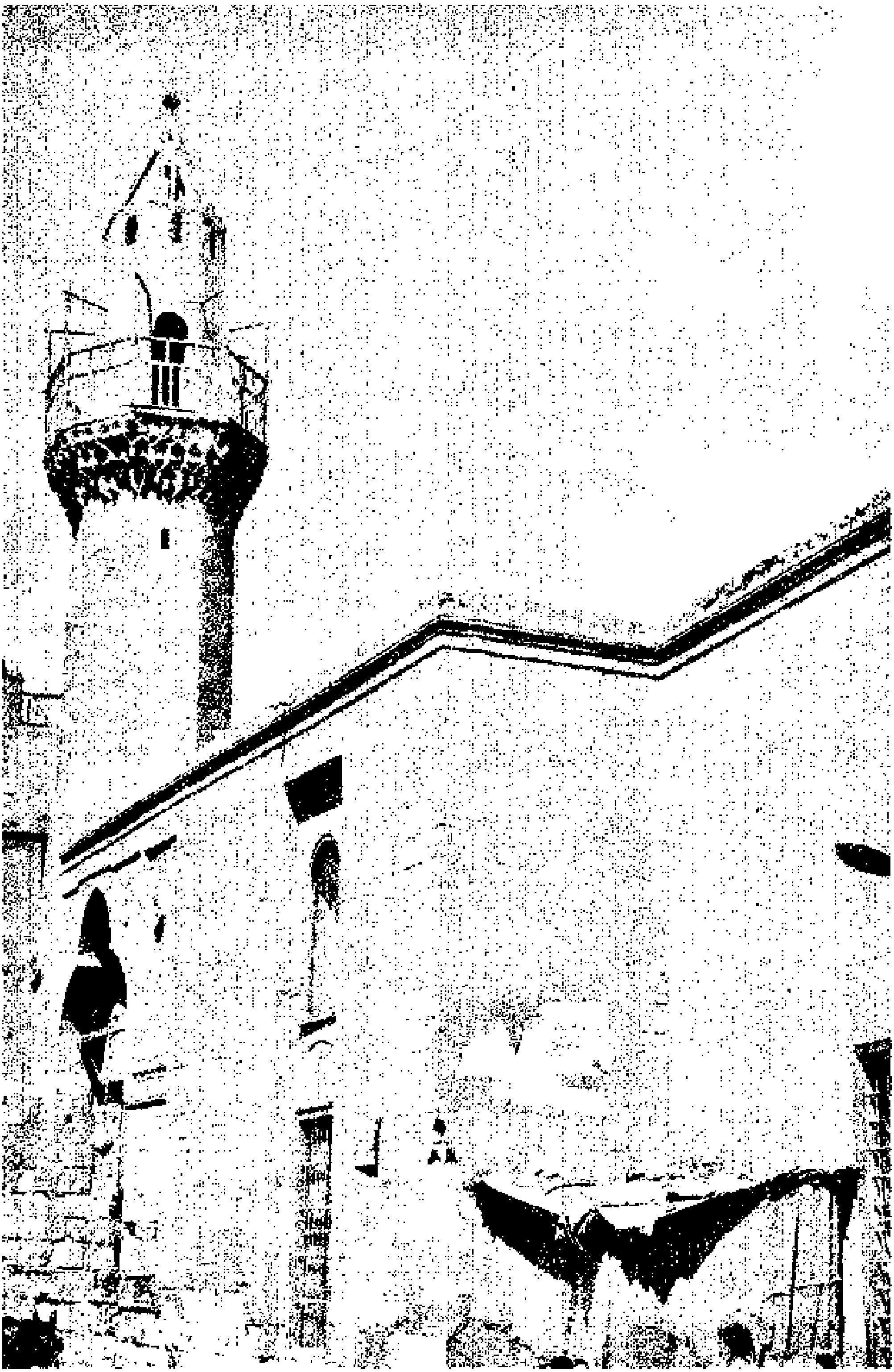


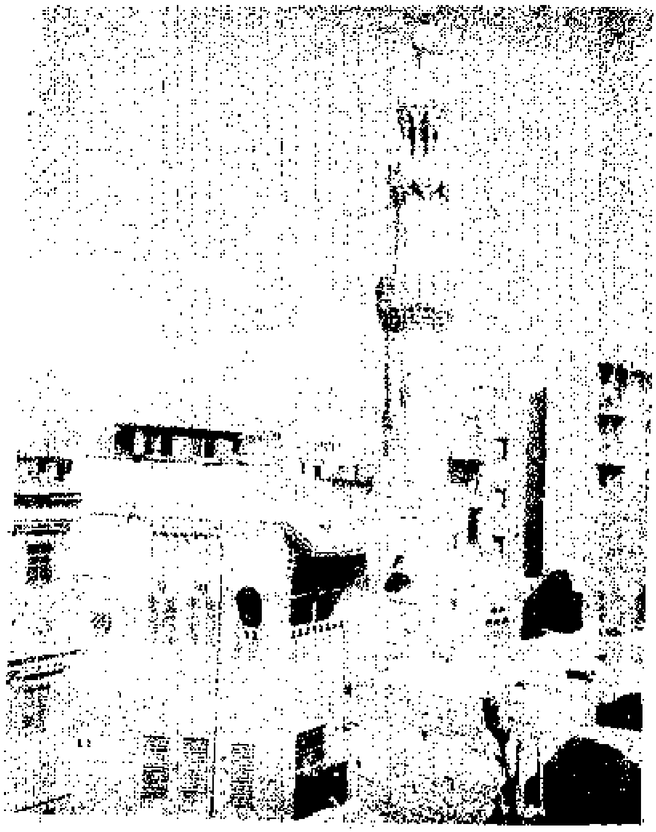
لوحة (١٣٥) باب منبر مسجد تمراز

لوحة (١٣٦) ظهر جلسة الخطيب
بمسجد أبو بكر مزهر



لوحة (١٣٧) جامع المزهرية
بشارع البغالة بحي الحسينية

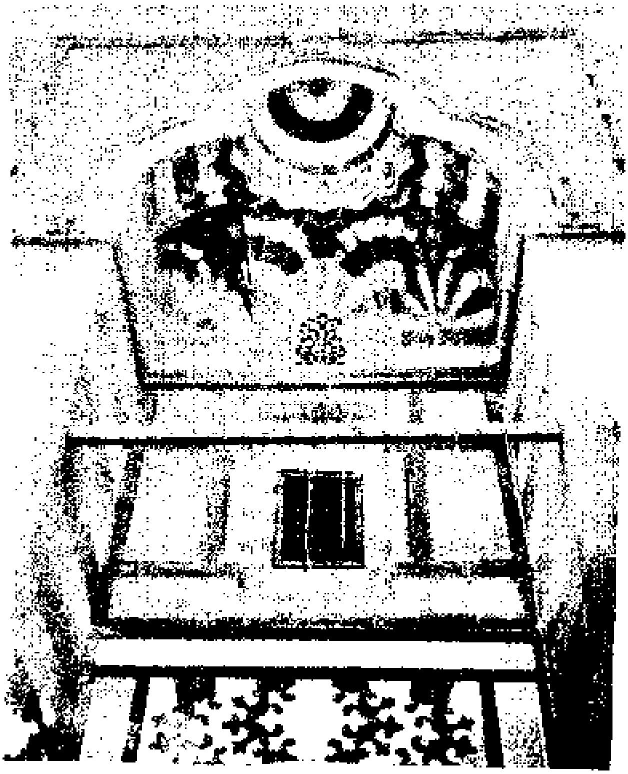




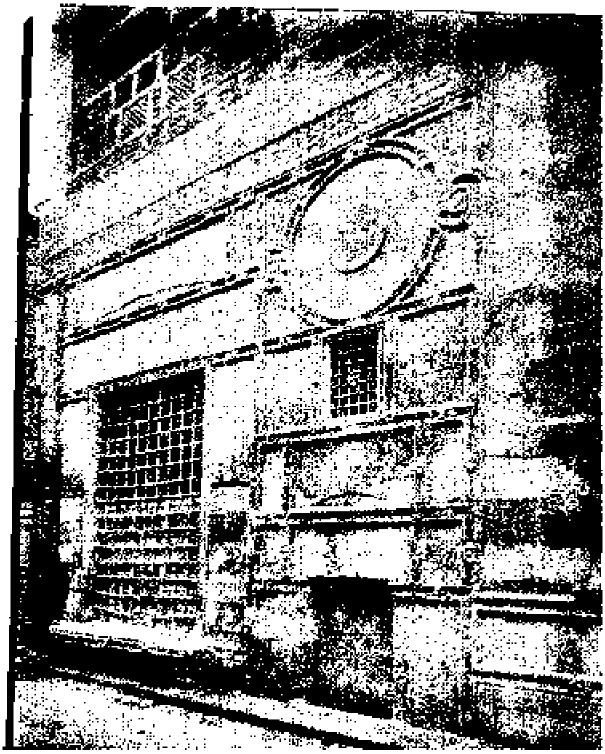
لوحة (١٣٨) مدرسة أزبك اليوسفي بشارع أزبك بحي طولون



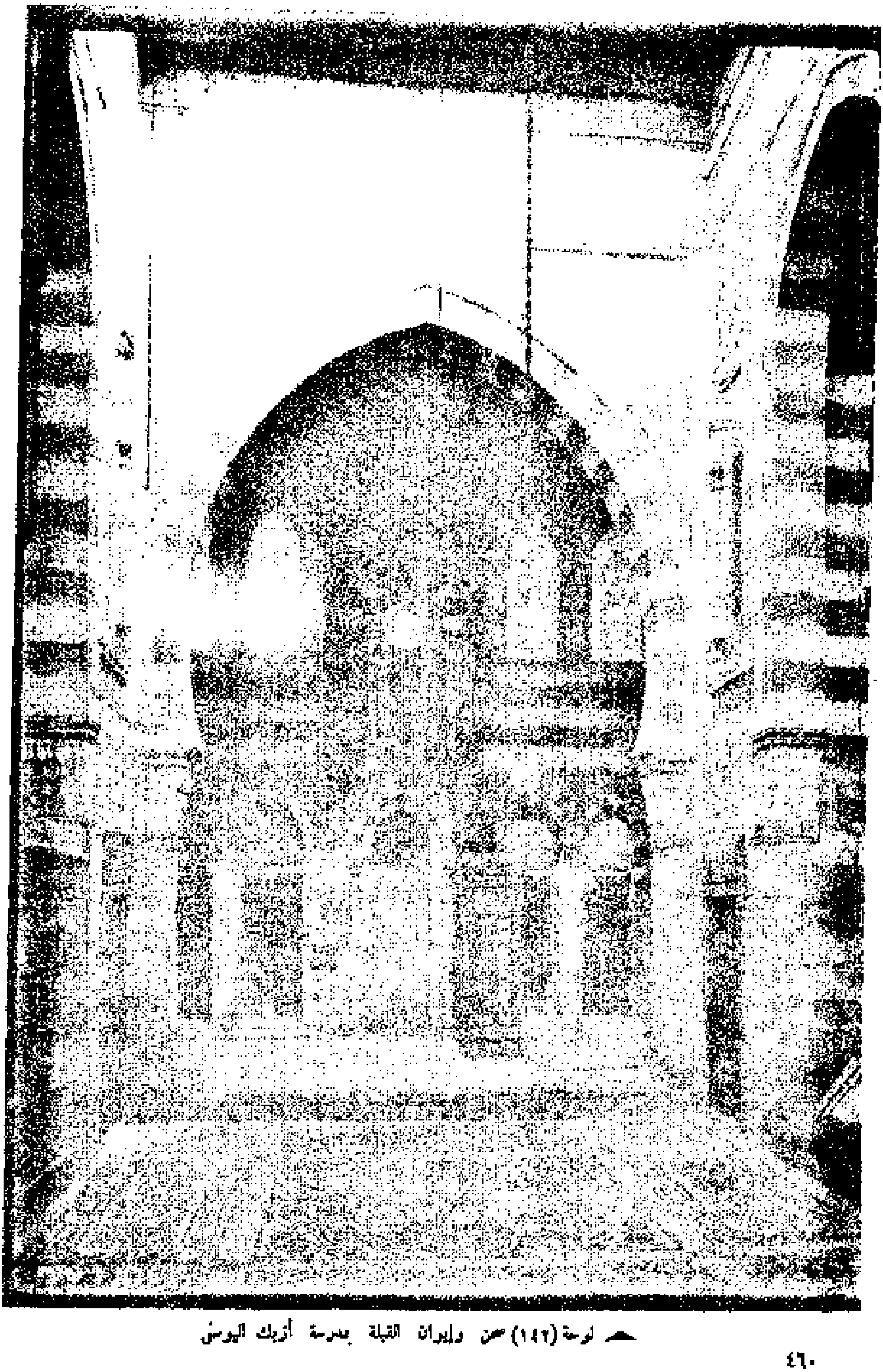
لوحة (١٣٩) الواجهة الرئيسية لمدرسة أزبك التي تشغل الضلع الشمالي للمدرسة



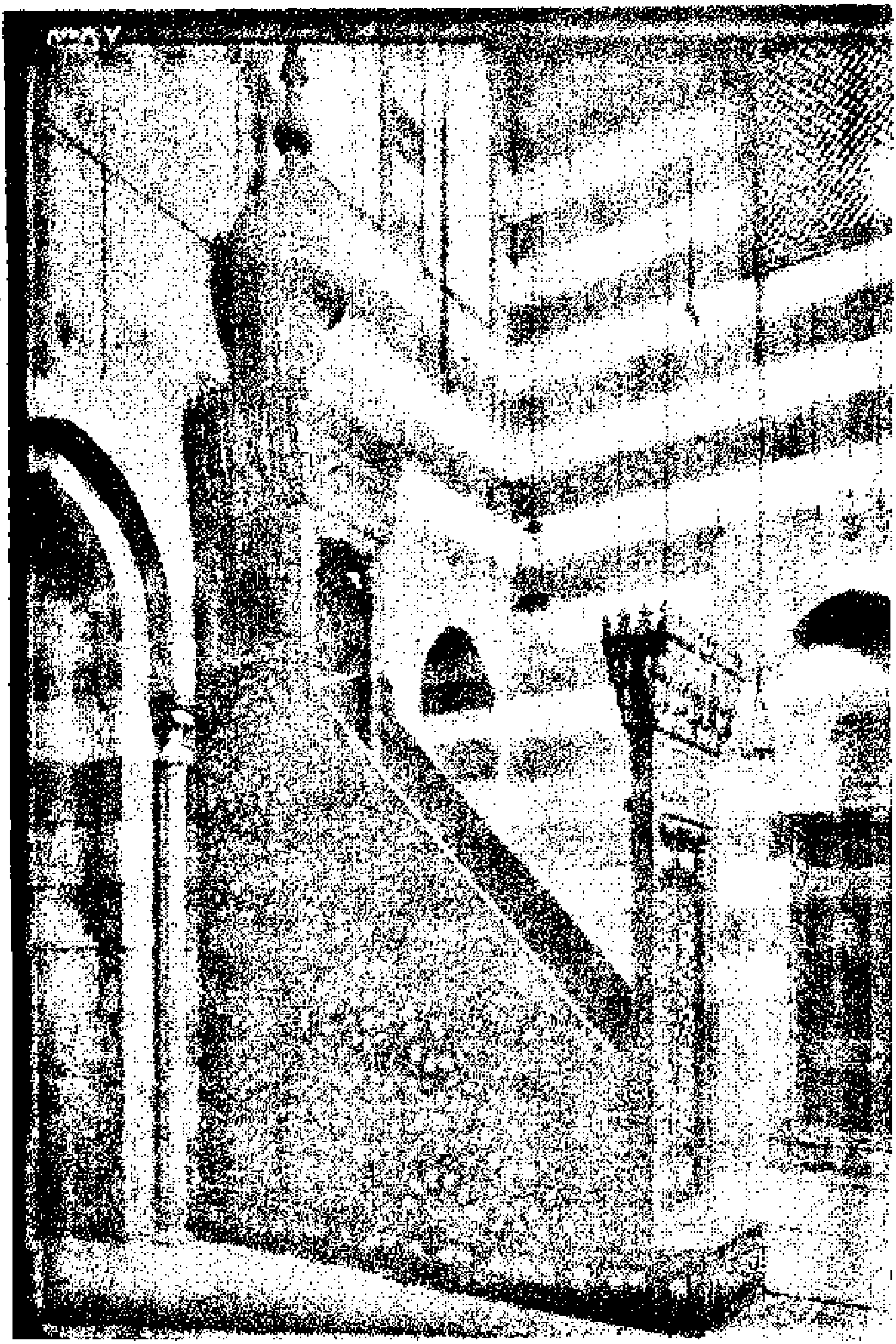
لوحة (١٤٠) الطاقية التي تتوج حنية المدخل الرئيسي لمدرسة أزبك اليوسفي



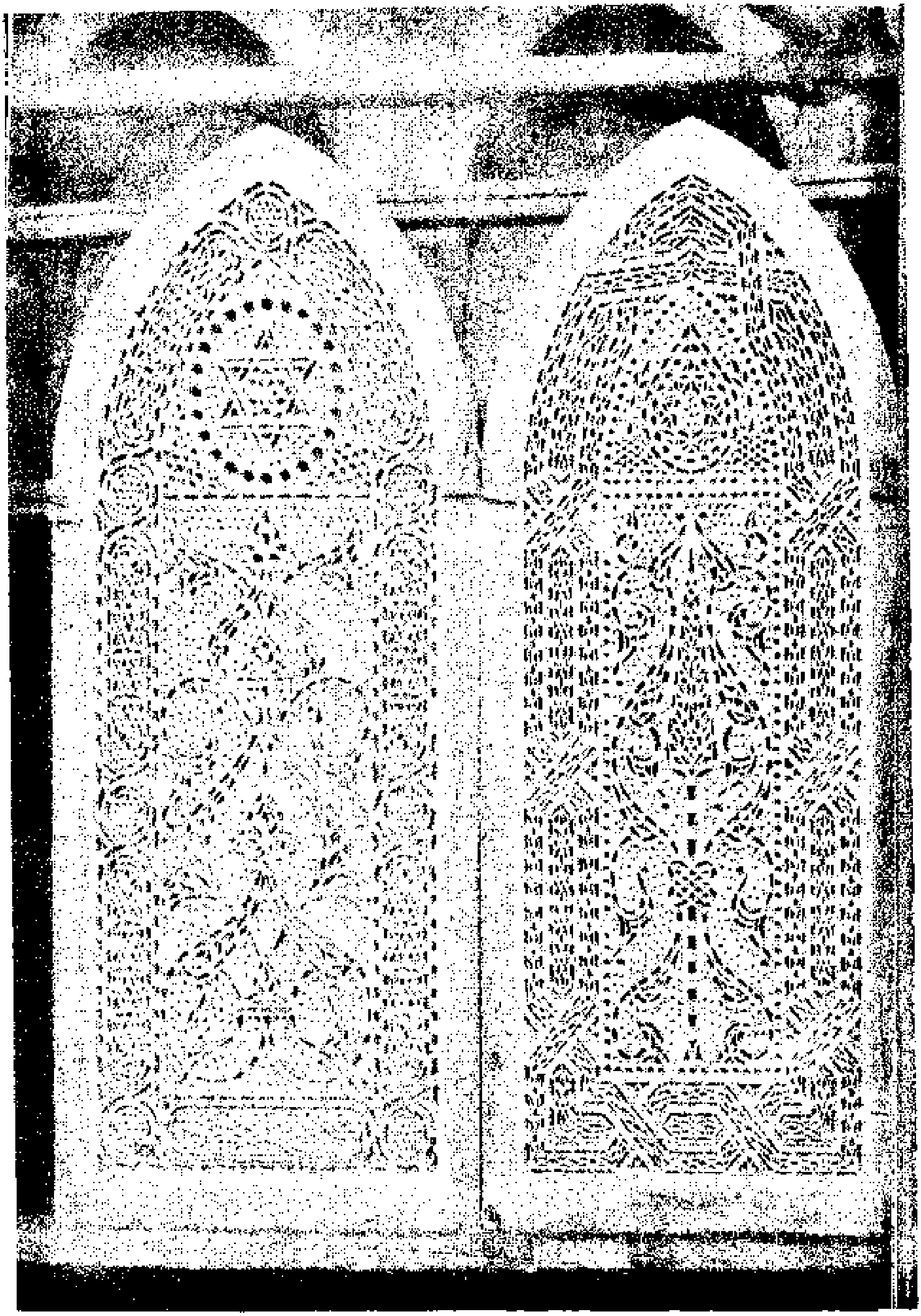
لوحة (١٤١) مدخل السبيل والكتاب الملحق بمدرسة أزبك اليوسفي



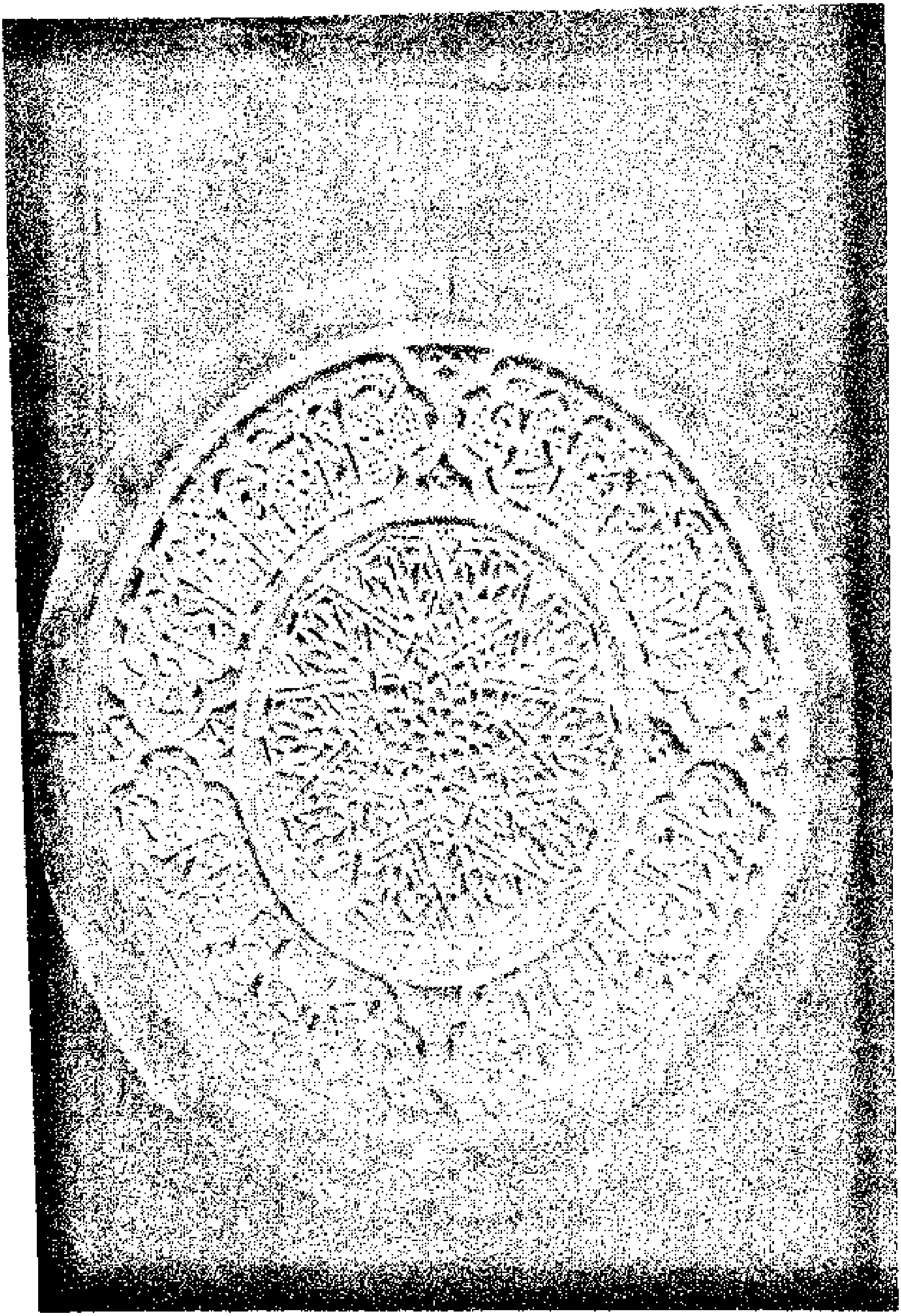
لوحة (١٤٢) صحن وإيوان القبلة بمدرسة أزبك اليوسفي



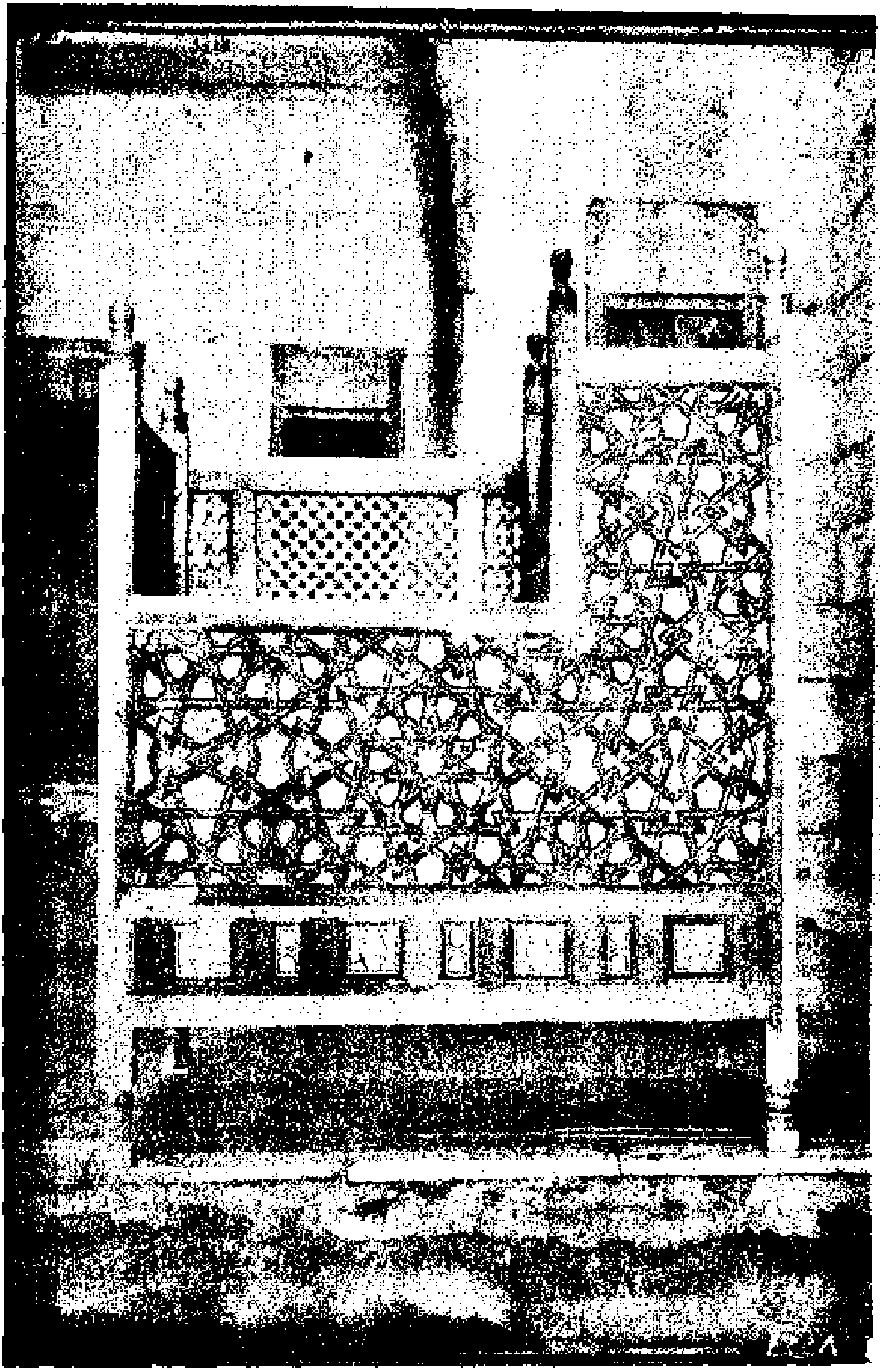
لوحة (١٤٣) المحراب والمنبر فى صدر إيوان القبلة بمدرسة أزبك



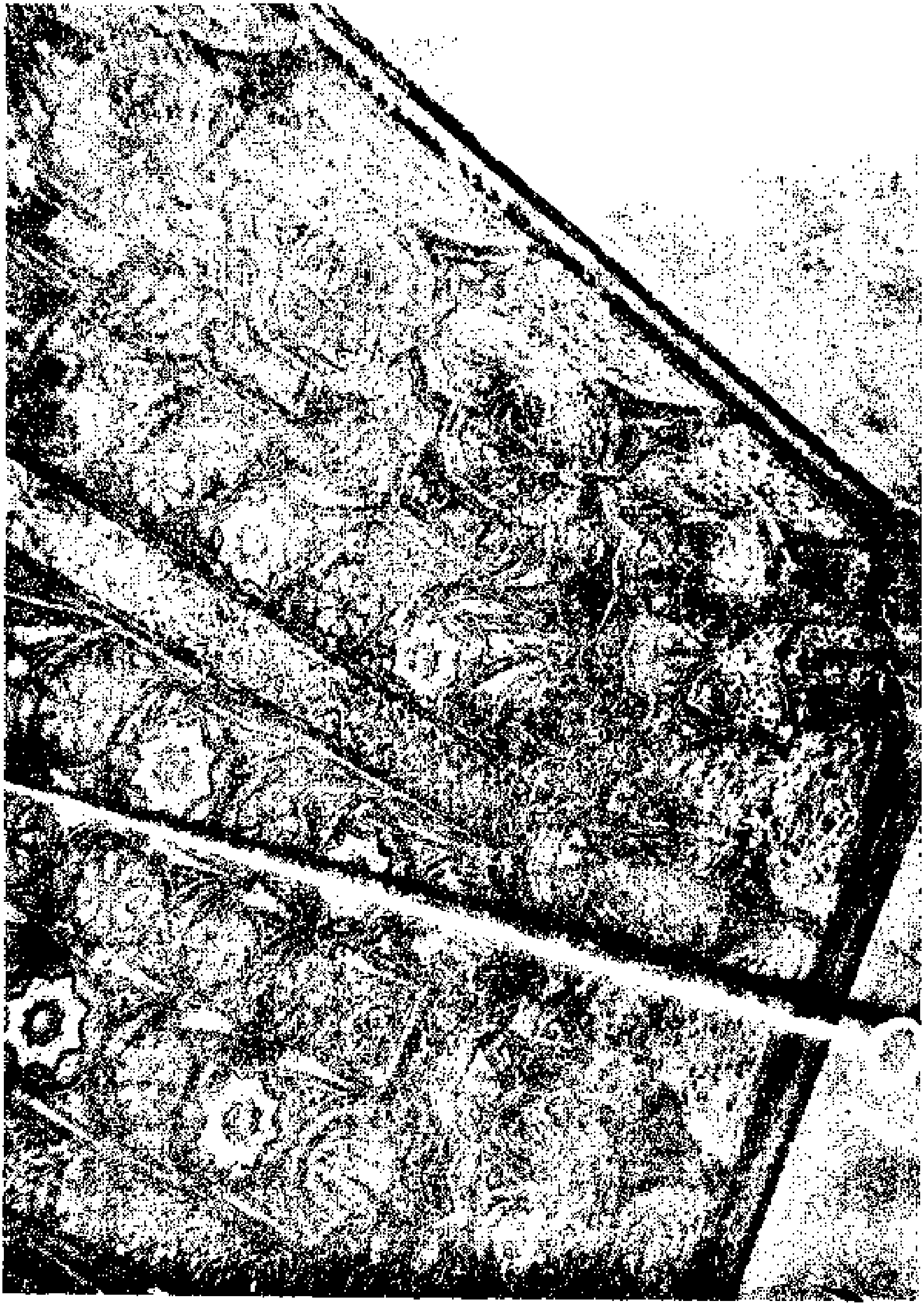
▲ لوحة (١٤٤) نافذة قنديلية مفرغة بالجص المعشق بالزجاج الملون بحائط القبلة بمدرسة أزبك



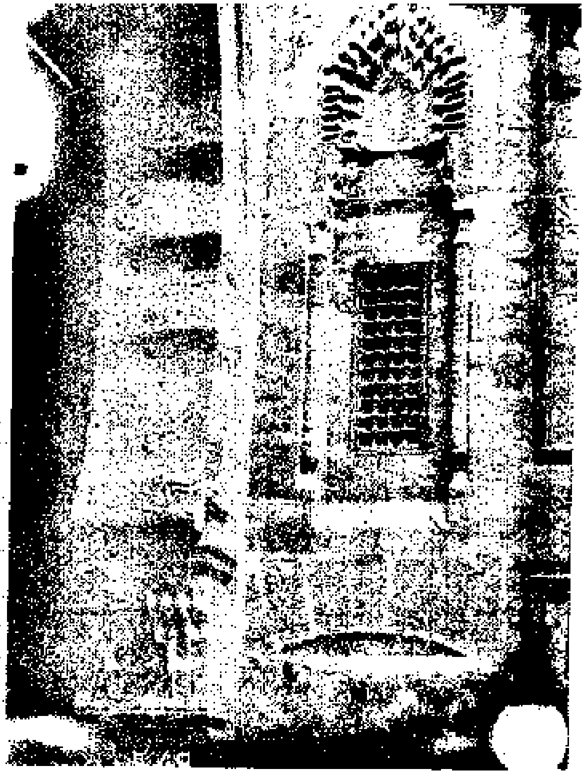
لوحة (١٤٥) النافذة المستديرة (قمرية) التي تعلو المحراب قد ملئت بالجص المشق بالزجاج الملون



لوحة (١٤٦) كرسي المصحف بإيوان القبلة بمدرسة أزبك اليوسفي



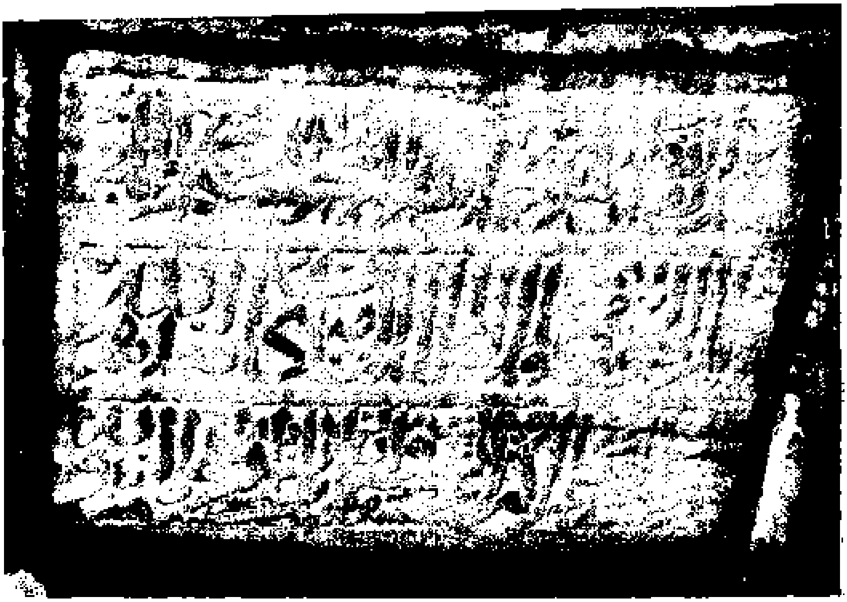
⟵ لوحة (١٤٧) سقف إيوان القبلة بمدرسة أزبك اليوسفي



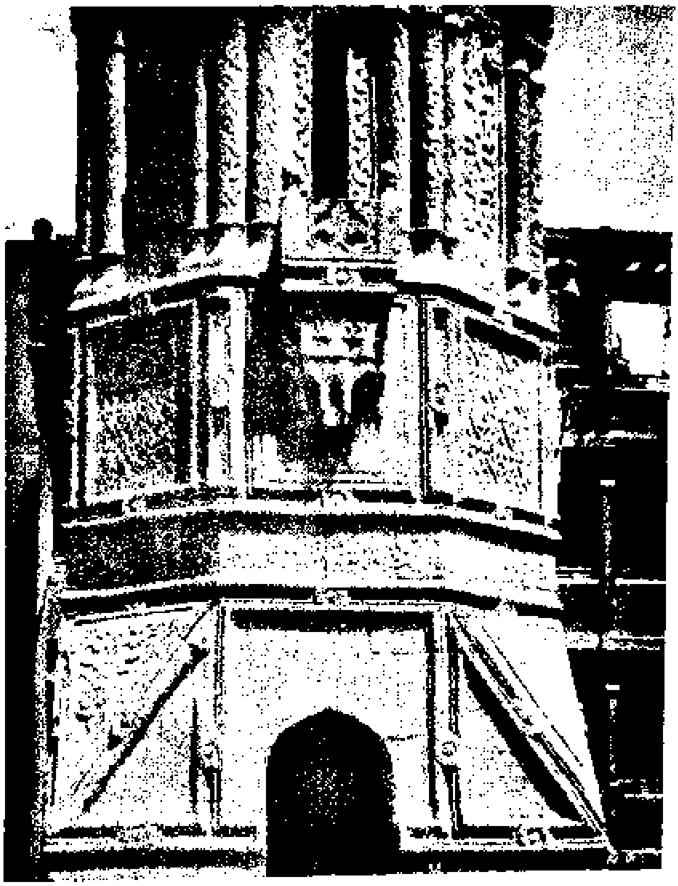
لوحة (١٤٨) الحنية التي تعلو أحد أبواب الصحن يتوجها العقد المكثر المفصص بمدرسة أزبك اليوسفي



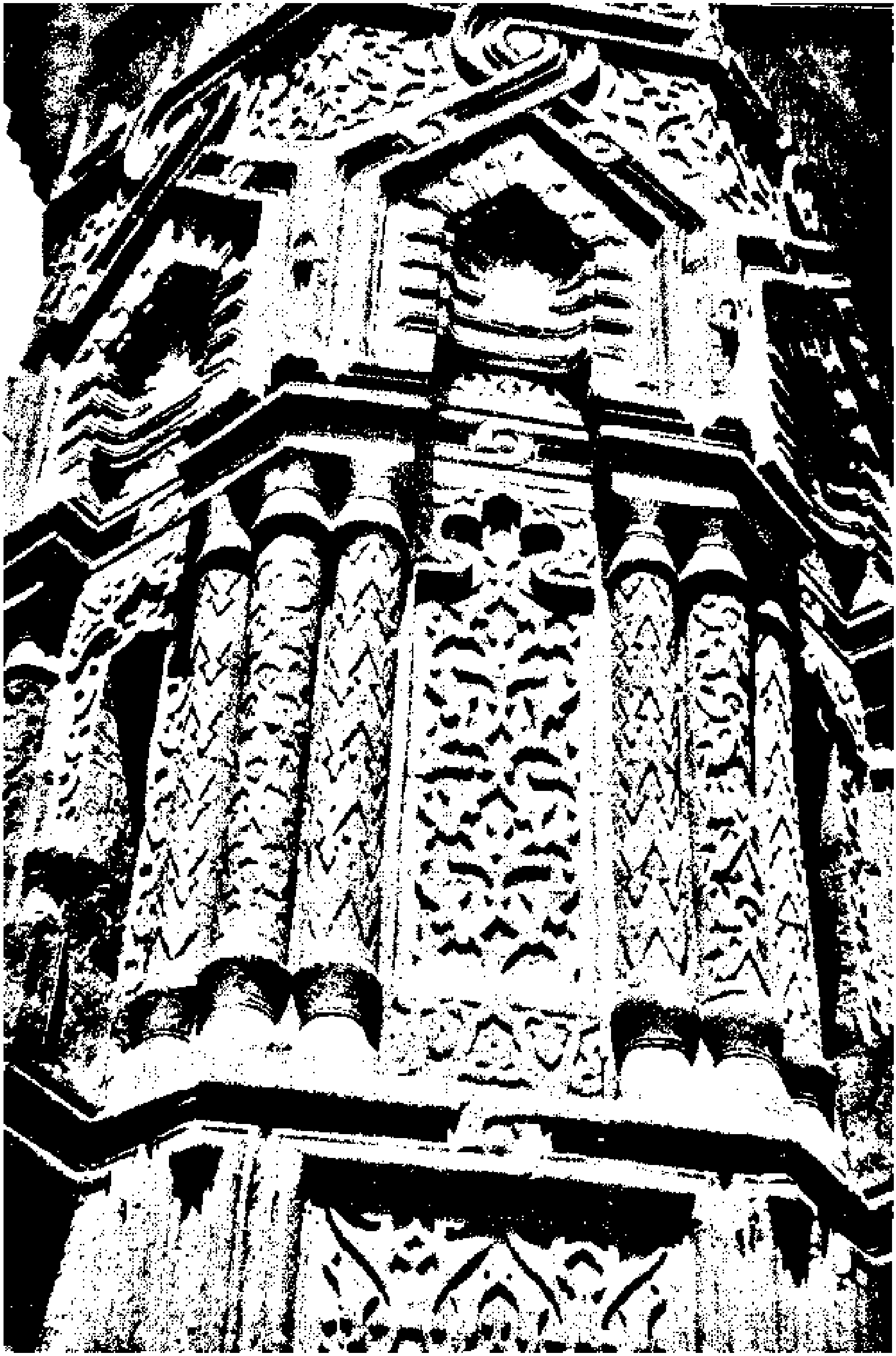
لوحة (١٤٩) الإيوان الغربي بمدرسة أزبك اليوسفي

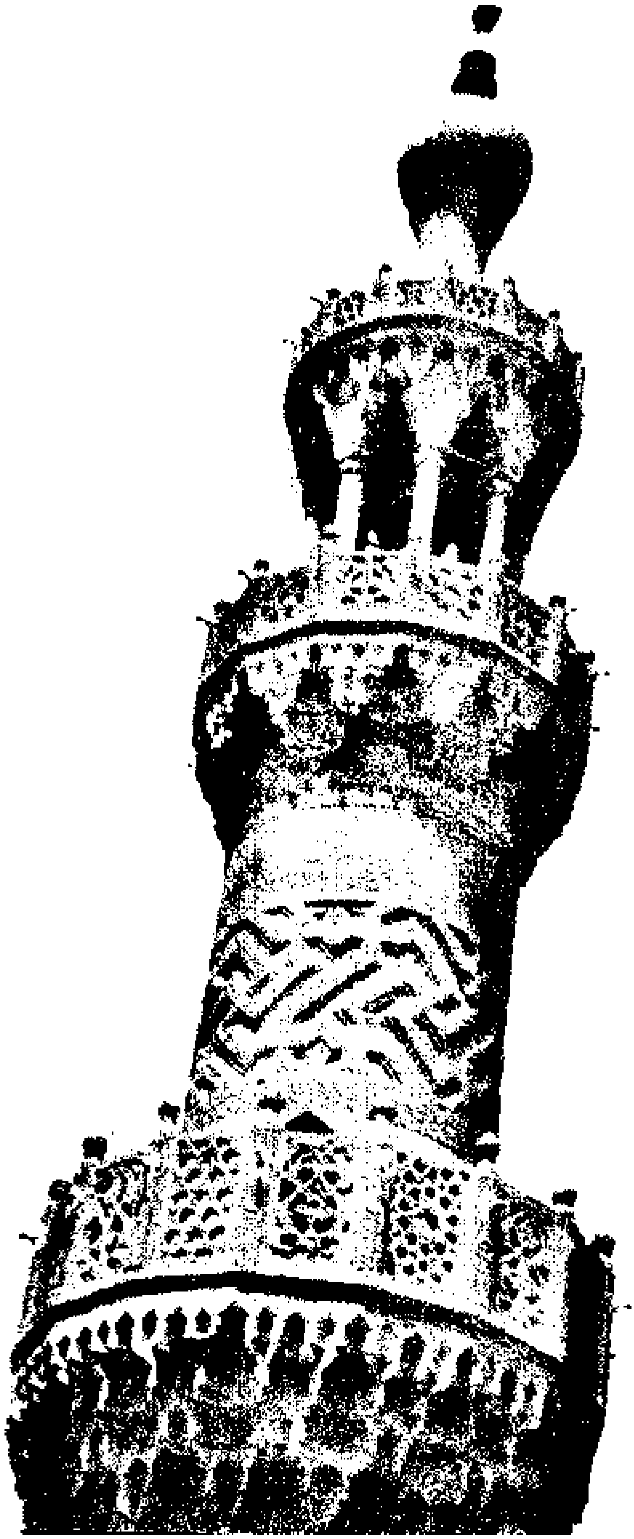


لوحة (١٥٠) اللوحة الكتابية المنقوشة على تركيبة مدفن فرج بن تم ابن زوجة أزبك اليوسفي



لوحة (١٥١) قاعدة مئذنة أزبك اليوسفي





لوحة (١٠٢) تفاصيل
زخرفة الطابق الأول
لمئذنة مدرسة أزبك اليوسفي

لوحة (١٠٣) الطابق ◀
الثاني والثالث لمئذنة
أزبك اليوسفي.

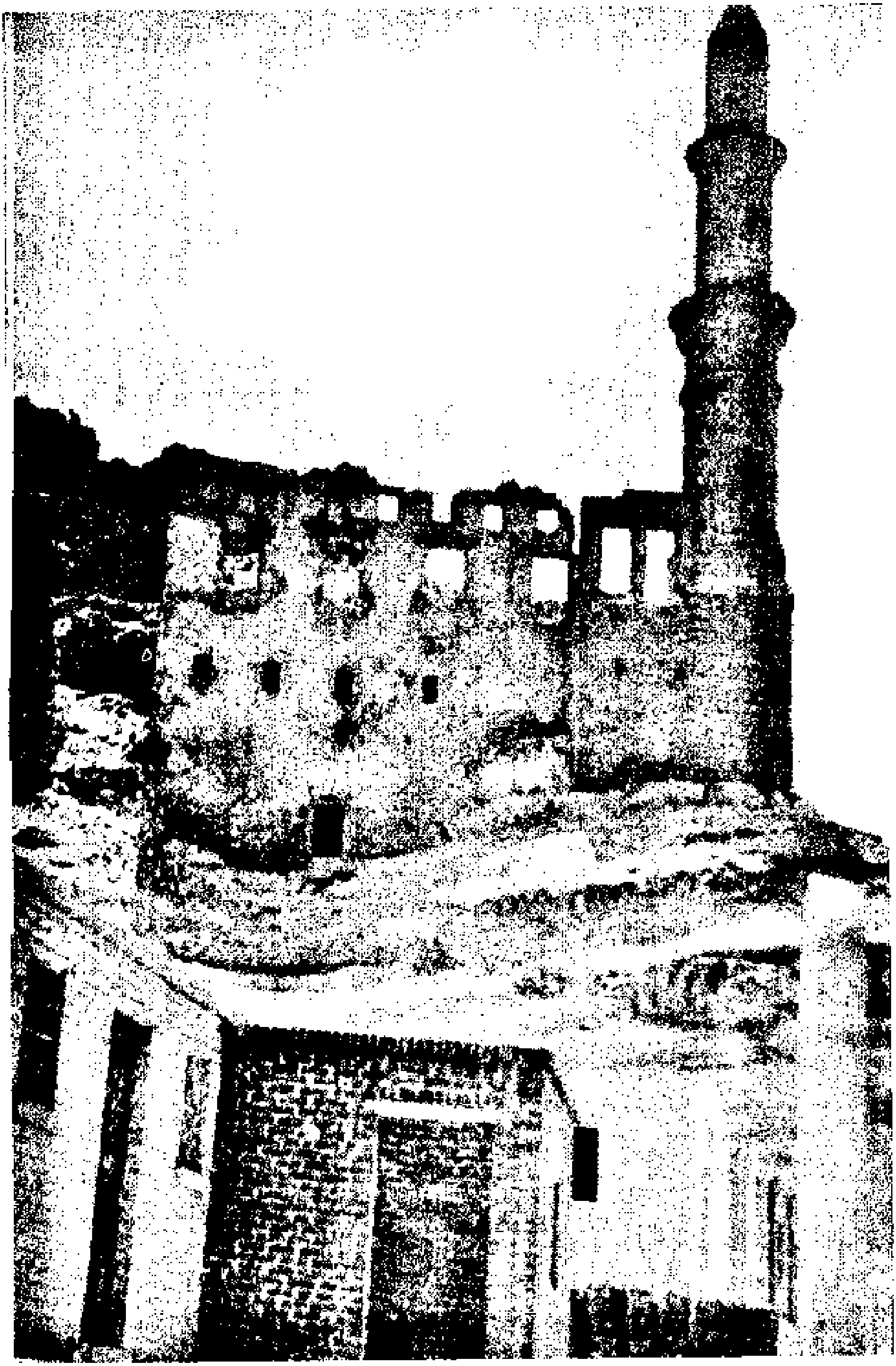


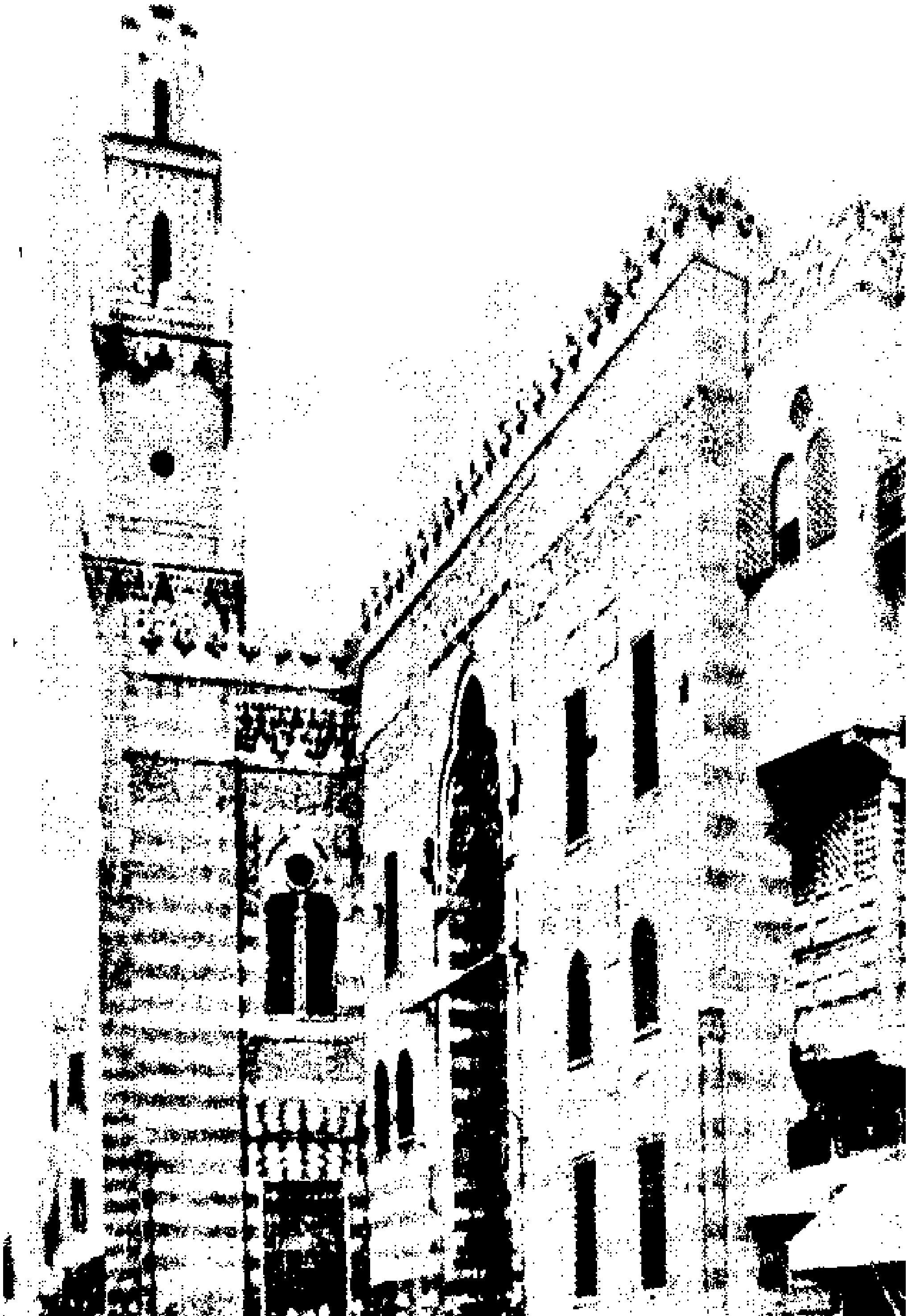
لوحة (١٠٥) جامع الشيخ شاهين الخلوتي بسفح جبل المقطم

لوحة (١٠٦) مئذنة جامع الشيخ شاهين الخلوتي

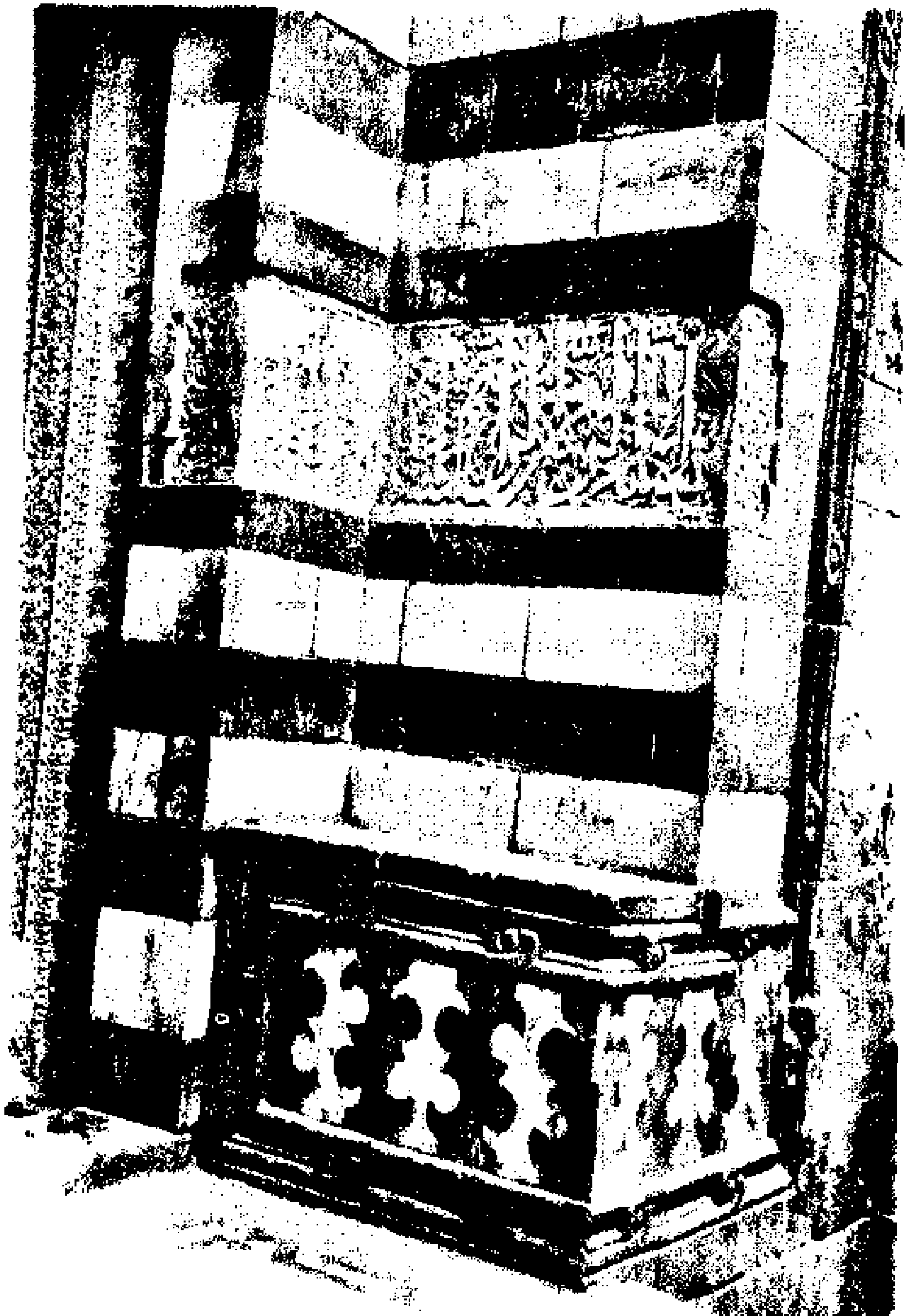
لوحة (١٠٧) القبة الملحقة بجامع الشيخ شاهين الخلوتي



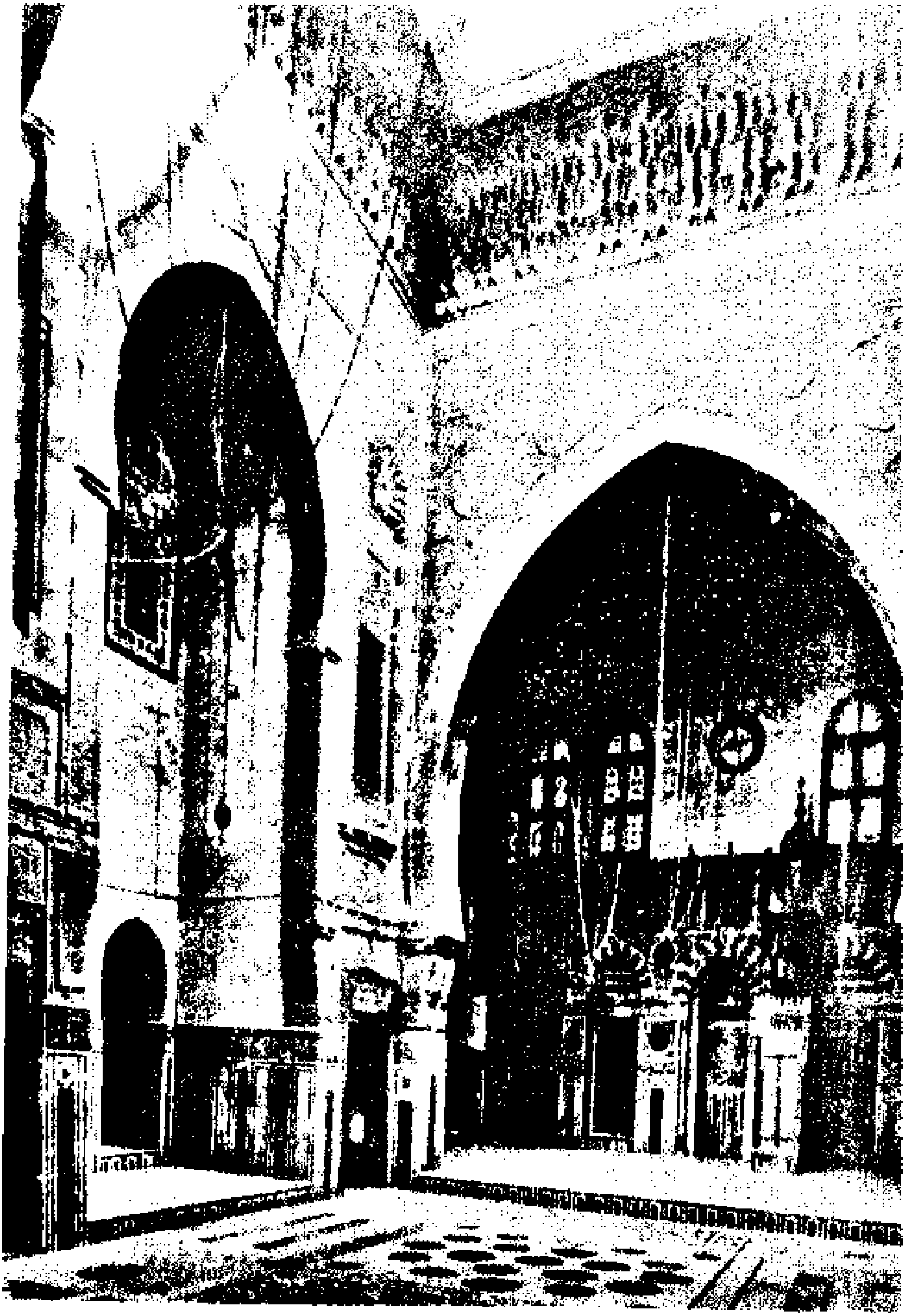




وحة (١٥٧) الواجهة الرئيسية التي تشغل الضلع الشرقي لمدرسة الغوري



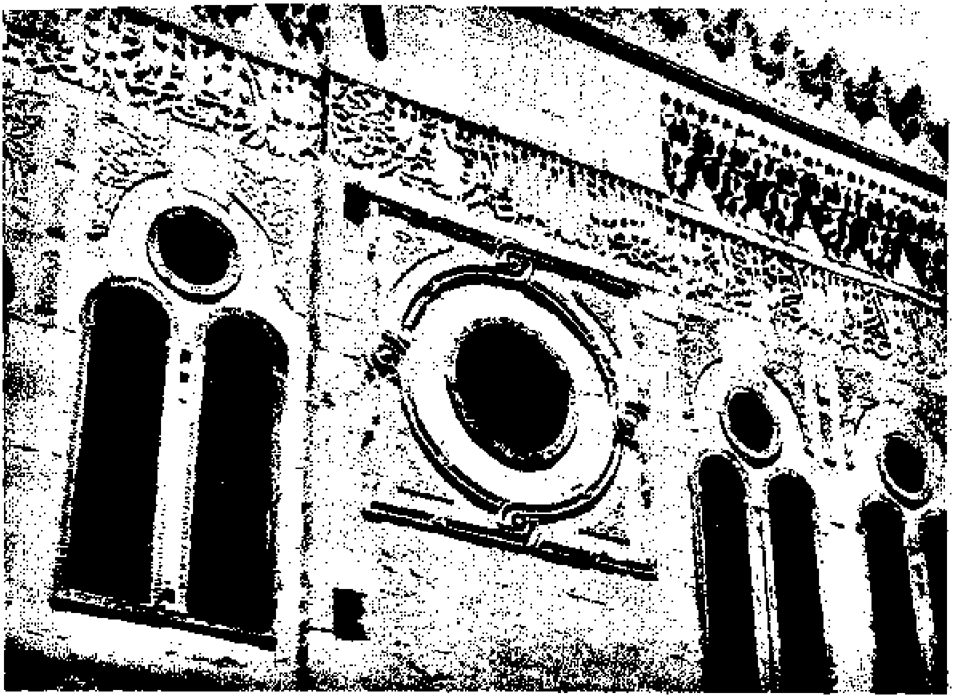
لوحة (١٥٨) المكسلة التي تكتنف المدخل الرئيسي بمدرسة الغوري



لوحة (١٠٩) صحن مدرسة الغوري تحيط به الإيوانات



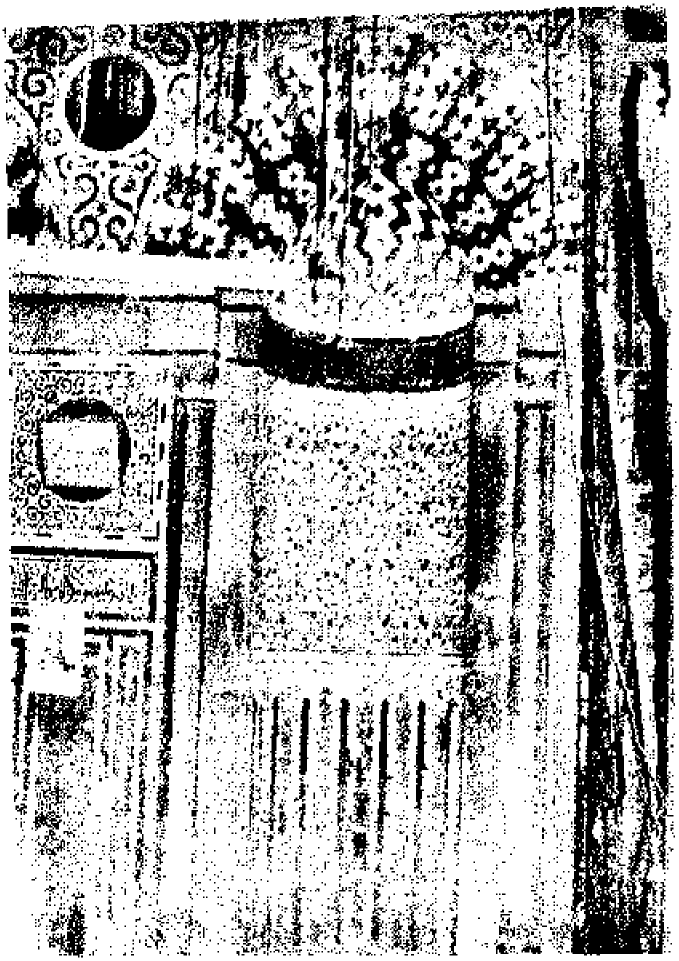
لوحة (١٦٠) أحد أبواب صحن مدرسة الغوري



▲ لوحة (١٦١) واجهة إيوان القبلة بمدرسة الغوري من الخارج

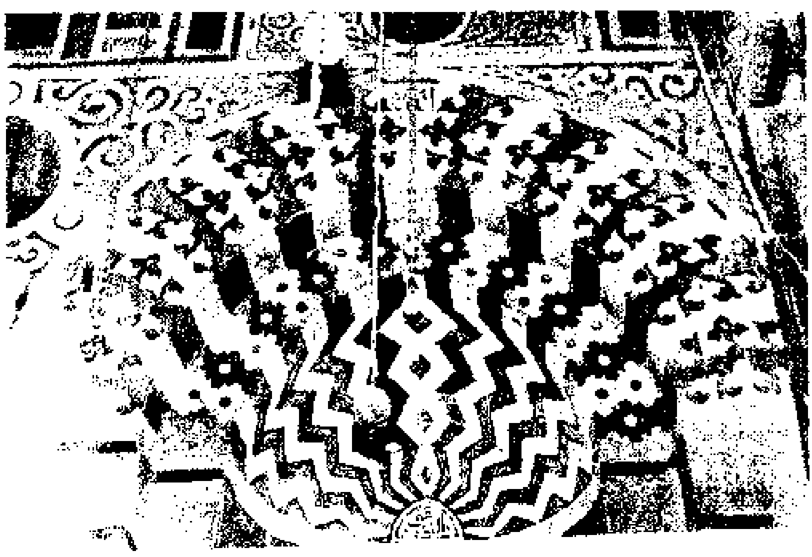
▼ لوحة (١٦٢) إيوان القبلة بمدرسة الغوري

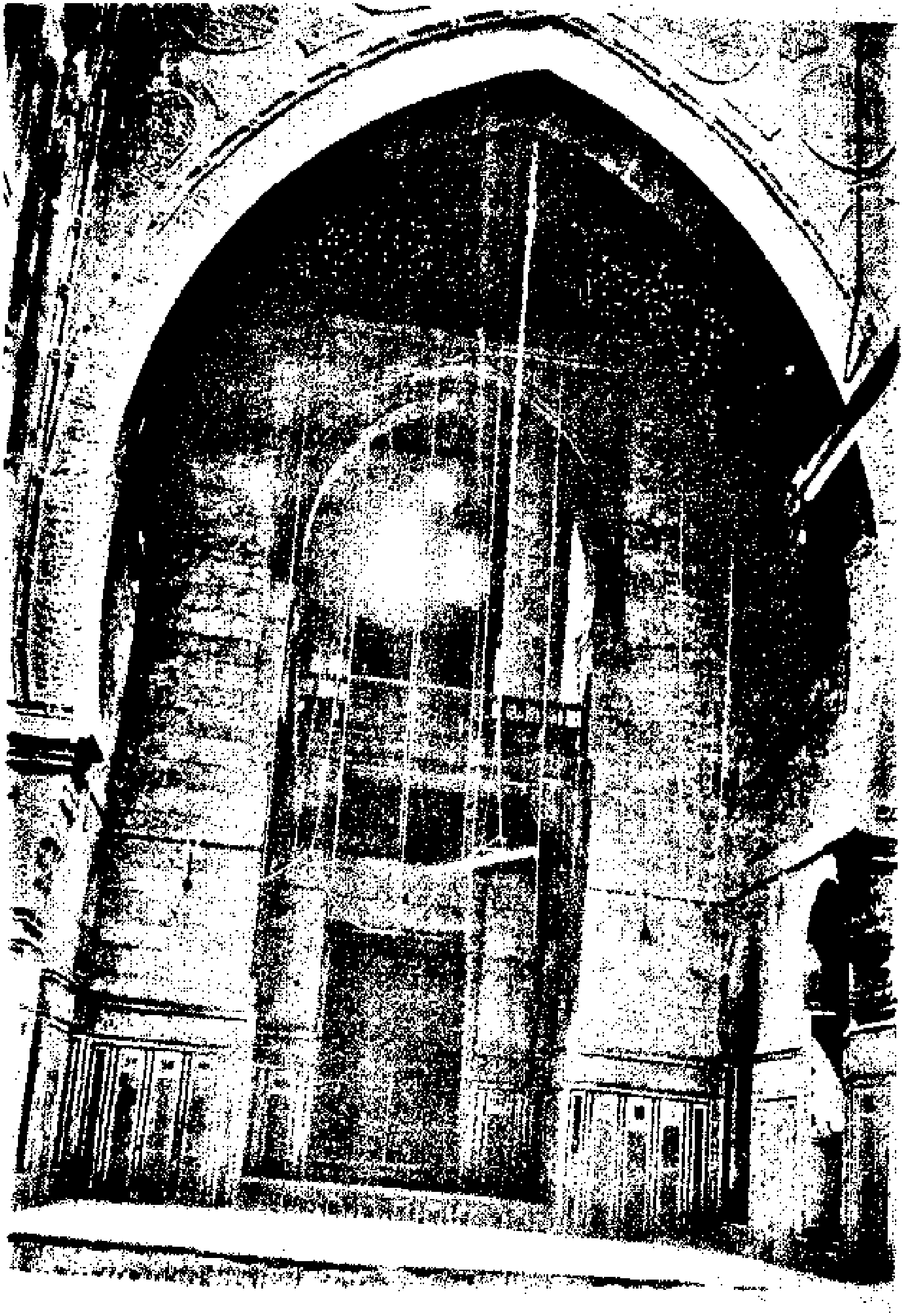




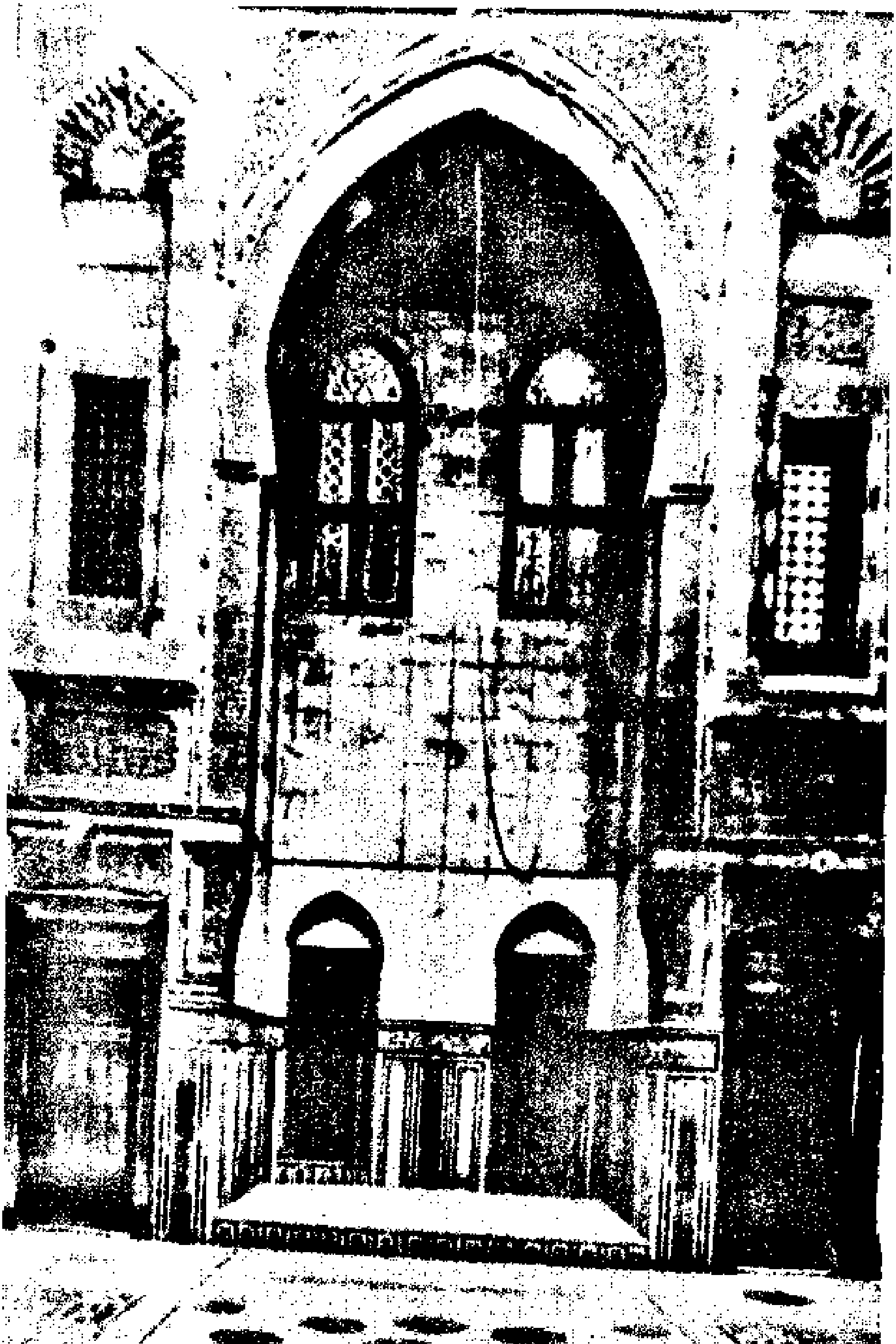
لوحة (١٦٣) محراب مدرسة الغورى ، بصدر إيوان القبلة

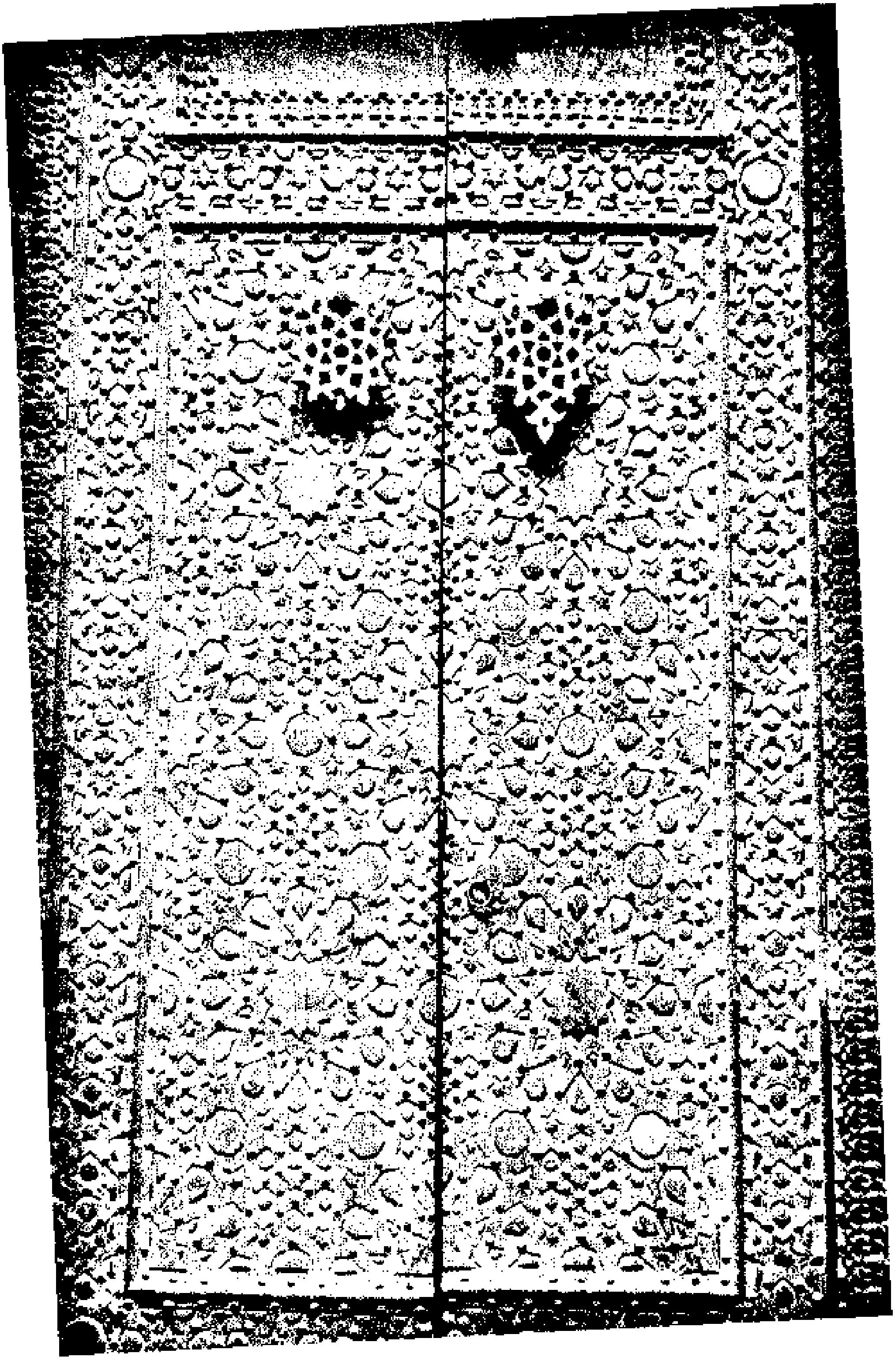
لوحة (١٦٤) تفاصيل محراب مدرسة الغورى



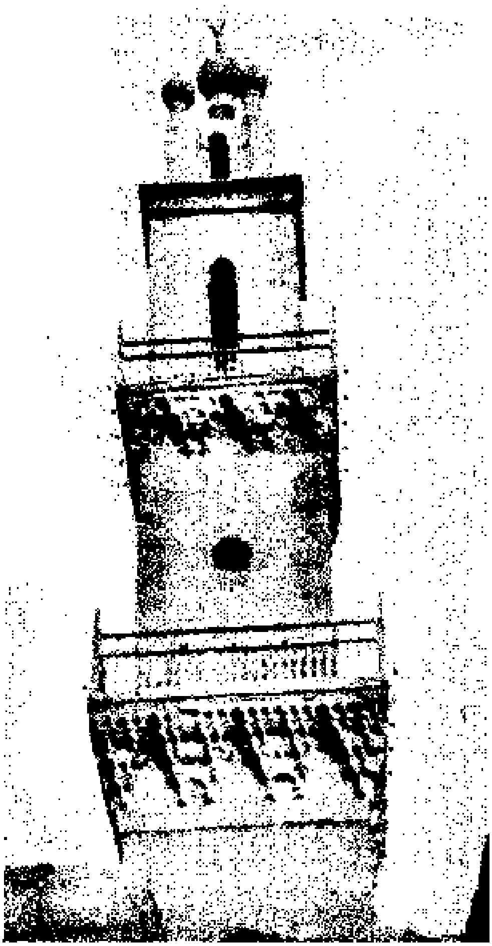


لوحة (١٦٥) الإيوان الغربي بمدرسة الغوري تتصدره دكة المبلغ

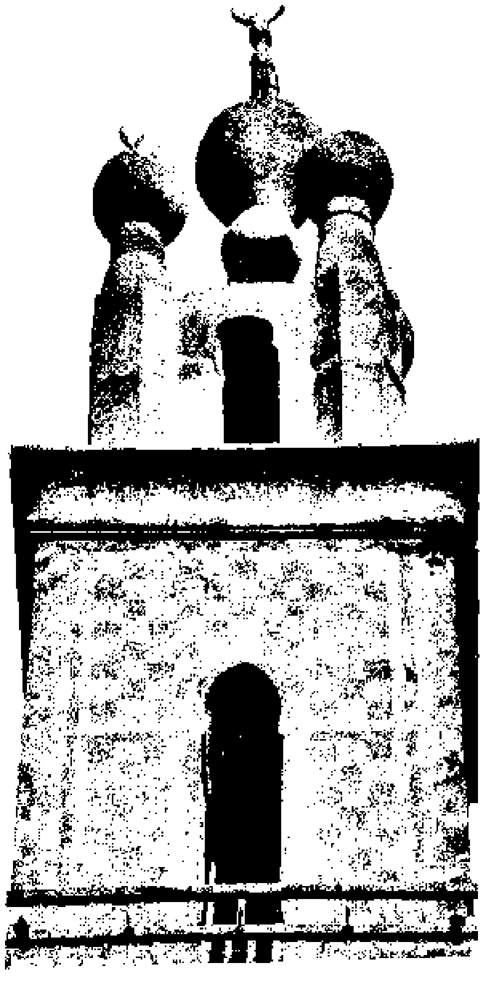




◄ لوحة (١٦٧) باب المدخل الرئيسى لمدرسة الغورى وهو من الخشب المصفح بالنحاس المزخرف برسوم قوامها الطبق النجمى



▲ لوحة (١٦٨) مئذنة مدرسة الغورى



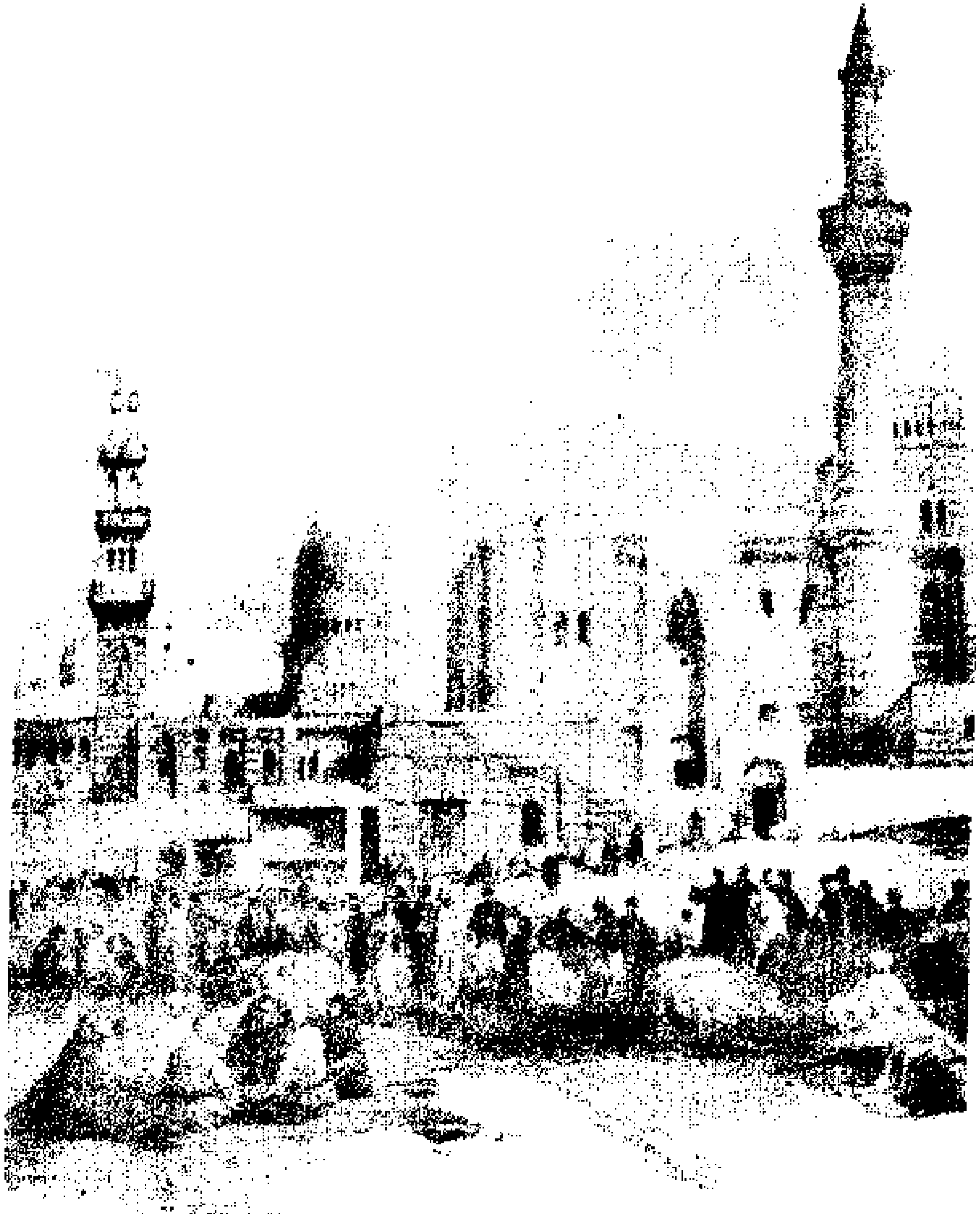
◄ لوحة (١٦٩) الرؤوس الخمسة لمئذنة مدرسة الغورى



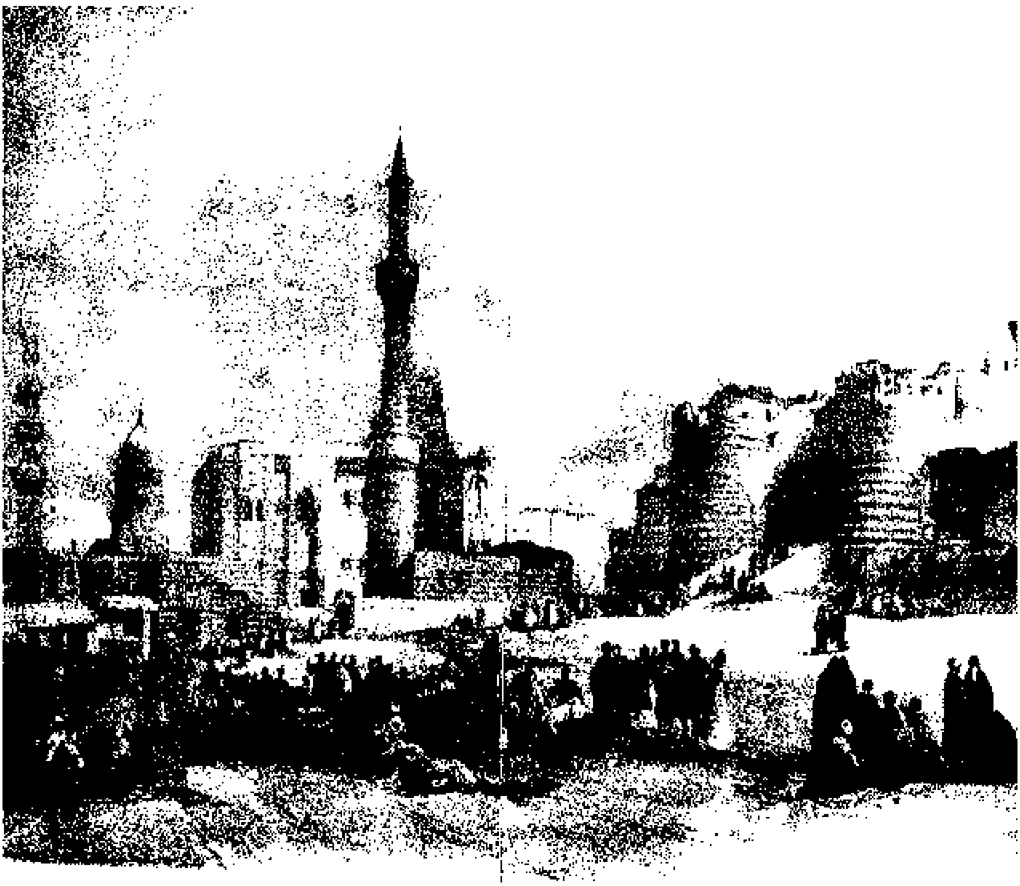
لوحة (١٧٠) رنك
كتابي للسلطان الغوري



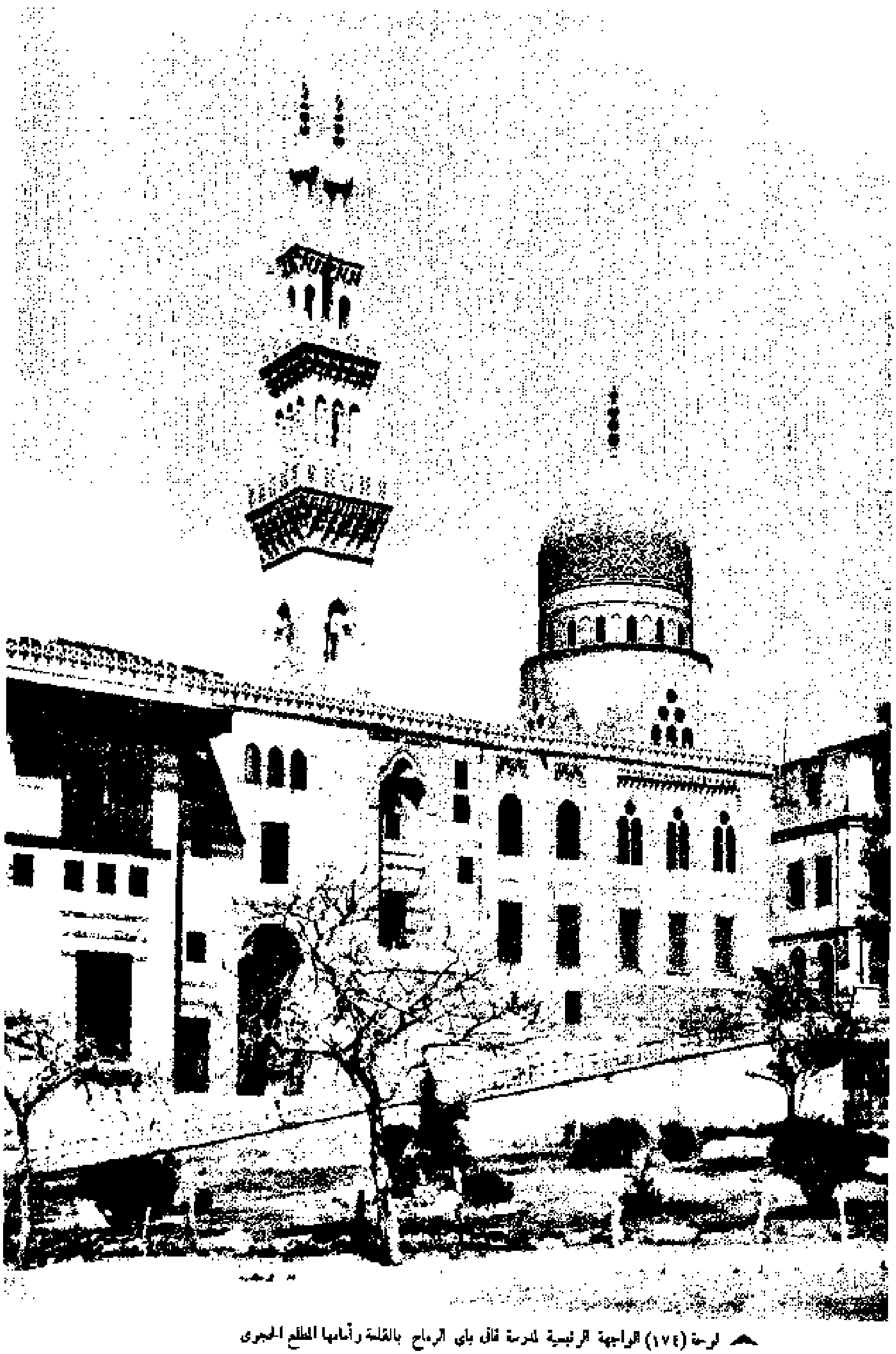
لوحة (١٧١) أحد تنانير الإضاءة
بمدرسة الغوري وهو من النحاس المخرم



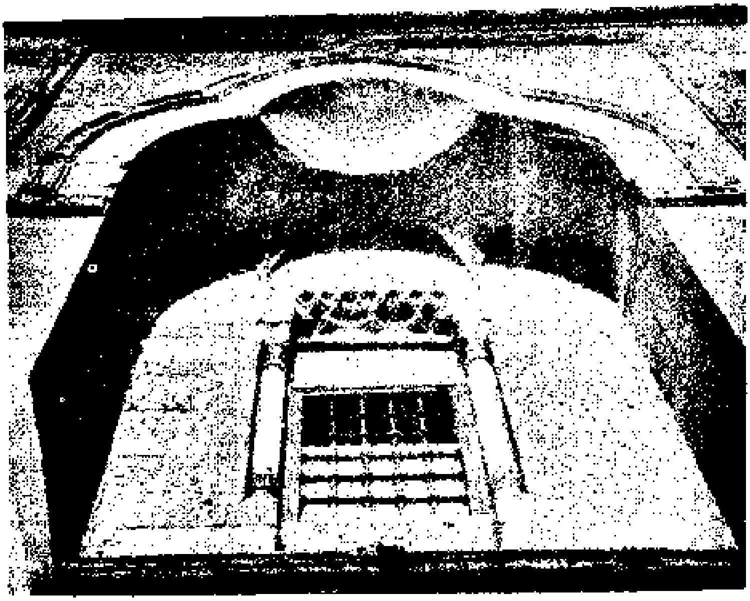
لوحة (١٧٢) مدرسة قانى باى الرماح بميدان القلعة رسمت سنة ١٨٤٨م ، وقد احتشدت أمامها الناس مما يدل على أن الصفقات التجارية كانت تعقد أمامها .



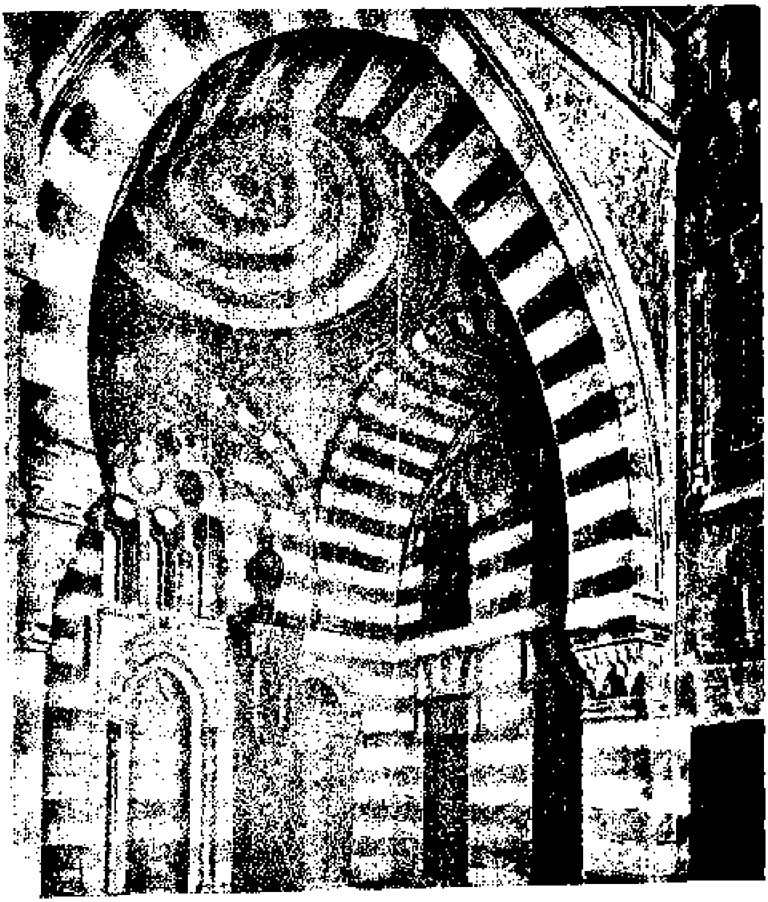
لوحة (٢٧٢) ميدان الرميلة (القلعة حاليا) في سنة ١٨٨٨ [illegible]



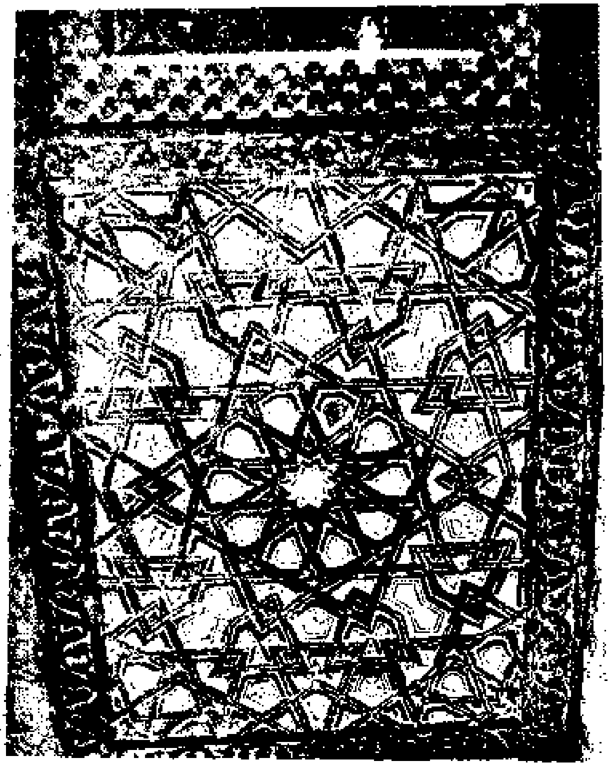
لوحة (١٧٤) الواجهة الرئيسية لمدرسة قاني باي الرماح بالقلعة وأمامها المطلع الحجري



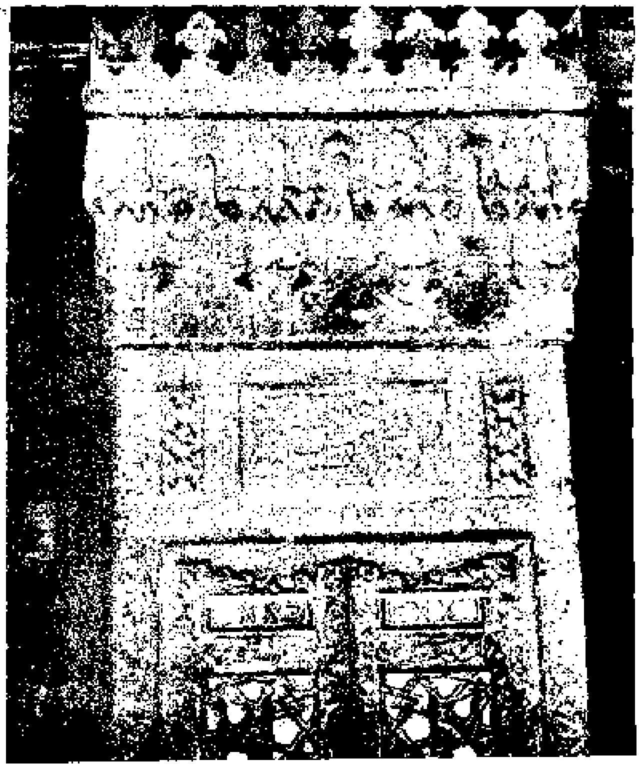
لوحة (١٧٥) عقد المدخل الرئيسى لمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة



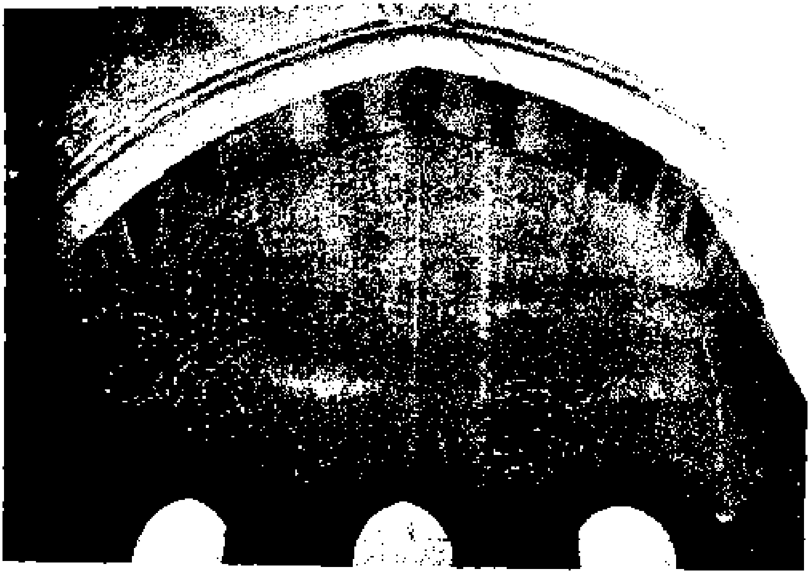
لوحة (١٧٦) إيوان القبلة بمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة تغطيه قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية فى الأركان .

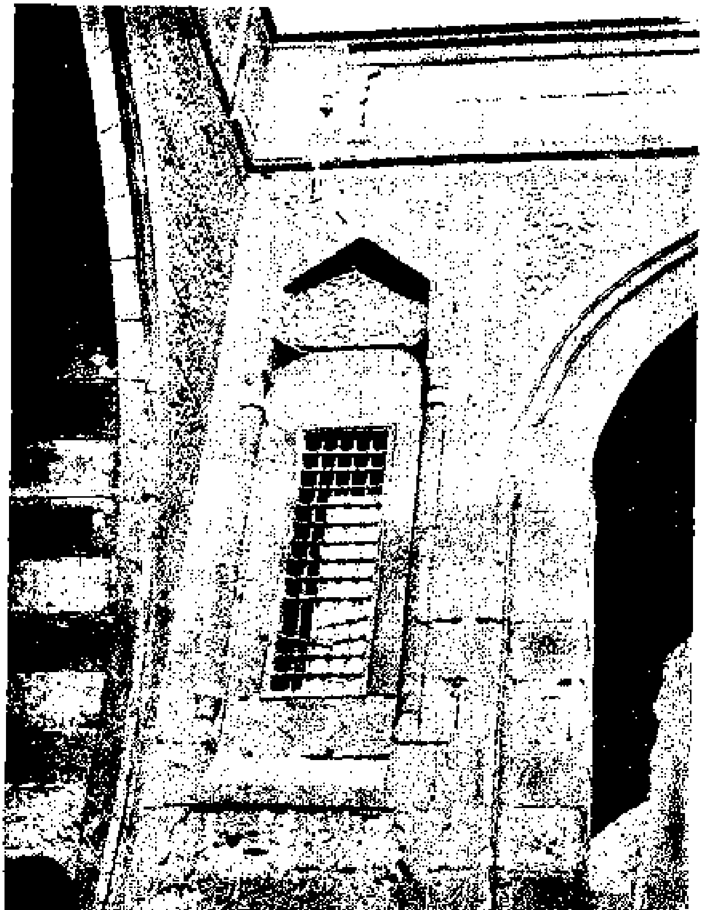


لوحة (١٧٧) جزء من جانب المنبر (ريشته) بمدرسة قاني باي الرماح بالقلعة . وهو مكون من حشوات مجمعة ومطعم بالعاج والصدف



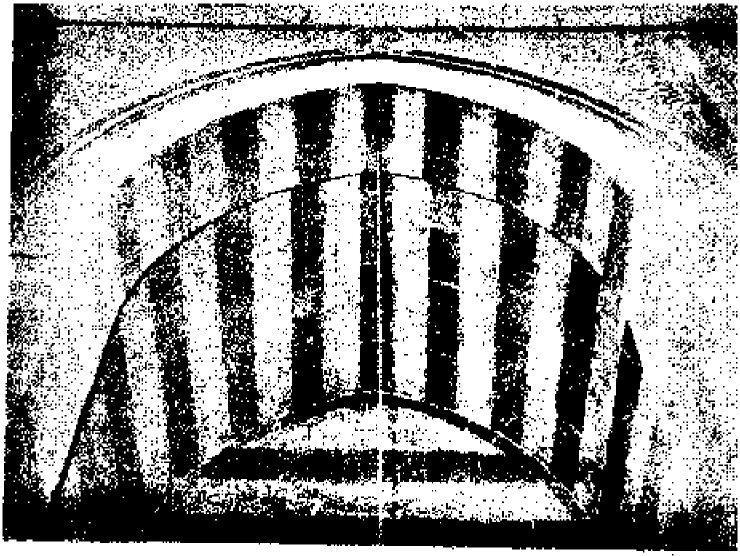
لوحة (١٧٨) باب منبر بمدرسة قاني باي الرماح بالقلعة



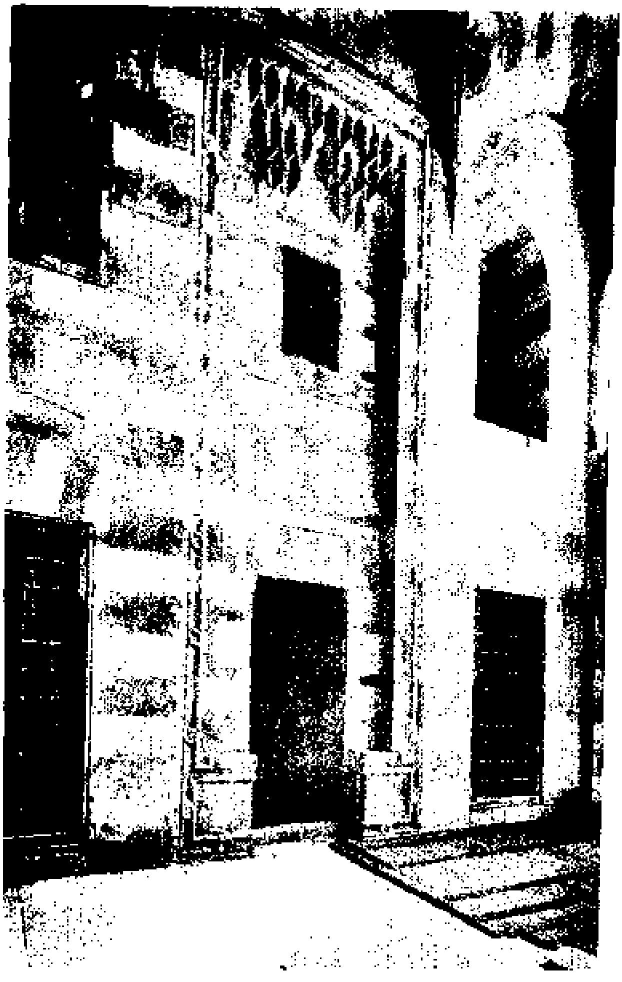


لوحة (١٧٩) عقد الإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة بمدرسة قانى باى الرماح ، كما يظهر سقف الإيوان المكون من قبوين متقاطعين

لوحة (١٨٠) جزء من صحن مدرسة قانى باى الرماح بالقلعة وقد ظهرت به عقود الإيوانات التي تطل عليه كما ظهرت أحد الدوائر الأربعة الموجودة بأركان الصحن يعلوها عقد ذو مكسر عليه بزخارف نباتية .



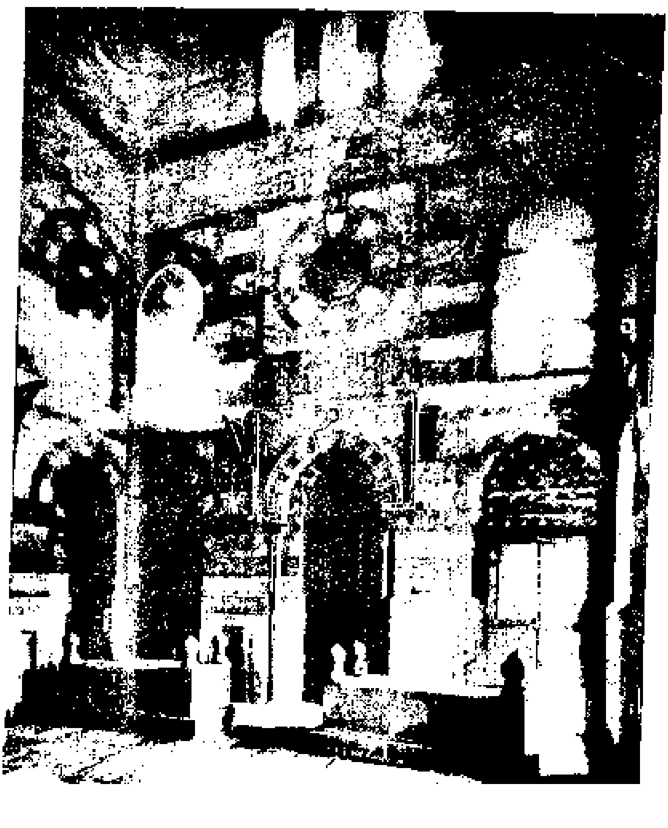
لوحة (١٨١) الإيوان الجنوبى بمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة يغطيه قبو مدبب



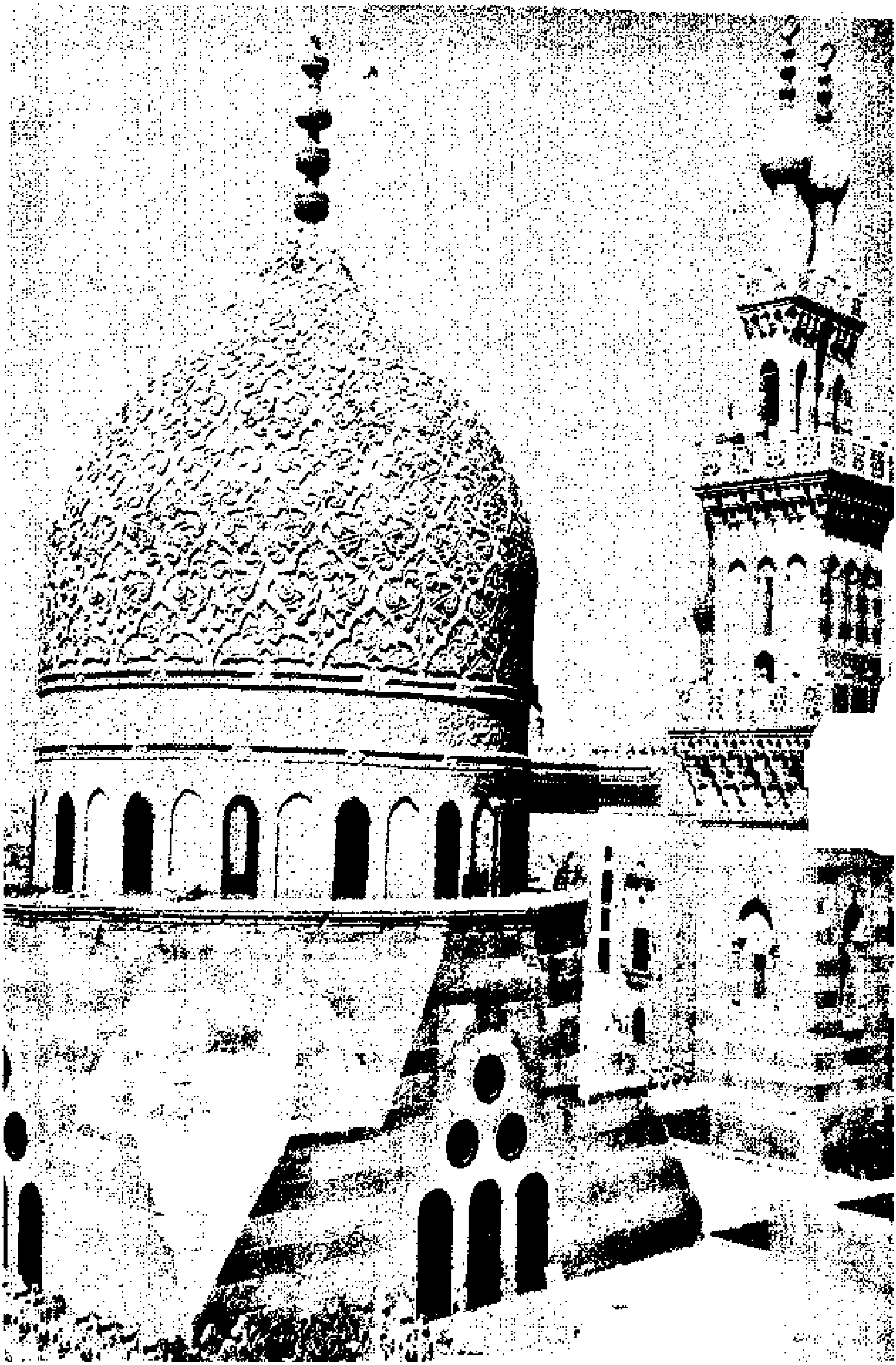
لوحة (١٨٢) المجيرة التى تتقدم القبة وبها الباب المؤدى إلى الضريح بمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة



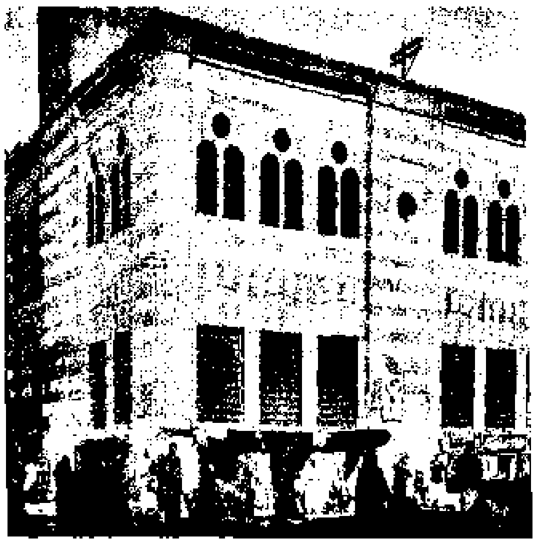
لوحة (١٨٣) أحد أركان منطقة الانتقال التى تقوم عليها قبة الضريح بمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة



لوحة (١٨٤) داخل ضريح مدرسة قانى باى الرماح وقد ظهرت به التركيبات الرخامية وكذا المحراب

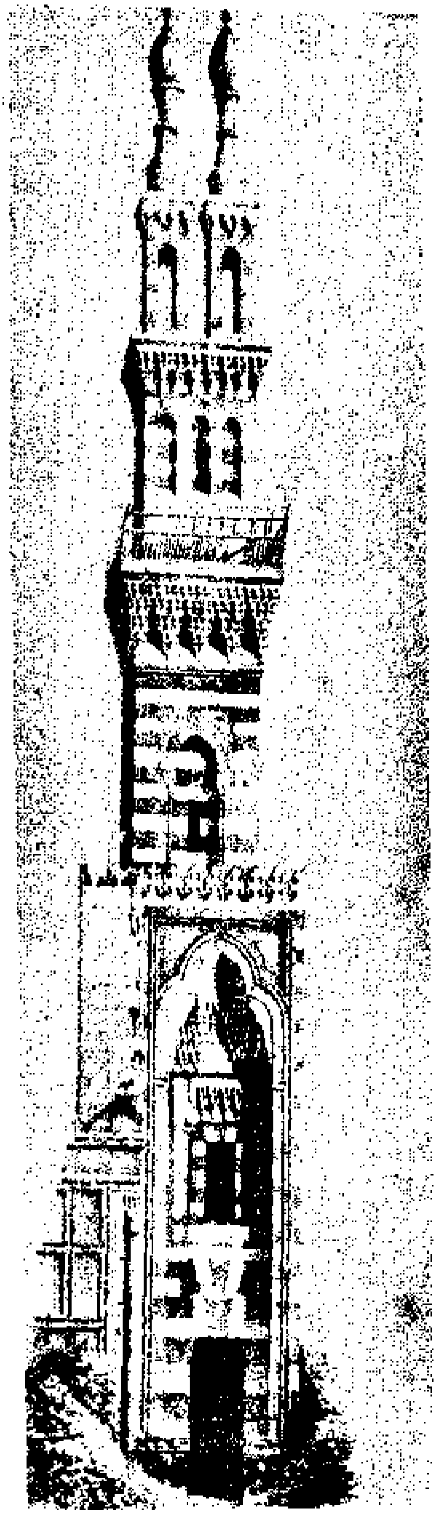


لوحة (١٨٥) قبة مدرسة قانى باى الرماح بالقلعة وقد بدت بجانبها المئذنة التي جددتها لجنة حفظ الآثار العربية سنة ١٩٣٩ على غرار المئذنة القديمة



لوحة (١٨٦) مدرسة قانى باى الرماح بحى الناصرية

لوحة (١٨٧) المدخل الرئيسى لمدرسة قانى باى الرماح بالناصرية تعلوه المئذنة رسم بريس دفين





لوحة (١٨٨) باب المدخل الرئيسي لمدرسة قاني باي الرماح بالناصرية الذي يقع في الضلع الجنوبي للمدرسة ويصعد إليه بواسطة أربع درجات



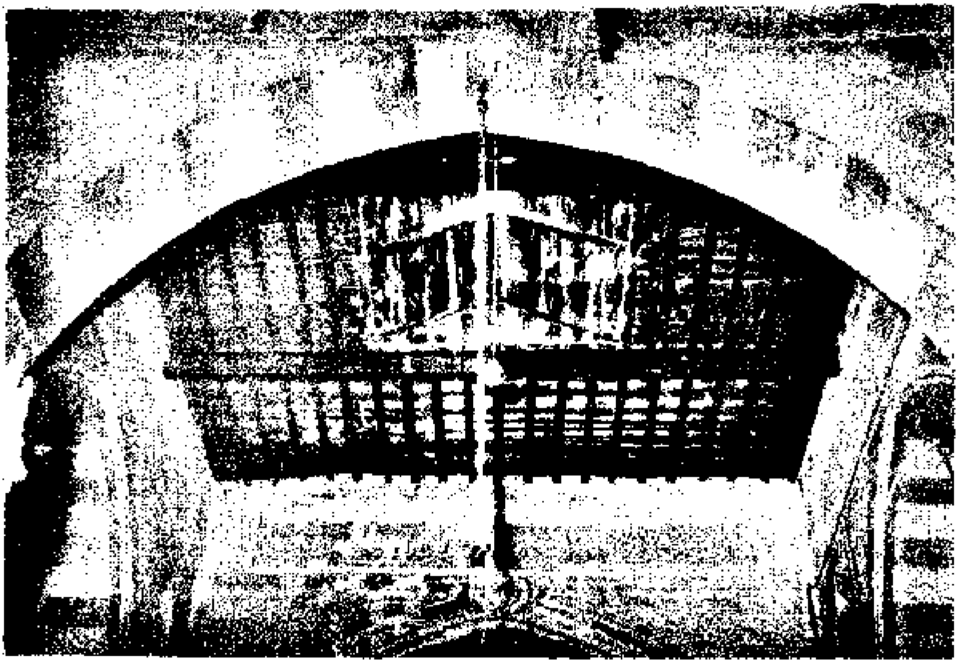
لوحة (١٨٩) العقد الذي يعلو المدخل الرئيسي لمدرسة قاني باي بالناصرية



← لوحة (١٩٠) باب المدخل الثانى لمدرسة قانى باى بالناصرية الذى يقع فى الضلع الشمالى للمدرسة



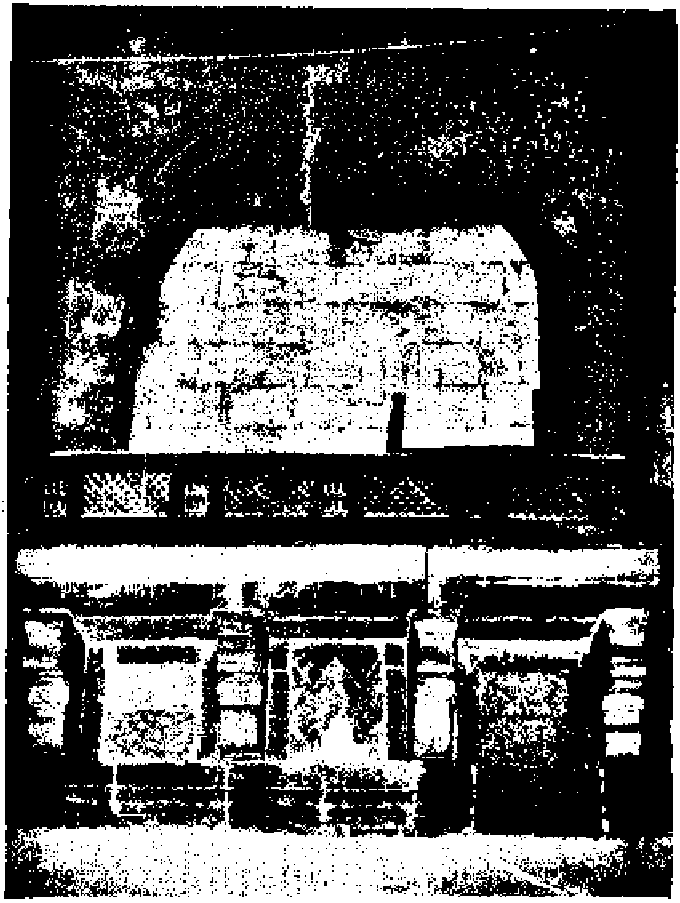
لوحة (١٩١) صحن مدرسة قاني باي بالناصرية تحيط به الإيوانات ، كما يظهر الإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة وقد تصدرته دكة المبلغ



لوحة (١٩٢) السقف الخشبي الذي يغطي صحن مدرسة تاني باي بالناصرية تتوسطه فتحة (شخشيخة)

لوحة (١٩٣) واجهة إيوان القبلة بمدرسة تاني باي بالناصرية يتقدمها عقد مدبب



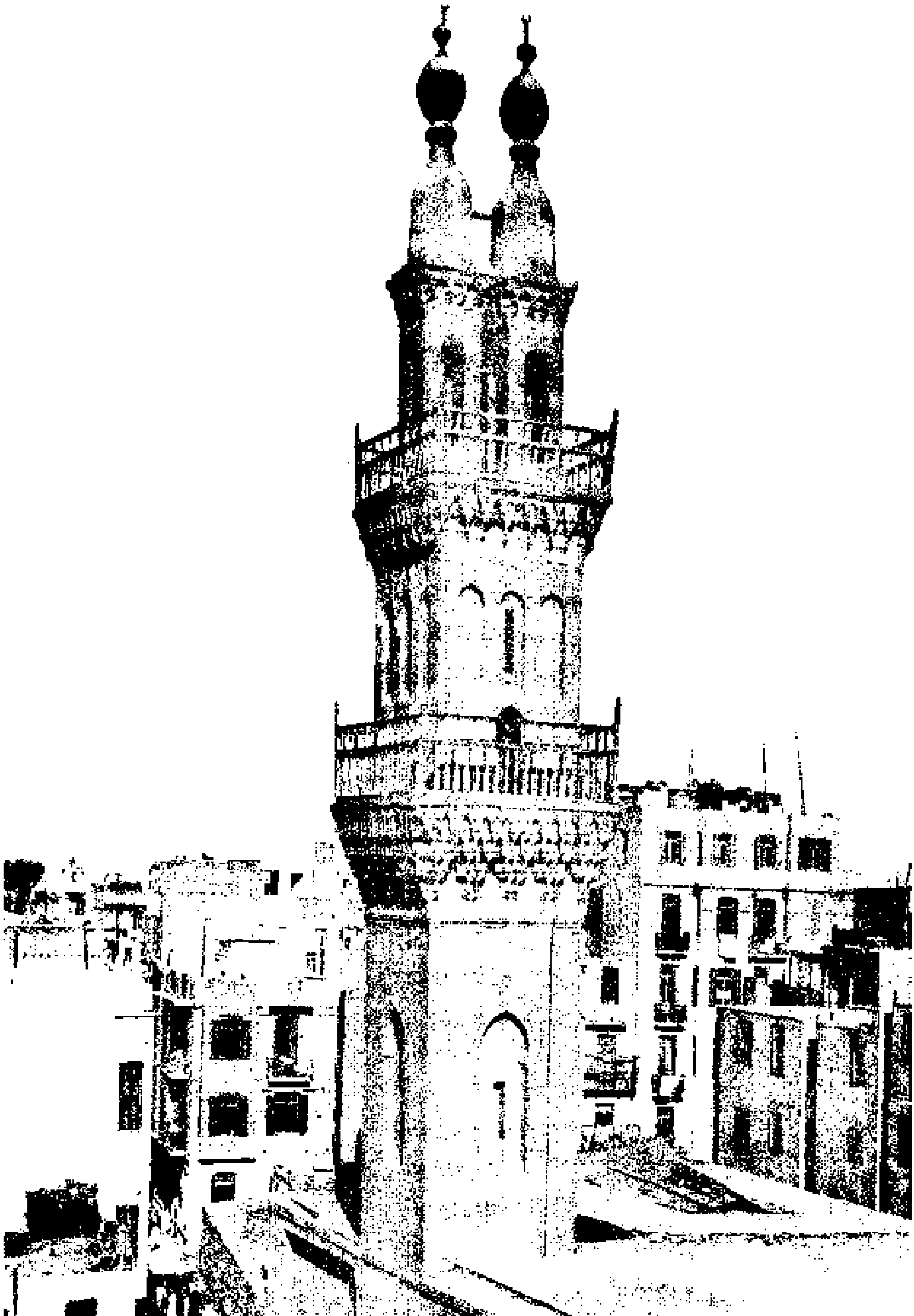


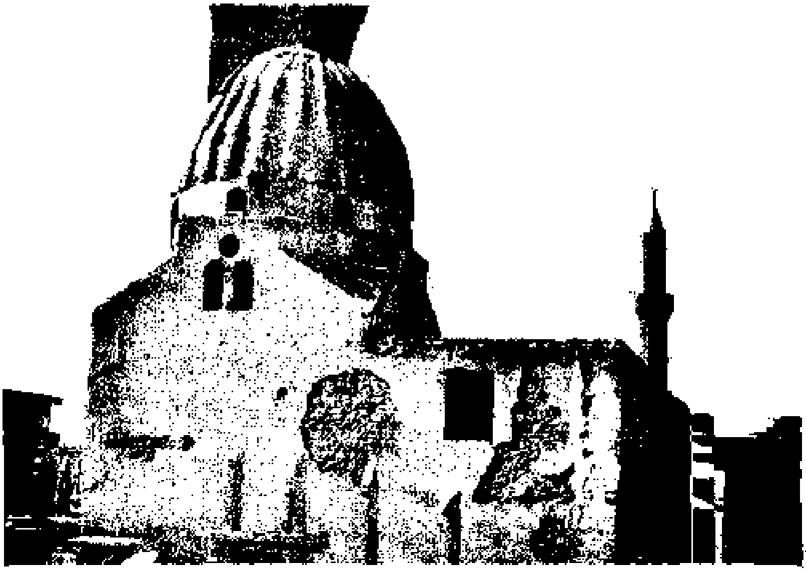
لوحة (١٩٤) للتاصيلة كالملبخ الموجودة بالإيوان الغربي المقابل لإيوان القبلة



لوحة (١٩٥) واجهة الإيوان الجنوبي (سدلة) يعلوها شريط كتابي به تاريخ تأسيس مدرسة قاني باي بالناصرية

لوحة (١٩٦) مئذنة مدرسة قاني باي بحي الناصرية تعلو جدار إيوان القبلة المطل على شارع الناصرية





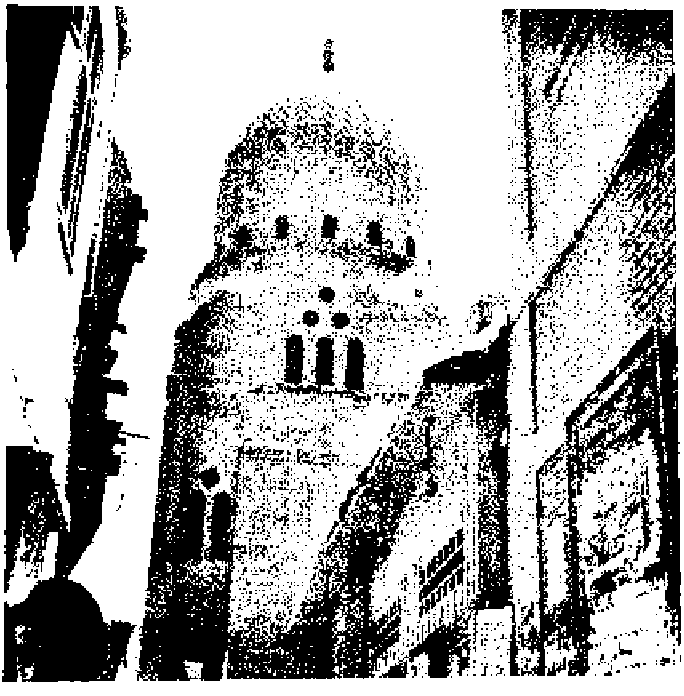
لوحة (١٩٧) قبة جلال الدين السيوطي بقرافة سيدي جلال



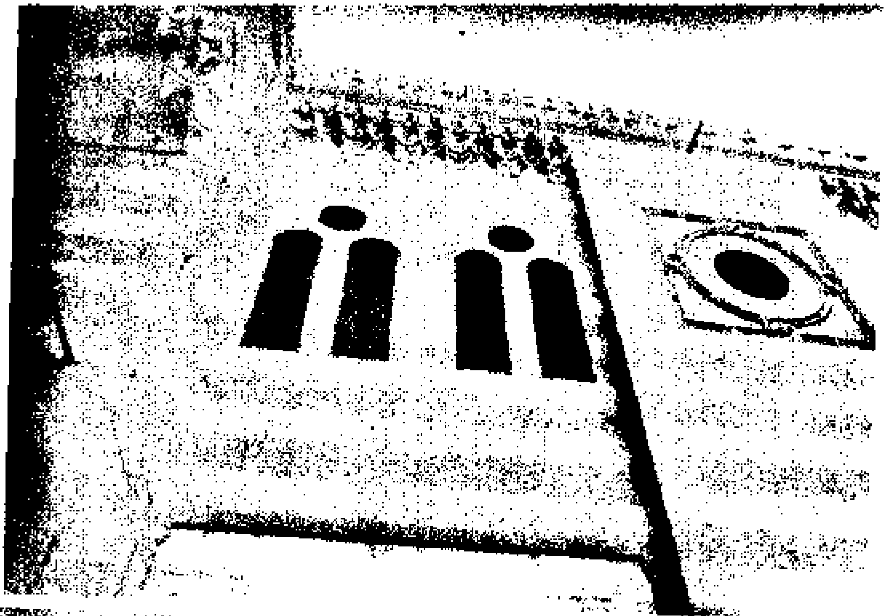
لوحة (١٩٨) المدخل الرئيسي لقبة جلال الدين السيوطي



(لوحة (١٩٩) مدرسة بيبرس الخياط بطرقية بحي الأزهر)



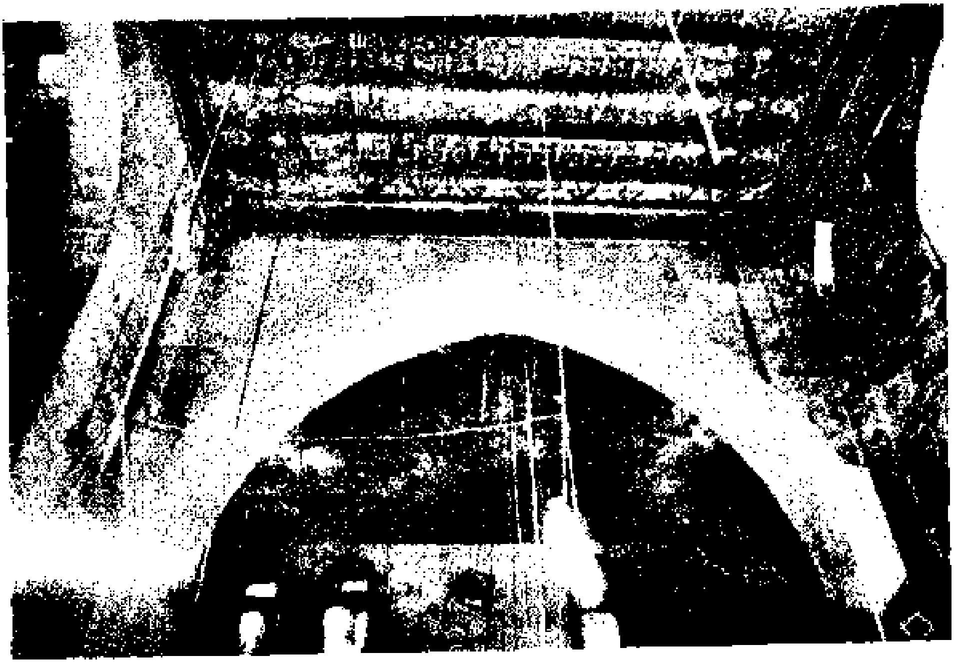
(لوحة (٢٠٠) قبة مدرسة بيبرس الخياط)



لوحة (٢٠١) الشرفات التي تعلو الواجهة الرئيسية لمدرسة يونس الخياط التي تشغل الضلع الشرقي للمدرسة كما يظهر الجزء المتوسط الذي يفصله الجزء الأعلى من الحنية، التي تشغلها نافذتان تسيليتان

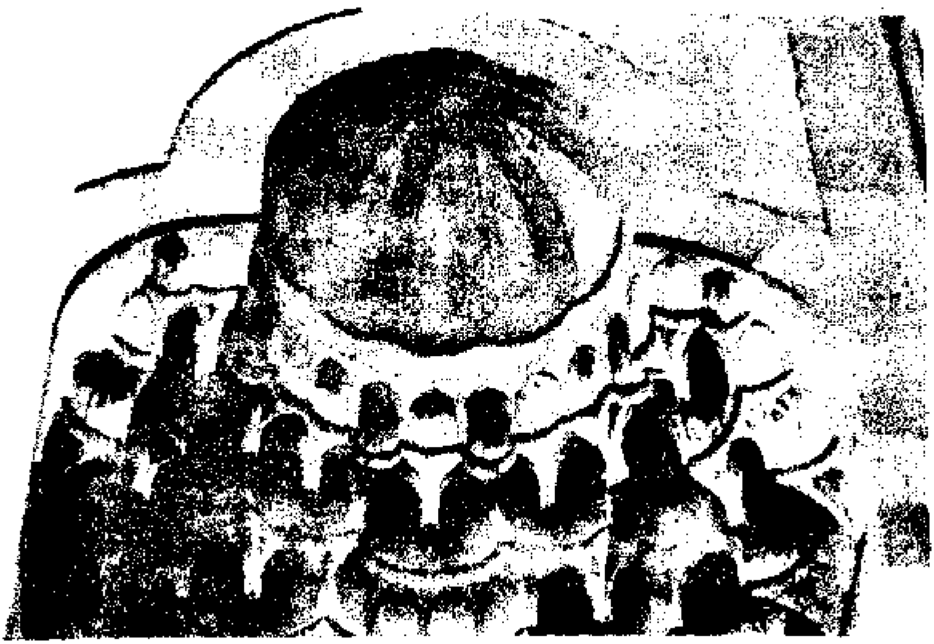


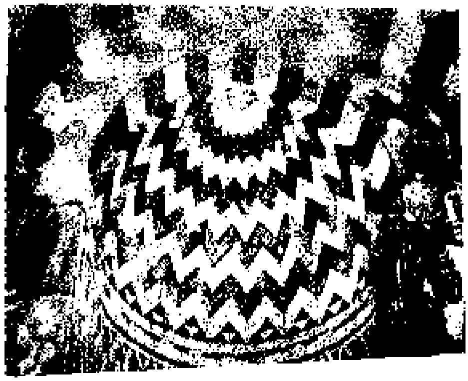
لوحة (٢٠٢) باب المدخل الرئيسي لمدرسة يونس الخياط



▲ لوحة (٢٠٣) طاقية حنية المدخل الرئيسي لمدرسة بيبرس الخياط

▼ لوحة (٢٠٤) صحن مدرسة بيبرس الخياط وقد ظهر به عقد إيوان القبلة





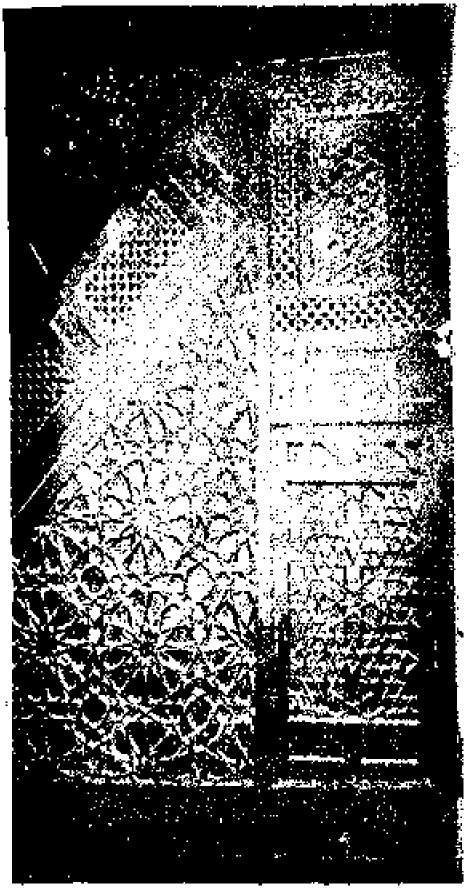
لوحة (٢٠٥) محراب إيوان القبلة
بمدرسة بيبرس الخياط



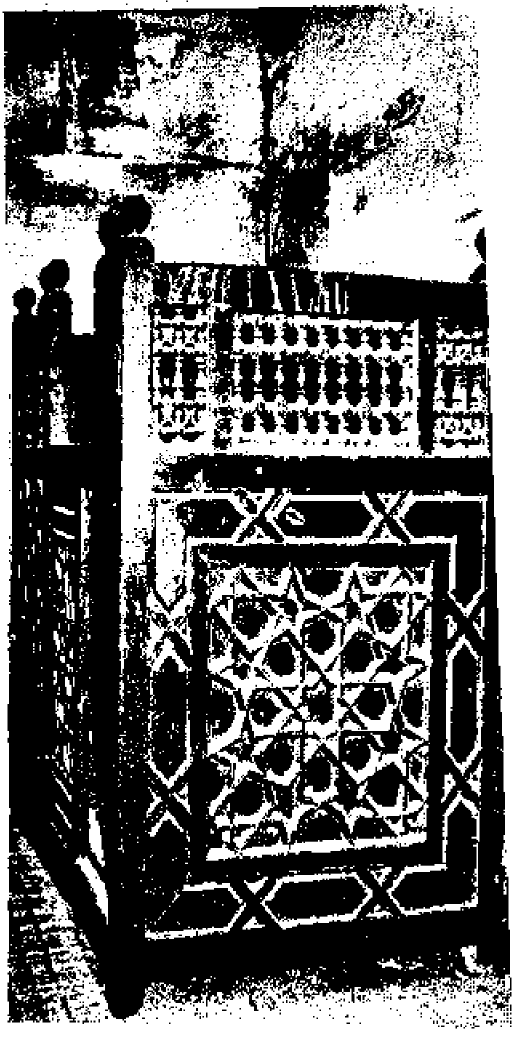
لوحة (٢٠٧) منبر مدرسة بيبرس الخياط



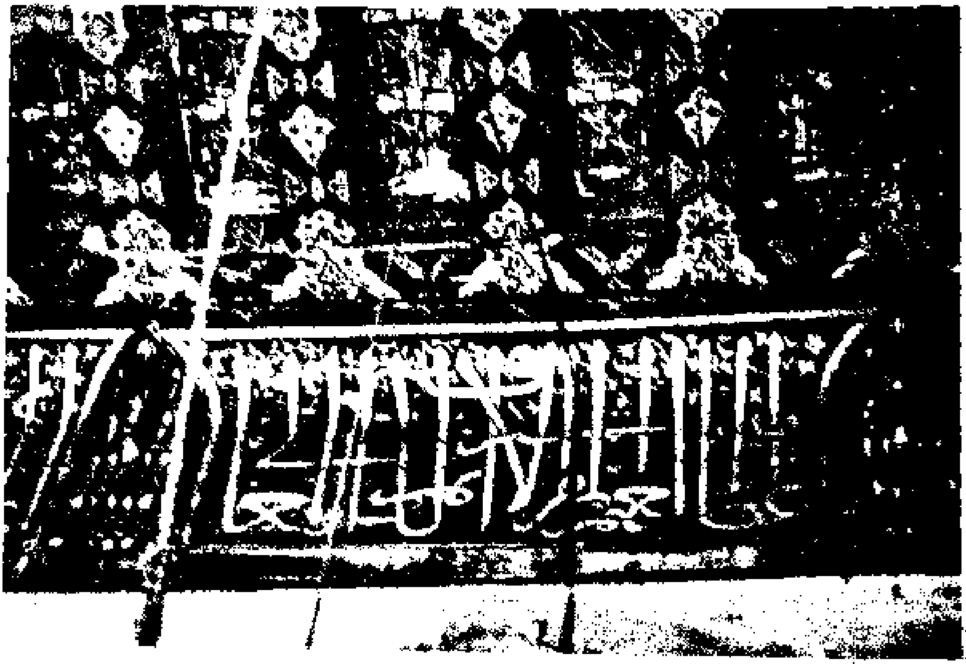
لوحة (٢٠٦) النافذة المستديرة (قمرية)
التي تعلو حائط القبلة. كما تظهر من الخارج



لوحة (٢٠٨) تفاصيل جانب (ريشة)
منبر مدرسة يونس النياط



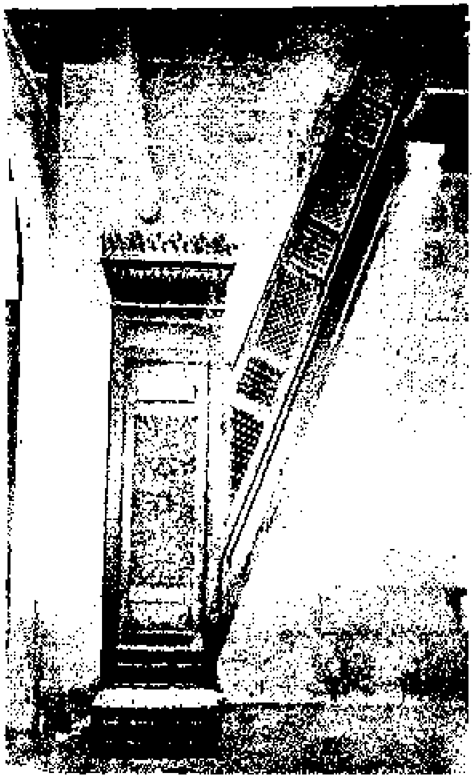
لوحة (٢٠٩) كرسي المصحف بمدرسة
يونس النياط



لوحة (٢١٠) السقف الخشبي لإيوان القبلة بمدرسة بيبرس الخياط

لوحة (٢١١) الازار الخشبي الذي يحيط بسقف إيوان القبلة الذي نقش عليه بالخط الثلث كتابات قرآنية





لوحة (٢١٢) دكة المبلغ بالإيوان الغربي
بمدرسة بيبرس الخياط



لوحة (٢١٣) الإيوان الشمالي (السدلة)
بمدرسة بيبرس الخياط



لوحة (٢١٤) الإيوان الجنوبي (القبلة)
بمدرسة بيبرس الخياط



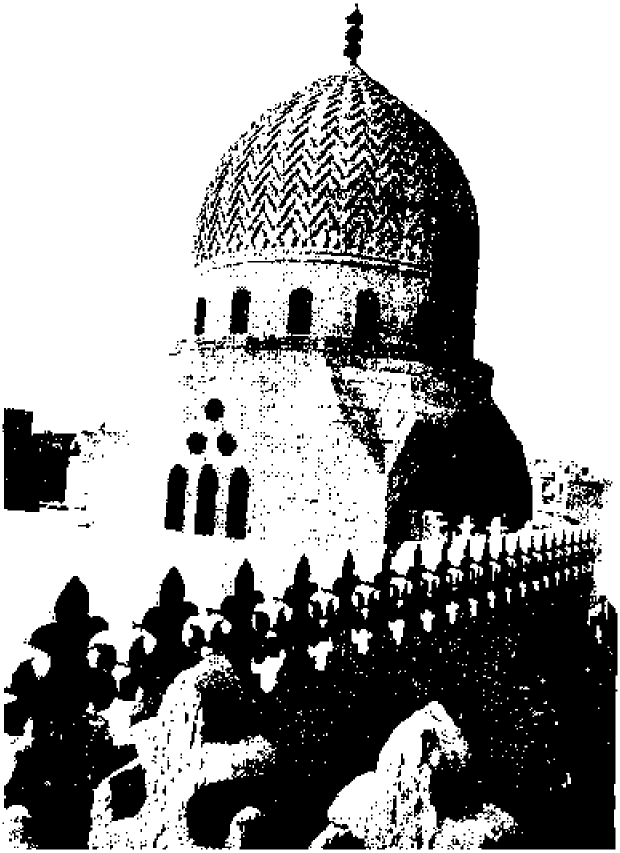
لوحة (٢١٥) الباب الذي يفتح في الصحن
ويؤدي إلى القبة بمدرسة بيبرس الخياط



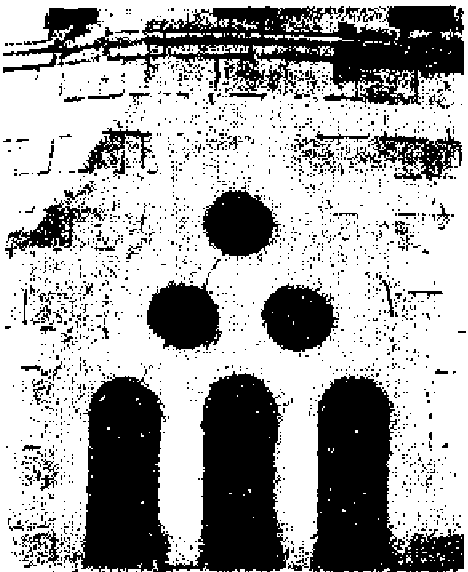
لوحة (٢١٦) العقد المنكسر الذي يحيط بالأبواب التي تفتح في صحن مدرسة بيرس الخياط



لوحة (٢١٧) منطقة الانتقال بداخل قبة مدرسة بيرس الخياط



لوحة (٢١٨) قبة مدرسة بيبرس الخياط
من الخارج



لوحة (٢١٩) النوافذ القندلية بمنطقة
الانتقال بقبة مدرسة بيبرس الخياط

الفهارس

فهرس الأشكال

فهـرس اللوحـــات

« جـدد هذا الحوض المبـارك فى عصر الخديوى الأفخم عبـاس حلمى الثانى »

لوحة ١٦ ـ تبين القاعدة والطابق الأول لمئذنة مدرسة اسنبغا

لوحة ١٧ ـ تبين الطابق الثانى والثالث لمدرسة اسنبغا

لوحة ١٨ ـ تبين جزءا من الواجهـة الرئيسية تعلوه المئذنة بجامع اسماعيل ابن مازن الهوارى المعروف بجامع المتولى بمدينة جرجا

لوحة ١٩ ـ تبين الواجهـة الرئيسـية لمدرسـة السـلطان برقوق بشـارع المعز لدين الله

لوحة ٢٠ ـ تبين قطـاع رأسى لمدرسة السلطان برقوق بشارع المعز لدين الله

لوحة ٢١ ـ تبين قبة ومئذنة مسجد الروبى بمدينة الفيوم

لوحة ٢٢ ـ تبين اللوحة التأسيسية بمسجد الشيخ على الروبى قد كتب عليهـا النص الآتى :

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم الا إن أولياء الله لا خوف عليهم

٢ ـ ولاهم يحزنون هذا ضريح الشيخ العـابد الزاهد الشـيخ على الروبى

٣ ـ انتقل الى رحمة الله فى السادس والعشرين من ذى الحجـة سنة ثلاثة وتسعين وسبعمائة.

لوحة ٢٣ ـ تبين جامع سيدى ابراهيم المتولى

لوحة ٢٤ ـ تبين المدرسة والخانقاه البرقوقية بقرافة المماليك بالعباسية

لوحة ٢٥ ـ تبين مدرسة وخانقاه فرج بن برقوق من القرن الخامس عشر الميلادى

لوحة ٢٦ ـ تبين الواجهة الرئيسية لمدرسة وخانقاه برقوق بصحراء العباسية

لوحة ٢٧ ـ تبين المدخل الرئيسى لجامع السادات الوفائية

لوحة ٢٨ ـ تبين احـدى الـدائرتين اللتين تكتنفان المدخـل الرئيسى لجـامع السادات الوفائية

لوحة ٢٩ ـ جامع السادات الوفائية من الداخل

لوحة ٣٠ ـ المقصورة التى تتوسط جامع السادات الوفائية

لوحة ٣١ ـ حائط القبلة بجامع السادات الوفائية يتوسطه المحراب

لوحة ٣٢ ـ مشربية من الخشب الخرط تطل من القصر على داخل جامع السادات الوفائيـة

لوحة ٣٣ ـ الفسيفساء الرخامية (الخـردة) التى تغشى جـدران جـامع السادات الوفائية

لوحة ٣٤ ـ الوزرة التى تحيط بأعلى جدران الجامع ويحتوى على بحور من الكتابة الدعائية وشعر المراثى بمسجد السادات الوفائية

لوحة ٣٥ ـ السقف الخشـبى المزخرف برسـوم زيتية قوامهـا نقوش زيتية بجامع السادات الوفائية

لوحة ٣٦ ـ مجموعة من الشماعيد والكشاكيل التى تزخر بهـا مخـازن جامع السـادات الوفائية

لوحة ٣٧ ـ جامع المؤيد من الداخل

لوحة ٣٨ ـ المدرسة الاشرفية بشارع المعز لدين الله
لوحة ٣٩ ـ المدخل الرئيسي للمدرسة الاشرفية
لوحة ٤٠ ـ حنية المدخل الرئيسي المدرسة الاشرفية يتوجها طاقية مفصصة بديعة التكوين
لوحة ٤١ ـ باب المدرسة الاشرفية المصفح بالنحاس بشارع المعز
لوحة ٤٢ ـ الايوان الشرقي للمدرسة الاشرفية
لوحة ٤٣ ـ تفاصيل ايوان القبلة للمدرسة الاشرفية
لوحة ٤٤ ـ محراب المدرسة الاشرفية
لوحة ٤٥ ـ تبين منبر المدرسة الاشرفية
لوحة ٤٦ ـ تبين الايوان الجنوبي للمدرسة الاشرفية
لوحة ٤٧ ـ تركيبتان من الرخام بالضريح الملحق بالمدرسة الاشرفية
لوحة ٤٨ ـ الواجهة الرئيسية لمدرسة جوهر اللالا
لوحة ٤٩ ـ المدخل الرئيسي لمدرسة جوهر اللالا
لوحة ٥٠ ـ ايوان القبلة بمدرسة جوهر اللالا
لوحة ٥١ ـ محراب مسجد جوهر اللالا
لوحة ٥٢ ـ باب منبر مسجد جوهر اللالا
لوحة ٥٣ ـ السقف الخشبي لايوان القبلة بمدرسة جوهر اللالا
لوحة ٥٤ ـ الايوان الغربي المقابل لايوان القبلة بمدرسة جوهر اللالا يتصدره دكة المبلغ
لوحة ٥٥ ـ الحنية التي تتصدر الايوان الغربي بمدرسة جوهر اللالا
لوحة ٥٦ ـ السقف الخشبي للايوان الغربي بمدرسة جوهر اللالا
لوحة ٥٧ ـ الايوان الجنوبي (السدلة) بمدرسة جوهر اللالا
لوحة ٥٨ ـ تفصيل لزخارف سقف صحن مدرسة جوهر اللالا
لوحة ٥٩ ـ تبين الساتر الخشبي الذي يتقدم المزملة بمدرسة جوهر اللالا
لوحة ٦٠ ـ مئذنة مدرسة جوهر اللالا
لوحة ٦١ ـ الواجهة الشرقية الرئيسية لجامع برسباي بالخانكة
لوحة ٦٢ ـ المدخل الرئيسي لجامع برسباي بالخانكة
لوحة ٦٣ ـ تبين جانبا من النص الانشائي على جانبي المدخل الرئيسي لجامع برسباي بالخانكة
لوحة ٦٤ ـ الرنك الكتابي للاشرف برسباي بصدر حنية المدخل بالواجهةالشرقية
لوحة ٦٥ ـ الواجهة الجنوبية لجامع برسباي
لوحة ٦٦ ـ رواق القبلة بجامع برسباي
لوحة ٦٧ ـ حنية القبلة بجامع برسباي
لوحة ٦٨ ـ دكة المبلغ الخشبية برواق القبلة بجامع برسباي
لوحة ٦٩ ـ محراب جامع برسباي
لوحة ٧٠ ـ منبر جامع برسباي
لوحة ٧١ ـ السقف الخشبي لرواق القبلة بجامع برسباي
لوحة ٧٢ ـ الواجهة الشمالية لكتلة المدخل بجامع برسباي

لوحة ٧٣ ــ مئذنة جامع برسباى
لوحة ٧٤ ــ الواجهة الرئيسية لمدرسة قراجا الحسنى
لوحة ٧٥ ــ الركن الشمالى الغربى لمدرسة قراجا الحسنى
لوحة ٧٦ ــ الكتابة التى تعلو المدخل الرئيسى لمدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٧٧ ــ أيوان القبلة بمدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٧٨ ــ محراب مدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٧٩ ــ منبر مدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٨٠ ــ تفاصيل منبر قراحجا الحسنى
لوحة ٨١ ــ الصحن والايوان الغربى لمدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٨٢ ــ سقف الايوان الغربى لمدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٨٣ ــ سقف وكرادى الايوان الغربى لمدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٨٤ ــ الايوان (السدلة) الجنوبى لمدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٨٥ ــ باب سرى يؤدى الى بيت أمام مدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٨٦ ــ مئذنة مدرسة قراحجا الحسنى
لوحة ٨٧ ــ محراب نصر الدين بمدينة فوة بمحافظة كفر الشيخ
لوحة ٨٨(أ)ــ نص كتابى بمسجد نصر الدين بمدينة فوة يشمل تاريخ تجديد الجامع
لوحة ٨٨(ب)ــ مرسوم سلطانى داخل جامع نصر الدين بمدينة فوة
لوحة ٨٩ ــ المدخل الرئيسى بجامع العينى خلف الازهر
لوحة ٩٠ ــ الواجهة الشمالية لجامع العينى
لوحة ٩١ ــ مدخل مسجد تنم رصاص بالسيدة زينب
لوحة ٩٢ ــ الجزء العلوى من مدخل مسجد تنم رصاص
لوحة ٩٣ ــ الواجهة الشمالية من مدخل مسجد تنم رصاص
لوحة ٩٤ ــ الجزء العلوى للواجهة الشمالية
لوحة ٩٥ ــ أروقة مسجد تنم رصاص
لوحة ٩٦ ــ دكة المبلغ داخل مسجد تنم رصاص
لوحة ٩٧ ــ جزء من محراب مسجد تنم رصاص
لوحة ٩٨ ــ القاعدة والطابق الأول من مئذنة تنم رصاص
لوحة ٩٩ ــ الطابق الثانى والثالث لمئذنة تنم رصاص
لوحة ١٠٠ ــ المدخل الرئيسى لمدرسة تغرى بردى بالقاصيص
لوحة ١٠١ ــ ايوان القبلة بمدرسة تغرى بردى
لوحة ١٠٢ ــ مدرسة قايتباى بترافة المماليك بالعباسية
لوحة ١٠٣ ــ صحن مدرسة قايتباى والايوان الجنوبى (السدلة)
لوحة ١٠٤ ــ منظر عام لقبة يشبك ومسجده بكبرى القبة
لوحة ١٠٥ ــ منظر لقبة يشبك قبل اصلاح (١٩٦٧) م
لوحة ١٠٦ ــ المدخل الرئيسى لقبة يشبك
لوحة ١٠٧ ــ منظر للقبة من الداخل ويظهر بها شريط الكتابة الذى يحيط برقبة القبة والمحتوى على تاريخ تاسيسها وهو ٨٨١ هـ
لوحة ١٠٨ ــ نقوش باطن قبة يشبك بعد تجديدها ١٣١٤ هـ

لوحة ١٠٩ ــ اركان منطقة الانتقال التى تقوم عليها قبة يشبك
لوحة ١١٠ ــ الباب الداخلى لقبة يشبك من الداخل
لوحة ١١١ ــ محراب قبة يشبك المغشى بالفسيفساء الرخامية
لوحة ١١٢ ــ طاقية محراب قبة يشبك
لوحة ١١٣ ــ بلاطة من الرخام بجلسة النافذة الشمالية الغربية بالقبة
لوحة ١١٤ ــ الباب الذى يصل قبة يشبك بمسجده
لوحة ١١٥ ــ اللوحة التاسيسية للمسجد الذى أقامه الأمير فاضل الملاصق لقبة يشبك ١٢٨٧ هـ
لوحة ١١٦(أ) ــ رنك الأمير يشبك من مهدى منقوشا على طبق من المعدن (مجموعة Baudry) القاهرة ١٨٨٠ م
لوحة ١١٦(ب) ــ رنك يشبك مرسوما على جانبى قصره بالقاهرة
لوحة ١١٦(جـ) رنك يشبك وقد ظهرت على شارة سراويل الفتوة
لوحة ١١٧ ــ تبين بعض القاب الأمير يشبك من مهدى منقوشا على جانبى مدخل قصره (قصر قوصون أو حوش بردق) ونصها : السيفى يشبك من مهدى امير دوادار كبير وباش العساكر المنصورة ومدبر الممالك الاسلامية
لوحة ١١٨ ــ الواجهة الرئيسية فى الضلع الجنوبى الغربى لمدرسة جنبلاط
لوحة ١١٩ ــ الواجهة الرئيسية لمدرسة جنبلاط يعلوها الشرفات
لوحة ١٢٠ ــ العقد والنافذة التى تعلو المدخل الجديد بمدرسة جنبلاط
لوحة ١٢١ ــ المدخل الجديد لمدرسة جنبلاط
لوحة ١٢٢ ــ الواجهة القديمة لمدرسة جنبلاط
لوحة ١٢٣ ــ العقد الذى يعلو المدخل القديم لمدرسة جنبلاط
لوحة ١٢٤ ــ الحنية التى تقع بين المدخل الجديد والسبيل لمدرسة جنبلاط
لوحة ١٢٥ ــ المحراب المجوف بصدر ايوان القبلة بمدرسة جنبلاط
لوحة ١٢٦ ــ البلاط الخزفية التى تغشى اعلى المحراب بمدرسة جنبلاط
لوحة ١٢٧ ــ المنبر الخشبى الذى يرجع الى ١٢١٢ هـ بمدرسة جنبلاط
لوحة ١٢٨ ــ النافذة المستديرة التى تعلو المحراب المملوءة بالجص المعشق بالزجاج المتعدد الألوان وترجع الى عهد ابن قرقماس فى القرن ٩هـ
لوحة ١٢٩ ــ وزرة خشبية عريضة تعلو محراب مدرسة جنبلاط سجل عليها تاريخ التجديد باسم الامير على اغا كتخدا الجاوشية ١٢١٠ هـ
لوحة ١٣٠ ــ دكة المبلغ بالايوان الشمالى الغربى المقابل لايوان القبلة بمدرسة جنبلاط
لوحة ١٣١ ــ مدفن الشيخ محمد بن قرقماس بايوان القبلة بمدرسة جنبلاط
لوحة ١٣٢ ــ تبين المئذنة التى تعلو الواجهة الرئيسية بمدرسة جنبلاط
لوحة ١٣٣ ــ تبين الواجهة الرئيسية لمسجد تمراز بهلول بميدان السيدة زينب رضوان الله عليها
لوحة ١٣٤(أ) ــ تبين حائط القبلة يتوسطه المحراب وبجواره المنبر بمسجد تمراز بهلول

لوحة ١٣٤(ب) ــ تبين تركيبة من الرخام داخل مسجد تمراز بهلول
لوحة ١٣٥ ــ تبين باب منبر مسجد تمراز بهلول
لوحة ١٣٦ ــ تفصيل لظهر جلسة الخطيب بمنبر مسجد تمراز بهلول وقد ظهرت به تفاصيل وحدات الحشوات المجمعة المكونة للطبق النجمى
لوحة ١٣٧ ــ الواجهة الرئيسية لجامع المزهرية بشارع البغالة بحى الحسنية، يتوسطها المدخل الرئيسى الذى تعلوه المئذنة
لوحة ١٣٨ ــ تبين مدرسة ازبك اليوسفى
لوحة ١٣٩ ــ تبين الضلع الشمالى لمدرسة ازبك حيث توجد الواجهة الرئيسية
لوحة ١٤٠ ــ الطاقية التى تتوج حنية المدخل الرئيسى لمدرسة ازبك اليوسفى
لوحة ١٤١ ــ مدخل السبيل والكتاب الملحقان بمدرسة ازبك اليوسفى
لوحة ١٤٢ ــ صحن وايوان القبلة بمدرسة ازبك
لوحة ١٤٣ ــ المحراب والمنبر فى صدر ايوان القبلة بمدرسة ازبك
لوحة ١٤٤ ــ تبين نافذة قنديلية مملوءة بالحصى المعشق بالزجاج الملون بحـــائط القبلة بمدرسة أزبك
لوحة ١٤٥ ــ النافذة المستديرة (قمرية) التى تعلو المحراب وقد ملئت بالجص المعشق بالزجاج المتعدد الألوان بمدرسة ازبك
لوحة ١٤٦ ــ تبين كرسى المصحف الموجود بايوان القبلة بمدرسة ازبك
لوحة ١٤٧ ــ تبين سقف ايوان القبلة بمدرسة ازبك اليوسفى
لوحة ١٤٨ ــ حنية تعلو احد ابواب صحن مدرسةازبك يتوجها عقد منكسر مفصص
لوحة ١٤٩ ــ الايوان الغربى بمدرسة ازبك اليوسفى
لوحة ١٥٠ ــ تبين اللوحة الكتابية المنقوشة على تركيبة مدفن فرج بن تنم المؤيدى ابن زوجة ازبك اليوسفى
لوحة ١٥١ ــ قاعدة مئذنة ازبك اليوسفى
لوحة ١٥٢ ــ تفاصيل زخرفة الطابق الأول لمئذنة مدرسة أزبك
لوحة ١٥٣ ــ الطابق الثالث والثانى لمئذنة ازبك
لوحة ١٥٤ ــ جامع الشيخ شاهين الخلوتى بسفح جبل المقطم
لوحة ١٥٥ ــ القبة الملحقة بجامع الشيخ شاهين الخلوتى بالمقطم
لوحة ١٥٦ ــ مئذنة جامع الشيخ شاهين الخلوتى
لوحة ١٥٧ ــ الواجهة الرئيسية التى تشغل الضلع الشرقى لمدرسة الغورى
لوحة ١٥٨ ــ المكسلة التى تكتنف المدخل الرئيسى بمدرسة الغورى
لوحة ١٥٩ ــ صحن مدرسة الغورى
لوحة ١٦٠ ــ أحد أبواب صحن مدرسة الغورى
لوحة ١٦١ ــ واجهة ايوان القبلة من الخارج بمدرسة الغورى
لوحة ١٦٢ ــ ايوان القبلة بمدرسة الغورى
لوحة ١٦٣ ــ محراب مدرسة الغورى يتصدر ايوان القبلة
لوحة ١٦٤ ــ تفاصيل المحراب بمدرسة الغورى
لوحة ١٦٥ ــ الايوان الغربى بمدرسة الغورى تتصدره دكة المبلغ
لوحة ١٦٦ ــ الايوان الشمالى (السدله) بمدرسة الغورى

لوحة ١٦٧ ــ باب المدخل الرئيسى لمدرسة الغورى وهو من الخشب المصفح بالنحاس المزخرف برسوم قوامها الطبق النجمى
لوحة ١٦٨ ــ مئذنة مدرسة الغورى
لوحة ١٦٩ ــ الرؤوس الخمسة لمئذنة مدرسة الغورى
لوحة ١٧٠ ــ رنك كتابى للسلطان الغورى
لوحة ١٧١ ــ أحد تنانير الاضاءة بمدرسة الغورى وهو من النحاس المخرم
لوحة ١٧٢ ــ تبين مدرسة قانى باى الرماح بالقلعة ١٨٤٨ م وقد احتشد امامها الناس
لوحة ١٧٣ ــ تبين ميدان الرميلة (القلعة حاليا) فى ١٨٤٨ م وهو الذى تطل عليه مدرسة قانى باى الرماح بالقلعة عن كتاب **(Egypt and Nubia)**
لوحة ١٧٤ ــ تبين الواجهة الرئيسية لمدرسة قانى باى الرماح وامامها المطلع الحجرى
لوحة ١٧٥ ــ عقد المدخل الرئيسى لمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة
لوحة ١٧٦ ــ ايوان القبلة بمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة تغطيه قبة ضحلة تقوم على مثلثات كروية فى الاركان
لوحة ١٧٧ ــ جزء من جانب المنبر (ريشته) بمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة وهو مكون من حشوات مجمعة ومطعمة بالعاج والصدف
لوحة ١٧٨ ــ باب منبر مدرسة قانى باى الرماح بالقلعة
لوحة ١٧٩ ــ تبين عقد الايوان الغربى المقابل لايوان القبلة بمدرسة قانى باى الرماح كما يظهر سقف الايوان المكون من قبوتين متقاطعتين
لوحة ١٨٠ ــ جزء من صحن مدرسة قانى باى الرماح بالقلعة وقد ظهرت به عقود أحد الايوانين كما ظهرت احدى النوافذ الاربعة الموجودة باركان الصحن يعلوها عقد منكسر
لوحة ١٨١ ــ العقد المدبب الذى يعلو ايوان القبلة بمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة
لوحد ١٨٢ ــ الحجرة التى تتقدم القبة وبها الباب المؤدى الى الضريح بمدرسة
لوحة ١٨٣ ــ احد أركان منطقة الانتقال التى تقوم عليها قبة الضريح بمدرسة قانى باى الرماح بالقلعة
لوحة ١٨٤ ــ داخل الضريح وقد ظهرت به التركيبات الرخامية وكذا المحراب
لوحة ١٨٥ ــ قبة مدرسة قانى باى الرماح بالقلعة وقد بدت بجانبها المئذنة التى جددتها لجنة حفظ الآثار ١٩٣٩ م على غرار المئذنة القديمة
لوحة ١٨٦ ــ مدرسة قانى باى الرماح بحى الناصرية بالسيدة زينب رضوان الله عليها
لوحة ١٨٧ ــ تبين المدخل الرئيسى لمدرسة قانى باى الرماح بالناصرية عن رسم **(Prisse D'Avennes)** وقد ظهر أعلى المدخل المئذنة ذات الرأسين
لوحة ١٨٨ ــ تبين باب المدخل الرئيسى لمدرسة قانى باى الرماح بالناصرية . ويقع المدخل فى الضلع الجنوبى للمدرسة ويصعد اليه بواسطة أربع درجات
لوحة ١٨٩ ــ العقد ذو الثلاث فصوص الذى يعلو مدخل مدرسة قانى باى الرماح بالناصرية وقد ملىء بالدلايات البديعة التكوين

لوحة ١٩٠ ــ باب المدخل الثانى لمدرسة قانى باى الرماح بالناصرية الذى يقع فى الضلع الشمالى للمدرسة

لوحة ١٩١ ــ تبين صحن مدرسة قانى باى الرماح بالناصرية تحيط به الايوانات. كما يظهر الايوان الغربى المقابل لايوان القبلة وقد تصدرته دكةالمبلغ

لوحة ١٩٢ ــ تبين السقف الخشبى الذى يعلو مدرسة قانى باى الرماح بالناصرية وقد توسطته فتحة المنور (الشخشيخة)

لوحة ١٩٣ ــ تبين واجهة ايوان القبلة بمدرسة قانى باى الرماح بالناصرية

لوحة ١٩٤ ــ تبين تفاصيل دكة المبلغ الموجودة بالايوان الغربى المقابل لايوان القبلة

لوحة ١٩٥ ــ واجهة الايوان الجنوبى (السدله) وقد علاه شريط كتابى يبين تاريخ تاسيس مدرسة قانى باى الرماح بحى الناصرية

لوحة ١٩٦ ــ تبين مئذنة مدرسة قانى باى الرماح بحى الناصرية وهى تعلو جدار ايوان القبلة المطل على شارع الناصرية

لوحة ١٩٧ ــ قبة ضريح جلال الدين السيوطى بقرافة سيدى جلال بالسيدة عائشة رضوان الله عليها بالقاهرة

لوحة ١٩٨ ــ المدخل الرئيسى لضريح جلال الدين السيوطى

لوحة ١٩٩ ــ تبين المدخل الرئيسى لمدرسة بيبرس الخياط بالجوذرية بحى الازهر وقد علاه عقد ذو ثلاث فصوص مملوء بالدلايات البديعة التكوين

لوحة ٢٠٠ ــ تبين القبة التى تعلو ضريح ببيرس الخياط بمدرسته بالجوذرية

لوحة ٢٠١ ــ الجزء الأوسط من الواجهة الشرقية لمدرسة بيبرس الخياط وقد ظهر بها بروز حنية المحراب تعلوه نافذة مستديرة (قمرية) ويكتنفها من الجانبين نافذتان قنديليتان

لوحة ٢٠٢ ــ تبين باب المدخل الرئيسى لمدرسة بيبرس الخياط يعلوه عتب به شريط من الكتابة القرآنية فوقه عقد عاتق ، ويكتنفه عند منتصفه شريط من الكتابة موضح به تاريخ تأسيس المدرسة واسم المنشىء

لوحة ٢٠٣ ــ تبين طاقية حنية المدخل الرئيسى لمدرسة بيبرس الخياط وقد ملئت بالفصوص والدلايات البديعة التكوين

لوحة ٢٠٤ ــ تبين صحن مدرسة بيبرس الخياط وهو مغطى بسقف خشبى مزخرف بنقوش زيتية ملونة قوامها عناصر نباتية وهندسية متعددةالألوان . ويطل على الصحن الايوانات الاربعة بعقودها المدببة والمستديرة

لوحة ٢٠٥ ــ محراب ايوان القبلة بمدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢٠٦ ــ تفصيل للنافذة المستديرة (القمرية) التى تعلو المحراب كما تبدو من الخارج

لوحة ٢٠٧ ــ المنبر الخشبى المجاور للمحراب بايوان القبلة بمدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢٠٨ ــ تفاصيل جانب (ريشه) منبر مدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢٠٩ ــ كرسى مصحف بمدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢١٠ ــ تفاصيل السقف الخشبى المزخرف بالنقوش الزيتية البديعة بمدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢١١ ــ الازار الخشبى الذى يحيط بسقف ايوان القبلة بمدرسة بيبرس

الخياط وقد نقش عليه بالخط الثلث المملوكى اسم صاحب المدرسة والقابه وكذا آيات قرآنية

لوحة ٢١٢ ـ تبين البـاب الخشبى البديع وكذا السـلم المؤدى الى دكة المبلغ بالايوان الغربى بمدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢١٣ ـ تبين الايوان الشمالى الشرقى (السدله) بمدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢١٤ ـ تبين الايوان الجنوبى (السدله) بمدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢١٥ ـ تبين الباب الذى يفتح فى صحن مدرسة بيبرس الخيـاط ويؤدى الى القبـه

لوحة ٢١٦ ـ تبين العقد المنكسر الذى يعلو جميع الابواب التى تؤدى الى صحن مدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢١٧ ـ تبين منطقة الانتقال داخل قبة مدرسة بيبرس الخياط

لوحة ٢١٨ ـ تبين منطقة الانتقال وقبة بيبرس الخياط من الخارج

لوحة ٢١٩ ـ تبين احدى النوافذ القنديلية بمنطقة الانتقال بقبة مدرسة بيبرس الخياط بالجوذرية بحى الازهر

المصطلحات الفنيـــة

الباب المربع :

وهو الباب الذى ينتهى بعقد مستقيم ولا يعلوه عقد عاتق وقد عرف باســم باب مربع عند معلمى المعمار فى العصر المملوكى .

بـــاذا هنـــج :

باذا هنج والجمع باذا هنجات ـــ كلمة فارسية معناها منفذ للتهوية . ويوجد الباذا هنج باعلى العمائر ويشبه « الملقف » أو « الشخشيخة » .

خرستان ـــ خرستانات :

الخرستان والجمع خرستانات ـــ وهى حجرة تشبهالخلوة او الحاصل (خزانة) خالية من المنافذ غالبا . وقـــد يكون فى الخرستان (الحجـــرة) نافـــذة شـــق (طاقة) أو باذا هنج فى أعلاه .

خركة ـــ خركاة ـــ خركاوات :

خركاوات جمع خركاة ـــ والخركاة كلمة فارسية تعنى الخيمـــة الكبيرة او البيت من الخشب يغطى داخله بالجوخ ونحوه للوقاية من البرد فى الشتاء ، والمعنى المقصود هنا من كلمة الخركاة ، خشب الخرط المتحرك الذى يستعمل فى المشربية.

الخوخـــــة :

الخوخ ومفردها الخوخة ـــ وهى الفتحة او الكوة توصل الضوء الى الداخل. كما تعنى أيضا الباب الصغير ضمن بوابة كبيرة من الخشب تكون لدار او وكالة او فندق أو غير ذلك من المبانى .

كما يطلق اسم الخوخة على الابواب الصغيرة فى سور المدينة او على راس الدروب والازقة داخل المدينة ، وكذلك الابواب الصغيرة ببوابات الحصون والقلاع للاستعمال اليومى دون حاجة الى فتح البوابة الكبيرة الرئيسية الا عند الضرورة لخروج قوات المماليك او رجوعها اليها .

الـــدراريب :

دراريب ومفردها درابة ـــ وهى احدى مصراعى الباب الذى ينطبق احدهما على الآخر وكان يراد بها احيانا لفظ اغلاق . هذا ولقد وردت لفظة « الدراريب » بمعنى الحوانيت .

الـــدركاة :

دركاة ـ كلمة فارسية مكون من لفظين (در) بمعنـى الجزء المنخفض الذى يلى الباب و (كاه) بمعنى محل ، واللفظ باكمله يعنى ايضا العتبة أو الساحة التى تلى البـاب مباشرة .

الدور قاعة :

الدور قاعة ـ هى الجزء الاوسط للمندرة أو صالة الاستقبال فى المنزل القاهرى فى العصر الاسلامى ، وهى كذلك المكان الذى يقع بين ايوانين متقابلين فى قاعات البيت الاسلامى . وهى اما مسقفة وهو الغالب ، وأما سماوية بدون سقف .

كذلك يطلق لفظ « الدور قاعة » على الصحن الاوسط بالمدارس ذات التخطيط المتعامد الشكل ، الذى ينخفض أرضيته عن ارضية باقى الايوانات .

السـدلة :

السدلة ـ عبارة عن دخلة (فى الحائط) مخصصة لوضع مقعد طويل منخفض يسمى (الديوان) ، ويوجد بالمنازل الاسلامية ويستخدم للجلوس ، كذلك يطلق لفظ « السدلة » على الايوانين الجانبيين بالمساجد والمدارس ذات التخطيط المتعامد الشكل ، لصغر حجمهم عن ايوان القبلة والايوان المقابل له فى هذه العمائر .

شند ـ اشناد :

اشناد ومفردها شند ، وهى الفتحة التى توجد فى حائط المبنى نفسه ، وكانت هذه الفتحة تغطى من الخارج بشريط أو شبكة من النحاس ، وتسمى المجموعة من الاشناد تندلية أو تندلون .

القيطــون :

القيطون عبارة عن جزء من مبنى يفتح على النيـل أو خليج أو بركة (مأخذ الماء عامة) ويحتوى بداخله على ايوان صغير أو أكثر ودور قاعة بها فسقية .

الطبقـة والطبـاق :

الطبقة وجمعها طباق وتتكون من حجرة أو خزانة معـدة للنـوم ، وأحيانا حجرتين للنوم ، وتوجد بها طاقات أو منافذ للتهوية والاضاءة ، وقد تعلو الخزانة مسترقة (حجرة صغيرة علوية مسروقة) . وكانت الطبقة تتكون فى بعض الاحيان من أيوان ودور قاعة وما يتبعهما من مرافق ومنافع .

كتبيـة :

كتبية والجمع كتبيات وهى الدولاب من الخشب ، وقد تكون حنية فى حائط العمارة ، وكان مصراعا الكتبيـة عـادة من الخشب . وتكون الكتبيـات متقابلة ومتشابهة غالبا ، هذا وتستعمل الكتبية فى حفظ الكتب اصـلا ، وكذلك فى حفظ اللطائف والتحف الفنية وغيرها .

كريـــدى :

كريدى والجمع كريديات ، اصطلاح فى فن النجـارة العربية باســم كردى والجمع كرادى ، ويستخدم فى تزيين وزخرفة الايوانات بدلا من العقود او الستور، ويوجد عادة على مدخل الايوان كريديان متقابلان ، وكانت الكرادى تدهن بمختلف الالوان وتموه بالذهب . وينتهى الكردى عادة بذيل مقرنص .

المغـــانى :

وهى الممرات العلوية ذات المقاعد خلف نوع من المشربيات الخشب الخرط ، تحجب الجالس خلفها ، أو ذات حاجز خشبى ، وفى العادة تكون متقابلة وتطــل على الدور قاعة أو الصحن او الايوان الذى تعلوه ، ويتوصل اليها بسلم خشب داخلى فى بعض الاحيان . ومما يذكر أن الاغانى اخذت اسمها من جلوس المغنيات بها محجوزات عن الرجال حيث يسمع صوتهن فقط .

المرقى :

وهو الذى يتولى وظيفة الترقية للخطيب ، ولقد وردت وظيفة الترقية والمرقى فى كثير من حجج الوقف فى العصر المملوكى ، وتسمية بعضها « بالمكبر » . ويشترط فى المرقى أن يكون رجلا مباركا حسن الهيئة والسمت طرب الصوت ، يعلن الآذان بين المصلين ، ويروى الحديث المشهور فى طلب الصمت « اذا قلت لصاحبك انصت يوم الجمعة والامام يخطب فقد لغوت » .

مزمـلة :

المزملة والجمع مزملات ، وهى القدر أو الجرة من الفخار او الخابية لتبريد الماء ، وكانت تكسى او تلف او تزمل بالقماش المبلول ايضا لحفظ الماء بها دون عفن. ومنها وظيفة المزملاتى الذى يقوم على خدمة السبيل .

مسـقف سـكندريا :

مسقف سكندريا ـــ مصطلح فنى يكثر وروده فى حجج عصر المماليك ، وهو يدل على أن السقف مقسم الى مربعات أو براطيم . وهو يعنى فى مصطلح معلمى النجارة الكتل الخشبية الممتدة بين الحائطين ، وكانت تغلف فى العادة بالواح من الخشب الرقيق المزخرف برسومات وزخارف نباتية هندسية ملونة ومموه بالذهب واللازورد .

المصـــنع :

وهو الحاصل أو الحوض المعد لخزن المياه ، كما تعنى ايضا الآبار والصهاريج المعدة للحصول على المياه ، والمصانع جمع مصنع وهو ما يصنعه الناس من الابار والابنية وغيرها . كما تعنى أيضا فى القرى السانية .

فهـرس الاعـلام

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(و)

(لا)

(ى)

فهرس الأماكن والبقاع

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(م)

(ن)

(هـ)

(ى)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مدرسة قراخجا الحسنى بشارع درب الجماميز بالقاهرة . .	١٣٤ — ١٣٧
الوصف المعمارى	١٣٨ — ١٤٢
جامع نصر الدين بمدينة فوة بمحافظة كفر الشيخ	١٤٣ — ١٤٧
مدرسة وخانقاه زين الدين يحيى بشارع الأزهر	١٤٨ — ١٤٩
الوصف المعمارى	١٥٠ — ١٥٣
مسجد الشيخ مدين بشارع باب البحر المتفرع من ميدان باب الشعرية	١٥٤ — ١٥٨
وصف المسجد	١٥٩ — ١٦٠
جامع الشيخ الفرغل بأبى تيج بمحافظة أسيوط	١٦١ — ١٦٤
مسجد شيخ الاسلام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى .	١٦٥ — ١٦٩
مسجد العسقلانى	١٧٠
مسجد لاجين السيفى	١٧١ — ١٧٤
الوصف المعمارى	١٧٥ — ١٧٨
المدرسة الفخرية أو جقمق بسكة درب سعادة بحى الأزهر .	١٧٩ — ١٨٢
وصف المدرسة	١٨٣ — ١٨٤
جامع العينى بحارة الدويدارى بحى الأزهر	١٨٥ — ١٨٧
وصف الجامع	١٨٨ — ١٨٩
مدرسة السلطان اينال بقرافة المماليك بالعباسية	١٩٠ — ١٩٥
الوصف المعمارى	١٩٦ — ٢٠٢
مسجد تنم الرصاص المعروف باسم مسجد تميم الرصافة بحى السيدة زينب	٢٠٣ — ٢٠٩
الوصف المعمارى للمسجد	٢١٠ — ٢١٢
مدرسة ابن تغرى بردى بدرب المقاصيص بحى الصاغة . .	٢١٣ — ٢١٦
الوصف المعمارى	٢١٧
مدرسة قايتباى بقرافة المماليك بالعباسية	٢١٨ — ٢٢٠
الوصف المعمارى	٢٢١ — ٢٢٢
مسجد الشيخ عواض بن محمد بن اسحق الطهلموسى بقليوب .	٢٢٣ — ٢٢٧
مسجد الشيخ محمد السمنودى المعروف بابن القطان بشارع الملك الظاهر برقوق بقرافة الغفير بالقاهرة	٢٢٨ — ٢٣٣
وصف الضريح	٢٣٤
مسجد وقبة يشبك من مهدى	٢٣٥ — ٢٤١
تاريخ مسجد القبة	٢٤٢ — ٢٤٣
الوصف المعمارى	٢٤٤ — ٢٤٦
وصف المسجد	٢٤٧ — ٢٤٨
مدرسة ابن قرقماش المعروفة باسم مدرسة (جنبلاط) بشارع اسماعيل أبو جبل المتفرع من درب الجماميز	٢٤٩ — ٢٥٢
الوصف المعمارى	٢٥٣ — ٢٥٥
جامع تمراز أو البهلول بميدان السيدة زينب رضوان الله عليها	٢٥٦ — ٢٥٩

الموضـــوع	الصفحة

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٨٠/٤٢٣١

مطابع الأهرام التجارية